

مقالات الشيخ رشيد رضا السياسية

إعداد وتحقيق

الدكتور يوسف حسين إيش الدكتور يوسف قزماخوري

الجزء الثالث



مقالات الشيخ رشيد رضا السياسية

إعداد وتحقيق

الدكتور يوسف حسين أبش الدكتور يوسف قزماخوري

الجزء الثالث



الطبعة الاولى ١٩٩٤
جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار ابن عَرَبِيٍّ

ص.ب : ٩٤٩٤ / ١١
بيروت - لبنان

المحتويات

١٢٣ - كتاب المؤتمر العربي الأول	٩٧٩
١٢٤ - مستقبل الدولة العثمانية وطلاب الإصلاح من العرب	٩٨٠
١٢٥ - الجنسيات في المملكة العثمانية	٩٨٧
١٢٦ - إلغاء الامتيازات الأجنبية والحذر من الفتن الأهلية	١٠١٩
١٢٧ - حرب المدنية الأوروبية	١٠٢٣
١٢٨ - الدولة والألمان	١٠٣٦
١٢٩ - جمال باشا السفاك	١٠٣٨
١٣٠ - آراء الخواص في المسألة العربية	١٠٤٤
١٣١ - العرب والإسلام والترك الاتحاديون	١٠٧٣
١٣٢ - الإسلام والطورانية الحديثة	١٠٧٧
١٣٣ - منشور شريف مكة وأميرها (حسين بن علي)	١٠٨١
١٣٤ - المنشور الهاشمي الشريف الثاني	١٠٨٦
١٣٥ - مبايعة شريف مكة وأميرها على ملك العرب	١٠٩٢
١٣٦ - المنشور الهاشمي الشريف الثالث	١٠٩٩
١٣٧ - المسألة العربية «مقالة للتاريخ»	١١٠٧
١٣٨ - المسألة السورية والأحزاب	١١٢٤

- ١٣٩ - الإشتراكية والبلشفية والدين ١١٣٦
- ١٤٠ - التطور السياسي والديني والاجتماعي بمصر ١١٤٢
- ١٤١ - دولة الكلام المبطللة الظالمة ١١٤٧
- ١٤٢ - الاستقلال - ماهو؟ ١١٥١
- ١٤٣ - عاقبة حرب المدنية الأوروبية ١١٥٧
- ١٤٤ - استقلال مصر وحقوق انكلترة فيها ١١٦٦
- ١٤٥ - الاتحاد والاقتصاد ١١٧٢
- ١٤٦ - دعوة عرب الجزيرة العربية إلى الوحدة والاتفاق ١١٧٦
- ١٤٧ - الحقائق الجلية في المسألة العربية: مقالة للعبارة والتاريخ .. ١١٨٦
- ١٤٨ - الطور الجديد للمسألة المصرية ١٢٣٢
- ١٤٩ - السياسة ورجال الدين في مصر ١٢٦٤
- ١٥٠ - بدء تفرق هذه الأمة وعاقبته ١٢٧٩
- ١٥١ - الجامعتان الإسلامية والشرقية ١٢٩٠
- ١٥٢ - أحوال العالم الإسلامي
- [مؤتمر الصلح بين الترك وأوروية في لوزان] ١٢٩٤
- ١٥٣ - المعاهدة البريطانية الحجازية وخذعة الوحدة العربية ١٣٠٦
- ١٥٤ - خطاب مفتوح من روح الإسلام والجامعة العربية
- إلى الشعب الانكليزي والحكومة البريطانية ١٣٣٥
- ١٥٥ - الاستفتاء في ملك الحجاز [حسين بن علي] ١٣٤٢
- ١٥٦ - بطل العرب والإسلام العظيم القائد
- الكبير محمد عبد الكريم ١٣٧٠
- ١٥٧ - أحوال العالم الإسلامي
- [أمين الريحاني. الحجاز. الترك. اليمن وتهامة] ١٣٧٩
- ١٥٨ - خطاب عام فيما يجب على المسلمين لبيت الله الحرام ١٣٨٣
- ١٥٩ - العبر التاريخية في أطوار المسألة المصرية ١٤٤٨

- ١٦٠ - فاتحة المجلد الخامس والعشرين ١٤٦١
- ١٦١ - زيارة ملك الحجاز لشرقي الأردن :
- ١٤٦٧ مقدماتها وأسبابها ونتيجتها
- ١٦٢ - الانقلاب الديني السياسي في الجمهورية التركية ١٤٨٠
- ١٦٣ - انتحال السيد حسين أمير مكة للخلافة ١٥١٢



كتاب المؤتمر العربي الأول

المنعقد في باريس من ١٣ رجب
سنة ١٣٣١ إلى ١٨ منه

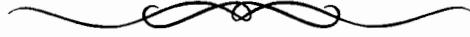
[المنار ج ١٧ (١٩١٤) ص ٣٩٤]

صدرته اللجنة العليا لحزب اللامركزية في مصر مزيناً بالصورة مفتتحاً بمقدمتين: إحداهما لمنشئ هذه المجلة، والثانية لجامعه محب الدين الخطيب، عن فكرة المؤتمر ونتيجته وتاريخ الحركة العربية وتخللها صورة الاتفاق الذي تم بين المؤتمر ومندوب جمعية الاتحاد والترقي وفيه محاضر جلسات المؤتمر الأربع وما دار فيها من المناقشات، وفيه خطب: السيد الزهراوي، العريسي، مطران، دياب، طباره، عمون، مكرزل، بيهم، دباس، غانم. وفيه ١٨ رسالة بريدية وبرقية من ٤٢ جمعية وجماعة وشخص في تأييد المؤتمر. وفي آخره قصيدة مهداة من فؤاد الخطيب للمؤتمر، ثم بيان حزب اللامركزية ومظاهرتة السلمية برفع برقيات الاحتجاج إلى الصدارة بطلب اللامركزية وقد وقع في ٢٣٤ صفحة كبيرة وطبع على ورق جيد، ثم ٨ قروش مصرية وأجرة البريد قرشان ويطلب من مكتبة المنار بمصر.

فالكتاب اجتماعي سياسي إداري يمثل شعور الأمة بحاجيات الحياة والارتقاء فيها، وضرورة الائتثار بين أولي الأمر، ومداولات أصحاب العقول الراجحة والأفكار الشاقبة، ويجلي سر تطور الأمم وانتقالها في الاجتماع والسياسة من طور إلى طور.

ويشخص بالإجمال أمراض الاجتماع في المملكة العثمانية وشعوبها المتعددة المتباينة، ويصف أنجع دواء يحفظ حياتها ويشد عضدها، لتقف في

صف الأحياء العاملة فتناضل عن حوزتها، وتحفظ بقيتها، وتدافع عن ملكها وملكها، فأجدر بكل من يقرأ العربية أن يطلع على هذا الكتاب وخصوصاً العثمانيين حاكمهم ومحكومهم، عربهم وعجمهم، فإنه ألصق بهم من غيرهم، وجميع أبحاثه تدور على محور مصلحتهم.



مستقبل الدولة العثمانية وطلاب الإصلاح من العرب



١٢٤

[المنار ج ١٧ (١٩١٤) ص ٣٩٥ - ٤٠٠]

كنا نسمع ونقرأ منذ وعينا أن لكل دولة من الدول الأوروبية مطمعاً في ولاية أو قطر من المملكة العثمانية. سمعنا كثيراً أن مملكة طرابلس الغرب ستكون لإيطالية. وقرأنا في تاريخ الأفغان للسيد جمال الدين أن إنكلترة لم تروها مياه التمس والكنج ففغرت فاهها لتجرع مياه النيل ونهر جيحون (يعني الاستيلاء على مصر وبلاد الأفغان لأن نهر جيحون على التخيم الشمالي الشرقي من تلك المملكة). كتب السيد هذا بمصر في عهد اسماعيل باشا. وقد احتلت إنكلترة مصر وإيطالية طرابلس. فصدق ما كان يقال.

وكنا ولا نزال نسمع ونقرأ أن فرنسة ترى أن سورية لها، وأن إنكلترة ترى أن البصرة وبغداد وجميع سواحل جزيرة العرب لها - والداخلية تتبع السواحل بالطبع - كما صرنا نسمع أن لألمانية قلب الأناضول الى العراق. ولروسية شمال الأناضول الى الآستانة - على الخلاف في الغاية أتدخل في المغيا أم لا؟ فما يؤمننا أن يحل بهذه البلاد ما حل بما قبلها؟ ولا سيما بعد أن رأينا ما حل بولايات مكدونية - ونحن ننشد في أمثالنا:

من حلقت حية جاره فليسكب الماء على لحيته

إن جميع من نعرف من عقلائنا في خوف ووجل من قرب تلك الساعة، والعرب منهم موقنون بأن الدولة إن قدرت على إيجاد أسطول يحمي سواحل البلاد التركية القريبة من الآستانة وجزائرها من اليونان أو البلقان، فلن تقدر به عن حماية سواحل سورية من فرنسا ولا سواحل العراق أو اليمن والحجاز من إنكلترا، فما حظ بلادهم من الأسطول الذي يبذلون لتأسيسه الاعانات الاختيارية وغير الاختيارية؟

هذا الخوف على البلاد هو الذي حمل أهل الغيرة على تأسيس حزب اللامركزية، وكان المحرك لهم على ذلك صوت رسمي سمعوه من باريس تذكر فيه فرنسا حقها في سورية. . . وكان أول سعيهم الفزع الى صاحب الدولة رؤف باشا المعتمد (القومسيير) العثماني بمصر ومكاشفته بخوفهم على سورية بأن تغير عليها فرنسا كما أغارت إيطالية على طرابلس، وبكونهم ألفوا من أنفسهم لجنة للسعي إلى الدفاع عن سورية، وطلبوا منه أن يكتب إلى الباب العالي بذلك وبما يطلبون من المساعدة على الاستعداد للدفاع الوطني عن البلاد. ولكن المعتمد لم يجهم إلى طلبهم، ولا يزال القرار الذي كتبوه بذلك وما كتبوه في مسألة تنفيذه محفوظاً عندهم.

سُمع بعد ذلك الصوت الفرنسي صوت ألماني من برلين معارض له، فاطمأن القوم بعض الاطمئنان الموقوت، وقويت في نفوسهم فكرة وجوب الاستعداد للدفاع الوطني - أو المالي كما يسميه الترك - ووجوب قضاء شبان كل قطر خدمة العسكرية في قطرهم لأجل ذلك، وعقدوا عدة اجتماعات للمذاكرة في ذلك استطردوا فيها من مسألة الدفاع ومسألة المال الذي يتوقف عليه كل شيء إلى الجزم بوجوب ترقية كل قطر بأهله، توقف ذلك على الإدارة اللامركزية، فوضعوا برنامج حزب اللامركزية، رجاء أن يقنعوا به جميع الأمة العثمانية، لا العرب خاصة.

وفي أثناء ذلك قامت ضجة في بيروت كان من أثرها تأسيس الجمعية الإصلاحية بإذن والي الولاية، وكان من غرضها ان اتفاق المسلمين والنصارى على الإصلاح هو الذي يسد ذريعة الاعتداء الأجنبي على البلاد، ثم قامت ضجة أخرى في العراق وتآلفت جمعية إصلاحية عراقية في البصرة.

تلا ذلك صوت عربي من باريس يدعو الى عقد مؤتمر سوري عربي يكون أهم مقاصده مقاومة الاحتلال الأجنبي للبلاد. وكان من أمر انعقاده ما هو معروف، ولم يكن المؤتمر ولا الجمعية الإصلاحية البيروتية ولا العراقية ولا حزب اللامركزية سبباً لمداخلة أجنبية قولية ولا فعلية، لأن غرض أربابها دفع التدخل الأجنبي، والمقدمات السلبية لا تنتج نتيجة موجبة.

قام المنافقون للحكومة طلاب الدراهم والوظائف والمناصب يلغنون طلاب الإصلاح، زاعمين أن طلبهم له في تلك الأوقات يخرج الحكومة ويكون ذريعة لافتتات الأجانب عليها، ولم نرى أحداً منهم شتم الأرمن ولا لعنهم على استغاثتهم بأعدى أعداء الدولة من الأجانب ونبيلهم ما طلبوا بسعيها! وقد كذبهم الحق الواقع ولا يزالون يهذون بزعمهم أن طلب الإصلاح على قاعدة اللامركزية يفضي إلى اضاعة البلاد واستيلاء الدول عليها. ومنهم من يخص حزب اللامركزية بهذا الطعن لاعتقاد أن جمعيتي بيروت والبصرة قد انحلتا والمنافق الذي يكتب ما لا يعتقد لأجل إرضاء من ينتفع منهم لا يستحي أن يحول الشيء إلى ضده بالسفسطة والتمويه.

نرى طلاب اللامركزية موقنين بأنهم لا يعرفون طريقة لبقاء الدولة وحفظ البلاد ثم عمرانها إلا ما يطلبونه، ونرى حجتهم ناهضة يدعن لها المنصفون من غيرهم، وهم يطلبون من كل ذي رأي أن يقنعهم بطريقة

يمكن بها حفظ البلاد العربية من استيلاء الدول الطامعة عليها، ولما يجدوا مقنعاً.

كنت مرة في دار المعتمد العثماني (القومسيرية) بمصر أتكلم في شؤون الدولة مع اسماعيل حقي بك القائم بأعمال المعتمد الآن، فجاءنا فؤاد بك سليم (قنصل الدولة الجنرال في سلانيك الآن) ودخل معنا في الحديث، فانتقد فؤاد بك ما كان من عقد المؤتمر العربي بباريس والمطالبة بالإصلاح في وقت الحرب بمثل ما كان ينتقده به المعارضون المعتدلون. فقلت له كان هذا يقال ويعد محل نظر وبحث في الوقت الذي انعقد فيه المؤتمر إذ كان سيئو الظن وسيئو القصد يقولون إنه يمكن أن يفضي إلى إتعاب الدولة أو ايقاعها في مشكلة سياسية، وكان القائمون بالعمل يدفعون هذا ليقينهم بحسن نيتهم واحتياطهم في عملهم، ثم أيدهم الحق الواقع فانقضت الحرب وانقضى المؤتمر ولم يكن شيء من عمل طلاب الإصلاح متعباً للدولة في شيء، وقد قبلوا كل ما عرضه على المؤتمر مندوب الاتحاد والترقي. فدل ذلك على حسن نيتهم، وبراءتهم من المشاغبة ومن المطالب البعيدة عن المعقول حتى عند الاتحاديين. وانتقدت أنا بعض أعمال الاتحاديين بما عزز الجواب المقنع عنه. ثم انتقلنا الى المسألة الكبرى.

قال فؤاد بك: إن ما مضى فات خطأ كان أو صواباً فما الرأي الآن لسلامة الدولة وإعلاء شأنها الذي يجب على الجميع السعي له؟

قلت إن لي في ذلك آراء أشرت إليها في المنار غير مرة ولو علمت أن رجال الدولة يقبلونها وينفذونها لفصلتها لهم تفصيلاً، وأهمها مسألة سلامة الدولة، فأنا أرى أن ما توجهت إليه الدولة من اقتراض عشرات الملايين من أوربة لأجل سد عجز ميزانيتها والقيام بمشروعاتها سيفضي إلى أكبر الأخطار، وأن نظارتي الحربية والبحرية مهما عملتا لا تستطيع الدولة أن تحمي بهما سواحل سورية والحجاز واليمن والعراق، ولا أن تحول احتلال كل دولة من الدول لما تطمع فيه.

قال : إنا نوافقك على هذا فما المخرج منه؟

قلت لم يبق لنا وسيلة فيما أرى إلا مسألة الدفاع الملى، لأن الدول الكبرى التي تحافها لا تحارب بلاداً لأجل البطش والانتقام والتخريب كما كان يفعل الملوك في التاريخ القديم، ولا كما يفعل وحوش البلقان، وإنما تفعل هذه الدول كل ما تفعله لأجل الكسب، فمتى كان أهل البلاد مسلحين مستعدين للدفاع عن بلادهم إذا احتلها الأجنبي تمتنع الدول عن الاعتداء عليهم، وإن كانت ترى أنها لا تعجز عنهم، لأن معاداة الأهالى وتخريب بلادهم، يحول دون الانتفاع منها ومنهم. . الخ فوافقني فؤاد بك وكذا اسماعيل بك على ما قلت في هذه المسألة وفي غيرها مما لا حاجة إلى ذكره.

وجملة القول إن طلاب الإدارة اللامركزية إنما يطلبونها لأنهم يعتقدون أنها هي المنجية لدولتهم ولبلادهم من الخطر الأجنبي، وإن البلاد لا تعمر إلا بها، وليس في مطالبهم شيء يمنع أن تكون مقاليد القوة البرية والبحرية والسياسية للدولة وأن تكون في يد العاصمة.

ولما وعدتهم جمعية الاتحاد المتصرفة في الدولة بإجابتهم إلى بعض مطالبهم رضوا وصبروا وانتظروا. وقد مرت السنة على انتظارهم ولم يحدثوا شغباً داخلياً، ولا توسطوا الأجانب في شيء من مطالبهم، وهذه جرائد الشرق والغرب تصخّ مسامعهم بخبر اتفاق الدولة مع الدول الكبرى على جميع سواحل البلاد العربية، وبإعطائهم الامتيازات فيها، وبإرهاق الولايات كلها بالديون الفاحشة - وتلك طرق الدول وسلاحها في الفتح السلمى - فيزدادون خوفاً ورعباً من سوء العاقبة وخطر المستقبل. أفليس من سنة الله في غرائز البشر وفطرتهم ومما توجه به عليهم أديانهم وشرائعهم، ومما تطالبهم به حقوق أمتهم وبلادهم، - ان يبحثوا عن المأمن من الخوف، والموئل من الفرع، والمنجاة من الخطر؟؟ أوليس من مقتضى

الفطرة والشرعية أن يطلب الإنسان لنفسه فوق تجنب الهلكة، عيشة راضية وحالة حسنة عزيزة؟

عقدت جمعية الاتحاد والاتفاق بين مندوبيها «مدحت بك شكري» ومندوب حزب اللامركزية في المؤتمر العربي «السيد الزهراوي» وصدقت حكومتها على بعض ما وقع عليه الاتفاق وصدرت به الإرادة السلطانية. ثم عينت الحكومة السيد الزهراوي عضواً في مجلس الأعيان فقبل ذلك ليكون مطلعاً ومساعداً على تنفيذ الإصلاح الموعود به قولاً وكتابة. فلم يستفد حزب اللامركزية من ذلك إلا لوم كثير من الأصدقاء وذم كثير من غير الأصدقاء، واتهامه بأنه يسعى للمناصب والوظائف خلافاً للعهود والوعود. وقد احتمل الحزب كل هذا لتكون له الحجة على الأمة إذا نفذت الحكومة الإصلاح، والحجة على الحكومة إذا لم تنفذه، وهو لا حجة عليه مطلقاً.

الحزب لم يقل إنه لا يقبل الوظائف ولكنه فعل، فلم يدخل أحد من أعضائه في خدمة الحكومة. وقد بينا قضية السيد الزهراوي من قبل، ونزيده بياناً.

الرجل ثقة مقبول الرواية عند الحزب. وقد كتب إلى الحزب أنه آنس من الحكومة عزمًا على الإصلاح المطلوب وأنها تريد أن تعتمد على الثقات المخلصين من العرب وتستعين بهم على إصلاح بلادهم، وأنها تكون معذورة في قبول المنافيين، إذا تجنبها فئة المصلحين الصادقين. ولما تكررت هذه الكتابة منه رغب إليه رئيس الحزب وغيره من أصدقائه بأن يزور مصر قبل افتتاح المجلس ويوقف إخوانه على حقيقة ما رآه، ويفسر لهم ما أشكل عليهم من أعمال الحكومة (كتقوية إمام اليمن على السيد الادريسي وتسليح ابن الرشيد أمام ابن سعود وغير ذلك مع قدرتها على الإصلاح بين الجميع والاستفادة منهم) فأجاب الدعوة، وتكرم بالزيارة، وأكد بلسانه مضمون ما كان يكتبه بقلمه، من أن الدولة تريد إصلاح بلاد

العرب ولكنها لا تقدر على تنفيذ ذلك إلا بالتدريج ، ووعده بأن يراجع أصحاب الشأن في المسائل التي لم يقف على حقيقتها كمسألة جزيرة العرب وأمرائها، ويوقف إخوانه على ما يقف عليه منها .

والخلاصة أن طلاب الإصلاح اللامركزي في مصر وغيرها من الأقطار لا يزالون في خوف ووجل على بلادهم ودولتهم ، ولم يسمعوا قولاً ولا رأوا فعلاً يفيد الاطمئنان . فالأقوال مضطربة ، والأفعال مشتبهة .

لا ننكر أن الوزارة الحاضرة قد هبت للعمل هبة شديدة ، ووثبت في سياستها وثبة بعيدة ، وأظهر أفرادها من الهمة والذكاء والجرأة ، ما لا نعرف له نظيراً في تاريخ هذه الدولة ، فأقدموا على اقتراض عشرات الملايين من أوروپة ، واعطاء حكوماتها وشركاتها الامتيازات الكثيرة ، والمساعدة على إزالة التنازع والخلاف الذي بين الدول على منافع بلادها ، ونفوذهم الاقتصادي والسياسي فيها ، وتمهيد السبيل للصهيونيين ، لاستعمار مملكة فلسطين ، والشروع في تقوية الأسطول ، وفتح المدارس الكثيرة في الآستانة والأناضول ، وإيجاد مشروعات الصناعة والزراعة الحديثة في البلاد التركية ، وإجابة الأرمن إلى ما طلبوا لبلادهم ، ووعده العرب بالفضل عليهم ببعض مطالبهم . وارضاء بعض الأذكياء الظاهرين منهم بالوظائف . وتفنتت في جمع الاعانات من الأمة بأسماء مختلفة ، وأساليب متعددة ، من وطنية ودينية جائزة وغير جائزة ، كل ذلك من مظاهر الذكاء والهمة والإقدام ، ولكن طلاب الإصلاح ازدادوا به خوفاً على البلاد لما تجدد من زيادة حقوق الأجانب فيها وديونهم عليها . مع الجزم بأن كل ما شرع فيه من وسائل القوة ، لا يجعل الدولة كفوفاً للدولة من هذه الدول الطامعة ، فكيف والدول لا تعمل إلا مجتمعة متفقة؟ ولا هو وسيلة لعمران المملكة ، واتحاد عناصرها المختلفة .

وإنما الإصلاح الذي يعقلونه هو أن تكون كل قطرة فيه وعمرانه بأيدي أهله ، وأن تجتنب الديون الأجنبية بقدر الطاقة ، ويكون حظ البلاد التي

تحمل هذا الدين مقسوماً بينها بنسبة ما تحمله منه . وأن توجه العناية والهمة والذكاء والإقدام على استثمار الأمة بمساعدة الدولة لخيرات البلاد . فهذه الينابيع الكثيرة لزيت البترول في العراق وغيره (مثلاً) لا تحتاج إلى نفقات كثيرة، ولا إلى علوم وفنون كثيرة، وهي ثروة ستضاعف على ممر السنين لأنها ستحل محل الفحم الحجري في السفن الحربية وغيرها . فلماذا تمنحها الدولة للأجانب دون الأهالي؟ ولماذا لا تخصص من هذه الملايين التي تقترضها جزءاً قليلاً لتعليم مئات من شبان الأمة ما يلزم من الفنون لاستخراجها؟

وقصارى القول إن طلاب الإصلاح لا يرجعون عن شيء من مطالبهم، بشتم بعض السفهاء لهم، وإنما يرجعون عما تقوم الحجة على ضرره، ويساعدون الدولة على كل ما يقوم عندهم الدليل على نفعه، وهكذا شأن المخلصين، والعاقبة للمتقين.

الجنسيات في المملكة العثمانية



١٢٥

[المنار ج ١٧ (١٩١٤) ص ٥٣٤ - ٥٤٤: وص ٦١٥ - ٦٢٧]

الجنس في عرف أهل السياسة كالصنف في عرف علماء المنطق، فيطلق على الأجيال التي تفصل بينها الفصول العامة - كالنسب واللغة - وهما أقدم روابط الجنسية؛ ويليهما الدين والوطن الأرضي والسياسي . ولم يوجد دين من الأديان ألف بين شعوب وقبائل مختلفة في جميع روابط الجنسية وجعلها أمة واحدة وجنساً واحداً إلا الدين الإسلامي وقد بينا هذا مراراً فلا نعيده الآن . ولما كان اتحاد الأمة لا يتم إلا بوحدة لغتها كان من مقاصد الإسلام

جعل لغة القرآن لغة لجميع المسلمين، وعلى هذا جرى المسلمون في خير القرون بالعمل، فصارت العربية لغة المسلمين في المشرق والمغرب من القرن الأول. وقد زال من نفوس المسلمين الشعور بالغيرة الجنسية زمناً طويلاً، حتى أحياء الفرس والترك كما بينا من قبل.

إن العصبية الجنسية في هذا العصر قد دخلت في طور سياسي جديد، وكان العرب آخر الأجناس شعوراً بها، لأن سوادهم الأعظم مسلمون لا يكادون يشعرون بغير الجنسية الدينية. ولكن الأستانة بسياسة حكومتها وإدارتها بعد الدستور وسياسة جرائدها قد كونت هذا الشعور وجعلته حياً نامياً، فصدقت كلمتي المحفوظة: «إن العرب يعجزون بأنفسهم، عن تكوين جنسية عربية سياسية لهم، ولا يقدر على ذلك إلا الأستانة وحدها». ولما رأينا بواد هذا الأمر وكنا نعلم أن التحولات الاجتماعية السريعة تكون دائماً محفوفة بالأخطار، سعينا لتدارك الخطر في الأستانة نفسها، ومقالاتنا الست التي نشرناها هنالك تحت عنوان «العرب والترك» لا تزال محفوظة تشهد لنا بأننا سعينا إلى الوحدة بين العنصرين جد السعي، وبيننا من الحجج على ذلك ما لم يبينه أحد، ولكن ذلك كله لم يفد، ولماذا؟

إن من المقاصد الأساسية لجمعية الاتحاد والترقي إحياء الجنسية التركية وتقويتها لتوجد منها أمة تركية كأمم أوربة في مدينتها، ودولة تركية كدول أوربة في عزتها وحضارتها، وكانوا يظنون أنهم يستطيعون بقوة الدولة أن يتركوا جميع الأجناس العثمانية في البلاد الحضرية القابلة للعمران، ويجعلوا سائر البلاد مستعمرات ليس لها من الحقوق ما لسائر العثمانيين. ولهذا كانوا يجتهدون في تقوية الجنسية التركية ونشر اللغة التركية، ويعاقبون من يقتدي بهم في ذلك من غير الترك أشد العقاب.

دار الفلك دورته، فثبت للاتحاديين ضرر هذه التجربة - محاولة تترك شعوب المملكة -، وكان من نتائجها المشؤومة الفتنة الألبانية، فالحرب

البلقانية العثمانية ، فرجعوا عن فكرة تعميم تترك الشعوب كلها إلى الاكتفاء بتترك الضعيف منها، إما بقلة العدد كاللاز والشركس، وإما بقلة العلم وعدم تدوين اللغة كالأكراد، وإما بالخضمة في اللغة كالعرب المتصلين بالترك بالقرب من الأناضول، ثم بتقوية اللغة التركية في جميع البلاد العثمانية، وجعل الارتقاء في الحكومة والعلوم والمدنية موقوفاً عليها. وترتب على هذا ترك الضغط السابق على المستيقظين من الشعوب الكبيرة، إذ كانت الجرائد تحاكم وتقفل إذا ذكرت اسم جنسها، والاعتصام بحبل لغتها، والتذكير بمجد سلفها، حتى أن المجلس العسكري العرفي في بيروت حاكم مدير جريدة المفيد وعدّه مجرماً وحكم بمنع صدور الجريدة بذنوب غريب جداً في هذا الباب، وهو كلمة «يا قوم» وردت في قصيدة، نشرت في تلك الجريدة!! قرر المجلس وأعضاؤه من الترك أن كلمة «يا قوم» معناها عنصر العرب، فذكرها تفريق بين العناصر العثمانية، وهو من أعظم الجنايات!! [كما مر] ذلك بأن الترك يستعملون كلمة «قوم» بمعنى الجنس والجيل من الناس الذي يعبرون عنه بالعنصر. ولم يلتفت المجلس لاحتجاج المتهم بأن القصيدة المنشورة في جريدته عربية ولفظ القوم في اللغة العربية معناها الجماعة من الناس، كما هو منصوص في المعاجم، قيل يشمل الرجال والنساء وقيل هو خاص بالرجال... وان الشعراء يستعملونه الآن بمعنى «يا ناس».

كانت جمعية الاتحاد والترقي قد صرحت تصريحاً نشرته جريدتها طنين بالرجوع عن فكرة «تترك العناصر» وكان ذلك مداراة لم يصدق العمل، ولكنها في العهد الأخير عقدت اتفاقاً مع «جمعية الشبيبة العربية» التي يمثلها «المنتدى الأدبي» في الآستانة، وأشهروا هذا الاتفاق بالاحتفالات والمآدب، وجعلوه وسيلة وذريعة للاتفاق بين جمعية الاتحاد والترقي والمؤتمر العربي الذي انعقد في باريس. وصار زعماء الجمعية من وزراء الحكومة يزورون «المنتدى الأدبي» ويحضرون بعض احتفالاته، وتمثيل القصة العربية التي

يمثلها أعضاؤه كل سنة، وقد احتفل أعضاء المنتدى في هذا العام بذكرى المولد النبوي الشريف فحضر احتفالهم فيه طلعت بك ناظر الداخلية وجمال باشا ناظر البحرية، الآن، وخطب طلعت بك بالتركية باستمساك الترك بالعرب، وأنهم إذا فروا منهم يتبعونهم ويلتزمونهم، فاهتزت لهذه الخطبة أسلاك البرق في العالم، ووعد الزعيم الكبير في خطبته هذه بأن يخطب في احتفال مولد العام القابل بالعربية. هذا بعد أن كان أعضاء «المنتدى الأدبي» لا يسمون أنفسهم جمعية خوفاً من أقفال الحكومة الاتحادية لناديتهم، ومحاکمتهم على ذلك في المجلس العسكري العرفي. فأين هذا من تسقط المجلس لبعض أعضاء المنتدى بتسميتهم جمعية ليعترف بعضهم بذلك فيحكم المجلس فيهم حكمه؟ وقع هذا التسقط في تحقيق المجلس مع المتهمين في حادثة الاعتداء على صاحب جريدة إقدام التركية الشهيرة، عقب نشر مقالة أهين بها العرب. وكان «المنتدى الأدبي» لم يتجاوز السنة الأولى من عمره.

علم من هذا أن السياسة الجديدة التي ظهر بها الاتحاديون في العاصمة هي أن العصبية الجنسية نافعة أو ضرورية لترقي كل جنس، وأنه يمكن الجمع بينها وبين الوحدة العثمانية، ولا سيما الوحدة بين العرب والترك من العثمانيين. وأنه يجب على كل جنس أن يرقى نفسه من غير أن يضر غيره أو يحول دون الوحدة العثمانية.

وقد سر جمهور المتعلمين من العرب بهذه السياسة الجديدة، وهم لا يشترطون لا اعتقاد إخلاص الاتحاديين للعرب فيها إلّا إطلاق الحرية لجرائدهم وجماعاتهم وأفرادهم كما أطلقوها للترك، ومساواة الحكومة بينهما في التربية والتعليم والمساعدة على الأعمال. ولكن الترك في هذا الطور الجديد قد ألفوا عدة جمعيات تركية محضة، وقاموا بعدة مشروعات تركية خالصة، وألفوا عدة كتب ورسائل في النهضة التركية والرابطة الجنسية البحتة. وصار شغل جرائدهم الشاغل وجوب إنشاء أمة تركية محضة

ودولة تركية محضة، وكان كلام بعضهم في هذا أن الدولة تركية لا عثمانية، وأن العثمانية وهم من الأوهام. ولم يفعل العرب شيئاً يذكر من ذلك. نعم، إن بعضهم يتكلم أو يكتب في الجرائد كتابة تعد ضئيلة نحيلة إذا قيسَتْ بما يكتبه الترك. ولم ير لأحد منهم مصنفًا خاصاً في هذا الموضوع إلا رسالة لأحد أدباء بيروت من آل الفاخوري. ونشر بعض الغلاة منشورات تهيج وثورة وقالوا فيها ان لهم جمعية، وانا لا اصدق ذلك.

الجنسية والاسلام وحزب اللامركزية

بعد هذا كله قام من كتّاب العرب كاتب من طائفة لها دين لا يتفق مع دين الإسلام في أصوله ولا فروعه^(١) فكتب كتاباً جعل نفسه فيه أشد إسلاماً من جميع علماء الإسلام، وأشد عصبية تركية من غلاة الترك أنفسهم، وأشد اتحادية من زعماء جمعية الاتحاد والترقي ووزرائها، إذ قام يجاهد فيه الجنسية العربية وحدها، ويجعلها هادمة للإسلام الذي يغار عليه بزعمه ما لا يغار عليه الذين أفنوا أعمارهم في القيام به علماً وعملاً ودعوة ودفاعاً. ويلصق تهمة هذه الجناية على الإسلام بحزب اللامركزية وحده. على أن حزب اللامركزية عثماني محض ليس في برنامجه ولا في بياناته كلمة واحدة تدعو إلى الجنسية العربية، أو تنفر من الجنسية التركية، وإنما هو يدعو جميع العثمانيين إلى مطالبة الحكومة بالإدارة اللامركزية، بالطرق المشروعة القانونية، نعم، إن فكرته قد انتشرت في العرب لأن المؤسسين له من العرب، ولم يقدروا على نشر دعوتهم في غير الشعب العربي. وذلك الكاتب المنحي عليهم يقول: ان دعوتهم لم يحفل بها أحد يذكر، ولم

(١) دين هذه الطائفة سري ومن المعروف عنهم مشايعة غير أهل دينهم على سبيل التقية. ولهذا صرح بعض الفقهاء بعدم الاعتراف بأحد منهم للإسلام. وأما أنا فأرى صحة إسلام من تدل القرائن على صدقه، كمن يصرح على مسمع من أهل ملته بالخروج منهم ويتخطتهم في دينهم مع التزام الإسلام بالعمل.

يستجيب لها إلا عدد لا يقدم ولا يؤخر. فلماذا عني بتأليف كتاب خاص في التشنيع عليهم؟

ما رأيت مثلاً لإطالة هذا الكاتب القذح في حزب اللامركزية - بدعوى الجناية على الإسلام بتقوية الجنسية العربية وجعلها هي واللامركزية التي تراد لأجلها أسرع ما يمحو الإسلام ويوقع المملكة في أيدي الأجانب.!! - إلا ما أطال به كاتب أمريكي في التشنيع على جمعية ابطال المسكرات في امريكة. ذلك بان هذه الجمعية سلكت أخيراً السبيل القانوني الموصل إلى غرضها الشريف، وهو السعي لانتخاب اعضائها ومشايعها لمجلس النواب. وقد فازوا في بعض الولايات فوزاً عظيماً، فانبرى لمحاربتهم تجار المسكرات، الذين يربحون منها الملايين من الريالات، وكان أغرب حربهم القلمية، مقالات لأحد الكتاب عنوانها «الحرية الشخصية» ما ترك هذا الكاتب شيئاً اهتدى اليه باطلاعه وذكائه في مدح الحرية الشخصية إلا وقاله، وجعل ابطال المسكرات مزيلاً له، كأنه الذي يهدم الحكومات الدستورية، ويوقع العالم في الفوضى والهمجية!! فكثير من كلامه حق أريد به باطل، ومنه ما هو باطل أريد به باطل، وهكذا فعل كاتبنا العربي. ونقول في كل منهما: إنه يمكن تفنيد مقالاته، ودحض شبهاته، بمقالات أصح منها دليلاً، وأقوم قيلاً، وأوسع تفصيلاً. ولكن الرد على ما كتب اتباعاً للهوى، وارتداداً للمناصب إضاعة للوقت، وسبب للتهادي في الباطل واللغو.

قد يظن هذا الكاتب ويظن من تقرب إليهم بما كتب، ممن لا يحبون أن تقوم للعرب قائمة، ولا تستيقظ لهم عين نائمة، إن مثل هذه الكتابة تقنع السواد الأعظم من مسلمي العرب بأن لا يجيبوا دعوة لمن يدعونهم إلى إحياء لغتهم، وإلى قيامهم بعمران بلادهم، والاستئثار بخيراتها دون الصهيونيين والأجانب، الذين تقذفهم بهم الحكومة المركزية من كل جانب، بما تعطيه من امتياز، وما تمكن لهم من امتلاك البلاد، وأن

ينبذوا هؤلاء الدعاة إلى الإصلاح نبذ النوى، اعتقاداً بصدق ذلك الكاتب في زعمه أن هذا يميت الإسلام ويزيل هداية السنّة والقرآن! وأن هذا هو الذي يرمي إليه زعماء اللامركزية، بدعوتهم إلى إحياء الجنسية العربية. وسيعلم الظانون كذب ظنهم، وأن هذه الكتابة لا تخدع عامة العرب فضلاً عن خاصتهم، بل تكون سبباً لقوة نهضة العرب، وإساءة الظن بمصادر هذه الخدع.

كنا عزمنا على ترك الكتابة في هذه المسائل، ثم بدا لنا بعد هذه الخلابة والخدعة، أن نبين للأمة والتاريخ لباب الحقيقة، وأن ننشر نموذجاً من كلام دعاة الجنسيتين التركية والعربية، لأجل المقارنة بينهما، وليعرف اعتدال حزب اللامركزية بين غلاتهما، ومنه يظهر أن تخصيصه باللوم والتعنيف، ليس نصراً للدين الحنيف، إذ الدين لا يحيا إلا بحياة لغته، وارتقاء أمته، وأنا نبدأ بنموذج من كتاب قوم جديد لأنه جاء الدعوة الى الجنسية التركية من طريق الدين، بما فيه أكبر عبرة للمعتبرين، من التحريف والتبديل، والتحريم والتحليل والتكفير بمحض الرأي والهوى، وجعل الدين كله كالمحصور في بذل المال والنفس لحكومة الأستانة الاتحادية.

نموذج من كتاب قوم جديد

(مترجم عن النسخة التركية المطبوعة في الأستانة)

جاء في الصفحة ١٤ من هذا الكتاب:

يجب تعطيل المساجد والتكايا الموجودة في الأستانة ما عدا الجوامع التي بناها السلاطين. وتخصيص نفقاتها إلى الشؤون الحربية العسكرية كما ورد في الآيات الكريمة والأعمال النبوية.

وفي الصفحة ١٥:

ورد منذ مدة في إحدى الجرائد السياسية أنه من الضروري الاهتمام

بتعميم تعلم اللغة العربية لتفهم الأمة على الأقل الخطب التي تلقى أيام الجمع في المساجد. وهذا الكلام يدل على البلاهة إذ بدلاً من تعلم جميع الأتراك اللغة العربية تلقى الخطبة باللغة التركية، وهل هناك أمر أسهل من هذا؟ ولا سيما وأن ترجمة الحديث والخطب والقرآن جائز في مذهب الإمام الأعظم^(١). إن النبي لم يبعث إلى العرب فقط لذلك أصبحت ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى فرضاً من الفروض^(٢) «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» [سورة الأنبياء رقم ٢١ الآية ١٠٧].

نعم، إن القرآن الذي نزل على سيدنا محمد المأمور بدعوة العالم جميعاً إلى الإسلام نزل باللغة العربية ولكن لا يستدل من هذا أن كل قوم دعوا إلى الإسلام يكونون مضطرين إلى تعلم اللغة العربية. وفي الصفحة ٢٥.

وهنا أكرر ما قلته آنفاً من أن أكثر الناس يستثنى منهم الفقير المعدم والأعرج والأعمور ومنهم المشايخ الذين يدعون أنهم ورثة الأنبياء والمدرسون والمفتون والقضاة ومشايخ الطرق والدراويش والتجار والصناع، والحاصل جميع الناس أصبحوا في حكم القرآن المجيد مرتدين ومن زمرة المنافقين ومن ثم وجب قتلهم، لأنهم تعمدوا ترك الجهاد بالمال والنفس الثابت بوجود آلاف الآيات البينات (وأورد هنا اثنتين منها) الأولى «يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين» [سورة التوبة رقم ٩ الآية ٧٣] والثانية «فرح المخلفون» [سورة التوبة رقم ٩ الآية ٨١].

قال: ويتوقف تجديد إيمان هؤلاء أولاً على الاشتراك بدناً بالحرب وثانياً على إعطاء نصف ما يمتلكونه إلى دار الخلافة الإسلامية إذا كانوا من أصحاب الغنى والأموال ليتسنى لرجال الإسلام الانتقام من الكفار

(١) كذب الكاتب في هذه الدعوى.

(٢) جعل الكاتب الجاهل نفسه شارعاً. وقد أفى شيخ الإسلام في الأستانة بعدم جواز ترجمة القرآن.

الفجار، ونزع البلاد التي انتزعوها من أيديهم، وإعادة ذكر كلمة «الله» في مساجدنا وجوامعنا، وإذا لم يفعلوا هكذا (أي إذا لم يدفعوا نصف ما يمتلكونه للدولة) فلا يقبل منهم تجديد الإيمان فيحشرون وهم مرتدون كفرة ، ويلحقون بأهل جهنم. وهذا لا بد منه ولو قرؤا في اليوم مئة ألف مرة «آمنت بالله...» ولو صلوا الليل والنهار ولو كانوا من الذين صلوا وراء النبي، ولو حجوا إلى بيت الله الحرام مئة ألف مرة، ولو كانوا بدرجة الإمام الأعظم من العلم أو بدرجة الغوث عبد القادر الكيلاني من القطبية.

وفي (ص ٢٧):

إن بعض المشايخ والحفاظ والحجاج في الأستانة وكثيرين ممن يتبعونهم وكلهم من الذين يجرؤون على ارتكاب أنواع المنكرات اشتغلوا بالكتب كالحمير التي تحمل التوراة فتركوا الجهاد، والبعض منهم فسروا الآيات والأحاديث حسب ما تقتضيه منافعهم، وللحصول على غرض دنيوي. فلعنة الله على أمثال هؤلاء الحفاظ الذين يقرؤون القرآن بالدرهم وعلى المنافقين الذين تسلطوا بالاشتراك مع أعداء الدين على فرقة الاتحاد والترقي التي هي في الحقيقة الفرقة المحاربة والساعية لاتحاد الإسلام، والمجاهدة في سبيل تشييد قوى الإسلام، وبالنتيجة لعنة الله على الذين كانوا سبباً لدوس الملايين من المسلمين تحت أقدام أعداء الإسلام، وعلى أولئك الذين سلكوا طرق الدسائس والتغويل والتزوير لمنع الذين كانوا يريدون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، لعنة الله عليهم وعلى آلهم وأقوالهم وعلى تأليفهم ومصنفاتهم واعتقاداتهم أجمعين.

وفي (ص ٣١) يفسر آية «فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله» [سورة التوبة رقم ٩ الآية ٨١] بما يأتي: إن الذين ثبتوا في الصوم والصلاة والحج أعرضوا اليوم عن الجهاد المفروض مالا وبدناً وأصبحوا خلاف رسول الله فهؤلاء من المنافقين.

ان البروغرام القديم البالي الفاسد يعرف به بقاء الدين بالصوم والصلاة والحج . والحقيقة ليست كذلك بل هو حسب البروغرام الجديد بالجهاد مالأً وبدناً . وهذا ثابت ايضاً بهذه الآية : «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى . . . » [سورة البقرة رقم ٢ الآية ١٢٠] ففيهم من هذه الآية صراحة أن المسلمين الموجودين تحت حماية ملوك النصارى ليسوا مسلمين بحق لأن ملوكهم النصارى راضون عنهم ويضعونهم في صف أمتهم ، على أن الملل النصرانية لا ترضى عنهم إلا بعد أن يرددوا إلى دينهم الباطل .

وفي (ص ٣٢) :

إذا رضي الكافر بغضب الرحمن ، وكذلك إذا غضب الرحمن رضي الكافر . يعني إذا رضي كافر تمام الرضا عن مسلم فهذا المسلم يكون على كل حال موضوع قهر الرحمن وغضبه مثل المسلمين الساكنين في البلاد المسيحية . وبالعكس كل كافر يغاضب ويعادي مسلماً يكون موضوع رضاء الرحمن ووجه مثل خلفاء المسلمين من الأتراك .

وفي (ص ٣٣) :

يفسر هذه الآية «وقاتلوهم حتى ة تكون فتنة ويكون الدين لله» [سورة البقرة رقم ٢ الآية ١٩٣] بما يأتي :

ففيهم من هذه الآية الجليلة أن دين المسلمين الموجودين تحت التبعية أو الحماية الروسية والانكليزية والفرنسوية لا يتم ولا يعدون من المسلمين ما داموا لا يشتركون في الجهاد المفروض وما داموا محرومين من إعانة الأستانة مالأً وبدناً .

وفي (ص ٣٦) :

إن من لا يشترك من رعايا الدولة الإسلامية العثمانية الثابتة خلافتها بالنص القاطع^(١) من العرب أو التتار أو الألبان أو أبناء مكة واليمن ،

(١) مذهب أهل السنة ان خلافة الراشدين لم تثبت بالنص بل باجتهد الصحابة .

والحاصل جميع الأقسام المختلفة إذا لم يشتركوا مالا وبدناً ونقداً بالجهاد الذي هو أعظم العبادات في صفوف حضرات عبد الرحيم وجمال ورضا وشكري وبكر وجاويد ورؤوف وأنور وعزت وطلعت وأمثالهم من أبناء الترك الذين هم أولياء الله صلى الله تعالى عليهم وعلى آلهم وأصحابهم وقدس الله أسرارهم، يكونون في صف المرتدين عن الدين والمعتنقين طوعاً لدين الصليب الباطل. ومن هذا القبيل الأرناؤد، فإنهم ارتدوا عن الإسلام - إما لاستعمالهم السلاح ضد الجنود الإسلامية مشتركين مع الكفار الفجار في ذلك، أو إضعاف قوة الجيش الإسلامي بفرارهم من ساحات القتال، فسببوا بذلك انهزام الإسلام وأصبحوا من الكفرة الفجرة، ومن هذا القبيل أيضاً المصريون والهنود والبخاريون والتتار الروسيون وسكان فاس وتونس والجزائر وأهل الحجاز واليمن فإنهم لم يمدوا الخلافة الإسلامية بالنقد، ولم يكتف قسم من العثمانيين الأتراك بذلك بل إنهم اتفقوا مع قوزميدي وبوشو والبطركخانة الرومية وأعانوا دين الصليب، وأعلنوا العصيان سماعاً وطوعاً على الاسلام، وأقاموا الدنيا على أهل الإيمان.

وفي (ص ٣٩):

إن القوم العتيق (أي القدماء الذين لا يتبعون كتابه هذا) يتركون الأوامر الإلهية الأصلية التي تعد بالألوف ويتمسكون بالصوم والصلاة والحج والزكاة وكلمة الشهادة فقط، ويتخذون كتب البركوي والحلبي والشافعي والكتز ومنية المصلي والمالكي والحنبلي دستور العمل في أعمالهم وحركاتهم، مع أن هذه الكتب مملوءة بالنفاق والشفاق والمنافرة (كذا) والاختلافات الكثيرة، فالعمل بما فيها غير جائز.

وفي (ص ٥٢):

أما القوم الجديد (ويريد بهم من مدحهم في كتابه من الترك الاتحاديين ومن يسير على طريقهم وطريقه) فإنهم لا يبالون بمثل هذه الخرافات القديمة

بل إنهم استخرجوا من الأحكام القرآنية والحديثية الأركان الدينية الآتية^(١):

- ١ - العقل .
- ٢ - كلمة الشهادة .
- ٣ - الأخلاق الحسنة .
- ٤ - الجهاد مالأً وبدناً والحرب .
- ٥ - السعي لإعداد لوازم الحرب بالاتحاد والاتفاق تحت راية الخلافة المعظمة العثمانية .

وفي (ص ٥٧ - ٥٧):

يجب أن تقرأ الخطب أيام الجمع والأعياد باللغة التركية ثم تقرر خطبة كل جمعة بتلقين من الحكومة تتضمن الأحوال السياسية . ويجب أيضاً أن تفضل الأمور السياسية في بعض الأحوال على الأمور الشرعية حتى ولو لم تكن منطبقة على الأحكام الشرعية!! فتعطل مؤقتاً الأمور الشرعية . ويوجد جواز شرعي للعمل هكذا بدليل وضع النبي توقيعه على عهدة الصلح في وقعة الحديبية مجرداً من ألقاب ونعوت النبوة حسب طلب كفار قريش ، وكما تقتضيه الأحوال ويوجبه الزمان . وكذلك الآيات الناسخة والمنسوخة هي من مقتضيات السياسة .

وفي (ص ٦٠):

وعليه فإن الهنود الذين هم تحت حماية النصارى من الانكليز ولو كانوا من أصحاب الأخلاق الحسنة فإنهم لا ريب محرمون من العقل ولو كانوا

(١) أي ليس في دين (القوم الجديد) صلاة ولا صيام ولا زكاة ولا حج فهم لا يمتنون إلى المسلمين لأكل أموالهم ومشاركتهم في حقوقهم إلا بعد انكار الشهادتين . وعلى هذا كثير من ملاحدة العصر ومنافقيه كما قال المؤلف .

عقلاء لما رضوا بالذلة تحت حكم دولة ظالمة شريرة تسلك دين الصليب.

(وفي ص ٦٣):

وبهذه الصورة سيخرج المسلمون المحكومون بالنصارى من دينهم بالتدريج ويندمجون بدين حكامهم. وسبب ذلك عدم ارتباط هؤلاء المسلمين مالا وبدناً بالخلافة الإسلامية

(وفي ص ٧٠ - ٧١):

كثير من المسلمين حتى من علمائهم ومشايخهم أثبتوا في الحرب البلقانية الحاضرة أنهم ارتدوا عن دينهم ائتلفوا (عبر بلفظ الائتلاف في الأصل) مع البطركخانة لأجل الدراهم والمنافع، ومن هذا القبيل أيضاً الضباط والجنود والمعممون الذين فروا من ساحات القتال، فهؤلاء ليسوا مسلمين بل هم منافقون ومرتدون عن دينهم. أما المسلمون الحقيقيون فهم الذين حاربوا في حرب طرابلس الغرب وحرب البلقان تحت إمرة انور ورضا وأسعد وجاويد ورؤف صلى الله تعالى عليهم، وبقية رجال جمعية الاتحاد والترقي المقدسة، الذين لم يولوا ظهورهم إلى العدو بل داوموا في جهادهم في سبيل الله، فهؤلاء هم المسلمون الحقيقيون. وقد كان عدد الذين ينتمون إلى جمعية الاتحاد والترقي في هذه الحرب لا يتجاوز مئة ألف. أما الباقون فإنهم كانوا من المرتدين المنتمين إلى الائتلاف (أي حزب الائتلاف) والبطركخانات.

(وفي ص ٧٦):

يفسر آية «إنا أنا بشر مثلكم» [سورة الكهف رقم ١٨ الآية ١١٠] - الحرب بيننا وبينهم سجال ينالون منا وننال منهم - أفئن مات... ألخ فيقول: أنا بشر مثلكم فلا تستبعدوا موتي، إن الانتصار في الحرب يتوقف على التجهيزات العسكرية...

ما هذا الجهل؟ وما هذه الغفلة التي استولت عليكم أيها الناس؟ تعلقون أسماء خلفاء العرب على جدران جوامعكم^(١) وتركون أسماء خلفاء الترك الذين قدستهم الأحاديث النبوية ولا تكتفون بذلك بل ينزل الخطيب قدمه واحدة عند ما يذكر أسماء الخلفاء الترك تنزيلاً لمقامهم وتذليلاً ثم تزيدون ركعتين يوم الجمعة باسم «آخر ظهر» فكل هذا مبتدع ومحدث للحط بشأنكم سياسة.

إنكم أيها الأتراك قوم مقدسون ومبجلون ومع ذلك تقدسون عبد القادر الكيلاني والشيخ البدوي الفلاني وتدعون أن الله وملائكته حتى الموكلين منهم بعذاب القبر ومنكر ونكير يتكلمون باللغة العربية وتقولون دائماً «أوله شام وآخره شام» وتسعون دائماً لتغفيل أبناء الترك بأنه سيخرج من العرب مهدي. والحاصل تشتغلون منذ سبعمائة سنة بمثل هذه الخرافات، فتغشون العالم وتحترقون بذلك أبناء العثمانية النجباء الذين ما فتئوا يجاهدون في سبيل الله للدفاع عن الإسلام ويدفعون عنه تعرض الكفار له، فكل ما ذكرته موضوع بصورة خصوصية ومقصود بالذات لتحقيركم والحط من منزلتكم.

أما سمعتم الآية (والعاديات ضبحا) فإن الله قدس بهذه الآية الجيوش التركية فخيّل هذه الجيوش هي أشرف وأقدس أضعاف مضاعفة من شرافة وقداسة رؤساء وأشرف الشعوب الأخرى الذين تقدسونهم وتحترمهم^(٢).

المثار. هذا نموذج من كتاب قوم جديد الذي صنف لإقناع الترك بما يجب أن يكونوا عليه في هذا العصر. ولا شك في كون جميع علماء الدين

(١) جرت عادة أخواننا الترك بأن يعلقوا في قباب مساجدهم ألواحاً فيها أسماء الخلفاء الأربعة (رض) وسبطي الرسول (ص).

(٢) أي كالخلفاء الراشدين وأئمة آل البيت الطاهرين عند العرب.

من الترك كغيرهم ينكرون هذه الضلالات المودعة في هذا الكتاب ويعلمون أن هذه الجرأة على تحريف القرآن واتخاذ الإسلام هزواً ولعباً، وهدم أركانه، وتكفير أهله، والكذب على الله ورسوله، المراد به تقوية الجنسية التركية - كله كفر وضلال. ولكن الملاحدة الذين ليس لهم من الإسلام إلا اللقب الرسمي أو الجغرافي يرضون بهذا ويغشون به جهلة العامة من الترك فما للمنكر على حزب اللامركزية تقوية الجنسية العربية باسم الإسلام، لا يؤلف كتاباً في الرد على هؤلاء الغلاة المحرفين للقرآن الهادمين للإسلام؟؟

الجنسيات في المملكة العثمانية

[المخارج ١٧ (١٩١٤) ص ٦١٥ - ٦٢٧]

بيناً في المقالة الأولى من هذا البحث أن الحكومة العثمانية الاتحادية تركت في طورها الأخير عقاب من يلهج بالعرب والعربية من أصحاب الجرائد العربية وغيرهم، وأن العرب لم يغلو في إحياء الجنسية العربية كما غلت الجمعيات والجرائد التركية، التي جاهرت بالدعوة إلى كل شيء في الدولة تركيا. بالقول والفعل، وهجر اسم «العثمانية» ولم نسمع لأحد من كتاب الترك صوتاً في إنكار هذا الغلو والانتصار للجامعتين الإسلامية والعثمانية على التركية إلا لعلي بك كمال، فقد كتب في جريدة بياض رداً على أولئك الغلاة بين فيه أن الحياة التركية، لا تقوم إلا بالجامعة العثمانية السياسية، وإن المجاهرة بحصر كل شيء في الترك والتركية يبعث العرب والكرد وغيرهم من العناصر العثمانية إلى مثل هذه الدعوة فلا يبقى للترك شيء. واشتدت المناظرة بينه وبين «اقچورا» وغيره من غلاة الجنسية التركية حتى انتهت إلى السباب والشتم.

وكان مما كتبه «اقچورا» في «تورك يوردي» بالآستانة في أوائل ربيع

الآخر من هذا العام ما ترجمته بالاختصار والإجمال:

«يجب أن نعلم أن نعمة إلى الحقائق فنقررها. ما العثمانية؟ ولماذا لا نقول التركية؟ أليست العثمانية نسبة إلى عثمان التركي؟ إن الحقيقة تغلب الخيال، ومن المحال العقلي أن تظل هذه العناصر المتباينة مرتبطاً ببعضها ببعض وراء ستار وهمي، وتحت اسم خلق بال!

«يجب علينا ما دام في استطاعتنا الحياة أن نعلم إلى الجيش والأسطول والعلوم والآداب والشرائع والقوانين وكل شيء فنصبغه بالصبغة التركية المحضة (ليت شعري هل تدخل الشريعة الإسلامية في هذه الشرائع التي عناها أم هم في غنى عنها لأن الله تعالى يقول «كذلك أنزلناه حكماً عربياً» [سورة الرعد رقم ١٣ الآية ٣٧].

«يجب أن نعلم أننا من أمة ظهر فيها قواد أعظم من نابليون. وعظماء أشهر من يوليوس قيصر، وشعراء أكبر من هيغو. وأن في استطاعتنا أن نفعل ما يفعله الجرمان والسكسونيون لحياة قومهم، فلا ينبغي أن نظل مقيدين بالأوهام والخرافات الماضية».

وقد انهزم علي كمال بك أمام حملات الغلاة واضطر إلى مجاراتهم. وإننا لنرى أشد كتاب العرب لهجاً بالعربية لا يعدون غلاة بالنسبة إلى الكتاب المعتدلين من الترك بل يعدون مقصرين، وأن جماعة حزب اللامركزية لم يجعلوا مسألة الجنسية العربية من موضوع حزبهم، إلا إذا كانت المحافظة على اللغة العربية بين أهلها يعد دعوة إلى الجنسية العربية. لهذا انكرنا على ذلك الكاتب العربي رميهم بالعصبة الجنسية التي ذمها ذمّاً إسلامياً، وجعلها هادمة للإسلام! كأن الإسلام الذي دخل فيه يموت بحياة لغته العربية، ويحيا باللغة التركية!

استدللنا بتخصيص الحزب بهذا الذم وبسكوته عن غلاة العصبية

التركية، على أنه لم يكتب ما كتب إلا تزلفاً ونفاقاً، وجعل اسم الدين الإسلامي شبكة لصيد المال والجاه. ولو أنكر على أولئك الغلاة والمعتدلين في العصبية الجنسية، واتبع هواه بإضافة اللامركزيين إليهم، وإشراكه معهم، لما اعتقدنا فيه كل هذا الاعتقاد.

سلكت الجماعات العربية كلها مسلك الاعتدال فيما تطلبه لأمتها من الدولة وفيما تنصح به للأمة، إلا ما عرض لجماعة البصرة، فقد كان في بعض كلامها شيء من الشدة، ثم كان زعيمها السيد طالب بك النقيب ساعد الحكومة وعضدها في عقد الوفاق بينها وبين الأمير عبد العزيز بن سعود أمير نجد، وفي غير ذلك مما عهدته إليه من خدماتها في تلك البلاد، وقد تبرع هو ووجهاء البصرة للأسطول وغير الأسطول بمبالغ قلما رأت مثلها الدولة من بلد آخر. على أنها لم تجبهم إلى شيء مما طلبوه من الإصلاح. فكان ذلك دليلاً على أن أشد العرب في ولايات الدولة شكيمة، وأقواهم عصبية، لا يني ولا يقصر في خدماتها، إذا هي أظهرت الثقة به، وعهدت إليه بعمل يعمل.

الجنسية اللبنانية

نعم، إن بعض الجرائد والجمعيات اللبنانية، قد غلت في الدعوة إلى الانسلاخ من كل صفة عثمانية، والاستقلال بجنسية لبنانية لا عربية. فلبنان يتمتع باستقلال داخلي لا يشاركه في مثله جبل من الجبال، ولا سهل من السهول، ولا ولاية ولا مملكة في الأرض، حتى قال الدكتور يعقوب صروف - وهو من يفتخر لبنان بمكانه من العلم والفلسفة ومعرفة شؤون العالم - : «إن كل تغيير يطرأ على نظام لبنان يكون شراً، إذ لا خير مما هو عليه». ولكن كثيراً من اللبنانيين لا ينظرون إلى هذه النعمة بالعين التي ينظر بها هذا العالم الخبير، فترى صراخ شكواهم قد ملأ فضاء أمريكا

الشمالية والجنوبية ومصر، ونقلت الجرائد صدها إلى كل قطر يوجد فيه لبنانيون أو سوريون. فمنهم من يدعو إلى الاستقلال التام، ومنهم من يدعو إلى احتلال فرنسا للبلاد. ولهم عدة جمعيات سياسية يشترك فيها ألوف منهم في الوطن وفي ديار الهجرة من مصر إلى أوروبا وأمريكا وغيرها من الممالك.

وقد قرأنا كثيراً من مقالاتهم وقصائدهم وأناشيدهم الاستقلالية فرأيانهم يفخرون فيها بعراقة هذا الجبل في الاستقلال، وامتناعه على الفاتحين من جميع الأمم والأجيال، أي فهم لا يطلبون الآن، إلا الاستقلال الذي كانوا متمتعين به في كل زمان. وقد جددوا لأنفسهم علماً وطواع بريد، ومنهم من يختار الاستقلال تحت حماية فرنسا والاستقلال بعلمها. وقد عرف أهل الخافقين ما كان من مبالغة أهل الجبل في الحفاوة بضباط الأسطول الفرنسي والمظاهرات الولائية لهم عند ما زاروا بطرك الموارنة وبعض البلاد منذ أشهر، إذ كان الأسطول في مياه بيروت. ويلي ذلك ما كان لمسيو جورج بيكو قنصل فرنسا عندما زار لبنان مصاحباً لمسيو مورسي بارس أحد أعضاء مجلس النواب الفرنسي. وهذا النوع من الاحتفالات والمظاهرات قد تكرر، وتكررت الوعود من فرنسا بإنالة الجبل ما يريد.

لسنا نريد الاستقصاء التاريخي في هذه المسائل فنفصل القول فيه، ولا الانتقاد على الغلو والشذوذ الذي كان يتخلل ذلك مما لا يعهد له نظير للأجانب في مملكة من الممالك، فنتبع من ذلك ما قيل وما كتب، وما انتقده بعض المسلمين في جرائد بيروت على ذلك وما رد به اللبنانيون على هؤلاء. وإنما نريد أن نبين بالإجمال أن اللبنانيين منهم المعتدلون فيما ينقمون من الدولة وما يطلبون لبلادهم، ومنهم الغلاة. وأن ذلك الكاتب العربي المدافع عن الجامعة العثمانية أو الجامعة الإسلامية، المعادي للجنسية العربية والموضعية «كاللبنانية» لم يكتب كلمة في انتقاد هؤلاء الغلاة من أبناء

وطنه، وأين منهم مؤسسو حزب اللامركزية، الذين لم يدخلوا حزبهم في باب مباحث المسألة الجنسية.

واننا نثبت ما قلناه عن اللبنانيين أولاً بنشر ما جاء في جريدة الهدى التي تصدر في نيويورك من مطالب «جمعية النهضة اللبنانية» التي يرأسها مدير تلك الجريدة [نعوم مكرزل] وهذا نصه:

من مبادئ النهضة اللبنانية ومنازعتها

[المفاز ج ١٧ (١٩١٤) ص ٦١٨ - ٦٢٧]

«لكل امرئ من دهره ما تعودا» وما تعودناه أن نصون الوعد فلا نخلفه، والعهد فلا نخفّره، وان نكث الناكثون، وعبث العابثون، مستأثرين بأيام، نرجو أن تنقضي على سلام، فلا يلوم فيها أحد، بما يجيئه من الغش والفند.

أرسلنا في «الأغراض من سياحتنا» كلمة، ونرسل الآن في بعض مبادئ النهضة اللبنانية أخرى نحن دون أحد من الناس المسؤولون عنها.

كنا في رحلتنا بنشر بهذه المبادئ بلساننا، ونحن الآن نبشر بها بقلمنا، إلى أن تعود الخطابة، فتنوب عن الكتابة.

اللبنانيون مظلومون وظالمون - مظلّمون لان السلطة ضعيفة ضاغطة وجائرة، وظالمون لأنهم وهم تحت الضغط والجور يتتابذون ويتطاحنون مؤثرين الخصوصيات على العموميات. فيجب على خدمتهم - ونحن منهم - التجرد في النصّح لهم، والدعوة إلى ما فيه صلاحهم ونجاحهم، ووضع مبادئ يقوم عليها حزبهم السياسي الأكبر المدعو «النهضة اللبنانية».

قد يقوم من اللبنانيين أنفسهم من يناكر ويصادر، ويشاكس ويعاكس،

ولكن لبنانية المناوئين هؤلاء غير صحيحة، لقيامها على التعصب والتحزب والنكاية والغواية. والحق ظافر، والإخلاص ظاهر.

فمن مبادئ النهضة اللبنانية:

١ - جمع اللبنانيين بدين الوطنية الشامل الكامل الفاضل « وتمزيق الأناجيل الطائفية ليسلم إنجيل المسيح » وما يقال عن الإنجيل يقال عن القرآن والتلمود وكل كتاب مقدس عند أهله. إلا أن ذلك لا يعني الكفر ولا التعطيل، فليعبد الناس إلههم في كنيستهم وجامعهم وخلوتهم وتحت أفياء الشجر وظلال الصخور إذا شاؤا وإنما فليجتمعوا (؟) بدين الوطنية الواحد وهم المفلحون.

٢ - استقلال المهاجرين « بنهضتهم اللبنانية » ما زال الإصلاح لا يتم إلا عن طريق الهجرة وعلى هم المهاجرين. إلا أن هذا الاستقلال لا يعني الانفصال، بل توحيد قوة المهاجرين ما بين القطبين وجعلهم قوة واحدة تسعى للإصلاح سعيًا مجردًا صادقًا، إلى أن ينفلت المتخلفون من قيود الوظائف، ويكشفوا عنهم غيوم السفساف، التي لا يزال حتى في المهجر اثر مجلوب (؟)

٣ - طلب أمير أجنبي من دول أوروبا الست الضامنة استقلال لبنان تكون غايته غايتنا ومصلحته مصلحتنا، ولغتنا لغته ولغة أولاده، فلا يكون دخيلاً لا يشعر بشعورنا، ولا يهيمه وهو المرجع الأكبر في الجبل أن يتعلم لغة الناس فيه ليكون حكمه معقولاً وقضاؤه مقبولاً - أمير أجنبي يكون لنا ما كان مثله لرومانيا وبلغاريا واليونان وألبانيا ولا تعود تهمه « المدة » تنقضي وينقضي الاهتمام بعد الابتداء بها بأيام - الشعب الخامل الغافل يرضى بحاكمه وقاضيه دخيلاً أعجمياً لا يشعر معه ولا يفهم لغته ليقضي بالعدل، ولا يهيمه إلا تناول المرتب وربما الرشوة (؟) مباشرة وبواسطة، وتفريق الناس لاتخاذ الأحزاب منهم. وقد يكون وضعياً قبل أن يصير حاكماً بلقب كبير ومرتب كبير وتغطرس كبير وعمل صغير.

٤ - ارجاع لواء لبنان إليه فإن لكل شعب على شيء من الاستقلال راية أو علماً أو لواء الا لبنان الذي كان منذ بدء التاريخ على كثير من الاستقلال حتى وقوع حوادثه الأخيرة التي زعم انه نال بعدها حكماً ذاتياً لا نرى له أثراً.

٥ - «تمديد لبنان بعد تقلصه» أي إعادة حدوده الأولى والطبيعية اليه ما بين نهري القاسمية والعاصي . ومعنى ذلك أن تكون حدوده كما كانت على عهد أمرائه الأصلاء من القاسمية الى جبل الشيخ الى لبنان الشرقي إلى حصص فالنهر الكبير وهي حدود تتناول بيروت وطرابلس وصيدا والسهول المحيطة به - اللبنانيون لا يطلبون التوسع بهذه المطالب بل إعادة الحدود التي انتزعها المنتزعون إليهم .

٦ - إعادة الجمارك والبريد والبرق إلى لبنان لأن الدولة «ضمتها من لبنان ضمناً» ولكنها لم تنقيد بشروط الضمان ولم تدفع إلى لبنان ما هو من حقوقه ولكل صاحب ملك حق باستعادة ملكه الذي لا يدفع الضامن ضمانه أو المستأجر أجرته، فضلاً عن أن اللبنانيين لم يطلبوا المرافىء لتكون بغير جمارك، ولا البريد ليظل عمال الأتراك عابثين ومتلاعبين به وبأقدس أسرارهم وغير حافلين بغير سرقة الحوالات المالية حتى من الكتب المضمونة وبمصادرة الصحافة الحرة لئلا يستفيق الشعب من غفلته .

٧ - جعل كل قدم تتكسر عليها أمواج البحر المتوسط من شواطئ لبنان مرفأً له إذا شاء اللبنانيون عدم الاكتفاء بجونة والنبي يونس .

٨ - اطلاق حرية الفكر والخطابة والكتابة وإنشاء الجمعيات إذ لا يوجد في نظام لبنان ما يحول دون ذلك « لولا انتصاب التماثيل الشمعية المحركة بزنا برك (?) المارب والمفاسد في مجلس إدارة لبنان» - إن مجلس إدارة لبنان هو المجلس المشترع في الأصل ويجب أن يكون الاكتفاء دون سواهم فيه لا أن يجاز القمار، الذي هو على كل شعب متمدن عار، لمجرد أن أعضاء

مجلس الإدارة مقامرون... - إن حرية الصحافة ضرورية للبنان إلا إذا رضي مجلس الإدارة بأن يكون خائناً متلاعباً خوفاً من الانتقاد وعملاً بالاستبداد ولكن كم يطول هذا الوقت... - يجب أن يكون لبنان في الشرق مثل سويسرا في أوروبا فهل تتحرك «التماثيل» لإبقاء آثار وطنية لا آثار عار وأقذار!!

٩ - إقامة مندوب في أوروبا يمثل اللبنانيين ويطالب بحقوقهم ولا يكون له اهتمام بغير مفاوضة الدول الضامنة استقلال لبنان ومفاوضة وزاراتها الخارجية بكل ما يحتاج إليه الجبل.

١٠ - إقامة «رقيب» على الحكومة اللبنانية في نفس لبنان يناصر الأكفاء المخلصين للوطن ويصادر الأدنياء الخونة فيه وينشئ الفروع للنهضة في كل قضاء ومديرية وبلدة ويكون الحزب من ورائه يشد أزره كل مندوب أمين.

١١ - مازالت أكثرية المهاجرين من اللبنانيين فيجب (?) أن يكون القناصل في كل مهجر من المهاجر من اللبنانيين أو يستغنى عنهم وتفاوض قناصل الدول الضامنة في أمر حماية اللبنانيين ومصالحهم.

١٢ - إنشاء مدارس عمومية في لبنان تعلم فيها لغة البلاد قبل سائر اللغات وتنصرف فيها الهمم إلى تعليم الصناعة والتجارة والزراعة والتعدين وغير ذلك مما يحتاج إليه اللبنانيون ويجب أن يوضع للبنان تاريخ صادق وخريطة صحيحة لمدارسه العمومية. والهدى الذي يقترح هذا الاقتراح يقوم بنفقات الطبع فلا نضل نتعلم تواريخ الأمم الغربية وحدودها ونجهل تاريخنا وحدود بلادنا.

١٣ - وضع قانون عام للنهضة اللبنانية لا يجوز لأي فرع منها الزيادة عليه أو الحذف منه إلا في الترتيبات المحلية التي لا علاقة لها بالمبادئ ويجب أن يكون المركز الرئيسي للولايات المتحدة وكندا والمكسيك وجزائر الهند الغربية وبعض الجمهوريات اللاتينية واحداً في نيويورك أما سائر

المهاجر فيجب أن يكون نظام واحداً باستقلال كل بلاد بنهضتها وفروعها بشرط التقيد «النظام الواحد» والاشتراك في العمل الواحد على حد ما هي الولايات من «مركز الاتحاد» أو المقاطعات من العاصمة (؟)

١٤ - إصدار كتاب كل عام من أقلام أدباء النهضة اللبنانية في كل بقعة من العالم تكون مواضيعه الإصلاح والتربية والسياسة والاجتماع والتعليم بفروعه وغير ذلك مما تدعو إليه الحاجة ويجب أن تكون أسماء الأعضاء وبيان الدخل والخرج في آخر هذا الكتاب مع قانون النهضة المعدل.

١٥ - تعديل قانون النهضة اللبنانية عند التثام كل مؤتمر تعقده يكون مؤلفاً من نواب كل فرع مستقل أو مرتبط في مدينة متوسطة وموافقة للجميع وقبل انتهاء مدة المتصرف بسنة (؟)

١٦ - من حق كل مشترك في النهضة اللبنانية التصويت لمرشحي المركز الرئيسي مباشرة لمن كان غير منضم إلى فرع أو بواسطة الفرع الذي يكون منه ويعلن الترشيح مقدماً.

١٧ - للمرأة الحقوق الوطنية بالانضمام إلى النهضة اللبنانية وبإنشاء الفروع لها أو بالانتخابات عموماً (؟).

١٨ - السعي مع الممولين لإنشاء الشركات على اختلافها لا تكون النهضة فيها إلا منشطة (؟) وتكون كل شركة مستقلة بإدارتها ونظامها - الشعب الذي لا يتحد في الشركات لا يستطيع الاتحاد في غيرها وبكل أسف نقول إنه لا يكون ارتقى كثيراً.

١٩ - العدول عن التبرعات للمشاريع المدعوة في الوطن عمومية وهي خصوصية لم يتم منها حتى الآن مشروع واحد على ما نعلم بعد جمع عشرات ألوف الدولارات ولا سيما أن (؟) فضل المهاجرين غير معترف به وإذا كان من اعتراف بفتفوق عليهم (؟) وبذكر واجب لا ندرى مصدره

قبل الاعتراف المخلص بالمساواة (؟) - المهاجرون ساعدوا كل مشروع وهمي في الوطن منذ ثلاثة عقود من السنين ولم يساعدهم المتخلفون بشيء حتى في اصلاح البلاد فمن العدل أن يعدلوا عن الاستئثار الى الخدمة الوطنية المتساوية وأمام المهاجرين واجبات كثيرة من الضروري القيام بها - يجب العدول عن التبرعات إلى أن يتم المشروع الوطني على الأقل .

٢٠ - تكافل المهاجرين والمتخلفين في كل ما يعود على الوطن بالإصلاح والرقى .

٢١ - الاهتمام بالجندية اللبنانية اهتماماً تنظر فيه النهضة .

٢٢ - بذل العناية التامة لإنجاح قلم المهاجرة وصون أموال وأعراض المهاجرين الجدد .

٢٣ - إذا كان المهاجرون مطالبين بالأموال الأميرية وسائر الضرائب فمن الواجب أن يكون لهم رأي في حكومتهم وأعمالها وانتخاباتها .

٢٤ - عضو مجلس الادارة «شيخ مشرع» أو «سناتور» فمن العار على البلاد أن يكون غير متعلم ولا متهذب إن لم يكن متشريعاً .

٢٥ - ترمي النهضة اللبنانية الى إنشاء مدرسة داخلية في أمريكا الشمالية لإحياء اللغة العربية وبهاء الوطنية ولتنشئة الصغار على المبادئ القويمة وأهم ما ترمي اليه حمل مدارس الوطن على تعديل انظمتها فلا ينفق التلميذ ربع عمره قاتلاً ويخرج بعد هذه الخسارة غافلاً .

٢٦ - جعل لبنان مصيفاً جميلاً ونقياً والآداب والأخلاق مثله بالمناظر والماء والهواء (؟) .

٢٧ - تحويل أفكار المهاجرين عن إقامة الدور والقصور - الا ما كان ضروريا - الى انشاء المعامل والعناية بالزراعة والصناعة واستشارة دفائن كنوز لبنان .

٢٨ - تعليم الاقتصاد على انواعه وترويج المصنوعات والمستغلات الوطنية .

٢٩ - حؤول أعضاء النهضة اللبنانية دون الخلافات الطائفية والقومية والبلدية والفصل بين المختلفين منهم في محاكم النهضة الخصوصية الا اذا عز التوفيق .

٣٠ - انشاء جريدة رسمية مساهمة في كل بلاد فيها مركز رئيسي للنهضة وانشاء مجلة نسائية عند الحاجة والمقدرة .

٣١ - الاهتمام بالغرف التجارية الضرورية للمهاجرين .

٣٢ - السعي لإقامة رؤساء أساقفة في المهاجر للطوائف النائلة امتيازات في الوطن لصون الشرف ومنع الاستثمار اسوة بالطوائف الممتازة في اوروبا .

٣٣ - مساعدة نوابغ أعضاء النهضة أو نوابغ أبنائهم .

٣٤ - عدم مساعدة الكنائس الا اذا كان لها مدارس في الوطن والمهجر .

٣٥ - التفاهم مع رؤساء الأديان لخدمة الشعب وافادته بتنفيذ غاية الواقفين من الأوقاف دون تعرض لأي حق راهن لهم .

٣٦ - يجب اقامة وكلاء للنهضة حيث لا يوجد فروع او حيث يكون انشاء الفروع مبدداً لا موحداً .

٣٧ - مرتب الدخول دولار واحد في السنة يجب ايصاله الى المركز الرئيسي من كل عضو في النهضة الا اذا شاء العضو التبرع . اما الفروع فلها ان تتفاهم مع الاعضاء على طرائق القيام بالنفقات المحلية (؟)

٣٨ - ينتخب نائب الرئيس وامناء الصندوق والمديرون من التجار اما الرئيس فيجب ان يكون غير تاجر صوناً لحقوق مصالح سائر التجار .

٣٩ - لا يقبل الأمي - الذي لا يحسن القراءة - عضواً الا في السنين

الخمس بعد إعداد القانون الأساسي ولا يقبل غير المستقيم على الإطلاق .
٤٠ - يجب ترغيب الشبان في تعليم الصناعات والفنون استعداداً لخدمة الوطن بما يكونون تعلموه .

٤١ - يعتبر مُفشي أسرار الجمعية «خائناً» ويطرد بعد المحاكمة .
٤٢ - لا يقبل عضو في النهضة كل (؟) من يكون منتظماً في سلك جمعية في مبادئها ما يخالف مبادئ النهضة اللبنانية .
٤٣ - للجمعية شارة وكلمة تعارف وقوانين تعرف من النظام العمومي بعد طبعه .

٤٤ - تسعى النهضة اللبنانية لإحياء ذكر النوابغ في العلم والوطنية من رجال ونساء بطبع نتائج قرائحهم وإقامة تماثيل للعظماء منهم .
٤٥ - من مساعي النهضة اللبنانية إنشاء المتاحف الوطنية وصون كنوز الحفريات والعاديات وحفظ كل ما يهتم القوم الراقي (؟) بحفظه .
٤٦ - يجب أن يكون لنا «جمعية علماء» تبذل منتهى العناية بإحياء اللغة والفنون الجميلة ومنها تتفرع العلوم والتاريخ والجغرافيا وغير ذلك .
هذا أهم ما مر في خاطرنا من المبادئ والمنازع التي نقبل المسؤولية عليها دون أحد من الناس ولنا في أكثر هذه البنود كلام نتبسط فيه ونرجو أن يكون عند صادقي الوطنية مقبولاً .

إلا أننا لا ندعي بأن ما جئنا به يجب أن يعتبر فصل الخطاب وإنما أردنا أن نوقف الشعب على الأهم من مرامي هذا الحزب الأكبر المدعو نهضة لبنانية وهو حزب لم يظهر مثله حتى يومنا هذا في العالم العربي ولا انضوى تحت لواء أي جمعية عربية العدد المنضوي تحت لوائه .

في كل مصر وقطر أنصار لهذا الحزب لا نعلن أسماء جميعهم لحوائل سياسية ونؤكد للبنانيين أننا بعد سنة واحدة نصبح ٢٥ ألفاً في المهاجر

وحدها فمن كان مؤمناً بكتاب اللبانية الشريف فليحمل لواءه بالإخلاص خفاقاً، وينشر تعاليمه بالوطنية نطاقاً، والفوز للمجاهدين اهـ.

المنار - نشرنا هذه المقالة بحروفها ووضعنا بجانب بعض المفردات والجمل علامة (?) للإشارة إلى ما فيها من خطأ أو ضعف لفظي أو معنوي (ولولا أن استحسننا انشاء الكاتب لما أشرنا إلى ذلك) ويظهر منها أن هذه الجمعية سياسية علمية اقتصادية أدبية خيرية سرية جهرية. وفي هذه المواد المنشورة تعارض وتهافت ، يمني بعضها بملكة مستقلة، كما بني بعضها على تابعة مبهمة. ولعل رئيس النهضة البارع يصححها ويرتبها بعد إعادة النظر فيها. ولا نسأله عن القوة التي يؤسس المهاجرون بها هذا الملك العظيم.

ولنردد ما تقدم بياناً بنقل النبذة التالية من جريدة أبي الهول التي تصدر في البرازيل وهي :

انا لبناني

ليقرأها اللبنانيون بتمعن!!

لا تصبح الأمة أمة حقيقية ولا يستتب لها كيان إلا متى نمت في صدور أغليبتها عاطفة حب الوطن، وكان هذا الحب مؤسساً على معرفة تاريخها، وما التاريخ إلا قطعة من قلب الأمة، وما أبناء هذا الجيل إلا أحفاد أجيال إذا تناسيناها مسخنا نفوسنا وأنكرنا الأصول التي إنما نحن لها فروع.

ولقد أثبت المدققون أن قوة الشعوب الحقيقية قائمة في إيمانها الوطني، وعرف العالم بأجمعه أن العثماني قد غلب في الحرب البلقانية لأنه فاقد هذا الإيمان، وأن الأمم البلقانية لم تنتصر ذلك الانتصار الباهر إلا لامتلاكها القوة الأدبية علاوة على قواها الحربية.

ومن الثابت أن السرب مثلاً قد انتصروا لأنهم بأجمعهم - من القائد الكبير إلى الجندي الصغير - كانوا قد رسموا في قلوبهم وأدمغتهم تذكارات

تاريخهم القديم الذي طمست به سنوات الحكم العثماني عليهم.

وفي سنة ١٩٠٧ تشكلت لجنة نيابية سربية لفحص حالة استعداد استعداد الجيش العامة، وأرادت اللجنة ان تعلم مقدار معرفة الجنود تاريخ بلادهم فوقعت القرعة على فرقة من الفرق المقيمة في أقصى أرجاء سربيا فألقيت على كل من الجنود الأسئلة العشرة التالية:

ماذا تعرف عن كرايفتش ماركو؟ وعن ميلوش او بليتش؟

عن الأمير لازار؟ وعن الإمبراطور دوشان؟

عن موقعة قوصوه؟ وعن كاراجورجس؟

عن الأمير ميلوش؟ وما هو اسم الملك الحالي؟

واسم ولي العهد؟ وهل يوجد سربيون خارج سربيا؟

فأيدت الأجوبة أن مائة في المائة من الجنود يعرفون أن «كرايفتش ماركو» ملك سربيا وبطل التاريخ الوطني كان آخر حماة استقلال سربيا ضد الأتراك.

ومائة في المائة يعرفون ان السربي «ميلوش او بليتش» قتل السلطان مراد في موقعة قوصوه سنة ١٣٨٩.

ومائة في المائة يعرفون أن الأمير «لازار» قاد الجيش السربي في معركة قوصوه وقتل فيها.

وثمانون في المائة يعرفون أن الامبراطور «دوشان» المتوفي سنة ١٣٥٥ كان أعظم ملوك سربيا القديمة.

ومائة في المائة يعرفون ان الامبراطورية السربية سقطت في موقعة قوصوه.

واثنان وستون في المائة يعرفون أن «كاراجورجس» كان زعيم الثورة الأولى السربية ضد الأتراك سنة ١٨٠٤ - ١٨١٣.

وتسعة وخمسون في المائة يعرفون أن الأمير «ميلوش» قاد الثورة الثانية التي ولدت منها سربيا الحالية سنة ١٨١٥ .

واثنان وأربعون في المائة يعرفون إسم الملك الحالي .

وثلاثة وعشرون في المائة يعرفون إسم ولي العهد .

وثمانية وتسعون في المائة أجابوا أنه يوجد سربيون كثيرون خارج سربيا .

فهذه النتائج تثبت بوضوح أن الشعب السربي بأجمعه كان - ساعة شهر الحرب على تركيا - متشرباً تذكارات تاريخه الوطني البعيدة والقريبة ومعتقداً بأن أمانة سربيا الحالية قائمة بتوسيع حدودها لامتلاك الأراضي المغتصبة وجعل سربيا كافية لضم جميع السربيين .

في هذه التذكارات كمنت قوة سربيا الحقيقية . وبهذه التذكارات انتقمت للتاريخ وانتصرت على تركيا .

لم أرو كل هذه المقدمات لأحدث القراء عن سربيا والسربيين . ولكنها أمثلة للأمم التي تريد أن تتكون وتحيا!

نحن معاشر اللبنانيين لا نحلم بمحاربة تركيا أو الثورة عليها . ولكن الألوان قد آن لنسعى في تعزيز جامعتنا القومية وتأليف أمة يعرفها العالم المتمدن «بالأمة اللبنانية» . ومن أجل ذلك يجب أن نبدأ باعتراف الإيمان الوطني وأن نؤسس هذا الإيمان على تذكارات تاريخنا البعيدة والقريبة .

لقد أنهكت مذابح الستين قوانا الوطنية ولكن نصف جيل خلا كاف لتجديد الدم اللبناني .

لو ألفت اليوم لجنة لبنانية واختارت بضعة قرى من قرى لبنان وأخذت تطرح على أبنائها الأسئلة التالية :

من هم أجداد اللبنانيين ؟ هل فقد لبنان يوماً استقلاله ؟

من هو أعظم أمير لبناني؟ من أخرج محمد علي من سوريا؟

ما هي حدود لبنان الأصلية؟ ما هي المسئلة اللبنانية؟

ما رأيك بمذابح الستين؟ ما الفرق بين المسيحي والدرزي؟

من هو أحسن متصرف وأسوأ متصرف حكم بلبنان؟

بماذا يجب أن يحلم اللبناني اليوم؟

لو ألقت هذه اللجنة وسألت هذه الأسئلة وأجاب مائة في المائة أن أجداد اللبنانيين هم الفينيقيون غزاة البحر وتجاره وأساتذة اليونان ومعدنو قسم من أفريقيا الشمالية وإيطاليا وفرنسا وأسبانيا.

ومائة في المائة: إن لبنان لم يخضع يوماً لدولة من الدول التي اجتاحت سوريا خضوعاً تاماً وأنه لا يستطيع الحياة إلا مستقلاً.

وثمانون في المائة بأن أعظم أمير لبناني هو الأمير فخر الدين المعني الثاني الذي أوصل حدود لبنان في الجيل السابع عشر من أطراف حلب إلى أوائل فلسطين ولقبه سلطان تركيا «بسلطان البر» - يليه الأمير الشهابي الكبير الذي نريد نقل رفاته من الأستانة إلى لبنان إحياءً للروح الوطنية.

ومائة في المائة بأن سيوف اللبنانيين كانت العامل الأول في إخراج محمد علي باشا المصري وإعادة سوريا إلى تركيا في أوائل الجيل الأخير.

ومائة في المائة أيضاً بأن حدود لبنان الأصلية التي اغتصبتها الدولة تمتد من أعالي طرابلس إلى صيدا ومن ساحل البحر المتوسط وفيه بيروت إلى أطراف الشام وفيها سهل البقاع وجبل انجيل لبنان المعروف بجبل حرمون أو جبل الشيخ.

ومائة في المائة بأن المسألة اللبنانية مشكلة بين الدولة ولبنان لا تحل إلا باستعادة لبنان حدوده المغتصبة وحقوقه في الكمر [الجمرك] والبريد - وان هذه المسألة يجب أن يطرحها المجلس الإداري أمام محكمة أوروبا التي

تحمينا ولنا بها علاقة منذ بضعة أجيال بتقديم دعوى بالديون التي لنا في ذمة الدولة .

وثمانون في المائة بأن مذابح الستين التي كان للمأموري الدولة اليد الأولى في إثارتها وصمة على جبين لبنان يجب أن يحوها بنزع التعصب الديني وابداله بالتعصب الوطني .

ومائة في المائة بأن الدرزي أخ للمسيحي في الوطنية، للأول ما للثاني وعليه ما عليه .

وإن أحسن متصرف جاء قبل المتصرف الحالي هو داود باشا الأرمني الذي سعى في تحسين شؤون الجبل وتوسيع أراضيه، وأسوأ متصرف هم كل المتصرفين الذين سبقوا متصرفنا الحالي .

وإن على اللبناني أن يحلم اليوم باستعادة الإمارة اللبنانية، ويساعد جمعيات المجاهدين المخلصة ليعود المهاجرون إلى بلادهم، وتعود إلى لبنان حياته ومعها العز والفخر .

... في ذلك اليوم . . . في ذلك اليوم يصبح اللبنانيون أمة حقيقية ويستطيع اللبناني أن يسمي جبله وطناً، وأن ينادي على رؤوس الملاء بكل مباهاة وافتخار: «أنا لبناني!» «أنا لبناني!»

المنار: لولا هذه النقطة التي أبهم بها الكاتب النتيجة، لقال القارئ أن النتيجة جاءت أصغر من المقدمات، لا متبعة أخس المقدمات كما يقول علماء المنطق . والمجال واسع أمام من يريد انتقاد ما كتب الكاتب، وأهم ما يهم دعاة النهضة العربية من ذلك جعل البلاد السورية أوطاناً متعددة، ومن فروع ذلك جعل هذا الكاتب اللبنانيين كلهم فينيقيين - على مذهب عبيد الله التركي الذي زعم أن نصارى سورية ليسوا عرباً - وهذا خطأ مبين، فإن كثيراً من سكان الجبل يعرفون أنهم من سلالة العرب، ومنهم أمراؤه كعبي معن وبني شهاب بالذين يفخر الكتاب بكبيريهما الأمير فخر

الدين والأمير بشير، وبني رسلان وغيرهم من الدروز. والباقون من سلاسل العرب والفنيقيين وغيرهم. ولكنهم صاروا كلهم عرباً بتوحيد لغتهم، وإنما الجنسية باللغة فكثير من الاسبانيين من سلالة العرب ولكنهم لا يعدون الآن عرباً.

يظهر مما نشرنا وما لم ننشر مما يكتبه غلاة الدعوة اللبنانية أنهم يمنون أنفسهم بما ليس في طاقتهم، يمنون بأن يكونوا دولة قوية مستقلة تمام الاستقلال، منفصلة عن جدتهم الأمة العربية وأمهم سورية نفسها، لا عن الدولة العثمانية فقط. ولا يكون مثل هذا إلا لشعب حربي قوي، ولذلك يكثر أصحاب دعوة هذا الاستقلال من ذكر قوة الجبل وامتناعه عن الفاتحين، وانتصاره على المصريين، واخراجهم جيش محمد علي الكبير من سورية وردها إلى الدولة! والاسترسال في المبالغات التي ليس من موضوعنا البحث فيها. ولنسلم لهم حديثهم عن ماضيهم، فإنه لا يمنعنا من الجزم بأنهم لا يستطيعون أن يأخذوا بقوتهم شبراً من أرض الدولة ولا درهماً من خزينتها، وإنما مسألتهم أوربية مفتاحها بيد الدول الكبرى، فإذا هن اتفقن على إعطاء الجبل شيئاً فهو الذي يرجى أن يأخذه، وإذا لم يتفقن بفرنسة وحدها لا تستطيع أن تعمل للجبل شيئاً. وإذا استطاعت الدولة أن ترضي الدول بإلغاء امتياز لبنان فإنها تلغيه، وخلاف فرنسة وحدها لا يجوز دون ذلك. فمن يعرف هذه الحقائق يجزم بأن مؤسسي جمعية «الاتحاد اللبناني» في مصر أرسخ قدماً في السياسة من سائر اللبنانيين. وأن وراء ذلك كله سياسة مثلى لو قدروها قدرها، ولم تحجبهم آمالهم بفرنسة وغيرها عنها!!

إلغاء الامتيازات الأجنبية والحذر من الفتن الأهلية

[المنار ج ١٧ (١٩١٤) ص ٩٥٥ - ٩٥٨]

أخذت الدولة العلية تعبى جيشها وتستعد للقتال عقب إعلان الحرب في أوربه، وتضافرت الروايات والآراء على أنها تحارب مع ألمانية والنمسة، وقد كان مقدمات ذلك إلغاؤها للامتيازات الأجنبية، وهي قد آذنت الدول بذلك في شهر سبتمبر، وقد خشي كثير من نصارى السوريين أن يفضي إلغاء امتيازات الدول إلى فتن أهلية في سورية، فكيف إذا حاربت الدولة روسية وفرنسة وإنكلترة الحامية للنصارى في بلاد الدولة، وقد تحدث إخواننا السوريون هنا بذلك، وكثر خوض الجرائد السورية الأمريكية في المسألة واشتد تشاؤمها ونقلت عن سفير الدولة في واشنطن كلاماً يؤيد هذا التشاؤم، حتى أنه ليخيل لمن قرأ ما كتبت، أن الفتنة وقعت أو كربت.

أما نحن فإننا نعلم أن هداية الإسلام التي حفظت لغير المسلمين حریتهم في القرون التي كانت دول الإسلام فيها أقوى دول الأرض لا تزال ذات السلطان الأعلى على نفوس المسلمين، فإذا كانت السياسة قد غلبتها أو استخدمتها في بعض الأوقات في العدوان الذي تنهى عنه فلن تستطيع أن تنال ذلك في كل وقت، بل نعلم فوق ذلك أن مسلمي سورية صاروا يعلمون أن مصلحتهم القومية والوطنية لن تقوم إلا بتعاونهم مع سائر أبناء وطنهم المشاركين لهم في تلك المصلحة - فالنتيجة إذاً أن دين المسلمين وديناهم متفقان على نهيهم عن الاعتداء، وحثهم على التعاون والاتفاق، وقد كان للنهضة العربية الحديثة أعظم التأثير في ذلك.

واننا على ثقتنا بما بينا قد كتبنا مكتوبات خاصة الى من نشق بحسن

سعيهم في البلاد السورية نذكرهم فيها بما يجب عليهم العناية به الآن، ونشرنا في جريدة الأهرام اليومية التي صدرت في ٦ ذي القعدة الماضي (٢٦ سبتمبر سنة ١٩١٤) خطاباً عاماً في ذلك نبثه هنا ليكون أثراً تاريخياً، إذ تأخر صدور هذا الجزء من المنار ومنعت الصحف المصرية من دخول البلاد العثمانية وهذا نصه:

الى إخواني الكرام مسلمي سورية

«وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم

والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب»

[سورة المائدة رقم ٥ الآية ٢]

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد فإنني أحمد إليكم الله عز وجل. وأصلي وأسلم على رسوله محمد نبي الرحمة. ثم أشكر لكم ما أظهرتموه من النجدة والهمة، في الإخلاص والطاعة للدولة، وبذل الأنفس والأموال والثمرات لها، والكف الموقت عن طلب الإصلاح منها، وتقديركم الحال الحاضرة قدرها، حتى أنكم ساهتمتم في هذا أرقى أمم الأرض التي سكنت عن جميع مطالبها ومنازعاتها الداخلية، عندما رأت حكوماتها بازاء الأخطار الخارجية، مضطرة لتقلد السلاح، والاصطلاء بنار القتال، فحيّاكم الله أيها الإخوان، وزادكم نجدة وأريحية، واستمساكا بعروة الدولة العلية، بحسب ما تهدي إليه الشريعة الإسلامية، وتقتضيه الوراثة العربية. ولا يتم لكم هذا إلا بالالفة والاتفاق مع أبناء جنسكم ووطنكم من غير أبناء دينكم، الذين ساوت الشريعة بينكم وبينهم في الحقوق العامة، وأوجبت عليكم ما لم توجبه شريعة من العدل والإحسان، وتأكيد الوصية بالجيران.

أيها الإخوان الكرام! بلغنا ان الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، قد أخذ ينفث وسوسته هذه باسم الجامعة الإسلامية،

والقيام بالنهضة الدينية، فلا يفتننكم الشيطان، ولا يخدعنكم باسم الإسلام وتحريف آيات القرآن، فإن بعض الذين يطلبون المال والجاه بهذه الأسماء لا يفهمون مسمياتها، ويستدلون بالآيات ولا يعقلون مدلولاتها، ألستم تعرفون بينكم ممن يلفظ بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية، من لا يعرف عقيدة الإسلام كما يجب، ولا يصلي ولا يصوم؟ ولا نبحت في زكاة أمثال هؤلاء وحجهم فإنما وجوب الزكاة والحج على مالك النصاب والمستطيع، وربما يدعون عدم الاستطاعة.

إنكم تعرفون هذا بينكم، وإن لمن تعرفون من هذا الصنف أعواناً في غير بلادكم، هم أشد منهم نفاقاً وأبرع في فن التجارة بالدين، فلا تغتروا بما يقولون ولا بما يكتبون، ورب كلمة حق أريد بها باطل، ومن المسائل المعلومة من الدين بالضرورة ان الله تعالى حرم البغي والعدوان. حتى أنه قال فيمن يقاتلون المسلمين «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين» [سورة البقرة رقم ٢ الآية ١٩٠] وانني أستحي أن أطيل عليكم في سرد الدلائل على تحريم البغي والتعدي لأن هذا مما تعرفه العامة كما تعرفه الخاصة، فالإطالة فيه تتضمن نسبة الجهل اليكم (وحاشاكم).

نعم، إن العامة عرضة للغش والخداع ولا سيما إذا جاءها الخداع من باب الدين، فيجب على خاصتكم أن تحذروا عامتكم من وسوسة المنافقين الذين يبيغونكم الفتنة «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها»

وأذكركم بباب آخر من أبواب الخداع. وهو تحريضكم على النصارى بذنب ميلهم إلى الأجانب من أبناء دينهم كراهة لكم وللدولة العلية لأجل الدين، وربما ينقل إليكم أو تسمعون ما يدل على ذلك، ألا فاعلموا أن هذا إن صح وفرضنا أنه عام فيهم - فإنه لا يبيح لكم الاعتداء على أنفسهم ولا على أموالهم، لأن الشريعة الإسلامية لم تضع عقوبة دنيوية على الميل والحب والبغض ونحو ذلك من أعمال القلوب، على أن الأحكام

هم المطالبون بتنفيذ العقوبات لا أفراد الأمة. ولا نبحت هنا في عذر من يجب الأجانب لإحسانهم إليه وإلى أهل ملّته. ومن يبغض الوطني لظنه أنه لا ينجيه من شره وأذاه إلا حماية الأجانب له.

إذا وقع أقل عدوان منكم على غيركم في هذه الأيام، تكونون قد أثبتتم بالفعل أن ترك العدوان قبل اليوم إنما كان خوفاً من الأجانب لا عملاً بهداية الإسلام، ولا قياماً بحقوق تكافل أهل الأوطان، هذه هي التهمة التي يرمينا بها من يجهل حقيقة ديننا وتاريخنا، إذ كانت دولنا أقوى دول الأرض كلها، وكان المخالفون لنا في الدين يفضلون حكم خلفاء المسلمين، على حكم أبناء دينهم من الرومانيين.

إن لنا في هذه الأيام أفضل فرصة لاقناع أبناء جنسنا ووطننا، بما نتحدث به دائماً فيما بيننا من حسن نيتنا، ورغبتنا في الاتفاق معهم، على كل ما فيه مصلحتنا المشتركة بيننا وبينهم على قاعدة المنار الذهبية: «نتعاون فيما نشترك فيه. ويعذر بعضنا بعضاً فيما نختلف فيه» ونحن متفقون في اللغة وفي مصالح البلاد الزراعية والصناعية والتجارية والاجتماعية فتتعاون على ذلك بغاية الإخلاص. ويعذر بعضنا بعضاً في أمر الدين.

ثم إنني أختم الكلام بما بدأت به من حمدكم وشكركم على بذل الجهد في طاعة الدولة العلية، وإثبات كون النهضة العربية نهضة علم وعمران ترتقي بها الدولة العلية، لا نهضة مقاومة ومشاكسة للتركية، ولكنني أذكركم بأن الطاعة الواجبة للدولة إنما هي طاعة أوامرها الرسمية الشرعية، فلا تدعوا العامة تنخدع بدعوى الأوامر السرية أو الشفوية. فضلاً عن أوامر الجمعيات والأحزاب وغيرها، ولا سيما إذا كانت مخالفة لهداية الشرع ومصلحة الأمة والوطن «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» والسلام على من اتبع الهدى. ورجح الحق على الهوى.

أخوكم محمد رشيد رضا

منشئ المنار

[المنار ج ١٨ (١٩١٥) ص ١٨٢ - ١٩٢]

لقد أرتنا هذه الحرب من ضروب العبر، ما لم يكن يخطر قبلها على قلب بشر، وهتكت لنا من أستار الرياء، ما أرانا كثيراً من حقائق الأشياء، التي لم يكن يلمحها إلا أفراد الحكماء، فظهر للذكي والبليد، والغويّ والرشيد، أن هذه المدنية المادية، مدنية قوة وحشية، وشهوات بهيمية، كانت تخدع الأبصار وتفتن البصائر، بما يدعيه أهلها في زمن السلم من حب الحق والتحلي بلباس الفضائل، واقامة ميزان العدل، وثل عروش أئمة الجور والظلم، حباً في سعادة الناس، ورغبة في المساواة بين الأفراد والأجناس.

وقد كان من مقدمات هذه الحرب بين الدول الكبرى حربان في البلقان، اقترف فيهما البلقانيون من ضروب القسوة وفظائع العدوان، وتقتيل الشيوخ والولدان، وهتك الأعراض ونهب الأموال، ما لم يعرف التاريخ أقبح منه منظراً، ولا أسوأ عاقبة وأثراً، ولم يكن يخطر في بال أحد أن هذه الموبقات يمكن أن يقع مثلها من دولة من الدول الكبرى، دول العلم والفنون والمدنية الرائعة في هذا العصر الذي يفضلونه على جميع العصور، ويسمونهم عصر الحضارة والنور. نعم، إن أنواره المادية يكاد شعاعها يذهب بالأبصار، ويمكن أن يفضل بها الليل على النهار، ولكن يتمثل لك في هذا الضوء عالم المدنية، هيكلاً من هياكل الوثنية، قد نصب في محرابه تمثال القوة الحربية، واضعاً إحدى قدميه على الحق والأخرى على

الفضيلة، رافعاً بيمنى يديه راية القهر والسلطة، وبشائها راية الشهوة واللذة، والناس ما بين راعٍ له وساجد، ومحرِّق للبخور ومقدم للذبايح.

قلما كان أحد من الناس يظن أن دول العلم والحضارة تقترب مثل ذلك الظلم والعدوان، وتجترح تلك السيئات التي اجتاحتها شعوب البلقان، فجاءت هذه الحرب مكذبة لظن الخير فيها، وأحقت من القضاء بالقسوة والفضاعة عليها شر ما أحقت على من قبلها، إذ كانت أقدر على التنكيل والتدمير من البلقانيين الذين هم عالة عليها، بقدر ما آتاهم العلم من أسبابها وآلاتها، فقد جعلت العلم الجدير بأن يكون مصدر العدل والرحمة والسعادة، مصدراً للظلم والقسوة والشقاوة، فهذه دولة ألمانية الممتازة بسعة العلوم وإتقان الفنون، قد امتازت بما اخترعته من آلات التخريب وأسباب المنون، وينقل لنا عنها محاربوها ما تقشعر منه الجلود، ويتصدع من هوله الحجر الجلمود، من مدافع تدك الحصون والمعاقل، وغواصات تنسف البوارج والبواخر، وغازات سامة يتكون منها دخان أخضر، يقتفي آثاره الموت الأحمر، فهو مصداق قول الله تعالى «فارتقب يوم تأتي السماء بدُخانٍ مبينٍ* يغشى الناس هذا عذابٌ اليم» [سورة الدخان رقم ٤٤ الآية ١٠ - ١١].

وضعوا للحرب قوانين لتخفيف نكباتها ومصائبها مستمدة محاسنها من الشريعة الإسلامية، شريعة العدل والرحمة، ولكن ثبت أنهم ما رعوها حق رعايتها، وإنما يعملون بها في بعض الأمور الظاهرة المشتركة بين كل من المتقاتلين كمعاملة الأسرى، ومن أمن منهم أن يعاقب بمثل ما عاقب به لعجز خصمه أو لإمكانه إخفاء جانيته، لم يلتزم أحكام قوانين الحرب وحقوق الدول ولا معاهداتها احتراماً لها، أو حباً في الحق والعدل اللذين توضع القوانين والعهود لأجلهما.

فأين حرب هذه الأمم والدول التي خدع الناس كلهم حتى المسلمون بها، وصاروا يباهون بفضائلها، وارتقائها في معارج المدنية الإنسانية

بعلومها وفنونها، - من حرب الصحابة الذين كان أكثرهم أميين؟ تلك الحرب التي لم يعرف التاريخ البشري مثلها في رعاية الحق والعدل والورع، واستعمال الرأفة والرحمة في السر والعلن، بل شهد فيلسوف التاريخ والاجتماع «غوستاف لوبون» للعرب كلهم بذلك فقال: ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب. فبذلك العصر النوراني فليفاخر المفاهرون، لا بعصر الوحشية المنظمة التي جاء بها القرن العشرون.

هل نقل ناقل أو قال إن أحداً من الصحابة عليهم الرضوان أو ممن حارب معهم من التابعين انتهك عرضاً، أو قتل شيخاً أو امرأة أو غلاماً، أو سلب لأحد من أعدائه مالا، أو هدم كنيسة أو ديراً، أو قتل راهباً أو قسيساً؟ أو مثل بقتيل، أو أجهز على جريح؟ كيف وقد كان الرسول (ص) يوصيهم بمثل قوله «انطلقوا باسم الله وبالله (ص) ولا تقتلوا شيخاً فانياً^(١) ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، «وأحسنوا ان الله يحب المحسنين» [سورة البقرة رقم ٢ الآية ١٩٥] رواه أبو داود من حديث انس بن مالك - وروى احمد من حديث ابن عباس قال كان رسول الله (ص) إذا بعث جيوشه قال «اخرجوا باسم الله تعالى تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا^(٢) ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع».

ومن وصايا الخليفة الأول أبي بكر الصديق (رض) المقتبسة من مشكاة النبوة ما رواه مالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد أن أبا بكر بعث جيوشاً إلى الشام فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان - وكان يزيد أمير ربع من تلك الأرباع - فقال إني موصيك بعشر خلال: لا تقتل امرأة ولا صبيلاً ولا

(١) المراد بالشيخ الفاني من لا يقاتل وقد كان الناس كلهم مقاتلة الا هؤلاء الذين نهى الحديث عنهم والقاعدة الاسلامية العامة أنه لا يقاتل الا من يقاتل.

(٢) الغلول الخيانة والغنائم. والتمثيل تشويه الأعضاء بنحو قلع العين وجذع الانف وصلم الاذن. وقد حرم الاسلام بالتمثيل بالقتل فضلاً عن الاحياء، وقد ثبت وقوع التمثيل في حرب المدنية الاوروبية وفي الحرب البلقانية قبلها.

كبيراً هرمّاً، ولا تقطع شجراً مثمراً، ولا تخرب عامراً، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكله، ولا تعقرن نخلاً ولا تحرقه، ولا تغلل ولا تحجن^(١).

نعم، قد كان يقع قليل من الشذوذ يقابل بالإنكار، إلا إذا دفع إليه الاضطراب، والنادر لا حكم له. روى الشيخان وأصحاب السنن ما عدا النسائي وغيرهم عن ابن عمر قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي النبي (ص) فهي رسول الله (ص) عن قتل النساء والصبيان.

وروى أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن رياح بن ربيع أنه خرج مع رسول الله (ص) في غزوة غزاها وعلى مقدمته خالد بن الوليد فمر رياح وأصحاب رسول الله (ص) على امرأة مقتولة مما أصابت المقدمة فوقفوا ينظرون إليها حتى لحقهم رسول الله (ص) على راحلته فأفرجوا عنها، فوقف عليها رسول الله (ص) وقال «ما كانت هذه لتقاتل - وقال لأحدهم - إالحق خالداً فقل له لا تقتلوا ذرية ولا عسيفاً^(٢)». وروى أبو داود في مراسيله عن عكرمة أن النبي (ص) مر بامرأة مقتولة يوم حنين فقال «من قتل هذه؟» فأخبره رجل أنه كان غنمها فلما رأت الهزيمة أهوت إلى قائم سيفه لتقتله به فقتلها قبل أن تقتله. ولا أتذكر قتل امرأة في مغازي النبي (ص) غير هاتين إلا تلك المرأة اليهودية التي أمرها زوجها أن تلقي الرمح على بعض المسلمين في غزوة بني النضير ليقتلوها فلا تعيش بعده إذ كان موطناً نفسه على أن يقاتل حتى يقتل ففعلت.

وقد كان رفيق النبي (ص) بالنساء أعظم من ذلك، فقد روى ابن إسحق أن بلالاً مرّ بصفية وابنة عم لها على قتلى يهود بعد سقوط حصن بني أبي الحقيق فلما رأت المرأة القتلى صكت وجهها وصاحت وحثت

(١) أخين الرجل خياً في خينة ثوبه أو سراويله شيشاً. والحنة بالضم طية الثوب وثنيته. وفي نسخ الموطأ المطبوعة وأكثر الكتب التي نقلت عنه: ولا تحجن بالجيم

(٢) العسيف الأجير.

التراب على وجهها فقال النبي (ص) لبلال «انزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلهما»؟

ومن ضروب العبرة في حرب المدنية الأوروبية كثرة ما يتقاضونه من البلاد التي يفتحونها من الغرامات، وما يفرضونه عليها من الأتاوات، وقد كان المسلمون الأولون يكلفون أهل البلاد ضيافة ثلاثة أيام، لضرورة الحاجة إلى القوت وعدم تيسر أسبابه بالطرق النظامية المتبعة في هذه الأيام، وأما الجزية والخراج اللذان يفرضونهما على أهل البلاد فهما أقل مما تفرضه كل حكومة من حكومات الأرض على أبناء جنسها في بلادها، دع ما تفرضه الحكومات الأوروبية في مستعمراتها، فهو يستغرق معظم غلات أرضها، فلا يبقى لأكثر أهلها منها إلا ما يسد الرمق، ويستعين به على مداومة العمل، وقد قرأنا في الصحف ما فرضه الألمان على أهل بلجيكة من الغرامات وما حملوهم من الأثقال، بعد ما حل بهم ما حل من الخزي والنكال، فإذا هو مما تعجز عن حمله الجبال لا الجمال، ولا غرو فإن كل حظ أهل هذه المدنية المادية من الحياة والدافع لها إلى القتال، إنما هو الاستكثار من جمع الأموال، والتمتع باللذة والعظمة والسلطة والجاه، ولو ظفر البلجيكيون بالألمان، لأنزلوا بهم الخزي والهوان، وعاملوهم كما عاملوا أهل الكونغو منذ أعوام، فأين هذا من عفة المسلمين ولا سيما الصحابة الكرام.

روى البلاذري في فتوح البلدان عن سعيد بن عبد العزيز قال: بلغني أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم عليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم . فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود فقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد . فأغلقوا الأبواب

وحرسوها. وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود، وقالوا إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه، وإلا فإننا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد. فلما هزم الله الكفرة، يعني الروم أي الرومانيين، وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم وأخرجوا المقلسين وأدوا الخراج، اهـ.

وفي رواية أحفظها ولا أتذكر موضعها الآن أن الصحابة لما ردوا ما كانوا أخذوا من الجزية قالوا إنا كنا أخذناها جزاء حمايتكم والدفاع عنكم وقد عجزنا الآن عن ذلك، فحلف الأهالي أن أبناء دينهم ما كانوا ليرجعوا مالاً أخذوه، الخ.

فهل عهد من فاتح في الأولين والآخرين أن يرد الخراج إلى أهل البلاد التي يفتحها، بناء على أن الخراج لا يباح أخذه إلا لأجل حفظ البلاد والدفع عنها، وإن العجز عن ذلك وإن كان في سبيل الدفاع عن تلك البلاد يوجب رد الأموال إلى أصحابها؟ لا، إن هذا العدل والورع لم يعرفه البشر إلا من الصحابة رضي الله عنهم، فإن كان من وليهم من خلفاء العرب وأمرائهم دونهم، فهم يفضلون سائر الأمم في رفقهم وقناعتهم.

كان بنو أمية أحرص العرب على نعيم الملك وسعة العيش، فخرجوا في كثير من أمر السلطة والتصرف في بيت المال عن السنة المتبعة وسيرة الخلفاء الراشدين وإنما استقام عليها منهم عمر بن عبد العزيز. أما سيرتهم في الغزو والقضاء بين الناس وإدارة البلاد فكانوا يتحرون فيها العدل والرحمة، وكذلك كانت سيرة العباسيين في الشرق، والأمويين في الغرب، أي الأندلس، ومن شذ عن ذلك لغير سبب حفظ الملك كان مذموماً وعرضة للعقاب، وقد تضاعفت ثروة الممالك واستبحر عمرانها بعد أن انتزعوها من الروم والفرس. بما كانوا يسوسونها به من الرحمة والعدل، ولم يفتن لهذا بعض الكتاب الذي انبرى في هذه الأيام إلى ذم ولاية العرب بكونهم لم يكن لهم هم إلا جبانة الخراج، وقوله في أفراد منهم إنهم لم

يفعلوا شيئاً للبلاد، أو لم يقل فلان المؤرخ إنهم فعلوا شيئاً، وهو يعلم علماً ضرورياً أن عدم القول لا يستلزم عدم الفعل، وإن ما سكت عنه زيد يجوز أن لا يسكت عنه عمرو، ويعلم علماً نقلياً أن مزية الفاتحين الأولين من العرب هي العدل والرحمة لا الصناعة التي امتاز بها مؤسسو الأهرام وأمثالهم، وكانت ولا تزال شاهدة على استبدادهم وظلمهم.

كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز يشكو إليه قلة دخل بيت المال بمصر بكثرة دخول الناس في الإسلام، ويستأذنه في ضرب جزية على المسلمين. فكتب إليه عمر هذه الكلمة العالية «إن محمداً (ص) بُعث هادياً، ولم يبعث جابياً».

وكتب إليه عدي بن أرطاة: أما بعد أصلح الله أمير المؤمنين فإن قبلي أناساً من العمال قد اقتطعوا من مال الله عز وجل مالاً عظيماً لست أرجو استخراجهم (وفي رواية: لست أقدر على استخراجهم) من أيديهم إلا أن أمسهم بشيء من العذاب. فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ذلك فعلت» فأجابه بقوله:

«أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب بشر، كأني لك جنة من عذاب الله. وكأن رضائي عنك ينجيك من سخط الله عز وجل، فانظر من قامت عليه بينة عدول فخذها بما قامت عليه به البينة، ومن أقر لك بشيء فخذها بما أقر به، ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم وخل سبيله. وأيم الله لأن يلقوا الله عز وجل بخياناتهم، أحب إليّ من ألقى الله بدمائهم. والسلام».

وروي عن يحيى الغساني أنه قال: لما ولاني عمر بن عبد العزيز الموصل قدمتها فوجدتها من أكثر البلاد سرقاً ونقباً، فكتبت إلى عمر أعلمه حال البلد وأسأله: آخذ الناس بالظنة، وأضربهم على التهمة، أم آخذهم بالبينة، وما جرت عليه السنة؟ فكتب إليّ أن خذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله. قال يحيى ففعلت

ذلك فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقا ونقبا.

ومن ضروب العبرة في هذه الحرب ما تراه في كلام كثير من الكتّاب من بنائها على قاعدة من قواعد المدنية الحديثة قررها الألمان وتوسعوا في فلسفتها وألفوا فيها الكتب، ووافقهم عليها من وافقهم بالقول والفعل أو بالفعل دون القول - وهي قاعدة «الحق للقوة» - وقد نشرنا في الجزء الذي قبل هذا مقالا في شأن الكتاب الذي ألفه أحد قواد الألمان وعلمائهم «الجنرال فون برنهاردي» في ذلك وسماه المنطق والمبادئ في الحروب وفي مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية له، ومنه تعلم أنهم جعلوا الأثرة وتفضيل الأقوياء على الضعفاء حتى في الحقوق المدنية مما تقتضيه الفضيلة والحكمة بل زعموا أنه من أصول الديانة المسيحية وأحكامها، وأن مساواة الشعب الغالب للشعب للمغلوب لا يجوز في نظر العلم والفلسفة ولا في حكم الدين.

ندع لعلماء اللاهوت ورجال الكنيسة حكمهم فيما عزاه الجنرال الألماني وغيره إلى الديانة المسيحية مع اعتقادنا أن من آداب دين المسيح عليه السلام المبالغة في الايثار، الذي يعبر عنه القوم بإنكار الذات، وهو ضد الأثرة التي يدعيها هذا الفيلسوف الألماني وغيره، فهو ينافي طلب السلطة وانتزاع ملك الناس وملكهم بالقوة، لإجل التمتع بالجاه واللذة، لأن من قواعد الإنجيل أن يعطي المؤمن ما له لغيره، فكيف يتفق هذه مع انتزاعه من غيره ما يملكه؟ وأما الإسلام فهو وسط بين هذه المدنية المادية، وبين زهد المسيحية، فهو دين سيادة وسلطة مدنية، وفضيلة أدبية روحية، فالإيثار فيه فضيلة مندوبة، هو في المسيحية فريضة مطلوبة، قال الله تعالى في وصف المؤمنين «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» [سورة الحشر رقم ٥٩ الآية ٩] وأما قاعدة الإسلام في الأحكام فهي العدل والمساواة في الحقوق بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والقريب، والبعيد والحبيب

والبغيض، قال تعالى: ٥ : ٨ «ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، عدلوا هو أقرب للتقوى» والآيات في هذا المعنى كثيرة أوردنا طائفة منها في الرد على الكاتب الأميركي الذي زعم - فيما كتبه بمناسبة إلغاء الدولة العثمانية الامتيازات الأجنبية - أن الشريعة الإسلامية جاءت بعدم المساواة بين المسلم وغيره، وبيننا هنالك أنه لا تعرف شريعة في الأرض قررت هذه المساواة غير الشريعة الإسلامية. وقد جرى على ذلك الخلفاء الراشدون على وجه الكمال، وكان هو الأصل والقاعدة عند الأمويين والعباسيين في القضاء. وإنما وقع الشذوذ والخروج عنه في بعض الأحكام السياسية والعسكرية.

واقعة مساواة عمر بن الخطاب بين علي صهر الرسول وابن عمه وبين رجل من عامة اليهود، وغلط عمر في تسمية اليهودي وتكنية علي، واستياء علي منه لتفضيله إياه على خصمه بالتكنية، واعترافه هو بأن ذلك خطأ - واقعة مشهورة معروفة. وقد جرى لعمر بن عبد العزيز ما يقارب منها:

قال الحكم بن عمر الرعياني: شهدت مسلمة بن عبد الملك يخاصم أهل دير إسحق عند عمر بن عبد العزيز بالناعورة، فقال عمر لمسلمة: لا تجلس على الوسائد وخصماؤك بين يدي. ولكن وكل بخصومتك من شئت وإلا فجائي^(١) القوم بين يدي. فوكل مولى بخصومته ففرض عمر عليه بالناعورة. ذكره الحافظ ابن الجوزي في سيرته.

قلت ان هذه الواقعة تشبه واقعة علي مع اليهودي. وأعني بالتشبيه المساواة في التكريم والاحترام بين الرفيع وإن كان بيت النبوة أو الملك وبين سائر الناس حتى من غير المسلمين، فعلي كان سيد آل بيت الرسول

(١) أي إجلس بازائها جاثياً على ركبتيك مثلهم إذ لا تميز في الخصومة بين أبناء الخلفاء والأمراء وبين دهماء الناس كاهل الدير وغيرهم.

وعمادهم ، ومسلمة كان من بيت الملك فهو ابن عبد الملك بن مروان ، وناهيك بما كان لبني عبد الملك من العز والسلطان .

أما المساواة في الحقوق نفسها فكانت هي الأصل الذي يجري عليه كل الحكام إلا من شذ لأسباب عارضة أو لفساد في خلق الشخص ووقائعها في عهد عمر بن عبد العزيز لا تحصى . وقد كان أول مظلمة رفعت إليه يوم توليته مظلمة ذمي من أهل حمص ادعى أن العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبه أرضه ، قال عمر : يا عباس ما تقول؟ قال أقطعنيها - أي الأرض - أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وكتب لي بها سجلاً . فقال : ما تقول يا ذمي؟ قال يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل . فقال عمر : كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ، إردد عليه يا عباس ضيعته . فردها عليه .

وقد كان أهل بيت الملك من بني أمية تأثلوا ضياعاً ومزارع كثيرة من بيت المال ، وكان لبعض الناس في بعضها حق أو مقال ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز ردها ، وكان أول ما بدأ به رد ما كان له ولولده من ذلك .

وروي أنه استشار مولاه مزاحماً في ذلك فقال : يا مزاحم إن هؤلاء القوم أعطونا عطايا والله ما كان لهم أن يعطونا إياها وما كان لنا أن نقبلها ، وإن ذلك قد صار اليّ ليس عليّ فيه دون الله محاسب . فقال له مزاحم : يا أمير المؤمنين هل تدري كم ولدك؟ إنهم كذا وكذا . قال فذرفت عيناه فجعل يستدمع ويقول . أكَلهم الى الله تعالى . ثم ذهب مزاحم وذكر ذلك لعبد الملك بن عمر عسى أن يكف أباه عن ذلك . فقال له عبد الملك : بش وزير الدين أنت يا مزاحم . ثم وثب فانطلق إلى بيت أبيه عمر فاستأذن عليه فقال له الأذن : إن أمير المؤمنين قد وضع رأسه للقائلة . قال استأذن لي . قال : أما ترحمونه ليس له من الليل والنهار إلا هذه الوقعة . قال عبد الملك : استأذن لي لا أم لك . فسمع عمر الكلام فقال : من هذا؟ قال هذا عبد الملك . قال ائذن له . فدخل عليه وقد

اضطجع للقائلة فقال: ما حاجتك يا بني في هذه الساعة. قال: حديث حدثنيه مزاحم. قال فأين وقع رأيك من ذلك؟ قال وقع رأيي على انفاذه. قال فرفع عمر يديه وقال: الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يعينني على أمر ديني. نعم يا بني، أصلي الظهر ثم أصعد المنبر فأردها علانية على رؤوس الناس. فقال عبد الملك: ومن لك بالظهر يا أمير المؤمنين! ومن لك إن بقيت إلى الظهر أن تسلم لك نيتك إلى الظهر! فقال قد تفرق الناس ورجعوا للقائلة. فقال عبد الملك تأمر مناديك ينادي: الصلاة جامعة. فيجتمع الناس (قال اسماعيل بن أبي حكيم الراوي لهذه الواقعة وهو من رجال صحيح مسلم) فنادى المنادي: الصلاة جامعة. فخرجت فأتيت المسجد فجاء عمر فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا والله ما كان لهم أن يعطونها، وما كان لنا أن نقبلها، وإن ذلك قد صار إليّ ليس عليّ فيه دون الله محاسب. ألا وإني قد رددتها وبدأت بنفسي وأهل بيتي. اقرأ يا مزاحم.

قال الراوي: وقد جيء بسفط قبل ذلك - أو قال جونة - فيها تلك الكتب فقرأ مزاحم كتاباً منها فرغ من قراءته ناوله عمر - وهو قاعد على المنبر ويده جلم (أي مقص) فجعل يقصه بالحلم، واستأنف مزاحم كتاباً آخر فجعل يقرؤه فلما فرغ منه دفعه إلى عمر فقصه، ثم استأنف كتاباً آخر، فما زال حتى نودي بصلاة الظهر.

هذه هي أحكام الإسلام فمن خالفها كان خارجاً عن هديه، استعملوا القوة، في إقامة العدل مع الرحمة، وبذلك ساد من ساد من خلفائهم ودولهم، فقاعدتهم «القوة للحق» وقاعدة المدنية الحديثة «الحق للقوة» وأما المتأخرون منا فهم مذبذبون بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وما رأيت أصدق في وصف القوم ووصفهم من قول شاعر بني العنبر أول شعراء الحماسة:

لو كنتُ من مازن لم تستبح إبلي	بنو اللَّقيطة من ذهل بن شيانا
إذا لقام بنصري معشر حُشنُ	عند الحفيظة ان ذو لُوثة لانا
قومُ إذ الشرُّ أبدى ناجذيه لهم	طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندُبهم	في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد	ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيتيه	سواهم من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا	شنو الإغارة فرساناً وركبانا

ومن ضروب العبرة في هذه الحرب ما نراه في أخبارها من الكذب والتناقض والتعارض والتهاتر والتمويه والتدليس وسوء التحريف وفساد التأويل، يشترك في ذلك أصحاب الشركات البرقية. والجرائد السياسية، حتى سرى إلى المجلات التاريخية والعلمية، بل لم يعد أحد من الناس يثق كل الثقة بالتقارير والبلاغات الرسمية، لأنهم يرون كل خصم يكذب خصمه في أخباره الرسمية. ولو سئل أصحاب الجرائد في كل قطر من الأقطار عن سبب ما ينكر عليهم مما ذكر - لأجابوا: إن سببه الأول تضيق حكوماتنا علينا، وإلزامها إيانا عرض كل ما نكتبه على رقبائها الذين سلبوا حرية الكتابة منا، مع اجتهادنا في جعل ما نكتبه موافقاً لمصلحتها، وتجنبنا من تلقاء أنفسنا كل ما نرى ان نشره يخالف سياستها.

هذا عذر عارض، والمشهور بين الناس ان الجرائد لا تتحرى الصدق فيما تنشره لا في أيام السلم وعهد الحرية، ولا في أيام الحرب وعهد المراقبة، وأنها تتعمد الكذب والتمويه إذا كان لها في ذلك منفعة. والحق أنها تواريخ فيها الصادق والكاذب؛ والحق والباطل، تجمع بين الدرة والبعرة، وتأتي بالذرة واذن الجرّة؛ وإنني لا أشهد لجريدة من الجرائد التي أعرفها في الشرق أنها تمثل حال البلاد التي تصدر فيها والأمة التي تتكلم

عنها تمثيلاً صحيحاً كما يعرفه المختبر للبلاد وللأمة. ولو كانت هذه الجرائد في عصر رجال الجرح والتعديل من المحدثين، لجعلوا أصحابها في عداد الوضاعين، ولم يرتقوا بهم الى درجة الضعفاء أو المدلسين. كيف وقد ضعف بعضهم القاضي الواقدي وبعضهم قال إنه كذاب وإنه كان يضع الحديث. وهو من أكبر الحفاظ وأشهر المؤلفين، كتب عنه سليمان الشاذكوني كتاباً ثم أتاه فسأله عما كتبه عنه قبل ان يخرج به، فإذا هو لم يغير حرفاً منه.

لم تُعنَ أمة من أمم العلم بمثل ما عني به المسلمون من ضبط الرواية في القرون الأولى. فإن كانوا دونوا في تواريخهم كل ما قيل ما صح وما لم يصح لأجل الجمع والإحصاء، فالعمدة عندهم على الأسانيد، فما كان محل الشبهة منها أمكن تمحيص الرواية فيه بالبحث عن رجال سنده. فإذا انفرد بعض الرواة أو المؤرخين بطعن في العلويين أو الأمويين أو العرب، مثلاً، يمكننا بالنظر في السند أن نعرف هل فيه أحد المتعصبين غير الثقات من النواصب أو الروافض الشيعية فنتهمه بوضعه أم لا؟ وتحرير هذه المسألة لا يمكن إلا بمقال طويل، وعلى الله قصد السبيل.



[سكة الحديد الحجازية وسكة الحديد الألمانية بين الأستانة وبغداد]

[المنار ج ١٨ (١٩١٥) ص ٤٧٢-٤٧٣]

للسلطان عبد الحميد حسنة عظيمة في البلاد العربية، لا يصدنا عن الاعتراف بها، ما قيل من نيته فيها وغرضه منها، ألا وهي سكة الحديد الحجازية. التي كان يظن ويقال إنه كان الباعث له على إنشائها جعل الحجاز كسائر البلاد العثمانية في الخضوع لحكومته، والتمكن من سوق الجيوش إليها عند الحاجة، والمعروف من رأي كثير من رجال الدولة إزالة إمارة الشرفاء من الحجاز منهم أحمد مختار باشا الغازي. ولا يكون ذلك سهلاً مأمون العاقبة إلا بتمام هذه السكة. وهذا هو السبب فيما اشتهر من معارضة شرفاء مكة لمد هذه السكة بين الحرمين الشريفين.

كنا ولا نزال نرى أن هذه السكة من أكبر الحسنات، على علمنا بما هنالك من الأقوال والظنون والنيات، ولكن للسلطان عبد الحميد سيئة من جنس هذه الحسنة يزيد وزرها على أجر هذه، إن حسنت النية فيها، أضعافاً كثيرة لعلها تزيد على سبع مئة ضعف، ألا وهي سكة الحديد الألمانية بين الأستانة والعراق.

من شروط هذه السكة أن الشركة الألمانية تملك عشرين ألف متر (٢٠ كيلو) عن جانبيها ملكاً خالصاً، فعشرون ألف متر تمتد من أقصى مغرب المملكة الشمالي إلى أقصى مشرقها الجنوبي، يكون مملكة كبيرة في قلب

المملكة العثمانية، مساحتها ضعفا مساحة الأرض التي تزرع في المملكة المصرية، وهي منها في أعز مكان، كالقلب من بدن الإنسان، فكما أن القلب مصدر الحياة للبدن كذلك تكون هذه السكة مصدر الثروة والقوة وال عمران في المملكة، فكيف يعيش من يكون قلبه في قبضة أجنبي عنه. وقد كانت بريطانية العظمى على قوتها تعد وصول هذه السكة إلى الكويت أو البصرة خطراً على ممالكها الهندية. أفلا تكون هذه السكة في قلب مملكتنا خطراً عليها؟ بلى إنها وهي لغيرنا أعظم الأخطار لو كانت غفلاً من ذلك الشرط، فكيف تكون مع ذلك الشرط؟

قرأنا في أثناء هذه الحرب أخباراً عن الألمان تدل على أن امتلاكهم لقليل من الأرض في غير بلادهم أعظم خطراً عليها مما كان لا يستنبطه إلا أبعد السياسيين رأياً وأشدّهم فطنة وحذراً.

قد امتلك بعض الألمان أرضاً في فرنسا وبلجيكة فظهر بعد الحرب أنها أعدت في وقت السلم لحرب أهل البلاد التي هي فيها، فكان منها خنادق وسرايب ومواضع لنصب المدافع الضخمة، حتى قيل إن مكاناً أعده رجل ألماني في بلجيكة للعب الكرة في داره ظهر بعد الحرب أنه أعد لنصب أثقل المدافع وأقواها، وأنه وضع على البعد المناسب بينه وبين الحصون البلجيكية وما كان يمكن دكها وتدميرها إلا منه.

كنا قرأنا في المقطم أن من شروط التحالف بين ألمانية والدولة العثمانية أن الأولى لا ترضى بعقد صلح إلا إذا اشترط فيه سلامة أملاك الثانية، وأنها تعطى خمس الغرامة الحربية التي ترجو أن تأخذها، على كونها هي التي تقدم لها السلاح والذخيرة والمال لأجل الحرب. وقرأنا وسمعنا أنها وعدتها ببلاد القوقاس وغير القوقاس من البلاد الإسلامية. وكنا نفضل على كل هذه العطايا الغيبية لو اشترطت عليها الدولة أن تبطل من شروط سكة الحديد البغدادية امتلاك عشرين ألف متر عن جانبيها. إذا لم يمكن أن تترك لها هذه السكة كلها، فإن كون قلب بلادنا خالصاً لنا أهم وأنفع لنا

من ضم بلاد أخرى إليها. فلأن أملك مئة فدان من الأرض ملكاً خالصاً
أستطيع أن أعمارها كما يجب، أفضل وأنفع لي من ألف فدان فيها حقوق
للأجانب الذين يستطيعون من عمارتها ما لا أستطيع، ويخشى أن يؤول
أمرها كلها إليهم. على أن بلاد الدولة أوسع من بلاد عدة دول من الدول
الكبرى، فلو عمرت لكانت غنية بها عن سواها.

فنحن نتمنى لو تقترح الدولة على حليفتها القوية أن تعطيها هذه السكة
أو تلغي من شروط امتيازها ذلك الشرط لتجعل هذا دليلاً على اخلاصها
في محالفتها، ورغبتها في بقائها مستقلة قوية بعد انتصارها معها، وإلا كان
الخوف منها أكبر من الرجاء فيها.

جمال باشا السفاك

١٢٩

[المنار ج ٢٩ (١٩١٦) ص ١١٥ - ١١٩].

كان جمال باشا من آحاد الضباط الكثيرين المنتمين إلى جمعية الاتحاد
الترقي فلم يلبث أن ترقى فوق الهام والرؤوس إلى مقام الزعماء على حين
قد تدهور أمير الألاي صادق بك عن منصة الزعامة العليا لها وسقط كثير
من الضباط وغيرهم من مكانتهم العالية. وإنما ترقى جمال بك ببراعته
وجرأته على سفك دماء خصوم الجمعية، فهو الذي دبر مكيده المذبحة
الأولى في أدنه إذ كان والياً لها بعد الدستور، وهو الذي قتل الجم الغفير
من كبراء الأستانة المخالفين للجمعية عقب اغتيال محمود شوكت باشا،
ولأجل هذا اختارته الجمعية لقيادة فيلق سورية بعد الحرب على كونه لا
يزال ناظراً للبحرية، وما سمعنا في أخبار دولة من الدول أن أحد وزرائها

يعطى وظيفة دون الوزارة في بلاد بعيدة عن العاصمة فيكون فيها عدة سنين في أشد أوقات الحاجة إلى القيام بشؤونها وناهيك بوزيرى الحربى والبحرى فى وقت الحرب؁ ولكن زعماء الجمعية يأخذون المناصب العليا بعلومهم فى الجمعية لا بخدمتهم للدولة .

نعم؁ إن الجمعية اختارت جمال باشا لأجل أن يتم تنفيذ ما توعدت به سوريه من بضع سنين فى جريدتها طنين وعبرت عنه «بالدش البارد» وإنما كانت مذبحة الكرك وتعذيب العرب برضخ رؤوسهم بالصخور هى الرشة الأولى من هذا «الدش» وأنا - على علمنا بهذا الانذار وبما هو أشد منه وأوضح وعلى ذكرنا بعض تلك النذر فى مقالات «العرب والترک» وغيرها فى المنار - وقد ارتبنا فى أول خبر بلغنا عن شفق جمال باشا لبعض نابغى المسلمين فى بيروت . ولا يزال أكثر المصرين يكذبون أخبار التقتيل والنفى التى تكررت بل تواترت . وقد ظفرت جريدة المقطم ببيان لجمال باشا نفسه نشرته فى اليوم السابع من شهرنا هذا يصرح فيه بعمله ويحتج له . وهذا ما نشرته :

(بيان من جمال باشا)

نشر جمال باشا القائد العثمانى فى سورية البيان التالى بإمضائه فى ٥ رجب سنة ١٣٣٤ الموافق ٧ مايو سنة ١٩١٦ وهذا هو نصه العربى كما نشر بحروفه :

لما جرى القصاص على بعض الأشخاص المنتسبين إلى الحزب المتشكل فى مصر والممالك العثمانية تحت تمويه عنوان «حزب اللامركزية» والذين حوكموا فى ديوان الحرب العرفى بعالیه كنت كتبت فى البيان الذى نشرته فى أوائل اوغستوس سنة ١٣٣١ ان التحقيقات جارية بصورة دقيقة بحق أعوانهم الأشرار الذين لم يكن قبض عليهم قبلاً .

إن الوثائق السياسية التى عثرنا عليها واعتراف عبد الغنى العريسي

صاحب المفيد الذي ألقى القبض عليه أخيراً بعد أن ذكرنا في البيان فراره واعتراف سيف الدين الخطيب عضو محكمة بداية حيفا السابق ورفيق رزق سلوم ضابط الاحتياط ورفقائهم الآخرين قد نُور المسألة من جميع أطرافها وسبق إلى ديوان حرب عاليه الأشخاص الذين ظهر أن لهم علاقة في هذه المسألة بدرجات متفاوتة مع من تبين أن لهم دخلاً في المساعي الخائنة بتنفيذهم ترتيبات الجمعية وتشبثاتها وأعمالها. وفي ختام التحقيقات والمحاکمات التي أجراها الديوان العرفي في عاليه صدرت الأحكام المقتضاة بحق المظنون فيهم من الموقوفين والفارين كل على حسب اشتراكه في ترتيبات هذه الجمعية التي غايتها ومقصدها سلخ سورية وفلسطين والعراق عن راية السلطنة العثمانية وجعلها إمارة مستقلة. فحكم على شفيق بن أحمد مؤيد العظم والأمير عمر بن الأمير عبد القادر. وعمر بن مصطفى حمد. ورفيق بن موسى رزق سلوم. ومحمد بن حسين الشنطي. وشكري ابن بدري علي العسلي، وعبد الغني بن محمد العريسي. وعارف بن محمد الشهابي. وتوفيق بن أحمد البساط. وسيف الدين بن أبي النصر الخطيب، والشيخ أحمد بن حسين طباره. وعبد الوهاب بن أحمد الانكليزي، وسعيد ابن فاضل عقل. وبترو باولي. وجرجي بن موسى الحداد. وسليم بن محمد سعيد الجزائري. وعلى بن محمد حاجي عمر. ورشدي ابن أحمد الشمعة. وأمين لطفي محمد حافظ. وجلال بن سليم البخاري. بالإعدام لثبوت اشتراكهم في هذه التشبثات بالدرجة الأولى وبصورة فعلية. وعلى من تبين دخولهم في الدسياسة بصورة فرعية. سالم بن مصطفى مظلوم بالاعتقال بالقلعة خمس سنين، وتوفيق بن محمد الناطور ويوسف بن نحير سليمان بعشر سنين، وحسين بن خليل حيدر بخمس عشرة سنة، وعلى رياض ابن رضا الصلح بنفي مؤبد، وعلى الأمير طاهر بن أحمد الجزائري بعشر سنين في الكرك. وعلى الذين مع كونهم لم يفهموا المقصد والتبث الحقيقي وثبت وجود مساعٍ لهم مع هذه الجمعية بصورة محسوسة إما بسائق الجهل أو التصلف وانما لم يوجد عليهم وثائق تنور وجدان الهيئة المحاكمة وتثبت

مجرمتهم واشتراكهم وهم رضا الصلح وأسعد حيدر بإعادتها إلى منفاها. وأعطى القرار بمنع محاكمة وبراءة كل من محمد أفندي كامل الهاشم، ابراهيم القاسم. سامي العظم. الشيخ جمال الدين الخطيب. عبد الحميد معلم الرسم. محيي الدين فريجة. البيطار حسين صبري. رشدي الغزي. عاصم بسيسو الغزي. عزت الأعظمي، مصطفى الكيلاني. عبد الرحيم حنون، الدكتور حسام الدين. نجيب شقير. الشيخ فتح الله. الدكتور أحمد قدرى، سليم الطيارة. جميل الحسيني. المفتي سعيد أفندي الباني. سليم الشمعة. سليم البخاري. فائز الخوري. رشيد الخشيمي. عمر الأتاسي. البكباشي علي رضا. الدكتور أمين قزما، سعيد عدرة. الدكتور عبد الحفيظ، اليوزباشي جميل. فريد باشا اليافي. عثمان العظم.

ومن الذين صدر بحقهم حكم الإعدام وهم شفيق المؤيد. الأمير عمر. شكري العسلي. عبد الوهاب الإنكليزي. رشدي الشمعة. رفيق رزق سلوم، جرى إعدامهم هذا الصباح في الشام. والآخرى جرى إعدامهم في بيروت، وسائر المجرمين صار سوقهم الى منفاهم وجبوسهم وعلى هذه الصورة تقرر إذاً في سورية وفلسطين السكون والأمن المحتاج اليهما إلى الأبد.

وها أنا أنشر الآن من الوثائق المهمة التي كانت أساساً لهذه التحقيقات ما يكشف الغطاء عن حزب اللامركزية الحقيقي وسينشر كتاب حاو جميع الوثائق على حدة مع اعترافات المجرمين المهمة وتاريخ صغير لهذه المسألة.

ومن إمعان النظر في هذه الوثائق يفهم أولاً: إن هؤلاء الأشخاص قد ضحوا بلا تردد جميع ما لديهم من المقدسات الدينية والوطنية لقاء منافعهم الخسيسة والمادية. إن هؤلاء الأشخاص قد أشركوا مساعيهم ونفوذهم وقدرتهم اعداء الدولة وسعوا في اعداد الطاعة في الداخل تجاه تجاوزات الأعداء في الخارج.

وما هو جدير بالتقدير أن إدارة هذه التشبثات لم تتسع بالنظر لما جبل عليه العنصر العربي النجيب من الصداقة والطاعة والصلابة الدينية العارية عن شوائب الظنون والشكوك بأسرها، بل حصرت بين بعض أشخاص مسلمين ومسيحيين لا أهمية لهم ولا يكاد يتجاوز عددهم المائتين من المحكوم عليهم حديثاً وقديماً وجاهاً وغيباً.

وبناءً على الصلاحية التي تخولني إياها المادة الثانية من القانون المؤرخ في ١٤ مايو سنة ١٣٣١ المتضمن التدابير التي ينبغي للجهة العسكرية التوسل بها في وقت النفير العام ضد الخارجين على الحكومة وإجراءاتها فإني ساع في إبعاد أولئك الأشخاص الذين يتخذون حقوق الدولة ومقدساتها ملعبة في سبيل منافعهم الشخصية مع من لهم علاقة معهم من أسرهم وعائلاتهم من قريب أو بعيد إلى بعض ولايات الأناضول. وقد اتخذت الأسباب الكافلة لإعاشة هذه العائلات ورفاهيتهم في المحال التي ينفون إليها تحت عناية الحكومة السنية وعاطفتها، وسيعطون هناك أراضي وأملاكاً قيمتها تعادل أملاكهم وأراضيهم التي يملكونها في سورية. وإني أوصي جميع الأهليين في سورية وفلسطين بالسكينة والطمأنينة. على أنه من الآن فصاعداً لم يبق محل لإجراء التعقيبات والإبعاد إلى الولايات العثمانية في حق أحد مطلقاً ما لم تظهر وثائق قوية تدل على خيانتة.

قومندان الفيلق الرابع وناظر البحرية
أحمد جمال

المنار: كل ما احتج به جمال باشا لسفكه الدماء وإجلاته الناس عن أوطانهم أباطيل. وقد قتل بعد من ذكرهم هنا عدداً ليس بقليل، منهم السيد عبد الحميد الزهراوي الشهير، وأول أباطيله تسمية القتل برأيه ورأي ديوانه العرفي قصاصاً! وإنما القصاص في شرع الله أن يقتل الجاني بمن قتله بغير حق. ومعناه في اللغة يدل على المساواة والمماثلة.

ثم إنه يقول إن التهمة الموجبة للقتل والنفي هي الاشتراك في جمعية غايتها جعل العراق وسورية وفلسطين مملكة مستقلة بعد سلخها من راية الدولة، ونحن نعتقد بطلان هذه التهمة بأدلة كثيرة منها: أن الحزب الذي جعله أصلاً للتهمة التي رمى بها هؤلاء الناس له برنامج معروف مطبوع ينطق بكذب تلك التهمة. ومنها: إن هؤلاء الذين اعترف الباشا بقتلهم في هذا البيان لا يوجد فيهم إلا واحد أو اثنان من الداخلين في هذا الحزب. ومنها: إننا نعلم باختبارنا لبعضهم واختبار من نثق به للآخرين أنهم لا يجمعهم رأي ولا مودة ولا سكنى ولا معرفة فكيف يتفقون مع ذلك على أمر عظيم كالذي اتهموا به؟ وإنا الجرم الأكبر الذي يجمعهم وبه استحقوا العقاب هو أنهم من أذكى العرب الذين يقولون بوجوب محافظة قومهم على لغتهم وأن يكون لهم حظ من مشاركة الحكومة في إدارة بلادهم، وإن بعضهم ذنباً سابقة لا يغفرها الاتحاديون كإهانة شفيق بك لطلعت بك، والسعي لعدم اقراض أوربة للاتحاديين عشرات من الملايين، يضيعونها وتبقى البلاد رهينة بها للدائنين، وتوثيق أعضاء المنتدى الأدبي في الأستانة عرى الإخاء بين طلبة العرب في مدارس الحكومة فيها، وإهانتهم لصاحب جريدة اقدم التركية في نشر تلك المقالة التي قال فيها كاتبها إن الطريقة المثلى للتنكيل بعرب الجزيرة اغراء بعضهم بقتال بعض بالمال «لأن العرب تبيع كل شيء بالمال حتى العرض والناموس».

ثم إنه يصرح بأنهم أخذوا بالظن فلم تثبت عليهم تلك التهمة باليقين، ولو ثبتت لما جاز قتل أحد منهم شرعاً ولا قانوناً لأنها عبارة عن رأي سياسي لم يدع قاتلهم أنهم شرعوا في تنفيذه بالخروج على الدولة في أثناء النفير العام الذي حاكمهم بقانونه. وكيف يعقل أن يقوم نفر قليل كهؤلاء بالخروج على الدولة والسواد الأعظم من قومهم يخالفهم فيه باعتراف جمال باشا نفسه والدولة تحكم بلادهم بالأحكام العرفية القاسية وجميع شبان الأمة وكهولها جنود مسلحون بين يديها؟ ويا ليت شعري ما

تلك المنافع المادية الخسيسة التي ضحى أولئك الأذكياء الفضلاء دينهم ووطنهم لأجلها؟ إن كانت ما ذكره من غاية جمعيتهم المزعومة، فتلك غاية سياسية عالية لا مادية خسيسة، وإن كانت غيرها فما هي؟

آراء الخواص في المسألة العربية



واستقلال الشريف [حسين بن علي] في الحجاز

[المنار ج ١٩ (١٩١٦) ص ١٤٤ - ١٦٨]

في ليالي رمضان وأيام عيد الفطر تيسر لي أن أعرف من آراء أهل العلم والرأي بمصر في المسألة العربية واستقلال الشريف أمير مكة في الحجاز ما لم يكن يتيسر في وقت آخر من السنة، لكثرة التزاور في هذه الليالي والأيام، وتوسع الناس فيها بالكلام كتوسعهم بالطعام، وقد جرت فيها بيننا وبين كثير من أساتذة الأزهر والمدارس العليا وكبار القضاة والمحامين والأطباء وغيرهم من أهل الرأي مذكرات ومحاورات طويلة في هذه المسألة جدية بأن تنشر وتدون لأنها ربما كانت أهم مسائلنا الحاضرة، ووقائع تاريخنا التي نحفظها لأعقابنا الآتية، فرأينا أن ننشر في المنار أطول محاوره منها وأجمعها للمقاصد، ثم نلخص في الخاتمة صفوة الآراء كلها، وبذلك تتم الفائدة من تلك الأحاديث بغير تكرار ولا عبث، وهذه المحاوره كانت بيننا وبين أستاذ معروف باعتدال الفكر واستقلال الرأي، وقد وقعت في اليوم الثاني بعد عيد الفطر، وها هي ذي - ونعبر عن الأستاذ بحرف ذ وعن نفسنا بحرف د:

د - ما رأي الأستاذ في استقلال الشريف [حسين بن علي] أمير مكة

بالحجاز، فإني رأيت كثيراً من إخواننا ومعارفنا لا يعد ذلك أمراً ذا بال، ومنهم من لم يصدق أخبار الجرائد، حتى أن أchan الشيخ أ. قال في إحدى ليالي رمضان عقب نشر البلاغ الرسمي عن استقلال الشريف إنه لا يعرف أحداً صدّق هذا الخبر من قبل، وإنه هو لم يصدقه أيضاً إلا بعد نشر البلاغ الرسمي، وإن من الناس من لا يصدق البلاغ الرسمي نفسه! وما أظن أن الأستاذ على رأي هؤلاء، ولا أنك تقول إن هذا الأمر ليس بذي بال.

ذ - صدقت، إن هذا الأمر لذو بال، وإنه قد شغل مني البال وهيج البلبال. وأني مخالف لهؤلاء الناس الذين أصبحوا لا يهتمون بشيء من الأشياء، ولا يصدقون من الأنباء إلا ما يلد لهم، ولا يقبلون من الآراء إلا ما يوافق أهواءهم، ولذلك راج بينهم رأي تلقوه بالقبول، وهو أن الشريف [حسين بن علي] لم يعلن الاستقلال إلا لضرورة إنقاذ البلاد من المجاعة التي أوقعها فيها الحصر البحري أو كاد، فقد امتنع بذلك وصول الأقوات إليها من مصر والسودان والهند وجلّ قوتها من هذه البلاد، حتى قيل إن أردب القمح صار في مكة ببضعة جنيهاً، فعذر الشريف في إظهار دعوى الاستقلال جلي ظاهراً، وهو لا يزال مخلصاً للحكومة التركية في الباطن، وليس له غرض في إيجاد حكومة عربية، ولا طمع في خلافة قرشية، ولولا ذلك لقاتلته الدولة. هذا هو الرأي الراجح في البلد

أما أنا فلا أجزم بقبول هذا الرأي ولا برده، وإن كان معقولاً في نفسه، لأنني أعلم أنه قد وجد في عالم السياسة مسألة تسمى المسألة العربية، ولكن لم أقف على كنهها ومبلغ قوتها، ولا على مكانها من الشريف [حسين بن علي] ومكان الشريف منها، وأعلم أيضاً أن الحجاز ليس فيه الاستعداد المطلوب لإنشاء دولة، ولا القوة التي يتوقف عليها استقلال الخلافة، وحياء أهله موقوفة على الدولة التي تملك التصرف في البحار، والدولة ذات السيادة على بلاد الشام، فإذا منع عنه القوت من هنا وهناك مات أهله

جوعاً، ثم إن المشهور أن أمراء جزيرة العرب وزعماءها متحاسدون متباغضون «بأسهم بينهم شديد» ولولا سيطرة الدولة العثمانية عليهم لأفنى بعضهم بعضاً. والشريف - إذا كان يأمن بطش الدولة الآن فهو لا يجهل أنها إذا بقي لها استقلالها بعد هذه الحرب أمكنها الانتقام منه وإزالة إمارة الحجاز وجعله ولاية عثمانية محضة، وإذا زال استقلالها وفرضنا أنه أمن على استقلاله من صاحب عسير وصاحب نجد فإنه ليس بالذي يكون الملك المستقل الذي يطلبه العرب، ولا بالذي يجدد الخلافة الإسلامية التي يحرص على استقلالها جميع مسلمي الأرض، لأن الاستقلال بأمر الملك والخلافة يتوقف على الثروة والقوة وأين هما من الحجاز وأين الحجاز منهما؟

فلهذه الأفكار تراني مضطرباً في هذه المسألة، وأنا أعلم ان عند «السيد» من أخبار هذه المسألة والاختبار فيها ما ليس عندي ولا عند أحد من المصريين، فهو أعلم منا بشؤون جزيرة العرب وشؤون أمرائها، وأعلم منا بظواهر الحركة العربية وباطنها وأحوال أحزابها وجمعياتها. كما أنه أوسع منا علماً بأحوال الدولة العلية وأوسع اختباراً لها وأكثر تتبعاً لما يتجدد من أخبارها، يعترف له بهذا من يقرأ بروية وإمعان ما يكتبه في هذه المسائل في مجلته، وإنني أود أن أقف على ما عنده في مسألة الحجاز من رأي ورواية بالتفصيل، وقد تعرضت لهذا غير مرة فلم تكن حالة المجلس أو الوقت مما يسمح للسيد بالإفاضة في ذلك، فعسى ان نستفيد الآن ما فاتنا من قبل.

د - لم أنس أن باب الحديث في هذه المسألة قد فتح بيننا مرتين قبل هذه المرة، فكان الكلام فيها وجيزاً لضيق وقته، على أن الحديث شجون، والإنسان يتذكر في وقت ما ينساه في آخر، فإذا ذكره محدثه تذكر، وإنني لا أبخل على الأستاذ بما عندي في هذه المسألة من رأي أو خبر أرى فيها فائدة له، فإذا حدثته بشيء لم يره كافياً فله أن يستزيدني من الحديث بالسؤال عما يريد منه، ولا بأس بإعادة شيء مما كنا ألمنا به من قبل، وأبدأ ببيان ما عندي في مسألة استقلال الشريف فأقول :

ان الشريف لم يدع ملكاً ولا خلافة فلا كلام لنا في ذلك وما ذكرته لي من الرأي الذي دار بين كثير من المصريين في سبب استقلاله في الحجاز وتلقوه بالقبول قد سمعته من غيرك أيضاً. وهو رأي كما قلت معقول، وعذر الشريف فيه مقبول، ولا سيما إن كان الاستقلال سوريا كما تظنون، فإنه مسؤول عند الله وعند الناس عن إنقاذ سكان حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم من الهلاك. وإزالة الموانع التي منعت أكثر المسلمين من الحج إلى بيت الله الحرام، ولا سبيل إلى هذا وذاك إلا بإزالة الحصر البحري عن ثغور الحجاز، والذي كان سببه وجود الجنود التركية فيها، فإن دولة إنكلترا كانت صرحت باستثناء سواحل الحجاز من الحصر البحري الذي ضربته على جميع السواحل العثمانية، وسمحت بنقل الأقوات من الهند وغيرها إلى تلك البلاد المقدسة، ثم إنها لما علمت بإرسال أنور باشا لكثير من الجنود التركية إلى الحجاز منعت إرسال الأقوات إليه لأن الجنود يستفيدون منها، وقد كان من المستغرب تموينها لبعض بلاد أعدائها ولكن تموينها لجيوشها غير معقول، وإنما المعقول ضده، ولولا احترامها للبلاد المقدسة لضربت سواحلها بمدافع أسطولها وجعلتها من ميادين الحرب أيضاً، ولكن إزالة الشريف أمير مكة للسبب الذي أوجب الحصر، ومنع القوت والحج، مناوأة للدولة التركية أو الاتحادية لأنه تصد لقتال جنودها، ورفع سيادتها عن البلاد التي هو أميرها، فالشريف قد اضطر إلى الاستقلال بالأمر في الحجاز وبند سيادة هذه الحكومة الاتحادية ظهيراً. ونحن نخالف من يرى من المصريين أن هذا الاستقلال صوري وأنه كان بالتواطؤ بينه وبين الدولة، ومن يرى أنه لا يزال مخلصاً لهذه الحكومة وأنها هي راضية عن فعله وعاذرة له فيه، لأننا نعلم أن إزالة منع القوت ومنع الحج ليس هو الباعث على هذا الاستقلال ولكنه من لوازمه، وهنالك بواعث وأسباب أخرى له سنلّم بها في حديثنا.

ذ - إذا لماذا لم تجرد الدولة جيشاً لقتاله؟ ولماذا حاصر هو الجيش التركي حصاراً ولم يناجزه القتال؟

د - أما الشريف فيمنعه دينه من الإقدام على سفك الدم في أرض الحرمين الشريفين من غير ضرورة ملجئة لا مندوحة عنها. وأما الدولة فالمانع لها من ارسال جيش جديد لقتاله إما العجز وإما العقل، أما العجز فهو الآن غير بعيد، لأن جنود الدولة متفرقون في عدة ميادين من أوربة وعدة ميادين في الأناضول وإيران والعراق وسورية وسيناء فهي لا تستغني عن جيش كبير يصلح ما عطل من سكة حديد الحجاز ويبقى قسم منه في مواضع متفرقة من الطريق لحمايتها، ويسير قسم منه لإنقاذ حامية المدينة ثم الزحف منها إلى مكة مع حفظ طرق مواصلاته من مركز تموينه وإمداده في الشام إلى مكة. وأما العقل فيقتضي عدم التصدي لقتال الشريف الآن حتى في حال القدرة وانتفاء العجز، لأن قتاله يضعف الدولة في الميادين الأخرى وربما يستتبع خروج عرب الجزيرة كلهم أو جلهم عليها فيتسع الخرق على الراقع، والسكوت عنه لا يضر الدولة الآن فإن انتهت الحرب بظفرها مع أحلافها أمكنها أن تتصرف في الحجاز بما تشاء، وإن انكسرت مع أحلافها فلا معنى لاهتمامها بأمر استقلال الحجاز إذ يفرق المنتصرون حينئذ شمل وحدتها، ويخشى أن يزيلوا ما كان من استقلالها، بل المعقول أن يتمنى كل مسلم من ترك الدولة كعربها أن تسلم بلاد الحجاز وسائر بلاد العرب من الوقوع تحت تصرف الحلفاء المنتصرين في هذه الحال، ولولا أن الدولة في أيدي الاتحاديين لرجحنا أن العقل يمنعها من قتال الشريف إن لم يمنعها العجز، وأما الاتحاديون فقد جعلوا من أصول سياستهم إضعاف العرب حتى لا يكون لهم حقوق مع الدولة إن بقيت، ولا استعداد للاستقلال بأنفسهم إن سقطت. ولسان حالهم مع العرب في هذه الحالة يقول:

أقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي

وقد سمع من أفواههم كثير من طلاب الإصلاح من العرب ما يدل على مثل هذا من مقاصدهم عندما كانوا يتكلمون معهم في حقوق العرب في

الدولة وفي أحوال أخرى؛ ألا ترى أنهم اتخذوا حالة الحرب ذريعة لتنفيذ مقاصدهم في العرب، فكان المعقول أن يشتوا لعرب الولايات صدق وعودهم بالإصلاح ويفوا لهم بعهودهم التي عقدوها مع السيد [عبد الحميد] الزهراوي عقب المؤتمر العربي [١٩١٣]، ويزيدوهم على ذلك من الإصلاحات الداخلية ما يملكون به قلوبهم كما ملكوا أبدانهم وأموالهم فاستعملوها في هذه الحرب كما شاؤا، وفي أمثالنا العربية * عند الشدائد تذهب الأحقاد * ولكن أمثالنا لا تصدق على طباعهم وأخلاقهم بل تضادها وتناقضها، فالشدائد كانت عندهم مظهرة للأحقاد في أقبح مظاهرها وأشنع مناظرها، فبعد أن جندوا جميع شبان سورية والعراق وفرقوهم في الميادين البعيدة عن بلادهم كالدرديل والبلقان والأناضول - وبعد أن صادروا الأموال والغلال في تلك البلاد، طفقوا يقتلون أولى العلم والعرفان وكبار الضباط وسائر أرباب العقول والأفكار في كل من القطرين «السوري والعراقي» وينفون الكبراء والأغنياء ويستولون على ديارهم وأموالهم.

وبعد أن رأوا مأربهم هذا قد تحقق بغير معارضة ولا مقاومة، ولوا وجوههم شطر الحجاز، لا لأجل الصلاة إلى المسجد الحرام، ولا لأجل الطواف بين الركن والمقام، فإنهم لم يكونوا من الطائفين ولا المصلين، ولكن ليفعلوا في الحجاز ما فعلوا في العراق والشام، حتى إذا تم لهم هذا الأرب، أجهزوا على بقية جزيرة العرب.

ذ - اني أعلم أن السيد سيء الاعتقاد في دين هؤلاء الاتحاديين وفي سياستهم، وقد قرأت كل ما كتبه في السنين الخالية عنهم، ولكنني رأيت قد سكت عن ذلك الطعن الشديد فيهم بعد حرب البلقان، ثم تنسبت عطفه عليهم من بعض ما كتبه قبيل دخولهم هذه الحرب وفي أنثائها، وكنت أظن أنه كجمهور المصريين لم يصدق أخبار المقطم والأهرام، عن فظائع جمال باشا في بلاد الشام، حتى قرأت المقالة التي نشرتموها في الشهر

الماضي فعلمت أنكم مصدقون لتلك الأخبار، وتتوقعون أن يكون لها تأثير سيء في الحجاز وسائر جزيرة العرب.

د - نعم إنني تركت تلك الحملات على الاتحاديين بعد حرب البلقان وفي أثناء هذه الحرب لأن الحملة عليهم تعد حملة على الدولة ولا ينبغي ذلك في أثناء الحرب وإن كان بنية صالحة ويقصد الإصلاح كما بينت ذلك في المقالة التي نصحت بها بمثل هذا لمسلمي سورية قبيل دخول الدولة في الحرب، ثم إنني صدقت ما أتوه من التنكيل بالعرب في الشام، لأنه ثبت عندي بالتواتر فكتبت تلك المقالة وأطلعت عليها بعض اخواننا قبل أن تحيثنا البرقيات بنبا استقلال الشريف [حسين بن علي] وإن نشرت بعد ذلك، ثم علمت بعد نشرها أن أنور باشا ما زار سورية والحجاز في أوائل هذا العام إلا ليتولى بنفسه ارسال الجند والسلاح الى الحجاز للقضاء على سلطة الشرفاء فيه - وان قيل انه جاء بصنيع جمعيته الشريف علي حيدر من الآستانة إلى الشام أو المدينة ليجعله خلفاً للشريف حسين أو أميراً للحجاز في المدينة - فإذا صح هذا الخبر فالغرض الصحيح منه أن يضربوا الحديد بالحديد لما في ذلك من المفاسد الكثيرة التي يطلبونها، فإذا أمكن للشريف حيدر وأخيه الشريف جعفر أن يؤلبا بعض عرب الحجاز على الشريف حسين بمال الدولة الذي يؤيدان به نفوذهما سهل على قائد الجنود التركية بعد إضعاف عرب الحجاز أن يستبد بالنفوذ في الحجاز من غير خسارة تذكر، ولا صيت قبيح ينشر، ثم إنهم بعد الفتك بالشريف حسين وأولاده يفتكون بالشريفيين حيدر وجعفر، كما فتكوا بصديقي الشريف حيدر (عبد الكريم قاسم الخليل والسيد [عبد الحميد] الزهراوي) إذ لولا وساطة هذا الشريف لما أمكن لعبد الكريم أن يقنع الزهراوي بالمجيء من باريس إلى الآستانة بعد أن أُنذر المرة بعد المرة بأن في ذهابه إليها خطراً على حياته، ولم يكن الشريف ضامناً له الأمن على حياته فقط بل كان ضامناً له الإصلاح الذي وعد به الاتحاديون وأكثر مما وعدوا، وقد رغب إليّ هو

وعبد الكريم أن أكتب إلى الشريف حيدر كتاب شكر لحسن سعيه في هذه السبيل .

إنني على ما أعلم من سوء نية الاتحاديين وخبث ما أضمره للعرب قد كنت أحسنت الظن بأنور باشا عندما جاءنا المقطم بخبر زيارته لسورية والمدينة المنورة، ولعل الأستاذ يتذكر أنني قلت له حينئذ: أظن ان أنور باشا ما جاء سورية وفلسطين والمدينة إلا ليصلح ما أفسده جمال باشا حتى لا يصل سوء تأثيره إلى جزيرة العرب، وليستعين بعرب الحجاز وغيرهم على هذه الحرب، فإن أنور باشا هو الذي تولى في أول هذه الأزمة استمالة عرب الجزيرة بما كتبه إلى أمرائهم وزعمائهم من المكتوبات العربية، المزينة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وقد اطلعت على صور بعض هذه المكتوبات العامة والخاصة، ومنها الكتاب الذي حملة رسول خاص إلى عدوهم الذي لم يعترفوا له بصفة رسمية قط - أعني السيد الادريسي - وهو يعظمه فيه ويبجله ويظهر الثقة به، ثم علمت في هذه الأيام أنه كان طلب من الشريف أمير مكة المكرمة نجدة عربية لمساعدة حملة سيناء على مصر، وأن الشريف أرسل الحملة إلى المدينة المنورة وهي التي تحاصرها الآن، فإن الشريف لما رأى الجنود التركية ترسل إلى الحجاز بعشرات الألوف وتوزع في مدنها وثغورها وهو يعلم كما نعلم وتعلم الدولة أن الحجاز ليس عليه أدنى خوف من الدول الأوروبية، فلم يبق لإرسال الجنود إليه سبب يعقل - والدولة في أشد الحاجة إلى الجنود - إلا التنكيل بعربه والفتك بشرفائه إتماماً لبرنامج جمعية الاتحاد والترقي الذي يعرفه الشريف كما نعرفه، وقد كانوا حاولوا البدء بالشريف قبل هذه الحرب إذ أرسلوا الضابط وهيب بك أحد غلاتهم المتحمسين خفية إلى الحجاز، وبعد وصوله إلى مكة أظهر التقليد الرسمي الذي معه بولاية الحجاز وقيادة حاميتها، وكان من أمر خذلان عسكره في التحرش بقتال العرب ومحاولة الفتك بالشريف ما هو مشهور، فلهذا تحولت الحملة الحجازية التي ألفت اجابة لطلب أنور باشا للقتال مع

جنوده في سيناء إلى حملة تحاصر جنوده في المدينة المنورة وتقاتلهم إذا قاتلوها.

ذ - إذا كان الشريف [حسين بن علي] عالماً من قبل بما تضره جمعية الاتحاد والترقي للعرب عامة، وله ولأهل بيته خاصة، فلماذا كان ينصر الاتحاديين حتى أنه حارب السيد الادريسي لأجلهم وكاد يحارب أمير نجد ابن السعود كذلك.

د - لا أدري متى عرف ذلك معرفة لا تحتمل التأويل، وقد كان أولاً يتأول للاتحاديين ويرجو صلاحهم حتى كان بعض رجال النهضة العربية يتهمونهم بمشايعتهم وبكراهة السيد الادريسي أن يكون ذا سلطة في عسير؛ وينقل عنه وعن أهل بيته أنهم يقولون إنهم لا يؤيدون الاتحاديين فيما تقوم به جمعيتهم من الأعمال وإنما يؤيدون الدولة نفسها فيما تقرره ويرون أن الاعتصام بها وإن جارت على العرب وغيرهم أرجح من مقاومتها ولو سراً لئلا تفضي المقاومة إلى التفرق الذي يضيع به العرب مع الترك، وأن الطريقة المثلى لتلافي ما يرى ضاراً من أعمالها إنما هي طريقة السعي لديها والاجتهاد في اقناعها بضرر الضر ونفع النافع، وهذا الرأي والمسلوك لم يكن مرضياً عند الأحزاب السياسية العربية من كل وجه، بل كانوا يرون انه يجب أن يكون الشريف أمير مكة مخلصاً للدولة ومؤيداً لها فيما صار في حيز الأمور التنفيذية فقط الا قتل العرب، وأما ما لم يصل إلى حيز التنفيذ فينبغي أن يكون حزبه فيه معارضاً لحزب الاتحاديين بعد ظهور عصبيتهم الجنسية وظلمهم للعرب، ولكن نجله مبعوث مكة المكرمة كان مع سائر مبعوثي الحجاز من الاتحاديين، وكذلك أخوه الشريف ناصر العضو في مجلس الأعيان من حزبهم، ولم يغن كل هذا شيئاً، ولا صد الاتحاديين عن محاولة تنفيذ ما كانوا يضمرون للشريف الأكبر [حسين بن علي] وأهل بيته، وإنما يكرهون هذا الشريف وأولاده لأن لهم من النفوذ في عرب الحجاز ما ليس لغيرهم من الشرفاء، قلت آنفاً إننا لا ندري متى عرف

الشريف الأكبر حقيقة حالهم ويشس من صلاحهم ، وقد ظهر لنا أنه يشس من بقاء الدولة العثمانية أيضا ولعلّه لولا هذا اليأس ما نهض بهذا الأمر

ذ - إن من الناس من يرى أن الدولة ما سلمت من خطر اليأس وعظم الرجاء فيها إلا بدخولها في هذه الحرب ، إذ صارت به ركناً من أركان أحد الحلفين العظيمين اللذين تتألف منهما الدول الأوربية الكبرى ومشايعاتها من الدول الصغرى ، وقد نقل إلينا المقطم أن من شروط محالفتها لألمانية أن لا تقبل هذه صلحاً إلا بشرط حفظ استقلالها ، والصلح لا بد فيه من رضا الفريقين وإن كان أحدهما مغلوباً ، فاستقلال الدولة العلية مضمون على كل حال ، فكيف يعقل أن ييأس منه الشريف وهو من أركان الدولة الذين هم أعلم منا بحالها وبشروط محالفتها التي منها ما ذكر .

د - إذا كان في الناس من يرى أن استقلال الدولة مضمون وإن غلبت مع أحلافها في هذه الحرب ، وكان أعداؤها هم المقررين لشرط الصلح ، فإن في الناس من يرى أن هذا الاستقلال قد زال بالفعل ، وإن انتصر الألمان مع أحلافهم وتحكموا في شروط الصلح ، أما بقاء استقلال الدولة بعد انكسارها وانكسار أحلافها فغير معقول ، وأما الرأي الذي يقابله في الغرابة وهو زوال استقلالها في حال انتصارها وانتصارهم فلاصحابه وجه جدير بالتأمل ، وهو أن الدولة قد غرقت في بحر لجي من الديون وخسرت أكثر الشبان العاملين في المملكة ، وأفقرت الأمة كلها بمصادرة أموالها واستنزافها بأسماء متعددة ، وكان عجز ميزانيتها قبل حرب البلقان وهذه الحرب اللتان أفقرتاها وأفقرتا أمتها يسد باقتراض الملايين في كل عام ، وقد زادت ديونها الآن زيادة كبيرة حتى صار ربا الديون يستغرق معظم الميزانية التي لا بد أن تنقص عما كانت نقصاً فاحشاً ، ومن البديهي أنها لا تجد بعد الحرب من يقرضها كما كانت تجد قبلها ، وليس أمامها من الأمم الغنية إلا الأمة الألمانية وقد ذهبت قروض الحرب لدولتها ودول أحلافها بمعظم ثروتها ، فلن تقرض دولة وصلت ماليتها إلى حد الإفلاس ما تلم به شعنها

إلا إذا جعلت مالية الدولة وجميع موارد الثروة في المملكة تحت تصرف دولتها يديرها رجال الألمان الماليون والفنيون ، - فإذا تدبرنا هذا وعلمنا أيضاً أن الدولة قد جعلت حريبتها وبحريتها في أيدي الألمان وجعلت تعلم لغتهم إجبارياً في جميع مدارس المملكة الأميرية وغيرها، وتذكرنا أن الألمان يملكون عشرين كيلومتر على جانبي سكة حديد بغداد في خط يمتد من ضفاف البوسفور إلى بغداد، فأبي استقلال يكون للدولة بعد قبض الألمان على إدارة المالية والحربية والمعادن والمناجم مع امتلاك هذه الأراضي الواسعة التي تضاهي مساحة مملكتهم؟

كان لبعض الألمان المقيمين في بلجيكة قبل الحرب ملعب أو ملاعب للكرة يلعب فيها أهل البيت والعيال، فلما اقتحم الجند الألماني بلاد البلجيك المضمون استقلالها منهم ومن سائر الدول الكبرى ظهر أن ملعب الكرة إنما بني بطريقة فنية هندسية ليكون مركزاً للمدافع الضخمة المكتوم خبرها عن غير أركان الحرب من الألمانين، وإن المسافة بين الملعب وبين الحصون البلجيكية هي مسافة مرمى تلك المدافع التي دمرت تلك الحصون. فإذا كنا قد استفدنا من عبر هذه الحرب أن ملعب الكرة لعيال ألماني في زمن السلم كان خطراً على الدولة التي ملك الألمان في بلادها ذلك الملعب مع أن دولته ضامنة لاستقلالها، فهل نتصور أن تسلم من الخطر دولة يملك الألمان التصرف في جميع قواها المالية والحربية والعلمية والفنية ويملكون في قلب مملكتها تلك الألوف من الأميال التي هي محل العمران المنتظر فيها؟

ولدينا عبرة أكبر من هذه العبرة وأظهر وهي ما نقله إلينا المقتطف في جزء مارس من هذه السنة من مقالة للكونتس ورك الأميرة الانكليزية، عنوانها «ملك الإنكليز وأمباطور الألمان» قالت فيها عن الملك ادوارد ما نصه:

«وزارني مرة قبل وفاته بثلاثة أشهر لتناول الشاي عندي وتكلم عن

الإدارة الألمانية فقال «لو كانت بلادنا تدار كما تدار المانية لاستفدنا فائدة كبيرة ويا حبذا لو حكمنا الألمان المدة الكافية لإصلاح ادارتنا» قال ذلك وصمت قليلاً ثم قال وهو يضحك «ولكن المصيبة بأنهم إذا أتوا ليحكمونا تعذر علينا الخلاص منهم» وهذا آخر حديث جرى لي معه لأنني لم أره بعد ذلك»، اهـ واستدلت الأميرة بهذا الحديث على أن الملك لم يكن يضمّر العداء لألمانية. واثبات هذه القضية هو الذي كتبت لأجله المقالة.

فإذا كان هذا الملك السياسي العظيم يقول أن دولته التي هي أعز الدول وأعظمها دهاءً وتديباً يتعذر عليها الخلاص من الألمان إذا دخلوا عاصمتها لتنظيم الإدارة وهي في جزيرة يحميها أقوى أسطول عرفتة البحار منذ خلقها الله تعالى فهل يتيسر للدولة العثمانية الضعيفة الخلاص منهم بعد ما ذكرنا من تصرفهم المنتظر بعد الحرب إن كان لهم الظفر، وما تصرفهم فيها الآن بقليل؟

هذا وإن علة الحرب الحقيقية هي التنازع الاستعماري ولم يبق في البلاد القابلة للاستعمار ما يشبع مطامع ألمانية ويتسع مجاله لشعبها الكثير وفنونها وصناعاتها إلا البلاد العثمانية وقد كانت دول الأحلاف تعارضها في استعمارها الاقتصادي مع إبقاء الدولة العثمانية على استقلالها السياسي الصوري، فإذا انتصرت في هذه الحرب لم يبق لها معارض من الترك ولا من الأوربيين.

ذ - والله إن هذا الكلام معقول في نفسه ولكن لا يعقل أن يجهله الاتحاديون، فكيف رضوا إذاً بموالاة الألمان؟ أيعقل أن يكون في يد أناس ملك عظيم فيبذلوا دماءهم وأموالهم لأجل اضعافه؟

د - لو كان رجال البيت السلطاني وكبراء علماء الدولة وسرواتها من قدماء الوزراء والأعيان هم الذين قرروا بالتشاور بينهم القتال مع ألمانية وتحكيمها في الدولة لكان هذا السؤال أكثر اتجاهاً والجواب عنه متعسراً ولا

أقول متعذراً. أما وزعماء الاتحاديين هم القائمون بذلك وهم أوشاب لا تعرف لغير الإسرائيلي الأصل منهم أنساب وصلوا إلى ما وصلوا اليه من الاستبداد بهذا الملك بمساعدة اليهود الجرمانيين - فالجواب سهل وللناس فيهم رأيان يؤخذ من كل منهما جواب.

سبب تسليم الاتحاديين الدولة للألمان

الرأي الأول - رأي سمع كثيراً من خصومهم، وهو أنهم جماعة من طلاب المال والثروة علمهم أعلم البشر بطرق تحصيلها - وهم اليهود - كيف يكونون من أغنى أهل العصر بسلب ثروة هذه الدولة ثم بيعها للدولة الألمان الغنية، ويستشهد أصحاب هذا الرأي على صحته بأنهم لو كانوا يريدون بقاء الدولة وتعزيزها لبدأوا عملهم فيها بوضع ماليتها على أساس ثابت يكثر به الدخل ويقلّ الخرج، ولو أرادوا ذلك لكانوا أقدر الناس عليه بمساعدة أساتذتهم وإخوانهم من اليهود الأصليين والدوغم (الذين منهم جاويد بك الذي جعلوه ناظر المالية وفوضوا اليه عقد القروض) ولكنهم اغتتموا فرصة ما سموه «حركة الارتجاع» فعزلوا السلطان عبد الحميد ونهبوا من أمواله وجواهره وتحفه ما تقدر قيمته بالملايين الكثيرة، وقد حدثني الثقات من أهل الأستانة أنهم كانوا يدخلون قصر «يلدز» فيملئون جيوبهم من تحفه المرصعة بالجواهر حتى إن بعض ضباطهم رؤي بعد امتلاء جيوبه يضع العلب والمسدسات المرصعة وامثالها في حذائه الطويل، جزمة السواري، ثم اغتتموا فرصة وصول جيش البلغار إلى شطلجه فسلبوا ما هو أعظم من ذلك من جواهر ملوك آل عثمان وتحفهم المحفوظة في قصر قسطنطين إذ زعموا أنهم إنما يريدون إخراجها من مأمنا وإرسالها إلى الأناضول لئلا يدخل البلغار الأستانة فيغنموها، وقد عقدوا القروض بعشرات الملايين ولهم من كل قرض سمسة مشهور أمرها وكثر الكلام في الأستانة فيها، ثم إن ما يصل إلى الخزينة منها يتصرفون فيه

بضروب من التصرف، منها النفقات السرية التي لا تذكر في الميزانية وأعظمها ما يخصص للحربية والداخلية، وهم يشترون السلاح والذخائر والثياب والأحذية للعسكر بثمان ويقيّدونه في دفاتر الحربية بثمان آخر فيربحون من ذلك مبالغ كبيرة، والدليل على هذا أنهم أنفقوا في نظارة الحربية خمسين مليوناً من الجنيهات قبل حرب البلقان ثم كان أهم أسباب انكسار جيش الدولة في البلقان قلة الذخائر وقلة الطعام وسائر ما يتوقف عليه القتال وقد أذكرتنا مصادرتهم للأمة في هذه الأيام بما كانوا يصادرون به الأغنياء منذ صار أمر الدولة في أيديهم - إذ كانوا يهددون كل غني بالانتقام منه لأنه من الحزب الحميدي الإرتجاعي إلى أن يفترق نفسه بما يناسب مقدار ثروته، فأخذوا من علي رضا باشا الذي كان ناظر الحربية في العهد الحميدي مئتي ألف ليرة ومن زهدى باشا ٣٠ أو ٤٠ ألف ليرة وعلى ذلك فقس، ثم إنهم فرضوا على كل من دخل جمعيتهم دفع اثنين في المئة من جميع دخله وذلك فوق ما فرضه الله من الزكاة على الأغنياء فيما فضل عن نفقاتهم وبلغ النصاب وحال عليه الحول، نعم، إن الألوف من الذين انتسبوا إلى الجمعية كانوا يكتمون عنهم ما يمكن كتمانهم من دخلهم، ومما لا يمكن كتمان شيء منه رواتب موظفي الحكومة وقد دخل كلهم أو جلهم في الجمعية، وقد باعوا البوسنة والهرسك وطرابلس الغرب بعدة ملايين.

فالذين يعرفون سيرتهم هذه بالتفصيل يعتقدون أن زعماء الجمعية لا همّ لهم من حياتهم إلا جمع الثروة وهم لا يضمنون بقاء الدولة لهم ولذريتهم من بعدهم فلذلك باعوها للألمان بهذه الصفة التي استعملوا فيها جميع قوى الدولة في قتال أعدائهم، وستكون كذلك في أيدي الألمان إن انتصروا يستعملون نفوذ الاتحاديين وقوتهم على السلطان ودولته في استعمار المملكة العثمانية ويؤيدون الاتحاديين على خصومهم السياسيين من الترك والعرب إلى أن تنشب برائتهم في كل شيء ويستغنون عن الاستفادة من اسم الدولة

ونفوذها الديني ويأمنون معارضة الدول فيصرون بإزالة هذا الاستقلال
الصوري الخادع.

الرأي الثاني - رأي أصدقاء الاتحاديين، وهو مبني على رواية لا يكاد يعرفها إلا قليل منهم وسنذكرها في بيان هذا الرأي . وهو أنهم لم يبيعوا المملكة بيعاً ولم يفرطوا بشيء من حقوقها، وكل ما أخذوه من الأموال للجمعية قصدوا به ان تكون الجمعية غنية لتتمكن بقوة الثروة من الفوز على خصومها من رجال العهد القديم المحافظين على التقاليد العتيقة المنافية لما يريدون من التجديد المدني للدولة والأمة، وخصومها من الأحزاب السياسية المخالفة لها في مذهبها السياسي والاجتماعي كترك العنصر وغير ذلك . وأما ما أعطي لبعض زعماء الجمعية كالكتور ناظم وأحمد رضا فهو تعويض عما خسروا في سبيل الجمعية، وما عدا ذلك كسمرة القروض والامتيازات فهو قانوني . ولما رأوا أن الدولة ضعيفة فقيرة لا يرجى أن تنهض بنفسها، والأمة التركية جاهلة متعصبة للقديم ولا سيما إذا كان من أمر الدين فلا يرجى أن يكون نهوض الدولة من قبلها، ولا يمكن ترقيتها هي أيضاً من قبل الدولة والدولة على هذه الحالة . لما رأوا أن الدولة والأمة كما ذكر جزموا بأن العلاج الوحيد للدولة التركية والأمة التركية هو أن تتولى دولة أوربية قوية تنظيم الدولة وترقية الأمة وجعلهما كالدول الأوربية والأمم الأوربية من كل وجه، ولم يجدوا دولة من الدول العظمى ترضى بأن تقوم بهذه الخدمة للترك الا ألمانية - وهي أرقاهنّ علماً وقوة عسكرية . فما زالوا يخطبون ودها حتى عقدوا معها اتفاقاً سرياً قبل هذه الحرب بسنين على تكوين دولة تركية جديدة على طراز الحكومات الجرمانية تكون تابعة للاتحاد الجرمانى في السياسة الخارجية والحروب وغيرها مما لم نعلم تفصيله، وانما نعلم منه بالإجمال أن الترك يكونون من الألمان بمنزلة أبناء عمهم المجر من النمسة، ولذلك تُكثر جرائمهم من المقابلة بين الترك والمجر وتتساءل عما قدّم أولئك وآخرهم وهم من أصل واحد!

ومن المعلوم بالبدهاة أن مثل هذا الاتفاق لا يمكن تنفيذه بصفة رسمية إلا إذا صدق عليه مجلس الأمة من المبعوثين والأعيان، وأن الاتحاديين ما كانوا يتجرأون على عرضه على المجلس خوفاً من انتفاض أكثر أفراد حزبهم عليهم وانضمامهم إلى الأحزاب المعارضة وبذلك يقضي عليهم قضاء لا مردّ له، فكانوا يمهّدون السبيل إلى جعل مثل هذا رسمياً بأعمال كثيرة لا تتم عادة إلا في سنين كثيرة، لأن السواد الأعظم من الأمة يراه خطراً بل قضاء على استقلال الدولة وعلى دين الأمة، وقد كان المعارضون في المجلس أقوياء ومعظم الأمة على مذهبهم ولذلك أسقطوا الاتحاديين وانتزعوا منهم السلطة، ولكن حزب الحرية والائتلاف الذي انتزعها لم يتول أمرها ولا تيسر له أن يكفل وزارتي الشيخين مختار باشا وكامل باشا، فلذلك تيسر للاتحاديين بقوة ثروتهم وتكافلهم ومساعدة اليهود وألمانية لهم أن يعودوا إلى انتزاع السلطة من وزارة كامل. ومن الغريب أن انكلترا وروسية وفرنسة المعارضات لسياسة ألمانية في الدولة لم ينصرون الأحزاب المعارضة للاتحاديين ولا وزارتي مختار باشا وكامل باشا فكان هذا ضعفاً منهن من حيث هو رجحان للسياسة الألمانية في الدولة، وقد كان الميالون إلى تفضيل مودة إنكلترا ومن عساه يكون معها من الدول على مودة ألمانية وأحلافها أكثر عدداً وأرسخ في الدولة قدماً، ولكنهم خذلوا بخذل الدول التي يميلون إليها للدولة في حرب البلقان.

والكلام في إيضاح هذا الرأي وتفصيل المسائل التي تتعلق به يطول فنكتفي منه بما لا نخرج به عن موضوعنا، وملخصه أن الاتحاديين متفقون مع الألمان من قبل هذه الحرب بسنين على وضع زمام الدولة بأيديهم ليرقوها بعلومهم وفنونهم العسكرية وغيرها فكانت هذه الحرب وسيلة لتنفيذ ذلك الاتفاق السري الذي كان يظن أنه لا يمكن تنفيذه إلا بعد تمهيد السنين الطوال له كما قلنا آنفاً. وإنني قد سمعت خبر هذا الاتفاق السري في الأستانة إذ كنت فيها سنة ١٣٢٨ [هـ/ ١٩١٠ م] ممن يظن

اطلاعهم على مثل ذلك وهم قليل، والمخالفون منهم للاتحاديين كانوا يظنون أن تنفيذه مستحيل، ولهذا كنت جازماً عند وقوع الحرب بأن الدولة ستدخل فيها قطعاً إذ كان سفير الإنكليز في الأستانة ورجال حكومته في لندن يظنون أن بين زعماء الاتحاديين خلافاً في ذلك وأن بعضهم يميل إليهم وإلى أحلافهم، كما علمنا ذلك من الكتاب الأبيض بعد، فكان خداعهم للأحلاف في هذه الحال وخداعهم لفرنسة قبله إذ أقرضتهم عشرات الملايين مما يفخرون به وما هم في هذا الفخر بملومين.

مكان زعماء الاتحاديين من الدين

ذ - يظهر أن زعماء الاتحاديين قد أوتوا حظاً عظيماً من الذكاء فكيف خفي عنهم ما قررت من الخطر على الدولة في تسليم أزمة أمورها للألمان، وكيف خفي عنهم الفرق بين الترك والمجر حتى ظنوا أنهم يمكن أن يكونوا من الألمان بمنزلة المجر من النمسة؟ ألم يعلموا أن المجر يشاركون النمسيين بأعظم المقومات الاجتماعية وهو الدين فلا يمكن أن يكون الترك المتعصبون في الإسلام الذين تمثل دولتهم الخلافة الإسلامية متحدين بالألمان المتعصبين في دينهم المجديين في تنصير المسلمين في مستعمراتهم الأفريقية ومنع انتشار الإسلام فيها كما علم ذلك من الأوراق التي اكتشفها الإنكليز هذا العام في تواصي الحكام الألمان بذلك، وقد تذكرت بها كلاماً لقيصر الألمان في هذا المعنى نشرته الجرائد منذ سنين أظن أنه في الحث على اتفاق مبشري الألمان البروتستنت مع الكاثوليك على تنصير المسلمين^(١).

(١) المنار: اننا نشرنا في ص ٧٢٠ م ٧ انه كتب إلينا من بعض المستعمرات الألمانية أن المانية تكره الناس هنالك على التنصر وتغري العداوة بين العرب المهاجرين إلى تلك المستعمرة وبين اوهالي لأن العرب أشد تمسكاً بالإسلام وجذباً إليه، وجعلنا هذا العمل مرشداً إلى تفضيل إنكلترة على ألمانية. ثم نشرنا في ص ٧٩٩ منه انه كتب إلينا من دار السلام أن حكومتها الألمانية هدمت مسجدين للمسلمين وتضطهد العرب وتمنعهم من ركوب العربات الحسنة. ومن الغرب ان وكالة ألمانية السياسية بمصر بلغتنا بعد نشر ما ذكر ببضعة أشهر أنها كتبت إلى دار السلام تسأل حكومتها عن حقيقة ما عزى إليها وأنها أجابت بأن منع العرب من ركوب المركبات لا أصل له وإن هدم المسجد كان بطلب المسلمين =

د - إعلم أيها الأستاذ أن زعماء الاتحاديين الذين كلامنا فيهم ملاحظة لا يدينون دين الاسلام ولا غيره، وهذا ثابت من أقوالهم وأفعالهم يعرفه جماهير العلماء والكبراء في الأستانة وغيرها وجميع السياسيين في أوروية، وهم يتمنون خروج الشعب التركي من الإسلام ولو بالتدريج الممكن إلى الوثنية بشرط أن يبقى تركياً، لأنهم يظنون أن الإسلام هو العلة المانعة من مساواته للشعب المجري وغيره من الشعوب الأوروية. ويشاركون في هذا الرأي غيرهم من ملاحظة الترك. ولما كنت في الأستانة نشرت جريدة إقدام الشهيرة وكانت معارضة للاتحاديين، مقالة في المقابلة بين الترك والمجر، وتساءلت عن سبب ما بينهما من الفرق في العلم والمدنية مع الاتفاق في النسب؟ ورغبت الترك في التشبه بالمجر وسلوك طريقتهم والاتحاد بهم. . . وقد رغبت يومئذ إلى السيد [عبد الحميد] الزهراوي رحمه الله تعالى في كتابة رد عليها يقال فيه أن أعظم الفروق بينهما الدين واللغة فهل تنصح للترك بأن يتركوهما معاً ليكونوا كالمجر في كل شيء أو يتركوا الدين الاسلامي أو اللغة التركية لأجل ذلك؟ إن الحكومة لا ترضى بنشر مثل هذا. وكان الاتحاديون يتقربون إلى الأوربيين بالإلحاد وبمكاشفتهم باعقادهم أن البقاء على الإسلام مانع من ترقى الترك. واجتهدوا في استمالة نصارى السوريين إليهم بهذا وبإيهامهم أن العرب المسلمين لن يتفقوا معهم لتعصبهم الديني.

أما مذهب الاتحاديين السياسي فهو انشاء دولة تركية محضة متحدة بالتحالف الجرمانى، وان الترك لا يمكن أن يندغموا في الجرمان بسبب هذا الاتحاد بحيث يفنون فيهم لأن المحافظة على اللغة التركية تمنع من فناء الشعب التركي المؤلف من عشرات الملايين في الشعب الألماني أو غيره.

لبعده عن بيوتهم وإن الحكومة بدلتهم به مكاناً آخر قريباً وأعطتهم مالا وافراً. ولكنها لم تكذب خبر التنصير بالاكراه الذي نشر في جزء آخر.

ذ - أين عشرات الملايين من الترك والمشهور أنهم لا يكادون يبلغون في الدولة ستة ملايين؟

د - إنهم يعدون مسلمي القوقاس وتركستان منهم ويظنون أنهم سيأخذون هذه البلاد بقوة ألمانية، وأنهم لا بد أن يكرهوا جميع الشعوب العثمانية على ترك لغاتهم إلى اللغة التركية حتى العرب وبذلك يكون لهم أمبراطورية كبيرة منظمة على النمط الألماني، ومن أمانيتهم في هذا الخيال أن يملكوا مع الألمان الشرق كله أو العالم كله، وأما الخلافة الإسلامية فيستخدمون نفوذها الديني في سياستهم وحروبهم إلى أن يتم لهم إفناء الأمة العربية وتكثير النابذة التركية التي يربونها على الإلحاد وتحريف الإسلام عن أصله بجعل القرآن تركياً وتفسيره بمثل ما رأيناه في كتاب قوم جديد وغيره من كتبهم، ويستغنوا عن مخادعة المسلمين والاستفادة منهم باسم الخلافة والإسلام، فعند ذلك ينبذونها نبذ النواة، ويجعلون يوم إلغائها عيداً من الأعياد، فحاجتهم إليها مؤقتة كحاجة أحد ظرفاء السوريين إلى البرنيطة.

ذ - بعيشك فكهننا بخبر برنيطة هذا السوري الظريف لعله يدفع عني الرعب الذي كاد يساورني من تصور هذا الخيال التركي الاتحادي الغريب.

د - هو الدكتور... قال إنه يلبس البرنيطة لأنها تزيد في ربحه وفي احترامه كما ثبت له ذلك بالتجربة، وإنه يتمنى أن يستغني عنها، وقد وعد أصدقاءه بأن يدعوهم عندما يثبت عنده ذلك الاستغناء إلى احتفال عظيم حتى إذا ما انتظم عقد اجتماعهم يوقد ناراً يحرق بها البرنيطة أمامهم ويرثيها بأحسن مما رثى به الفارياب حماره، ويسمى ذلك الاحتفال احراق البرنيطة.

ذ - أود أن تخبرني ببعض ما لديك من الدلائل التي لا تحتمل التأويل

على كفر زعماء الاتحاديين ، فإن بعض ما يدل على ذلك قد يحتمل التأويل ، وهذه مسألة لا يجوز الأخذ فيها إلا باليقين .

د - إن ما عندي في ذلك كثير جداً إذا أردت بسطه ودفع ما يمكن أن يورد عليه من الشبهات فلا يتم لي ذلك إلا بتأليف سفر كبير، وإذا أردت أن أحصي في هذا الباب جميع ما أعلم من أقوالهم وأفعالهم المنافية للدين، وما نشره في كتبهم الجديدة وصحفهم من العبارات المنفرة عن الإسلام أو الدالة على مذهبهم السياسي الذي ذكرته آنفاً - فلا بد لي من تأليف عدة أسفار، ولا بد أن تكون قد قرأت ما ترجمناه من كتاب قوم جديد في - ص ٥٣٩ - ٥٤٤ م ١٧ - سنة ١٣٣٢ من المنار^(١) ورأيت كيف حرف فيه القرآن وجعل الصيام والصلاة والحج والزكاة والعمل بكتب فقه الأئمة الأربعة هو دين قدماء المسلمين الذين يعبر عنهم بكلمة «قوم عتيق» وصرح بعدم جواز العمل بتلك الكتب وعلل ذلك بأنها مملوءة بالنفاق والشقاق . وبين في مقابل ذلك أركان دين «قوم جديد» وهي العقل وكلمة الشهادة والأخلاق الحسنة والجهاد مალأ وبدناً والسعي لإعداد لوازم الحرب بالاتحاد تحت راية الخلافة الإسلامية العثمانية . وصرح بكفر جميع المسلمين من رعايا دول النصرى والذين تحت حمايتهم، وبأن المسلمين الحقيقيين هم الذين حاربوا في البلقان «تحت إمرة أنور ورضا وأسعد وجاويد ورؤف صلى الله تعالى عليهم وبقية رجال جمعية الاتحاد الترقى المقدسة» ثم صرح بأن عدد الذين ينتمون إلى الجمعية في حرب البلقان لا يتجاوز مئة ألف وهم المسلمون الحقيقيون قال «أما الباقون فكانوا من المرتدين المنتمين إلى الائتلاف (أي حزب الحرية والائتلاف) والبطركخانات . وهو يفضل أنور وطلعت وجمال وغيرهم من زعماء الجمعية على الخلفاء الراشدين وجميع

(١) نشر المقطم مقالة لبعض العثمانيين في هذه السنة ذكر فيها بعض الجمل من هذا الكتاب فظن بعض الناس ان ذلك قول مخترع . وقد ذكر هذا الكتاب في الجزء الثاني من منار سنة ١٣٣٢ الذي صدر في يناير سنة ١٩١٤ .

الأئمة والأولياء الصالحين، بل هو يقدس جميع الترك التابعين لهؤلاء الزعماء بمثل ما تراه في تلك النبذة المترجمة منه (ص ٥٤٤ م ١٧) فإنه بعد مخاطبته للترك بأن الله قدسهم وبأن تعظيمهم لخلفاء العرب ووضع أسمائهم في المساجد يعد إذلالاً لخلفاء الترك «الذين قدستهم الأحاديث النبوية بزعمه، وبعد إنكاره عليهم تعظيم الأولياء من العرب كالجيلاني والبدوي وغشهم للترك بأنه سيخرج من العرب مهدي - بعد تفصيل هذا وزعمه انه تحقير للترك قال:

أما سمعتم الآية «والعاديات ضبحا» [سورة العاديات رقم ١٠٠ الآية ١] فإن الله قدس بهذه الآية الجيوش التركية، فخيّل هذه الجيوش هي أشرف وأقدس أضعافاً مضاعفة من شرافة وقداسة رؤساء وأشرف الشعوب الأخرى الذين تقدسونهم وتحترمهم» اهـ وليس هنالك رؤساء شعوب كثيرة يحترمهم الترك بل رؤساء شعب واحد وهو الشعب العربي - الذين ذكر أنهم يعلقون أسماءهم في المساجد وهم: النبي صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء الراشدون الأربعة والحسن والحسين رضوان الله عليهم.

وقد جعل الاتحاديون عبيد الله أفندي مؤلف هذا الكتاب مدرساً في جامع آيا صوفية لينشر هذه الأفكار في شهر رمضان وجعلوا حوله الجلاوزة والشرطة (البوليس والضابطة) يحمونهم من اعتداء المسلمين عليه. ولكن من يطعن في جمعيتهم أو بعض زعمائهم فلا جزاء له إلا القتل اغتيالاً أو صبرا أو بمحاكمة قضائية أو عرفية.

ذ - إن مؤلف هذا الكتاب مجنون أو معتوه، وتحريفه للقرآن أشد تشويهاً وأظهر بطلاناً من تحريف الباطنية، فكيف يظن هو وزعماء الاتحاديين أن مسلمي الأتراك يتلقونه بالقبول فيؤثر في نفوسهم؟

د - حقاً إن هذا الرجل يكاد يكون مجنوناً، ويحتمل أن يكون سبب غلّوه هذا عن خبث ودهاء، والذي يظهر لي أن لهم في مثله غرضين:

أحدهما - فتح باب الجرأة لملاحدة الترك على التصريح بالكفر قولاً وكتابة ليكون مجال القول عندهم واسعاً في الطعن في النبي صلى الله عليه وسلم وفي الخلفاء الراشدين وأئمة آل البيت النبوي وأئمة الفقه والصوفية، ولهم كتاب آخرون سلكوا غير هذه الطريقة في هذا الباب كالدكتور عبد الله بك جودت صاحب مجلة اجتهاد التركية وأحد مؤسسي جمعية الاتحاد والترقي الأولى فإنه ترجم بالتركية مطاعن «كايتاني» المؤرخ الايطالي في النبي صلى الله عليه وسلم ونشر كتابه في هذه السيرة التي شوه جمالها وانتقص كمالها ببهتانه وسوء تأويله، فكان له رواج وتأثير قبيح عند طلبة مدرسة الطب وغيرهم في الأستانة. والغرض الثاني - نشر ذلك بين عوام الترك الذين لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه لعلمهم بأنهم يقبلون كل كلام يقرأ عليهم في كتاب، وتؤيد فيه المسائل بما يسند إلى الله ورسوله من الآيات والأحاديث مهما تكن محرفة. والكلام في هذه المسألة يطول فأكتفي منه في هذا المجلس الذي طال عليك بروايتين عن علماء الأستانة وبعض القضاة الاتحاديين:

الرواية الأولى - كان اسماعيل حقي المناستري، رحمه الله تعالى، من أشهر علماء الترك في الأستانة وهو الذي ترجم الرسالة الحميدية بالتركية، وكان واعظاً في جامع «آيا صوفية» ومدرساً في دار الفنون، المدرسة الجامعة التركية، وهو الذي صلى بالسلطان محمد رشاد إماماً للجمعية في «قصوه» عند زيارته لها. وكان استماله الاتحاديون بعد الدستور بجعله عضواً في مجلس الأعيان وجعل ولده كاتب السر لطلعت بك، فكان جمهور علماء الأستانة يصفونه بالنفاق بدعوى أنه مال إلى الاتحاديين وأنه لا ينكر عليهم فيظن العوام أنه راض عنهم. ولكن هذا الشيخ الكبير لما عرفني حق المعرفة ووثق بي كان لا يعبر عن الاتحاديين في الحديث معي بداره إلا بلقب «الملاحدة» وقد سألتني عن رأيي في فطين أفندي، أمسلم هو أم زنديق ملحد؟ فقلت: ما الذي أثار هذه الشبهة في نفسك حتى شككت في إيمان

رجل من أهل العلم؟ فقال: يا سيدي يظهر لنا أن الجمعية تثق به ثقة تامة. فهذا العالم الجليل المختبر لهم حق الاختبار كان يعتقد أنهم لا يثقون ثقة تامة بمؤمن مسلم أما فطين أفندي هذا فهو من «الصفطاء» طلاب العلوم الدينية وقد عني بالعلوم الرياضية فصار مديراً للمرصد الفلكي الذي أنشئ في ضواحي الأستانة وهو ذوهمة ونشاط، وظني فيه أنه كان يريد استخدام نفوذ الجمعية لبعض المقاصد التي يراها نافعة فيخدمها لهذا خدماً نافعة ويتوهم أنه قد يقوم بعض عوجها كما يعلم من الواقعة التي أقصها عليك:

لقيت فطين أفندي مرة يتكلم مع «الدكتور ناظم» المرخص المسؤول للجمعية وأعظم رجالها نفوذاً فيها، فلما أقبلت عليهما قال للدكتور هذا فلان يحكم بيننا. ثم قص عليّ أنه اختلف مع الدكتور في مسألة مهمة قال: الدكتور يقول أنه يستحيل علينا الترقّي المطلوب إلا إذا نبذنا كل قديم واتبعنا خطوات فرنسة(?) في تجديد شباب الدولة والملة (أي الأمة) وأنا أقول إننا محتاجون إلى اقتباس الفنون عن الأوروبيين عامة لا عن فرنسة خاصة لأجل ترقية صناعتنا وحربيتنا وماليتنا، وأما الأمور المعنوية كالآداب والفضائل والشرائع فإننا نقتبسها من ديننا وما عندنا فيه أكمل مما عند غيرنا وهو خير لنا، ولكن الدكتور قال إن هذا كله صار رثاً بالياً لا ينفع فلا بد من التجديد في كل شيء. هذا ملخص حديثهما ولا حاجة إلى بيان ما أيدت به رأي فطين أفندي بل أقول لك إنني أكبرته من ذلك اليوم. ولكن العبرة في شك الشيخ إسماعيل حقي في عقيدته لأنه رأى أن زعماء الجمعية يثقون به وإن لم يعرف درجة هذه الثقة، وقد عرفت رأي جمهور علماء الأستانة في إسماعيل حقي هذا. وكذلك رأيت كثيراً من المتدينين يعتقدون أن زعماء الجمعية كلهم ملاحدة لا دين لهم، ومن هؤلاء كثيرون كانوا محافظين على الانتساب إلى الجمعية يرون أن في هذا خيراً لهم أو مصلحة للدولة والأمة. ومنهم ألوف تركوها إلى حزب الحرية والائتلاف.

الرواية الثانية - لما جئت بيروت عائداً من الهند إلى مصر من طريق العراق وسورية زارني قاض من قضاة الترك الأهليين ببيروت اسمه «شوكت بك» كان كثير اللهج بالجامعة الإسلامية وإيهام مسلمي بيروت وغيرهم أن الاتحاديين يرمون بسياستهم إلى هذه الجامعة، وكان ذلك في عهد وزارة مختار باشا والناس يجاهرون بلعب الاتحاديين ولا سبيل إلى استمالتهم إليهم إلا بإيهامهم أنهم يخدمون الإسلام ويجتهدون في جمع كلمة أهله. فكان أول حديث شوكت بك معي، بعد مجاملة السلام، السؤال عن مسلمي الهند واظهار الاهتمام بشأنهم. وانتقل من ذلك إلى مسألة الجامعة الإسلامية وما يزعمه من ميل الاتحاديين إليها. فقلت له: إن فاقد الشيء لا يعطيه، فإذا كان الاتحاديون أنفسهم ملاحدة غير مسلمين إلا في الاسم فقط فكيف يقومون بهذه الخدمة في الإسلام. قال: ان الحكم عليهم جميعهم بالإلحاد فيه مبالغة ولعل الملحدون منهم لا يزيدون على ثلاثين في المئة. قلت: الظاهر أنك أسوأ ظناً مني فيهم، فأنا أعني بمن حكمت عليهم بالإلحاد زعماءهم لا جميع من انتمى إلى الجمعية فإن لي أصدقاء كثيرين ممن دخلوا في هذه الجمعية لا ريب عندي في إسلامهم ولا في صلاحهم، منهم من تركها بعد العلم بحقيقة حالها، ومنهم من يرى من المصلحة العامة أو الخاصة بقاءه فيها، وقد صرح لي بذلك كثير منهم. وذكرت له أنني اخترت أكبر أولئك الزعماء بنفسي في الأستانة ووقفت على ما كان من اختبار أصدقائهم وغير أصدقائهم لهم، وذكرت له رأي الزعيم الأكبر الدكتور ناظم الذي ذكرته في الرواية الأولى قال نعم! إن الزعماء لا دين لهم «دين سز» ولكن مسألة الجامعة الإسلامية تفيد الدولة فائدة سياسية عظيمة فهم لذلك يهتمون بأمرها. قلت: إنني أعلم أنهم يشتغلون بتأسيس جامعة تركية لا إسلامية عامة وقد بشوا دعائهم لهذه الجامعة في القوقاس وتركستان، ولو كانوا يريدون الجامعة الإسلامية لاعتنوا بتعليم اللغة العربية ونشرها ولكنهم مجتهدون في إماتتها، وكيف يتعارف المسلمون بغير لغة يتفاهمون بها، إنني طفت كثيراً من ممالك الهند فلم أدخل بلداً

منها إلا ووجدت فيه كثيرين يتكلمون معي بالعربية، ولا يكاد يوجد فيها أحد يعرف التركية، ولا توجد داعية تحفزهم لتعلمها، وأما اللغة العربية فداعية تعلمها الدين، وهي تزداد في هذه الأيام انتشاراً في الهند وجاوه، الخ.

خلاصة المحاور وفصل الخطاب فيها

ذ - لقد أطلت عليك وأخذت حظاً عظيماً من وقتك، وقد اقتنعت مما سمعت منك بأن هؤلاء الاتحاديين ملاحدة لا يدينون بدين وأنهم متهورون يسوّ لهم الغرور أنهم يستطيعون أن يهدموا بناء هذه الدولة وهذه الأمة ثم يبنونها بناء آخر زينه لهم اليهود ووضع رسمه لهم الألمان، وأن ذلك يتم لهم في سنين معدودات، ولذلك لم يسلكوا طريقة التدريج التي مضت بها سنة الله في خلق الأرض والسموات، وأحب أن تلخص لي كلامك بجمل مختصرة.

د - ١ - إن الشريف [حسين بن علي] أمير مكة المكرمة يعتقد أن الاتحاديين ملاحدة يكيّدون للدين الإسلامي على ما لهم فيه من المنافع السياسية والمالية فمثلهم كمثل المعتصم في حصن لعدوّ له وهو يرى أنه لا بد له من تركه ويخشى أن يصير إلى عدوه فهو على انتفاعه ببنائه وبما فيه من الخيرات يضع الألغام تحته لينسفه عند إرادة تركه.

٢ - إنه يعلم أيضاً أنهم أشد الناس عداوة للعرب وأن بغضهم لهم أشد من بغضهم للروم والأرمن لسببين: أحدهما إنهم أعظم أركان الإسلام وأنصاره، وثانيهما إنهم أكبر الشعوب العثمانية وأكثرها عدداً، وإنه قد وجد في بلادهم الحضرية كثير من أصحاب المعارف العصرية والأفكار النيرة وما زالت بواديهم والبلاد التي هي أقرب إلى البداوة ذات بأس شديد وقوة حربية لا يستهان بها، فلا يتم لهم ما يتخليلونه من تأسيس دولة تركية لا دين لها لأمة تركية محضة إلا إذا أبادوا هذا الشعب العربي الكبير الناصر

للإسلام، ولذلك عقدوا النية على تترك بلاده الخصبه المتعلمه بالقوة القاهرة، وعلى إذلال أهل الجزيرة العربية الأشداء بإضعافهم ونزع السلاح منهم وإلقاء العداوة بينهم، وجعل بلادهم المقدسة تحت سلطة عسكرية اتحادية لا دين لها حتى لا يستطيعوا أن يقوموا بعمل ديني ولا دنيوي.

٣ - إن الشعب التركي غيور على الإسلام وشديد التعصب له وقد عرف عنه من المبالغة في التعصب ما لم يعرف مثله عن العرب، ولكن خضوعه للقوة التي تسود عاصمة بلاده أتم من خضوع سائر الشعوب العثمانية، بل هو شعب لا يعمل إلا بالقوة العسكرية ولا تعمل به القوة العسكرية، وقد غلب حزب ملاحدة الاتحاديين حزب العلماء وجميع الأحزاب السياسية العثمانية بقوة الجند والمال كما علم من كلامنا السابق، فلم يعد الشريف [حسين بن علي] يرجو من اسقاط قوة الاتحاديين أعداء الإسلام والعرب بقوة الأحزاب التركية ما كان يرجوه من قبل، فانحصر وجوب مقاومتهم في العرب وحدهم.

٤ - إن الشريف يعلم كما يعلم العارفون وكل من له إلمام بأحوال الدولة أن ملاحدة الاتحاديين قد سلبوا سلطان الدولة وخليفته نفوذه وجميع حقوقه حتى ما هو مدون في قانونهم الأساسي، فأصبح المسلمون بغير إمام شرعي لا حقيقي مستوف للشروط الشرعية، ولا متغلب يطاع لضرورة جمع الكلمة، وإنما المتصرف في الدولة جمعية الاتحاد والترقي الملحدة، فالسلطان محمد رشاد لا نفوذ له الآن في المملكة ولا في قصره، ويسميه أهل الآستانة «المهردار» للجمعية، أي صاحب الختم الذي وظيفته أن يختم لها كل ما تأمر بختمه من الأوراق، وهم لا يسمحون له بأن يختار رئيس الكتاب وأمين السر له. حدثني سعدي بك أحد سراة الآستانة الكبار عن رجل من أعضاء البيت السلطاني انه كان بقرب السلطان ففي حفلة قراءة المولد النبوي الشريف في قصر «ضوله بغجه» فرأى «الباشكاتب» قد جلس متكئاً والسلطان منتصب بغاية الأدب على سمنه

وكبر سنه فلما رآه السلطان قد اتكأ قال متبرماً: اذا كان هذا... (نسيت اللقب القبيح الذي ذكره به) لا يحترمني أفلا يحترم حضرة فخر الكائنات صلى الله عليه وسلم؟

٥ - إن الشريف يعلم أن هؤلاء المتهورين قد عرضوا استقلال الدولة للزوال، وأن الخطر عليها في انتصار الألمان أشد من الخطر عليها في انتصار الحلفاء، فإن الظاهر أن الحلفاء يرضون باستقلال بلاد العرب، ويظن أيضاً أنهم يرضون بجعل الولايات التركية إمارة أو سلطنة تركية مستقلة، فغاية انتقامهم من هذه الدولة أن يجعلوها أجزاء بعضها مستقل بنفسه تمام الاستقلال وبعضها مستقل تحت حماية بعض الدول، كالولايات الأرمنية، الظاهر أنها تكون تحت حماية روسية، ويقال إنهم لا بد من أخذ شيء منها لأنفسهم وتختلف الآراء في مصير الآستانة... وليس هذا من موضوع حوارنا.

٦ - إن ملاحدة الاتحاديين شرعوا في تنفيذ خطتهم بإذلال العرب التي هي مقدمة أو علة لإذلال الإسلام كما ثبت في الحديث الصحيح عند أبي يعلى «إذا ذلت العرب ذل الإسلام» فبدأوا بالعراق والشام ثم مدوا برائتهم إلى الحجاز، فاضطر الشريف إلى دفع شرهم عن العرب بمقاومتهم في الحجاز واستقلاله بالسلطة فيه من دونهم لمجموع ما تقدم من الأسباب.

ذ - يظهر مما قررته انه لا يعد مقاومته للاتحاديين خروجاً على السلطان ولا عداً للدولة نفسها لأنه يرى أنهم جانبون على الدولة والسلطان قبل جنائتهم على العرب في الحجاز وغيره.

د - نعم، هذا هو الظاهر بل المتيقن، ومن وقف على الحقائق يرى أن الشريف [حسين بن علي] قام بأعظم خدمة للإسلام والمسلمين، وذلك أنه لما رأى الخطر قد أحاط بالدولة كما هو واضح مما شرحناه كان من الضروري أن يخاف وقوع القضاء بها فجأة فيكون حرم الله وحرم رسوله

وسياجهما من جزيرة العرب مما يسقط بسقوطها، وتزول السلطة الإسلامية عنهما وعن غيرهما مدة فترة السقوط أو مدة أطول منها يكون الحرمان وغيرهما فيها من قبيل التراث الذي يحكم فيه الفاتحون بما يشاءون فهو باستقلاله هذا قد جعل الحجاز تحت سلطة إسلامية خالصة، ويوشك أن يكون هذا مقدمة لدولة عربية إسلامية كبيرة، وما ذكره الأستاذ في أوائل حديثه من تعادي أمراء جزيرة العرب وكونه يحول دون تأسيس دولة عربية عزيزة غير مسلم، فالموادة بين أمراء الجزيرة وزعمائها لم تكن منذ قرون كثيرة خيراً منها الآن، فلم يبق بين أحد منهم شيء من ذلك العداء إلا ما بين إمام اليمن والسيد الإدريسي، ويرجى أن يقدر الشريف على تلافي ذلك وعقد اتفاق بين الجميع على قاعدة «اللامركزية».

وصفوة القول إن استقلاله هذا لا ضرر فيه على الدولة العثمانية ولا على الأمة التركية، وإنما هو كبح لجحاح هذه الجمعية الباغية على الإسلام والدولة والعرب، فإن سقطت الدولة في هذه الحرب لم يكن استقلال أمير الحجاز أحد أسباب سقوطها وإن سلمت من الحرب ومن هؤلاء الملاحظة وعادت دولة إسلامية قوية لم يكن ما تقدم من استقلال الشريف مانعاً من العودة إلى الوفاق والاعتصام، هذا ملخص ما عندي في هذه المسألة، فإذا كان لديك أسئلة أخرى فلتكن في زيارة أخرى.

انتهت المحاوراة مع الأستاذ بما ذكرنا من الإقناع وكذلك المحاورات الأخرى في الجملة.

فخلاصة ما وقفنا عليه من الآراء في المسألة العربية واستقلال الشريف الأكبر [حسين بن علي] أن المسلمين هنا لا يرتاحون إلى هذا الاستقلال إلا إذا أمكن أن يستتبع تأسيس دولة عربية قوية مستقلة تمام الاستقلال لا نفوذ فيها لدولة أجنبية يضعف استقلالها، ولكن منهم من يشك في إمكان ذلك ومنهم من يشك في سهولة حصوله دون إمكانه. ولكل منهم دلائل نظرية لا يتسع هذا الجزء لبسطها إن كان من الممكن نشرها.

ثم إن كل فرد ممن تكلمنا معهم أنصف الشريف في استحسان وقوفه بهذا الاستقلال عند حد منع الضرر عن أهل الحرمين وغيرهم من العرب عملاً بما ثبت عنده من سوء نية الاتحاديين بحيث كان استقلاله غير مضعف للدولة إلا بقدر ما يجني عليها الاتحاديون إذا أرادوا الاستمرار على قتاله بجيوشها المنظمة وتيسر لهم ذلك، فعمل الشريف يصدق عليه أنه إما ينفع نفعاً عاماً أو خاصاً بالحجاز وإما أن لا يضر، ولا يوجد عاقل ينكر مثل هذا أو يذمه. وكل مسلم عرف كنه سياسة الاتحاديين في الإسلام صار عدواً لهم، وأقدم أعدائهم في هذا علماء الأستانة والمتدينون فيها وفي سائر بلاد الترك، وما كان مسلمو العرب الا متأخرين عنهم في ذلك. وكل عربي مصري أو غير مصري عرف كنه سياستهم في العرب صار عدواً لهم، وأقدم من عرف ذلك السوريون المسلمون ثم غيرهم منهم ومن العرب، ولو كان المصريون يصدقون أخبار المقطم والأهرام عن فظائهم في سورية لأجمعوا على ذلك وقد انفتحت لهم أبواب أخرى للاقتناع. وما قلت لأحد منهم ان ما أتاه جمال باشا من التقتيل والتصليب والتغريب عن الوطن ثبت عندي من طريق الأسرى العثمانيين ومن طريق أمريكة وأوربة ثم من طريق الحجاز إلا قبلوه مذعنين، ولعنوا جميع الاتحاديين، وسيأتي يوم يصدق فيه الجميع هذه الأخبار ولعله ليس ببعيد.



[المنار ج ١٩ (١٩١٦) ص ٢٢٣ - ٢٣٥]

إن قراء المنار بعد الانقلاب العثماني يعلمون أن الجرائد الإسلامية الهندية أول من رمى الاتحاديين بالكفر والإلحاد، وإن المنار كان أول الصحف الإسلامية دفاعاً عنهم، ولما كثر الخلاف في أمرهم رحلنا إلى الأستانة بعد تمهيد مع جمعية الاتحاد والترقي المركزية للقيام بمشروع الدعوة والإرشاد في الأستانة وللسعي في التوفيق بين الترك والعرب وكانت نواجم الخلاف والتخاصم قد نجمت وامتدت من العاصمة إلى الولايات. وقد أقيمت في الأستانة سنة كاملة اختبرت فيها الاتحاديين اختباراً تاماً لا أزال أرى في كل سنة من الآيات ما يؤيده وتقنعني بأنني قد سبقت إلى إدراك ما لم يدركه كله العثمانيون ولا الأجانب.

ولو كنت ممن يبيع دينه وقومه بالمال والجاه كالشيخ عبد العزيز جاويز لأمكنني أن أنال في الأستانة من الاتحاديين أنفسهم ما لا مطمع لعربي في نيل مثله، فقد مناني الاتحاديون أعظم الأمانى لأنهم كانوا يظنون أنني ما دافعت عنهم ورددت على من سبق إلى رميهم بالكفر والإلحاد وإفساد هذه الدولة إلا لأن إسلامي سياسي يدور مع المنفعة الشخصية أنى دارت.

ويعلم قراء المنار أنني قد حملت على الاتحاديين بعد عودتي من الأستانة حملات منكرة لم يحمل عليهم أحد بمثلها في الشدة، كما يعلمون أنني لم أكتب شيئاً ينافي مصلحة الدولة العثمانية نفسها، ولا شيئاً ينافي الإخاء الديني بين العرب والترك، فأنا لم أعاد الدولة ولا الترك ببيان فضائح

الاتحاديين، بل أعتقد أن كل ما كتبه كان خدمة للإسلام وللدولة، وأن الموافقين لي عليه من علماء الترك وجمهور المتدينين فيهم أضعاف الموافقين لي عليه من العرب، لأن الذين كانوا يعرفون مقاصد الاتحاديين الإلحادية من العرب قليلين ولعلهم لم يكثرُوا إلا بعد أن رأى من رأى خواص العرب في سورية مصلوبيين في أعظم مدنها عمراناً وسمع من سمع بأخبارهم ثم كان من أمرهم مع الشريف الأكبر [حسين بن علي] أمير مكة المكرمة.

وقد كتب بعض العرب العثمانيين من أسرى الحرب وغيرهم مقالات في مقاصد الاتحاديين وعداوتهم للعرب وللإسلام نشروها في المقطم والأهرام فظن كثير من المصريين أنها مقالات مصنوعة افتجرها كتاب الجريدتين حتى أن منهم من لم يصدق ما نقل عن كتاب قوم جديد وكتاب اتحاد اسلام وإنما لم يصدق هؤلاء هذه الاخبار لأنهم لا يريدون ان يصدقوا ما لا يلذ لهم تصديقه. ولو كانوا ذوي غيرة على الدولة والدين وحرص على بقائهما كحرصهم على لذتهم وراحة بالهم لتحروا وبحثوا عن أصل كل ما يقال في هذا الموضوع ليكونوا على بصيرة من أمر أعظم الأشياء موقعاً من أنفسهم وأهمها لديهم.

كان مقصد الاتحاديين خفياً ثم عرف رويداً رويداً، ثم اشتهر وتواترت أخباره في جميع الأمم. وإننا ننقل من ذلك عن جريدة الاهرام ما يأتي:

الإسلام والجامعة الطورانية
كيف يسعى الاتحاديون لملاشاة
الحضارة الإسلامية^(١)

[المنار ج ١٩ (١٩١٦) ص ٢٣٥ - ٢٣٧]

كتب مراسل شركة [سنترال نيوز] الخاص يقول:

في خلال بضعة السنوات الأخيرة بدت في بلاد تركيا طلائع حركة

جديدة تعرف بنهضة «بني طوران» أو «الطورانية الحديثة» وغرضها هدم المدنية الإسلامية وإحياء العصبية التركية على أنقاضها والجمع بين العناصر التركية التتية والشعوب المنتمية إليها ومنها الأمة البلغارية. أما القائمون بهذه الحركة فهم قوم مشهورون بعدائهم للإسلام وتعصبهم عليه وكثيراً ما يجاهرون بأقوالهم وكتاباتهم بذلك الكره بحجة أن الإسلام يسعى لقتل العصبية القومية ويحول دون نشوء المدنية التركية ولذلك فهم يسعون لجعل الجنسية التركية مستقلة عن الإسلام كل الاستقلال.

ومما يقولونه أيضاً إن الإسلام لا محل له في المدنية ولا يمكن أن يعيش طويلاً إلا إذا أدخلت عليه تنقيحات عديدة تلائم المذاهب التركية القومية.

ولهذه النهضة وجهتان: إحداها أدبية والأخرى سياسية. فغاية الوجهة الأولى تمجيد الشعوب الطورانية ونشر تاريخها المجيد. وغاية الوجهة الثانية القضاء على العصبية العربية. فجنكيزخان هو في نظرهم نموذج الملوك ورجال السياسة فكل مملكة ينشؤونها يجب أن تقوم على المثال الذي رسمه. وأما العرب في نظرهم فهم مصيبة على الأتراك. ولذلك يجب القضاء عليهم أو إدماجهم في العنصر التركي حتى ينسى العالم تاريخهم وتقاليدهم. أما لغتهم فلا بد من محوها وإحلال اللغة التركية محلها في كل صقع وناد.

والغريب أن كتاب الأتراك الحاليين الذين يدعون بأنهم وطنيون بكل معنى الكلمة ينشرون اليوم المقالات الضافية ويحثون أبناء قومهم على الطواف بجميع أنحاء السلطنة للمناداة بهذه البدعة الجديدة ومن أغرب ما يروى من هذا القبيل أن أحد الأتراك طاف حديثاً بسوريا وهو ينادي بهذه الضلالة.

والحكومة الاتحادية تؤيد الآن جمعية «بني طوران» وتعززها بالإعانات

(*) نشرت في العدد الذي صدر من الأهرام في يوم الخميس ١٦ ذي العقدة - ١٤ سبتمبر.

المالية العديدة وتسمى تلك الإعانات «بإعانات المليّة التركية» وجميع كبار الاتحاديين أعضاء فيها وهم بعيدون عن الإسلام بُعد الأرض عن السماء. والمسلمون ينكرونها لما يرون منهم من الاعتداء على حدود الشريعة الغراء.

ولا يخفى أن الألمان هم الذين يؤيدون الاتحاديين في هذه السياسة الخرقاء فقد ثبت لهم الآن أنهم لا يستطيعون إخضاع الإسلام لسياستهم ولا هم نجحوا في إثارة المسلمين الخاضعين لفرنسا وإنكلترا على هاتين الحكومتين. فانقلب زعمهم العطف على الإسلام إلى كره شديد له وأخذوا يسعون ضده مستعينين على ذلك بالجامعة الطورانية الجديدة. وقد علم العالم أجمع ما كان من أمر المنشورات الألمانية التي اكتشفها الجنرال «سمطس» في موشي والتي كان غرضها سحق الإسلام في المستعمرات الألمانية، ولذلك فألمانيا هي أكبر خطر على الإسلام مع أنها تتظاهر على المسلمين.

«*»

ليس من ينكر فضل الإسلام على العالم وما كان لمدينته من الآثار المجيدة. أما الشعوب الطورانية فليس في التاريخ ما يدل على أنها عملت عملاً واحداً أفاد الإنسانية بل بالعكس كانت جميع أعمالها تدميراً وتخريباً فالطورانيون لم يستنبطوا شيئاً للمنفعة بل كانوا حيثما حلوا أخرجوا معالم المدينة ومحو آثارها واستعبدوا الشعوب التي يقهرونها بأساليب هي في غاية الهمجية.

أما ادعاء دعاة الجامعة الطورانية بأن الإسلام قد حال دون نشوء المدينة التركية فغير صحيح. ولا يخفى أن المدينة العثمانية هي خليط من آثار المدينت العربية والفارسية والبيزنطية والشعوب الطورانية التي لم تدخل في الإسلام لا مدينة لها على الإطلاق وإنما هي استعارت شيئاً من ثمالة الحضارة الصينية. ولو أن السلطنة العثمانية قد اعتمدت على المدينة التركية

لكانت قد أصبحت في خبر كان منذ أجيال عديدة لأن المدنية التركية كما قلنا هي تخريبية لا تعميرية والشيء الوحيد الذي يفوق به الطوراني غيره هو الظلم والجور واضطهاد جميع العناصر التي لا تسبح بحمد الطورانية وتحمده. وسبب ذلك اعتقاده بأن جميع تلك العناصر وقفت حائلاً بينه وبين تركمان آذربيجان والقوقاز.

هذه رسالة شركة سنترال نيوز وقد نشرت الصحف الإنكليزية كلها هذه الرسالة وبسطت فيها الكلام بسطاً ضافياً.



الإسلام والطورانية الحديثة

ما يفعله الاتحاديون لمقاومة الإسلام^(*)

[المنار ج ١٩ (١٩١٦) ص ٢٣٧ - ٢٤٠]

نشرنا منذ بضعة أيام فصلاً عن الإسلام والطورانية الحديثة ضمنه ما نشرته الصحف الإنكليزية نقلاً عن شركة «سنترال نيوز» الصحافية. وقد وقفنا الآن على مقالة ضافية في هذا الموضوع نشرتها مجلة الشرق الأدنى فرأينا أن نورد خلاصتها لحضرات القراء، قال الكاتب:

بدأت طلائع الطورانية الحديثة في الآستانة في عام ١٩١٣ ثم أخذت تمتد وتزداد جلاءً حتى أصبحت نهضة عامة في جميع أنحاء السلطة العثمانية. وخلاصة ما يعرف عن هذه النهضة أنها تركية محضة غرضها

(*) نشرت في العدد الذي صدر من الأهرام في يوم السبت ١٨ ذي العقدة - ١٦ سبتمبر.

الأصلي الانفصال عن الإسلام ولها أغراض أخرى عديدة أهمها في ما يأتي:

- ١ - جعل الجنسية التركية مستقلة عن الإسلام.
- ٢ - ترقية الروح العسكري في الأتراك.
- ٣ - إنشاء علاقات تجارية وغيرها مع مسلمي أذربيجان وروسيا الآسيوية وروسيا الجنوبية.
- ٤ - تطهير اللغة التركية من كل ما هو عربي أو فارسي.
- ٥ - محو الجنسية العربية وإدماجها في الجنسيات الأخرى.

ويرمي القائمون بهذه الحركة إلى جعل التركي يعتقد أنه تركي قبل كل شيء ومسلم بعد ذلك. ويقوم بمساعدة هذه النهضة جمعية «الملة التركية» التي تؤيدها الحكومة الاتحادية، بالإعانات المالية. ومن مبادئ هذه النهضة تربية الأجيال الحاضرة والمستقبل على الروح الطوراني بإنشاء مدارس طورانية بحتة. وبناءً عليه يجب التوسع في تعليم التاريخ باللغة التركية وإنشاء فرقة كشافة «سكوتس» Scouts من الأولاد الأتراك تحت إشراف أنور باشا. وقد أنشئت الآن هذه الفرقة وشرع الأولاد الذين فيها يتربون تربية عسكرية توطئة لدخولهم في الجيش. أما شارات الفرقة وراياتها فمأخوذة عن رموز ترجع إلى ما قبل الإسلام. والأولاد الذين لهم أسماء عربية تستبدل أسماؤهم بأسماء تركية بحتة.

ولهذه النهضة وجهة لغوية أيضاً ولذلك أخذ زعمائها يترجمون كثيراً من المؤلفات العلمية والتاريخية إلى اللغة التركية البسيطة وقد كان في نيتهم أن يترجموا القرآن أيضاً ولكن علماء الإسلام قاوموا تلك الفكرة بكل عزم وحالوا دون تنفيذها.

ويعزى نشوء هذه النهضة إلى عدة أسباب نذكر منها السببين الآتين وهما:

١ - اللغة، لا يخفى أن أحرف اللغة التركية مأخوذة عن الأحرف العربية والاصطلاحات التركية تزداد كل يوم تعقداً وصعوبة في نظر الطبقة الساذجة.

٢ - كتاب المسيو «ليون كاهون» عن تاريخ الترك والمغول من أقدم الأزمنة الى سنة ١٤٠٥ للميلاد وقد وجدت الأكاديمية الفرنسية هذا الكتاب، واتفق أن ناظم بك سكرتير جمعية الاتحاد والترقي العام قرأ هذا الكتاب فوضع أساسات النهضة الطورانية التي نحن بصدها.

ولا شك أن نهضة كهذه مما تهّم العالم الإسلامي قاطبة وتهّم أيضاً إنكلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا اللواتي يحكمن على الملايين من المسلمين. والذي يشجع الاتحاديين على ترويج هذه النهضة اعتقادهم صحة النظرية التي ابتدعها «فمبيري» وهي إن الإسلام يناقض فكرة الجنسية. فالاتحاديون يقولون إن الإسلام بالاتحاد مع العوامل العربية والفارسية والرومية والبيزنطية قد جعل الأتراك «مسلمين ليفانتين» وحال دون نشوء حضارتهم. على أن هذه الدعوى هي عكس الحقيقة تماماً فإن الأتراك الذين جاءوا أصلاً من حدود الصين وانتشروا في مجاهل آسيا حتى ضفاف «الاوكسوس» لم يكن لهم دين معروف أو حضارة راقية لأنهم كانوا قبائل رحل يؤجرون سيوفهم لكل من يطلب معونتهم. ولم يحاول أحد من قواد الأتراك أن يخضع جميع القبائل التركية. نعم ان «جنكيزخان» كان يحلم بنشر سلطته عليها ولكنه لم يفعل. وقد اشتهر بأنه كان يقتبس عن الصين والعجم والعربية وبيزنطة وجرمانيا كل ما كان يروقه فيها من آثار الحضارة. ولا شك أن أهم ما اقتبسه هو الإسلام فالإسلام لم يحل دون نشوء الحضارة التركية إذ لم يكن للأتراك حضارة خاصة بهم.

وكل ما لدى الأتراك من حضارة هو بفضل الإسلام، ولما كان التركي مشهوراً بروح الخضوع العسكري لمن يقوده فقد جعل نفسه سيفاً في قبضة الإسلام.

إن العنصر الطوراني لم يشتهر بشيء من قوة الابتداء. وما تاريخه سوى هدم تاريخ وتدمير. فقبائل «بوشي» أخربت مستعمرات بكتيريا اليونانية وقبائل «الهون» اجتاحت رومية الشرقية ورومية الغربية اجتياحاً همجياً وقبائل «أفار» سعت لسحق الشعوب السلافية في مهدها، و«هولاكو» ردم أقدية بابل وجعل أخصب بقاع الدنيا بلاداً قاحلة حتى الآن، والعثمانيون أبادوا الحضارة البيزنطية التي ربوا عليها واكتسبوا منها شيئاً من العلم والمعرفة. وهذه هي القبائل الطورانية التي تباهي «باتيلا» الذي كان نقمة الله على العالم، وجنكيزخان الذي سمى نفسه «غضب الله تعالى» ولما شرع الألمان يحاربون البلجيك وغيرها من دول أوروبا رأوا أن يقتبسوا أساليب جنكيز وأتيلا وتيمورلنك.

ومما يدل على أن العقل التركي ليس عقلاً مستنبطاً إنه لم يات بمستحدث في الإسلام بل هو اتخذ الإسلام ودان به كما هو. ولو كان مخلوقاً مفكراً لرأيناه بعد انتحاله العقيدة الإسلامية يزيد عليه أو ينقص منه ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك لعجز مخيلته عن الاختراع.

امبراطورية تركية.

ومما تسعى إليه نهضة الطورانية الحديثة إنشاء امبراطورية حربية واسعة الأرجاء تضم تحت ألويتها جميع قبائل التتر والمغول الخاضعة لروسيا أو لأية دولة أخرى. «أما الجنسية العربية فيجب ابادتها وادماجها في الجنسية التركية المحضة لأنها خطر كبير على الجنسية التركية. ومن أمثلة الأتراك من هذا القبيل قولهم: وإذا لم نعامل العرب كما نريد عاملونا بما نستحق» لذلك تراهم يسعون «لتريك» العناصر العربية بحسب الأساليب البروسية.

ومما يستحق الذكر أن جلال نوري بك الكاتب التركي الشهير قال في كتاب حديث ألفه ما يأتي: «إن بلاد العرب ولا سيما اليمن والعراق يجب

تحويلها إلى مستعمرات تركية لنشر اللغة التركية التي يجب أن تكون لغة الدين. ومما لا مندوحة لنا عنه للدفاع عن كياننا أن نحول جميع الأقطار العربية إلى أقطار تركية لأن الجيل العربي الحديث قد صار يشعر الآن بعصبيته وهو يتهددنا بنكبة عظيمة فيجب أن نحتاط للأمر من الآن».

وكتب أحمد شريف بك مقالة في طنين جاء فيها ما يأتي: «لا يزال العرب يلهجون بلغتهم وهم يجهلون اللغة التركية جهلاً تاماً كأنهم ليسوا تحت حكم الأتراك. فمن واجبات «الباب العالي» أن يجعلهم ينسون لغتهم ويحبرهم على تعلم لغة الأمة التي تحكمهم. فإذا أهمل الباب العالي هذا الواجب كان كمن يحفر قبره بيديه لأن العرب لن ينسوا لغتهم وتاريخهم وعاداتهم. بل سيسعون لاسترجاع مجد مملكتهم وإعادة ترميمها على أنقاض دولة الأتراك».

وجاء في نبذة وزعها الأتراك في القوقاز. «إن العرب هم بلية علينا مع أن حصان التركي خير من أي نبي ظهر في العالم».

هذا وقد علقت مجلة الشرق الأدنى على هذه المقالة بتوجيه نظر العالم الإسلامي إلى الخطر الذي يتهددهم إن تباطأوا عن الاحتياط لدرء ذلك الخطر.

منشور شريف مكة وأميرها

[حسين بن علي]



[المنار ج ١٩ (١٩١٦) ص ٢٤١ - ٢٤٤]

نشرت الجرائد المصرية اليومية في آخر الشهر الماضي منشور شريف مكة وأميرها الذي وجهه إلى العالم الإسلامي، وأنه لمنشور كتب بمبدأ الحكمة وإصالة الرأي وشرف الغاية. وملخصه أن الشرفاء (أمرأ مكة المكرمة)

كانوا أول من اعترف بسلطة سلاطين آل عثمان الكرام لما كانت أحكام دولتهم قائمة على أساس الشرع الإسلامي حياً في الوحدة الإسلامية وكرهه للشقاق وتفرق الكلمة، وإن صاحب المنشور نفسه قد بالغ في الاستمساك بعروة الدولة حتى أنه حمل بجنده من العرب على العرب وقاتلهم لأجل الدولة.

ثم انتقل من ذلك إلى سيرة فئة الاتحاديين الباغية فبين أنها قد جنت على الدين والدولة والأمة فانحرفت عن صراط الشريعة وأبطلت بعض أركان الإسلام وغيّرت أحكام القرآن، وحجرت على السلطان حتى منعت من التصرف بشؤون خاصته وقصره، ونكلت بالأمة، فلم ترع حقوق الإسلام ولا عهود الذمة، وخصت العرب بالاضطهاد فصلبت في الشام كثيراً من أهل العلم والرأي والفضل، واستحلت مصادرة الأموال وإخراج النساء المخدرات والاطفال من ديارهم وأموالهم ونفتهم إلى بلاد الأناضول من غير ذنب وبغير قيد شرعي. ثم ذكر تقحمهم بالدولة في هذه الحرب وتعريضهم إياها للخطر وما جنوه على البلاد بذلك، وذكر ما حل بالحجاز من جراء ذلك وإن الضيق قد بلغ بأهل الدرجة الوسطى إلى بيع أثاثهم ثم بيع خشب بيوتهم حتى الأبواب والسقف.

ثم بين أن بلاد الحجاز اضطرت بسبب تلك الجرائم والمفاسد العامة التي اجترحها الاتحاديون إلى إعلان استقلالها بنفسها دونهم حرصاً على دينها وعلى جنسيتها العربية لأن الاتحاديين يتعمدون إفساد هذا الدين ومحو هذه الأمة العربية من لوح الوجود. وذكر أن الحامية التي وضعها الاتحاديون بمكة أرادت الانتقام من أهل البلاد فألقت قذائف مدافعها من حصن جياذ على الحرم الشريف فأصاب بيت الله عز وجل وقتلت كثيراً من الطائفين والمصلون فيه.

قال «وحسبنا برهاناً على ما تكنه صدورهم نحو الدين والعرب رميهم للبيت العتيق الذي أضافته العزة الأحدية لذاتها السبحانية في قوله تعالى

﴿وطهر بيتي للطائفين﴾ وهي قبلة المسلمين وكعبة الموحدين بقنبلتين من قنابل مدافعهم التي بحصن جياذ أثناء قيام البلاد بالمطالبة باستقلالها وقعت إحداهما فوق الحجر الأسود بنحو ذراع ونصف والثانية تبعد عنه بمقدار ثلاثة أذرع التهمت بنارهما أستار البيت حتى هرع الألوف من المسلمين لإطفاء لهيبه بالضجيج والنحيب واضطربهم الحال إلى فتح باب البيت والصعود إلى سطحه للتمكن من إطفاء اللهب، وما انتهى أمرهم بهذا حتى عززوا الاثنتين بثالثة في مقام ابراهيم، وهذا عدا ما وقع منها في بقية المسجد الذي اتخذوه هدفهم الوحيد في غالب مقذوفاتهم بالقنابل والرصاص، وما زالوا يقتلون الثلاثة والأربعة في نفس المسجد كل يوم حتى تعذر على العباد القرب من البيت، وفي هذا من الاستخفاف والازدراء بالبيت وتعظيمه وحرمة ما نترك القول والحكم فيه أيضاً لعموم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها»

وهذا المنشور يؤيد ما شرحناه مراراً في المنار من سيرة هذه الجمعية الباغية في الدولة والأمة، ومن اطلع عليه من قراء المنار يعجب إذ يرى أكثر مسائله في المحاورة التي نشرناها في الجزء الماضي، وسبب ذلك أنها حقائق يعرفها جميع خواص العثمانيين وكثير من عوامهم فكيف تخفى على أمير مكة المكرمة على مكانته في الذروة العليا من الأمة والدولة، وأهل بيته منهم الأعضاء في مجلس المبعوثين كنجله الشريف عبد الله وفي مجلس الأعيان كأخيه الشريف ناصر.

وقد أعجب أهل الفضل بنزاهة المنشور ومحافظته على كرامة الدولة العثمانية وسلطينها العظام وكرامة الشعب التركي أيضاً وحصره السيئات التي يشكو منها جميع العثمانيين وكل غيور على الدولة في سيرة الاتحاديين فيها.

ومن حكم الروية والانصاف في سيرة الاتحاديين يستدل من موافقة هذا المنشور للكثير من المطاعن التي قيلت فيهم على أن أخبارها قد بلغت حدّ

التواتر بكثرة مصادرها فالشريف الاكبر [حسين بن علي] لم يستمد ما ذكره في منشوره من الجرائد المصرية ولا الأوربية ولعله لم يطلع على شيء منها قبل كتابته، بل يستمد بيناته من الأقوال والأعمال الرسمية. مثال ذلك ما ذكره من الشواهد على جنائتهم على الدين وجراأتهم على هدم أركانه والعبث بأحكامه، فإنه ذكر منه أمر سلطتهم العسكرية بإلزام جنودهم المقيمة في الحجاز وغيره من الأمصار الفطر في رمضان وأمرهم لقاضي مكة بعدم الاعتداد بشهادة المسلمين بعضهم على بعض إلا ما كتب منها في محكمته، وأما أخبار فتكهم بأهل الفضل والنبل من مسلمي سورية تقتيلاً وتصلباً ومصادرة الأموال ونفي النساء والأطفال فلا شك في أخذه إياه من الجرائد السورية الرسمية وغير الرسمية وإن لم يصرح بذلك. ودليلي على ذلك أن أول كتاب جاءني من وكيل المنار في الحجاز قد نقل فيه عن تلك الجرائد أسماء من قتلوا وصلبوا في الشام من كبراء العرب ومنهم السيد عبد الحميد الزهرواي وشفيق بك المؤيد وغيرهما.

وقد تذكرت بهذا أنه لما ذكرت الجرائد المصرية أول نبأ عن صلب فضلاء العرب ببيروت وهم الأحد عشر الذين منهم النابغة محمد المحمصاني وعبد الكريم قاسم الخليل أرسل إليّ فؤاد الخطيب برقية من الخرطوم ذكر فيها ارتياعه واستفظاعه للخبر وشكه في صحته والرغبة إليّ في إرسال برقية إليه ببيان رأيي فيه وقال إنه لا يثق به إلا إذا كنت مصداقاً له. فأرسلت إليه برقية قلت فيها إنني لا أثق بشيء من ذلك. ثم جاءت جرائد أوروبة فجرائد أمريكة تثبت الخبر، وفي جرائد أمريكة العربية السورية نقل له عن جرائد سورية. ثم إنني كنت ماراً مرة بنظارة الحربية فرأيت فيها رجلاً قد أسره الإنكليز من سيناء فسألته عن بلده وعن أخبار سورية فقال إنه من القدس، وأخبرني بخبر الذين صلبوا في بيروت، فقلت هل تعرفهم قال لا بل أعرف بعضهم بالاسم، قلت ممن علمت بخبر شنفهم؟ قال من جريدة القدس الرسمية. لأجل هذا قلت في المحاوراة التي نشرت

في الجزء الثالث أن خبر صلب من صلب في سورية قد ثبت عندي بالتواتر.

لقيت أول من أمس صديقاً لي من رجال القانون أعرف منه استقلال الرأي فتكلمنا في هذا الموضوع فقال انه يجب أن يجعل نفسه كالقاضي في هذه القضية فلا يحكم فيها. قلت بل يجب ان تجعل نفسك بمكان المؤرخ المنصف الذي يمحس الأخبار، ثم يجزم بالنفي أو الاثبات، فأنا لم أكن خصماً للاتحاديين بل كنت صديقاً لهم قبل الدستور وبعده، وكنت أول من دافع عنهم لما حملت عليهم جرائم الهند الإسلامية ورمتهم بالكفر والإلحاد، وإسقاط خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد لأجل إبطال الحكم الإسلامي، ولما شاع أمر عبثهم بالدين وتعصبهم على العرب وغيرهم تثبت في الحكم عليهم وذهبت إلى الآستانة فأقمت فيها سنة كاملة معهم ساعياً في خدمة للإسلام عامة وفي التأليف بين الترك والعرب وعلمت بالاختبار الطويل أن كل ما قيل فيهم دون الواقع كما بيته في المنار.

وجملة القول أن منشور الشريف الذي كان قبل استقلاله في الحجاز أعظم الأمراء العثمانيين هو أعظم الحجج على ملاحدة الاتحاديين، كما أنه تأييد من سيد العرب لطلاب الإصلاح من العرب، لأنهم بنوا سعيهم على أساس المحافظة على الدولة العثمانية، ومن قواعدهم أن لا يكونوا سبباً من أسباب ضعف الدولة ولا تمزيق وحدتها. وقد انسلخ من الدولة عدة ممالك وولايات بسوء سياسة الاتحاديين: البوسنة وهرسك وطرابلس الغرب وألبانية ومكدونية وكريت وجزائر الأرخيل الرومي، - دع ولاية البصرة والولايات الأرمنية والأناضولية التي ذهبت في هذه الحرب - ولم يكن العرب سبباً في زوال شيء منها. فهذه أكبر حججنا على هؤلاء المخربين.



[المنار ج ١٩ (١٩١٦) ص ٣٦٩ - ٣٧٤]

ذكرنا في الجزء الرابع من منار هذه السنة ملخص المنشور الأول الذي خاطب به الشريف الأكبر [حسين بن علي] صاحب مكة المكرمة مسلمي الأرض مبيناً لهم سبب نهضة الحجازيين باستقلال العرب دون متغلبة الاتحاديين. واليوم ننقل لهم نص منشور آخر نشر في العدد الحادي عشر من جريدة القبلة الصادر في ٢١ ذي القعدة سنة ١٣٣٤ [هـ/١٩/١٠/١٩١٦ م] لتعميم فائدته والعناية بحفظه، لان أمثال هذه المنشورات من أهم مواد تاريخنا في هذا العصر، وقد ضاق عنه الجزء الخامس الذي طبع الكثير منه قبل عودتنا من الحجاز، وهذا نصه:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

«إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» [سورة الجاثية رقم ٤٥ الآية ٢٩]

[المنار ج ١٩ (١٩١٦) ص ٣٦٩ - ٣٧٤]

لقد رأينا دفعاً للالتباس ومنعاً لما عسى أن يحدث من التردد في حقيقة قيامنا ونهضتنا معاصر الحجازيين الموضحة أسبابها في منشورنا الأول أن نردفه بهذه الأسطر ليكون منها لأفاضل العالم عموماً والمسلمين خصوصاً زيادة الاطلاع على نياتنا ومقاصدنا المتعلقة بكياننا من حيث هو، ملتزمين فيها أقرب المواد عهداً وأبسطها دلالة.

من المعلوم أن عقلاء المسلمين وذوي البصيرة من ساكني الممالك العثمانية وسائر أقطار الدنيا غير راضين عن دخول الدولة العثمانية في

الحرب الحاضرة لأسباب جوهرية أجمعوا عليها، منها ان الدولة العثمانية قريبة عهد الخروج من الحرب الإيطالية أولاً والحرب البلقانية ثانياً وقد أصاب جيوشها وخزائنها وكل مرافقها وعامة تشكلاتها من الضعف والضياع والفناء ما لا يخفى تأثيره على ثروة الدولة خاصة وثروة المملكة وأهلها عامة، حتى كان الجندي لا يكاد يصل إلى قريته أو إلى مكان عمله ليتحصل على ما يسد به رمقه ورمق أولاده وسائر أهل بيته إلا ويكون قد دعي الى التجنيد مرة ثانية. وهكذا شأن الصانع والحمال والمحتطب. فالأمة التي أصيب أفرادها بمثل هذه الكوارث لا نرى حاجة إلى بيان مصيرها ومصير دولتها إذا دفعت بنفسها في هوة حرب جديدة لا تشبه غيرها من الحروب. لا سيما وإن واردات الدولة من الضرائب^(*) المفروضة على مساعي الأفراد المنكودي الحظ بين تجارية وصناعية وزراعية.

هذا أحد الأسباب التي حملت عقلاء المسلمين على استنكار دخول الدولة في الحرب الحاضرة وهو سبب مبني على حقيقة الحالة الداخلية في كل بلاد السلطنة. وهناك أسباب خارجية تتعلق بالجهة التي انحازت الحكومة الاتحادية إلى الحرب معها ضد الفريق الآخر من الدول المشتبكة في الحرب. فإن الدولة العثمانية دولة إسلامية وبلادها مترامية الأطراف كثيرة السواحل فكانت السياسة التي سار عليها سلاطين آل عثمان العظام من قديم الزمان تحسين الصلات والعلاقات مع الدول التي يسكن ممالكها القسم الأعظم من المسلمين والتي لا تزال صاحبة الأرجحية في البحار، فلما دخلت الحكومة الاتحادية في الحرب ضد هذه الدول منحازة إلى فريق آخر كثير الطمع واسع الجشع لضيق بلاده عن ساكنيها تشاءم من ذلك أهل النظر والروية من المسلمين لعلمهم بما يكون من نتائجها السيئة قبل حدوثها.

ولقد كنت من جملة هؤلاء عندما سئلت تلغرافياً عن رأيي في هذه

(*) المنار: قوله: من الضرائب - خبر إن لا بيان للواردات كما يتوهم بادىء بدء.

الحرب، فأجبت بما اقتضاه واجب النصح، وهذا مما أتخذة دليلاً على إخلاصي لهذه الدولة وحرصى على سلامتها وصيانة بيضة الإسلام.

وها قد حصل ما كنا نخشاه، وانتهت الدولة الى ما تخوفناه، وأصبحت حدود المملكة العثمانية اليوم في أوربا أسوار الآستانة تقريباً. وإن طلائع جيوش الروس تتخطف الأهالى العثمانيين في ضواحي ولايتي سيواس والموصل، وطلائع الانكليز تسوق ألوف الأسرى من أبناء هذه المملكة في بادية العريش بعد أن استولت على ولاية البصرة وشرط من ولاية بغداد، ولا شك في أن من تأمل هذه الحالة ورأى أن الحرب لا تزال قائمة على ساق وقدم لا يحتاج إلى كبير عناء في استجلاء النتيجة التي تخرج عن أحد أمرين فإما أن نستسلم إلى هذا الخطر الداهم حتى نزول من خريطة العالم أو ان نسعى إلى الخلاص منه.

إننا نترك للعالم بأسره التأمل في هذا والجواب عليه وليس عندنا أقل ريبة في أنهم يعذروننا في نهوضنا الذي جاء في وقته قبل أن تحيط المهالك بالبقية الباقية من هذا الملك فتأخذنا على غرة. بل إننا لا نتردد في مشروعية نهوضنا ووجوبه علينا. ولو كنا نعلم بأن بقاءنا مرتبطين بهذه الدولة التي أصبحت ألعوبة في أيدي المتغلبين مما ينفعها ويحفظ لها أملاكها لما تحركنا بشيء مما قمنا به، ولصبرنا وتحملنا كل ما يحملوننا إياه. ولكن أنى لنا ذلك وقد صار من المقطوع به اننا لو استسلمنا لما هم سائرون بنا إليه لأدى ذلك بنا وبهم إلى هوة الاضمحلال التي تسقط فيها الولايات الأخرى على مرأى منا ومسمع.

نعم، إننا نقول هذا ونترك الحكم فيه إلى إنصاف العالم أجمع، ولكننا لا نستطيع السكوت عن المجاهرة بأن السبب الوحيد لمحو هذه الدولة وإبادة من بقي لها من الرعية وهم سكان الأناضول وغيرهم إنما هو استرسال المتغلبة من زعماء الاتحاديين وهم أنور وجمال وطلعت وأشياعهم، وخروج الدولة عن خطتها السياسية الأساسية التي وضعها عظماء سواس العثمانيين

وهي خطة موالاة الدولتين المعظمتين بريطانيا وفرنسا التي لا ينكر فوائدها إلا من ينكر التاريخ، ويكفي لمعرفة أخلاق زعماء الاتحاديين ومقدار صدقهم ووفائهم أنه لم يمض غير زمن يسير على عقد القرض الذي ساعدتهم به فرنسا وهم في أشد الحاجة إليه حتى انضموا إلى أعدائها وأعلنوا الحرب عليها، وإننا لا نستدل على ما ذكرناه من أخلاقهم بهذا العمل دون سواه إلا لشهرته المستفيضة بين عوالم الناس وقرب عهدنا به، أضف إلى ذلك ما يلقاه الأهالي العثمانيون لا فرق بين مسلميهم وذميهم من ضروب العسف والجور اللذين يحجب ركامهما ضياء الشمس، لا سيما ما ارتكبه القابضون على أزمة الحكومة من هؤلاء المتغلبة وأشياءهم أثناء هذه الحرب من ظلم أهل ذمتنا من الروم والأرمن خلافاً لما جاءت به شريعتنا المطهرة، ثم نهجوا هذا المنهج في أبناء العرب بالشام والعراق وغيرهم مما هو معلوم إلى يومنا هذا كإيقاعهم بأهالي العوالي التي هي إحدى ضواحي المدينة المنورة من سبي مخدرات العرب وسوقهن إلى الثكنات العسكرية بما تاباه الشريعة الإسلامية والشهامة العربية.

نعم، إننا قمنا ولا يزال قيامنا ومجاهرتنا بالعداوة والبغضاء مقصوداً بهما أنور وجمال وطلعت وشيعتهم. وإنه ليشاركنا في ذلك كل مسلم عاقل حتى أفراد البيت العثماني، ودليلنا مع مشاركة هذا البيت الجليل اغتيال المتغلبة لعميده الشهيد السعيد ولي عهد السلطنة المغفور له المرحوم يوسف عز الدين. وأننا نتبرأ منهم ونظهر لهم العداوة والبغضاء، ويشارك معنا فيها كل بر وتقي من مسلمي البلاد العثمانية وسائر البلاد الإسلامية، بسبب ما أتوه من الوبال، وما جرّوه على دولة الإسلام من الاضمحلال، حتى جعلوها ضحية لأغراضهم وغاياتهم النفسية. نبرأ إلى الله منهم ونعلم أنها كلمة حق عليها نحيا وعليها نموت. وكيف لا نقول هذا وأماننا من عبر الدهر ما نسرده على إخواننا المسلمين ليعلموه ويعوه.

فإن جمال باشا المتحكم في الشام وأهلها قد أمر سكان ذلك القطر

الإسلامي بأن يؤلفوا من مخدرات نسائهم جمعية نسائية، ثم أوعز الى هذه الجمعية أن تأدب له مآدبه في ناديها، وقد تم ذلك بالفعل وحضرها هو ورجال العسكرية والملكية ومن دعاهم من سائر رجاله وأعوانه، وكان النسوة المسلمات أعضاء هذه الجمعية يباشرن إكرام ضيوفهن. وعند ختام الحفلة شرعن في إلقاء الخطب والأناشيد بين تلك الجماهير من الرجال كما نشرت ذلك صحف سوريا على اختلاف مشاربها مظهرة الإعجاب والفخر إرضاءً لجمال باشا. فسبحان الله تعالى الذي يقول في محكم كتابه الكريم (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين)^(١) وقوله تعالى^(٢) (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يُبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن... الخ)^(٣)

من هذا يعلم صراحة مراد هؤلاء المتغلبين ومقاصدهم بالشريعة الإسلامية والعادات العربية، وفيه عبرة وذكرى لإخواننا مسلمي البلاد العثمانية وسائر اخواننا في أقطار الدنيا ليتعظوا بذلك ولا يكون سبباً لاسترسال هؤلاء الطغاة في انتهاك حرمت الله والجرأة على مخالفة أوامره لجاء يستفيدونه، أو راتب يستزيدونه، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ومن كان قد وهبه الله تعالى قوة على تغيير المنكر بيده أو لسانه أو قلبه فليفعل، ومن كان لديه ما يدافع به عن جرأة هؤلاء القوم المتغلبين

(١) وقع في جريدة القبلة غلط في هذه الآية نص: أي لا يعرفن فيؤذين. وهو غلط مطبعي يوهم غير العارف ان معناه صحيح وما هو الا ضد المعنى الصحيح. فالمراد من الآية ان إدناء الجلابيب والمبالغة في الستر أقرب إلى ان يعرفن أنهم حرائر لا إماء فلا يؤذين أهل الريبة. وسبب ذلك أن البغاء في بلاد العرب كان محصوراً في الإماء من عهد الجاهلية ولذلك قالت هند للنبي (ص) عند مبايعة النساء على ترك الشرك والسرقة والزنا: أو تزني الحرة؟ فكان الفساق من المنافقين والمشركين يعرفون الإماء بتهتكهن فيتعرضون لهن فأمر الله تعالى المؤمنات بالستر لتمييزن به فلا يتعرض لهن الفساق، ثم بطل البغاء بفسوخ الإسلام حتى تركه الإماء أيضاً.

(٢) لعل الأصل وقال تعالى أو: ويقول تعالى.

(٣) سقط من جريدة القبلة ما بعد كلمة (إلا) الأولى إلى (إلا) الثانية.

فليأتنا به فإننا ان شاء الله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه (وإننا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين)^(١).

شريف مكة وأميرها

تحريراً ١١ ذي القعدة الحرام ١٣٣٤ [هـ/٩/١٠/١٩١٦ م]

[المنار] ملخص هذا المنشور أن زعماء الاتحاديين عرضوا الدولة للهلاك بالحرب والظلم والبغي والعدوان، وعشوا بدين الإسلام، وظلموا المسلمين والذميين، وإن مسلمي الترك وفي مقدمتهم بيت السلطنة يعلمون ذلك كالعرب ولكنهم غلبوا على أمرهم، وإن بقاء البلاد الحجازية خاضعة لهم يضرها ويضر أهلها ويوقعهم في الخطر من حيث لا ينفع الدولة ولا يغني عنها شيئاً، وإن الواجب في هذا المقام العمل بما أمر به الرسول (ص) في قوله المروي في مسند أحمد وصحيح مسلم والسنن الأربع «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه» الخ وبذلك عمل صاحب المنشور هو ومن معه من أهل الحجاز فهم في مقدمة أهل الحل والعقد في الأمة ولو لم يكن معه غير أسرته الهاشمية وعصبتهم وأتباعهم من العرب لكفى بهم أهل حل وعقد في مهد الإسلام وأفضل بلاد الأرض، ويليه في هذه الصفة سائر الأمراء والزعماء في جزيرة العرب، ولم يبق في ديار الإسلام زعماء أحرار غيرهم لأن سائر علماء المسلمين وكبراءهم في الأستانة وغيرها تحت قهر سلطة عسكرية زمامها بأيدي ملاحدة الاتحاديين ونصارى الألمان. ولما كان شريف مكة ومن شايعه من العرب قادرين على النهوض لمقاومة منكرات الاتحاديين قاموا بالواجب الإيماني عليهم. وقد صرح في هذا المنشور بأنه اذا ظهر له خطؤه في اجتهاده هذا يرجع عنه. وكفى بذلك حجة على جميع المسلمين.

(١) في جريدة القبله «وإننا وإياكم» وهو غلط مطبعي طبعاً.



١٣٥

مبايعة شريف مكة وأميرها

على ملك العرب

[المنار ج ١٩ (١٩١٦) ص ٤٣٥ - ٤٤١]

جاء في جريدة القبلة التي صدرت بمكة في ثالث المحرم فاتحة هذا العام ما نصه :

امتلات قاعات قصر الديوان الهاشمي العالي صباح أمس بجماهير الأشراف الكرام والعلماء الاعلام والأعيان العظام بحيث لم يبق في بلد الله الأمين ذو حيثة ومكانة عالية إلا وحضر هذا الاجتماع الفخم ليعرضوا على جلالة سيدنا ومولانا المعظم أمنية طالما تمنوا إظهارها من حيز القوة إلى حيز الفعل ألا وهي إقناع جلالته بقبول بيعتهم له ملكاً على العرب ومرجعاً دينياً لهم ريثما يقرر قرار العالم الإسلامي على رأي يجمعون عليه في شأن الخلافة الإسلامية .

ولما غصت أنحاء القصر العالي بحضرات الأعيان القادمين لهذا الغرض تشرف بالمثل بين يدي جلالة سيدنا المعظم في غرفة أعماله الخاصة حضرة العلامة الورع الشيخ عبد الله سراج رئيس علماء بيت الله الحرام وقاضي القضاة ونائب رئيس الوكلاء الفخام وأنبا جلالته بحضور هذه الجماهير لعرض بعض المعروضات على مسامعه الكريمة ، ولما شرف جلالته قاعة الاستقبال الكبرى في الديوان الهاشمي العالي استقبل رجال الأمة تلك الطلعة الهاشمية المقدسة بقلوب طافحة بالمحبة والاحترام والإجلال والإعظام . ثم تمثل حضرة العلامة قاضي القضاة بين يدي جلالته نائباً عن وجوه الأمة كما هي عادته في مثل هذه المواقف فعرض على جلالته الغرض

من تشرف المجتمعين بالوقوف بين يديه، وأنهم قد كتبوا عريضة في هذا المعنى يريدون تلاوتها على مسامعه الشريفة فأجابه جلالته بالكلمات الملوكية الآتية :

«إنني لم أكن أرى ضرورة شديدة لهذا العمل الذي جئتم من أجله وذلك لما أعلمه من نهوض بلادي بالأمر الذي نهضنا به وشدة إخلاصها له وعضها عليه بالنواجذ، ولم تنحصر هذه العواطف في بلادنا وحدها بل ان لعرب الشام وعرب العراق مثل ما لأهل بلادنا من الحرص على استرداد مجدهم وجمع كلمتهم. وقد وردت لي الرسائل من أعيانهم بذلك، على أن هذا الأمر الذي جئتم اليوم من أجله سينفي كل ما ربما يخطر على بال الذين يجهلون حقيقة أحوالنا من الخواطر البعيدة عن مبادئنا وشيئتنا وأصول ديننا وقوميتنا.

«وإنني أقسم لكم بالله العظيم إنني لم أرد هذا الأمر الذي تكلفوني به ولم يخطر على بالي عندما قمت معكم بنهضتنا السعيدة، ولكني رأيت كما رأيتم أننا أمام خطر عظيم وخطب جسيم ربما قضى علينا القضاء المبرم اذا لم نبادر إلى ازالته»

وهنا ارتفع ضجيج الحاضرين بالدعاء لجلالته، والإلحاح بقبول الذي جاءوا لأجله، فقال جلالته :

«إنكم حملتموني أمراً أنا أعرف الناس بما يستلزمه من الجهد، وطالما قلت لكم إنني واحد من جمهور الأمة أبرم ما يرمون من حق، وأرفض ما يرفضون من باطل، وأمد يدي لكل من يتفقون على اسناد أمرهم اليه على كتاب الله وسنة رسوله. واذا كان لا مناص مما أردتموه فإني اشترط عليكم أن تعينوني على أنفسكم، وتساعدوني بأرائكم وأعمالكم في كل ما يحقق آمالنا وآمالكم من الخدمة العامة للعرب والمسلمين، واننا نستعين بالله تعالى في كل ما يحبه من قول وعمل وعليه الاتكال في كل حال».

ولما انتهى جلالته من الخطاب الملوكي الذي كان يتخلله دعاء الناس
وثناؤهم أخرج حضرة قاضي القضاة العريضة التي أشرنا إليها وأعطائها
لحضرة الشيخ عبد الملك مرداد ليتلوها على مسامع جلالته وهذه صورتها:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ملك الحق المبين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي
الأمي العربي سيد الخلق أجمعين، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه الطيبين،
وسلم تسليماً كثيراً

أما بعد، فإن للعرب المنزلة الرفيعة بين الأمم لأنهم في مقدمة الأقوام
الساميين، الذين نشروا في الأرض حقيقة التوحيد وهداية الدين، فدانت
الدنيا كلها في كل أزمانها إلى ما أراد الله أن يتمه على ألسنة أنبيائهم
العظام من الشرائع الإلهية، والسنن القويمة والمحامد الأخلاقية والفضائل
والكمالات، حتى استنارت الأمم بنورهم، واهتدت بهديهم. ولقد فضل
الله في كتابه الكريم ولد إسماعيل وآل إبراهيم على العالمين جميعاً، وإنه قد
ثبت في صحيح مسلم أن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى
قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفى من بني هاشم
نبينا وفخرنا وذخرنا جدكم الأعظم المصطفى صلى الله عليه وعلى آله
وسلم.

فبجدكم الأعظم خرجنا من الظلمات إلى النور، وبيتكم الأقدس كان
رشادنا بعد الجهل، وإن البيت الذي عدل بنا عن طريق الغواية، إلى
طريق الهداية، لا يزال ملزماً بلم شعنا وتقويم أودنا، واستلام زمام
أمورنا، مهما تجشمت من العناء لأجل هنائنا، ومهما تحملتم من الجهد
لأجل سعادتنا؛ وما كان لنا أن نلجأ لغير البيت الذي اختاره الله عز
وجل، ولا أن نصطفي قوماً غير الذين اصطفاهم لنفسه. وقد ثبت في
صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال:

«ان هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين»

وانه قال صلى الله عليه وسلم:

«لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم»^(١) اثنان»

فأنتم قريش بل أنتم الصفوة من هاشم، واننا ندين الله تعالى يوم الوقفة الكبرى بين يديه بأننا لا نعلم اليوم أميراً مسلماً أتقى لله منكم وأشد خوفاً منه وتمسكاً بأوامره وإقامة لشعائره قولاً وعملاً، وأقدر على النظر في أمورنا بما يرضي الله عز وجل، ونحن الذين عرفناكم في أيام الرخاء وأيام الشدة وفي حالتي السر والعلن.

وان حولكم أمة برهنت في أدوار كثيرة من أدوار التاريخ على انها عظمة المدارك، عالية الهمة، كثيرة الإقدام، حازمة عادلة صبور^(٢) رحيمة منصفة. ولو ان صفحات التاريخ فقدت من الوجود لكفى في الدلالة على عقلها لغتها التي حيرت أسرارها العقول، وآدابها التي هي خزانة المعارف، وأشعارها التي نظمت لآلء الحكمة في البوادي القاحلة أيام جاهليتها الأولى، فضلاً عما أقامته من معالم الحضارة في كل بقاع الدنيا القديمة مما يزال أثره ماثلاً للأنظار.

إن أمة كهذه أثبتت العلوم الحديثة أن تكوين دماغها وارتقاء عقلها لا يقل عن مثله في أرقى الأمم، وبرهن تاريخها على أنها أمة جد وعمل وتفنن وحسن سلوك ومكارم أخلاق، تحفظ الجميل لمن يسديه إليها، وتعرف معروف كل من له يد عليها، لهي أمة تستحق أن تنتشل من قيودها الثقيلة وتنقذ من وصاية فئة سفاكة مخربة جاهلة مغرورة، ليس فيها استعداد

(١) سقط منهم. وفي رواية لمسلم: ما بقي في الناس اثنان.

(٢) صبور يستوى فيه المذكر والمؤنث ولعله قال صبورة للتناسب بين ما قبله وما بعده إذا لم يكن من غلط الطبع.

فطري للتحلي بشيء مما تحلى به العرب من المزايا والخصائص، والأخلاق والفضائل؛ وإن من مظالم عصرنا الفادحة رضاء الأمم ببقاء العرب محكومين لتلك الفئة الوضيعة التي تحتاج إلى الحجر عليها، لا أن تكون أمة كأممتنا ذات مجد أثيل وتاريخ مجيد وآداب عالية وفضائل سامية راضخة لوصاياها خانعة لجورها، حتى ذقت صنوف الذل وأنواع الهوان باسم الإسلام الذي تنقض هذه الفئة كل يوم دعامة من دعائمه. وقد ورد من حديث جابر عند أبي يعلى بسند صحيح:

«إذا ذلت^(١) العرب ذل الإسلام»

فنحن يا سيد العرب ومنقذ الإسلام من أيدي أعدائه المارقين، نحمد اليك الله الذي أعزنا بك، ونصر جند الله ببركتك وروحانية جذك صلى الله عليه وسلم، ونتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بمحاربة من حاربك وموادة من وادك، وأن مودة آل بيت الرسول عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام هي الأجر الذي نسأله على ما هدانا إليه من سعادتي الدنيا والآخرة حيث قال عز من قائل:

«قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى^(٢)» [سورة الشورى رقم ٤٢]

[الآية ٢٣]

فانهض يا سيدنا الى ما شاء الله أن يجريه على يديك من إصلاح شؤوننا

(١) في جريدة القبلة ذل وهو غلط فلفظ العرب مؤنث والرواية ذلت.
(٢) جرى الشيخ حفظ الله مودته في هذا على قول مشهور في كتب التفسير وفي الآية أقوال أخرى أصحابها ما رواه الشيخان والترمذي وأكثر رواة التفسير المأثور عن ابن عباس قال: «لم يكن بطن في زمن قريش إلا كان له فيهم قرابة فقال: إلا ان تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة. وفسر ذلك في رواية أخرى بأن يحفظوا حق قرابته فيهم بنصره ومنعه ممن يؤذيه (ص) كعادتهم في حفظ القرابة بدلاً من إيذاؤه. وجعل بعضهم النصرة بالإيمان به واتباعه ليكون بمعنى (قل لا أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً) أي بطاعته كما قال قتادة وصرح بعضهم بأن الاستثناء، هنا منقطع وقد نفى سؤال الأجر بغير استثناء في قوله تعالى (وما تسألهم عليه من أجر ان هو الا ذكر للعالمين) وقد حكى سبحانه مثل هذا عن المرسلين في هود والشعراء وغيرهما من السور.

وولاية أمورنا نحن معاشر العرب الذين يعقلون آمالهم على صلاح دينهم
ودنياهم على تبوئك سرير ملكهم.

واننا نبايع سيدنا ومولانا (الحسين بن علي) ملكاً لنا نحن العرب يعمل
بيننا بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. ونقسم له على
ذلك بيمين الطاعة والإخلاص والانقياد في السر والعلانية، كما اننا نعتبره
مرجعاً دينياً لنا أجمعنا عليه ريثما يقر قرار العالم الإسلامي على رأي يجمعون
عليه في شأن الخلافة الإسلامية.

نبايعك على هذا يا صاحب الجلالة ونقسم لك بالله العظيم على
طاعتك والرضا بك والانقياد اليك في السر والعلانية. ولك علينا في ذلك
عهد الله وميثاقه ما أقمت الدين، واجتهدت فيما فيه صلاح حال العرب
والمسلمين «فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله
فسيؤتيه أجراً عظيماً» [سورة الشورى رقم ٤٢ الآية ٢٣].

غرة المحرم الحرام سنة ١٣٣٥ هـ [١٩١٦/١٠/٢٨]

ولما انتهت تلاوة العريضة أقبلت جماهير أهل الحل والعقد من الأشراف
والعلماء والأعيان وكبار التجار وسائر ذوي الحيشات فبايعوا على ذلك
بوجوه مستبشرة وقلوب طافحة بالسرور. ثم تقدم حضرة الفاضل الشيخ
فؤاد الخطيب فبسط لدى جلالته آمال سورية العربية، وذكر أن أولئك
الشهداء الذين سارت بذكرهم الركبان إنما ماتوا من أجل الوحدة العربية،
ولتفانيهم في الدفاع عن شعائرهم الإسلامية، وقال ان سكان تلك الديار
جديرون بأن يكونوا من جملة العرب المستقلين المتمتعين برعاية جلالة سيد
العرب وملكها. وبايعه بعد ذلك أسوة بسائر العرب على كتاب الله وسنة
رسوله.

ثم تقدم حضرة الشيخ عبد العزيز مرداد فدعا لهذه الدولة بالعز

والسؤدد والارتقاء والفلاح بعناية سيدها ومنقذها جلالة ملك البلاد العربية، فأمن الحاضرون على كل جملة من دعائه.

وقبل انفضاض هذه الحفلة الكبرى تفضل جلالة سيدنا الملك المعظم فأجاب استرحام القوم بتعميم البيعة في المسجد الحرام في وقت مخصوص سنعلن عنه في العدد القادم. وذلك إكراماً لخواطر طبقات الشعب الذي أظهر الرغبة بالاشتراك مباشرة مع من قام عنه بالبيعة وناب منابه في أداء واجباتها.

وفي آخر الحفلة تلا حضرة الشاعر الأديب الشيخ عبد المحسن الصحاف خطبة أنيقة بصوت جهوري وأتبعها بقصيدة غراء تناسب المقام اهـ.

[المنار] ان سبق أهل العلم والمكانة والرأي في مكة المكرمة الى هذه المبايعة وما تلاها من مبايعة وفود سائر بلاد الحجاز الذي فصلت خبره جريدة القبلة في عدد آخر مبني على ثلاثة أسباب:

١ - اعتقادهم ان فئة الاتحاديين الملحدة الباغية قد تغلبت على الدولة العثمانية بقوة الثورة والاعتماد على الألمانين الطامعين في البلاد ووضع الدولة تحت وصايتهم حتى لم يعد للسلطان أدنى استقلال في حكم ولا رأي.

٢ - ان اعتداء هذه الفئة الباغية على العرب ومحاولتها إهلاكهم كما أهلكت الأرمن بغضاً فيهم وفي دينهم وامتداد بغيتها من الشام إلى الحجاز وما ترتب عليه من الحصر البحري قد اضطر أهل الحجاز إلى إعلان الاستقلال التام كما بيناه من قبل، وذلك لا يتحقق إلا بمبايعة الأمة المستقلة لحكامها أو بتغلبه هو عليها بالقوة، وحكومة الحجاز من النوع الأول المشروع

٣ - ان صاحب الحجاز وأهل الرأي فيها يائسون من بقاء استقلال

الدولة العثمانية، وجازمون بأنها إما ان تكون تحت سيطرة الألمان القاسية وإما أن تنحصر سلطتها في بعض ولايات الأناضول، فبهذا وجب على العرب أن يسارعوا بعد الاستقلال بما استطاعوا من بلادهم إلى تعيين شكل حكومتهم المستقلة ويطالبوا الدول المحالفة لهم بالاعتراف باستقلالهم قبل عقد الصلح لئلا تعدهم الدول من أتباع الترك. ونحن قد بينا رأينا في هذه المسألة في خطبتنا التي ألقيناها بين يدي الشريف الأعظم وعلى مسمع كبراء الحجاز والحجاج في منى وسنشرها في المنار.

المنشور الهاشمي الشريف الثالث



نشر في العدد الحادي والثلاثين من
جريدة القبلة الذي صدر في ٤ صفر

[المنار ج ١٩ (١٩١٧) ص ٤٨٩ - ٤٩٥]

بسم الله الرحمن الرحيم

«قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي» [سورة يوسف رقم

١٢ الآية ١٠٨]

الحمد لله الذي أخرجنا من الظلمات إلى النور، والصلاة على سيدنا محمد صاحب الهداية الباقية ما بقيت العصور وكرت الدهور، وعلى آله وأصحابه الذين قاموا بعزائم الأمور، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد، فقد حان لنا أن نخاطب أبناء بلادنا - خاصتهم وعامتهم،

وكبيرهم وصغيرهم، وحاضرهم وباديههم - في حقائق الأمور التي كنا فيها،
والحالة التي صرنا اليها، والواجبات التي حتمت علينا مقتضيات الدين
والقومية والإنسانية أن نقوم بها حق القيام.

فإنه لم يبق والله الحمد من يخفى عليه أمر هؤلاء الأغرار الذين تسلطوا
على المملكة العثمانية فأحلوا فيها ما أحلوا وحرموا ما حرموا، مما قدمت
الإشارة إلى بعضه في منشورينا السابقين. واتخذوا دين الله هواً ولعباً،
وسلبوا السلطة من أيدي أهلها. وتصرفوا بالمملكة تصرفاً أضاعوا به من
بلادها في بضع سنوات ما تزيد مساحته على مساحة بضع ممالك عظيمة في
أوروبا. وآذوا عباد الله بالقتل والشق والتعذيب والتغريب ومصادرة
الأموال وانتهاك الأعراض بما لا يحيط به العد والحصر. ولعل أرض
الحرمين الشريفين كانت أقل الممالك العثمانية ابتلاءً بمصائبهم ومفاسدهم.
لا عن تكريم منهم لمشاعرهم المقدسة، ولا رأفة منهم بأهلها، أو لأن
الحجازيين أحب اليهم من سكان الرومي والأناضول والشام والعراق، بل
لما سخرنا الله له من الوقوف لهم موقف النصح تارة والدفع بالتي هي
أحسن أحياناً، على أمل أن يصبح الذي بيننا وبينه عداوة كأنه ولي حميم.

بذلنا ما في الوسع لدفع الأذى عن هذه الديار بالطريقة المتقدمة، ولم
نأل جهداً في تخفيف ظلمهم عن المسلمين وأهل ذمتهم في كل أنحاء
المملكة، وحملهم على اجتناب كل ما ينكره الناس عليهم، واقناعهم بخطر
أعمالهم وما ستؤول إليه من ضياع البلاد وهلاك العباد، وكنا نخلص
النصح لرجالهم في الآستانة بمكاتبات محفوظة لدينا صورها وأعدادها
وتواريخها، لا سيما في السنين الأخيرة. ومن المتيسر لكل إنسان أن يطلع
عليها، وكذلك كنا ننصح لولاتهم هنا بطريق المشافهة والمخاطبة، وأوفدنا
بعض أولادنا إلى الآستانة والشام لهذا الغرض. ولكنهم لم تزدهم دعوتنا
إلا ظملاً وطغياناً، وبغياً وعدواناً.

وما زاد مسؤوليتنا بين يدي الله عز وجل، ثم أمام واجب الوطنية

والقومية، ما وقع فيه قومي وأبناء جلدتي من الشدة التي لا تحتمل، حتى أمست بلادنا بسبب أولئك الأغرار الجاهلين منقطعة عن كل أقطار الدنيا، وإن قلب المؤمن لا يرضى في حال من الأحوال رؤية جيران بيت الله الحرام وهم يموتون من الجوع والعري على قوارع الطريق. وذلك مما هو معلوم لدى الخاص والعام والبدوي والحضري، ولا ريب أن أهل بلادنا لم ينسوا تلك الحالة المؤلمة والهلكة التي لمستها الأيدي وعانتها الأبصار. لأن الحول لم يحل عليها بعد. وما كانت شدتها بالذي يستحق أن ينسى.

حينئذ استخرنا الله عز وجل للقيام في وجوه الأئمة الظالمين، والمخربين الملحددين، فراراً من عاقبة قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه في حديث صحيح «ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الطبراني «خذوا على أيدي سفهائكم من قبل أن يهلكوا أو يهلكوا» وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الطبراني أيضاً بحديث صحيح «أما والي ولي شيئاً من أمر أمتي فلم ينصح لهم كنصيحته لنفسه كبه الله تعالى على وجهه يوم القيامة في النار» وقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه الطبراني أيضاً بحديث صحيح (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) وقوله صلوات الله عليه وسلامه فيما رواه أبو داود في سننه «خيركم المدافع عن عشيرته». وقد خار الله لنا أن ننهض بأمتنا للأخذ على أيدي الظالمين، وإجلاء السفهاء المارقين، عن البلاد والعباد. طالبين لهم ما طلبناه لأنفسنا من جعل هواناً تبعاً لما جاء به صلى الله عليه وسلم، ودفع السوء عن عشائرننا وجماعاتنا العربية التي صارحها هؤلاء الاغرار بعداوة جنسيتها ولغتها وتقاليدها وراحتها وهنائها في كل ما ظهر وما بطن من أقوالهم وأعمالهم.

وها أن ما كنا نسمعه وتسمعونه من ضروب ظلمهم وبغيهم في عرب الشام والعراق، لم يسلم منه أهل المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة

والسلام، فقد تواترت الأنباء بمضاعفة بغيهم وظلمهم فيها، وأخذوا في شق النفوس البريئة وصلبها، مستعملين ضروب الوحشية الطورانية، وشرعوا بتشغيل بعض من وقع في أيديهم من سكان العوالي بالأشغال الشاقة بعد الفطائع الشنيعة التي أجروها لهم من قبل. ثم شنقوا أخيراً ثلاثة من أعيان المدينة المنورة، وبدأوا بتجنيد الأهالي بالقوة، حتى استنجد بعض أهالي المدينة المنورة بإخوانهم المكيين لينقذوهم مما هم فيه.

فأي مروءة ترضى لحاكم مهما كان ظالماً أن يسلم سيف حقه وضغنه وانتقامه في سكان المدينة المنورة الذين آثروا جوار النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم على كل لذائذ الدنيا وصاروا أمانة الله في يد من يحكمهم، وإذا كان حقد المتغلبة وضغנם قد وصل بهم إلى حد أن يمدوا أيديهم بالأذى لعامة سكان المدينة المنورة الذين لا حول لهم ولا طول في جانب القوة العسكرية المتسلطة عليهم فإن أولى بهم أن يخرجوا لقتال أولادي الاربعة ومن معهم من أفلاذ أكباد العرب، فهناك موضع الشجاعة والقوة لا في قتل الأهالي الأبرياء والمجاورين الضعفاء، وها ان جيوش الحق زاحفة عليهم من أربع جهات لا من جهة واحدة، مجيبة داعي الله بالأخذ على أيدي الظالمين، وتأديب الملاحدة المارقين.

وإنه لا يفوتنا بهذه المناسبة أن نعلن أمتنا المخلصة بسرورنا من غيرتها الإسلامية وحميتها العربية، وشكرنا لها على ما أبدته حتى الآن من البساطة والرجولية والشمم العربي ومشاركتها الفعلية في طرد المتغلبة المارقة من عقر دارنا وحصون بلادنا. فسطرت بذلك صفحة ذهبية جديدة في تاريخ البلاد العربية المجيدة، واستحقت أن تكون صاحبة الفخر الأعظم باسترداد الاستقلال التام الدائم لبلادها ما دامت السماء والأرض إن شاء الله تعالى.

وأن نظرة واحدة فيما كانت بلادنا عليه بالأمس وما صارت إليه اليوم بحول محول الأحوال كافية لترديد شكر الله تعالى منا جميعاً على جزيل

آلائه، وعظيم نعمائه، فقد أبدلها من العسر يسراً، ومن الخوف أمناً ومن الضعف قوة، وكانت مقدراتها تحت تصرف وصي جاهل لا يراعي فيها لا خفر ولا ذمة فأزاحه الله عنها. وصارت حكومتها منها وفيها، وفتحت لرجالها على اختلاف طبقاتهم أبواب العمل لإدارتها، واستعمال عقولهم وذكائهم ومواهبهم في تحسين أحوالها، كما فتح لأبنائهم الطريق القويم إذا جدّوا في إدراك الفضائل وتحصيل الكمالات، حتى يبلغوا بقدرة الله عز وجل سعادة الدنيا بتولي المراتب العالية في دولتهم، والمناصب الجليلة في حكومتهم؛ ويحصلوا على سعادة الآخرة بإيفاء ما يجب علينا من خدمة وفود الله وحجاج بيته الحرام، واستحصال جميع الأسباب التي تستلزمها راحتهم من كل الوجوه، وإن عزائم حكومتنا معقودة للنهوض بأمر المعارف على أساس قويم يضمن تهذيب ناشئة البلاد إن شاء الله تعالى على الوجه الذي أشرنا إليه. وإن كل ما حصل حتى الآن ليس إلا جزءاً قليلاً مما ستنالُه البلاد من الخير التدريجي الدائم، وإن كان كثيراً بالنسبة إلى ما نحن فيه من التدابير الحربية، وبالنسبة إلى الوقت القصير الذي تمتعت فيه الأمة بالاستقلال.

ومما لا يختلف فيه اثنان أن تأسيس الممالك يحتاج أن تبذل فيه كل طبقات الأمة ما تستطيعه من السعي والجهد والعمل، وأن يقوم كل فرد من أفرادها بما يحسنه من وسائل المساعدة للنهضة العامة، حتى يتم الخير العميم على أيديهم جميعاً فتشترك الأمة كلها في نتائجه بعد اشتراكها في مقدماته. وبهذا تقيم الأمة صروح المجد، وتبهيء لممالكها أسباب الهناء والسعد.

وأهم ما ينتظر من الأمة إخلاص النية والتناصح والتعااض والدفاع عن الحق والمصلحة القومية والوطنية، فقد ورد في صحيح مسلم وسنن أبي داود والنسائي ومسنند أحمد «ان الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» وفي صحيح مسلم «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله

إخواننا. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يكذبه ولا يحقره، التقوى هاهنا (ويشير إلى صدره ثلاث مرات) فحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» وفي سنن الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «يد الله على الجماعة» فبالتعاون والتآزر والتناصح تنجح الأمم وتفوز في معترك الحياة وتكتسب رضى الحق ورضى الخلق، وبهذا يأمرنا ديننا الاسلامي الحنيف فلنكن مسلمين حقيقة، ومن كان مع الله كان الله معه، وإن ما نالته جيوشكم حتى الآن من النصر والفوز لم يكن إلا بالإخلاص والنية الصالحة واستئصال شأفة الإلحاد والفساد، وشتان بين من يؤسس بنيانه على التقوى ومن يؤسس بنيانه على شفا جرف هار. وإن من باب التحدث بالنعمة الإلهية، والتوفيقات الصمدانية، ما ترونه من أني لم أضن بنفسي وراحتي وحياة أولادي، على الدفاع عن راحة أبناء جلدتي ومصلحة بلادتي، وذلك لما علمته من أن الخدمة لا تتم إلا بأن يعمل لها كل بما يستطيع.

ومن نعم الله تعالى على بلادنا هذه العربية اتفاق مصالحها مع مصالح من والاهها من حلفائها، وإعلانهم العطف عليها في آمالها وأمانيتها، وتصريحهم بأن من النقط التي لا تقبل التغيير والبديل بقاؤها في أيدي حكومة اسلامية مستقلة أمينة من كل طارئ خارجي. وإن من مقتضى أخلاقنا الإسلامية التي منها الاعتراف بالجميل شكر حلفائنا الكرام على إخلاصهم في صداقتنا وحسن سيرتهم معنا وبذلهم الواسع فيما فيه خير هذه البلاد. وأنا سنحرص على دوام ما يؤيد هذه المنافع المتبادلة إلى ما شاء الله.

ونستنهض همه أمتنا في الختام إلى العمل على حفظ ما بأيديهم من نعم الله السابغة، والاستمرار فيما أخذوا به من أسباب النهوض والتقدم، لأن الزمان الحاضر زمان جد وعمل، وقد خاضت كل الأمم في معامع الحروب والخطوب تأمينا لمصالحها وبقائها، وضحت كل مرتخص وغال في سبيل

عزها ومجدها، واننا لجديرون بأن نكون في مقدمة الطامحين إلى إحياء الامجاد، والسير في سبيل الاجداد، ورفع شأن البلاد، واجتناب كل ما يخل بنعمة حاضرة، وسعادة مستقبل، ومن جهة ثانية فإني أحث قومي على الاقتصاد والأخذ بأسبابه وترك البطالة المنهي عنها في الدين الإسلامي، ولنا معتبر في الحث وشدة الإبرام على المثابرة في وسائل الاكتساب مهما كان حكمنا على حالة بلادنا في الوقت الحاضر من جهة ما يظهر في النظرة الاولى من قلة أسبابها الاقتصادية، ولكن مباشرة العمل ستبين لكم انها تأتي بثمرات لم تكن في الحسبان، فيكون بها تعديل الحاجة وتهوين الضرورة التي أحست البلاد بها في الشهر الأول بل في الأسبوع الاول من وقوع الحصر.

وانه لم يبق عذر في التقصير بشيء من أسباب الارتقاء بعد ان فتحت أبواب الاكتساب الخارجية للرجال، وأبواب المدارس للأطفال، وسوف تستمر حكومتنا في هذا السبيل ان شاء الله حتى تستكمل كل أسبابه، لاسيما المدارس المساعدة على ذلك بكل أنواعها، كالمدارس التجارية والزراعية والصناعية والطبية والهندسية، وسائر ما تحتاج إليه في حياتنا الجديدة والعمران الحاضر على الطرز والوجه المناسب لقدسية بلادنا، حتى يسهل استثمار ما أعد الله تعالى فيها من لوازم الحياة على أيديكم وبواسطتكم في عهد قريب إن شاء الله تعالى، وليس ذلك بعزيز عليكم بالنظر إلى ما خصكم الله تعالى به من الذكاء والفطنة، وإن خطتنا الإسلامية هي المحافظة على ما نحن فيه والسعي لتنميته والتقدم به بالتدرج الذي تقتضيه حالة البلاد «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون» [سورة التوبة رقم ٩ الآية ١٠٥]

شريف مكة المكرمة
وملك البلاد العربية
الحسين بن علي

المنار: كان المنشور الهاشمي الأول خطاباً بالمسلمين وقد نشرنا خلاصته في الجزء الرابع، والمنشور الثاني موجهاً الى الناس عامة والمسلمين خاصة وقد نشرناه بنصه في الجزء السادس، وهذا المنشور الثالث خاص بأهل الحجاز وحدهم وكلهم مسلمون كما يعلم القراء، الا أنه يوجد في جدة أفراد من أهل الكتاب المعاهدين تساهل الحكام من قبل بالسماح لهم بالإقامة فيها. وسبب جعل الحرمين وما يحيط بهما من جزيرة العرب خاصاً بالمسلمين مع ما هو معروف من تساهل الإسلام هو انها أعظم المعابد الإسلامية وما حولها حرم لهما. ومن المساواة في الإسلام انه لا يجوز للمسلمين في دار الإسلام دخول معابد غيرهم ولو مؤقتاً إلا ان يكون بإذنهم، فهل تجوز الإقامة فيها؟ ولو كان لهذا الملك الشريف رعية من غير المسلمين لخصهم بخطاب يعلم منه القاصي والداني انه أوسع صدرًا وأشد تسامحاً من خلفاء العباسيين، وأنه لو حكم بينهم بما يأمره به دينه واجتهاده لكان حكمه خيراً لهم من دستور العثمانيين في دينهم ودنياهم. وقد كنت مع جمهور من المسلمين السوريين في مجلسه الشريف من دار حكومته بمكة المكرمة ومعنا عبد العزيز بك المصري المشهور فذكرت في سياق الحديث عن العرب إخلاص القائمين بالنهضة العربية من المسلمين والنصارى وضربت الدكتور أمين المعلوف مثلاً وشاهداً فقال حفظه الله تعالى: يا حضرة السيد انني لا أحب أن يفرق في هذا المقام بين مسلم وغيره، وإذا كان أصل شرعنا في الذمي الغريب عنا أن له ما لنا وعليه ما علينا، فكيف إذا كان من أبناء جنسنا، ثم أثني على الدكتور وأعرب عن رضائه عنه، فسر الحاضرون بقوله سروراً عظيماً.



[المنار ج ٢٠ (١٩١٧) ص ٣٣ - ٤٧]

الإسلام والجنسية العربية. إبراهيم الخليل يعربي. الأخوتان الدينية والجنسية. اتفاق الإسلام والجنسية العربية. مصلحة المسلمين وغيرهم من العرب في تجديد الدولة العربية الواحدة. مصلحة المسلمين الأعاجم ورأيهم في ذلك. استقلال لبنان لم يكن عقبة في طلب العرب للاستقلال. لم ينهض العرب للاستقلال في عهد عبد الحميد. اتهام الخديو والإنكليز بالميل الى استقلال العرب. حال أمراء الجزيرة وزيدية اليمن وزعماء الولايات العربية في ذلك. الخلافة عند أهل الزيدية وأهل السنة. السبب الحقيقي لسكون العرب وسكوتهم هو الإسلام وأوربة. إزالة الإسلام للعصية الجنسية. اجماع العرب على المحافظة على الدولة. يأسهم منها. استقلال الحجاز. اتفاق الحلفاء على استقلال الشعوب أو تفويض أمر حكمها إليها.

إنني عربي مسلم أو مسلم عربي، فأنا قرشي علوي، من ذرية محمد النبي العربي، الذي ينتهي نسبه الشريف إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وملته الحنيفية هي ملة جده إبراهيم، أساسها التوحيد الخالص وإسلام لوجه الله تعالى وحده، (٢: ٢٩) ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه - اقرأ الآيات الى قوله - ونحن مسلمون) فإسلامي مقارن في التاريخ لعربي - وإن من الناس من هو أقدم نسباً في الإسلام، ومن هو أقدم نسباً في العربية، وهم ما عدا الإسماعيليين من متقدمي العرب ومتأخريهم، وأما الإسماعليون منهم فتاريخ عربيتهم واسلامهم واحد إذ

كان أول أب لهم في العرب مسلماً، وقد يقال إن إسلامهم أقدم إذا كان ابراهيم (ص) غير معدود من العرب على ما هو المشهور في كتب التاريخ من أن أول العرب المستعربة إسماعيل (ص) وكأنهم عدوه كذلك لأنه ولد في بلاد العرب ونشأ فيها فلم يكن له لسان غير اللسان العربي. ولكن التاريخ يثبت لنا أن أباه إبراهيم (ص) كان يتكلم باللغة العربية، كما يؤخذ من التاريخ العربي والتاريخ المستنبط من الآثار القديمة، أما مأخذ ذلك من التاريخ العربي فهو إنه أقام في بلاد العرب زمناً أقام فيه الدين وبنى البيت العتيق الذي هو أقدم بيت وضع لعبادة الله وحده في الأرض. فمن البديهي أنه كان يعلمهم الدين بلسانهم ويخاطبهم به، وأما مأخذ ذلك من الآثار القديمة المكتشفة في هذا العصر موضحة للتاريخ القديم فهي أن علماء الآثار بينوا لنا أن مدينة الكلدان كانت عربية وان (حمورابي) الذي كان ملكهم وصاحب شريعتهم في عهد ابراهيم (ص) كان عربياً، وقد اكتشفت شريعته في بلاد العراق منقوشة على عمود من الحجر الأصم فكانت باللغة العربية لذلك الزمان. وقد جاء في سفر التكوين أول أسفار العهد القديم عند أهل الكتاب ان حمورابي هذا كان في زمن ابراهيم، وانه كان يدعى ملك السلام وكاهن الله العليّ، وأنه بارك إبراهيم وإن إبراهيم أعطاه عشرا من كل شيء (راجع تك ١٤ : ١٨)

قلت إنني عربي مسلم . فأنا أخ في الدين لألوف الألوف من المسلمين من العرب وغير العرب، وأخ في الجنس لألوف الألوف من العرب المسلمين وغير المسلمين. أما دليل الأخوة الدينية فقوله تعالى «إنما المؤمنون إخوة» وأما دليل الإخوة الجنسية فالآيات المتعددة في سورة الأعراف والشعراء المصروفة بكون الأنبياء المرسلين إخوة لأقوامهم المشركين، ولما كان شعيب عليه السلام قد أرسل إلى قومة أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة من غير قومه اختلف التعبير عنه فقد قال تعالى في سورة الأعراف (٧ : ٨٤) «والى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله

غيره» أي وأرسلنا إلى مدين أخاهم في النسب شعيبا الخ . وقال في سورة الشعراء (٢٦ : ١٧٦) «كذب أصحاب الأيكة المرسلين ١٧٧ اذ قال لهم شعيب ألا تتقون ١٧٨ اني لكم رسول أمين» ولم يقل أخوهم شعيب كما قال في عاد «أخوهم هود» وفي ثمود «أخوهم صالح» - مثلاً - لأنه لم يكن من جنسهم .

وإنني أحمد الله عز وجل أن جعل مصلحة العرب السياسية في عصرنا موافقة لمصلحة المسلمين السياسية كما أبينه في هذه المقالة، ولو تعارضتا لقدمت ما يوجبه عليّ ديني، على ما تقتضيه مصلحة أبناء جنسي، لأنني أرجو بديني سعادة الدنيا والآخرة، وأنا موقن بذلك، ولا أرجو بخدمة جنسي وحده إلا الدنيا وحدها، وما أنا على يقين من إدراكها، على اني راض بما آتاني الله منها، أما وقد اتحدتا فخدمة جنسي خدمة لديني ينفعني في الآخرة ان لم ينفعني في الدنيا، وأنا مؤمن بهذا وإن كان يخفى على كثير من اخواني المسلمين .

مصلحة العرب والمسلمين في الدولة العربية

إنما مصلحة العرب السياسية أن يكون لهم دولة مستقلة، وهذا أمر بديهي لا يختلف فيه عاقلان، فالعرب أمة من أقدم أمم الأرض وأعرقها في الاستقلال، ذات مجد عظيم، ومدنية عالية في التاريخ القديم والحديث، ولغة ممتازة في لغات العلم والادب، وشريعة هي أعدل الشرائع المنزلة للبشر، وقد ضعفت هذه الأمة الكريمة وضعفت مزاياها ولغتها، وأهمل معظم شريعتها وكادت تفنى بفنائها، كل ذلك لعدم وجود دولة مستقلة لها، إذ يستحيل أن ترتقي أمة بغير دولة .

إن السواد الأعظم من العرب يدينون دين الإسلام واللغة العربية هي لغة هذا الدين فلا تصح لمسلم عبادة بغير هذه اللغة، فبالدولة العربية تحيا لغة القرآن، وتحيا بحياتها شريعة الاسلام . فمن البديهي إذاً أن يكون الخير كل الخير للمسلمين في هذه الدولة إذا وجدت، وأن عقلاء المسلمين

من غير العرب يعلمون هذا ولكنهم يرونه الآن متعذراً أو متعسراً، ويخشون كما كان يخشى مسلمو العرب أن يكون السعي له مقضياً إلى إضعاف الدولة العثمانية التي لم يبق للمسلمين دولة غيرها فيكون مثل الساعين كمثّل من له دار تكنه فهدمها لينبي خيراً منها فعجز عن البناء وأمسى في العراء معرضاً لما يجني على حياته، ولكن جمعية الأغرار المغرورين (جمعية الاتحاد والترقي) ما زالت تهدم من آمال العرب في بقاء الدولة وفي كون بقائنها خيراً للإسلام والمسلمين حتى دعّتهم بل دعّتهم^(١) إلى طلب الإصلاح في الجملة ثم إلى طلب اللامركزية ثم إلى استقلال الحجاز، ولا يعلم غير الله ما تكون عاقبة ذلك، لأن العالم كله في طور تغير وانقلاب مجهول، ولكن المعلوم قطعاً أن ما حصل في بلاد العرب هو نتيجة طبيعية لسيرة الاتحاديين لم يكن في استطاعة أحد دفعه كما يعلم مما يأتي.

وأما غير المسلمين من العرب فهم الآن كالمسلمين ليس لهم دولة، ولأن يكون لأبناء جنسهم دولة خير لهم من أن يكونوا تابعين لدولة أعجمية لا يشاركونها في النسب ولا في اللغة ولا في العادات والتقاليد ولا في الوطن الجغرافي^(٢) ولا في الدين، ولا لدولة أعجمية يشاركها بعضهم في الدين والمذهب أو في الدين دون المذهب دون سائر مقومات الأمم ومشخصاتها وهم يعلمون أن الدين أو المذهب لا يحملها على جعلهم مساوين لأبناء جنسها ووطنها وإن كانوا من غير أبناء دينها ومذهبها، ولا يضرهم أن تكون اللغة العربية في هذه الدولة الأغلبية للمسلمين من أبناء جنسهم، فإن أفراد البشر وجميعاتهم يتألفون ويتعاونون على مصالحهم بكثرة ما يشتركون فيه من مقومات الأمم ومشخصاتها، وما يشترك فيه المسلمون وغيرهم من العرب من المقومات والمشخصات كاللغة والعادات والآداب والمصالح والمرافق الوطنية أكثر مما يشترك فيه غير المسلمين من العرب مع

(١) دعّتهم بتشديد العين دفعّتهم بعنف.

(٢) هذا الوصف احتراز من الوطن السياسي.

الافرنج الموافقين لهم في الدين، بله الترك المخالفين لهم حتى في الدين، ودين الاسلام دين مساواة في الحقوق وحرية تامة في العقائد، وقد ارتقى غير المسلمين في أرقى دول العرب الإسلامية مدنية إلى أعلى المناصب، حتى كان وزراءهم وأطبائهم يزاحمون الخلفاء العباسيين بالمنالك، وإذا كان لغير المسلمين أغلبية في بقعة من البلاد العربية «كجبل لبنان» فإنه يمكنهم أن يكونوا مستقلين مع ارتباطهم واتحادهم بالملكة العربية فيها استقلالاً إدارياً واسعاً خيراً من الاستقلال الذي نالوه منذ نصف قرن.

لو نهض زعماء العرب إلى السعي للاستقلال لما تعذر عليهم إرضاء اللبنانيين منهم بذلك وإزالة جميع ما في البلاد من أسباب الخلاف. ولو تعذر عليهم إرضاء اللبنانيين في أوائل العهد بالسعي لما كان ذلك موجباً لتركه واليأس منه. ولا أطيل في بيان هذا وكشف غواشي الأوهام عنه لأنه يخرج بي عن المقصد من هذا المقال، وأكتفى منه بتذكير الملم بتاريخ سورية الحديث بتلك الحركة العربية التي حدثت في سورية أيام كان مدحت باشا زعيم الترك الأكبر والياً عليها فإنهم يتذكرون أن اللبنانيين كانوا في طليعة العاملين، وبرهاننا على هذا قصيدتا [الشيخ ابراهيم اليازجي البائية والسينية:

- ١ - تنبهوا واستفيقوا ايها العرب لقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
 - ٢ - دع مجلس الغيد الأوانس وهوى لوحظها النواعس
- لأجل هذا كان سكون العرب العثمانيين وسكوتهم في الأجيال الأخيرة التي تحركت فيها عصبية الأجناس وهبت لطلب الاستقلال مثاراً لعجب من لم يعرف سبب ذلك السكون من العقلاء.

اتهم الترك للعرب

كان الترك يتهمون العرب بالميل إلى الاستقلال دونهم والسعي لذلك وأنه لا يمنعهم منه إلا ضعفهم وعجزهم أمام قوة الترك. وقد ذكرت في

مقالات «العرب والترك» التي كتبها في الآستانة ونشرتها في جرائدها ثم في المنار إنني لا أعرف لهذه التهمة أصلاً إلا ما كان من افتراء جواسيس السلطان عبد الحميد وطلاب المنافع عنده أو استغلال أوهامه، بل أقول إن هذه التهمة لم تكن معقولة في عهد السلطان عبد الحميد لأن النهوض بأمر الاستقلال إما أن يكون من جانب الأمة بما تتوسل به إليه من الجمعيات السياسية والعصابات المسلحة، ولم تتصد الأمة العربية لذلك البتة - وإما أن يكون من جانب الأمراء المستقلين بالإدارة في بعض الأقطار أو من دونهم من الزعماء أصحاب العصبية، ولم نعلم أن أحداً من أمراء جزيرة العرب أو من الزعماء في الولايات العربية العثمانية كان مظنة أو موضعاً لهذه التهمة إذ لا توجد شبهة يعتمد عليها في ذلك. إلا أن المفسدين كانوا يتهمون خديوم مصر عباس حلمي باشا بذلك فكان يُسمع لهم لأن مصر بلاد عربية غنية بالمال والرجال وقد تصدى رأس حكومتها الأخيرة «محمد علي باشا» لحرب الدولة العثمانية فقهرها واستولى على سورية والحجاز وتوغل في الأناضول ولولا الدولة الإنكليزية لاستولى على سائر مملكتها، ولكن عباس حلمي باشا لم يكن ليطمع بمثل ما طمع به جده الأعلى، بل ولا بمثل ما كان يطمع به جده الأدنى «إسماعيل باشا» من الاستقلال السياسي بمصر والسودان فقط لمكان الاحتلال الإنكليزي الذي جعل السلطة الفعلية في مصر بيد إنكلترة دونه، ولهذا كان المسوسون والجواسيس يزعمون أنه على اتفاق مع الإنكليز في هذا الأمر، وكان كثير من المصريين وغيرهم يصدق ذلك، ومنهم من لم يرجع عن هذا التصديق إلا بعد نشر كتاب «عباس حلمي الثاني» للورد كرومر إذ صرح فيه بأن حياة عباس مع الاحتلال كانت حياة خلاف وشقاق لا يرجى معه اتفاق.

إن المطلعين على الحقائق يعلمون علم اليقين أن عباس حلمي باشا ما كان يسعى لهذا الأمر ولا يرجوه، على أنه كان يعلم أنه لا سبيل له إليه لو تصدى له، ويعلمون أن من سياسة إنكلترا التقليدية بقاء ما للترك من

السلطان والسيادة على بلاد العرب وترجيح ذلك على تأسيس دولة عربية جديدة، وهي لم تنجح إلى سياسة العطف على العرب وإظهار الميل لمساعدتهم على الاستقلال إلا بعد وقوع الحرب بينها وبين الترك بمدة طويلة .

أما أمراء جزيرة العرب فقد كان كل منهم راضياً بحاله ولم يكن يخطر ببال أحد منهم ان يعتدي على الدولة فيما وراء حدود إمارته ولا أن يسعى لذلك بالاتحاد مع غيره، كما إنه لم يكن يسهل على أحد منهم أن تعتدي الدولة على استقلاله أو تحدث في بلاده حدثاً ما، لما استقر في أنفسهم من غريزة الاستقلال الموروثة في الأمة العربية مع عدم ثقة أحد منهم بأن الدولة تقيم شرع الله في بلادهم، على أن للزيدية دولة أقدم من الدولة العثمانية ما زالت تنصب الأئمة من قريش عليها ويعتقدون أن الترك من البغاة الخوارج على الإمام الحق، وأنه اعتقاد سائر عرب الجزيرة في حكام الترك أنهم ظلمة فسقة مبغضون للعرب . ولكنهم مع ذلك يحبون بقاء الدولة ويتمنون لها القوة والعظمة لأجل صد الافرنج عن البلاد الإسلامية . وقد كان رجال الدولة في العهد الاخير يعتقدون أن الشيخ مبارك الصباح من أشد العرب عدواة للدولة ولكنني لما لقيته سنة ١٣٣٠ هـ [١٩١٢ م] منصرفي من الهند أخبرني بما لقيته من عدوان الدولة عليه وتصديها لنفيه من الكويت وإن انكلترا منعتها من ذلك بدون طلب منه وأنه مع ذلك محافظ على نسبته إليها ورافع لعلمها باختياره ولو شاء لاستبدل به غيره، ومن كلامه في الترك والعرب «نحبهم ولا يحبوننا»

وأما كبراء العرب في ولايات سورية والعراق من العلماء والوجهاء فقد كانوا أشد تعصباً للترك من الترك أنفسهم حتى كانوا يفضلونهم على العرب ويسترون ما يعرفون من سيئاتهم، ويكبرون الصغير من حسناتهم، بل يذكرون لهم فضائل ومناقب لا يعرف لها أصل، منها أنهم يعدون بعض ملوكهم من الأولياء ومؤرخو الترك يعدونهم من الفساق . وما كانوا يذيعونه

بين العامة أن الشيخ محيي الدين بن العربي والشيخ عبد الغني النابلسي قد علما بالكشف أن ملكهم يبقى الى قيام الساعة .

تلك حال كبراء البلاد وخاصتها والعامة تبع لهم ، لم يسمع لأحد منهم نبأ ظاهرة ولا دعوة خفية إلى عدواة الترك أو القيام عليهم أو الاستعداد لتأسيس دولة عربية تستقل في البلاد ، اللهم الا ما كان قد قيل من أن شيعة الماسون كانت تسعى لجعل الامير عبد القادر [الجزائري] خديويا لسورية ، وما قيل في عهد ولاية مدحت باشا على سورية من أنه كان هو الذي يسعى لجمع كلمة المسلمين وغيرهم للاتفاق على تأسيس امارة عربية في سورية كالإمارة المصرية يكون هو الخديو عليها ، ومن أن رستم باشا متصرف لبنان الأجنبي الأصل كان هو الذي كشف للدولة دسياسة شيخ أحرار الترك وزعيمهم الأكبر ، وترتب على ذلك اخراج السلطان عبد الحميد لمدحت باشا من سورية ، وقيل ان تلك الحركة كانت مدبرة بدسائس الأستانة ليتوسل السلطان بها الى نفي مدحت باشا ثم الفتك به . وفي تلك الأثناء نشرت قصيدتا الشيخ ابراهيم اليازجي السينية والبائية (راجع ص ٨٣١ م ١٢) .

ولما كنت أنشر في الأستانة مقالات «العرب والترك» وأشرت فيها إلى هذه المسألة جرى بيني وبين الصدر الأعظم حسين حلمي باشا حديث في هذا الموضوع قال لي في أثنا أنه أقام في سورية عدة سنين أيقن في أثنائها بأنه لا يوجد فيها أحد من وجهاء المسلمين يكره الدولة الا بعض الأفراد من بيت المؤيد ومن بيت الصلح ، وسائر الوجهاء مخلصون للدولة كغيرهم . ولا أدري من عنى بقوله ذاك . ولم أعلم عن أحد من المعاصرين لنا من أهل هذين البيتين شيئا يبين المراد لنا من قوله ، إلا أن أحد أفراد البيت الأول كان قد جاء مصر في أوائل عهد مجيئي إليها وأسس جمعية دينية يشترط في أعضائها ترك المحرمات والمحافظة على أداء الفرائض وقد ساعدته على ذلك ولم أكن أسمع منه كلمة تشعر بأن له غرضاً سياسياً منها

وقد أفادت الجمعية فائدة دينية ظاهرة، ثم انشق عنها عضو مصري تركي الأصل زاعماً أن للمؤسس غرضاً سياسياً منها وتبعه على هذا جماعة من أعضائها في القاهرة صاروا يلغطون بذلك. ثم إن المؤسس سافر إلى الآستانة ثم عاد إلى سورية وأقام فيها. ولو صدق السلطان عبد الحميد أنه كان يسعى إلى تلك الغرض السياسي لما أفلت من قبضة انتقامه. وإنما اتهمه بعض الناس بأنه تعمد القاء كلام لأولئك اللاغطين ليشتهر ويوصله الجواسيس إلى السلطان.

هذا كل ما نعلم عن سورية في هذا الأمر. وأما العراق فقد قيل إن السيد سلمان القادري نقيب بغداد كان يسعى إلى تأسيس حكومة عربية وإن طلب السلطان عبد الحميد إياه إلى الآستانة قد كان لأجل الانتقام منه قتلاً بالسّم كعادة ملوك العثمانيين القديمة أو إبقائه في الآستانة منفياً إلى أن يموت، وقيل إن السيد سلمان لم يطعم في القصر السلطاني ولا عند أحد في الآستانة شربة ماء ولا فنجان ولا غير ذلك، وكان يعتذر بأنه مريض لا يذوق شيئاً إلا بأمر طبيبه الخاص. ولكن اشتهر أن السلطان أكرم مثواه وقلده نوطاً ذهبياً كتب عليه «شيخنا سلمان» وأعادته إلى بغداد عزيزاً كريماً، ومما كان يقال في ذلك الوقت إن للسيد سلمان أعداء سعوا به إلى السلطان. وسمعت والذي رحمه الله تعالى يقول كان السيد سلمان ذا نفوذ عظيم في قبائل العراق وكان يوجد مئة ألف مسلح بالمرتين منهم طوع أمره، وأنه بلغه أن سبب نجاته من فتك السلطان عبد الحميد أن بعض العقلاء من كبراء الآستانة قالوا إن مصلحة المسلمين أن يدخر مثل هذا الزعيم لأنه قد يحتاج إليه إذا طرأ على الدولة ما تخشى عاقبته على بلاد العراق أو ما هو أعظم من ذلك، فلهمذه الفكرة أقنعوا السلطان بوجوب تكريمه «أو تلطيفه كما يقولون» وإعادته إلى بلاده. ولا أدري من أين وصل إلى والذي هذا الخبر وكنت إذ سمعته منه صغيراً لا أحفل بالبحث عن أمثال هذه المسائل.

تعاون جمعيات الترك والعرب

هذا ما يصح أن يذكر من تاريخ هذه المسألة ولا نعلم وراءه شيئاً إلا ما كان يكتبه في بعض الجرائد والمنشورات من يقصدون استغلال وسوسة السلطان عبد الحميد كما تقدم. ولكن أهل الرأي وحملة الأقلام من العرب لم يقصروا في التعاون مع أمثالهم من الترك على السعي لإصلاح حال الدولة والقضاء على الاستبداد الحميدي، فلما أسس شبان الترك جمعية الاتحاد والترقي ونشروها في الولايات دخل فيها كثيرون من شبان العرب وكانت شعبها في سورية أعظم منها في غيرها، وأسس بعض العرب جمعية أخرى كجمعية الاتحاد بعد ضعف شأن هذه في مصر وسورية وهي جمعية الشورى العثمانية وأدخلوا في لجنتها المركزية أشهر رجال الاتحاديين الذين كانوا في مصر وغيرهم من العثمانيين. فكان طلاب الإصلاح من العرب في عهد عبد الحميد هو همّ طلاب الإصلاح من الترك وكانوا يشتغلون متعاونين والمواصلات بين جمعياتهم لا تنقطع ولا سيما جمعية الاتحاد والترقي في أوروبا وجمعية الشورى العثمانية بمصر. ظلوا على ذلك إلى أن ظفروا بإعادة الدستور فظن العرب كما ظن غيرهم من الأجناس الذين تتألف منهم المملكة العثمانية أنهم فازوا بما جاهدوا في سبيله إلى أن قلب لهم المتغلبون على جمعية الاتحاد وعلى الدولة ظهر المجن وأوقعوهم في هوة اليأس من الدولة.

السبب الصحيح

تبين مما شرحناه من الحقائق أن عدم تصدي العرب لإنشاء دولة جديدة لم يكن سببه الخوف من قوة الدولة كما كان يتوهم الترك فإن العرب أقوى من اليونان والبلغار وغيرهما من الشعوب التي انفصلت من السلطنة العثمانية وصارت دولاً مستقلة، ولم يكن سببه تفرق العرب وتعذر اتفاق أمرائهم وزعمائهم كما يتوهم الكثيرون منهم ومن غيرهم فلو وجد هذا القصد لكان هو الجامع لهم، ولا الجهل الضارب بجرانه في البلاد العربية

فإن محمد علي الكبير لما غزا الدولة وكاد يفتحها كلها لم يكن من علماء السياسة والاجتماع ولم يكن الشعب المصري على درجة عالية من العلوم والفنون التي تدفع الشعوب الى الفتح والاستعمار.

وانما كان السبب الصحيح لسكون العرب وسكوتهم عن طلب استقلالهم وتجديد دولة لهم هو الاسلام وأوربة .

دين الاسلام وسياسة دول أوربة سببان مستقلان أو سبب واحد مركب لكل من جزئيه تأثير خاص في صرف العرب العثمانيين عن السعي للاستقلال، ولعله لو انفرد أي منهما لما صرفهم كلهم عن كل سعي واستعداد لذلك .

أما الإسلام فقد أزال من أنفس العرب عصبية الجنسية إلا من غلبت عليهم البداوة فإنهم بما توارثوه من الغرائز والأخلاق لا يخضعون إلا لسلطة رؤسائهم الذين من أبناء جنسهم بل من رؤساء عشائهم . وأما من غلبت عليهم الحضارة فما زالوا يألفون سلطة الأعاجم من الملوك والسلاطين الذين يتولون أمرهم من قبل الخلفاء العباسيين ويحكمون بشريعتهم ويؤيدون لغتهم ويتركون لغاتهم إليها إلى أن هان عليهم الخضوع لسلطة الأعاجم المصرين على أعجميتهم الذين لا يستمدون سلطتهم من خليفة قرشي عربي وهم الترك، بل هان عليهم ادعاء هؤلاء الأعاجم للخلافة النبوية ورضوا بذلك واطمأنوا له لأنه مع اشرافه على مجموعهم المتفرق من شاهق القوة العسكرية، وقد أطل على قلوبهم من سماء الفتاوى الشرعية، وتسرب إلى أفكارهم من باب المصلحة الإسلامية، ذلك بأن أكثرهم من المنتمين الى مذاهب علماء السنة الذين يوجبون طاعة المتغلب بالقوة، وإن لم يكن حائزاً لغير الإسلام من شروط الخلافة الشرعية، ومنها النسب القرشي بإجماعهم، ومستندهم في ذلك رعاية المصلحة الراجحة وخوف الفتنة . على أنهم مختلفون في عد رعاية المصلحة حجة، أو داخله فيما ذكره للقياس من مسالك العلة، ومختلفون

في سد الذرائع أيضاً. ولما كانت الزيدية لا تقول بطاعة المتغلبين، ولا بمصلحة تبيح ترك اشتراط النسب القرشي العلوي وشرط العلم الديني في أئمة المسلمين، أي الخلفاء لم يخضعوا لسلطان الترك ولا دانوا لحكمهم، بل ظلوا ينصبون الأئمة الحائزين للشروط الشرعية في مذهبهم، ويقاثلون الترك الذين يتصدون لفتح بلادهم، ولم تستطع الترك أن تغلب أئمة اليمن على أمرهم، بل صالحوا إمامهم الأمام يحيى منذ سنين قليلة وأقروه على إمامته في قومه ووطنه بعد أن حاربوه وحاربوا سلفه أربع مئة سنة، على أن الإمامة لا تتجزأ ولا تتعدد. والحق إن الباعث الأخير لاعتراف أكثر المسلمين بخلافة سلاطين الترك هو كونهم أمسوا حصناً لبقية البلاد الإسلامية في وجه أوربة.

وليس من غرضنا هنا أن نبحث في الخلافة وشروطها وإنما بحثنا هذا تاريخي اذا ذكرت فيه مسألة شرعية فإنما تذكر على سبيل الاستطراد مختصرة بقدر الضرورة، ولم تكن مسألة الخلافة من مواضع بحث طلاب الإصلاح من العرب في السنين الأخيرة خلافاً لأوهام الواهيمين التي أثارها في تخيلاتهم لغط بعض الكتاب بها في عهد السلطان عبد الحميد لأجل استغلاله وسأوسه كما تقدم حتى صارت حكومته تمنع نشر كل كتاب من كتب الكلام والعقائد والحديث والتفسير تذكر فيه هذه المسألة. ومن أثر ذلك انه لما طبع كتاب المسيرة للكمال ابن الهمام وهو من أهم كتب العقائد عند الحنفية وكثير الرواج في الأستانة اضطر طابعه بمصر ان يطبع منه نسخاً حذف بحث الامامة (الخلافة) لأجل بيعها في الأستانة وسائر البلاد العثمانية. وصار بعض الجاهلين في مصر يظن أن ذكر الشروط الشرعية للخلافة ولا سيما شرط النسب القرشي لا يصدر إلا من عدو للدولة وللإسلام أيضاً. على أن هذا الشرط مذكور في الكتب العربية والتركية التي طبعت في الأستانة قبل تشديد الحكومة الحميدية في مراقبة المطبوعات وقد ذكر في بعض الكتب العصرية التي طبعت بعد الدستور ومنها كتاب

لإسماعيل حقي بك بابان الاتحادي الذي كان مدرساً في مكتب الحقوق وصار ناظراً للمعارف.

تكوين الترك للعصبة العربية

فهذا وجه صد الإسلام للعرب عن محاولة الاستقلال دون الترك، وقد قلت مراراً إنه لا يقدر أحد على إعادة هذه العصبة إلى العرب أو إعادتهم إليها بعد أن أبعدهم الإسلام عنها إلا الأستانة أو تحامل الترك عليهم بباعث العصبة التركية^(١) وقد صدق الزمان هذا القول. وأسس الاتحاديون بعصيتهم التركية واضطهادهم للعرب بناء العصبة العربية أو أحيوها بعد موتها. فإن هؤلاء الاتحاديين قد تمرسوا برجالات العرب وشبانهم في الأستانة وغيرها فعملوا من أقوالهم وأفعالهم في دور الحكومة الرسمية ومدارسها وأندية الجمعية في البلاد العربية أن عزمهم على تترك العرب كغيرهم بالقوة عزم ثابت لا يرجعون عنه وأنهم جازمون بسهولة تترك بلاد سورية والعراق في سنين معدودة وما يعسر تتركه الآن من جزيرة العرب يعد من المستعمرات يوضع له قانون خاص لإدارته ولا يكون لأهله ما لسائر العثمانيين من الحقوق المنصوصة في القانون الأساسي. وقد أرسلوا طائفة من طلبة الترك إلى أوربة لأجل درس قوانين الاستعمار.

بهذا علم نبهاء العرب أن أمتهم ولغتهم عرضة للزوال من المملكة العثمانية - ولا يجهل أحد أن الدين الإسلامي يقوى بقوة لغته العربية ويضعف بضعفها ولا نقول أكثر من ذلك - فتوجهت قلوب كثير منهم لتدارك الخطب وألفوا بعض الجمعيات لذلك ورأى الذين يتحرون هدي الإسلام في أعمالهم أن ما كان مانعاً من إحياء الجنسية العربية قد زال وخلفه المقتضي لإحيائها، فقد كان المانع من ذلك اتقاء الشقاق بين العرب

(١) أذكر أنني كتبت هذا غير مرة في المنار ولكنني لا أتذكر من مواضعها إلا ما في ص ٢٥٢ و ٢٥٣ من المجلد الثالث عشر والعبارة فيه تدل على أنها مسبقة والا ما في ص ٨٠ من المجلد التاسع عشر.

والترك وإفضاء ذلك إلى زوال الدولة واستيلاء الأجانب على بلادها، وقد وقع ذلك من قبل الاتحاديين أي من قبل الدولة نفسها لأنها في قبضتهم فلا معنى لاتقائه وقد حصل، وخلفه المقتضي لإحياء هذه الجنسية وهو وجوب المحافظة على اللغة العربية والأمة العربية شرعاً. ولكن هذا قد يحصل بما دون استقلال العرب بأنفسهم دون الترك وإن كان حصلاً ضعيفاً فلم يكن باعثاً على السعي إلى تأليف دولة عربية بل إلى طلب إصلاح اضطرب في تحديده أفرادهم وجماعاتهم وكان حزب اللامركزية أقصدها وأشدّها اعتدالاً.

وما كان يخفى على أحد من هؤلاء أن مطالبهم معلقة بين الرجاء واليأس وأن الحياة إنما هي حياة الاستقلال لا تحيا اللغة ولا ترتقي الأمة بدونها، ولكن دونها خراط القتاد، إذ لا تحصل إلا بثورة يصطدم بها الترك والعرب اصطداماً يخشى أن يضعف الفريقين وينتهي بزوال الدولة واقتسام أوربة لبلادها. ومن ذا الذي يقدم على حمل هذه التبعة الثقيلة التي تثط من حملها الجبال الرواسي؟ أيجهل أحد من طلاب الإصلاح للعرب أن هدم آخر سلطنة إسلامية مهما يكن سببه الحامل عليه لا يعقب الساعي إليه والقائم به إلا لعن مئات الملايين من المسلمين إلى يوم الدين؟

لهذا أجمع طلاب الإصلاح من العرب الذين يعتد برأيهم، ويرجى تأثير عملهم، على أن لا يكونوا سبباً لسقوط الدولة وزوالها. ولا يسعوا إلى ضررها ولا إلى اضعافها، وعلى أن يجعلوا همهم في إصلاح أنفسهم، وعمارة بلادهم، مع النصح للدولة والإخلاص لها، وطلب حقوقهم التي أثبتتها لهم القانون الأساسي فيها، ليرتقوا ويعتزوا بأنفسهم فلا يسقطوا مع الدولة إن سقطت، وتعز الدولة وترتقي بارتقائهم إن بقيت، وأن يكون جلّ سعيهم إلى ذلك في مجلس الأمة بواسطة مبعوثيهم.

ثم طرأ على بعضهم اليأس من بقاء الدولة وقوي ذلك وكثر التفكير في عواقبه عندما غلب البلقانيون الدولة في الحرب وكادت دولة البلغار التي تم

لها استقلالها في عهد الدستور تستولي على الأستانة، وتحدثت جرائد أوربة بحقوق بعض الدول الكبرى في بلاد الدولة وخص بالذكر بعض الولايات العربية، وطفق المفكرون يناجي بعضهم بعضاً: ما حيلتنا إذا أقدمت دولة قوية على الاستيلاء على بلادنا كما استولت إيطالية على طرابلس الغرب وبرقة وليس فيها شيء من أسباب الدفاع ولا يمكن الدولة ولا مصر أن تساعدنا على مقاومة المحتلين كما ساعدتها.

صدعهم هذا اليأس بعد أن قوي رجاؤهم في الدولة بانتصار حزب الحرية والائتلاف على حزب الاتحاد والترقي وانتزاعه السلطة التنفيذية من يده، ثم قوي ذلك اليأس واشتد بثورة الاتحاديين على وزارة كامل باشا وقتلهم لناظر الحربية في الباب العالي وتأليف وزارة جديدة منهم بقوة الثورة، ولولا أن زعماء العرب كانوا مجتمعين على المحافظة على الدولة مهما تكن حالها، لبادروا عند ذلك اليأس الشديد إلى اضرام نار الثورة على الدولة والجهر بالاستقلال دونها، لعلمهم بأنه لم يبق عندها في ذلك الوقت سلاح ولا ذخيرة تدافع بهما عن عاصمتها، فكيف تقدر على تجريد عسكر يحمي نيران الثورة في البلاد البعيدة عنها؟ ولكنهم لم يفعلوا، ولم يكن الإسلام هو المانع لهم من التصدي لتأسيس دولة عربية وهم يائسون من بقاء الدولة التركية ومن إقامتها للإسلام إن بقيت والاتحاديون غالبون على أمرها، فإن افتاء مذهبهم بوجوب طاعة المتغلب خوف الفتنة التي ترجح مفسدتها على المصلحة لم يعد ينطبق على حالتهم مع الدولة، ولكن المانع الحقيقي هو الخوف من أوربة أن تغتتم الفرصة وتستولي على البلاد.

فتبين بهذا أن ما كان يصد زعماء العرب من المسلمين عن التصدي لتأسيس دولة عربية أمران: الإسلام والخوف من أوربة، وكان الرجحان في بعض الأحوال للأول وفي بعضها للثاني، ولكنها كانا في عامة الأحوال والأوقات مانعاً واحداً أو سبباً واحداً مركباً من أمرين كل منهما يقوي الآخر.

وبعد حرب البلقان أقدمت الحكومة الاتحادية على عقد الاتفاق بينها وبين الدول الكبرى على الاعتراف لهم بالنفوذ الاقتصادي في أعظم الولايات العربية ليقترضنها عشرات الملايين من الجنيهات، وصرح بعض كبار السياسيين في جرائد أوربة بأن مناطق النفوذ الاقتصادي تتحول إلى مناطق نفوذ سياسي عند سنوح أول فرصة لذلك، فثبت عند زعماء العرب أن الاتحاديين شرعوا في تنفيذ ما هددوهم به من بيع بلادهم وترقية الترك بثمانها كما فعلوا ببيع طرابلس الغرب وبرقة، فاشتدت عزميتهم على طلب الإصلاح وعقدوا المؤتمر العربي في باريس لذلك فذعرت الحكومة الاتحادية ولجأت إلى الحيلة والخداع لضعفها في ذلك الوقت وكان من أمر نتيجة المؤتمر ما هو معلوم من اعتراف جمعية الاتحاد ثم حكومتها ببعض حقوق العرب في الدولة ووعدوا بإعطائهم تلك الحقوق بالتدريج وخداعها للسيد عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر وتصديقه إياها بما وعدت به.

الحرب الأوروبية واستقلال الحجاز

ثم ظهرت بوادر الحرب الأوروبية وعزم الدولة على الدخول فيها فبادرت إلى كتابة مقالة نصحت فيها لإخواني العرب بالكف عن طلب الإصلاح في حال الحرب وتأييد دولتهم بالإجماع فكان لها تأثير عظيم. ولكن الاتحاديون لما دخلوا في الحرب وجعلوا الأحكام في المملكة عسكرية عرفية جعلوا ذلك وسيلة للتنكيل بالعرب والأرمن حسب خططهم المقررة منذ سنين فصلبوا في سورية جميع من عرفوا من المطالبين بالإصلاح من نابغي العرب ونفوا من البلاد أرباب البيوتات والثروة الكبيرة وصادروا أموال الناس وغلات أرضهم، وفعلوا مثل ذلك في العراق، ثم تحرشوا بالحجاز، فبادر الشريف أمير مكة المكرمة إلى إعلان استقلال الحجاز بعد النصح لجمال باشا الحاكم العسكري الاتحادي المطلق في سورية ولحكومة الآستانة بالكف عن الفظائع في سورية والعراق فلم يقبل نصحه، وانتهى أمر

الشريف باعتراف دول الحلفاء باستقلاله التام وبما بايعه به أهل البلاد من جعله ملكاً عليهم .

وقد نشر الشريف قبل المبايعة منشوراً يبين فيه سبب قيامه مع الحجازيين بما قاموا به ففهمنا منه أنه كان موافقاً لما أجمع عليه من دونه من زعماء العرب من الرغبة في المحافظة على بقاء الدولة واتقاء أن يكون زوالها أو ضعفها من قبل العرب، فإن استقلال الحجاز الذي أنتجته الضرورات لا يمكن أن يكون سبباً لزوال الدولة وهي داخلة في أحد الحلفين اللذين انقسمت إليهما دول أوربة الكبرى، فإن النصر لأحد الحلفين على الآخر إنما يكون بانتصاره عليه في أوربة، واستقلال الحجاز لا يقدم في ذلك ولا يؤخر، ولكنه أفاد العرب فوائد عظيمة فصدق عليه قولنا إما أن ينفع نفعاً كبيراً أو صغيراً وإما أن لا يضر . وقد ثبت عندنا أن استقلال الحجاز كان سبباً لكف الاتحاديين عن محاولة إبادة العرب من سورية والعراق الآن وتخفيف ما كانوا شرعوا فيه من المذابح والفظائع وكان هذا من أجل منافع التي تربي على ما ترتب عليه من سفك الدم الذي اجتهدت الحكومة العربية الحجازية في اجتنابه بقدر الطاقة .

عاقبة العرب استقلال الشعوب

ثم طرأ بعد استقلال الحجاز أن أعلن دول الأحلاف أنهم قد اتفقن على حرية الشعوب واستقلالها في أمر حكومتها وذكروا العرب والأرمن منها . وهذه قاعدة عادلة عظيمة الشأن إذا نفذت على وجهها الصحيح وكانت الدول كلها متضامنة في حفظها بما يتعاهدن عليه في مؤتمر الصلح، وأولها بعضهم بمعنى أن لا يحكم شعب إلا بالطريقة التي يختارها لنفسه، ولكن الوقوف على آراء الشعوب المغلوبة على حريتها متعذر في هذه الأوقات التي تخضع فيه للأحكام العسكرية، وقد علمنا ممن فر من سورية والعراق إلى مصر والحجاز ومن أسراهم بمصر أن العداء بين العرب والترك

قد عم وتمكن فلا مطمع في زواله ولم يبق في العرب من لا يرغب في الاستقلال دون الترك. ومن البديهي أنه لا يوجد شعب في الدنيا يختار على الحرية والاستقلال شيئاً إذا تيسر له، ولكن يوجد في كل أمة أفراد من عبيد المال، ومن الجاهلين الذين يُخدعون بزخرف الأقوال، فيمكن أن يستخدم من هؤلاء وأولئك بالترغيب والترهيب طائفة تقول ما تؤمر أن تقوله، ولا يمكن أن يكون اختيار هؤلاء للعبودية بتسميتها بغير اسمها حجة على الشعب، ولكن القوة تحتاج على الضعف بما تشاء، وانما يعرف رأي الشعوب في بلاد الحضارة من قبل أحزابها السياسية، وليس للشعب العربي العثماني حزب سياسي عام إلا «حزب اللامركزية» ويمكنه أن يبين رأي الشعب إن استطاع زعماءه أن يعربوا عن آرائهم، وله جمعيات موضعية خاصة كجمعية الاتحاد اللبناني بمصر وأمريكة والنهضة اللبنانية في أمريكة فهي تمثل آراء جمهور اللبنانيين. والدول إذا أخلصت في تنفيذ هذه القاعدة تقررها وعندما يجتمع زعماء كل أمة تنال استقلالاً جديداً لتأسيس حكومتها العليا يعرف رأيهم في شكلها، ولا يعرف معرفة صحيحة بغير ذلك. فإذا انتهت الحرب بذلك كانت عاقبتها على البشر خير العواقب. والله الموفق.



المسألة السورية والاحزاب



[المنار ج ٢١ (١٩١٩) ص ١٩٧ - ٢٠٧]

بينما كان العرب في سورية والعراق يمينون أنفسهم بالنجاة من طغيان الطورانيين وما سامهم جلادهم جمال باشا وغيره من سوء العذاب إلى نعيم الاستقلال الصحيح والحرية التامة ويتلذذون بما يقرأون في المنشورات

والجرائد التي تنقلها اليهم العيون أو تنثرها عليهم الطيارات (كالقنبلة والمقطم والكوكب) كان السر مارك سايكس والموسيو يبقو «صديقا العرب» يضعان أصول الاتفاق بين دولتيهما على اقتسام هذه البلاد بينهما ويضعان لها خارطة^(١) تحدد منطقة كل قسم منها كما فعل غيرهما من رجال دول الأحلاف في بلاد الترك أيضاً. وقد كان أول من كشف النقاب عن أسرار هذه المعاهدات السرية أحرار الروس لما أسقطوا حكومتهم القيصرية، ونشروا أسرارها المطوية.

وقد اشتهر أمر معاهدة تقسيم ولايات سورية بين فرنسا وانكلترا وكثر كلام الجرائد الأوربية والعربية فيه ولما ظهرت شروط الرئيس ولسن واتفقت الدول المتحاربة على جعلها أساساً للصالح باعتبار ما فسرهما من خطبه التي نشرنا أهمها من قبل كان الظن أنها تنسخ هذه المعاهدة ونظائرها من المعاهدات السرية التي وضعت لاستيلاء الأقوياء على بلاد الضعفاء نسخاً تاماً، ولكننا وجدنا أن عهد عصبة الأمم الذي يحسب الرئيس ولسن أنه غير به نظام الدول والأمم ونقل البشر من طور سافل إلى طور عال من الحرية والسلام قد أجاز تقسيم بلاد الشعوب الضعيفة بين الأقوياء بشرط أن يسمى تصرف كل دولة فيما تأخذه منها وصاية وتوكيلاً لا حماية ولا امتلاكاً ولا استعماراً، وزاد على ذلك أن الشعوب الراقية من أولئك الضعفاء التي يعترف باستقلالها مؤقتاً بشرط قبول هذه الوصاية، أي بشرط أن لا تكون مستقلة، يسمح لها بأن يكون لها صوت في اختيار الدولة الموكلة بها ليكون ذلك حجة عليها. وإذا احتج الضعيف على هذا بأنه مناقض لما قاله ولسن وأمثاله من كبار رجال دول الحلفاء من أن أحد

(١) الخربة في الأصل اسم فاعل من خرت الأرض بخربتها (من باب نصر) اذا عرف طريقها ومضايقتها ومنه الدليل الخربت وهو العارف بذلك. وفي اللسان عن الكسائي: خرتنا الأرض اذا عرفناها ولم تخف علينا طريقها، أهـ. فاذا أطلق الخارطة على الصحيفة التي يرسم فيها وجه الأرض وما فيها من جبال وبحار وغير ذلك كان هذا الاطلاق صحيحاً باعتبار ان الصحيفة المشتملة على ذلك كالطريقة به فهو وصف مجازي يكثر مثله في العربية.

أغراضهم الرئيسية من الحرب تحرير الشعوب المطلوبة واستقلالها إذ هو عبارة عن وضع اسم جديد للاستعمار والاستعباد يندع الجاهلين ويصرفهم عن المقاومة - قال له من عساه يتعطف بالجواب: ليس المراد من تحرير الشعوب غير الأوروبية جعلها حرة كالأوروبيين كما يفهم البلداء الذين يفسرون الألفاظ بما يرون في معاجم اللغة المخالفة لمعاجم السياسة وإنما المراد منه انقاذها من حكامها الظالمين وجعلها تحت سيادتنا العادلة التي هي أفضل للشعب الضعيف من الحرية المطلقة التي لا يقدر على القيام بأعبائها وشؤونها، وإذا كان ما قارب الشيء يعطي حكمه فما القول في ما هو أفضل منه؟

فإذا قيل إن صحت هذه النظرية فاسترقاق الراقين في الحضارة من الأفراد لمن دونهم خير لهم من الحرية فلماذا تحرّمون استرقاقهم؟ ثم لماذا تبيحون حرية الفسق والفجور للشعوب الجاهلة وأنتم ترون ما يبجي عليها فشو الزنا والسكر من الأمراض والفقر وفساد البيوت (العائلات) والأمة؟ إن قيل هذا سكت لسان المقال، وصاح لسان الحال:

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

كان أولو الإمام بالسياسة من السوريين يعتقدون منذ آذن دول الحلفاء الدولة العثمانية بالحرب أن انتصارهم يفضي إلى تقسيم بلادها بينهم على قاعدة مطامعهم القديمة فيها بأن تكون الآستانة لروسية وسورية لفرنسة والعراق لإنكلترة، ولم تكن أقوال رجال السياسة منهم أنهم يبغون تحرير الأمم والشعوب مضعفة لاعتقادهم هذا ولكن منهم من حسن الظن بالرئيس ولسن إذ نادى بهذه الحرية وبوجوب تعميمها وتعميم العدل وعدم التفرقة بين من يجب أن يعدل فيهم إذ حسبوا ذلك ناسخاً لما جرت عليه أوربة من وجوب حصر حرية الشعوب في أقوامها دون الشعوب الآسيوية والأفريقية، ومنهم من لم يحسن الظن به ولم يفضل على ساسة أوربة في

شيء، وربما كان هؤلاء السيئو الظن هم الأقلين من أهل الإمام بالسياسة وكان سائرهم على رأي عامة شعبهم وعامة سائر الشعوب من حسن الظن والرجاء إلى أن ظهر عهد عصبة الأمم فقال المتمرسون بالسياسة إن قواعد ولسن وخطبه لم تأت بشيء جديد إلا زيادة كليمات في معجم السياسة الخادع، وظل أكثر العامة يفهمون أن المراد من مساعدة الدول الموكلة للشعوب ليس إلا عبارة عن إمدادها بما يعوزها من المال والسلاح وغيره كما يرون من مساعدة انكلترة لحكومة الحجاز الموالية لها.

هذا وإن من المعلوم المشهور أن لكل من الفرنسيين والانكليز صنائع وأولياء من السوريين يلقون إليهم بالمودة، فطائفة الموارنة من صنائع فرنسة وأوليائها ولها أفراد من طوائف أخرى قد اجتهد رجالها في تكثير عددهم بعد احتلال سورية، وطائفة الدروز من صنائع انكلترة وأوليائها وكذلك اليهود صاروا من أوليائها بوعدها إياهم بجعل بيت المقدس وما حوله من سورية الجنوبية وطناً قومياً لهم يرجون أن يستعيدوا فيه ما فقدوا من الملك، وقد استمال رجالها بعد احتلال هذه البلاد كثيراً من أفراد الطوائف الأخرى واستمال إليها الأمير فيصل كثيراً من المسلمين. زد على ذلك أن جمهور المتعلمين بالمدارس الفرنسية يفضلون فرنسة على انكلترة على فرنسة، والمتعلمين بالمدارس الإنكليزية والأمريكانية يفضلون أمريكية وإنكلترة على فرنسة، وللدين والمذاهب تأثير عظيم في تفضيل دولة على دولة وأمة على أمة، ودعاة الدين والمذاهب ما زالوا يتبارون في جذب قلوب من يرغبونهم ويعلمونهم في مدارسهم إلى أنفسهم وينفرونها من المخالفين لهم.

لم يكن للدولة التركية أدنى عناية بمقاومة دعاة النفوذ الأجنبي في بلادها ولا اهتمام بمعارضته بمثله فيها، ولا في بلاد أولئك الأجانب أو مستعمراتهم بالأولى وليس لغيرها من أمم المشرق الإسلامية ولا غيرها دولة ولا إمارة لها دعاة يستميلون الناس باسم الدين ولا باسم الحضارة ولا المصالح، لهذا

كان الذين ينفرون من الترك بالتأثير الأجنبي أو بسبب الظلم وسوء الإدارة - والذين يتوقعون افضاء ما عليه الترك من سوء الإدارة إلى سقوط دولتهم واقتسام الدول الكبرى لها، لم يكن أحد من هؤلاء ولا أولئك يفكر في مستقبل بلاده الا وتمثل له إحدى الدول الأوروبية الطامعة ميطرة عليها متمتعة بخيراتها مستخرجة لكنوزها.

كان الامر كذلك الى أن قام الاتحاديون الطورانيون من الترك ببث دعوة الجنسية التركية ومحاولة تريك جميع الخاضعين لحكمهم من الأجناس الأخرى بالقوة القاهرة حتى دُعوا هذ الأجناس دُعاً إلى المحافظة على جنسياتها، وإحياء ما أماته الجهل والإهمال من لغاتها، ثم الى التفكير في حريتها واستقلالها، فلما اتخذ الاتحاديون الحرب ذريعة إلى تنفيذ خطتهم في القضاء على العرب في سورية والعراق بالقوة القاهرة وشرعوا ينكلون بهم تقتيلاً وتصلبياً وتغريباً ومصادرة وتخريباً - كما فعلوا بالأرمن والروم - واشتعلت نار الثورة العربية في الحجاز وانضوى أميره إلى دول الأحلاف المحاربة للترك والجرمان تعلقت آمال السوريين الذين يسامون سوء العذاب في سورية وغيرهم من العراقيين بأن تكون لهم دولة عربية يكون المؤسس لها ملك الحجاز، وكان النصارى كالمسلمين في تمني ذلك لان الشدائد التي ذاقوها بأنهم عرب قد أزال كل خلاف وشقاق كان بينهم.

ولما احتل الحلفاء سورية بعد جلاء الترك عنها وأخذ جزء من جنوبيها عنوة أقاموا فيها ثلاث حكومات عسكرية على قاعدة معاهدة سنة ١٩١٦ : حكومة انكليزية في سورية الجنوبية «فلسطين» لأنها منطقة انكلترة، وحكومة فرنسية في سواحل سورية الشمالية لأنها منطقة فرنسة، وحكومة عربية في الداخلية لأنها منطقة العرب، وكانت كل حكومة تبث نفوذها في منطقتها حتى اعتقد المتمرسون بالسياسة من أهل البلاد في كل منطقة أنها صارت ملكاً خالصاً لمحتلها مهما يكن الاسم الذي يسمى به هذا الملك. وكانت كل حكومة تشدد في منع الاتصال بين كل قسم من سورية وبين

مصر بشدة المراقبة على البريد وشدة التدقيق في منع السفر من أحد القطرين إلى الآخر إلا لمن يوثق بمشايعته للحلفاء في سياستهم ثم لمن يوثق بأنه لا يخالفهم ولا يشتغل بسياسة غير سياستهم، ذلك بأن من في مصر أجدر بمعرفة حقائق السياسة وخفاياها من أهل سورية وسائر أقطار الشرق الأدنى، ولكن الأخبار والأفكار كانت تنقل بالتدريج بتلقين بعض ضباط الجيش العربي وغيرهم من خدمة الحكومة العربية الذين كانوا يترددون بين مصر والحجاز وسورية، ثم بتلقين غيرهم وبما كان يحمل كل من الرسائل، فعرف بذلك الكثيرون من أهل سورية حقائق المسائل، وكان مما يترتب عليه قوة رجائهم بما يجنون من الاستقلال التام، وضعف أملهم وتغير رأيهم في ارتباط سورية بحكومة الحجاز، فلم يعد يرغب في هذا أحد يعتقد به من الذين عرفوا حقيقة الحال، ولكن الأمير فيصلاً نجح بلطفه وسخائه وبمظاهرة الإنكليز له في تأليف حزب كبير يرغب في جعله ملكاً لسورية مستقلة.

الأحزاب السورية

من فقه ما تقدم لم يعجب مما يراه من كثرة اختلاف السوريين في أمر بلادهم كما يعجب من لا يعرف من شؤونهم سوى الظواهر التي تتجلى في جرائدهم ومجلاتهم وبراعتهم في التجارة بمصر وأوروبا والممالك الأميركية، وإدارتهم لبعض أعمال الحكومة المصرية والسودانية.

قال عالم أوروبي لشاب سوري من تلاميذه: إنني وقفت على كثير من شؤون السوريين الاجتماعية وغيرها وحضرت بعض أنديتهم ومحافلهم فلم أر بيننا وبينهم فرقاً يذكر لهذا أخذ مني العجب مأخذه لما علمت أن كثيراً منهم يطلبون أن يكون وطنهم تحت حماية أو وصاية أجنبية، هذه خطة خسف وضعة لا يرضى لنفسه بمثلها من نعلم أنهم أدنى من السوريين في كل علم وعمل، وأقل شعوراً بمعنى الحرية والشرف. ولو علم هذا العالم

أن مصدر هذا الخسف والضعفة بعض أولئك الذين إذا رأهم تعجبه أجسامهم وأن يقولوا يسمع لقولهم دون الجمهور السوري الأعظم الذي لم يسلبه التفرنج ولا التعصب الديني ما عرف به السوريون وسائر العرب من الشمم والإباء ثم علم سائر ما أشرنا إليه من أسباب الخلاف لما احتقر السوريين كافة بما صدر عن الأقلين منهم بعذر من الأعذار التي أشرنا إليها في هذا المقال أو بغير عذر.

من جراء ذلك ألف السوريون في البلاد وفي الممالك الأمريكية ومصر عدة أحزاب وجمعيات كلها تطلب الاستقلال لسورية برمتها متحدة غير متجزئة ومنها فلسطين ولبنان إما وحدها وإما متحدة مع العراق وجزيرة العرب، وبعض اللبنانيين منهم يطلب أن يكون لبنان مملكة مستقلة ويضم إليه معظم ولاية بيروت وجزء من ولاية الشام مما يكثر فيه النصارى بحيث يكون أكثر الأهالي منهم فتكون البلاد السورية مملكتين الساحلية منهما مسيحية والداخلية إسلامية. بهذا صرح لي بعض كبرائهم وأدبائهم فما الظن بما يصرح به بعضهم لبعض؟ ثم أن طلاب الاستقلال لسورية من هؤلاء السوريين المهاجرين منهم من يطلبه تاماً مطلقاً ناجزاً كحزب الاتحاد السوري بمصر وبعض الأحزاب والجمعيات في الممالك الأمريكية الموافقة لهذا الحزب، ومنهم من يطلب استقلالاً إدارياً تحت وصاية إحدى الدول الأوروبية الكبرى أو الولايات المتحدة.

وأما السوريون الذين في البلاد فالسواد الأعظم منهم كانوا يطلبون الاستقلال المطلق الناجز مع الارتباط بالوحدة العربية التي يرغبون أن تتألف من جميع الولايات العربية العثمانية على قاعدة اللامركزية، وقد بثت فيهم دعوة طلب الوصاية الأجنبية باسم المساعدة فراجت بين الكثيرين لاعتقادهم أنها عبارة عن مساعدة بالمال لا تنافي الاستقلال لا بتشريع ولا بتنفيذ، فلما فهموا المراد منها نبذها الأكثرون.

أول حزب ألف بمصر «حزب الاتحاد السوري» وكان أعضاؤه المؤسسون

من المسلمين والنصارى والدروز وأساس برنامجه الاستقلال التام الناجز، والمراد بالناجز الحال. ويقابله الاستقلال المستقبل الذي يتوقف على مساعدة أجنبية ترشح الشعب له وتقوده إليه إن كانت تريد ذلك، وإنما فسرناه لأن بعض الناس لم يفهم المراد منه حتى قالت إحدى الجرائد السورية إن المراد بالناجز التام، فحسبته تأكيداً للتام، والمراد بالتام ما يشمل السياسي والاقتصادي والقضائي وإن كان مؤجلاً.

ألف الحزب أولاً من فريقَي الاستقلاليين والاحتلاليين وكانت المواد الأولى التي وضعت له مشتملة على الجمع بين النقيضين - الاستقلال والاحتلال - فكان كل فريق يقوي المادة الموافقة لمشربه ويدعي الاحتلالي أنه استقلالي وأنه إنما يطلب مساعدة مؤقتة للضرورة.

وكلٌ يدعى وصلاً بليلى وليلى لا تقرّ لهم بذاكا

فاشتغلا بالجدال والنضال عدة أشهر كان الفلج فيها للاستقلاليين، وكان الاحتلاليون يتسللون منه لواءاً، وينفصلون مثنى وأفذاذاً، وتقرر البرنامج المؤلف من أربع عشرة مادة بالإجماع في بعضها وأكثر الآراء في بعض. ورضي كاتب هذه السطور بأن يكون من مؤسسي هذا الحزب المخالف لمذهبه السياسي في الجامعة العربية من وجوب اتحاد جزيرة العرب بالولايات العربية العثمانية للحرص على تعاون المسلمين مع النصارى على طلب الاستقلال التام الناجز لسورية بعد أن أطال الدعوة إلى مذهبه فلم يستجب له من فضلاء النصارى بمصر إلا أفراد قليلون، ولأن التعاون على استقلال بعض الأقطار العربية لا ينافي السعي لاستقلال سائرهما من طريق آخر كما صرح به في بعض ايمان الجامعة العربية. وأنا أصرح هنا بأنني لم أكن موافقاً على كل مواد البرنامج بل منها ما أسفر النضال فيه بيني وبين بعض الاعضاء عن فوزي بموافقة الأكثرين من الأعضاء لي ثم برجوع بعضهم الى المخالفين لي إرضاءً لهم لئلا يخرجوا من الحزب، ولكنهم

خرجوا بعد ذلك . على أن كل قانون وكل نظام يشترك في وضعه كثيرون
يتقرر بعض مواده بالاتفاق وبعضها برأي الأكثرين .

وتلا حزب الاتحاد السوري «الحزب الفرنسي» الذي يطلب جعل
سورية برمتها، ومنها فلسطين ولبنان، مملكة واحدة مستقلة في إداراتها تحت
حماية فرنسة أو وصايتها، ولم يوجد في مؤسسي هذا الحزب أحد من
الطوائف الاسلامية الا حقي بك العظم ومختار بك الجزائري . وتلا
«الحزب الحر المعتدل» الذي يتفق مع الحزبين السابقين في طلب وحدة
سورية وحدودها ويخالفهما في طلب جعل حكومة الولايات المتحدة وصية
على سورية ومساعدة لها على الاستعداد للاستقلال التام المطلوب . وليس
في مؤسسي هذا الحزب أحد من الطوائف الاسلامية التي تبلغ أربعة
أخماس أهل سورية .

وكان في مصر قبل هذه الأحزاب بل قبل الحرب أيضاً جمعية تعرف
بجمعية الاتحاد اللبناني تطالب الدولة العثمانية بحقوق للبنان المعروف أو
الصغير فتحولت بعد الحرب إلى مطالبة الحلفاء باستقلال الجبل وتوسيع
حدوده وجعله تحت حماية جميع الدول الكبرى . وكان لمهاجري لبنان في
البلاد الأمريكية جمعية أخرى تعرف بجمعية النهضة اللبنانية تطالب
بتوسيع حدود لبنان وتقوية استقلاله وجعله إمارة ذات علم خاص وجعل
أميره أوروبياً يطلب اختياره من الدول الست الضامنة لاستقلال الجبل
ولهم مطالب أخرى متعارضة نشرناها في المجلد السابع عشر ثم كانت هذه
الجمعية من طلاب الحماية الفرنسية وبعد انكشاف الحقائق تغير رأي
مؤسسيها في ذلك وأشيع أن رئيسها المندوب عنها في باريس طلب
الاستقلال التام وانضم إلى جماعة الأمير فيصل . وجمعية الاتحاد اللبناني
فروع في البلاد الأمريكية وفي لبنان نفسه . وكان أكثر طائفتي الموارنة والروم
الكاثوليك من غير أعضاء هذه الجمعية يودون أن يكون لبنان وكذا سائر
سورية تحت حماية فرنسة كجمعية النهضة اللبنانية، ولما انتهت الحرب بظفر

الحلفاء وأعلنوا أن الولايات العربية لن تعود الى الحكومة التركية وتألفت الأحزاب السورية للمطالبة باستقلال سورية على ما تقدم بيانه، انضم إلى كل من حزبي الاتحاد السوري والحر المعتدل كثير من أعضاء الجمعيتين ودخل أناس منهم في أحزاب أخرى استقلالية واحتلالية من طلاب وصاية الولايات المتحدة أو وصاية دولة غير معينة وبقي بعضهم ثابتاً على المطالبة بفصل لبنان من جسم سورية.

الذي نعلمه أن «حزب الاتحاد السوري» فاق غيره في بث دعوته في سورية والمهاجر السورية لأنه على تبرع جميع أعضائه بالعمل وظف له عمال للإدارة والترجمة والنسخ واستعان على عمله بسخاء رئيسه ميشيل بك لطف الله وشقيقه جورج بك الذي تبرع له في أول تأسيسه بألفي جنيه مصري حتى كان ينفق في بعض الأيام بضع مئين من الجنيهات أجور برقيات إلى أوروبا وأمريكا حيث أجاب دعوته خلق كثير وبث دعوته في جميع البلاد السورية ولم يستطع ذلك غيره. وأما «الحزب الحر المعتدل» أو الأمريكياني رجع إليه كثير من الاحتلالين الذين كانوا راضين بوصاية فرنسة من مهاجري السوريين في مصر وأمريكا وقليل من الاستقلاليين فظلوا هم السواد الأعظم ولا سيما في البلاد نفسها ولم يكن له فروع ولا دعاة فيها، على أن الدعوة الى طلب مساعدة الولايات المتحدة قد ظهرت قبل تأسيس هذا الحزب في كل مكان، ونسبتها الجرائد الانكليزية إلى الأمير فيصل منذ كان في أوروبا ثم اشتهر أنه بث هذه الفكرة في سورية بعد عودته إليها ثم فكرة الدعوة الى مساعدة انكلترا اذا لم تقبل حكومة الولايات المتحدة، وهذا هو الذي وقع كما سنبينه بعد. ومن البديهي أن السوريين الذين في الولايات المتحدة وفي غيرها من الدنيا الجديدة كان كثير منهم قبل ذلك يفضل مساعدة الولايات المتحدة على مساعدة كل دولة أوروبية، بل قلما يفضل دولة أوروبية على الولايات المتحدة في هذا الأمر أو ما يشابهه من كل ما يطلب للخير والإنسانية إلا جاهل غبي، أو

متعصب غوي، أو مستأجر دني، وما كل من طلب مساعدة دولة أخرى ابتداء يفضلها على حكومة الولايات المتحدة في ذلك بل منهم من طلب غيرها لليأس منها، ومنهم من نفر منها بإقناعه بأنها ميالة إلى مساعدة اليهود على امتلاك الأرض المقدسة وجعلها وطناً قومياً لهم. والاستقلاليون يفضلونها على غيرها أيضاً ولكنهم لا يرضون أن يكون لها أدنى سيادة أو سلطان في بلادهم بأي اسم من الأسماء.

وجملة الأقوال في الجمعيات والأحزاب إنها على كثرتها ترجع إلى هذه الثلاثة الأنواع وإن تأليفها كان خساراً على نفوذ فرنسة فقد كان أكثر طوائف النصارى معها فصار أكثرهم عليها فما القول في المسلمين وكلهم استقلاليون إلا الشاذ النادر الذي لا حكم له؟

لجنة الاستفتاء الدولية

كان مؤتمر الحلفاء عزم على إرسال لجنة دولية إلى سورية وغيرها من بلاد الدولة العثمانية لتقف على رأي أهل البلاد في أمر مستقبلها وشكل حكومتها والدولة التي تفضل أن تندب لمساعدتها على الاستعداد للاستقلال المعترف لها به مؤقتاً إلى أن تصبح قادرة على النهوض به وحدها، ثم اكتفي بجعل اللجنة من فضلاء الأمريكيين فأحسن صنعاً لأن هؤلاء أبعد من الأوربيين عن الهوى في هذه المسألة.

طافت هذه اللجنة أمّات البلاد في الولايات والمتصرفيات الممتازة والتابعة للولايات وقابلت في كل منها رجال الأديان والأحزاب والجماعات المنتخبة ومثلى الأندية العلمية والأدبية والجمعيات - فظهر لها أن السواد الأعظم من الأهالي يطلب الاستقلال التام الناجز ولا يرضى أن يكون لدولة أجنبية حماية على بلاده ولا وصاية ولا مساعدة تمس الاستقلال، ويزيد أهل سورية الجنوبية «فلسطين» التصريح بمنع مهاجرة اليهود الصهيونيين الى بلادهم، وأهل سورية الشمالية يوافقونهم على ذلك كما

صرح به الوفد السوري الآتي ذكره وغيره وأنه إذا أصر مؤتمر الصلح على ندب دولة من الدول العظمى لمساعدة الأهالي على النهوض بأمر الاستقلال فيشترطون أن تكون هذه الدولة هي الولايات المتحدة الأمريكية لأنها غير استعمارية ولا طامعة في البلاد وأن تكون مساعدتها مؤقتة لا تزيد على ١٥ سنة أو ٢٠ وأن تكون في الأمور الفنية والاقتصادية التي لا تمس الاستقلال، وصرح بعضهم بعدم قبول المساعدة البتة وبعضهم بطلبها من الولايات المتحدة دون سواها وبعضهم من انكلترا وأكثر هذا الفريق من الدروز، وبعضهم من فرنسة وأكثر هؤلاء من موارد لبنان وبيروت، وما كل الموارد يرضى بوصاية فرنسة ومساعدتها. وأما المسلمون فقد صرحوا في كل بلد بعدم قبول مساعدتها بحالٍ من الأحوال وما شذ إلا أفراداً لا يعتد بهم. ولأجل الفرار من مساعدتها أو وصايتها قال بعض المرجحين لمساعدة الولايات المتحدة إنها إذا لم تقبل فإنهم يرجحون انكلترا على غيرها بالشروط التي رجحوا بها الأولى إذ كان لا بد من هذه المساعدة التي احتجوا عليها وعلى المادة الثانية والعشرين من عهد عصبة الأمم المتضمنة لها.

ذلك بأنه قد ألف في سورية مؤتمر بأمر الأمير فيصل لأجل مقابلة لجنة الاستفتاء وإطلاعها على رأي أهل البلاد ووضع «مشروع» قانون أساسي لها انتخب أعضاؤه في أكثر البلاد من قبل المنتخبين الثانويين الذين انتخبوا نواب البلاد في مجلس المبعوثين العثماني الأخير ومنهم أعضاء من طوائف لبنان كلها لا ندري كيف انتخبوا. ولم يمكن إقناع هؤلاء ولا غيرهم بالرضاء بمساعدة الولايات المتحدة ثم انكلترا بالشروط التي أشرنا إليها إلا بعد أن بثت الدعوة فيهم بهذه الصفة: إن انتداب دولة من الدول الكبرى لمساعدة البلاد على السير في سبيل الاستقلال أمر مقرر في المؤتمر لا مرد له، وإن فرنسة تمت إلى المؤتمر وجميع الدول بدعاوى كثيرة ليندبها لذلك أهمها أن أهل البلاد يفضلونها، وإن لها صنائع يصدقونها ويطلبون مساعدتها،

فاذا اقتصر الأكثرون على طلب الاستقلال بدون مساعدة ما يخشى أن ترجح فرنسا بحجة أن بعض الأهالي يطلبها والآخرين لا يفرقون بينها وبين غيرها. بناءً على هذا وعلى العلم بأن رئيس الحكومة البريطانية صرح بأن دولته لا تقبل الانتداب لمساعدة سورية - لأن ما بينها وبين فرنسا من عهد وميثاق يحول دون ذلك وما هو بالذي يجعل قصاصة ورق - وضع المؤتمر القرار الذي قدمه إلى لجنة الاستفتاء وسنذكره بنصه في مكان آخر من المنار.

إذا لم يكن جميع أعضاء المؤتمر الذي قرر هذا منتخبين من الأمة لينوبوا عنها فيه فقد جعلهم في معنى المنتخبين موافقة أكثر من استفتتهم اللجنة لهم كما شرحته الجرائد السورية في بيانها لأعمال اللجنة في البلاد المختلفة. فجاء ما تقدم كله مصداقاً لما كنا قلناه مراراً لبعض الباحثين معنا من الأجانب والوطنيين، وهو أن السواد الأعظم في سورية يطلب الاستقلال التام المطلق - والله الحمد من قبل ومن بعد.

الاشتراكية والبلشفية والدين



١٣٩

[المنار ج ٢١ (١٩١٩) ص ٢٥٢ - ٢٥٦]

كثرت البرقيات والصحف الأوروبية في البلشفية التي فشت في روسية وما جاورها من أوروبية وآسية فوصفت بأنها عبارة عن فوضى وهرج وسفك دماء وانتهاك أعراض وسلب أموال بغير قانون ولا نظام. ونرى جميع الدول الراقية خائفة من سريانها إلى بلادها، وغلبتها على أنظمتها وقوانينها ودينها وآدابها، فكان هذا الخوف والحذر مما أوجب الريب في

صدق ذلك الذم والقبح فيها، لأن تلك الفضائح المخالفة لكل دين المستقبحة في كل عقل، المبينة لكل أدب وعلم لا يخشى أن تهدم كل دين وأدب ونظام، وسنة الله في بقاء الأمثل والأصلح التي هي أساس سنن الاجتماع، وقد عهد الناس من لسان السياسة ذم الحسن ومدح القبيح وغير ذلك من قلب الحقائق - لهذا نرى الناس يرجون من البلشفية خيراً وإن لم يعرفوا حقيقتها ويودون لو يعرفون معناها ويقفون على أنظمتها.

تحارب انكلترا وأحلافها البلشفية بالقول والمال والدين، وقد كلفت الشيخ محمد بخيت مفتي مصر فأفتى في جواب سؤال بأن البلشفية محرمة في الإسلام وفي كل دين لأنها عبارة عن الإباحة المطلقة للدماء والأموال والأعراض وجعلها عين المزدكية والزردشتية التي ظهرت في أمة الفرس، فرد عليه كثير من الكتاب الأزهريين وغير الأزهريين من الجهة التاريخية والدينية وغير الدينية وكثر خوض الجرائد المصرية في ذلك. ولكن الحكومة المصرية أخذت صورة فتواه الخطية بآله التصوير الشمسي ونقشتها في لوح معدني وطبعت عنها نسخاً كثيرة لم يوزع شيء منها في مصر فالظاهر أنها توزع في بعض البلاد الإسلامية الآسيوية التي سرت إليها البلشفية.

وقد كثر سؤال الناس عن رأينا في البلشفية ما حقيقتها وهل هي ضرر وشر محض كما تقول السياسة والفتوى، أم هل هي خير عام أو خير خاص بقوم وشر على آخرين؟ فنقول:

إن الذي من مجموع ما اطلعنا عليه في البلشفية أنها هي عين الاشتراكية المقصود منها إزالة سلطان أرباب الأموال الطامعين وأعوانهم من الحكام الناصرين لهم الذين وضعوا قوانينهم المادية على قواعد هضم حقوق العمال في بلادهم واستعمار بلاد المستضعفين من غيرهم، وأن معناها الحرفي «الأكثرية» فالمراد منها أن يكون الحكم الحقيقي في كل شعب للأكثرية من أهله وهم العمال في الصناعة والزراعة وغيرها، وذلك بعد إسقاط سلطة أرباب الثراء والكبراء المشايخين لهم. وقد فعلوا ذلك في روسية بعد إسقاط

دولة القياصرة الطاغية الظالمة التي لم يمنع مدعيي الحكومات الديمقراطية من الفرنسيين والانكليز ظلمها وطغيانها من محالفتها والاتفاق معها على اقتسام بلاد العثمانيين والفرس . وقد قام في البلاد من بقايا أولئك القيصريين من يناوئهم ويقاتلهم على السلطة . ومن شأن أهل السلطة في كل بلاد أن يقاوموا الخارجين عليهم فيها بما يمكنهم من الشدة والبأس ، سواء كان ذلك الخروج بحق أو بغير حق ، فإذا كان للمطاعن الشديدة في قسوة البلشفيين هنالك أصل كما هو الظاهر فهذا أحد سببين له وهو سبب لا تستطيع حكومة أن تبرأ نفسها من مثله . والسبب الثاني هو أنهم لم يكونوا متمرنين على الأحكام وكان الزمن زمن فوضى وفتن وفقر عجزوا عن جعل قسوتهم وشدتهم بنظام يمكن لأهله أن يسموها به بضد اسمه .

ونحن نجزم بأن أعمالهم وأنظمتهم لا يعقل أن تكون موافقة لأحكام الإسلام ولا المسلمين المذعنين لدينهم أن يتبعوهم فيها ، ولكن ليس خاصاً بهم بل جميع القوانين الوضعية المتبعة في أوروبا وكذا في الشرق كمصر والدولة العثمانية فيها ما يخالف الشرع الإسلامي ، والمسلمون يتمنون نجاح الاشتراكيين نجاحاً يزول به استعباد الشعوب - وكلهم العمال - وإن كانوا ينكرون عليهم كما ينكرون على غيرهم كل ما يخالف الشرع ، على أنهم غير مطالبين عندنا بفروع الشريعة ما داموا غير مسلمين .

واننا ننشر هنا مقالة توضح ما أشرنا اليه من مقاصد القوم رأيناها في جريدة سورية المتحدة التي تصدر في المكسيك وهذا نصها :

«اقرأ أيها التاجر الكبير ما أكتبه اليوم بإمعان وحكمة فإن خطر الاشتراكية يمدق بكل هذه الكرة الأرضية!

تقول الأمثال اللاتينية «ان صوت الشعب هو صوت الله» أعني أن الأكثرية متى أرادت الحصول على حاجة ضرورية لها أخذتها عنوة واقتداراً لأن الأكثرية هي الحقيقة والحقيقة هي القوة التي لا تقاوم .

تمر الدقائق والساعات والأيام وفي كل يوم تمثل أماننا روايات عديدة تفهمنا أن الحق للقوة وهذه القوة هي الأكثرية كما رأينا في الحرب التي أقامتها ألمانية، إن شعوب الأرض حسبت أن ألمانية تظلم الشعوب والإنسانية بالحرب التي شهرتها على فرنسة وبلجيوم وسربية فانقلبت الأكثرية عليها ولم تخش قوتها العسكرية ولا استعداداتها الحربية من غواصات شيطانية وطائرات جهنمية ومدافع ضخمة وبعيدة المرمى بل حملت عليها من كل حذب وصوب حتى أصبحت الأكثرية ضد ألمانية وهذه الأكثرية هي الحقيقة كما أشرنا في بدء كلامنا.

والرأي العام اليوم أو الأكثرية هو الاشتراكية - والأكثرية هي ترجمة كلمة «بولشفيكي» الروسية - وهذه تطلب بناء أركان ضخمة ودعائم ثابتة عادلة للسلام العالمي وشروط حسنة للعمال في كل أقطاب الأرض.

قلنا ان معنى كلمة «بولشفيكي» هي الأكثرية وهذه هي الاشتراكية التي نحسبها من الأخطار المقبلة.

لا يعجب القارئ إذا قلنا له ان ٩٩ في المئة من سكان الكرة الأرضية هم من الاشتراكيين أو البلشفيكيين وهؤلاء هم الشعب الذي تقول الأمثال إن صوته هو صوت الله، وهذا الشعب هو الذي يقلب الحكام ويشلّ العروش ويسقط الملوك وهو الذي يحمي أموال الغني ونساءه وبناته وأملاكه ومواشيه ومعامله ببنادق أفراده ويضحى حياته في سبيل إكثار أموال الأغنياء وزيادة أرباحهم.

العمل. الشغل. هو نصيحة الآباء لأبنائهم وفي المدارس يسمع التلامذة من معلمهم صدى هذه الكلمة مرات عديدة في كل يوم من أيام حدثهم، وكذلك الحكام يحثون الشعب على العمل لأن به سعادة البلاد وبعكسه خرابها.

قلنا إن الشعب العامل هو ٩٩ في المئة من كل سكان الأرض. وقلنا إن

عليه تتوقف سعادة البلاد وخرابها وإنه هو الذي يرسل في الحروب لإقرار الأمن ولإغاثة المظلوم ومحكمة الظالم. أفلا يجب على الأقل أن تقدر حقوقه وتحترم ويحصل على حاجياته الضرورية؟

تقطع العلاقات الودية بين دولة وأخرى ويكون سبب ذلك طمع الواحدة ببقعة أرض غنية بالمعادن أو خصبة للأخرى وتكون هذه البقعة لأحد الأغنياء، فتسوق الأولى شعبها برمته لساحة الحنف والفناء دفاعاً عن تلك البقعة لتحفظها للغني.

وتسوق الثانية كل شعبها لساحة الموت والدمار لتنتزع تلك البقعة وتبيعها من ممول آخر في بلادها.

يترك العامل فأسه أو محراثه أو منشاره أو مطرقته ويترك زوجته وأولاده وعائلته وبيته عرضة للجوع والعري والإهانة ويعتقل البندقية لملاقاة الموت الزؤام بين لعلعة المدافع وصفير البنادق ودوي انفجار الألغام وصليل السيوف وانفجار ينابيع الدماء للدفاع عن أموال الغني وأرضه ومناجحه ومعامله والغني يخطر مشمخراً بين النمارق الوثيرة يعاقر كؤوس الخمر، ويتربع فوق الطنافس الناعمة لمداعبة ناحلات الخصور!!

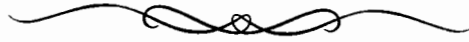
يفعل الشعب كل هذا باسم الوطن وهو لا يملك من هذا الوطن شروى نقيير فيعود من المجزرة البشرية مقشعر الشعور شائب (?) الرأس ناحل الجسم عليلاً فيجد أولاده وزوجته فريسة الجوع والبرد والإهانة فتقول له الحكومة إذهب واشتغل وهكذا يقضي العامل الفقير أيام حياته بين الفأس والمحراث لا يكسب من وراء عمله أجوراً عادلة ولا يحصل إلا على اليسير من رديء الغذاء وفضلات الكساء.

مضت العصور والأجيال والشعب يتحمل كل هذا الشقاء والعناء ويحاول كسر نير الأغنياء الفولاذي فتضربه الحكومات وهن شريكات

الأغنياء بجرائمهم ومعاصيهم فيرضى بجورهم عن خوف ورهبة لا عن عدل ورحمة .

أما الآن ، فالشعب هو غير ما كان عليه بالأمس فهو الذي يقبض على القوة المسلحة ويدير حركتها ويقبض على السلاح والذخائر والخطوط الحديدية والمواصلات ومئة مليون روسي في أخصب بقع الأرض وأغناها بالمعادن وزيت البترول والفحم الحجري تؤيد مطالب العامل وتؤلف أول حكومة شعبية في الأرض دعك إن شعوب أواسط أوروبا أعلنوا انضمامهم للحكومات الشعبية وكذلك نرى العمال في فرنسا وإيطاليا وسويسرة وفي كل أوروبا وأميركة وآسية يطلبون إسقاط حكوماتهم وإنشاء حكومات شعبية «بولشفيكية» وهم لا يخشون حكوماتهم لأن منهم الجندي والبندقية بيده ومنهم البحار والسفينة وكل ما بها يتقيد بأمره ومنهم سائق القطارات وصانع المدافع والقذائف بل أن كل شيء بيده وعليه يتوقف انقلاب الحركة الأرضية والثورة العامة لإيجاد العدالة وإقرار السلام . ولا يتم هذا إلا بإنشاء الحكومات الشعبية التي تشعر بحاجات الشعب وتعترف بلوازمه .

نعم ، إنه لا يستطيع إنشاء حكومات شعبية إلا بعد أن تتبعثر ثروة الأغنياء وذلك لمقاومتهم ومناوئتهم لمطالب الشعب العادلة فيضطر هذا لأخذها بالقوة والإرغام فيتضرر الأغنياء في كل أقطاب المسكونة ولكن الشعب لا يظلمهم بذلك بل ان طمعهم بإبقاء سيطرتهم المطلقة ينتج لهم هذه النتيجة .





[المنار ج ٢١ (١٩١٩) ص ٢٧٤ - ٢٧٧]

لا ينتقل شعب من طور إلى طور أعلى منه أو أدنى إلا بسير اليه مقدر في الواقع ونفس الأمر تقديراً تكون فيه المسببات بقدر الأسباب، وسواء كان ذلك السير بتأثير حوادث الزمان وتقلب شؤون الاجتماع التي لا يشعر جمهور الشعب بها ولا يفطن لما يترتب عليها من العواقب النافعة أو الضارة، وإنما يشعر أفراد منه ببعض أحداث التغير في الأعمال والعادات فيحمدوها اناس ويذمها آخرون، ولا يصل نظر الحامد ولا الذام إلى ما سيكون من مستقرها في مستقبل الأيام - أو كان السير بنظام موضوع لغرض مقصود وقواعد من الزعماء ألفوا الجمعيات وحزبوا الأحزاب، ونفحوا أنظمة التربية وبرامج التعليم - أو كان مذبذباً بين هذا وذاك.

أما الحال الأولى فهي حال تطور الشعوب الجاهلة التي ليس فيها زعماء حكماء يقودونها في سيرها على علم بسنن الكون وشؤون الاجتماع، بل ينتقل إليها تغير الآراء وتجدد الأفكار والأنظار من شعوب أخرى على سبيل الاتفاق أو على سبيل القصد من تلك الشعوب، كما هو شأن الشعوب القومية المستعمرة مع الشعوب الضعيفة التي تطمع في بلادها فإنها تتعمد أحداث التغير في عقائدها وآرائها وعاداتها بالقدر الذي تحل به روابطها الاجتماعية وتفسد عليها مقوماتها ومشخصاتها القومية، فتصبح منقسمة على نفسها، ويمجد الطامع فيها ما يطلب من الأعوان له عليها آناً بعد آناً.

قال اللورد سالسبوري إن مدارس المبشرين أول خطوة من خطوات الاستعمار فهي تحدث في البلاد التي تنشأ فيها انقساماً وتفريقاً بين أهلها

يفقدون به وحدتهم فيكونون عوناً للمستعمر على أنفسهم - أو ما هذا مؤداه وجاء في الجزء الكبير الذي خصصته مجلة [العالم الاسلامي] الفرنسية -، في مبحث «فتح العالم الاسلامي»^(١): إن المدارس التي أنشأها المبشرون في الآستانة وغيرها من البلاد العثمانية قد كان تأثيرها في حل المسألة الشرقية أعظم من عمل جميع سفراء الدول ومعتمديهم السياسيين.

وأما الحال الثانية فهي حال الشعوب العلمية الراقية ذات الزعماء الحكماء الذين يعرفون أمراض الاجتماع وعقله، فيداون أمراضه ويصلحون خلله، ويكملون نقصه بما يهديهم إليه العلم بسنن الله في خلقه، فيزداد كمالاً أو يعجزون عن ذلك فيعود إلى الضعف والفساد.

وأما الحال الثالثة فهي حال الشعوب المخضومة بمشابهتها للجاهلة الساذجة من وجه وللعلمية من وجه آخر، وهي الشعوب الضعيفة ذات العلم التقليدي الناقص كأهل البلاد التي بثت فيها تعاليمهم وآراءهم فتبعتها تقاليدهم وعاداتهم ففترق أهلها شيعاً وأحزاباً مختلفة متدبرة يعد كل منها الآخر ضاراً للبلاد ومفسداً لأهلها، وتكون فيها زعماء بالتكلف والتحزب يعملون للكسب والشهرة لا للمصلحة العامة بل يجاهدون من هم أولى بالزعامة وأقدر على النهوض بالأمر منهم إلى أن يغلب فريق منهم الآخر باستمالة الرأي العام اليه. ليس المقام مقام بيان شؤون كل شعب من هذه الشعوب على التفصيل وإنما المراد من هذه المقدمة تذكير القارئ بأن ما نعينه بالتطور هو انتقال الأمة من طور إلى طور وإنما يكون بسير اجتماعي منه ما هو صناعي كالذي يكون بسعي زعماء الأمم الراقية، ومنه ما هو طبيعي ظاهر لبعض أهل البصيرة والعلم، أو خفي لا يعلم به إلا

(١) هو جزء شهر نوفمبر/تشرين الثاني سنة ١٩١١ م ونشرت ترجمة المقالة في المنار بعنوان «الغارة على العالم الإسلامي» فليراجع المجلد ١٥ سنة ١٢٢٠ هـ. من المنار. المنارج ١٥ (١٩١١ - ١٩١٢) ص ٢٥٩ - ٢٦٩ : وص ٣٦٩ - ٣٨٦ : وص ٤٤٢ - ٤٤٨ : وص ٥١١ - ٥٢٤ : وص ٦٠٥ - ٦١٩ : وص ٦٦٧ - ٦٨٢ : وص ٧٦٤ - ٧٨٠ .

بعد ظهور أثره كتفجير الينابيع بعد تجمع الماء بالسريان في باطن الأرض،
أو بين الجلي والحفي كسير الظل .

ثم إن سير السنن الاجتماعية الذي يكون به التطور قد يكون بطيئاً لا
ينتهي إلى غايته إلا في عدة أجيال، وقد يكون سريعاً بما يحدث في العالم
من كبر أحداث الاجتماع، كظهور الاسلام في العرب الأميين، الذي
أحدث أكبر انقلاب اجتماعي في جميع العالم القديم فكان له ذلك الأثر
العظيم في آسية وأفريقية وأوروبة باحياء موات العلم ودارس الحضارة،
وكالثورة الفرنسية التي زلزلت ما كانت عليه دول أوروبة من الاستبداد
والاستعباد، وكحرب المدنية العامة الأخيرة التي زلزلت جميع الأمم
والشعوب أشد زلزال، ومخضت العالم البشري مخضاً لم يتم تكوين زبده إلى
الآن وجميع الأمم والشعوب شاخصة الأبصار متلعة الأعناق مصيخة
الأسماع ترتقب النتيجة التي يجتهد أولو الأطماع المتداعون على افتراس
الشعوب الضعيفة كتداعي الجياع إلى القصاع في جعلها شر بلاء أصيب به
البشر، بعد أن ملأوا الأرض صياحاً بأنهم ما حاربوا إلا لتحرير البشر .

كانت مصر مستقلة استقلالاً داخلياً تاماً تحت سيادة الدولة العثمانية -
التي لم يكن لها أدنى تدخل في إدارة مصر الداخلية - وكانت أوروبة كلها
مصدقة على هذا الاستقلال ولدولها في البلاد معتمدون سياسيون، وكان
الاحتلال الانكليزي الذي وقع بطلب أمير البلاد ورضاء الدولة صاحبة
السيادة مؤقتاً لم يناع في استقلال البلاد ولا في سيادة الدولة عليها ووعدت
الدولة وعوداً رسمية كثيرة بأنه لا بد من الجلاء عنها وتركها لأهلها، ولكنها
في أثناء الحرب أعلنت الحماية عليها، وجعلتها ميداناً حربياً وأباحت
لسلطتها العسكرية أن تتصرف فيها تصرف المالك، فلما عقدت الهدنة
هب المصريون للمطالبة باعتراف إنكلترة وسائر الدول - التي تعقد الصلح
بين الأمم - لها بالاستقلال التام وتألف وفد منها للسعي إلى ذلك اختار
سعد باشا زغلول الشهير بصدق الوطنية والشجاعة الأدبية وقوة العارضة

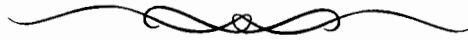
وسعة المعارف في القوانين رئيساً له، وأخذ الوفد وثائق كثيرة من المصريين الذين يمثلون الرأي العام المصري باستنابته عنهم كاعضاء الجمعية التشريعية ومجالس المديریات والبلديات وسائر طبقات الأهالي، وطفق يخاطب بذلك الحكومة البريطانية والرئيس ولسون وسائر الدول بواسطة وكلائها السياسيين. ثم عقد الوفد اجتماعاً عاماً في دار وكيله حمد باشا الباسل خطب فيه الرئيس والوكيل وغيرهم في بيان حقيقة المسألة المصرية وما تطلبه البلاد من الاعتراف لها بالاستقلال، وأراد الرئيس عقد اجتماع آخر في داره فمنعته السلطة العسكرية البريطانية من ذلك ثم اعتقلته مع الوكيل المذكور وعضوين آخرين من أعضاء الوفد هما محمد باشا محمود سليمان واسماعيل صدقي باشا وأرسلتهم إلى مالطة، فهاجت الأمة المصرية لذلك هياجاً وقامت بمظاهرات عظيمة في القاهرة والاسكندرية وغيرهما من المدن، وهاج الفلاحون وقبائل العربان وقطعوا أسلاك البرق وقلعوا خطوط حديد السكك ودمروا بعض محطاتها حتى صار الهياج ثورة عامة، واستقالت وزارة حسين رشدي باشا احتجاجاً على مصادرة الحرية الشخصية بنفي من ذكر من أعضاء الوفد وتعذر على السلطة تأليف وزارة جديدة.

وكان حسين باشا قد طلب قبل ذلك كله من الحكومة الانكليزية الأذن له ولعدلي باشا وزير المعارف بالسفر إلى إنكلترة لمفاوضة أولي الأمر فيها بما سيكون عليه شكل الحكومة المصرية بعد الحرب التي عاونت البلاد المصرية وحكومتها فيها السلطة البريطانية أعظم معاونة شملت زهاء مليون شاب مصري ساعدت السلطة الانكليزية العسكرية على الأعمال الحربية في فلسطين حتى انها كانت تسمى الحملة التي فتحت القدس الشريف «الحملة المصرية» وهذا الفتح هو الذي قال فيه المستر لويد جورج رئيس الوزارة الانكليزية إنه آخر حرب صليبية. وساعدتها كذلك في العراق وفي مواضع أخرى وناهيك بالمنافع المالية بأنواعها. ولكن الحكومة

الانكليزية أرجأت طلب الوزيرين أولاً ثم أرادت أن يسافرا فأبيا إلا أن تأذن للوفد المصري بالسفر أيضاً فصدر الأمر من لندن بالأذن لهما ولن شاء من المصريين ومنهم الأربعة المعتقلون في مالطة .

فلما ظفر المصريون بالأذن لوفدهم بالسفر نظموا مظاهرات أخرى اشترك فيها جميع طبقات الأهالي حتى النساء المخدرات فكن يطفن بسيارتهم ومركباتهن المزينات بالأعلام والرياحين ويهتفن مع الهاتفين : لتحى مصر، ليحى الاستقلال التام، ليحى سعد باشا زغلول، ليحى أعضاء الوفد المصري، الخ .

وقد حاولت السلطة العسكرية البريطانية منع المظاهرات الأولى والآخره فلم تفجح حتى أنها أطلقت رصاص البنادق والمدافع الرشاشة مراراً كثيرة على المتظاهرين فلم يثنهم ذلك عن تكرار المظاهرات بل منهم من قاوموا الجنود وقتلوا منهم كثيرين، ولكن من قتلهم الجنود أكثر بالطبع وقد قدرت السلطة من قتل في الشوارع بزهاء الف نسمة منهم الكبير والصغير. وليس غرضنا من هذه الخلاصة تحرير تاريخ هذه الحوادث ولا وصفها وصفاً شعرياً لأجل التأثير وإنما غرضنا أن نجعلها مقدمة لما هو مقصدنا بالذات لما ترتب عليها من التطور الديني باتفاق المسلمين والقبط وجعل الأزهر معهد السياسة الأكبر في مصر والتطور الاجتماعي بدخول النساء في المظاهرات السياسية والقائهن الخطب في الشوارع والأسواق فهذا أهم ما يُعنى به المنار .



[المنار ج ٢١ (١٩١٩) ٢٧٨ - ٢٨٠]

إن المعقول المتبادر من حكمه الله في نعمة النطق ومزية الكلام التي ميز بها الإنسان وفصله من سائر أنواع جنسه الحيواني هو انها التعبير عما في النفس من العلم ليتعاون الناس بافضاء كل بما في نفسه إلى غيره على تكميل علومهم وتحسين أعمالهم. ولكن الاشرار منهم كفروا هذه النعمة بما أساؤا من استعمالها في الكذب والأفك والخلافة حتى قال بعض الأذكياء إن حكمة الكلام وفائدته إخفاء ما في النفس وصرف الأذهان عن الحقائق. وقد أجمع الناس على ما هدت إليه الأديان وقرره الحكماء من مدح الصدق والصادقين، وذم الكذب والكاذبين، إلا ما قيل في حال التعارض بين مفسدة الكذب في مسألة معينة ومفسدة أخرى أكبر منها كالكذب على صائل ظالم يريد قتل بريء محترم الدم بما يصرفه عن قتله إنكار المكان الذي يوجد فيه أو غير ذلك، والإسلام يهدي في مثل هذه الحال إلى التفصي من الكذب بالتعريض، ففي حديث عمران بن حصين في البخاري «إن في المعارض مندوحة عن الكذب» ولكن كثيراً من الناس ينظمون في سلك هذا الاستثناء ما ليس منه كالتعارض بين الصدق وما يخشونه من فوت بعض شهواتهم ومطامعهم غير المشروعة به فيستريحون الكذب للتوسل به إلى تلك الشهوات والمطامع الشخصية أو القومية.

للصوص وقطاع الطرق والسطار المحتالون وشهداء الزور وأصحاب الدعاوى الباطلة ووكلاؤهم كل أولئك وأمثالهم يكذبون لأجل مطامعهم الشخصية. ورجال السياسة من الأمراء والوزراء والسفراء ومن دونهم من الوكلاء السياسيين وكتابهم وجواسيسهم - كل أولئك يكذبون لأجل مطامع

دولهم ومنافع أمهم، والفريقان يذمان الكذب مع الدامين، ويمدحان الصدق مع المادحين، ولا يعترف أحد منهم بأنه يكذب لدفع الضرر عن نفسه أو قومه أو جلب النفع لهم كما يعترف من كذب تصريحاً أو تعريضاً لدفع الصائل الظالم عن البريء إلا أن يكون الاعتراف من بعض المشتركين في هذا الإثم لبعض أو لمن يعلم حالهم ممن له صلة بهم.

من عجب أمر الإنسان أن الكذب والأفك وقول الزور وطمس معالم الحق وتشديد صروح الباطل لم يكن مقصوداً على المتكالبين على الشهوات الدنيوية، والمطامع المالية والسياسية، بل تجاوزهم إلى رجال الأديان ورجال المذاهب من أهل الدين الواحد، وهم أجدر بالصدق والتزام الحق، ولكنهم جعلوا الدين الذي موضوعه الهدى وتزكية النفس بالاعتقاد الصحيح والفضائل وسيلة للمال والجاه، فصاروا كطلاب المنافع والشعوب.

وأعجب أمر هؤلاء وأغربه أن فيهم أناساً يتعمدون الكذب على خصومهم، واستباحة أفحش ما حرمة دينهم في سبيل عداوتهم، لا يبتغون بذلك مالاً ولا جاهاً بل يقصدون التقرب به إلى إلههم، معتقدين أنه يرضيه كل ما فيه إيذاء أعدائه، وإن كان من الباطل والشر الذي حرمة على أبنائه وأحبائه في معاملة بعضهم لبعض. ومن كان يظن في ربه وإلهه حب الباطل والشر والرضا بهما فكيف يطمع منه عدوه بالتزام حق أو عمل خير، أولئك الذين يقولون أن المقاصد والغايات الحسنة، تبيح الوسائل المحرمة والمبادي السيئة. وإن الباطل قد يوصل إلى الحق، والشر قد يؤدي إلى الخير، أي أنهم يختارون أن يكونوا مبطلين أشرار مجرمين في الحال ليصيروا أختياراً في المال.

إذا كان علماء الأديان وأولياؤها، وشيع المذاهب وأنصارها، يؤلفون الكتب ويدونون الأسفار، في تضليل المجادلات والمشاغبات، ليؤيد كل فريق منهم ما يوصف به وينتمي إليه منها، فهل يكثر على عبيد المال،

وعشاق العظمة والجاه، ومنهومي اللذات والشهوات، ومفتوني السلطة والسيادة، أن يقبلوا جميع الحقائق ويستحلوا جميع المحارم، في سبيل التمتع بتلك اللذات، والعلو في تلك الدرجات، والإشراف على الأمم والشعوب بالأمر والنهي. وغير ذلك من التصرف والتشريع الذي هو شأن الرب عز وجل؟

إن دولة الكلام المؤيدة بجحافل الكذب والزور والبهتان، والأفك والافتراء، والأخلاق والاختراق، والخلافة والتمويه والتلبيس والتدليس، تترقى بترقي الحضارة وتبدل بتدليها، وتتسع باتساع دائرة العلوم والمعارف وتضييق بضيقها، فهي مساوقة لدولة الأحكام مؤيدة لها.

الكذب شر الرذائل على الإطلاق، فهو مفسد الأديان والتواريخ، ومزيل الثقة بين الأفراد والجماعات، ومولد الفتن والحروب بين الأمم، وقلما تستغنى رذيلة من الرذائل أو فتنة من الفتن عن شد أزرها بالكذب أو أحد جنوده، وحملة بنوده، وما ألجأ الناس إلى الكذب على شدة قبحه وفحش ضرره والإجماع على ذمه إلا عدم التناصف بينهم وترك تحكيم العدل فيما تتعارض فيه منافعهم، وتتنازع منازعهم، والأصل في ذلك أن الضعيف هو الذي يكذب على القوي الذي لا ينصفه أو لا يواتيه، والقوة والضعف أنواع شتى، فكم من قوي في شيء ضعيف في غيره، فإذا رأيت السيد يكذب على عبده، والمخدوم على خادمه، والأمير على السوق، فلا تظن أن هذا جاء على خلاف الأصل، فإن في هؤلاء السادة المخدومين، والأفراد الحاكمين، ضعفاء في الأخلاق وقبائح الأعمال، فيتحرون كتمانها عن خدمهم واتباعهم فلا يجدون وسيلة لذلك إلا الكذب أو التلبيس والتمويه فيلجئون إليه صاغرين.

الحكومة المستبدة تعلم الشعب الضعيف الخاضع الكذب والرياء حتى يصير ملكة له يفسد عليه أمور دينه ودنياه، وقلما يحتاج رجال هذه الحكومة إلى الكذب على شعبهم المسكين لأنه خاضع لكل ظلم قابل لكل ضيم،

وإنما يكذب الضعيف على القوي الجائر الذي لا يرضى بالحق، ورب قوي في شيء ضعيف في غيره فيكذب فيما هو ضعيف فيه. ومن هذا النوع حكومات الأمم القوية بالعلم والنظام والاحزاب السياسية، فكل حكومة من هذه الحكومات تكذب على نواب أمتها ورؤساء أحزابها في كل ما تعلم أنه لا يرضيهم من أعمالها الاستعمارية وسياستها الخارجية وغير ذلك. ويستتبع ذلك الكذب على أهل المستعمرات وإلباس كثير من الأعمال ثوب زور، والكذب على أهل العلم والرأي لا يرجى أن يروج إلا بلبس الحق الذي تخشى مغبة ظهوره، وكذلك كذب الحكومات القوية بالعلم والاستعداد الحربي بعضهم على بعض - فلذلك صار الكذب فناً من أدق الفنون وركنا من أركان السياسة.

وليعتبر القارئ في ذلك بما نشرناه من قبل من أقوال أقطاب ساسة الحلفاء وكبار وزرائهم في الأسباب الحاملة لدولهم على الحرب وأساسها حرية الشعوب واستقلالها، ومن خطب الرئيس ولسن في ذلك ووجوب تعميمه في جميع الأمم والشعوب في الشرق كالغرب ومن قواعده الأربع عشرة التي وضعها لبناء صرح الصلح العادل عليها. فقبلها المتحاربون. ثم «ليعتبر» بمعاهدة الصلح الكبرى التي نشر خلاصتها في المنار وبما تنقله البرقيات والجرائد الأوروبية من التنازع والمساومة بين الحلفاء على اقتسام البلاد التي نص في معاهدة الصلح على الاعتراف لها بالاستقلال المطلق مع اشتراط قبول المساعدة التي ترضاهما بنفسها من الدولة التي تختارها لمساعدتها وما ذكر لفظ المساعدة إلا لجعله محلاً لا امتلاك البلاد واستعباد أهلها باسم جديد يزعمون أن معناه لا ينافي بالاستقلال المقرر والقواعد التي يبنى عليها، وإذا شئت تفصيل هذا الإجمال فانظر ذلك المقال الذي كتبناه منذ بضعة أشهر في «الاستقلال» وتعذر نشره وقتئذ في كل من مصر والشام.

[المنار ج ٢١ (١٩١٩) ص ٢٩٧ - ٣٠٤]

الاستقلال، ما الاستقلال، وما أدراك ما الاستقلال؛ الاستقلال كلمة تدور في هذه الأيام، على ألسنة الشعوب والأقوام، فيظن أنها مما يشترك في فهم كنهه الخواص والعوام، وما هذا الظن إلا من بعض الآثام.

الاستقلال كلمة من كلم السياسة وهي من الأسماء الأجناس المنقسمة إلى أنواع كالاستقلال السياسي والاستقلال الإداري والاستقلال الاقتصادي، وكان يظن أن إطلاق لفظ الاستقلال أو وصفه بالتام يشمل جميع أنواع هذا الجنس بحيث يكون الشعب الذي يطلبه لنفسه وتعتز به الدول حراً في جميع أنواع التصرف في حكومته لا فرق بينه وبين الدول الكبرى كانكلترة وفرنسة أو الصغرى كسويسرة والبرتغال. وقد كانت الدولة العثمانية من الدول الكبرى المعترف لها بالاستقلال التام المطلق ولكننا رأيناها عاجزة عن زيادة ضريبة المكس الجمرك على ما يرد من صادرات الممالك الأجنبية وعاجزة عن تنفيذ قانون وضعته للمواد الكحولية، أقره مجلس الأمة وصدرت به الإرادة السنية، ذلك بأن الدول الكبرى عارضت في هذا وذاك. وما فتح للدول باب الافتيات عليها إلا تلك الإمتيازات التي كان أصلها منحة من القوي للضعيف وعطفاً عليه وتساهلاً في معاملته عملاً بهداية الشرع الإسلامي. ورأينا في أثناء هذه الحرب تصرفاً أغرب من هذا. ذلك التصرف الذي قام به دول الاحلاف في بلاد اليونان المستقلة أتم الاستقلال باعترافهم حتى أفضى إلى خلع

ملكهم واخراجه من بلاده، وحجتهم في ذلك أنه خالف دستور البلاد وهم ضامنون له.

ما كل من يلوك كلمة الاستقلال بفمه أو يرسمها بقلمه بين كلمه، فهو مدرك لمعناها عند أهلها، وما كل من يدعي في أنه طلب الاستقلال لقوم فهو مخلص لهم ساع لخيرهم، بل رب ساع لاستقلال القوم في الظاهر وهو إنما سعى لاستعبادهم، سواء كان منهم أو أجنبيا عنهم، ومن كان في شك من ذلك فليعتبر بما نقلته إلينا البرقيات والصحف عن ساسة أوربة في أثناء هذه الحرب من وضع هذه الكلمة في موضعها أو تحريفها عنه

قال رئيس الوزارة الإيطالية في خطاب ألقاه في مجلس الشيوخ عند البحث في مسألة احتلال الجرمان للبلاد الروسية والبحث معها في الصلح على قاعدة «استقلال الشعوب كلها وعدم الضم والغرم» ونقلته الجرائد المصرية في أوائل يناير (ك) ١٩١٨ ما ترجمته بالعربية:

«ان دولتي الوسط أعلنتا أنها لا تنويان إزالة الاستقلال السياسي من البلاد التي احتلتها. فكلمة «الاستقلال السياسي» لا تنفي الإعتداء على الاستقلال الآخر كالاستقلال الاقتصادي مثلاً ولا تضمن أيضاً عودة المملكة المستقلة إلى جميع أراضيها كاملة. أضف إلى ما تقدم أن كلمة «استقلال الشعوب» كلمة مبهمة لا تزيلها الشكوك وما تضره دولتنا الوسط من المطامع فإنها تقولان إنها لا تريدان ضمّاً بالقوة. ومفهوم ذلك إنها تريدان ضمّاً بغير القوة. فمتى يمكن إذاً وصف الضم بالقوة؟ الجواب عن ذلك أن الأمر معلق على وجود القوة وعلى شكل الخيار الذي يعرض على الشعوب الموجودة تحت نير الغازين» اهـ المراد منه. ونزيد عليه أن الوزير صرح بان الشعب الذي يراد استفتاءؤه في أمره وحكم نفسه لا يعتمد على رأيه إلا بعد سحب القوة الأجنبية المحتلة لبلاده

وكما يتلاعب السياسيون بلفظ الاستقلال تفسيراً وتأويلاً واستنباطاً من

العوامل والنعوت والقيود التي يجرونها عليه يتلاعبون أيضاً بما يقابله من ألفاظ الضم والفتح والحماية والرعاية والاحتلال الموقت وغير الموقت والمساعدة. ولما اقترح أحرار الروس وجوب بناء عقد الصلح على قاعدة استقلال جميع الشعوب الكبيرة والصغيرة وعدم الضم والغرامة أي عدم ضم أي دولة بنفسها شعباً من بلاد غيرها. ودول التحالف الجرمني يومئذ في أوج مجدها - استحسنت حكومة الولايات المتحدة وكذا دول الحلفاء هذه القاعدة وطفقوا يتباحثون فيها. إلا أن مستر سكويث رئيس الوزارة البريطانية، قبل مستر لويد جورج بين أن لضم البلاد في معجم (قاموس) السياسة أربعة معاني:

١ - ضم بعض البلدان لتحرير الشعوب الراسفة في قيود الظلم واغلال الاستبداد وهو أمر مشروع - وعده من أغراض القتال لهم.

٢ - ضم البلاد التي تحتوي على أجناس - فصلت عن أصولها بارجاع الفرع إلى أصله.

٣ - الضم لأجل الاحتفاظ بمواقع حربية تكون ضرورية للدفاع لا للهجوم.

٤ - الضم بمعنى فتح البلدان للتوسع والتبسط للسؤدد السياسي والربح الاقتصادي وقال: ان هذا الأخير وحده لا يلقي شيئاً من التأييد في بريطانيا ولا بين حلفائها.

ونقول إن هذا أمر لا يعرف إلا بالنية إذ لا يدعيه أحد في هذا العصر، بل كل من حاول أخذ شيء من أرض غيره يدعي حسن النية فيه ويحاول تطبيقه على أحد الثلاثة الأولى من معانيه وهو ما أنكر رئيس الوزارة الإيطالية على الألمانية والنمسة فيما أشرنا اليه من خطبته آنفاً. متى كانت السياسة من الأمور التعبدية أو مقامات الصوفية حتى يحكم فيها أو عليها بحسن النية؟ كلا! إنها تأويلات السياسة التي تجعل الحرام حلالاً والحلال

حراماً يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً، فمن تدبر كلام الوزيرين الإيطالي والبريطاني يظهر له أنه لا ينبغي للعاقل البصير أن يغتر بظواهر كلام السياسين إذا أطلقوا كلمة «الاستقلال» أو الحرية و«تحرير الشعوب والامم» فيظن أنها تنافي ما يقابلها أو يضادها من الاستعباد أو الاستعمار أو الضم باسم الحماية أو الرعاية أو المساعدة المؤقتة أو المطلقة، فإن الكلم يستعمل عندهم استعمالات مجازية، ويختلف معناه حتى بما لا يمكن اطلاع أحد عليه وهو النية. فإن قيل لهم إن الأصل في الألفاظ المطلقة أن تحمل على معانيها الحقيقية تفصوا من ذلك بصرف اللفظ عن حقيقته بالقرائن اللفظية أو المعنوية.

فاذا طلب شعب من الشعوب من مؤتمر الصلح الاعتراف باستقلاله مع مساعدة بعض الدول على النهوض بشؤون استقلاله كان ذلك عندهم دليلاً على أنه يطلب استقلالاً مجازياً أي تصرفاً ناقصاً مقروناً بمساعدة أجنبية من شأنه أن يؤول إلى الاستقلال التام الحقيقي الذي هو عبارة عن نهوضه بأمر حكومته وحده (على حد «إني أراي أعصر خمرًا» أي عنياً يؤول أمره إلى أن يكون خمرًا إذا هو لم يفسد فيستحيل خلا).

فاذاً يجب أن يقيد الطلب الذي يراد به الحقيقة بوصف الاستقلال بالتام المطلق الناجز. وبعدم شيء ينافيه ويعد قرينة على مجازيته، وأن يصرح الشعب الطالب بأن لا يقبل أن يكون لدولة من الدول صفة رسمية لا قولية ولا فعلية ولا امتياز في بلاده، وأن يكون أمر أمته بيدها وحكمها نيابياً لا يعتد فيه إلا بما يقرره مجلس نوابه فيها.

بهذا البيان يظهر لغير المتمرس بالسياسة ما يراه من التناقض أو التعارض في الاتفاق الفرنسي البريطاني على بلاد الشعوب العشمانية غير التركية كبلادنا العربية المعبر عنه باتفاق سنة ١٩١٦ الذي أعلنه بباريس السرمارك سايكس باسم الحكومة الانكليزية والمسيو بيغو باسم الحكومة الفرنسية في أواخر ديسمبر (ك١) من تلك السنة ثم أعلنته الحكومتان رسمياً

في ٨ نوفمبر ٢) من السنة الماضية، فقد صرح ممثل انكلترا بباريس «بأنه لا يعقل أن يستقل الحجاز وتبقى سورية غير مستقلة وصرح عقيبه ممثل فرنسا في خطبته بأن الدولتين متفقتان على تحرير الشعوب غير التركية من النير التركي في آسية الصغرى مهما كانت أديان هذه الشعوب وأناسها وتهيئتها لمستقبل أحسن من ماضيها وللسير بها في طريق الاستقلال بالحكم وفي سبيل الحضارة مع احترام العقائد الدينية وحقوق الوطنيات. وستعمل كل من الدولتين في منطقة نفوذها وسيكون الدور الذي تمثله فرنسا وانكلترا دور دليل لتحسين حالة المستقبل ودور حكم بين الجماعات الدينية والجنسية والأولى مستعدة بهذا الدور في الشمال والثانية في الجنوب» اهـ

فعلم من هذا التصريح أن التحرير الذي يقولونه هو تحرير مقيد بكونه خاصاً بإزالة سلطة الترك لا مطلق. وإن الاستقلال الذي وعدوا به عبارة عن قيادة البلاد في طريق الاستقلال لا الاستقلال الحقيقي الناجز وتستغني بهذا عن شرح البلاغ الذي نشر في ٨ نوفمبر والجمع بين ما فيه من تعارض بين إعطاء أهل بلاد السورية والعراقية حق الاختيار لشكل حكومتهم وبين ضمان الدولتين للجميع قضاء عادلاً واحداً ومساعدة الحكومات والمصالح الأهلية على الأمور العلمية والاقتصادية وإزالة الخلاف والتفرق من بينهم، فإن هذا لا يكون إلا بتوليها إدارة البلاد.

هذا وإنما لفظ الاختيار في البلاغ لتطبيقه على قواعد الدكتور ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة التي وضعها لصالح الأمم فإنه صرح بأنه يجب استفتاء كل شعب في أمره، وأن لا تحكم بلاده إلا بما يختاره لها، وأنه ليس لدولة من الدول حق تمتاز به في بلاد غيرها بدعوى أخرى؛ وبأنه يجب تأسيس عصبة من الأمم تضمن تنفيذ شروط الصلح ودوام السلم وحقوق الأمم المستضعفة وتقوم بما يلزم لها من المساعدة».

وقد قرأنا أخيراً في البرقيات والجرائد الباريسية تصريحاً لرئيس الوزارة الفرنسية بأن مسألة الولايات العثمانية العربية وغيرها ستعرض على مؤتمر

الصلح فيكون حكمه فيها هو الفصل، وأن وفاق سنة ١٩١٦ كان وفاقاً مؤقتاً والحالة الحاضرة فيها أيضاً. وقد كتب هذا الرئيس كتاباً بهذا المعنى نشر في العدد من جريدة المستقبل التي تصدر في باريس بالعربية خدمة الحكومة الفرنسية.

بعد هذا كله نعجب لبقاء بعض السوريين مختلفين في أمر مستقبل بلادهم وزعم بعضهم أن وفاق سنة ١٩١٦ كالقضاء الإلهي المنزل، لا يتحول ولا يتزلزل، فيجب إظهار الرضاء به. والسبق إلى نيل الزلفى عند الحكومتين التي فوض إليها أمرهم بزعمهم، ومن مقاومة آخرين لهؤلاء بطلب تفويض أمر تنظيم البلاد الى دولة أخرى غير الدولة التي يزعم أولئك أنها صارت أو ستصير مالكة أمرهم، قصارى ذلك التنازع والتفاضل بين دولتين، بحجة إرتكاب أخف الضررين، وما أغنانا عن كل منهما، فكيف نتخير فيهما.

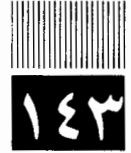
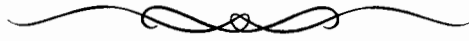
وأعجب من هذا أن كل فريق يزعم أنه يطلب الاستقلال والخير لوطنه في الحال والاستقبال ولا شك في أن فيهم المخلصين وغير المخلصين.

ويسرنا أن السواد الأعظم من أهل البلاد لا يرضى لنفسه إلا الاستقلال التام الناجز والحرية الكاملة الناجزة لا مجرد الاطلاق من قيد سلطة ضعيفة عاجزة لتحل محلها دولة قادرة وإنما كان بعضهم يغش أو يخلط فقيّد رغبته بقيود يحسبها نافعة غير ضارة، ولكن الأمر قد انكشف وظهر فلا يخفى إلا على أكمه لا يبصر القمر وشرط صحة اقرار العلم والاختبار فالواجب الآن أن يكسر المقيّد قيده الذي تقيد به قبل العلم بأن أمره بيده وحرية القول والكتابة، في الإقرار والتوكيل والإنابة.

ذلك بأن يستأنف زعماء البلاد بطريقة منظمة التوقيع على طلب الاستقلال التام المطلق الناجز وجعل حكومة البلاد نيابية (ديمقراطية) تبني أحكامها على أساس العدل والمساواة وحفظ حقوق الفئات القليلة العدد

من أهل البلاد، وأن تضمن لها ذلك جمعية الأمم لا دولة من الدول وأن يرفع ذلك بالبرق والبريد إلى مؤتمر الصلح وإلى الرئيس ولسن. وان ينب هؤلاء الزعماء الذين يسعون لذلك واحداً من كل ولاية يمثلون الطوائف من الملل المختلفة وإرسالهم إلى مؤتمر الصلح بطلب هذا الاستقلال.

يا أبناء وطني الأعزاء: قد أجمعت الدول الكبرى على استقلال الشعوب من قواعد صلح الأمم وعلى تفويض أمر الولايات إليها فلا تستطيع دولة منها أخذ شيء من بلادنا إلا بقرار منا فالويل الدائم والشقاء الملازم لامة تبخع نفسها وتنتحر مختارة بيدها مخدوعة بأن تنال بذلك مساعدة تحيا بها. واعيدكم بالله من هذه العاقبة. وأسأله لكم حسن الخاتمة.



عاقبة حرب المدنية

الاوربية

[المنار ج ٢١ (١٩٢٠) ص ٣٣٧ - ٣٤٤]

كتبنا في أثناء هذه الحرب مقالات بينا فيها أسبابها وعللها وحكمة الخالق فيها وفضائعها وشرورها والمقابلة بينها وبين الحروب الإسلامية التي امتازت بالرحمة وبجعل الحرب ضرورة تقدر بقدرها وبتحريم القسوة والفضائع فيها، والمقابة والمقارنة بين الدول المتحاربة في الاستعداد والمزايا، وصرحنا فيها بأن عاقبتها ستكون انفراد إحدى الدولتين الرئيسيتين في الحلفين الكبيرين الجرمانى والإنكليزي - وهما ألمانية وإنكلترة - بالسيادة والعظمة في العالم وفاقاً لقول الفيلسوف هربرت سبنسر الشهير للاستاذ الإمام [محمد عبده] ان ضعف الفضيلة وتغليب الافكار المادية في أوربة

سيدفعان دولها إلى حرب عامة طامة ليعلم إياها الأقوى ليسود العالم.

ومما بيناه في بعض تلك المقالات أن ألمانية أتقنت الاستعداد للحرب اتقاناً يمكنها من محاربة أوربة كلها وإنها فاقت جميع الدول في السلاح والنظام وأن أعداءها يفوقونها بالكثرة التي تعد من أعظم أسباب الغلبة كما قال الشاعر العربي:

ولست بالأكثر منهم حظاً وإنما العزة للكائر
وقد كان من أمر هذه المكاثرة أن إنكلترة ألبت على ألمانية أكثر دول الأرض في الشرق والغرب من العالمين القديم والجديد، وإنما كان ذلك بعلو كعبها على الألمان وغيرها في الدهاء السياسي الذي هو أدق علوم البشر وأصعب أعمالهم مركباً وأوعرها مسلكاً، وقد قلت مرة لصاحب لي من الألمان المستشرقين كان يحاورني وأحاوره في المقارنة بين قومه وبين الإنكليز وما بينهما من المناظرات: إنني مقتنع بأنكم فقطم الإنكليز في جميع العلوم والفنون والأعمال حتى التجارة إلا ما هو أهم من ذلك كله وأعظم - وهو السياسة - فإني أرى أن الإنكليز يفوقونكم فيها - فقال صدقت.

وقد ذكرتني هذه الكلمة التي قتلها منذ بضع سنين بكلمة في معناها قتلها منذ بضع عشرة سنة في مجلس بدار أحد أصدقائنا بمصر مات من حاضريه لطيف باشا سليم وحسن باشا عاصم وجرجي بك زيدان وبقي صاحب الدار وأحد الباشوات قال صاحب الدار في ذلك المجلس: إنه بلغه أن ألمانية عقدت مع روسية محالفة سرية على إنكلترة وسيترتب على هذه المحالفة إخراج الإنكليز من مصر ومن الهند أيضاً. فقلت له: لا تغتر بهذا الخبر فإن إنكلترة كانت ولا تزال تضرب بعض الأمم ببعض وتكون هي الرابحة فهي كما قال مسلم بن الوليد «كالسيل تضرب جلمودا بجلمود».

إنني لم أصدق هذا الخبر في ذلك الوقت ثم تبين في أثناء هذه الحرب مما

اكتشف من أسرار القيصرية الروسية أن له أصلا وأن مشروع المحالفة وضع ثم عرض ما حال دون إتمامها فإن كان هذا وقع بعد ذلك الزمن الذي أخبرنا فيه ذلك المخبر به فمن الجائز أن تكون مقدماته ووسائله قد سبقته بسنين، والذي نقصده من العبرة في هذه السياسة هو أن الإنكليز غلبوا ألمانيا على روسية فحالفوها على الترك والفرس ثم جعلوها باتفاقهم مع حليفتها فرنسة فدية لهما في هذه الحرب، فكانت مصب نقمة ألمانيا الحربية في ريعان قوتها، وعنفوان أسرتها، وكذلك تعبت الأمم العليمة الحكيمة بالأمم الجاهلة الخرقاء فتجعلها فدية لها كما فعل الحلفاء بأمم أخرى وكما فعل الألمان بالترك.

وقد كان أعجب مظاهر قدرة إنكلترة السياسية تسخير دولة الولايات المتحدة الأمريكية لانقاذها وانقاذ حلفائها من جحيم الألمان العسكري بعد أن عجزت أوربة كلها ومن ظاهرها من أمم آسية وأفريقية وأمريكة الجنوبية عن فل حدهم، وإيقاف طغيان مدهم، وهي الدولة التي جعلت من قواعد سياستها ترك مشاكل العالم القديم لأهله، وعدم مشاركتهم في شيء منه، رقتها إنكلترة رقيتين استخرجت بهما حيتها من حجرها، وزحزحتها عن قاعدة سياستها، إحداهما دعوتها إلى انقاذ حرية الأمم والشعوب من السيطرة الألمانية التي تهدد العالم بالاستعباد، والثانية دهاء اليهود ونفوذهم المالي في تلك البلاد، وقد وعدتهم انكلترة بان يكون جزاؤهم إعادة ملك إسرائيل إلى مملكة سليمان في الأرض المقدسة بالرغم من أنوف العرب أصحاب البلاد، ومن الملتين الاسلامية والنصرانية، وسكت لها على هذا الوعد أشد ذوى التحمس الديني من البروتستنت والكاثوليك حتى الجزويت منهم، وأما المسلمون فلم يصددهم ذلك عن مساعدتها على فتح البلاد المقدسة بالجيش التي جهزوها باسم شريف مكة سليل الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصاحب الحجاز بقيادة بعض ابنائه، فهل كان باستطاعة أحد من دول الأرض أن يفعل مثل هذا أو يفكر في امكانه؟ لا!

ولكن الإنكليز فعلوا ما لم يكن يخطر في بال بشر فاستردوا هذه البلاد وما حولها من المسلمين الذين غلبوا قلب الأسد ملك الإنكليز وسائر ملوك أوروبا في الحرب الصليبية بمساعدة الجيوش الإسلامية.

طوع المستر لويد جورج وزير إنكلترا الأكبر هذه الدولة بالرقيتين اللتين ذكرتا فجعلت ثروتها الكبيرة ومواردها الغزيرة وجنودها الكثيرة وقفاً على انقاذ الحلفاء من ألمانية بل هاجمت ألمانية بقوة أكبر وأعظم من كل هذه القوى - قوة الدعوة إلى الصلح بين على اتفاق الأمم والشعوب على العدل العام والحرية الشاملة لجميع الأنام، وإبطال ما جرت عليه الدول القوية في العصور الخالية من المحالفات السرية على هضم حقوق الأمم المستضعفة وغير ذلك من أصول الحق والعدل التي ما زال الاقوياء يهدمونها بمعاول القوة، ومنها وجوب حرية البحار، وجعل الإنكليز وغيرهم فيها سواء. قام الدكتور ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة يحارب ألمانية بهذه القوة الأدبية، المعززة لتلك القوى الحربية والمالية، ففاه بتلك الخطب الطنانة الرنانة، ووضع للصلح تلك القواعد الجذابة الخلابه، ففعلت في زمر الاشتراكيين والعمال الالمانيين فعل السحر، ولا سيما قاعدة حرية البحار في زمني الحرب والسلام، فخرجوا على حكومتهم السياسية، وثاروا في وجه قوتهم العسكرية وهي في أوج انتصارها، وذروة فخارها: أمرت أسطولها بأن يهاجم الأسطول البريطاني فاعتصب بحارته وأبو الامثال، وهدد زعماء الاشتراكيين قواد الحرب باعتصاب جميع العمال، أو يطلبوا عقد الصلح على قواعد الرئيس «ولسن» العادلة إذ هي أفضل من نصر عسكري يورث الاحقاد ويورث السياسة الجائرة، وإنما أسست جمعياتهم وتحزبت أحزابهم لمقاومتها، وقد سنحت لهم الفرصة فقالوا لا نضيعها، ولم يقنعهم القول بأن هذا خداع، لان الأمريكيين غير متهمين بالكيد ولا بالأطماع، فاستمهلتهم الحكومة ريثما تسحب جيوشها وكراعها وذخائرها من قلب فرنسة فامهلوها، وكان من كان من أمر طلب الهدنة واشترط

الحلفاء فيها إضعاف جميع قوى الألمان الحربية في البر والبحر والجو حتى لا يستطيعوا العود، فمن المنتصر؟: أميركة في الظاهر وإنكلترة في الباطن، بل المنتصر إنما هم رجال السياسة المشتركة فسقطت على يدها ألمانية وساعدهم على ذلك صلف الألمان وغرورهم واحتقارهم الولايات المتحدة. وهم الذين والوا شريف مكة فكان عملاً قوياً لسقوط الترك، وهم المتصدرون لإدارة دفعة سياسة العالم بعد التمهيد لها واقتحام ما يقوم أمام هذه الإدارة من العقبات. ومن ذلك اقناع الولايات المتحدة باسم خدمة الإنسانية وتأييد المدنية بالإشراف على تركية، والنهوض بالجمهورية الأرمنية. ويتولون هم إدارة البلاد العربية من برقة إلى العراق فعمان - ما خلا سورية الشمالية فان ادارتها جعلت لفرنسة تنفيذاً لمعاهدة سايكس وبيكو من جهة وحتى لا تؤوب فرنسة بصفقة المغبون وترضى من الغنيمة بالإياب من جهة أخرى، والبلاد الفارسية المتصلة ببلوجستان فالهند فالتبت. الإنكليز يحتلون سورية الجنوبية «فلسطين» ويعملون فيها عمل الحاكم المطلق ويمهدون السبيل لمهاجرة الصهيونيين إليها ليكونوا حكاماً فيها تحت حمايتهم، ويحتلون العراق ويعملون فيه عمل المالك بلا معارض وقد أسسوا للسواحل العربية الحجازية واليمينية محافظة سموها [محافظة البحر الاحمر] وأرسلوا بعثة الى الامام يحيى - ولكنها أسرت قبل الوصول اليه - وأرسلوا بعثة أخرى إلى السيد الادريسي للإتفاق معه وعقدوا إتفاقاً مع حكومة إيران نشر في الجرائد فشكت منه الصحافيون ورجال السياسة واحتجوا بأنه يخالف لعهد «عصبة الأمم» إذا كانت المسألة السورية معلقة بأنواط تلك الوسائل المشار إليها، كما تحدث أولئك الرجال وتلك الجرائد بالمسألة المصرية وبما للمصريين من الحق في المطالبة باستقلالهم وحريتهم ولم تفتّر تلك الشقشقة حتى تم الاتفاق على العود إلى تنفيذ معاهدة سنة ١٩١٦.

وقد ظهر رجحان السياسة الإنكليزية على السياسة الفرنسية في البلاد التي كانت تظن فرنسة أن سياستها فيها أرجح لما لها فيها من الصنائع

والوسائل. فقد كان طلاب المساعدة الأمريكية فالانكليزية من أهالي البلاد اضعاف طلاب المساعدة الفرنسية، فلم يبق لفرنسة بد من اللجوء إلى ارضاء انكلترة والرضا منها بتنفيذ معاهدة سنة ١٩١٦ بمقابلة تصرفها المطلق في مصر وسائر بلاد العرب والعجم.

جرى كل ما ذكر على طريقة السياسة الأوربية المعروفة المألوفة من تصرف الأقوياء في الضعفاء والعلماء في الجهلاء، بعد أن ذهبت جعجعة خطب الرئيس «ولسون» في الهواء وهو ما كنا نتوقعه من وراء هذا النصر، ونحدث به من كلمناه في عواقب الحرب، وخاصة اخواننا العرب المغرورين من السوريين والعراقيين، ولا غرابة في غرور اطفال اغرار في مهد السياسة والحركة العربية الحجازية في بدء ظهورها تكبرها في أعينهم بعض الجرائد.

فإن قال قائل: إن كتاب الله قد أثبت أن العقابة للمتقين، وقد فسر علماؤنا التقوى بأنها عبارة عن اداء المأمورات وترك المنهيات، فهل كان الإنكليز - بهذا المعنى - هم المتقون، حتى كانت عقابة هذه الحرب لهم بنفوذ الكلمة وعلو المنزلة والتصرف في أرض الله الواسعة؟ نقول: إن قول الله تعالى لا ريب فيه، وإن كلام العلماء في تفسير التقوى صحيح ولكنه مجمل فمن فهم منه أن المراد بفعل المأمورات الوضوء والصلاة والصيام ولو على غير الوجه الذي شرعه الله تعالى وإن ترك المنهيات خاص بترك الخمر والزنا والسرقة وما أشبه ذلك - فهو قصير النظر ضعيف الفهم، التقوى أعم من ذلك وهي تختلف باختلاف ما تطلب فيه كما بيناه في مواضع من تفسير المنار ونبهنا أهل العصر الى تقصير المفسرين وغيرهم من علماؤنا في بيان ما في الكتب والسنة من الأصول الاجتماعية ومسائل السياسة والعمران.

فالتقوى المكررة في قوله تعالى «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا» [سورة المائدة رقم ٥ الآية ٩٣] الآية غير

التقوى في معاشره النساء المكررة في سورة الطلاق، وغير التقوى في قوله تعالى «وحرم عليكم صيد البر ما دتم حرمًا واتقوا الله الذي اليه تحشرون» [سورة المائدة رقم ٥ الآية ٩٦] فلكل مقام خصوصية هي المقصود الأول من المعنى العام، والتقوى في قوله تعالى «إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» [سورة الأعراف رقم ٧ الآية ١٢٨] غير ما ذكر كله، فالأولى والثانية في أحكام الطعام والصيد وهما من الأحكام الشخصية الفردية، والثالثة في أحكام الزوجية وهي منزلية (أو عائلية) والرابعة في شؤون الأمم والعمران وهي ما يعبر عنه في عرف هذا العصر بالاجتماعية وكلامنا فيها. والثابت عندنا أن الإنكليز أشد الأقوام عناية باتقاء الخيبة والفشل في هذه الأمور، والألمان كذلك إلا أن الألمان فاقوا الإنكليز بالتقوى الحربية فلم يعود شيئاً من أسباب إلقاء الانكسار فيها إلا وأحكموه، ولذلك كانت العاقبة لهم في المعارك الحربية، ولكنهم لم يتقنوا كالإنكليز اتقاء التنازع الداخلي ف وقعت الثورة الاشتراكية في أمتهم، وصدق عليه قوله تعالى «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» [سورة الأنفال رقم ٨ الآية ٤٦] ولم يتقنوا كالإنكليز اتقاء سخط الأمم والشعوب عليهم فأسخطوا الأمة الأمريكية على حين صارت أعظم الأمم ثروة واشتدت حاجة جميع الأمم إليها، فكان ذلك عوناً للإنكليز على تسخيرها لهم، ولم يتقوا خروج العرب على الترك باستمالة العرب وتوثيق الرابطة بينهم وبين الترك وتحذيرهم من خطر انتصار الإنكليز عليهم بل سمحوا لأوليائهم سفهاء الأحلام من زعماء «جمعية الاحمرين» - الدم والذهب - بارهاق العرب والتنكيل بهم تقتيلاً وتصلباً وتذليلاً وتغريباً ومصادرة وتعذيباً وهتكاً للأعراض وإفساداً للأخلاق، على حين كان الإنكليز يجدون في استمالة كل أمير وزعيم بما يروج عنده من ضروب الاستمالة فما ل إليهم بعض دون بعض وكان فيمن مال وشايعهم مشايعة فعلية أو سلبية الأمير عبد العزيز ابن سعود صاحب نجد وبعض شيوخ عرب العراق، ووالاهم شريف مكة «الملك حسين» وساعدهم على محاربة الترك بجيش مؤلف من بدو الحجاز

وحضر سورية والعراق بقيادة أبرع أبنائه في الغزو والقتال الأمير فيصل (ملك سورية) وقد اعترفوا له ببلائه وإخلاصه في إعانتهم على فتح القدس الشريف وعلى إيقاع الفشل والخذلان في جيش الترك المدافع عن سورية حتى انهزم وتركها غنيمة باردة لهم، وصرحت جريدة التيمس الشهيرة بأن الأمير فيصلاً سل حسامه في نصر الحلفاء من غير أن يحصل على أي وعد على أي منهم بشيء ولكنه أعطي بعض الوعود بعد ما أخذ في النجاح، وقالت أن الأمير فيصلاً كان يرغب في الاستقلال التام للحجاز وحده وأما لسائر الشعوب العربية فإنه يرغب لها في الاستقلال عن الترك فقط وأن تطلب كل البلاد العربية وصاية دولة واحدة عليها وتعني دولتها انكلترا (اهـ ملخصاً من عددها الأسبوعي المؤرخ في ٢٤ فبراير سنة ١٩١٩) بل كانت موالة الشريف أكبر مما ذكر في فوائدها السلبية والمعنوية، ولا محل لشرح ذلك هنا، ولو كان للألمان مثل دهائهم لسبقوهم إلى استمالة العرب وكانوا على ذلك أقدر، وإذا لاستطاعوا أن يجندوا منهم خمسمائة ألف أو ألف جندي ولا أبالغ إذا زدت على ذلك ولا سيما إذا شملت هذه الاستمالة اليمن وعسير، ووصلوا إلى شواطئ البحر الأحمر وبحر العرب ولم يكن ذلك عليهم بعسير.

فإن قال ذلك القائل: فهمنا معنى التقوى في السياسة والحرب ومعنى كونها من سنن الله تعالى في النجاح، ولكن خفي علينا ما بينت في تلك المقالات من أن هذه الحرب انتقام إلهي عادل من الدول والشعوب الظالمة لنفسها والظالمة لغيرها الباغية على عباد الله التي لم تشكر نعمه تعالى باستعمالها فيما يرضيه من إقامة الحق والعدل، وإننا نرى ألوف الألوف من البشر تئن من سلطة تلك الدول وحكمها وإذا كانت مصيبة صادقة في شكواها - لأنها مهضومة الحقوق بضعفها - فلماذا كانت عاقبة الحرب استمرار عقاب الله لها بالاستذلال والحرمان من الاستقلال، ورفع العقاب عن أولئك الباغين، وتحكيمهم في بلاد قوم آخرين؟

إن قال ذلك القائل هذا القول وأورد علينا هذا الإشكال فإننا نجيبه بأن ما يراه هو مشكلاً لا نراه نحن كذلك، فإننا نرى أن الأمم المستضعفة الظلمة لنفسها المظلومة من قبل الأقوياء المسلطين عليها بما كان من تفريطها، لم يحصها ما حل بها ويرجعها إلى رشدها، وأن الدول الباغية الظلمة قد ذاقَت من الشدائد التي تعامل المستضعفين بها، وترجع إلى ربها، وكذلك شأن الدول والأمم التي غلبت بهذه الحرب على أمرها، فالعقاب الإلهي لكل أمة ودولة لم ينته بهذه الحرب، ولا هي انتهت بما وضع من معاهدة الصلح مع بعض المتقاتلين دون بعض.

وما ذكرنا من فوز بعضهم وعلو كلمته بما بينا من سببه وسنن الاجتماع فيه، وإننا نرى هذا الفوز والفلاح يكاد يجز وراءه أسباب خسار وخذلان؛ أهمها خسران الإنكليز ذلك الصيت الحسن، الذي غرسوا فسيله، وزرعوا بزوره، وتعاهدوا زرعه بما ينميهِ عدة أجيال، حتى كانت الشعوب المتململة من سلبهم استقلالها تفضلهم على غيرهم، والشعوب المتألمة في غيرهم تتمنى لو تنفياً ظل حكمهم، ولكن لا يزال في الشعب الإنكليزي ذي العرق الراسخ في مكارم الأخلاق، وبعد الروية وطول الأناة، وحب العدل والانصاف رجال يرجى أن يرجحوا القوة المعنوية، على القوة المادية، ويراعوا الانقلاب الاجتماعي الجديد الذي فجرت هذه الحرب قواه التي جمعت في عهد بعيد، كما تنفجر البراكين من الأرض بآخر نقطة أو دفعة من الغازات المولدة للضغط فاذا قدر هؤلاء الرجال على مقاومة الاطماع الاستعمارية، وضعوا لدولتهم سياسة جديدة تتفق مع مصالح مصر والهند والعرب والفرس وسائر الشعوب ببقائها على مراعاة أشرنا إليه من الانقلاب الاجتماعي الأكبر - اذا قدر هؤلاء الفضلاء العقلاء على ما ذكرنا، وتركوا لهذه الشعوب استقلالها في إدارة بلادها وسياستها وحالفوها على أن يكونوا هم المقدمون على جميع أمم المدنية في مساعدتها العلمية والفنية التي تقرر استقلالها وتعمّر بلادها، ورضوا من المكافأة على ذلك

بالمنافع الاقتصادية والأدبية، التي تكون بالتراضي لا بالقوة الاحتلالية، فإنهم يؤسسون لشعبهم السكسوني المجيد، مجدداً طريفاً إلى مجده التليد، بحيث يرجى أن يكون خالداً لا يبلى ولا يبيد، ما لم يرجع عن هذه الطريقة أو يحيد، وحينئذ تكون لهم العقابة الثابتة، ويسترجع أضعاف ما فقد من ثروته الهالكة، من غير نفقات كبيرة، كالنفقات التي لا يزال يتكبدتها باحتلال البلاد المغلوبة، ويكون سبباً لإصلاح الكون، وعمران الأرض.

أكتب هذا باملاء العقيدة الثابتة، المؤيدة بالدلائل الاجتماعية الناهضة، لا بباعث الأغراض القومية، أو قصد الإيهامات السياسية، تاركاً تصديقه للزمان، وتفسيره لحوادث الأيام، وسنن الله في الأنام، لا مبدل لسنته ولا معقب لحكمه ولا راد لمشيئته.



استقلال مصر

١٤٤

وحقوق انكلترا فيها

[المنار ج ٢١ (١٩٢٠) ص ٥٤٠ - ٥٤١: وص ٥٥٥ - ٥٥٨]

على أثر انتهاء الحرب الكبرى وإعلان الهدنة سعى سعد باشا زغلول الزعيم الكبير الشهير مع بعض أصدقائه إلى نائب ملك الإنكليز بمصر السر ريجلند ونجت طالبين منه إلغاء الحكومة العرفية ورفع المراقبة عن الصحف فناقشهم مناقشة صرحوا له في خلالها بعزمهم على السعي لاعتراف حكومته وغيرها باستقلال البلاد المصرية وحرية المصريين. ثم أن سعد باشا ألف وفداً لأجل القيام بهذا السعي بمصر وأوربة وكل مكان

يمكن السعي النافع فيه وأخذ الوفد وثائق بتوكيل الأمة له بذلك من أعضاء الجمعية التشريعية وغيرها من الجماعات وأفراد الزعماء. ثم نشر الوفد منشورات بين فيها مراده وبلغ معتمدي الدول العظمى ورئيس جمهوريات الولايات المتحدة ذلك، وتبرع أغنياء الشعب بعشرات بل مئات الألوف من الجنيهات له للاستعانة بها على السعي الذي انتدب له، وكان من أمر الوفد وما ترتب على تأليفه وأعماله ومعاملاته ما بيناه في مقالة عنوانها (التطور السياسي والديني والاجتماعي بمصر نشرت في الجزء الخامس من هذا المجلد (ص - ٢٧٦) فليراجعها غير الواقف على ذلك من غير أهل هذه البلاد. ونقفي عليه بأنه لما صدر أمر الحكومة الإنكليزية العليا بالإذن للزعماء الأربعة (وهم الباشوات سعد وحمد الباسل ومحمد محمود واسماعيل صدقي) ولمن شاء من أعضاء الوفد وغيرهم بالسفر إلى حيث شاءوا من أوربة. سافر الأربعة إلى فرنسا وتبعهم آخرون من مصر إلى باريس، وأرادوا رفع قضية مصر إلى مؤتمر الصلح فلم يسمع لهم قولاً ولم تكن الجرائد الفرنسية تنشر لهم ما يريدون نشره ولكنهم ثبتوا على جهادهم حتى أسمعوا الصم قضيتهم.

ثم إن الحكومة البريطانية ارتأت أن ترسل إلى مصر وفداً يرأسه اللورد ملنر لأجل مذاكرة كبراء المصريين والوقوف على آرائهم في إدارة بلادهم والاتفاق معهم على وضع نظام لاستقلال إداري واسع مع بقاء الحماية البريطانية؛ فلم يكد هذا النبأ يصل إلى مصر حتى بث أنصار الوفد المصري الدعوة في طول البلاد وعرضها إلى رفض قبول هذا الوفد ووجوب مقاطعة الأمة له وعدم مذاكرته والبحث معه وإعلامه بأن الأمة مجمعة على تفويض أمرها إلى الوفد المصري الذي يرأسه سعد باشا زغلول. ولم يصرف ذلك الحكومة البريطانية عن إرسال لجنة ملنر إلى مصر ولكن المصريين نجحوا في مقاطعتها وكان يوجد في البلاد أفراد يرون أن البحث معها مفيد وأن مقاطعتها ضارة ولكنهم لم يستطيعوا مخالفة الأكثرية الساحقة

فأقامت اللجنة مدة طويلة لم يراجعها أحد من الجماعات والأفراد في شيء ولكن اللورد ملنر استحسن أن يفتح باب المذاكرة مع أفراد من الكبراء بزيارته إياهم في بيوتهم والحديث معهم بصفة غير رسمية ولا مبنية على الإعتراف بالحماية، فزار شيخ الجامع الأزهر ومفتي الديار المصرية وبعض الكبراء فلم يسمع من أحد إلا كلمة واحدة وهي تفويض الوفد المصري بطلب الاستقلال التام فلا بد من مراجعته في ذلك.

ثم عاد ملنر إلى إنكلترة وراسل سعد باشا في أمر الاتفاق على المسألة المصرية فاشتراط سعد باشا أن تكون المذاكرة مبنية على قاعدة استقلال مصر استقلالاً تاماً ورفع الحماية عنها مع ضمان مصالح إنكلترة فيها فاتفقا على ذلك وجاء الوفد (لندن) عاصمة إنكلترة فقبل بالترحاب من لجنة ملنر ومن الحكومة وبعد عقد جلسات كثيرة سرية بين اللجنتين وضعت قواعد للاتفاق لم يقبلها الوفد المصري لأنها لا تضمن الاستقلال التام المطلق الذي وكلته البلاد بطلبه ولم يرفضها لأن فيها استقلالاً تاماً لكنه مقيد بمعاهدة تضمن لإنكلترة حقوقاً عظيمة تقيد مصر بقيود ثقيلة وتسكت عن إلحاق السودان بمصر، فارتأى الوفد أن يرسل أربعة مندوبين لاستشارة الأمة والاستئذان برأيها في مشروع هذه المعاهدة، فإن قبل الرأي العام أن تكون هذه القواعد أساساً لوضع المعاهدة بين الحكومتين استأنف الوفد المذاكرة مع لجنة ملنر لوضعها على أنه يشترط لقبولها نهائياً موافقة مجلس الأمة البريطانية (البرلمان) عليها من قبل إنكلترة وموافقة مجلس منتخب من الأمة المصرية عليها من قبل مصر.

استقبلت الأمة المصرية مندوبي وفدها في الاسكندرية والقاهرة بحفاوة عظيمة، وقد نشروا عليها ما جاؤوا به من قواعد الاتفاق ووقفوا على الرأي العام فيها بالمذكرات الشفوية مع الجماعات التي تمثل طبقات الأمة ومع الأفراد الكثرين من الأفراد المشهورين وبما نشر في الجرائد^(١).

(١) هنا نشر بلاغ المندوبين وتوضيحاتهم.

رأي المنار الاجمالي^(١). أظهر المصريون الكفاءة والاستعداد للاستقلال التام بتأليف وفدهم، وجمع كلمتهم على تأييده، وبإمداده بالمال الكثير للقيام بالوسائل والسعي له وبما اتخذ من طرق بث دعوته وإظهار حق البلاد في أوربة - وبما كان من البحث والمذاكرة مع لجنة لورد ملنر المندوبة من الحكومة البريطانية للاتفاق معه - وبالتكافل التام بين الوفد والأمة بثقة الأمة به وتفويضها إليه الأمر الذي وكلته به وبالتزامه هو الوقوف عند حدود الوكالة وعدم تعديها في شيء - وإرساله المندوبين للاستنارة برأي الأمة في المشروع الأخير الذي قدمته لجنة لورد ملنر إذ كان الاستقلال التام فيه مقيداً وخاصاً بمصر والأمة طلبته ووكلت الوفد بطلبه مطلقاً من كل قيد وشاملاً لمصر والسودان - وبما كان من حسن استقبال الأمة لمندوبي الوفد وتأييد ثقتها به لهم - وبما شرع أرباب الأقلام يشرحونه في الصحف من نقد مشروع الاتفاق وبيان غثه وسمينه واطهار عجره وبجره ومحاسنه ومساويه وفوائده وغوائله بما يدل على النظر الثاقب والعلم الواسع بأصول القوانين وشؤون السياسة واطوارها

لو قبل المصريون مشروع الاتفاق الذي جاء به مندوبو وفدهم على علاته لاعتقد العالم في كل قطر أنهم لا يفهمون السياسة ولا يستطيعون القيام بأعباء الاستقلال السياسي، ولو ردوه البتة بغير بحث ولا حجة إلا انه غير ما طلبوا لأثبتوا للعالم السياسي أنهم لما يعرفوا حال العصر الذي يعيشون فيه، وأن مثلهم كمثّل الطفل الذي إذا طلب من والديه القمر لا يعذرهما بالعجز عن تناوله من أفق السماء ووضعاه في يده. وانما اللائق بمقام أمة بلغت رشدها واستحقت التصرف بأمرها هو أن يوجد فيها الطرفان والوسط لكل أمر عام ولكل مسألة من شأنها أن تختلف فيها الآراء والأنظار، وهذا هو الذي ظهرت بوادره من الأمة المصرية الرشيدة - فمن أفرادها وجماعاتها من يرفض مشروع الاتفاق البتة لا يقبل إلا الاستقلال

(١) المنارج ٢١ (١٩٢٠) ص ٥٥٥ - ٥٥٨.

التام المطلق من كل قيد لمصر والسودان معا، وهذا ضروري لا بد منه - ومنهم من تهلل واستبشر بالمشروع على علاته وعدوه نجاحاً وتوفيقاً فوق ما كان ينتظر من الدولة البريطانية التي أصبحت وامست بعد هذا الحرب ذات النفوذ الأعلى في عالم السياسة والقوة في الحرب والسيادة في البحار والسعة في المال، وقد تقرر حمايتها لمصر في معاهدة الصلح الكبرى مع ألمانيا ثم في معاهدة الصلح مع الدولة العثمانية صاحبة السيادة السابقة على مصر والسودان وهذا لا بد منه أيضاً.

وأما رأي السواد الأعظم من افراد المصريين وجماعاتهم فهو أن القواعد التي عرضتها لجنة لورد ملنر على الوفد المصري لتكون أساساً لمعاهدة الاتفاق لا تقبل على علاتها ولا تطوى على غرها وتلف وترمي في وجه لجنة لورد ملنر أو وجه حكومته، بل يصح أن تكون أساساً للاتفاق بشروط توضح بعض المبهم وتبين المجمال الذي قد يكون الاختلاف في تأويله منافياً للمراد من الاتفاق، وزيادة ما يضمن لأحد الفريقين سلامة استقلاله، بحيث تستفيد من هذا الاستقلال ولا يكون سبباً لضررها في سلم ولا حرب، وأهم ذلك حفظ مواصلاتها البحرية والجوية بين أوربة والهند والمبادلة العادلة في المحالفة.

وهذا الرأي هو الوسط المعتدل المعقول الذي يرجى له القبول، والرأي الأول خير منه للبلاد لو كان ممكناً وهو القصد الأسمى للأمة الذي ترجو أن يزيدها الاتفاق مع الدولة البريطانية قرباً منه ويخشى أن يزيدها رفضه بعداً عنه، مع وقوع في مشكلات وكوارث لا يعلم أحد عاقبة الاصطلاء بنارها.

لا يمكن أن يتفق جميع أفراد أمة كبيرة على مشروع عام كبير مثل هذا. فالاختلاف في مثله من السنن المطردة في الأمم. وإنما يظهر الرشده والارتقاء وضدهما في الاختلاف وبه تتمحص الآراء والافكار، فما أبعد الفرق بين قوم يختلفون في مصالح وطنهم نحو الذي ذكرنا من اختلاف

المصريين وقوم يختلفون كاختلاف قوم آخرين كانوا يدعون أنهم أذكى من المصريين أذهاناً وأوسع عرفاناً وأرقى أخلاقاً واجتماعاً وأصدق وطنية وأقوى عزيمية فكان من أمر اختلافهم في أمر وطنهم وأمتهم أن ألف أعرضهم دعوى ثلاثة أحزاب في بلد واحد لجعل وطنهم تحت سيطرة الأجانب وكانت المباراة بينها في تفضيل بعض الأجانب على بعض ولو استشاروا دهاء الأمة لوجدوا سوادها الأعظم يؤثر الحرية والاستقلال.

وإذا كان الإجماع في أمثال هذا المشروع متعذراً فالرأي العام الذي يصح أن يسمى رأي الأمة هو رأي أكثر العقلاء الباحثين الذين يمثلون طبقاتها المختلفة من علماء الشرع والقوانين وأرباب الفنون وكتاب الصحف والأدباء والماليين وزعماء الزراع والصناع وغيرهم. وهذا الذي يسمى الرأي العام هو معيار ارتقاء الأمة فإذا كان صواباً موافقاً للمصلحة فهو برهان على رشد الأمة. ولا يشترط في رشدها وارتقائها الاجتماعي أن يكون أكثر أفرادها كذلك فإن أكثر أفراد جميع الأمم الراقية الشهيرة يجهلون المصالح العامة ويفوضون أمرها إلى الزعماء الذين يقنعونهم بكفائتهم وحسب الدهماء من سواد الطبقات أن يحسنوا اختيار الرجال للأمور العامة، ولم يتفق للأمة المصرية أن أحسنت الاختيار في هذا الشأن كما أحسنته في اختيار الوفد المصري ولا سيما رئيسه الحر المخلص المستقل الرأي المنصف الرجاء إلى ما يظهر له أنه الحق بكل ارتياح كما جربناه بنفسنا في مناظرتنا له وسماعنا مناظراته لغيرنا من أهل العلم والرأي.

وإذا كان العلم بالمصلحة محصوراً في أفراد قلائل في الأمة فهي غير رشيدة ولكن يرجى لها الرشد بسعي هؤلاء الأفراد إذا كانوا من أولي الغيرة والإخلاص في خدمتها والتفاني في سبيل تربيته وتعليمها ما تكون به رشيدة، فمن يطعن فيما سميناه رأي الأمة العام فهو طاعن في رشدها. نكتفي بهذا التعليق الآن إذ لا يتسع هذا الجزء للشرح والإطناب في هذا الموضوع وموعداً الجزء الآتي ان شاء الله تعالى.

[المنار ج ٢٢ (١٩٢٠) ص ٧٥ - ٧٨]

كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، ميزان سياسة الأمم ونظام الاجتماع، كثر في هذا العصر تشدق الخطباء بذكرهما، وشرح الكتاب لفوائدهما، ولما يفقه الدهماء حقيقة معنهما، بل لما يحيط أكثر العلماء والزعماء منا خبراً بهما، لأن فقه الحقائق وإحاطة الخبر لا يحصلان إلا بطول التجارب في الحوادث، والاصطلاء بنيران الكوارث، بعد تلقي الحكمة بالتعليم، والتربية على سلوك الصراط المستقيم

كنا منذ أنشأنا المنار في أواخر سنة ١٣١٥ للهجرة [١٨٩٨ م] قد جعلنا أهم ما ندعو إليه القراء في مصر وسائر البلاد ان يجعلوا جل عنايتهم في إصلاح شؤونهم بالتربية المالية التي تكون أمة متحدة والاقتصاد الذي تكون به الأمة غنية تتصرف بثروتها في القيام بمصالحها كما تشاء. بثنا هذه الدعوة في المؤيد في ذلك العهد إذ كنا نكتب فيه مقالات بإمضاء (م. ر) وبغير إمضاء. ثم أعدنا بثها في الجريدة في أول العهد بظهورها في مقالة عنوانها «إلى أي شيء أنت يا مصر أحوج» نشرناها أيضاً في الجزء الثاني للمجلد العاشر من المنار الذي صدر في صفر سنة ١٣٢٥ هـ / آذار ١٩٠٧ م]

ونحمد الله تعالى ان رأينا في هذه السنين آيات الاتحاد في هذه البلاد العزيزة ورأينا من نتائجه قرب الحصول على الاستقلال المفقود، وفقدته يذهب بالاستقلال الموجود، فالواجب الآن على كل مصري أن يكون أحرص على تعزيز الاتحاد والتكافل الذي وقع، منه على نيل الاستقلال الذي يرجى به ويتوقع، فإن الاتحاد إذا ثلم وانفصمت عروته قبل بدء

صلاح ثمرته نفضت الشجرة أو خرجت الثمرة شيصاً لا غناء فيها، وإذا انتكث فتلّه بعده؛ زال أثره بزواله، فإذا لا استقلال ابتداء ولا بقاء إلا بالاتحاد.

ولما كان لكل كثرة منظمة جهة واحدة تضبطها أو تعرف بها وكان الوفد المصري هو عنوان الاتحاد الذي ارتقت إليه البلاد ومثله وجب على الشعب المصري المتحد أن يظل مسمتسكاً بحبله معتصماً بعروته، ولا سيما بعد الذي ظهر من كفاءته وأمانته، وإلا كان كالتّي «نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً»، [سورة النحل رقم ١٦ الآية ٩٢] وناهيك به جهلاً وأفناً وخسرانا.

ثم ليعلم علم تدبر أنه لا قوام لاستقلال الأمم وحرّيتها إلا بالثروة، ولا ثروة إلا بالاقتصاد، وإن الاستقلال السياسي، متوقف على الاستقلال الاقتصادي، ونحن مقصرون في سبيل هذا الاستقلال تقصيراً إذا لم نبادر إلى تداركه كنا من الهالكين.

إن للكسب والانفاق علوماً وفنوناً اتسع نطاقها في هذا العصر إتساعاً عظيماً لأنها قطب الرّحى لمدينة الأمم والشعوب وعزتها ورفاهيتها وسيادتها، وقد برّزت بها الأمم الشمالية الغربية، فاستعمرت أو استعبدت به الأمم الشرقية والجنوبية، حتى ظن كثير من القاصرين أن الشعوب والأجناس أو الأقاليم الغربية، أعظم استعداداً بطبيعة العرق وخاصية الجنس من الشعوب الشرقية، ويبطل هذا القول ما هو معلوم من أن اليهود أرقى أهل الأرض في جميع هذه العلوم والفنون والاعمال المترتبة عليها، أينما وجدوا وحيثما حلوا من أقطار الأرض، وهم شعب شرقي محافظ على نسبه ودمه، وكذلك الشعب الياباني في الشرق الأقصى قد جرى الغربيين فيها من عهد قريب.

ولكن الأمر الغريب أن المسلمين في الشرق والغرب والجنوب والشمال لا يزالون مقصرين في هذا المضمار، وبهذا التقصير أضاعت أكثر دولهم

ملكها وأمسى الباقي لها بين براثن الخطر، ويضيع أكثر أفرادهم ملكهم في البلاد التي يزاحمهم فيها غيرهم، فإن كان جل ثروة مصر وسورية والعراق لا يزال بيدهم فما ذلك من كسبهم بعلومهم وفنونهم وإنما ذلك إرث رقة الأرض تسلسل فيهم لأنهم أكثر السكان المالكين لها، فهذه مصر أقدر البلاد العربية على اقتباس العلوم والفنون المالية وغيرها وأكثرها نفقة عليها نراها مقصرة في هذا الاقتباس فجميع من يعيش فيها من الشعوب الأوربية واليونانيين والسوريين يفوقن المصريين في العلوم والفنون المالية والاقتصادية وفي إدارة المال بالتجارة وغيرها وفي الاقتصاد وحفظ الثروة من التبذير والضياع، بل القبط من المصريين ويفوقون المسلمين في ذلك عملاً وثروتهم النسبية تفوق ثروة المسلمين وأكثر أعمال الحكومة المالية في أيديهم وأيدي الأوربيين والسوريين، بل أكثر المسلمين يعتمدون على كتابهم في إدارة ثروتهم. على أن المسلمين أشد إسرافاً في الانفاق وتبذيراً للأموال منهم ومن سائر الشعوب التي نعرف أحوالها

من فطن لهذا من علماء الاقتصاد يعلله بادي الرأي بأن الدين الاسلامي هو السبب في الامرين. وهذا التعليل يضاھي في البطلان تعليل من عساه يقول ان الدين المسيحي هو سبب ثراء نصارى الغرب وسعة عيشهم وشدة سطوتهم وجبروتهم. والحق أن كلا من النصارى والمسلمين مخالف لھدي دينه ونصوص كتابه في الامرین، فالانجيل يھدي إلى المبالغة في الزهد والقناعة والتواضع والخضوع لكل سلطان، وينص على أن الغني لا یدخل ملکوت السموات، والإسلام دين سيادة واقتصاد وجمع بين مطالب الروح والجسد كما بیننا ذلك وفصلناه مراراً كثيرة. ومن نصوصه فيما نحن بصدده قوله تعالى في أوائل سورة النساء «ولا توتوا السفهاء أموالکم التي جعل اللہ لکم قیاما» [سورة النساء رقم ٤ الآية ٥] أي جعل علیها مدار قیام مصالحکم ومرافقکم وحفظھا وثباتھا، وقوله في صفات المؤمنین من أواخر سورة الفرقان «والذین اذا انفقوا لم یسرفوا ولم یقتروا وكان بین ذلك

قواماً» [سورة الفرقان رقم ٢٥ الآية ٦٧] ونهى في وصايا سورة الاسراء عن المبالغة في قبض اليد وبسطها في الانفاق وعن التبذير، وسمى المبذرين اخوان الشياطين. وهذه الوصايا هي أمهات أصول الدين وفوائده وآدابه، وهي تشمل الوصايا العشر التي في التوراة ما عدا بطلاة يوم السبت وتزيد عليها. وفي السنة وصايا وأحكام كثيرة في ذلك

فالمسلمون مخالفون لدينهم فيما اعتادوا من الاسراف في النفقات، وهذا إذا كانت فيما أبيح لهم من الزينة والطيبات، فكيف إذا كانت في المحرمات، ولا سيما الفواحش الثلاث المفسدات للفطرة المخربات للديار - السكر والزنا والقمار. وهم على هدمهم بذلك لدينهم، يهدمون كل ما بيني من صرح استقلالهم، وأنني لم أر ولم أسمع من أخبار البشر أن شعباً منهم يعادي النقد الذي هو ميزان الأعمال والقوة في الاجتماع البشري كالشعب المصري، فالمصري أسرع الناس بذلاً لما يصل إلى يده من النقد فالتمتعون بالزينة واللذات ينفقون في سبيلهما ما تصل إليه أيديهم من كسب وقرض ولو بالربا الفاحش، وغير المتمتعين يشترون بما تصل إليه أيديهم من كسب وقرض بالربا أرضاً أو عقاراً، ولا يبالي أكثر الفريقين أن يشتري الشيء بأضعاف ثمنه وإن استدان الثمن بالربا الفاحش لأن النقد أحقر الأشياء في نظره ولذلك ترى أكثر المصريين على سعة ثروتهم الزراعية مرهقين بالدين. فيجب على الزعماء والعلماء والخطباء وكتاب الصحف أن يتعاونوا على درء هذا الخطر بوسيلتي العلم والعمل، وإلا ظل المنتجون منهم كالأجراء للأجانب لأن جلّ ما ينتجون يتسرب الى صناديق المصارف المالية وسائر المرايين وجيوب أصحاب الحانات والمواخير وموائد القمار وتجار عروض الزينة والترف، وبعبارة أخرى إن جل ثروة البلاد تخرج منها إلى البلاد الأجنبية.

ومن الضروري أن يبادروا التي تأليف جمعية إقتصادية يكون من أعمالها إرسال بعض الطلاب المستعدين إلى معاهد العلم في أوربة لأجل الاختصاص

في علم الاقتصاد السياسي وسائر الفنون المالية والصناعات الضرورية ولا سيما الغزل والنسيج ثم جعلهم معلمين لهذه الفنون والصناعات وعاملين بها، والاستقلال المنتظر يزيل إن شاء الله ما كان من الموانع دون مثل هذا. وإنني رأيت في الهند معامل عظيمة للمنسوجات الأوروبية - دع المنسوجات الوطنية الخاصة بأهل البلاد - وجميع عمال هذه المعامل من الوطنيين إلا أنني رأيت في معمل كبير في بمباي رجلين من الإنكليز وظيفتهما اختيار نقوش النسيج. ويكون أهم أعمال هذه الجمعية وشعبها تعميم النقابات الزراعية في البلاد وتأليف الشركات للمشروعات الاقتصادية المختلفة ويكون منها السعي لإرشاد جمهور الأمة إلى الاقتصاد وجعل ثروة البلاد قوة لها وضامناً لاستقلالها بنفسها وحريتها في التصرف بثروتها.

دعوة عرب الجزيرة العربية إلى الوحدة والاتفاق



[المنار ج ٢٢ (١٩٢١) ص ١٣٣ - ١٤٠]

بسم الله الرحمن الرحيم

«وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً. وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا. كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ* وَلِتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ. وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» [سورة آل عمران رقم ٣ الآية ١٠٣ - ١٠٥]

ثبت في القرآن المجيد ثم في التواريخ التي دونها علماء العرب وغيرهم

من الأمم قديماً وحديثاً ومن العاديات - الآثار القديمة - التي اكتشفت في أقطار مختلفة أن العرب من أقدم أمم الأرض حضارة وعمراناً ورسلاً وشرائع حتى أنهم استعمروا أقدم البلاد مدنية كمصر وسورية والعراق، فلهم في حضارة الفراعنة والفينقيين والكلدانيين العرق الراسخ، والمجد الشامخ، فإن لم تكن تلك الأمم فروعا منهم، فلها وشائج أرحام مشتبكة بهم، من قبل أن مزجها الاسلام بهم في الدين واللغة والنسب بألوف السنين.

فمن ذلك ما حكاه في القرآن المجيد عن قوم عاد «ارم ذات العماذ، التي لم يخلق مثلها في البلاد» [سورة الفجر رقم ٨٩ الآية ٧] كقول نبهم هود في مبانيهم وقوتهم «أتبنون بكل ريع آية تعبثون* وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون* وإذا بطشتم بطشتم جبارين» [سورة الشعراء رقم ٢٦ الآية ١٢٨ - ١٣٠] وقوله في نسلهم وزرعهم وضرعهم «أمدكم بأنعام وبنين* وجنات وعيون» [سورة الشعراء رقم ٢٦ الآية ١٣٣] وبيانه لهم أن هذه النعم يزيد بها الرجوع إلى الله بالايان وترك المعاصي نماء وقوة.

«ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزيدكم قوة الى قوتكم» [سورة هود رقم ١١ الآية ٥٢] وما حكاه عن ثمود وقول رسولهم صالح لهم في تذكيره بنعم الله عليهم «هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه» [سورة هود رقم ١١ الآية ٦١] وقوله «أتركون في ما ههنا آمنين* في جنات وعيون* وزروع ونخل طلعها هضيم* وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين» [سورة الشعراء رقم ٢٦ الآية ١٤٩] وما قصه لنا عن سبأ في سورتها كجناتهم عن اليمين والشمال، واتصالها بالقرى المباركة في أرض الشام، ونظام السير المقدر بالاوقات وحفظ الأمن فيها بالعدل والنظام، وذلك قوله تعالى «وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين» وناهيكم بقصة ملكتهم مع نبي الله سليمان، وكونها أوتيت من كل

شيء يؤتاه الملوك في ذلك الزمان، مع القوة والحكم بالشورى دون الاستبداد.

ومن ذلك ما أثبتته الذين اكتشفوا آثار الكلدانيين في العراق وشريعة ملكهم حمورابي من كون شريعتهم عربية ودولتهم عربية، وهذا الملك كان يسمى ملك البر والسلام، وفي سفر التكوين من أسفار التوراة أن ابراهيم، عليه الصلاة والسلام، أعطاه العصور إذ كان من رعيته وأنه بارك ابراهيم. فدل هذا على أن ابراهيم، صلى الله عليه وعلى آله، كان عربيا أيضا.

ومن ذلك ما اكتشفه أحمد بك كمال العالم الأثري المصري من امتزاج اللغة المصرية القديمة، الهيروغليفية، باللغة العربية الدال على أحد أمرين إما أن العرب وقدماء المصريين من عرق واحد، وإما أن العرب قد استعمروا مصر وحكموا فيها قبل دولة الرعاة العربية المعروف خبرها في تارخ مصر فكان للغتهم الأثر الخالد في لغتها.

هذا إلماع تاريخي وجيز لمدينة العرب وقوتهم وعمرانهم في التاريخ القديم متعددة المناهج واضحة المسالك.

قد ضعفت الأمة العربية بعد تلك القوة، وبدت بعد تلك الحضارة، وخرب معظم بلادها بعد ذلك العمران، وغلبت عليها الأمية، وكادت تعمها الجاهلية الوثنية، «فكأين من قرية أهلكتها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد» [سورة الحج رقم ٢٢ الآية ٤٥ - ٤٦] «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون» [سورة هود رقم ١١ الآية ١١٧] ومر على هذا الضعف قرون وتعاقبت عليه أجيال، حتى ظن الظانون أن هذه الأمة هربت وقاربت الزوال، فلا تقوم لها قائمة ولا يتجدد لها شباب.

ثم جاء الإسلام فجمع شملها بعد فرقة وشتات، وألف بين قلوب قبائلها وأفرادها بعد عداوة تأرثت بها الأضغان وتحكمت فيها الثارات،

وأخرجها من ظلمات الجاهلية والامية، إلى نور العلم والحكمة والنظام والمدنية، وجعل لها المكانة الأولى بين أمم الأرض في السيادة والرياسة، والكلمة العليا في الحكم والسياسة، فورثت ملك القياصرة والأكاسرة في الشرق، وامتد سلطانها في القرن الأول من حدود الهند إلى المحيط الغربي وهو آخر ما كان يعرف من اليابسة في الغرب، وسلكت السبل الجديدة للتجارة، فسادت شريعتها جميع الشرائع، وعلت لغتها جميع اللغات، وفاقت آدابها جميع الآداب.

ولكن حظ جزيرتها من هذا العمران كان قليلا، ثم دب إليها الخراب وعاد أكثر أهلها إلى البداوة والامية والجاهلية أو ما يقرب منها. بل صاروا دون الجاهلية في بعض الصفات والمزايا حتى اللغة، فاني لبدو الجزيرة وحضرها في هذا العصر بما يقرب من تلك الملكة العليا في الفصاحة والبلاغة التي جعلت لكتاب الله المعجز تلك المكانة من عقولهم وقلوبهم، حتى أن كان أحدهم ليسمع السورة أو الآية منه فيخرج ساجداً، وتتحول عقائده وأخلاقه وعاداته بهدايته إلى ضده.

عاد أهل الجزيرة إلى الجاهلية يضرب بعضهم رقاب بعض بعد أن ألف الإسلام بينهم فكانوا بنعمة الله إخوانا، ويرتزق قويمهم بسلب ضعيفهم بعد أن كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وفرقوا دينهم فصاروا شيعة تكفر كل شيعة منهم الاخرى أو تفسقها بعد تلك الوحدة العظيمة، جاهلين أو غافلين عن قول ربهم لرسولهم، صلى الله عليه وسلم، «ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء» [سورة الانعام رقم ٦ الآية ١٥٩] وما في معناه من الآيات والاحاديث.

إن هداية القرآن هي التي جمعت كلمة العرب على ما كان من تفرقهم وتعاديهم في الجاهلية، وهي التي جعلتهم أئمة الأمم في العلم والحكم والآداب والعدل في اثر إخراجهم من تلك الامية، وما أصابهم ما أصابهم بعد ذلك من التفرق والتعادي والجهل والفقر إلا بتركها، ولن تعود إليهم

تلك النعم إلا بعودهم إليها، «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» [سورة الرعد رقم ١٣ الآية ١١] ولكن وحي شياطين التفريق، قد زين بزخرف القول لكل فريق، أن كل شيعة تجمعها رابطة مذهب فإنما الواجب عليها أن تعمل بقول علمائه وحكامه، ولا يجوز لها أن تهتدي بكتاب الله وسنة رسوله، وإن اختلفوا في الرأي، وتنازعوا في الأمر، خلافاً لقوله عز وجل «فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول» [سورة النساء رقم ٥٩ الآية ٥٩] وشبهتها على هذه المخالفة أن الاهتداء بكتاب الله المنزل، فتح لباب الاجتهاد المقفل، فاختلفوا في أصل الاهتداء بالكتاب، الذي أنزله الله تعالى لازالة الاختلاف،

من غص داوى بشرب الماء غصته فكيف يفعل من قد غص بالماء

إن الله أرسل رسله لهداية خلقه «وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم» [سورة البقرة رقم ٢ الآية ٢١٣] فكيف يؤخذ بقول العلماء أو الأمراء الذين يبغى بعضهم على بعض، فيما تنازعوا واختلفوا فيه من الأمر، إذا لم يرجعوا إلى الأصل الجامع، ويحكموه في الخلاف الواقع، وهو يقول «فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر» [سورة النساء رقم ٤ الآية ٥٩] ثم يعلل ذلك تعليلاً، بقوله «ذلك خير وأحسن تأويلاً» أي أحسن عاقبة ومالاً من كل ما عداه فكيف لا يكون خيراً من اتباع أهوائهم، في تحكيم آرائهم، والرد الى أقوال زعمائهم، على أن هذا الرد إلى كتاب الله وسنة رسوله وذلك الاهتداء بهما، لا يستلزمان الاجتهاد الأصولي المطلق الذي أقفلوا بابه، فقد كان عوام السلف الصالح مهتدين بهما ولم يكن كل واحد منهم إماماً مجتهداً في استنباط جميع الأحكام، كائنتهم المشهورين وعلمائهم الأعلام.

نعم، إن الشيخ محمد عبد الوهاب قد جدد دعوة الدين في بقاع نجد، فرجع الألوف بها عما كانوا عليه من الجاهلية والشرك، وكادت تنتشر دعوته

في جميع جزيرة العرب التي يتعذر اصلاحها وجمع كلمتها بغير الدين، ولو تم ذلك لتجدد أمر الإسلام في جميع أقطار المسلمين. ولكن حال دون ذلك فتنان: أولهما - مقاومة السياسة لها. والآخرى - غلو الكثير من القائمين بها. فالأولى أذاعة الساسة في العالم كله أن هذه دعوة ابتداع في الدين، والغلاة أيدوا هذه الاذاعة بما اشتهر عنهم من الغلو ولا سيما تكفير من عداهم من المسلمين، وهذه التهمة أصل، وقد بينا الحقيقة في هذه المسألة من قبل، وغرضنا من الإلمام بذكرها الآن، بيان استعداد العرب للإصلاح والإصلاح بدعوة الإيمان، إذا أقام بها من يدعو إليها بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن كما أمر القرآن، وتذكير الغلاة من المتدنية بأن لا يغلو في دينهم ولا يقولوا على الله إلا الحق، ولا يحرموا ما لم يحرم الله ورسوله بالنص أو اقتضاء النص، وأن يعذروا كل مخالف لهداية الدين بالتأول أو الجهل، ويعتمدوا في بث الدعوة على نشر العلم والعمل به على قاعدة «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» وأن لا يكفروا أحداً من أهل القبلة بذنب، وأن يفرقوا بين الجهل بشيء مما يجب الإيمان به عن جهل وإن عد بعضه الفقهاء كفر ردة، وكفر العناد وتكذيب الرسول الذي كان عليه مشركو الجاهلية في زمن البعثة. فإذا علموا هذا وعملوا به لا تلبث الدعوة أن تعم الجزيرة وغيرها ويسقط كل من يعارضها حرصاً على الزعامة وحب الرياسة.

هذا وإن لما أصاب الجزيرة من الشقاق والشقاء سبباً أسيراً وراء الخلاف الديني للبغي، وهو حب الرياسة وعلو بعض الزعماء على بعض، وسببين عارضين وهما الجهل والفقر، وإزالة السببين العارضين من الأمور الكسبية القريبة المنال، وإنما الشقاء كل الشقاء في الشقاق الناشئ عن حب الرياسة والعلو وخطره المنذر بالهلاك والزوال.

إن في بلاد العرب من ينابيع الثروة ما يكفي لجعل أهلها من أغنى شعوب الأرض كمعادن الذهب والحديد والحجارة الكريمة والأصلاح

والزيوت المعدنية وغير ذلك، وفي كثير من أرضها قابلية لخصب الزراعة يعز نظيره في غيرها، وناهيك قهوة اليمن ونخيل المدينة وفاكهة الطائف، وأهلها أذكى الشعوب وأقواها استعداداً للتجارة حتى أن عوام الحضارمة قد زاحموا بها أرقى شعوب هذا العصر علماً وتجربة في بلاد الهند وجاوة ومصر، فبقليل من العلم والنظام تدخل جزيرة العرب في حياة جديدة من الثروة والعمران، وتحفظ نفسها من الخطر المحدق بها الآن، ولكن ذلك يتوقف على ازالة العداء الذي طرأ على أئمتها في هذا الزمان.

أذا زال الشقاق وأبدل منه الاتفاق بين أئمة اليمن والحجاز ونجد، زال في أثره ما منيت به البلاد من الجهل والفقر، وما يتهددها من فقد الاستقلال والذل، وإذا حل بالجزيرة ما جعله الله تعالى بسنته في البشر، عقاباً لازماً لأهل التنازع والفشل، يذل الإسلام ويزول سلطانه عن رؤوس سائر الأمم، وتكون تبعة ذلك على أمراء الجزيرة وأئمتها، وما يظن بأحد منهم أنه يحسب أن بلاده بمأمن من سيطرة الأجانب بقوتها، أو بحرّها ووعورتها، أذ لم يبق، فيما أظن، منهم من يجهل أن الأجانب قد استولوا على ما هو مثلها أو أشد منها قوة، وألذع حرّاً وأصعب وعورة، على أنه ليس مثلها في كونه جزيرة أو شبه جزيرة، فهذه البلاد يمكن للدول البحرية حصرها من البحر، ومنع السلاح عنها وقطع موارد الرزق، ولا سيما إذا ثبتت سيطرتها على بلاد سوريا والعراق، التي يسهل حصرها أيضاً إذا هي نجت من تلك السيطرة ولتذكروا جميعاً ما أوصى به النبي (ص) في مرض موته بشأن جزيرتهم، وحكمة ما أشار إليه من أن الاسلام سيأرز إليها كما تأرز الحية الى جحرها وتطبيق ذلك على ما صار إليه أمر المسلمين الآن.

إن بقاء عز الإسلام يتوقف على استقلال العرب واصلاح شؤونهم كما ثبت عندنا بانظر الصحيح، المؤيد لحديث جابر عند أبي يعلى بسند صحيح، وهو قوله عليه الصلاة والسلام «إذا ذلت العرب ذل الاسلام» ولا عز بغير استقلال، ولا استقلال إلا بالقوة والمال، ولا قوة ولا ثروة،

مع الشقاق والفرقة، وانما القوة كل القوة بالاعتصام والوحدة، فاذا اتحد أمراء الجزيرة وأئمتها حفظوا استقلالهم، وأمكنهم نشر العلم وتفجير ينابيع الثروة في بلادهم، بمساعدة أهل البصيرة والقادرين على تنظيم الإدارة والقوة وتدبير الثروة من أمتهم، وتسابقت الشعوب الغنية القوية إلى موادتهم أو مصانعتهم، للاستفادة من قوتهم وثروتهم. بل هي على وشك الاحتياج إليه مذ الآن، لما بين غربي أوروبة وشرقيها من المقارعة والصدام، الذي يتوقف على نتيجته ما يكون عليه الشرق من حكم ونظام، ولا سيما شعوب الإسلام، من العرب والترك والفرس والتتر والأفغان.

هذا ما أحكيه عن رأي أهل البصيرة والدين، من عقلاء العرب وعلماء المسلمين، الذين يتنفسون الصعداء حزناً، ويحرقون الإرم غيظاً وأسفاً، كلما صرخ أسماهم نبأ تقاتل أئمة الجزيرة، للتنازع على بعض الجبال والأودية^(١) مع خراب البلاد، وفقر العباد، اللذين يزيلهما الاتفاق والاتحاد، ويزيدهما الافتراق والجلاد، وإني بلسان صفوة المخلصين من عقلاء العرب وغيرهم من المسلمين، أدعوهم إلى عقد الاتفاق والحلف بينهم على الأصول الآتية:

١ - إبطال الحرب والغزو بين عرب الجزيرة بعضهم مع بعض وحل مشكلات الخلاف بالتحكيم ولو بصفة هدنة مؤقتة إلى أن يوضع للبلاد نظام حلفي ثابت.

٢ - حفظ الحالة الحضرة باعتراف كل حكومة مستقلة في قسم الجزيرة باستقلال سائر الحكومات الموجودة فيها اليوم وترك مسائل الحدود إلى مجلس التحكيم بحيث لا يعد اعتراف بعضهم باستقلال بعض متضمناً للرضا بالحدود المختلف عليها.

(١) كجبل سغفان الذي يتقاتل عليه صاحب اليمن وعسير ووادي طربة التي يتنازع فيه صاحب الحجاز ونجد.

٣ - حرية المذاهب الدينية الموجودة في البلاد في التعليم والعمل والدعوة بشرط عدم طعن أحد في مذهب غيره أو تكفيره متبعيه بل يتبع في ذلك قوله تعالى «ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن» [سورة النحل رقم ١٦ الآية ١٢٥] فلكل أحد أن يبين بالدليل أو بنصوص المذاهب المعتمدة أحكام الدين والكفر والحلال والحرام ولكن ليس له أن يطبقها على طائفة معينة من أهل القبلة لأن التطبيق له شروط ولا سيما في شأن الطوائف والجماعات التي تقيم الشعائر الإسلامية، بل ليس لغير الحاكم الشرعي في الدعوى الشرعية أن يحكم بكفر شخص معين يدعي الإسلام ويقتله بذلك كما ينقل عن بعض الغلاة في بعض البوادي فرب قاتل القول أو غافل الفعل من المؤمنين الموقنين ولكنه جاهل أو متأول ولو ظهر الحق في المسألة لقبله مدعناً ورجع عما كان عليه تائباً مستغفراً.

٤ - حرية التجارة وحفظ الأمن في البلاد وتسهيل طرق المواصلات بينها وتنظيم مصلحة البريد والبرق والمبادرة إلى انشاء تلغراف لاسلكي في البلاد ولا سيما عواصمها.

٥ - إرسال كل حكومة معتمداً إلى عاصمة الأخرى يكون وكيلاً لها عندها كما هو المعهود بين جميع الحكومات التي بينها عهود ولها مصالح في البلاد الأخرى.

٦ - بعد حصول هذه التمهيدات يتألف لهذه الحكومات مجلس حلقي يكون هو المرجع في حل مسائل الخلاف ووضع الحدود بين البلاد وجميع ما يتعلق بحفظها وترقية شؤونها. وإننا متى رأينا من أئمة اليمن والحجاز ونجد شروعا في تنفيذ هذا العمل الذي دعوا اليه جميعاً قبل أن تشتد الحاجة إليه بوقوع الحرب العظمى وكثر الحديث فيه - فإن عقلاء الأمة العربية في سائر البلاد وأهل الغيرة من مسلمي الأعاجم يمدونهم بأرائهم

السديدة ومساعداتهم الرشيدة في تنفيذ الاتفاق الحلفي ونظام مجلسه وسائر ما يحتاجون إليه في ذلك وفيما يترتب عليه من إيجاد وسائل الثروة في البلاد.

فيا أيها الائمة المتبعون في بلادكم إنكم لا تعلمون حق العلم قدر إهتمام شعبيكم العربي في غير بلادكم وإهتمام جميع عقلاء الشعوب الإسلامية الأخرى بأمركم وما يقولون عنكم كلما بلغهم شيء من أنباء اختلافكم وتقاتلكم، وما يكتبون اليوم في تاريخكم، مما ينشر قريباً في عصركم، مصححاً لما تنشره الجرائد عنكم، ألا فاعلموا أن جميع العقلاء منهم ومن غيرهم يعلمون علم اليقين أن اتفاقكم خير لكل منكم وأن بقاء هذا الشقاق بينكم أكبر مصاب عليكم وعلى شعبيكم وأمتكم وملتكم «فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم» [سورة الأنفال رقم ٨ الآية ١] والسلام على من اتبع الهدى، ورجح المصلحة العامة على الهوى.



[المنار ج ٢٢ (١٩٢١) ص ٤٤٢ - ٤٧٩].

تمهيد ومقدمة

كتبنا في سنة ١٣٣٤ هـ/ ١٩١٦ م مقالاً عنوانه «المسألة العربية - مقالة للتاريخ»^(١) لم يتيسر لنا نشره إلا بعد زهاء سنة كاملة من وقت كتابته فنشر في الجزء الأول من المجلد العشرين بعد أن أشرنا إليه في تقرير جريدة القبلة من جزء المنار الذي صدر في آخر المحرم سنة ١٣٣٥ (من المجلد التاسع عشر) ولكن بعد أن حذفت منه المراقبة الإنكليزية ما حذفت، وأكرهتنا على تبديل ما كرهت، ولا أعني بالمراقبة الإنكليزية مراقبة قلم المطبوعات في وزارة الداخلية المصرية التي كان يرأسها إنكليزي أمر بالتشديد في مراقبة المنار بما لا يشدد في مراقبة سائر الصحف لأنه في اعتقادهم أشد تأثيراً في أنفس المسلمين بما له من النفوذ الديني^(٢) وإنما أعني مراقبة السلطة الإنكليزية التي كانت تحول إليها مراقبة المطبوعات في الداخلية ما يكتب في مسائل معينة من أهمها المسألة العربية والحجاز. على أننا راعينا في تلك المقالة مقتضى الحال وأحكام الزمان، فسكتنا عن بعض الحقائق وبيّنا بعضها بالتصريح، واضطررنا في البعض الآخر إلى الإيحاء

(١) راجع المنار ج ٢٠ (١٩١٦) ص ٣٣ - ٤٧.

(٢) من أغرب هذا التشديد أننا قد كنا ننقل بعض ما ينشر في الجرائد اليومية فنمنع من نشره بالمنار ألبتة أو يحذف بعضه حتى حذف بعض تقرير مشيخة الأزهر الرسمي في انتقاد مشروع التعليم الأولي عند نشرنا إياه نقلاً عن الجرائد.

والتلويح ، وإننا نذكر في هذا المقال الذي نكتبه بعد إلغاء المراقبة على الصحف في مصر بعض الحقائق ونرجيء بعضها إلى فرصة أخرى، قاصدين مع بيان حقائق التاريخ الموعظة والذكرى، فنقول:

إننا كنا نتوقع وقوع الحرب الأوروبية الكبرى قبل وقوعها بزمان بعيد ولا سيما بعد حرب البلقان خلافاً للجماهير المفكرين الذين كانوا يستبعدونه أو يحيلونه ظناً منهم أن الدول العظمى وصلت إلى درجة الكمال في العقل والفضيلة ومراعاة المصالح الإنسانية العامة بحيث يحلون جميع المشكلات بالأساليب السياسية دون الحرب ولم يصدق هؤلاء بإمكان وقوع هذه الحرب إلا بعد اشتعال نارها بالفعل .

وكنا نعتقد أن الدول الأوروبية الاستعمارية تريد الاستعجال بحل المسألة الشرقية اغتناماً لفرصة تهور الاتحاديين وتنفيرهم للعناصر العثمانية بغلوهم في العصبية التركية، وقد شرحنا هذا الاعتقاد في المقالات العشر التي كتبناها بعنوان «المسألة الشرقية» بمناسبة استيلاء إيطاليا على سواحل برقة وطرابلس الغرب ونشرناها في المؤيد ثم في المنار، وكان نشرها في المؤيد مثيراً لبعض وكلاء الدول الأوروبية وحاملاً لهم على مراجعة العميد البريطاني بمصر وإيعاز العميد إلى رئيس الوزارة المصرية بإيدان صاحب المؤيد بالأمر ووجوب مطالبة إيبي بتخفيف الحملة عن الدول بجملتها وحصر الكلام في إيطاليا ومسألة طرابلس .

وقد حملنا في المنار على الحكومة الاتحادية بما كانت وضعته من أساس الاتفاق مع الدولة البريطانية على جعل العراق منطقة نفوذ اقتصادي لها ومشروع الاتفاق مع فرنسا على مثل ذلك في سورية كما حملنا عليها في اتفاقها السري مع إيطاليا واعتقدنا أن الاتحاديين يريدون تنفيذ وعيدهم في العرب بعد أن أنذرنا غير واحد من زعمائهم بأنهم يبيعوننا ويرقون شعبهم بثماننا، ولأجل هذا اندفع العرب العثمانيون إلى طلب الاستقلال الإداري من الدولة لولاياتهم على طريقة اللامركزية .

ولما أعلنت ألمانية الحرب على روسية جزمنا بأن قد وقعت الحرب العامة المنتظرة وأن دولتنا ستصلى نارها مع ألمانية لما كنا نعلم من الروابط بين زعماء الاتحاديين وبينها وتوقعنا أن تكون الحرب سبباً لحمل حكومة الاتحاديين على تنفيذ ما كانوا يمينون به العرب من الإصلاح وإعطاء الحقوق عقب المؤتمر العربي الأول بباريس، لأن الشدائد هي التي تذهب الأحقاد، وتبعث على الاخلاص في الاتحاد، وخفنا أن يكون ما أحدثوه من العصبية الجنسية سبباً للتنازع الموجب للفشل، ولأجل هذا كتبنا تلك المقالة التي نشرناها في الأهرام ثم في المنار بوصية الشعب العربي بأن يسكت في أثناء الحرب عن مطالبة الدولة بالاصلاح ويكون مع الترك يداً واحدة وكلمة واحدة فيما تقتضيه حالة الحرب من حصر كل القوى في الاستعداد للظفر... وكان لها ما كان من القبول والتأثير الحسن.

وعد الإنكليز باستقلال العرب ومساعدتهم معنا

في هذه الأثناء بلغنا بعض رجال الدولة البريطانية هنا بأن حكومتهم عازمت على العطف على العرب ومساعدتهم بنفوذها الأدبي عند الدولة العثمانية على ما يطلبون من الإصلاح إذا بقيت الدولة على الحياد الذي تتظاهر به وأما إذا انضمت إلى ألمانية في الحرب فإنها تساعدهم على الاستقلال وتكوين دولة عربية.

ولما اصطلت الدولة بنار الحرب وقع الرعب في قلوبنا وكان أخوف ما نخاف عليه بلادنا العربية لأنها خالية من الحصون والمعقل الحربية وبعيدة عن مركز القوة والسلاح في الدولة، ولم نلبث أن استدعانا بعض رجال الدولة البريطانية هنا وبلغونا ثانية أن دولتهم قررت باتفاق الأحزاب مساعدة العرب على الاستقلال في جميع بلادهم وأنها لا تبغي أخذ شيء منها وإذا اضطرت إلى محاربة الترك فيها فإنها تترك لهم كل ما تدخله منها بعد إخراج الترك منه - وأنهم يحبون أن يعرف العرب هذا ويكونوا

مطمئنين آمنين على أنفسهم من جانب البريطانيين فلا يتخذونهم أعداء، وقد جاءنا نبأ من مصدر عال في السودان بمثل ما بلغنا بمصر عن بلاغ من لندن. ثم أطلعونا على منشور يريدون نشره في البلاد العربية بهذا المعنى فلم نر عبارته مفيدة ما وعدونا به بل هي إيهاً محض فاقترحنا عليهم أن يصرحوا فيه بالمراد تصريحاً لا يحتمل التأويل ككونهم يتعهدون باستقلال هذه البلاد إذا ظفروا في الحرب وبحمل حلفائهم على ذلك وبعدم أخذ شيء من البلاد العربية لا باسم الفتح والامتلاك، ولا الحماية ولا الاحتلال، ولا بأي اسم من أمثال هذه الأسماء، وبأنهم يخرجون من البلاد التي دخلوها كالفاو والبصرة والتي سيدخلونها من بعد بلا شرط ولا قيد. وبعد التشاور بينهم ومراجعة حكومتهم العليا بلندن في ذلك حذفوا هذه القيود، وكانوا يرجون منا مساعدة بناءً على تلك الوعود فكتبنا لهم مذكرة بعد مذكرة في الاحتجاج على ما ظهر لنا منهم وبيان خوف العرب على بلادهم من إنكلترا دون سواها واعتقادهم أنها هي الخصم لهم وتحذيرهم من الغرور بما تكتب جرائدهم وبعض الجرائد المداينة لهم من وصفهم بأنهم أصدقاء العرب وأن العرب أصدقاؤهم - وبيان مكان الدولة العثمانية من الإسلام والمسلمين وما هم مستهدفون له من عداوة العالم الإسلامي لهم وفي مقدمته مسلمو الهند وجعلهم إلباً واحداً عليهم إذا هم استولوا على بلاد العراق وسورية ومنها البلاد المقدسة وما يترتب على ذلك من صيرورة الحجاز تحت رحمة تصرفهم مع محاربتهم للدولة التي يعترف لها السواد الأعظم من المسلمين بأنها دولة الخلافة إذ يعتقدون حينئذ حقيقة ما تتهم به دولتهم من عزمها على إزالة الحكم الإسلامي من الأرض - وأن السلطة الإسلامية في نظر المسلمين أهم المهمات. وثانية عقيدة التوحيد لأنها سياجها وحفاظها وأن هذا هو السبب في تعلق مسلمي الأرض بالدولة العثمانية وحبها، وبينا لهم في أول تلك المذكرات أن الاستيلاء على البلاد العربية وحفظ السلطة الأجنبية فيها ليس بالأمر السهل ولا بالمركب المذلل بل يحتاج إلى قوة برية كبيرة جداً لمنع الثورات، الخ.

كان غرضنا من هذه المذكرات اقناع الدولة البريطانية بأنه لا يمكن لها أن تقنع العالم الإسلامي بأن قتلها للدولة العثمانية ليس عدواناً على الإسلام وسلطانه لأجل تقليص ظله من الأرض بل لتحيزها إلى أعدائهم الألمان عليهم وعلى أحلافهم إلا إذا أعطت العهد والميثاق بالاعتراف باستقلال البلاد العربية التي هي مهد الإسلام وفيها معاهده المقدسة الحرمين الشريفان والمسجد الأقصى في القدس ومعاهد العلم ومشاهد الأئمة للشيعة في النجف وكربلاء وهي مظهر حضارة الإسلام العربية، وموطن الخلافتين الأموية والعباسية، مع بيان مع في ذلك من الفوائد السياسية والاقتصادية والأدبية التي شرحناها لهم بالصدق الخالي من شوائب الإيهام، وسننشر هذه المذكرات في يوم من الأيام، مع مكتوبات أخرى في المسألة عظيمة الشأن.

خاب سعيينا إلى ما سعيينا إليه من عهد أو وعد رسمي بذلك ولم نغتر بالايهامات التي كانت تصدر أحياناً من برقيات روتر وأقوال بعض الجرائد الإنكليزية بوعد بريطانية العظمى بالعطف على العرب وما ينتظر من سعادة البلاد العربية إذا تحررت من سلطة الترك وإعادتها مجد هارون الرشيد والمأمون. وعلمنا مما دار بيننا وبين رجالهم الذين بمصر ومن مذاكرتنا مع السر مارك سايكس الذي أرسلته السلطة العليا من لندن إلى مصر والعراق لدرس المسألة العربية سنة ١٩١٥ أن القوم ثابتون على طمعهم في بلادنا وهو ما كنا نعلمه قبل الحرب بسنين كثيرة ونوهنا به في المنار مراراً وكان لهم طمع في مساعدتنا إياهم على إقناع العرب بما أشرنا إليه آنفاً ولو بكتابة شيء ما في جريدة الكوكب التي أنشئت لأجل هذا الخداع فخاب أملهم فينا كما خاب أملنا فيهم.

ما كان بين الإنكليز وأمراء العرب

ولى الإنكليز وجوههم شطر أمراء العرب وزعمائهم في الجزيرة والعراق

وسورية للاستعانة بهم على مناوأة الدولة العثمانية بالخروج عليها أو خذلانها فأعرض عنهم إمام اليمن ووالى الدولة في الحرب كما عاهدها في السلم، وواتاهم أمير نجد وسيد عسير على الوقوف على الحياد، ووالاهم شريف مكة بإعلان استقلال الحجاز ومقاومة طغمة الاتحاد والترقي الطاغية الباغية أولاً ثم بمناوأة الدولة ومحاربتها ومساعدة الجيش الإنكليزي على فتح بيت المقدس والشام، وقد انخدع أهل سورية والعراق بهذه الموالة والمخالفة وصدقوا التغرير الذي كان يوجه إليهم في المنشورات والجرائد ولا سيما جريدة الكوكب - ووافق ذلك شدة طغيان الاتحاديين وتنكيلهم بعرب سورية والعراق تقيلاً وتصليباً وتغريباً وتعذيباً فوجد المضطهدون منهم مهرباً وملجأ من العذاب ففروا إليه بآمال كبيرة إذ ظنوا أن حوادث الزمان قد مهدت السبيل بهذه الحرب واشتغال الدول الأوربية الطامعة بعضها ببعض لاستقلال البلاد العربية وإعادة حضارة العرب الزاهية العالية التي يفتخر بها التاريخ، ولعمري أن الفرصة قد كانت سانحة لو وجد في البلاد العربية زعماء أكفاء يغتتمونها من غير أن يحنوا على الجامعة الإسلامية بإسقاط الدولة العثمانية.

ثورة الحجاز والاتفاق مع بريطانية

كانت حركة الشريف [حسين بن علي] الأولى في الحجاز من النتائج التي تقتضيها المقدمات التي سبقتها بحسب سنة الاجتماع وكان يمكن أن يكون أقل ما يقال فيها ما قلناه عقب حدوثها إما أن تنفع وإما ألا تنفع - وأكبر ما يرجى منها أن تتخذ وسيلة لجمع كلمة العرب في الجزيرة وتنظيم القوة لحفظ البلاد العربية من السقوط تحت سلطة دولة أجنبية إذا غلبت الدولة بالتبع لانكسار حليفتيها الكبيرين ألمانية والنمسة، وكان هذا ما يجب القيام به على من استطاع إليه سبيلاً من كل عربي وكل مسلم أيضاً ولو كان من الترك الذين يهتمهم شأن الإسلام. ولما ذهبت إلى الحجاز عقب ثورته لأداء فريضة الحج صرحت لأميته، وملكه اليوم [الشريف حسين بن

علي]، برأيي وما أعجبني من جعل خروجه وعدائه خاصاً بالاتحاديين الذين فرقوا الكلمة ونكلوا بالعرب السوريين وغيرهم في الوقت الذي هم أحوج فيه إلى التأليف والاتحاد وما يجب من انقاء عداوة الترك وأضعاف الدولة وحصر السعي في جمع كلمة العرب وإيجاد قوة جديدة لهم من السلاح وغيره استعداداً لحفظ حياتهم والنهوض بأمر استقلالهم إذا انكسرت الدولة وحفظ حقوقهم معها إذا هي انتصرت كما يتمنى كل مسلم. وقد ظهر لي منه الموافقة على هذا الرأي وخطبتي التي ألقيتها أمامه في احتفال العيد العام بمبنى وتصديقه إياي في كل مقاصدها برهان رسمي على ذلك مطبوع في جريدة القبلة ومجلة المنار^(١).

على أنني لما عرضت عليه الشروع في مخاطبة أئمة الجزيرة حوله إلى الوحدة وجمع الكلمة قال إنه يرى تأخير ذلك إلى أن يستولي على المدينة المنورة لئلا يظن جيرانه أنه يخطب ودهم خوفاً منهم لا رجاءً وسعيًا للمصلحة العامة - ولم يرضني هذا الجواب فقلت له يمكن أن يكون السعي من قبل بعض وجهاء العرب لا باسمكم بشرط موافقتكم إذا هم وافقوا فأبى إلا إرجاء ذلك: وبعد أن عدت إلى مصر أخبرني وأخبر غيري ببعض من كان في خدمته أنه قال: من هؤلاء الكلاب حتى أتفق معهم؟ اليوم يوجد في الدنيا الأمير فلان والإمام فلان وغداً لا يوجد لا هذا ولا ذاك - وذكر أسماءهم - ولكن هذا الناقل ممن بلونا عليهم الكذب وقد كذب لنا وعلينا وله وعليه. وقد يصدق الكذوب وكان ما قاله هو الواقع بل كان من الواقع أن تقاتل مع ابن سعود بدلاً من أن يتحدا.

ثم إن الشريف [حسين بن علي] بعد أن بايعه أهل الحجاز باسم ملك العرب - واعترف له حلفاؤه من الانكليز والفرنسيين بملك الحجاز فقط - جاهر بعداوة الدولة العثمانية وترك وبذل الجهد في قتالهم فخاب أملنا في

(١) راجع ص ٢٨٢ - ٢٨٨.

وقوف ثورته عند الحد الأدنى مما رجونه منها بعد أن رفض السعي إلى الحد الأعلى أو السماح به وقد أشرنا إلى ذلك بقولنا في بيان الحالة السياسية في الحجاز من الرحلة الحجازية^(١) (ص ٢٨١ من المجلد العشرين) عند الكلام على ما كان يراد من مبايعة الشريف بالخلافة وسعيها إلى مقاومة ذلك: «بت ليلتي أفكر في هذه المسألة . . . وكان رأيي في مسألة الخلافة هو ما قيل لي في هذه الليلة عن رأي الأمير دون من حوله وقد أكبرته لذلك وكان أعجبي من منشوريه الأولين جعل عدواته لفئة الاتحاديين المتغلبة للشعب التركي كله ولا للدولة العثمانية أيضاً - وكذلك كانت الثورة في أول عهدها -».

فمفهوم هذه الجملة الأخيرة أن الثورة الحجازية تحولت عند كتابة هذه النبذة من الرحلة عما كانت عليه من ذلك في أول عهدها ومنه الوقت الذي كنت فيه بمكة، وهذا كل ما كان يمكن التلميح إليه تحت عين المراقبة (وذلك في ربيع الآخر سنة ١٣٣٦ / فبراير سنة ١٩١٨) ولمحت قبل في (ص ٢٨٠)^(٢) إلى الحديث الذي دار بيني وبين الشريف الأمير في شكل حكومة الحجاز الجديدة بقولي إنني ذكرت له رأيي مفصلاً تفصيلاً، وأقول الآن إن ذلك التفصيل كان في بيان محظورات انتحاله لمنصب الخلافة وما يترتب عليه من المفاصد مع كونه هو مبايعاً للسلطان محمد رشاد - وحديث «إذا بويع الخليفتين فاقتلوا الآخر منهما» (رواه مسلم في صحيحه) - وكون بيعة أهل الحجاز له لا تصح لأنهم ليسوا أهل الحل والعقد في الأمة الإسلامية وهم خاضعون لسلطته وحكمة وغير أحرار في اختيارهم - وكراهة العالم الإسلامي كله لثورة الحجاز وغير هذا مما لم يكن التصريح به ممكناً في عهد المراقبة. وقد كان الشريف يؤمل أن أكون من أنصار الثورة وأعمال الحجاز وكان هذا ما يجب عليّ لو جرت الأعمال على ما أعتقد

(٢) المنارج ٢٠ (١٩١٦) ص ٢٨١ أنظر أعلاه ص.

(١) المصدر ذاته، ص ٢٨٠.

صلاحه كما صرحت له عند وداعه ولما لم أفعّل أظهرت حكومته لي العداء وأمرت بمنع المنار من دخول الحجاز بحجة أنني طعنت في رجالها بما يرفع الثقة منها ونشر ذلك في جريدة القبلة ولله الحمد - فلما علمت به كان أول ما خطر على قلبي قوله تعالى «إن الله يدافع عن الذين آمنوا» [سورة الحج رقم ٢٢، الآية ٣٨] فإنه يدفع عني اتهام كثير من الناس إياي بمشايعة هذه الثورة مطلقاً وأردت نشر بلاغ المنع في المنار فمنعني المراقبة الانكليزية على أنه كان نشر في جريدة وادي النيل في الإسكندرية وسعى بعض رجال المكتب العربي في الصلح بحملي على تأويل لما كتبت اقترحوه فلم أقبل ولكنني أشرت إلى سبب ما كتبت وغرضي الصحيح منه لما لا يرضى الشريف على أن غضبه كان لسبب آخر.

والسبب الذي جرأ أمير مكة بالأمس وملك الحجاز اليوم [الشريف حسين بن علي] على ما فعل وجعله لا يبالي بالترك ولا بأمراء جزيرة العرب هو الاتفاق الذي عقده مع بريطانية العظمى قبل الثورة فإنه كان يظن أن سيحكم به جزيرة العرب وسورية والعراق بقوة بريطانية العظمى التي لا تعلوها قوة في العالم. وقد أشرنا إلى ذلك في بيان صفاته من الرحلة الحجازية بقولنا^(١) (ص ٣٥٧ م ٢٠) «ومنها إن ثقته بالدولة البريطانية وتقديره لقوتها وعظمتها لا حدّ لها ولا سلطان لشيء عليهما» فلهذا لم يكن يمكن لأحد اقناعه بغير ما اعتقده وجرى عليه لا ببرهان العقل ولا بحجج النقل، وله في جريدة القبلة أقوال في ذلك غريبة نقلنا بعضها وفيما لم ننقله ما هو أغرب منه حتى ما نشر بعد خذلانها له ولولده فيصل غير مرة - وهذا الإيمان والتسليم لها في حالتي الرضا والغضب هو الذي عطفها عليه وعلى أولاده أخيراً كما يأتي بيانه. على أنه كان يكتّم نص هذا الاتفاق حتى عن أولاده حافظاً إياه مع المکتوبات الرسمية الأخرى في الكيس الأزرق الذي لا تناله غير يده. وقد كان بعض البريطانيّين أطلعني على نص هذا الاتفاق

(١) المنار ٢٠ (١٩١٦) ص ٣٥٧.

بالعربية قبل الثورة وسألني عن رأيي فيه فقلت واجماً متألماً: هذا اتفاق لا يرضى به إلا عدو للعرب أو حمار لا يفهم معناه. فأحمر وجهه ووقعت بيني وبينه مناقشة حادة فيه إلا أنني تأملت في نفسي لجريان كلمة حمار على لساني. وما رأيته قريب مما بلغه الشريف فيصل في دمشق لجريدة المفيد ونشر فيها ونشرناه في الجزء الثالث من هذا المجلد إلا أن فيه تصريحاً بأن غربي سورية ليس عربياً وأنه لا يدخل في الاتفاق لما تدعيه فرنسة من الحقوق فيه وأن ما عداه من البلاد العربية التي لا ينازع انكلترة أحد في نفوذها فيه هو الذي تعترف باستقلال بما يستولي عليه الشريف منه بشروط منها استثناء ولاية البصرة الخاصة بالانكيلز وكون جميع ما تحتاج إليه هذه البلاد التي تستقل باستيلاء الشريف عليها من الموظفين وغير الموظفين مما يحتاج إليه لإدارة البلاد فإنما يطلبه من إنكلترة - واعترافه بجميع ما بينها وبين أمراء العرب وزعمائهم من الاتفاقات والمكاتبات وإن لم يطلع على شيء منها، فالشروط خمسة هذا مضمونها ولا أدري هل عدل شيء منها أم لا، وقد قيل إن لديه معاهدات ومكاتبات أخرى وإنما العبرة بالعمل، فهو الذي لا يماري أحد فيه، وسيأتي ذكر ما انتهى إلى شوطه وشوط أولاده فيه، على أنه قد ظهرت قوادمه وخوافيه.

ما ائتمر به السوريون بمصر [أواخر سنة ١٩١٤ وأوائل سنة ١٩١٥]

اجتمع فريق من أشهر مفكري السوريين المقيمين بمصر في أوائل عهد الحرب لأجل التشاور في مستقبل سورية ودعوا كاتب هذا المقال [محمد رشيد رضا] لحضور اجتماعهم فكان رأي جمهورهم أن الحلفاء سيكونون هم المنتصرين وسيستولون على بلادنا فينبغي أن نخاطبهم فيما نحب أن تكون عليه حكومة البلاد في ظلهم احتياطاً إذ يرجى أن يتساهلوا الآن فيما لا يتساهلون بمثله بعد النصر - فعارضت في ذلك جازماً بأنه لا يجوز لنا أن نخاطب أحداً في شأن بلادنا ونفرض أنه سيكون مستولياً علينا. - وقد

تكرر هذا الاجتماع في عدة مجالس من دورهم تمحست فيها الآراء وكان الرأي الذي انفرد كاتب هذا المقال بعرضه عليهم والاحتجاج على صحته والنضال عنه هو وجوب السعي إلى الاستقلال التام وتكوين دولة عربية إذا انكسر الترك وحلفاؤهم، وأما آراء سائر السوريين من النصارى فكانت تنحصر في رأيين ثم عدل بعضهم رأيي فصارت ثلاثة. الأول - انضمام سورية إلى بعض الدول الأوروبية وتجنسها بجنسيتها وتجعلها جزءاً منها. الثاني - أن تكون مستقلة في إدارتها تحت حماية دولة أوروبية. الثالث - وهو رأيي المعدل - أن تكون مستقلة إذا أمكن تحت رعاية الدول العظمى وبشرط أن يكون لها مستشارون ومراقبون من بعض تلك الدول. وأنا لم أوافق على هذا التعديل لأن الاستقلال فيه صوري لا حقيقي، ولم أقبل في وقت من الأوقات أن يكون لأجنبي في بلادنا أدنى سلطان، ثم وجدنا من غير هذه اللجنة أفراداً واتونا على طلب الاستقلال التام المطلق كما سنذكر بعد.

وقد وضع هؤلاء المؤتمرون مواد أساسية لشكل حكومة البلاد على تقدير استقلالها التام ومواد أخرى للاستقلال الإداري تحت الحماية على تقدير وقوعها وكتبوا للمشروعين معاً مقدمة ووزعت نسخ ما كتب على المؤتمرين وبعد مطالعتها دارت المناقشة فيها وعدل بعض موادها. ولما زدت طلب الاستقلال التام وتكوين دولة عربية في نسختي كتبت في حاشيتها ما يأتي للاحتجاج به كما ذكروا ما يحتاج به طلاب الانضمام إلى الدولة الأجنبية وطلاب الاستقلال الإداري في ظل دولة أجنبية وهذا نصه:

«ويحتاج أصحاب الرأي بأن من وطن نفسه على أن يكون تابعاً لغيره لا يرجى له الارتقاء والوصول إلى الكمال الاجتماعي كمال الاستقلال والحرية الذي تبذل الأمم دماءها وأموالها في سبيله، وأن هذا العصر عصر تكوين الجنسيات فإذا كانت الأمم العزيزة البالغة أعلى درجات الحضارة لا ترضى لجنس من الأجناس أن يساوي جنسها باختيارها سواء كان من عناصر

دولتها أو مستقلاً دونها؛ وسواء كان مثلها أو فوقها أو دونها في العلم والمدنية - فهل يعقل أن ترضى أمة من الأمم أن ترفع شعباً ضعيفاً تستولي عليه بالقوة حتى تساويه بأبناء جنسها؟ هذا محال لا مطمع فيه فالواجب على السوريين وهم أرقى الأمة العربية علماً وحضارة ألا يبخسوا أنفسهم وأمتهم ما أعطاهم الله وأعطاها من الاستعداد، ولا يرضوا بأن يكونوا دون أهل الجبل الأسود والبلغار واليونان، بل يجب أن يقدروا ذلك قدره ويوجهوا أنفسهم إلى أعلى ما تطلبه الأمم من الكمال، ويبدلوا كل ما في وسعهم لنيل الاستقلال، فإن نالوا بالسعي المني فقد تم القصد، وإن صدهم المقدار كان لهم عذر»، اهـ. وهذه النسخة محفوظة كغيرها عندي وثم نسخة عليها تعليق مهم بقلمى عند باشا من باشوات أولئك المؤتمرين. وقد كان ذلك كل ما أثمره اجتماعهم في أواخر سنة ١٩١٤ وأوائل سنة ١٩١٥ وقد سعينا إلى الاتفاق مع غير هؤلاء من كبار السوريين على طلب الاستقلال لبلادنا وتكوين أمة عربية فلم نقنع إلاً بنراً قليلاً من النصارى في مقدمتهم اسكندر بك عمون الخالد الذكر بأستقلال فكره وكرم أخلاقه، وكان هذا قبل تأليف «الحزب السوري» الذي يمثل الوطنية الحق بعد جهاد في تأليفه دام عدة أشهر حتى انتصر طلاب الاستقلال من مؤسسيه على طلاب الاحتلال.

اتفاق سنة ١٩١٦ على قسمة البلاد العربية

وضع هذا الاتفاق كل من السر مارك سايكس المستشرق أحد أعضاء مجلس النواب البريطاني، وموسيو جورج بيكو، الذي كان قنصل فرنسة الجنرال في بيروت إلى عهد اعلان الحلفاء الحرب على الدولة العثمانية، وبعد أن أقنعا دولتيهما به ألفا وفداً وحضرا إلى مصر ثم سافرا إلى جدة لأجل التمهيد لقبوله عند السوريين وملك الحجاز. وقد ألفا في أوائل رجب سنة ١٣٣٥ وأواخر إبريل سنة ١٩١٧ جمعية من السوريين فيها ثلاثة

أو أربعة من المسلمين وواحد من وجهاء الدروز وباقي أعضائها من المسيحيين لأجل الاتفاق بين أبناء ملل البلاد على ما ستكون عليه في ظل هذا الاتفاق قبل إعلانه. (وفي هذه المرة لم يطلب السر مارك سايكس مقابلتي لأنه يئس من استخدامي لمقاصده مما دار بيني وبينه المامه الأول بمصر سنة ١٩١٥) وشاع في تلك الأثناء أنه قد ألفت جمعية سورية بمصر لأجل السعي لاحتلال فرنسا سواحل سورية وجمعية أخرى لإنشاء حكومة مسيحية في سورية تحت اشراف فرنسا ورعايتها أو حمايتها.

ولديّ مذكرات في بعض ما سمعته في تلك الأيام من بعض أعضاء جمعية السر مارك سايكس وغيرها من أهمها قول رجل من أعلم المشتغلين بالسياسة منهم في (٢٨ يونيو [١٩١٧]) أنه فهم من السر مارك سايكس نفسه أنهم يريدون إعطاء سواحل سورية كلها لفرنسة لأنها البلاد التي كان الصليبيون قد احتلوها في أثناء الحروب الصليبية المشهورة - وقوله (في ١٠ أغسطس [١٩١٧]) بعد أن عاد السر مارك سايكس وموسيو جورج بيكو من زيارة ملك الحجاز بجدة أن الشريف وافقهم على أن تكون سواحل سورية لفرنسة وقد ذكر سايكس لمحدثي من أقنع الشريف من المستخدمين عنده بذلك ولقنه ما اقترح هو عليه أن يقوله لموسيو جورج بيكو فأقنعه به فلم يخالف بحرف منه، (ولكن هذا الرجل قال بعد: إنه أوهمهم أنه هو الذي أقنعه والحق أن الملك لم يعارض فيحتاج إلى إقناع) ثم بعد بضعة أيام أخبرني بذلك رجلان آخران ممن كانوا يلقون سايكس أو من أعضاء اللجنة التي ألفتها ثم بعد سماعنا هذا بأسبوع أو أسبوعين جاء القاهرة أحد القواد الذين كانوا مع الأمير فيصل فألفيناه معتقداً أن الملك وافق الإنكليز والفرنسيين على ما قررا في شأن سورية والعراق، ثم سمعت هذا الخبر بعينه بعد شهر من مسلم آخر كان مشتغلاً بهذا العمل مع اللجان. ثم أخبرنا بعض من كانوا مع الأمير فيصل أنه رأوا كتاباً من والده له يذكر فيه ذلك ويعلله بأن فرنسة تحفظ له سواحل سورية من التعدي عليها إلى أن

يصير للدولة العربية أسطول يحميها به على أنها تدفع مبلغاً معيناً للدولة العربية في كل عام ما دامت محتلة في تلك السواحل .

وجملة القول إنه قد تألف بمصر في سنة ١٩١٧ جمعيات ولجان بإيعاز الإنكليز والفرنسيين بعضها لوضع أساس الاتفاق بين الطوائف على ما سيكون عليه نظام البلاد بعد تنفيذ ما علم بالإجمال أن الدولتين الحليفتين اتفقنا عليه ومنه جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود وبعضها لوضع أساس الاتفاق بين العرب واليهود ومن هذه الجماعات جمعية فندق ناسيونال ولم يكن فيها إلا مسلم واحد - وقد كنت كلما سمعت من أحد خبراً من الأخبار في هذا الشأن أجادله بالتي هي أحسن إلا أن يكون مسلماً فإنني أنذره سوء عاقبة السعي مع الساعين في هذه السبيل وما يعقبه من لعنة الملايين له إلى يوم الدين .

وفي أول سنة ١٩١٨ ظهر الاتفاق بين الدولتين بمظهره الرسمي وقد وصل إلى مصر في منتصف شهر فبراير منها بريد أوربة شارحاً ذلك فأمرت المراقبة بمنع الخوض فيه في الجرائد إلى أن تمهد له السياسة ما ترجو أن يكون به مقبولاً عند جماهير السوريين المختلفي الأحزاب والآراء . وكانت وصلت إليّ في هذا البريد جريدة المستقبل العربية التي تصدرها في باريس جمعية موسيو شكري غانم السورية بنفقة الحكومة الفرنسية مفصلة لإعلان هذا الاتفاق في لندرة ثم في باريس كما ذكرناه بعد ذلك في الجزء الأول من مجلد المنار الحادي والعشرين (فليراجعه من شاء عند مطالعة هذه المقالة في ص ٣٤)^(١) .

وعلى أثر ذلك جاءني من أحد وجهاء السوريين المشتغلين بالسياسة مع الانكليز كتاب يدعوني فيه إلى شرب الشاي في داره «مع أخلص المحبين» في مساء ٢٠ فبراير سنة ١٩١٨ فأجبت الدعوة وأنا متوقع أن تكون لتأييد

(١) المنار ج ٢١ (١٩١٨) ص ٣٤ .

الاتفاق الإنكليزي الفرنسي على قسمة البلاد العربية بين الدولتين وعازم على مقاومة ذلك موطناً نفسي على النفي من مصر بهذه المقاومة مستعداً لذلك . وقد رأيت في المكان ما قوي حدسي - رأيت أشهر رجال الحزب الإنكليزي والحزب الفرنسي والحزب الحجازي وحزب الاتحاد اللبناني وأفراد من المستقلين طلاب الاستقلال، وبعض العراقيين من الضباط وغيرهم وفي مقدمتهم طالب بك النقيب والأستاذ [عبد المحسن] الكاظمي ونوري بك السعيد: وبعد شرب الشاي وما يتبعه من الحلوى والفاكهة اقترح على شاعر العرب الكاظمي أن يسمع الحاضرين ما تجود به قريحته من الشعر الاجتماعي فاعتذر بانحراف صحته ثم ارتجل أبياتاً صفق لها القوم تصفيق الإعجاب مراراً لا نذكر منها الآن إلا قوله .

قد منعنا الحق الصراح وأعطي غيرنا حقنا بلا استحقاق

ثم اقترح على الدكتور فارس نمر أحد أصحاب المقطم^(١) أن يلقي خطاباً في موضوع الحال الحاضرة فأجاب .

خطاب الدكتور نمر في شأن اتفاق سنة ١٩١٦

قال الخطيب في فاتحة خطابه إنه مضطر إلى مخاطبة الحاضرين في بيان الحال التي انتهت إليها مسألة وطنهم بصراحة فوق المعتاد ثم أشار إلى ما دار بين الدولتين في مسألة البلاد العربية وقال إن رجالهم العظام صرحوا بأنهم لا يمكنهم أن ينفعوا سورية حول البساط الأخضر في مؤتمر الصلح إلا إذا كان زعماءها متفقين على أمر مستقبلهم فهم يهتموننا بعدم الاتفاق وأن الفرصة الآن سانحة لنا إذا أردنا انقاذ بلادنا من حكم الترك وإذا

(١) إنما صرحت هنا باسم الخطيب مع التزامي كتمان أسماء الأفراد في هذا المقام ولا سيما من كنت منتقداً لرأيهم وعملهم في مسألتنا في كل ما كتبت لأن هذه الخطبة قد ذكرت أخيراً في حفل كبير خطب فيه الخطيب ورددت عليه كما سيأتي .

فاتت هذه الفرصة فلا يمكن أن تعود لنا ولا لأبنائنا وأحفادنا. قال: وأنا أقول إننا لسنا مختلفين بقدر ما يظنون أو يقولون ولا مجال للخلاف في هذا الأمر الجوهرى للبلاد وهو إنقاذها من طغاة الترك. وأما الخلاف فيها عدا ذلك من مستقبل البلاد فأمره سهل متى تم لنا انقاذ البلاد. وقال: إني قرأت تقرير جمعية الاتحاد اللبناني فرأيت أن الخلاف بينها وبيننا بسيط يمكن تلافيه بتعديل خفيف فهي تريد استقلال لبنان ونحن نبغي استقلال لبنان وسورية والعراق أي البلاد العربية (وهنا صفق له الكثيرون) ثم نوه بأننا كلنا عرب ومصلحتنا واحدة.

(وبعد هذا التمهيد بالإسهاب حاول أن يأخذ قراراً من الحاضرين بالأمرين اللذين زعم السرمارك سايكس بخطابه في الجمعية السورية بباريس أنه يمكن للسوريين الأحرار في المهاجر الاتفاق عليهما وهما قلب الحكم التركي وإزالته - واعتماد السوريين على مساعدة فرنسة في السير بأنفسهم في طريق الحياة - أي كاعتماد العراقيين على إنكلترة في ذلك: (راجع ص ٣٥ م ٢١)^(١) فقال:

ألسنا كلنا متفقين على انقاذ بلادنا وتحريرها من ظلم أعدائنا الأتراك وإخراجهم منها؟ - وصار يلتفت إلى الحاضرين من كل جانب فقال له بعضهم نعم وسكت الأكثرون - فقال: ليس بعد هذا أمر يقتضي الاتفاق عليه من الآن إلا إظهار رغبتنا ورجائنا في حلفائنا الكرام ولا سيما إنكلترة وفرنسة أن يساعدونا على إتمام مقاصدنا وأن نحسن الظن بهم ونقوم بما تقتضيه السياسة من إظهار الثقة بهم وإن ظهر لنا من أقوالهم وأعمالهم ما لا ينطبق على أفكار البعض منا، فمن العقل الآن أن نترك البحث في ذلك ومتى صار السوري في سورية واللبناني في لبنان والعراقي في العراق فعند

(١) المنارج ٢١ (١٩١٨) ص ٣٥.

ذلك يكون المجال أمامنا واسعاً في البحث عن مستقبل البلاد.

ثم قال إنه سمع من بعض الحاضرين كلمات تدل على سوء الظن والتشاؤم ومنها قول الكاظمي :

قد منعنا الحق الصراح وأعطي غيرنا حقنا بلا استحقاق

وقال إن هذا في غير محله وأن حقنا لنا لم يأخذه أحد بغير استحقاق،
الخ .

خطاب الكاتب صاحب المنار [محمد رشيد رضا]

ولما أتم خطابه ظهر لي أن ظني في هذا الاجتماع المدبر عين اليقين وأن المراد منه أن يؤخذ من جمهور زعماء السوريين، وكذا العراقيون على قلتهم هنا، اقرار بما قرره الدولتان كما أخذ من جمعية موسيو [شكري] غانم بباريس وهو أنهم يطلبون من الحلفاء إخراج الترك من بلادهم ويفوضون أمرها إلى انكلترا وفرنسة - فنهضت في أثره متصدياً للرد عليه فصفق الأكثرون - وألقيت خطاباً حماسياً تدفق من قلب يقطر دماً افتتحته بقولي إنني اضطررت الآن إلى مواجهة صديق بالرد عليه في وجهه لمصلحة الوطن كما اضطررت من قبل إلى مواجهة صديق آخر بالرد عليه في وجهه لمصلحة الوطن وهو سليمان افندي البستاني، وإن كثيراً من الحاضرين هنا قد كانوا من شهود الاحتفال الذي أقيم للبستاني في فندق الكونتنتال عقب زيارته لسورية ومصر وإرادة العودة إلى الآستانة (وذكرت ملخص موضوع خطابه وردي عليه في ذلك الاحتفال) ثم قلت :

إن صديقنا الخطيب المفوه قال إنه قد اضطر إلى مخاطبتكم بصراحة غير معتادة وأنا أقول إنني مضطر إلى مخاطبتكم بما هو أصرح مما خاطبكم لأنه لا ينبغي أن يكتف عنكم شيء من أمر وطنكم الذي تعدون أرقى أهل

علماء واختباراً كما قلت في تعليل ردي على صديقي [سليمان] البستاني في ذلك الاحتفال المشهور.

قال الخطيب إن الدولتين الحليفتين قد صرحتا بلسان مندوبين رسميين لهما بأنهما لا تستطيعان مساعدتنا في مؤتمر الصلح إذا بقي العدو في بلادنا إلا إذا اتفق زعمائنا في أوربة ومصر وأمريكة على الأمرين اللذين ذكرهما تبعاً للسرمارك سايكس أحد ذينك المندوبين وهذا ما كتبه الخطيب عنكم.

أما أنا فأقول لكم إن الدولتين الحليفتين قد اتفقتا على قسمة بلادكم بينهما لاستعبادكم باستعمارها فقد جاءني جريدة المستقبل الباريسية منذ ثلاث فاطلعت فيها على تفصيل هذا الاتفاق (ولخصته لهم كما نشرته بعد في الجزء الأول من المجلد الحادي والعشرين)^(١) فقاطعتي الدكتور [فارس] نمر قائلاً إنهم صرحوا بأنهم لا يعاملوننا بالضغط والتوسع الاستعماري ووافقه الدكتور [عبد الرحمن] شهنبر فقلت للدكتور نمر لا تقاطعتني فإني ما قاطعتك - قال أريد تفسير العبارة وإيضاحها كما قلت. قلت آخر ما تريد أن تقول به إلى أن أتم كلامي - قال سحبت كلامي. فمضيت في كلامي وهذا ملخصه:

إن الترك ضعفاء وجاهلون مثلنا فلا يستطيعون أن يستعبدونا إذا نحن تنبهنا لحقوقنا وأما إنكلترة وفرنسة فهما أقوى منا في كل شيء فلا نستطيع أن نتفصى من عقابهما إذا هما استولتا علينا - هم أقوى منا في العلم هم أقوى منا في المال هم أقوى منا في السياسة هم أقوى منا في الحرب - وذكرنا الجيوش والسلاح والأساطيل البحرية والجوية - فأنى لنا أن نتفصى من سلطانهم القاهر؟

نعم، قد قالوا إنهم لا يريدون أن يثقلوا علينا بالسيطرة الاستعمارية وأن

(١) المنارج ٢١.

فرنسة تقود السوريين إلى الحياة والاستقلال كما تفعل بريطانية في العراق ولعل مرادهم أنهم يجعلون لنا أميراً منا وكثيراً من المستخدمين، وهذا تصريح بأنهم يريدون استعمار بلادنا والسيادة علينا وإنما يهونون علينا الخطب بأنه استعمار هين لين لا قاس شديد. ونحن نريد أن نكون أحراراً مستقلين، لا عبيداً مسودين، سواء علينا أكان السيد رحيماً بعبده أم لا. على أن هذه الطريقة اللينة في الاستعمار هي أمثل الطرق التي اهتموا إليها بالتجربة ولكنها أمثل وخير لهم لا للشعوب التي يسودونها، فإنها تخدر أعصاب الجماهير وتخدع عامة الأمة بأن حكامها منها ليكونوا خاضعين لها راضين بأحكامها، وبذلك يتعذر على الزعماء العارفين الدفاع عنها والمطالبة بحقوقها، لأنهم لقلتهم تسهل مراقبتهم وإنزال العقاب بهم، إذا لم تكن وراءهم أمة تؤيدهم. قال الفونس اسكيروس في كتابه إميل القرن التاسع عشر: إن شر الحكومات الحكومة المستبدة اللينة وعلل ذلك بنحو ما أشرنا من تخديرها لأعصاب الأمة حتى لا يبقى لها مجال للفكر في الخروج مما هي فيه، والشواهد على هذا في مستعمراتهم في الشرق والغرب ظاهرة جليلة كتونس والجزائر والولايات المستقلة وغير المستقلة في الهند. إنني رأيت أهل الولايات الهندية التي يسمونها مستقلة أبعد من غيرها عن فهم معنى الاستقلال والتفكر فيه دع الاستعداد له والسعي إليه، وعلمت أن رؤساء حكوماتها أطوع للإنكليز من ظلهم وأشد قبولاً لكل ما يقترح عليهم. وأما الولايات التي يدير أمرها الإنكليز بأنفسهم فهي التي تناضل وتنتقد وترجو الاستقلال وتستعد له وتعتقد أن ستأله في يوم من الأيام.

ومن عجائب السخرية أن هؤلاء الناس يدعون تحرير الأمم والشعوب وأنهم يريدون باقتسام بلادنا قودنا إلى الحرية والاستقلال والمستقبل الزاهر الجميل! يسمون الحقائق بأسماء الأضداد، وما أدري بأي مقود أو رسن يريدون أن يقودونا إلى الاستقلال الذي لا نصل إليه بقيادتهم إلا بعد الموت والورود على النار؟ ومتى كانت الشعوب تقاد إلى الاستقلال كما تقاد

الدواب حاملة الأثقال؟ يأخذون منا الممالك ويجودون علينا بالألفاظ والأسماء التي تخفف وقعها على قلوب الجاهلين، «كالحمية والرعاية والاستشارة والمساعدة والانتداب وغيرها».

وقلت: إنني أعتقد اعتقاداً يقيناً أنه إذا كان في بلادنا رجل واحد من هؤلاء الناس أعطي حق المراقبة على حكومتها وسمي عبد السوريين أو عبد العرب فإنه يكون هو السيد المالك بالفعل وتكون جميع الأمة مستعبدة له. للحرية والاستقلال معنى واحد يقابله العبودية وهي حقيقة واحدة لا يتغير معناهما بتغيير أسمائهما. ولو أنهم اتفقوا على أن تكون بلادنا مستقلة استقلالاً تاماً في سياستها وسائر شؤونها وقالوا لنا اتفقوا على صفة حكمها وإدارتها لنساعدكم عليه محتجين باتفاقكم لكان لهذا الطلب معنى، ولكنهم اتفقوا على اغتيالها وأمرونا أن نتفق على طلب هذا منهم لنكون حجة على أنفسنا بأننا بخعنا أنفسنا بأيدينا ثم نسمي الموت حياة والاستعباد استقلالاً. أما الأمر كذلك فالأليق بكرامتنا والواجب على كل منا أن يقبع في كسر بيته (أي في زمن الحرب والحكومة العرفية) وينتظر الفرج من الله تعالى.

وإنني أختتم خطابي بفكاهة تناسب المقام عسى أن يكون أسلوبها الفكاهي مخففاً لمرارة ما سمعتم من تهديد الخطر الأكبر لوطنكم: حكى أن رجلاً مسلماً تنصر في جبل لبنان وذهب إلى «دير قزحيا» الشهير وانتظم في سلك رهبانه، واتفق أن كان الرجل مترفاً وأن وجوده في الدير كان في أيام الصوم الكبير فكان لا يجد من الطعام إلا العدس المسلوق ونحوه من اللماح الخالي من الدسم فاشتد به القرم (شهوة اللحم) فسرق في ليلة دجاجة من دجاج الدير وذبحها وشرع في سلقها بعد أن نام الرهبان فاتفق أن مر بعضهم وشم الرائحة من حجرته فطرق بابه وكلمه فلم يجبه فشكاه إلى الرئيس فجاء الرئيس بنفسه وسأله عما في القدر فقال سمكة يا أبونا، قال من أين جاء السمك في جنح الليل من البحر البعيد إلى هذا الجبل.

قال أما قال سيدنا يسوع بالإيمان يكون لكم كل شيء؟ قال الرئيس بلى وإننا نحب أن نرى هذه السمكة التي جاءت ببركة الإيمان بسيدنا يسوع لنزداد إيماناً بمشاهدة هذه العجيبة - وكشف القدر فرأى الدجاجة، قال هذه دجاجة يا أخ حنا لا سمكة، قال قل سمكة يا سيدنا، قال كيف أقول سمكة وما أنا أراها دجاجة وهل يغير الحقائق تغيير الأسماء؟ قال أتقول إن تغيير الأسماء لا تأثير له يا أبانا؟ قال نعم لا يغير حقيقة المسمى، قال إذاً ماذا كان اسمي أنا؟ قال محمد. قال وما اسمي الآن؟ قال حنا. قال إذا كانت الأسماء لا تغير الحقائق فأنا مسلم أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وآكل الدجاجة وأسافر من الدير صباحاً - فإذا كانت الدجاجة انقلبت سمكة فاستعباد المقتسمين لبلادكم ينقلب استقلالاً والسلام.

فضحك الحاضرون وصفقوا تصفيقاً شديداً وانصرفت وقال لي بعض من شيعني إلى باب الدار من أعضاء حزب الاتحاد اللبناني إنك قد أرحتنا بكشف المخبا وكانوا قد طلبوا مني الخطابة فأبيت والمسألة مرتبة.

محاورة مع ضابط بريطاني

بعد مرور أسبوع على هذا الاجتماع كان الكثيرون من حاضريه يتوقعون اعتقالي فيه أملت بفندق سافواي مقر السلطة العسكرية البريطانية لأجل مقالة للمنار تراقب في المكتب العربي منه ودار بيني وبين ضابط بريطاني في هذا المكتب محاورة كان هو السائل فيها وأنا المجيب أخصها بما يلي:

قال: هل اطلعت على ما دار بباريس بشأن سورية وخطبة السر مارك سايكس؟ قلت: نعم. قال: ما رأيك فيها؟ قلت: إنها تسوء السوريين جداً ولا سيما المسلمين وعللت له ذلك بما هو معلوم بالضرورة. قال: كان الغرض من تلك الخطب والتصريحات إرضاء السوريين فهل جاءت بضد المراد منها؟ قلت: إنها جاءت بالأثر الطبيعي الذي يجب أن يترتب عليها

وإن كان المراد ضده. قال: إن السر مارك سايكس صرح في خطابه بأن الحجاز قد استقل فلا يعقل أن يرفض استقلال سورية التام والحجاز مستقل. قلت: هذه مسألة نظرية ذكرت مع كلام ينقضها وهو أن إنكلترة وفرنسة اتفقتا على اقتسام بلادنا. قال: إنهم صرحوا بترك العزم على السيطرة الاستعمارية. قلت: لا معنى لهذا وقد اقتسمت البلاد إلا أنكم تريدون الفرق والإحسان في إدارتها ونحن نريد الحرية والاستقلال الصحيح، لا الاستعمار اللين اللطيف. وذكرت له اجتماع السوريين وما قلته بشأن الدولتين وقسمتهما للبلاد وهذا التصريح (وهو به عليم) فأجاب جواباً ذكر فيه القسمة ثم عاد إلى حصر الكلام في سورية وفرنسة:

قال: إن قسمة البلاد بيننا وبين فرنسة يراد بها مناطق النفوذ المالي بمعنى أن أحدنا لا يعارض الآخر في منطقتيه بالأعمال المالية وقد صرح وزراء فرنسة رسمياً بأن حكومتهم لا تنوي فتح شيء من البلاد ولا قهر شعب على الخضوع لها فهي تريد مساعدة السوريين مساعدة صداقة لا قهر وتغلب. قلت: إن هذا الكلام يقوله وزراء كل دولة من دول الفريقين المتقاتلين لإقامة الحجة على الفريق الآخر وإقناع الأحرار والاشتراكيين حتى من أهمهم بما لا يرضون الاستمرار على الحرب بدونه. ولأجل هذا تطلبون منا تفويض أمرنا إليكم لتقولوا إن هذه الأمة أو الشعب يطلب منا مساعدته على تحرير نفسه ومساعدته على استقلاله فلا مندوحة عن إجابة طلبه حباً في الإنسانية.

قال: ماذا كان ينبغي أن يقال في هذه المسألة ليرضىكم؟ قلت: لو كانت الدولتان تريدان استقلال بلادنا لعرفتا كيف ترضياننا، ذلك بأن تقولاً إننا قررنا أن تكون البلاد العربية دولة مستقلة كبلجيكة وأنا لا نعقد الصلح إلا إذا كان هذا الشرط مما يقرره مؤتمره. قال: إن فرنسة لم يمكنها أن تصرح بأكثر مما صرحت به ولكن دعنا من الأقوال إلى الأفعال. ماذا تريد أن نفعل لنثبت لكم حسن قصدنا في بلادكم؟ إن جيشنا الآن في

فلسطين ويجوز أن يتمكن من الزحف على دمشق وأخذ سورية ومن المعلوم أن سورية في حالة سيئة من الفقر والضعف وأن كثيراً من رجالها الأحياء منفون ومهاجرون فهل تأمن إذا تركناها وشأنها بعد إخراج الترك منها أن تقع في الفوضى والاختلال وزيادة الحاجة والفتن؟ قلت: إن الكلام فيما ينبغي فعله في سورية ما جاء وقته لأنكم لم تفتحوها ولو فتحتموها وسألتوني لطلبت رؤية البلاد ومن فيها وحينئذ إما أن أقول أتركها ففيها من الرجال من يقوم بأمرها وإما أن أطلب مساعدة مالية مؤقتة، ولكننا نرى أن ما تخافون وقوعه من الفتن في سورية إن تركت وشأنها وقع بالفعل في روسية فهي في فوضى لا أمن فيها على نفس ولا مال ولا مصرف (بنك) ولا معبد ولا مصلحة ثم أنتم لا تقبلون من ألمانية دعوى إبقاء جنودها فيها بحجة من أمثال هذه الحجج كحفظ الأمن وإعادة النظام مع أن البلاد الروسية متاخمة للبلاد الجرمانية ويخشى أن تنقل العدوى منها إليها. فسكت وانتهت المناظرة بذلك.

ملخص حال السوريين بمصر في زمن الحرب

وجملة القول إن السوريين المقيمين بمصر واللاجئين إليها كانوا زمن الحرب في أمر مريع وقد عبث الأجانب بأكثر الذين يتمرسون بالسياسة منهم فكانوا يخدمونهم بكل ما يريدون وقد خاننا أكثر الذي عاهدونا وأقسموا أغلظ الأيمان على السعي لاستقلال البلاد العربية وعدم الرضا باحتلال الأجانب لشيء ما منها فارتد أفراد من أشهر الاستقاليين وآمن أفراد من الاحتلالين وتذبذب آخرون ممن كان يظن فيهم الثبات ومنهم من كان نصف استقالي يرى أنه ينبغي مشايعة الأجنبي على أخذ بعض البلاد العربية في مقابلة مساعدته إيانا على استقلال البعض الآخر غافلاً عن استحالة ذلك فلم توجد جماعة تسعى للاستقلال التام الناجز بصدق وثبات على كثرة ما تألف من اللجان والجمعيات الجمعية الاتحاد اللبناني. بل سميت بعض الجماعات الاحتلالية جمعية الاستقلال. وكان مما سمعته

بأذني من اثنين من مؤسسيها في (٢٠ و ٢١ ربيع الآخر سنة ١٣٣٥ و ١٢ و ١٣ فبراير سنة ١٩١٧) أنهما أمرا مع آخرين بالذهاب إلى سورية من طريق العريش لتأليب العرب وحملهم على الثورة والخروج على الترك فكتبت الجمعية تقريراً بينت فيه أنه يجب العمل في سورية باسم الشريف سواء كان بدعوة البدو إلى القتال أو بغير ذلك فإن لم يفعل الإنكليز ذلك وقعوا في مثل الغلط الذي ارتكبه في العراق فأدى إلى قتال العرب لهم وتأخير فتحه وأن العرب في سورية سيفعلون ذلك إذا لم يكن عملهم باسم الشريف. وكان المتكلم من صنف الضباط قال وإننا اقنعناهم بذلك بالتقرير المشترك وبالكلام - وصدقه رفيقه وهو ممن جاهد بالخطابة والكتابة في هذه السبيل وأرسل إلى بلاد الدروز مرتين لاستمالتهم إلى الإنكليز وكنا قبل ذلك غششنا به وأعطيناه اعتماداً فكان من الخائنين وأراد أن يتوسل بالاعتماد للإيقاع بنا.

المذكرة الاستقلالية للرئيس ولسن

قد كان أول سعي مشترك مع جماعة للاستقلال التام بعد ما بيناه من الجهاد السابق مذكرة كتابية لرئيس جمهورية الولايات المتحدة في أثر ظهوره في ميدان العمل وندائه بحرية الأمم وقعها كاتب هذا والشيخ كامل القصاب واسكندر بك عمون والدكتور [إبراهيم] مشاقة والدكتور [عبد الرحمن] شهبندر وخالد بك الحكيم بيناً فيها أن البلاد السورية وسائر البلاد العربية لا ترغب إلا في الاستقلال التام ولا تقبل غيره باختيارها وأنها إذا استفتيت في ذلك وكانت حرة في الجواب فإن سوادها الأعظم يصدق ما نقوله عنها إذ نحن من أعلم أهل البلاد بحال أمتهم. وقد جاء استفتاء اللجنة الأمريكية بعد ذلك مصدقاً لهذه المذكرة ولعلنا ننشرها بعد.

ولا أترك في هذه الخلاصة التاريخية ما نشر في بعض الجرائد السورية وسمي بعهد السبعة وحقيقته أن الألمان أرسلوا بعد كسر الروس وعقد الصلح معهم جيشاً ألمانياً إلى البلاد العثمانية عن طريق سياستبول فخافت إنكلترا أن تكون وجهته العراق فكان من أعمالهم الاحتياطية بذلك أن أقنع بعض المشتغلين بالسياسية منهم بمصر سبعة من الذين كانوا يجتمعون بهم بأن يسعوا إلى مساعدتهم على تكوين قوة حربية للدفاع عن البلاد العربية على أن تتعهد بريطانيا العظمى بالاعتراف لهم بكل ما يأخذونه من بلادهم بالسيف فيكونون مستقلين فيه . ولما لم توجه تلك القوة الألمانية إلى العراق سكت الإنكليز عن هذا العمل وأعرضوا عنه .

فصل ثان في المسألة العربية بعد انتصار الحلفاء

كل ما سبق بيانه بالإيجاز من أعمال الحلفاء وتمهيدهم السبل لاستعمار البلاد العربية كان في أثناء الحرب التي كانت كفتهم فيها مرجوحة وكان الخوف عليهم أقوى من الرجاء لهم ولذلك كانوا يحاولون إقرار أهل البلاد إياهم ومساعدتهم لهم على استعبادهم مع الشكر لهم على ذلك لأنهم سموه تحريراً للبلاد من ظلم الترك وما كان الترك مستعبدين للناس ولا سالبين لشيء من أملاكهم ولا حرّيتهم الدينية والشخصية ولا أولي جنف في الضرائب بل هم في كل ذلك أوسع حرية ورحمة من جميع الحلفاء في مستعمراتهم . ولولا فظائع بغاة الاتحاديين الأخيرة واستغلال الحكام من الترك والعرب لوسوسة عبد الحميد على نفسه قبلهم لكانت ذنوب الترك كلها سلبية أي أنهم ليسوا معمرين ولا مرقين لشعوب دولتهم في العلوم والفنون والأعمال ولا محسنين لعمارة الأرض واستغلالها .

وقد سبق لنا قول في انتهاء الحرب وكيف كانت لمصلحة الحلفاء وتكرر

ذلك في المنار^(١) ومقالة في «المسألة السورية والأحزاب» بعد الحرب^(٢) وفيها بيان استفتاء اللجنة الأمريكية لأهل البلاد السورية في مستقبلهم وما يسمى الانتداب. ومقالة في «استقلال سورية والعراق»^(٣) وأقوال أخرى في شؤون سورية بعد الاحتلال المختلط فيها ووثائق تاريخية تراجع في مجلدي المنار ٢٠ و ٢١. وقد نشرت الجرائد العربية في سورية ومصر وأمريكة الشمالية والجنوبية الشيء الكثير مما كان من أمر المحتلين قبل الشروع في تنفيذ اتفاق سنة ١٩١٦ وبعده ولا سيما الثورات والقتال في كل من سورية الشمالية والجنوبية (فلسطين) - ولا تزال في ازدياد - وإعلان المؤتمرين السوري والعراقي لاستقلال القطرين وجعل فيصل ملكاً على سورية واختيار أخيه عبدالله ملكاً للعراق وما كان من زحف الجنرال غورو على دمشق وإخراجه لفيصل منها ثم جعله البلاد السورية عدة دول تحت سلطته، كما نقلت عن برقيات أوربة وجرائدها بعض أخبار الثورة الكبرى في العراق التي كانت تقاتل أكثر من مئة ألف جندي من العساكر البريطانية واضطرار إنكلترة بذلك إلى العدول عن جعل العراق تابعة للهند الانكليزية واعلانها العزم على تأسيس دولة عربية بريطانية في بغداد وتأليف حكومة وطنية مؤقتة فيه والاستعداد لانتخاب جمعية وطنية تؤلف الحكومة الثابتة وتختار الأمير أو الملك لها وترشيحهم الشريف فيصل للعراق وبث الدعوة له، وتأليف حكومة جديدة في شرق الأردن تابعة لحكومة القدس الصهيونية الإنكليزية وجعل الأمير عبدالله أميراً عليها بعد أن جاءها من الحجاز بقصد الاستعداد لإخراج فرنسة من سورية وبعث الدعوة لذلك وجدد المبايعة لأخيه «الملك فيصل».

كل ذلك معروف بالتفصيل لقراء المنار في مصر وسورية وأمريكة

(١) راجع ص ٦ من فاتحة المجلد ١٨ ومقالة عاقبة الحرب فيه (ص ٣٣٧).

(٢) ص ١٩٧ منه.

(٣) (ص ٤٣٤) منه.

وسنزيده هنا بياناً وتحقيقاً لم نسبق إلى مثله فيما نعلم كما ينتظره الكثيرون منا ونحمد الله أنه كسابقه حجة بيّنة على أننا كنا على الحق والصواب فيما كنا نصرح به في مصر في أثناء الحرب وبعدها وفي سورية مدة السنة التي أقمناها فيها من اتفاق الحلفاء الإنكليز والفرنسيين بمساعدة الشريفين على استعمار بلادنا السورية والعراقية على ما بينهم من التنازع والخلاف السري والعلني في ذلك. وقد انفردنا بالسبق إلى معرفة ذلك والمجاهرة به والتعرض بذلك للخطر وعدم انخداعنا لأحد في ذلك ولا خداعنا لأحد بل كنا نقول الحق وننصح باتباعه لقومنا ولخصومنا. وهذه منة من أكبر منن الله تعالى علينا ما كنا لولا فضله وتوفيقه أهلاً لها في تلك المواقف التي زلت فيها أقدام الأفراد والشعوب والدول.

نصحنّا للإنكليز والفرنسيين ومذكرتنا للويد جورج

نصحنّا للإنكليز قولاً وكتابة فيما نعتقد أن فيه الخير لنا ولهم وللإنسانية وكان آخر تلك النصائح مذكرة أرسلناها إلى مستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية منذ سنتين كاملتين بيّنا له فيها أن ما كنا نصحنّا به لرجالهم بمصر قد ظهر صدقه وأن ما جروا عليه مع حكومتهم في المسألة العربية مخالفاً له كان هو الخطأ - بما وقع في العراق وسورية ومصر والهند - وأن إنكلترة ستكون هي المغبونة بقسمة تراث العالم الإسلامي بين الحلفاء بعداوة الشرق وحسد الغرب لها وأن عداوة أكثر من ثلاثمائة مليون من المسلمين احتقاراً لهم بضعفهم ليس من العقل والحكمة لأنهم لا يكونون أضعف من ميكروبات الأمراض والأوبئة - وأنهم سيكونون به اتحاداً إسلامياً يساعدهم فيه الروس والألمان ويكون خصماً لهم في زمن هم مستهدفون فيه لعداوة أكثر شعوب أوربة - . وأن الخير لأمتهم في تأسيس الصداقة بينها وبين العالم الإسلامي باستقلال الشعوب العربية (وفي مقدمتها الشعب المصري) والتركية والفارسية جميعاً.

ونصحنا لرجال فرنسة في بيروت بمثل ذلك بعد أن ذكرنا لهم ملخصه ولم نطلب منهم إلا استقلال سورية وريح صداقة الأمة العربية كلها بذلك واتقاء ما يقع عليهم من الغبن بعداوتها ومنه أن سورية لا تسلم لهم في المستقبل وقد قال لنا موسيو روبير دوكيه سكرتير الجنرال غورو أن هذا الرأي جيد وهو من الممكنات دون الخياليات ولكنه يحتاج إلى تمحيص وتفصيل بين عقلاء الفريقين بكثرة البحث ولا سيما في طريقة تنفيذه في الحال الحاضرة.

الشريف فيصل في عهده الأخير بسورية^(١)

ونصحنا للشريف الأكبر [حسين بن علي] - كما تقدم - ثم لنجله الأمير فيصل - فأما الأول فله خلق مطبوع معروف فسهل على مخاطبه أن يعلم ما يقبله ويجري عليه وما لا يمكن أن يقبله. وأما الثاني فقلما يعرف له رأي مستقر أو يثق مختبره بأنه أقنعه بشيء وإن كان غير المختبر له يظن أنه أقنعه بكل شيء للين عريكته ولطف معاشرته وكثرة مواتاته وقلة معارضته وكراهته مواجهة أحد بما يكره إلا إذا غلبه الغضب هو سريع الفيئة بعد الغضب وقد عاشرتة زهاء نصف سنة كنت ألقاه في أكثر أيامها ولم أقف له على عقيدة راسخة في السياسة إلا استحالة إخراج فرنسة وإنكلترة من البلاد العربية الآن ووجوب العمل مع إحداها وخدمة البلاد بمساعدتها في ظل وصايتها، والإستعانة بموادتها على تخفيف وطأتها على أنه لا يصرح بهذا تصريحاً جلياً - وهذه نظرية كل من واتوا الأجانب في هذا الطور الذي نحن فيه كحقي بك العظم وداود بك عمون فلا أرى فرقاً بينهما وبين الأمير فيصل والأمير عبدالله وإن كان أتباع الأميرين يعدون هذين من الخائنين لأمتهم ووطنهم والأميرين من المحررين لها ولعلنا نكتب مقالاً في

(١) إنما لقبناه هنا بالشريف لأنه اللقب المشهور الثابت له وقد صار أميراً مؤقتاً لقسم من سورية من قبل الحلفاء ثم ملكاً عليها بنصب المؤتمر السوري العام وموافقة أعيان الشام ثم مهاجراً سياسياً في أوربة ثم مرشحاً من بريطانية العظمى لدولة العراق.

ترجمة الشريف فيصل وسيرته في سورية يجعل حقيقته ماثلة لكل قارئ.

جاء الأمير فيصل سورية من فرنسا (في ٢٣ ربيع الآخر سنة ١٣٣٨) ١٤ يناير (ك ١ سنة ١٩٢٠) وهو يعتقد أنه باتفاقه مع كليمنصو على قبول الوصاية الفرنسية مع تخفيف شروطها قد خدم سورية أجل خدمة ولكنه لم يستطع أن يقنع حزبه الخاص بذلك وهو الذي عمل له كل شيء وحاول أن يؤلف حزباً من المحافظين يستعين به على ذلك وكان ذلك حزب عبد الرحمن بك اليوسف الفرنسي النزعة الذي سمي بالحزب الوطني ولكنه لم يستطع مساعدته ولا الاستعانة به، بعد أن تعرف إليه وتنكر لحزبه، وظل سلطان الحزب الأول عليه أقوى من سلطانه على الحزب على ما أوقع فيه من الشقاق فالحزب هو الذي منعه من العودة إلى أوربة وحمله على قبول إعلان استقلال سورية وجعله ملكاً عليها وأرضاه بجعل ملكها إرثاً في ذريته ويجعل الراية الحجازية راية لسورية مع زيادة نجم أبيض في الزاوية الحمراء التي هي رمز علم شرفاء مكة فيها وجعل القواعد التي بنى عليها المؤتمر السوري إعلان الاستقلال قائمة على أساس الإعتراف بأنه قد حارب الترك من قبل والده مع جيوش الحلفاء لأجل تحرير البلاد العربية وتحقيق استقلالها الذي كان ينشده أحرارها وأرادوا أن يكون هذا حجة على الحلفاء ولذلك عززوه بتصریحات وزراء الحلفاء التي كانوا يفوهون بها في أيام الحرب كما تقدم بيانه من قبل. وقد كان الواضعون لقرار المؤتمر من أعضاء حزب الاستقلال السوري قد عرفوا الحقائق في هذه الشؤون إذ زالت تلك الظلل والغواشي التي كانت تحجبها عن أبصارهم ثم عرفها كل أحد بعض رفض الحلفاء التصديق على الاستقلال وما كان من أعمالهم العسكرية والإدارية في سورية الجنوبية والشمالية، يدل على ذلك ما كان يلقي في المؤتمر السوري العام بدمشق من الخطب في إنكار تلك الأعمال والظعن فيها وما كان بين المؤتمر وبين الملك فيصل ووزارتيه مما نلم به بعد.

ولقد علم الذين قاموا بدعوة اعلان الاستقلال وتهيئة أسبابها ومقدماتها بعد ممارسة الحوادث أن فيصلاً قائداً للحلفاء موكول إليه حفظ الأمن في المنطقة الشرقية إلى أن يفرغوا من إبرام ما يريدون من أمر مستقبل البلاد - وأنه قوة رسمية ومالية فإن الإنكليز كانوا يدفعون له راتباً وكانوا يعطونه حصّة المنطقة الشرقية من جمرك حيفا وصار الفرنسيين يعطونه مثل ذلك من جمرك بيروت بعد الموادة، وقطعوه عند المحادة، - وأنه يائس من الاستقلال التام الناجز وإن كان أولى من غيره بحبه - وأنه لين سلس كان في أول العهد يسير في البلاد كما يشاء البريطانيون ثم جاءها أخيراً من فرنسة يدعو إلى الاتفاق مع الفرنسيين - فأرادوا أن يستفيدوا بما أوتي من قوة وضعف بما أرادوا من اغتنام فرصة الحرية التي نالتها المنطقة الشرقية باسمه وتحت قيادته بإعلان الإستقلال التام لسورية المتحدة بجميع مناطقها ليجعلوا الحلفاء تجاه أمر واقع بصفة مسالمة لهم معترفة بفضلهم وملكية قائداً من قواد حلفهم، فإن ساعد القدر على قبولهم ذلك فهو المراد وإلا فإن حال البلاد معهم بعده لا يخشى أن يكون شراً مما كان قبله، وذلك أنهم حينئذ ينفذون الاستعمار الذي سموه انتداباً بالقوة العسكرية فيكون وجودهم فيها مخالفاً للحقوق الطبيعية والأساسية ولمعاهدة الصلح الكبرى وما فيها من عهد عصبة الأمم المصرح فيه بأن البلاد المشروط في استقلالها قبول الانتداب يجب أن يكون لأهلها الحق الأول في اختيار الدولة المنتدبة وشكل الحكومة التي ترضاه. وبهذا يكونون غاصبين ويكون للبلاد الحق الذي لا يرد في معارضتهم عند كل فرصة ممكنة. وأما إذا قبل الشعب الانتداب باختياره فإنه يكون قد قتل نفسه بيده.

مجمال ما كان بعد إعلان الاستقلال

أعلن الاستقلال بصفة نادرة المثال وبلغ أمر إعلانه للدول فجعله الحلفاء محلاً للنظر وكان جواب إنكلتره ليفصل أنها تعترف له بصفته حاكماً على رأس حكومة مستقلة لكن يجب أن تقرر الصفة الرسمية في

مؤتمر رسمي ودعته إلى حضور مؤتمر «سان ريمو» فتردد أولاً لأن الرأي العام لم يرتح إلى سفره وفي مقدمته المؤتمر السوري الذي كان يلح عليه بوجوب الاستعداد للدفاع عن البلاد وتأييده جميع الأحزاب. ثم اقتنع الأكثرون باستحسان السفر بعد إلحاح إنكلتره به وقد طلب من الجنرال غورو في ٨ يوليو (تموز) تعيين سفينة تقلّه إلى أوروبا فأجابته بأنه يجب عليه قبل سفره أن يجيبه إلى مطالب طلبها منه من أهمها إباحة استعمال الخط الحديدي من ريارق إلى حلب لنقل الجنود الفرنسية والذخائر الحربية وإنذاره أنه إذا سافر قبل تنفيذ هذه المطالب من طريق آخر فإن فرنسا تكون حرة في أعمالها، ولم يقبل تفويض النظر فيها إلى لجنة مختلطة من العرب والفرنسيين والإنكليز حسب الاتفاق مع الرئيس كليمانصو.

إنذار الجنرال غورو للملك فيصل

ثم أرسل إليه الجنرال غورو في ١٤ يوليو إنذاره المعروف الذي صرح فيه بمطالبه الخمس وهي الاعتراف بالوصاية الفرنسية على سورية بلا شرط ولا قيد وتسليم الخط الحديدي المذكور آنفاً للسلطة العسكرية الفرنسية - وإلغاء الخدمة العسكرية الإجبارية وجعل عدد الجيش المتطوع كما كان في العام الماضي وتسريح سائر الجنود - ومعاقبة المجرمين المؤسسين للعصابات والمحرضين على فرنسا - وقبول ورق البنك السوري الذي أسسته فرنسا بجعله نقداً وطنياً رسمياً. وجعل آخر موعد لإجابة هذه المطالب نصف الليل الذي ينتهي به اليوم ١٨ من الشهر.

لم يكن في وسع الملك فيصل المبادرة إلى إجابة هذه المطالب لأن المؤتمر السوري العام والأحزاب السياسية كلها كانت غير راضية منه ولا من حكومته لعدم قيامها معه بما يجب من الاستعداد لحفظ الاستقلال والدفاع عنه ولهذا اضطروه إلى إسقاط وزارة علي رضا باشا الركابي ثم رأوا أن وزارة هاشم بك الأتاسي التي خلفتها لم تكن أقوى منها فحاولوا إسقاطها،

ولما شعروا بهذا الإنذار الذي أعقبه الضعف والاهمال وسوء الإدارة اشتد هياجهم وسخطهم وسرى الهياج إلى سائر طبقات الأهالي الذين اندفعوا إلى الاستعداد للدفاع عن البلد وصاروا يطعنون في الملك فيصل جَهراً ويتحدثون بالإيقاع به حتى أنه وضع من كان لديه من الجند الحجازي حول داره لحمايتها - وسعى إلى الجنرال غورو ملتمساً منه تعديل مطالبه فأبى .

وفي غرة ذي القعدة - ١٧ يوليو كتب إليّ رئيس الوزارة بأن الملك يرغب أن ألقاه مع جميع أعضاء المؤتمر في داره مساءً فأجبنا الطلب وقابلناه مع وزرائه فشرح لنا الحرج الذي وصلت إليه حال البلاد وتبيح الهوام بغير عقل وخذلان إنكلترة له حتى لا يرجو منها أقل مساعدة كما أبرق إليه محمد بك رستم [حيدر] من لندن وأن للحكومة حججاً على الجنرال غورو لا تستطيع الإدلاء بها في أوربة وله عليها حجج بعضها حق وبعضها باطل ينشرها حيث شاء . ثم طلب من الأعضاء أن يكتب إليهم كل منهم برأيه على حدته في كتب مختومة وعاهدهم على أنه يعمل بها ولا يطلع أحداً عليها، فانصرفوا وهو يحسب أن سيكتبون ولكنهم لم يكتبوا إليه وعدّوا اقتراحه خداعاً يريد أن يحتج به على قبوله للمطالب الفرنسية ويجعل التبعة على المؤتمر .

ثم إن المؤتمر عقد في (٣ ذي القعدة ١٩ يوليو - تموز) اجتماعاً سرياً غير رسمي تبارى فيه الخطباء في الطعن في الحكومة لاعتقادهم أنها قررت التسليم بمطالب الجنرال غورو ثم عقدوا جلسة رسمية اكتظ مكان المستمعين بحاضريها من الوجهاء ورؤساء الأحزاب وأعضائها وقرروا فيها بالإجماع أن قرار المؤتمر التاريخي المتضمن لاستقلال سورية ووحدتها ورفض الهجرة الصهيونية وملكية فيصل قرار واحد إذا نقض بعضه نقض كله وأن كل حكومة تقبل الوصاية لا تكون حكومة شرعية وأنه لا يعتد بمعاهدة لا يقبلها المؤتمر - وقد طبع هذا القرار ونشر في العاصمة .

وفي اليوم التالي (٤ ذي القعدة ٢٠ يوليو) أصدر أمره بتأجيل عقد المؤتمر شهرين لأن المجالس النيابية تقفل في مثل هذه الحال الحربية - وقد قرأ وزير الحربية [يوسف العظمة] الأمر على منبر المؤتمر وكان معه رئيس الوزارة وانصرفا واجهين ممتنعين، وكان بعض الأعضاء يريد عدم امتثال هذا الأمر فأقنعتهم بأن هذا خير للمؤتمر وأني سررت به ولولاه لا اقترحت على الأعضاء أن يقرروا ذلك من تلقاء أنفسهم، ذلك بأن دمشق كانت في أشد الهياج والسخط على ملكها ووزارته سواء في ذلك الأحزاب والجماعات والأفراد وكلهم يرجون من المؤتمر ما لا قبل له به - وما ثم إلا إلزام الملك والوزارة برد إنذار الجنرال غورو والدفاع عن البلد إن هوجمت بغياً وعدواناً أو اسقاطهم وإقامة حاكم عسكري مفوض (دكتاتور) يدافع عن البلاد بكل الوسائل الممكنة، ولا يوجد في البلد من هو أهل لنوط ذلك به والثورة الداخلية غير مأمونة وكل ما يترتب على ذلك من الغوائل يكون حينئذ في عنق المؤتمر الذي لم يأت إثماً ولا أدخر في الخدمة وسعاً، وقد أصبحت الأمة كلها راضية عنه بعد أن كادت الدسائس تغيرها عليه، وأنني علمت أن التجنيد الإجباري الذي قرره الحكومة بضغط المؤتمر وإلحاحه قد كان عملاً صورياً وأنها لم تقصد به إلا إيهام الأمة ما يرضيها وإيهام فرنسة ما يحملها التساهل فيما تطلبه ويطلب منها!

انفض المؤتمر وكانت المراسلة بين الملك فيصل والجنرال غورو على قبول موادّ انذاره متصلة فلما أصر على قبولها كلها أمر الملك قبل كل شيء بتسريح الجيش السوري من ثكناته ومواقعه الحربية وأهمها مضيق مجدل عنجر الحصين في طريق جيش الجنرال غورو الزاحف على الشام فصرح الجيش بغير نظام فترتب على ذلك أن نهب الأسلحة والذخائر وأحدث ثورة في شوارع دمشق وهاج الشعب هياجاً شديداً وكثر التصريح في الشوارع بالهتاف للمؤتمر وبسب الملك فيصل وأبيه والتحدث بخيائنه ووجوب قتله وقد اضطرت الحكومة بمن بقي عندها من الجند لحفظ الأمن أن تقاوم

الثورة بالسلاح حتى أنها استعملت المدافع الرشاشة في ذلك وقتل كثيرون -
قليل ٥٠ وقيل ٧٠ - وجرح كثيرون - قيل ١٥٠ .

قبلت الحكومة برئاسة الملك فيصل جميع مطالب الجنرال غورو ومنها قبول الوصاية بلا شرط ولا قيد فأصبحت بذلك ساقطة مع ملكها غير شرعية بقرار المؤتمر المذكور آنفاً . ثم إنها علمت في اليوم التالي لتسريحها الجيش (وهو ٢١ يوليو) أن جنود الجنرال غورو زاحفة على دمشق وعلمت بعد المراجعة بين الملك وبينه أن حجته على الزحف أن جواب القبول تأخر عن مواعده وهو الساعة الثانية عشرة من نصف الليل وكان قد أصدر أمره للجيش بالزحف ولا يمكنه إيقافه بعد وقد احتل المواقع الحصينة كمجدل عنجر - وهي تقول إنما كان الذي تأخر وصوله إليه هو ما طلبه من التفصيل لأمر التسليم بعد أن وصل إليه البلاغ الرسمي بقبول الشروط في عاليه، وأن سبب تأخر برقية التفصيل انقطاع السلك البرقي باستعمال الجيش الفرنسي له .

عظم الخطب على فيصل ووزرائه لما رأوا أنهم سلموا بقبول الوصاية مع تلك الشروط المخزية ليدفعوا الاحتلال عن دمشق ويبقوا فيها متمتعين في ظل الوصاية وخدمتها بما كانوا عليه بعد أن قالوا في عدم إمكان قبولها ما قالوا من المبالغات ونبذ فيصل من يقبلها بأقبح الألقاب - وعلموا أنهم خسروا كل شيء وظهر لهم أن العقل والكياسة في التسليم أن يكون آخر ما ينفذ من الشروط تسريح الجند - فصدر الأمر لباقي الجيش بالتوقف عن الانسحاب فوقف غربي «خان ميسلون» ووقف الجيش الفرنسي الزاحف وراءه على بعد مرمى القنابل منه وجعلت هذه فرصة لاستئناف المفاوضات في إيقاف الزحف على دمشق وتولى ذلك ساطع بك الحصري، وزير المعارف، فسافر إلى الجنرال غورو فلم يلق نجاحاً .

وفي يوم الخميس (٦ ذي القعدة - ٢٢ يوليو) زار فيصل وزارة الحربية وكلم جموع المتطوعة وحثهم على الجهاد وكان جمع الزعماء ورؤساء

الأحزاب وبلغهم أنه أعلن الحرب رسمياً ونشر ذلك في الجرائد وصلى الجمعة في يومها في الجامع الأموي وصعد المنبر بعد الصلاة وحث الناس على الجهاد معه لحماية الدين والوطن - فقال كثير من الناس إنه يريد بهذا استعادة مكانته - وكان الناس في هياج عظيم وإقبال على التطوع وبذل لكل ما يلزم للمدافعين من طعام وذخيرة - ولكن الوقت لم يعد يتسع لعمل مفيد .

ثم ذهب فيصل مساء الجمعة إلى «الهامة» وجعلها مركز قيادته وبلغنا أنه أرسل أمتعته الخاصة وذخائره إلى «درعا» وأن الحكومة أرسلت أوراقها ودفاترها إليها أيضاً . ثم إنه ذهب في مساء السبت إلى محطة الكسوة بمن معه من وزرائه وخواصه ومنهم بعض الشبان وأرسل إليه طعام العشاء من دار عبد الرحمن بك اليوسف وذلك بعد انتهاء معركة خان ميسلون التي قتل فيها وزير حرييته يوسف بك العظمة وفرقت الطيارات شمل من كان معه من العسكر النظامي ويقال إنهم كانوا زهاء خمسمائة جندي . وعاد في المساء جميل بل الألشي حاجبه الأول وكان ذهب مع موسيو كوس ، الذي كان ضابط الارتباط الفرنسي في دمشق وصار بعد الاحتلال رئيس البعثة الفرنسية للانتداب مدة من الزمن ، إلى الجنرال غورو للاتفاق معه باسم الملك على صفة دخول دمشق وقد عاد معه في سيارته مبتهجاً مسروراً!

وفي صباح يوم الأحد (٩ ذي القعدة ٢٥ يوليو) رأيت نوري باشا السعيد فأخبرني أن الجيش الفرنسي يدخل الشام بين الساعة ٩ والدقيقة ١٠ ويعسكر في «المزة» من ضواحي البلد وأن الملك يدخلها الساعة ١٠ ونصف ولكنه لم يدخلها إلا في منتصف ليلة الاثنين وألف وزارة جديدة من الموالين أو الميالين إلى فرنسة رئيسها علاء الدين بك الدروبي ، وقد كانت عودته إلى دمشق من الغرائب . ورأيت نوري باشا [السعيد] في صباح الاثنين أيضاً فأخبرني بأن القائد الفرنسي قبل الوزارة الجديدة وأنهم لا يعترفون بالملك . فقلت له وكيف عدتم به إلى العاصمة؟ قال لم يكن هذا

برأيي وإنما هو رأى جماعته الذين ورطوه وفي مقدمتهم الدكتور فلان - وفي يوم الثلاثاء بلغت السلطة المحتلة وجوب الخروج من الشام قبل نصف الليل . بلغني ذلك بعد العشاء فذهبت إلى داره لوداعه على ما كان وقع من الجفاء بيننا من قبل الإنذار الفرنسي ، الذي لا علاقة له بالمودة الشخصية فوجدت في الدار أفراداً من الشرطة بلغني أنهم حرس على أثاث الدار لئلا يؤخذ شيء منها ! ومكثت معه نصف ساعة أعجبني فيها صبره وأمله ، وكان ذلك في الساعة الحادية عشرة ليلاً وقد خرج بعد وداعي له بنصف ساعة وحمله قطار خاص بمن معه إلى درعا .

يوسف بك العظمة

ولا بد لي من كتابة كلمة في هذه الخلاصة التاريخية بشأن يوسف بك العظمة الذي كنت معجباً بما أوتي من الذكاء والنظام والهمة والنشاط والوطنية وحسن السلوك منذ عرفته معتمداً للحكومة العربية في بيروت إلى أن عين وزيراً للحربية باقتراحي وسعيي مع بعض الاخوان : استبد يوسف بالعمل في وزارة الحربية وكان يكتم أعماله حتى عن رئيس الوزارة بل يعمي الأمر إلا على الملك فيما أظن ولما اشتدت الأزمة سألته هل هو مستعد للدفاع ؟ قال نعم إذا وافق الملك وإذا خالفناه نخشى أن يلجأ إلى الأجانب . ولما عين ياسين باشا الهاشمي قائداً لموقع العاصمة عقب الإنذار وأظهر للوزارة ما فيها من النقص أي على خلاف ما كان يقول ثم إنه وافق الوزارة على قرار التسليم بما طلب غورو - بعد هذا كله رأيت في بيت الملك مع الوزراء فكلمته وحده كلاماً شديداً أو ذكرته ببعض كلامه فقال ووجهه ممتقع كوجه الميت إنني مذنب وأتحمل تبعه عملي وكدت البارحة أنتحر من الغم فلا تزدد عليّ . ولما خرج إلى الدفاع بمن بقي معه من بقايا جيشة تزين ولبس ملابسه الرسمية ووطن نفسه على الموت - فكان شرفه الذي امتاز به أنه لم يقبل أن يعيش ذليلاً بل أراد أن يكفر بدمه عن ذنب التقصير المبني على الثقة والغرور .

كان فشل هذه المدافعة بخان ميسلون أمراً جلياً لا يجمله مثله ولا مثلي ممن لا يعلم من الحرب شيئاً ولذلك رغب إليّ الكثيرون أن أخطب في المتطوعين وفي بعض المساجد في الحث على الدفاع فامتنعت - كما أبيت مراراً أن أخطب في الاحتفالات السياسية - وقلت لبعض الخواص إنني لا أغش أحداً ولا أستطيع أن أقول في هذا المقام ما أعتقد لأنه يضر الآن ولا ينفع وقد نصحت للعاملين في كل شيء في وقته فلم يفد - على أن ما اندفعت إليه الأمة من أمر الدفاع شريفاً ولا بد منه .

خلاصة آراء فيصل والأمة وغورو

وخلاصة الخلاصة أن فيصلاً كان يعتقد أن الوصاية على البلاد أمر مقضي وأنه لا يمكن إيجاد قوة وطنية تحفظ الاستقلال فكان لذلك يجتهد في إرضاء كل ذي مكانة وتأثير إلى أن يضع الحلفاء القرار الأخير الذي كان يرى أنه قادر على السعي إلى جعل وطأة الوصاية فيه خفيفة، ولذلك لم يهتم بأمر الاستعداد للدفاع بتنظيم قوى العشائر ولا بالجيش النظامي ولم يكن يعتقد أنه يهاجم هذه المهاجمة فلما هوجم لم يجد بداً من الخضوع - فهو لم يستعد للقتال ولو دفاعاً وما اضطر إليه من إيجاد جيش دفاعي جيش منظم بادر إلى تسريحه عند الحاجة إليه، وقد أعلن الحرب في الوقت الذي كان يفاوض في أمر التسليم وهو لا يزال يرى أن رأيه كان هو الصواب وأن كل ما خالفه خطأ وأنه أخطأ لعدم الاستعداد بتنفيذ ما كان يراه بالقررة . وقد صرح بخطته وعمله مراراً في أوربة وبلغنا أنه يريد أن ينشر فيه كتاباً رسمياً .

وأما زعماء الأمة الذين خالفوه فقد بينا أنهم علموا بعد طول الاختبار أن الدولتين شرعتا في تنفيذ ما اتفقتا عليه من استعمار بلادهم فالأولى أن تقاومهم الأمة بالحجة وبالدفاع عن نفسها إذا هاجمها بالقوة ليكون مركزهم فيها مركز المعتصب وقبول الانتداب يجعله شرعياً .

وأما الجنرال غورو فكانت سياسته إخراج الشريف فيصل من سورية مهما تكن حاله لأنه ناصبهم وأغرى العصابات والعشائر بهم وصار له نفوذ في البلاد يمكن أن يكون خطراً عليهم في كل وقت ولا سيما إذا اشتد الخلاف بينهم وبين إنكلترا التي يعدونه من صنائعها المخلصين لها - فهو قد حارب الأمير فيصلاً القائد الحجازي الذي يعده أجنبياً عن سورية لإنقاذ سورية من نفوذ دولة الحجاز ولو باسم الانتداب والوصاية الفرنسية، وعد ما أخذه من السلاح والذخائر الحربية غنيمة حربية، وكل ذلك بين ظاهر في الأقوال والمكتوبات الرسمية.

الطور الأخير للمسألة العربية

إن ما تفاقم على الدولة البريطانية من معضلات المشكلات المالية والسياسية والاستعمارية والاجتماعية وأعيائها دون حل عقدها أو عقدة منها قد اضطرها إلى ترك جزيرة العرب لأمرائها مع اصطناع من أمكن اصطناعه منهم والتمهيد للتدخل الاقتصادي والفني بالتدريج ثم الاستعانة بأوليائها ملك الحجاز وأولاده في سورية وفلسطين والعراق بعد الإغراض عنهم وعدم المبالاة بصراخ جريدة القبلة بمكة بالاستعطاف والاستعانة والتذكير «بالعهود والوعود والنجابة والحسيات البريطانية» وعد حليفها الملك الخروج عن مرضاتها مساوياً للردة والخروج عن رحمة الله تعالى وتمثله في ندائها بقول الشاعر:

فإن كنت مأكولاً فكُن أنت آكلي

والغرض الأول من هذه السياسة والإدارة الموقته تخفيف النفقات عن كاهل دافعي الضرائب في بريطانية العظمى إلى أن تنحل عقد المشكلات وتؤسس وسائل القوة في داخلية البلاد العربية بأقل ما يمكن من النفقة، والثاني دفع إغارة العرب من وراء الأردن على فلسطين ومساعدتهم لأهلها على اليهود الصهيونيين، والثالث إخضاع العراق والاستعانة بحكومته

الجديدة على مقاومة الترك وحلفائهم من مسلمي الشرق وبولشفيك الروس إذا أصروا على تنفيذ فكرة الجامعة الإسلامية ومقاومة الاستعمار الإنكليزي في البلاد العربية والعجمية. وبلغنا أنهم أعادوا الراتب الشهري لملك الحجاز بعد دعوة ولده فيصل الأخيرة إلى لندن فجعلوه ١٨ ألف جنيه أو ٢٠.

عمل وزير المستعمرات بمصر وفلسطين

جاء مستر تشرشل وزير المستعمرات البريطانية مصر في شهر مارس الماضي ونظر في مسألة حظائر الطيران فيها وقابل فيها الوفد العراقي الإنكليزي الذي است حضر لأجل الاتفاق معه على أمور العراق المالية والعسكرية ثم سافر إلى فلسطين فأذن أهلها بدوام السلطة الإنكليزية على البلاد وتنفيذها لوعده بلفور بجعلها وطناً قومياً لليهود، وقابل الشريف عبد الله بن الحسين ملك الحجاز وجعله حاكماً لشرق الأردن بالتبع لحكومة فلسطين واستمداد السلطة من معتمدها السامي وأعطاه من القوة العسكرية والطائرات ما يمكنه من إخضاع كل من يشذ من عرب تلك البلاد عما يراد بها وتأمين ما تنشئه السلطة البريطانية فيها من أسباب المواصلات ووسائل القوة وأولها التلغراف اللاسلكي وحظيرة الطائرات، وبلي ذلك مد السكة الحديدية العسكرية من فلسطين إلى العراق وقد قرروا إعطائه حصّة جمر ك حيفا للداخلية وهي ١٢٠ ألف جنيه في السنة.

تكريم وجيه عراقي لجعفر باشا العسكري

كان في أعضاء الوفد العراقي جعفر باشا العسكري الذي كان أحد قواد الشريف فيصل في حرب فلسطين وسورية وعهد إليه الإنكليز في العراق بتأسيس الجيش الوطني بعد أن ذهب إلى بغداد لأجل بعث الدعوة لجعل الشريف فيصل ملكاً للعراق وكان قد جاء مصر منذ أشهر شاب من وجهاء البصرة المشايخين للإنكليز وهو «عبد القادر بك آل باش أعيان» وقد

دعا هذا الوجيه طائفة من وجهاء مصر وسورية والعراق إلى حفلة شاي في فندق شبرد تكريماً لجعفر باشا في ١٨ مارس ولما جاءني رقعة الدعوة خطر لي أنه ربما كان لها معنى سياسي ولما جئنا الفندق دعينا إلى حديقته لأجل تصويرنا مع المحتفل به مجتمعين فأبيت ذلك مع أفراد آخرين . وبعد شرب الشاي استنشد شاعر العرب الشيخ عبد المحسن الكاظمي فارتجل قصيدة تناسب المقام ، وأثنى عليه أسعد أفندي داغر الشاعر السوري العصري بأبيات مرتجلة في المجلس ثم دعي الدكتور فارس افندي نمر أحد أصحاب المقطم إلى الخطابة فأجاب .

خطاب الدكتور [فارس] نمر في المسألة العربية

بدأ الخطاب بالثناء على الدولة البريطانية والشهادة لها بالرغبة في ترقية الشعوب وتحريرها والإخلاص للعرب فيما وضعوه من بدعة الانتداب قال ولكنني على هذا الاعتقاد فيهم قد انتقدت عليهم تقسيم سورية واستأت منه ورأيته ضاراً بالسوريين مفرقاً لهم ولم أكتم ذلك عنهم بل عاتبت عليه واضع أساسه السر مارك سايكس المحب المخلص للعرب وكلمته بذلك في هذا الفندق الذي نحن فيه فاجابني قائلاً إننا فعلنا هذا لمصلحة العرب أيضاً لأنهم إذا ظلمهم أحد الفريقين وشدد عليهم الوطأة احتجوا عليه بلين الفريق الآخر وحسن إدارته وعدله!

ثم ذكر مسألة مصر والعراق وعزم الإنكليز على منحهما الاستقلال وما يجب من نبذ كل خلاف في هذه السبيل والإجماع على تأييد الحكومتين اللتين تؤسسان في القطرين لأنها تجربة إذا فشلت قضي على الأمة العربية والشرق كله بأنه غير أهل للاستقلال بنفسه . ثم ختم الخطاب بقوله إنه يعتقد أن جميع الحاضرين على رأيه - فصفق له بعض الحاضرين ، وتعقبته بالرد عليه :

خطبة الكاتب [محمد رشيد رضا] في المسألة

افتتحت خطابي بقولي إنني متطفل بالخطابة لم أدع إليها ثم قلت: إنه كان الظاهر من هذه الدعوة أنها شخصية يريد بها المحتفل بتكريم صديق له لا سياسية كما ظهر من خطاب الدكتور عمر. ولو أن الخطيب بين رأيه في الموضوع الذي تكلم فيه ولم يحاول حمل الحاضرين على إقراره عليه وطلب الموافقة عليه بالإجماع لكنا في سعة من السكوت ولكنه قال إنه يظن أن الجميع على رأيه وقد صفق له أفراد وسكت الباقيون فيمكن أن يقال إن السكوت رضى وإقرار، والإجماع السكوتي مختلف فيه عند علماء الأصول بعضهم يقول إنه حجة بشرطه والآخرين يقولون إنه ليس بحجة.

وقد سبق لحضرة الدكتور خطاب في اجتماع مثل هذا طلب فيه الموافقة على ما قاله في اتفاق سنة ١٩١٦ على أثر إعلان الحلفاء له وهو مطالبته بطرد الترك من بلادنا وتفويض أمرها إليهم وتحسين الظن بهم فاضطرت إلى معارضته وقتئذ كما اضطرت الآن وحال ذلك دون موافقة ذلك الحفل على ما اقترحه. ويظهر الآن أنه لا يزال على رأيه الأول بعد أن مزق الحلفاء شمل سورية وجعلوها بضعة ممالك أو دول دينية فأوقد ذلك فيها نيران الثورات والفتن بحيث لم يفعلوا بشيء من بلاد أعدائهم مثل هذا التمزيق والتفكيك في بلاد أصدقائهم!

وأغرب ما جاء في خطابه الآن ما نقله عن السر مارك سايكس الذي شهد به بالإخلاص في حب العرب مع العلم بأنه هو واضع معاهدة اتفاق سنة ١٩١٦ على اقتسام بلادهم واستعبادها، وهو أن هذه القسمة التي قال الخطيب إنه كان قد استاء منها لم يبعثهم عليها إلا شدة حب العرب ومراعاة مصالحهم بما تكون قسمة بلادهم بين سيدين مالكين وسيلة إلى احتجاجهم على من أساء منها وظلم، بفعل من أحسن ورحم، ولكن ما يعملون إذا اتفق الفريقان على الإساءة والظلم؟ وما نحن أولاء نرى وطأة بريطانية العظمى في القسم الجنوبي من سورية أشد من وطأة فرنسة في

القسم الشمالي منها خلافاً للمعهود والمشهور في الاستعمار الذي يشهد فيلسوف فرنسة الاجتماعي غوستاف لوبون بتفضيل المنهج البريطاني فيه على المنهج الفرنسي كما بينه في كتابه روح السياسة أو فلسفة السياسة - ذلك بأن بريطانية زادت على ما شاركت فيه فرنسة من الاستئثار بإدارة البلاد أن جعلتها وطناً قومياً لغرباء اليهود الصهيونيين وقررت تمليكهم رقبة أرض البلاد بإعطائهم الأراضي الأميرية فيها التي هي ملك بيت مال المسلمين وأملاك السلطان عبدالحميد التي اغتصبها من الأهالي وتريد أن تجعلهم أكثر أهل البلاد بالتدريج حتى تخرج عن كونها عربية . وقد بحت أصوات أهل البلاد من إقامة الحجج والبراهين فلم تغن عنهم شيئاً وقد سبق لي في سنة ١٩١٥ جدال عنيف مع السرمارك سايكس في هذا الفندق علمت منه ما يضمرون لبلادنا .

وأما مشروع تأسيس حكومة وطنية في العراق تابعة لوزارة المستعمرات الإنكليزية فهو لا يغر أحداً من العرب لأنهم يطلبون الاستقلال لا الاستعمار الأجنبي ، وغرض الدولة البريطانية منه معروف صرح به ناظر المستعمرات وهو استعمار البلاد بأقل ما يمكن من النفقة لإسكات دافعي الضرائب عن المعارضة للحكومة فيه .

قرن الخطيب مشروع حكومة العراق بمشروع استقلال مصر الذي يطلبه الوفد المصري وأين هو منه؟ إن المصريين يطلبون أن تكون بلادهم دولة مستقلة في داخليتها وخارجيتها ذات مجلس نيابي منتخب وحكومة مسؤولة لديه وسفراء وقناصل في الممالك الأجنبية وأن يعقد بينها وبين إنكلترة اتفاق أو محالفة تحفظ هذه مصالحها وتكون ممتازة بها على غيرها من الدول فإذا كانت إنكلترة تسمح بمثل هذا في العراق يكون اقتراحه وجيهاً جديراً بأن يقبل بالتحفظ الواجب .

(ثم بينت أن الأمة العربية قد عرفت الحقائق فلا تنخدع بخلاصة

الألفاظ ولا يعوزها إلا جمع الكلمة واتحاد كاتحاد الشعب المصري بين أبناء الملل والمذاهب وإلا أضاعت نفسها).

قلت: وإني أذكر في هذا المقام حديثاً لي مع مدير المخابرات البريطانية بدمشق إذ كان تفضل بدعوتي إلى شرب الشاي عنده فجئته مع بديع أفندي الحوراني - ولعله معنا هنا - ودار الحديث بيننا على المائدة في المسألة المصرية ثم في المسألة السورية قال: أترى أن سورية تستغني عن مساعدة أجنبية؟ قلت: لعلكم تظنون أن مثلي يستحي أن يدعي أن بلاده وصلت في الارتقاء والعُمران إلى الدرجة التي تجرئه على القول بأنها تستغني عن مساعدة فلا مندوحة له عن الاعتراف بحاجتها إلى ذلك فتقوم عليه حجتكم بوجوب الوصاية عليها. أنا أقول إن الأمم والشعوب كالأفراد لا يستغني بعضها عن مساعدة بعض - فهذه بريطانيا العظمى التي وصلت إلى ما يعلم كل الناس من الحضارة وسعة الملك وحسن الإدارة والنظام قد اعترف ملكها السابق السياسي العظيم «ادورد» بأنها محتاجة إلى مساعدة رجال من الألمان على تنظيمها - روت ذلك مجلة بريطانية عن أميرة إنكليزية، هي الكونتس ورك، قالت إنه شرب الشاي عندها قبل وفاته بثلاثة أشهر فذكرت له في تحاورها معه بغضه لابن أخته «غليوم» عاهل الألمان فنفي ذلك وذكر لها إعجابه بما وصلت إليه الإدارة الألمانية من الارتقاء والنظام وتمنى لو أن معه رجالاً منهم يتولون إدارة بلاده وقال ولكنهم إذا جاؤوا لا يخرجون، وقد ترجمت هذه المقالة بالعربية ونشرت في مجلة المقتطف المصرية^(١). فإذا كان ملككم يقول بأنكم محتاجون إلى مساعدة أمة أخرى فهل أقول أنا إننا لا نحتاج إلى مساعدة غيرنا ممن نعترف بأنهم أعلم منا وأرقى نظاماً؟ لا، وإنما أقول إن المسألة مسألة طمع

(١) راجع جزء مارس سنة ١٩١٦ من المقتطف وج ٣ م ١٩ من المنار. ونص عبارة الملك المترجمة «ويا حبذا لو حكمنا الألمان المدة الكافية لإصلاح ادارتنا... ولكن المصيبة إنهم إذا أتوا ليحكمونا تعذر علينا الخلاص منهم».

لا مساعدة، إنكم تطمعون في استعمار بلادنا والسيادة عليها وتسمون ذلك مساعدة لإقامة الحجة وتهوين الخطب علينا. إن المساعدة بمعناها اللغوي المعروف من أعمال الخير والبر التي لا مشاحة فيها ولا تنازع ولا خصام فإذا ساعدت فقيراً على معيشته بإعطائه جنيهاً فلا أقاوم ولا أخاصم من يعطيه جنيهاً أو عشر جنيهاً. فما بالكم تختصمون وتتنازعون في قسمة البلاد التي تدعون الرغبة في مساعدتها؟ ثم إن الإقناع بقبول المساعدة الحقيقة لا يكون بقوة السلاح فما بالكم تحتلون البلاد بالجيش المسلح بجميع أنواع الأسلحة وتفتكون بمن لا يخضع لكم من شعوبها؟

ثم سألته بشرفه واستقلاله السكسوني: أي المنطقتين خير في حفظ الأمن العام والحرية الشخصية وعدم التعصبات الدينية والمذهبية؟ المنطقة الشرقية التي يتولى إدارتها العرب الذين بعد عهدهم بالإدارة أم المنطقة الغربية التي يتولاها الفرنسيين، فاعترف بتفضيل المنطقة الشرقية في ذلك: فقلت إذاً يكونون أحوج إلى مساعدتنا منا إلى مساعدتهم. فضحك وضحكنا.

وقد كنت أحب أن أطيل القول في هذا الخطاب بما أشرت إليه من وجوب الاتحاد والتعاون بين الطوائف والتنويه باتحاد الشعب المصري الذي ضربته مثلاً عالياً للشعب السوري وبما ينقصنا من وحدة الزعامة ولكن خشيت ملل الحاضرين الذين فوجئوا من السياسة بما لم يكن ينتظره أكثرهم، ورأيت أن أترك وقتاً لغيري فاكتفيت بالإشارة.

وقد قام بعدي سيد افندي كامل الخطيب الكاتب المصري المشهور فألقى خطاباً بليغا جاء فيه بالكثير النافع للغلة مما كنت أحب الكلام فيه من وجوب التعاون والولاء بين الشعب المصري الممتاز بخصائصه الكثيرة وبين سائر الشعوب العربية وتوسع أيضاً في السياسة الإنكليزية وما لها من المصلحة والمنفعة في إجابة الشعب المصري والأمة العربية إلى الاعتراف لها

بحقها في الاستقلال التام - فكان لخطابه تأثير حسن عام . وتلاه جندي بك إبراهيم صاحب الوطن فتكلم في المسألة الأولى وأجاد .

وبعد أن ختم صاحب الدعوة الاحتفال بالشكر المعتاد وشرع الحفل المجتمع في الانصراف وقف الدكتور عبدالرحمن شهنندر على كرسي واستوقف الناس لسماع كلمة منه فوقفوا وبدأ كلمته بأن السيد رشيد رضا يغلب عليه التشاؤم وهو يجب ترجيح التفاؤل، ثم أثنى على المصريين ومصر ملجأ الأحرار بما يرجى أن يزيد الولاء بينهم وبين إخوانهم السوريين فأجاد .

وإنني اعترف بصدق كلمة صديقي الدكتور شهنندر وإن كنت أنكرت في نفسي ذكرها في ذلك الموقف وأقول إنني كنت منذ اشتغلت بالسياسة غيداراً في السياسة الأوروبية والمطامع الاستعمارية (الغيدار هو الذي يسيء الظن فيصيب) يغلب عليّ التشاؤم من مساعيهم ولم أر فيها مجالاً للتفاؤل وحسن الظن كما شرحت في هذا المقال، وإنني لم أختلف مع صديقي الدكتور شهنندر في مسألة من المسائل التي كنت فيها متشائماً وكان متفائلاً إلاّ وظهر أنني كنت المصيب فليتذكر أول الخلاف في أثر قدومه من العراق إلى مصر وأوسطه وآخره في دعوته إياي مع آخرين إلى إمضاء تقريره المعهود، وفي موقفنا في هذا الاحتفال .

ختم المقال بالتفاؤل بالمآل

وأختم هذا المقال بقولي إنني مؤمن يرى اليأس من روح الله والقنوط من رحمته كفراً، وإنني لا يمنعني التشاؤم وسوء الظن في الطامعين من عمل ولا سعي فأنا لا أزال أرجو إقناع الدولتين المقتسمتين لبلادنا الهاضميتين لحقوقنا بأن الخير لهما وللمدنية والإنسانية أن يتركونا أحراراً في بلادنا حاكمين في شعوبنا وأن يساعدونا على ما نريد من عمران بلادنا بما نطلب المساعدة عليه ويكتفوا منا بالمنافع الاقتصادية والأدبية . ومن سوء الحظ أن

كان سعيي السابق مع غلاة المستعمرين منهم ، وأرجو أن أوفق للسعي مع أحرار المنصفين منهم وهم ولله الحمد كثيرون .

وأود لو يعلم هؤلاء الأحرار حقيقة أمور الشرق من أحرار أهله ولا يكتفوا ببلاغات السياسة الاستعمارية وما يختزله أهلها من أقوال مديري المخابرات لهم .

أود لو يعلم أحرار فرنسة الكرام أن ملك الحجاز وأولاده لا يمثلون الأمة العربية ، بل السواد الأعظم من العرب ومن مسلمي الأعاجم غير راضين عنهم ، وأنه ليس من مصلحة فرنسة معاداة هذه الأمة في هذا البيت منها ولا بجعلها خصماً للترك ، وأنه لا يمكن أن تنال دولتهم عطف العالم الإسلامي مع مقاومتها للعرب .

وأود لو يعلم أحرار إنكلترة ومنصفوها المستقلون ذلك فلا يغتروا باستخدام مستعمرهم لأهل هذا البيت ويظنوا أنهم هم الذين يخضعون لهم هذه الأمة ويرضونها باستعمار بريطانية لبلادهم . على أن الأيام ستعلمهم ما لم يكونوا يعلمون .

وأود لو تعلم الشعوب العربية أن الانتداب الذي فهموا معناه لم يصر أمراً مقضياً ، وأن عصبة الأمم لن تكون ألعوبة بيد المستعمرين ، وأن الرجاء في استقلالهم واستقلال أمثالهم وبناء قواعد الصلة بين الشرق والغرب على أساس العدل وتبادل المنافع من غير سيطرة ولا سيادة للمستعمرين على المستضعفين رجاء قوي يزيده العلم به والسعي إليه قوة ولا بقاء للعمران بدونه «فأما الزيد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال» [سورة الرعد رقم ١٣ الآية ١٧] .

وأود لو يعلم سادة الأمة العربية وكبرائها أنهم لو جمعوا كلمتهم في هذه الفرصة لأسسوا لأنفسهم وحدة حلفية يحفظ بها استقلال كل منهم ويعود

به مجد الأمة العربية وتحيا حضارتها الشريفة التي فاقت حضارة جميع الأمم
بجمعها بين الرفاهة المقصودة من الحضارة وبين الفضيلة ولكنهم أجابوا
داعي شيطان التفريق وتغريه لهم بالمال والمآل «يعدهم ويمنيهم وما يعدهم
الشيطان إلا غروراً» [سورة النساء رقم ٤ الآية ١٢٠] ولم يجيبوا داعي الوحدة
وهو داعي الله تعالى الذي يدعوهم باسم الله تعالى لما يحبيهم، فهذا وقت
الوحدة الداخلية، أمام الدواهي الخارجية، لا وقت فض مشكلات حدود
البلاد ولا تحكيم العصبية الدينية والمذهبية، وليعتبروا بإخوانهم الترك،
الذين قضت عليهم معاهدات الحرب بالزوال والمحق، كيف تحولت حالهم
بجمع الكلمة، والدفاع عن البيضة إلى أن صار الحلفاء القاهرون لهم
ولأحلافهم الذين كانوا أقوى وأعز منهم يعدونهم خطراً عليهم،
ويتسابقون إلى الاتفاق معهم أو التزلف إليهم، ولكن الترك قد وجد فيهم
الزعيم الذي جدد لهم الفخار، ولم يوجد في العرب إلا الزعيم الذي
سجل عليهم الخزي والعار، «فاعتبروا يا أولي الأبصار» [سورة الحشر رقم ٥٩
الآية ٢].

الطور الجديد للمسألة المصرية

١٤٨

[المنار ج ٢٢ (١٩٢١) ص ٤٩٦ - ٥٢٢]

بدأنا مرة بعد أخرى بكتابة مقال مفصل في المسألة المصرية ثم كنا نترك
نشره لسبق الجرائد اليومية إيانا إلى نشر مقالات كثيرة في معنى ما كتبنا ما
غادرت متردماً، بل جاؤوا بالذرة، وأذن الجرّة - كما قيل في المثل - فإن كان
أكثر ما كتب لم يخل من تحرف لجدل أو تحيز إلى فئة فذلك أحرى باستقصاء
أصول المسألة وفروعها - فنكتفي إذاً باستخلاص الزبد من المخيض

واستنباط النتيجة من المقدمات، بكلمات وجيزة تحز في المفصل، وتعطي قارئها من الموعظة والاعتبار والحكم ما لعله لا يجده كله في غيرها.

مقدمة وتمهيد

١ - قد سبق الذكاء الفرنسي الدهاء الإنكليزي إلى معرفة مكانة مصر من ارتباط الشرق بالغرب وما فيها من ينابيع الثروة فمد إليها حسامه نابليون الأول نابغة عصره في الذكاء والإقدام، ولكن الدهاء الإنكليزي قطع ذلك الساعد الذي مد الحسام، ثم أعانت العلوم والفنون الفرنسية محمد علي الكبير على تكوين دولة جديدة عربية، فعارضتها إنكلترا بنفوذ الدولة التركية، حتى وقفتا مدها، وأرجعتها إلى ما وراء حدها، ثم تعاون الدولتان على إرهاب مصر في زمن إسماعيل، ثم سبقت أدهامها إلى احتلالها في عهد توفيق.

٢ - كانت نهضة مصر في عهد محمد علي مادية محضة، الحاكم الأعلى لها شارع ومنفذ ومالك متصرف في البلاد وأهلها تصرف السيد المالك بماله وعبيده، وما كان يرجى أن تتكون في ظل هذا الحكم بهذا العصر أمة، ولا أن تعزز دولة، بل يهدم مستبد مفسد، ما بناه مستبد مصلح، كما هدم إسماعيل المبذر، ما أسسه محمد علي المعمر. حدثني المرحوم حسن عبد الرازق باشا أن قيمة أطيان القطر المصري كلها ما كانت تزيد في آخر مدة إسماعيل عما كان عليه وعلى البلاد من الدين للأجانب.

٣ - إن غايات الأضداد تتصل بمبادئها ففي عهد إسماعيل الذي انتهى إليه الاستبداد في حق ثروة البلاد وإفساد الأخلاق - زرع ونبت غرس الإصلاح الاجتماعي والسياسي والأدبي بإرشاد حكيم الشرق وموقفه السيد جمال الدين الأفغاني مؤسس الحزب الوطني الأول في مصر ومعلم الكتابة والخطابة والسياسة والفلسفة، ولكن بريطانية العظمى كانت بالمرصاد لهذا الإصلاح المعنوي، فناوأته كما ناوأته ذلك الإصلاح المادي، فأغرته توفيق

باشا بنفي السيد جمال الدين من البلاد بعد أن كان قد عاهده - وهو ولي العهد - على العمل بما اقترحه من الإصلاح، ومنه جعل حكومة البلاد نيابية وتعميم التعليم وغير ذلك، ولكنه قال عند خروجه من مصر إنه ترك فيها من يتم ما بدأ وهو مريده الذي أحاط بمبادئه ومقاصده الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

٤ - تجدد في البلاد عهد الإصلاح المادي والمعنوي معاً في أول إمارة توفيق إذ تولى الوزارة مصطفى رياض باشا ذو الفطرة الظاهرة والوطنية الصادقة التي لم تر مصر في تاريخها الحديث وزيراً يدانيه في مجموع أخلاقه وفضائله واستقلاله وعدله وإصلاحه الإداري وإن وجد فيها من الوزراء وغيرهم ألوف فاقوه في العلوم القانونية بأنواعها مع المشاركة في بعض الفنون التي لم يكن يعرفها. فقام هو بإصلاح المالية والإدارة خير قيام. وولى الشيخ محمد عبده إدارة المطبوعات ورئاسة تحرير الجريدة الرسمية فتوسل الشيخ بهذا إلى إصلاح لغة الصحف والدواوين ثم إلى إصلاح التعليم الرسمي وغير الرسمي كما فصلناه في ترجمته وترجمة رياض باشا ولكن كان من سوء حظ مصر أن وقف سير هذا الإصلاح بالثورة العرابية المشؤومة بانتهاؤها بالاحتلال الأجنبي، قاتل الأمم ومفسد الشعوب ومذل البشر.

٥ - توسل الإنكليز إلى الاحتلال بطلب أمير البلاد توفيق واستدراج السلطان صاحب السيادة عليها واستخدام اسمه ونفوذه، وخداع أوربة بإيهامها أنهم يقصدون حماية رعاياها وحفظ أموالها ومصالحها، وطمأنوا هؤلاء وأولئك بأن الاحتلال موقت لا تقصد بريطانيا العظمى فيه لنفسها نفعاً، ولا تنوي سيادة ولا أثرة، وإنما تنوي خدمة مصر وأوربة والإنسانية، ويا طالما خدعوا البشر بمثل هذا الإيهام، ولم تعرف عامة أمم الأرض رياءهم وخداعهم إلا في هذه الأيام، ثم طفقوا يكتنون نفوذهم بالتدريج، ويسيطرون على الإدارة والقضاء والتعليم، ويفسدون أخلاق

العامة بالإباحة التي يسمونها الحرية الشخصية، وأخلاق الخاصة بخدمة الحكومة ذات الرواتب العظيمة، ويمنون على الشعب بأنهم المنقذون له من ظلم الترك وأعوانهم، والمعدون له للاستقلال الذاتي حتى إذا ما استعد له تركوا له بلاده. نعم، إنهم ساعدوا ما كانت البلاد متوجهة إليه من إصلاح الري وترقية الزراعة لتكون البلاد ينبوع ثروة لهم، ولكنهم ندموا أخيراً أنهم لم يحولوا دون تحصيل بعض الأهالي للثروة الواسعة في بلادهم كما يعلم مما يأتي.

٦ - ظل الإنكليز يهدون السبل لضّم مصر إلى مستعمراتهم مدة ثلث قرن وينتظرون الفرص كدأهم، حتى إذا ما اشتعلت نار حرب المدنية المادية الملعونة وآذنوا الدولة العثمانية بالحرب، انتحلوا لأنفسهم ما كان لها من السيادة على مصر، وأعلنوا حمايتهم عليها، وأطلقوا أيديهم في رجالها، وأموالها وغلالها، وحميرها وجبالها، بل تصرفوا في كل شيء للحكومة وللأمة واستخدموه في حرب الدولة العثمانية صاحبة السيادة الشرعية على البلاد التي لم تكن تستخدم في سيادتها أحداً في نفسه ولا تصادره في شيء من ماله، حتى أن الحملة التي وجهت إلى فتح فلسطين في آخر حرب صليبية - كما وصفها رئيس الوزارة البريطانية «لويد جورج»، قد سموها الحملة المصرية، وقد كانت هذه التسمية حقاً وإن قصد بها معنى آخر خفي، وهو الأخذ بثأر قلب الأسد وسائر الصليبيين الذين كسروهم مسلمو مصر وغيرها بقيادة صلاح الدين، قدس الله روحه، وانتزاع البلاد المقدسة من المسلمين بحملة مصرية جل العاملين فيها من شبان مسلمي مصر وجل المال الذي أنفق فيها على السكك الحديدية وغيرها من مال مسلمي مصر، كما أنه تم بمساعدة أشهر الأمراء المنسوين إلى نبي الإسلام، عليه وآله من دونهم الصلاة والسلام، ولو قصدوا بالتسمية معناها الحق، لما صح أن يجازوا المصريين عليها بالرق، بل لوجب أن يشركوهم بهذا الفتح ويجعلوا لهم حظاً من حكم البلاد التي فتحوها كما جعلوا لأنفسهم مثل هذا الحظ

بل أكبر منه في حكم السودان بحجة أنهم شاركوا مصر في فتحها الثاني له بعد إجبارها على تركها إياه، وإن كان خصوا أنفسهم في هذه الشركة بالغنم، وحملوا المصريين فيها الغرم، كما بيناه في مقالة خاصة على أثر الاتفاق على هذه الشركة^(١) بينهم وبين بطرس باشا غالي الذي لا يملك من أمر السودان شيئاً، وذلك بعد أن امتنع مصطفى باشا فهمي رئيس النظار عليهم أن يجعل ذلك الاتفاق بقرار من مجلس النظار محتجاً بأن هذا حق الدولة العثمانية صاحبة السيادة على البلاد وحدها، وكان هذا الامتناع أكبر منقبة لمصطفى باشا فهمي تدل على شرفه ونزاهته واستقلاله، على ما كان من ضعف إرادته معهم واستسلامه.

الحماية البريطانية والوزارة الرشدية

٧ - أعلنت بريطانية العظمى الحماية على مصر بالاتفاق والمواطأة مع وزارة رشدي باشا التي كان عدلي باشا أحد أركانها. وهذه الوزارة هي التي مكنت للإنكليز في البلاد، ومكنتهم من استخدام كل ما تملك الحكومة والأمة من الأعيان والمنافع والأناسي والدواب والأنعام، ولولاها لما استطاع الإنكليز أن يستخدموا زهاء ألفي ألف شاب مصري وينتفعوا بما يقدر بألوف الألوف الكثيرة من الجنيهاً، وقد نقل عنها أنها لم تفعل ذلك إلا عن موعدة وعدوها إياها وهي منح البلاد الاستقلال الإداري بعد انتهاء الحرب، وما كان رجالها أول من خدعته الوعود البريطانية فنقول إنهم لا يفقهون السياسة وأخاديعها. ولما انتهت الحرب وزال الخطر عن بريطانية العظمى وأحلافها، وشعرت بأن أزمة سياسة العالم صارت في قبضة يديها، قلبت لمصر ظهر المجن وشرعت تمهد السبيل لضمها إلى أملاكها، والإجهاز على لغتها العربية التي طالت محاربتهم لها واستبدال اللغة الإنكليزية بها، وجعل السلطان الغالب في هيئتي حكومتها التشريعية

(١) المنارج ١ (١٨٩٩) ص أنظر أعلاه ص

والتنفيذية للإنكليز وغيرهم من الأوروبيين، والقبض على ناصية الثروة والمواصلات التي هي شرايين الحياة الإدارية والمالية في الأمة. وقد ظهرت مبادئ هذه المقاصد في عمل اللجنة التي ألفت لوضع نظام لإلغاء الامتيازات الأجنبية وحصر النفوذ الأجنبي في البريطانيين وقد كان عدلي باشا عضواً فيها. فلما رأت ذلك وزارة رشدي ظهر لها أن هلاك مصر بالاستعباد للإنكليز واقع على يديها، فكبر عليها الأمر، وسدت في وجهها منافذ الحيل، حتى ظهرت مبادئ النهضة الوطنية الجديدة على يد سعد باشا زغلول ورجاله.

تأليف سعد الوفد ومساعدة رشدي وعدلي

٨ - إن خبر تأليف سعد باشا للجنة وطنية تسعى لاستقلال مصر باسم الوفد المصري معروف، ومشايعة وزارة رشدي باشا له غير مجهولة، وقد كانت قيمة مساعدتها حتى السلبية ثمينة، وأعنى بالسلبية عدم مقاومته عند أخذ وثائق التوكيل من ممثلي الأمة للوفد بطلب الاستقلال التام، وقد حاول مستشار الداخلية الإنكليزي منع هذه الوثائق فلما لم يستطع استخدام الوزارة فيه كان عمله أبتراً ناقصاً فكان هذا من أظهر الشواهد على عجز الإنكليز عن التصرف في الأمة بأنفسهم، فهم لم يعملوا شيئاً ضاراً ولا نافعاً إلاً بأيدي المصريين. ولم تكن مساعدة الوزارة لسعد باشا عن تواطؤ وتعاهد على السعي معه إلى الاستقلال التام الذي التزمه إذ لم تكن ترجو هذا وإنما رأت أن قيامه بهذا الأمر يكون وسيلة لها إلى أحد الأمرين إما الحصول على استقلال إداري واسع مع الارتباط بالأمبراطورية بالحماية أو السيادة على ما كانت وعدته به عند إعلان الحماية، وإما إثبات وطنية أفرادها لتعلم الأمة أن موافقتها للدولة البريطانية على إعلان الحماية ومساعدتها إياها على استخدام قوى الحكومة والأمة في الحرب كان عن اجتهاد في خدمة البلاد يغفر لها خطأها فيه حسن النية والتكفير عنه بمساعدة الأمة على طلب الاستقلال.

٩ - إن استعداد الأمم للانقلابات الاجتماعية التي يظهر بها انتقالها من طور إلى طور إنما يتم بأعمال شتى في أزمنة مختلفة تكون كالمقدمات للنتيجة فلا يعلم عند النظر في كل منها منفرداً ما سيفضي إليه أو ما سيجري عليه عند اتصاله بغيره على وجه مخصوص، وإن رجال الاستعمار من الأفرنج يراقبون الشعوب التي يسودونها ليحولوا بينها وبين الأعمال التي تجتمع بها كلمتها فتكون أمة مستقلة بالاستعداد بالقوة، الذي لا بد أن يتبعه الاستقلال بالفعل، فيصرفونها عن هذه الأعمال ويشغلونها بضدها بقدر علمهم واجتهادهم، وقد يخونهم العلم فيعملون بأنفسهم لإعداد الأمة للاستقلال ما لا تستطيع عمله أو ما لا يأتي منها وهم لا يشعرون، فلم يكن لورد كرومر، وقد كان أوسع إنكليز مصر علماً وخبراً وحزماً، يعلم بأن إباحته للمصريين حرية الانتقاد على حكومتهم وأعظم رجالها سيكون سبباً من أسباب جمع كلمتها إذ كانت الحكومات هي السالبة لاستعداد الشعب بمصر والحائلة دون جعله أمة. وإنما كان منتهى اجتهاده في ذلك أن سقوط هيبة الحكومة الوطنية وزوال سلطانها يجعل المصريين خاضعين للإنكليز خانعين لهيبتهم وحدهم، وهم الذين لا يطمع أحد في إضعاف سلطانهم. ولم تكن السلطة العسكرية البريطانية تعلم أن ذلك التصرف في أموال الفلاحين وسائر الطبقات الواطئة وفي أنفسهم يولد عندهم من العلم بضرر السلطة الأجنبية والشعور بكرهاتها وعداوتها ما تشارك به أعلى الطبقات علماً وأشدهم شعوراً فتجعل الأمة كتلة واحدة. بل أقول إن الحكومة البريطانية العليا في لندن كانت تجهل ما تلده لها الدعوة «البروبغندا» التي نشرتها في العالم كله طول سني الحرب لإقناع الأمم كلها بأنها مع حلفائها يقاتلون لتحرير الأمم والشعوب وإزالة ما يريده الألمان وحلفاؤهم من جعل السلطان للقوة دون الحق. وهو توجه أنفس الشعوب المستعمرة أو المستعبدة بالأسماء المختلفة إلى الحرية والاستقلال وبغض

المستعبد واحتقاره والخروج عليه مهما تكن النسبة بعيدة بين قوته وضعفها. كما كانت تجهل بالأولى أن نفي سعد باشا زغلول ورفاقه من مصر عند إظهارهم الاستعداد لطلب الاستقلال يولد في مصر ثورة اجتماعية عامة. كيف وقد سمعت هذه الحكومة ممن كانت تعدّه أعلم رجالها بحال المصريين، وهو مستشار الداخلية السابق، قوله: إذا اشتعلت نار ثورة في مصر فهو يطفئها ببصقة من فمه!

الوحدة المصرية وما حدث من صدعها

١٠ - ظهرت مبادئ استعداد الوحدة المصرية للاستقلال ونبذ السلطة الإنكليزية بعد وقوع أسبابه التي أشرنا إلى بعضها في زهاء ثلث قرن فكانت كلما قاومها الإنكليز تزداد قوة لأنها حقيقية لا صورية مدبرة كما ظنوا بادىء ذي بدء، ولو علموا أنها حقيقية لعالجوها باللين والخدعة، لا بالشدة والصراحة، ولكن هذه الوحدة لم تعش أكثر من عامين حتى فتّت في عضدها التفرق والانقسام، ومن العجيب أن أعظم مظاهر الاعتصام والوحدة، قد كان هو نفسه أعظم مظاهر الانقسام والفرقة، ألا وهو الوفد المصري الذي أجمعت الأمة على الثقة به وجعلت في تصرفه مئات الألوف من الجنيهات، لقد جنى الوفد على نفسه بما جنى على الأمة فخابت فيه الآمال، وغلب يأس الجمهور على الرجاء، وآخرون متحIRON يقولون ما عدا مما بدا؟ وهل لمصر من موسى يأتيها بخبر أو يجد على هذه النار هدى؟ وقد يعجبون لقول مثلي بعد هذا التفرق الذي أشرب العداء، ولم يسلم من الهجر والبذاء، على أكابر الزعماء والرؤساء: إن الوحدة المصرية حقيقية، ولم تكن خدعة صورية، نعم إنني قلت ما قلت على علم، وإنني أثبت رأيي بالدليل:

لا تتمحص الحقائق إلاً بدخولها في جميع الأطوار التي من شأنها التطور بها فما ظهر من التفرق والانقسام في الوحدة المصرية التي أكبرها العالم مدة

ستين يشبه ما كان من إكبار العالم للانقلاب العثماني الذي هتفت له الشعوب العثمانية على اختلاف مللها ونحلها، ولغاتها وتربيتها، وتعاقت وتآخت لأجل تنفيذ قانونه، ثم لم تلبث جميعة الاتحاد والترقي التي أحدثته أن هدمته بيدها، وكذلك هدم الوفد المصري ما حدث على يديه من الوحدة المصرية واجتماع الكلمة عند نفي رئيسه وثلاثة من أعضائه المؤسسين إلى مالطة - ثم عند اطلاقهم من اعتقالهم - ثم في مقاطعة لجنة لورد ملنر وإجماع الأمة على ردها إلى الوفد المصري - ثم في إستقبال لجنة الوفد التي جاءت لاستشارة الأمة في تقرير لورد ملنر - ثم في استقبال الرئيس سعد باشا زغلول بحفاوة عامة اشترك فيها القطر المصري من أدناه إلى أقصاه باحتفالات وزينات وخطب وقصائد ومآدب لم يسبق لها نظير. ولم يبق أحد يجهل أن اتحاد الأمم هو أعظم قوة لها تتبعها سائر القوى إذا ثبتت، ويتكث فتل كل ما يوجد منها إذا نكثت، فما سبب هذا التفرق بعد ظهوره ثمرة الاجتماع بجنوح بريطانيا العظمى إلى استمالة مصر وإرضائها برفع الحماية عنها والاعتراف بالاستقلال لها، مقيداً ذلك بقيود تحفظ بها مصالحها؟

موضوع الاتفاق وسبب الافتراق

١١ - إن ما كان من الوحدة والاتفاق كان على أمر مجمل توجه إليه استعداد جميع طبقات الشعب وهذا التفرق لم يزد إلا قوة ولكن الشعب، لما اتفق على طلب الاستقلال التام، كان أهل الرأي منه يعلمون أن الكمال يقصد في أول السعي وقلما ينال إلا في آخره، وإن المسافة بين الأول والآخر في أعمال الأمم قد تكون قريبة تحسب بالسنين وقد تكون بطيئة تعد بالأحقاب، ومنهم من كان يرى مع هذا أن كل ما يؤخذ من الغاصب فهو ربح، ومن يرى إن أخذ بعض المغصوب قد يتضمن الاعتراف للغاصب ببعض الآخر فالواجب الانتظار لأخذ الحق كله ولو بعد حين. فكان هذا خلافاً يداخل الاتفاق وإن لم يذكر في الوقت الذي لم يظهر من الغاصب

فيه جنوح ما إلى الاعتراف بشيء من الحق لصاحبه، دع الوعد ببذله كله أو بعضه، فلما أثمر سعي الوفد بقوة وحدة الأمة التي تؤيده جنح الإنكليز لإرضاء المصريين بالاعتراف لهم بحقوقهم في إدارة بلادهم واستقلالهم فيها، بشرط اعترافهم هم لبريطانية العظمى بمركز ممتاز في البلاد تحفظ به مصالحها ومنافع أوربة بما اكتسبته من الأهلية لهذا الامتياز بالاحتلال الطويل الذي خدمت البلاد فيه ورقت موارد الثروة فيها وغير ذلك مما تدعيه سواء كان مسلماً أم لا، ودعي الوفد المصري من باريس إلى لندن لأجل المفاوضة في التقرير الذي وضعه لورد ملنر وزير المستعمرات البريطانية لحل إشكال القضية المصرية - لما كان ذلك - ظهر في المسرح عدلي باشا يكن أحد أركان الوزارة الرشدية التي استقالت في سبيل تأييد الوفد فكان وسيطاً بين الوفد ولجنة ملنر التي فوضت الحكومة البريطانية إليها أمر المفاوضة وسبر غور الوفد. وظهرت بتلك الوساطة مبادئ الخلاف الكامن الذي أشرنا إليه، وانتهى بالتفرق والشقاق الذي نشكو منه، فما ثم شيء جديد، إلا وله أصل تليد، كان يتخلل بذور الاستقلال المطلق بذور الاستقلال المقيد بقيد الأباطورية فنبت ذاك أولاً في مصر ونبت هذه بعده في أوربة ثم في مصر، فكان كالزوان بين القمع.

لقد فتن الجمهور المصري تبعاً لوفده بمشروع ملنر وبعد طول البحث فيه والتمحيص له استقر رأي سعد باشا على أنه «حماية مقنعة» الغرض منه جعل مركز الغاصب المبطل شرعياً بقبول الأمة المصرية هذه الحماية المقنعة - ورأى عدلي باشا أنه مشروع جدير بأن يبنى عليه الاتفاق بين إنكلترة ومصر وإنه يمكن تعديل بعض ما يشدد سعد باشا في إنكاره منه. وكان سعد باشا يرى عدم المفاوضة في هذا المشروع، ثم رأى بعد مفاوضة لجنة ملنر التي استدرج إليها أنه لا يجوز جعله أصلاً للاتفاق بين مصر وإنكلترة ولا أساساً للمفاوضات الرسمية إلا إذا ألغيت الحماية وقبلت التحفظات التي وضعها الوفد بعد مشاورة الأمة والإطلاع على رأيها.

واشتد النزاع بينه وبين ملنر مراراً حتى هم بقطع المفاوضات وكان عدلي باشا يعيد المياه إلى مجاريها بلطفه وكياسته فأرضى بذلك الإنكليز وعلقوا آمالهم به وأغضب سعد باشا، وسعد شديد الشكيمة حديد المزاج إذا غضب جرح فأدعى، وعدلي باشا رقيق الطبع من أبعد الناس عن النضال والخصام، ولكن مال إليه بعض أعضاء الوفد وآثروه على رئيسهم في شخصه وفي طريقته، فاجتهدوا أولاً في التآليف بينها، ولولا ذلك لظهر ما نجم من الشقاق بينها في أوربة. على أن سعد باشا أنبأ لجنة الوفد بمصر ببرقية من باريس بأن عدلي باشا مشاق للوفد فلم تنشر ذلك اللجنة وتدارك ذلك الأعضاء هنالك فأصلحوا بينها إصلاحاً التزم فيه عدلي بالآ عمل عملاً إلا بالاتفاق مع الوفد، وحمل سعداً على كتابة برقية تنسخ البرقية الأولى فنشرت هذه دون تلك. ويقال إنهم أقنعوا سعداً بأن يؤلف عدلي وزارة تتولى المفاوضة مع إنكلترة ويكون الوفد بالمرصاد لما يقرره الفريقان فإن كان مرضياً أيده وإلا استأنف جهاده وسعيه.

ثم ظهر الخلاف بين سعد والمشايعين لعدلي من أعضاء وفده فغادره خمسة منهم وعادوا إلى مصر فسبقهم إليها نبأ منه بمخالفتهم له فاستقبلهم جند الوطنية من الشبان أسوأ استقبال منذ بلغوا مرفأ الإسكندرية إلى أن آووا إلى بيوتهم وأسمعوهم أذى كثيراً مشوباً بالوعيد والندر، وأخذوا منهم كتاباً بأنهم على رأي الرئيس ومعه، ولكن لم يمنعهم ذلك من بث الدعوة لعدلي باشا والطعن في سعد باشا والتنفير والصد عنه وكان منهم الغالي والمعتدل في ذلك.

الوزارة العدلية

١٢ - من القضايا التي صارت معروفة للجمهور ومسلمة بين الخصوم أنه لما كان الوفد المصري وعدلي باشا في لندن تقرر لدى الحكومة البريطانية أن يؤلف عدلي باشا بعد عودته إلى مصر وزارة تتولى المفاوضة الرسمية

وعقد الاتفاق بين بريطانية العظمى ومصر على أساس تقرير ملنر بشرط إلغاء الحماية فقط، والشائع إن أعضاء الوفد الذين تحولوا ثمة عن سعد إلى مشايعة عدلي قد تواطأوا معه هنالك على تأييد الوفد له إما بجذب سعد إليهم وإما بنبذه بأكثر الآراء، ولولا هذا التواطؤ لم يقبل عدلي باشا أن يدخل في هذه المعمة وينقض عهده فإنه رجل شديد الاحتياط في حفظ كرامته وشرفه واتقاء القيل والقال، دع الاستهداف للطعن والنضال، وإنهم حاولوا هذا هنا فلما لم يستطيعوا إليه سبيلاً تحيزوا إلى عدلي جهاراً، وإننا نلخص خبر الوزارة بموجز من القول:

سبق أن ذكرنا في المنار الصفة الرسمية لتأليف الوزارة وأنها كانت بسبب البلاغ البريطاني لعظمة السلطان في شأن المفاوضة باستبدال علاقة أخرى بالحماية البريطانية على مصر تربطها بالأمبراطورية وقد اشتهر أن السلطان كان يرغب أن تتولى وزارة محمد توفيق باشا نسيم ذلك لأنها كانت أحظى الوزارات عنده ولما استقالت لأجل هذا العمل عهد إلى محمد مظلوم باشا بتأليف الوزارة المطلوبة فلم يمكن، ويقال إنه ذكر غيره ثم علم أنه لا يمكن أن يقوم بهذا الأمر إلا عدلي باشا.

ولما ألف عدلي باشا الوزارة ذكر في جوابه عن الأمر السلطاني بتأليفها خططها السياسية الناطقة أنها «ستجعل نصب عينيها في المهمة السياسية التي ستقوم بها لتحديد العلاقات الجديدة بين بريطانية العظمى وبين مصر الوصول إلى اتفاق لا يجعل محلاً للشك في استقلال مصر. وستجري في هذه المهمة متشعبة بما تتوق إليه البلاد ومسترشدة بما رسمته إرادة الأمة وستدعو الوفد المصري الذي يرأسه سعد باشا زغلول إلى الاشتراك في العمل لتحقيق هذا الغرض».

وقع هذا القول على إبهام عبارته واضطرابها^(١) أحسن موقع من الأمة

(١) أن نفي إيجاد محل للشك في الاستقلال في الاتفاق لا يقتضي أن يكون اتفاقاً على الاستقلال

فإن آمالها كانت محصورة في الوفد الذي ينطق باسمها فرأت أنه قد وجدت في البلاد حكومة تؤيد الوفد وتعمل معه فأصبحت الأمة والحكومة كلمة واحدة ويداً واحدة بعد أن كانت الحكومة خصماً للأمة منذ تمكن الاحتلال الإنكليزي وأنشأ برائته فيها إلى هذا العهد، لأجل هذا صفقت الأمة لهذه الوزارة وقابلتها بمظاهرات الثقة بها والاهتاف لها مع اهتاف للوفد ولرئيسه سعد باشا.

التفرق والشقاق بين المصريين

١٣ - ثم إن الوزارة أذنت سعد باشا - وهو في باريس - بتأليفها وخطتها وطلبت منه الحضور إلى مصر للتعاون معها على العمل فبادر فقابلته الأمة من أعلى طبقاتها إلى أدناها في جميع البلاد من أدناها إلى أقصاها، بمظاهر من الحفاوة والتكريم، لم يسبق لها شبه ولا نظير، فكانت الأمة كالمجموعة على ما قامت به جميع هيئاتها النظامية المنتخبة وسائر ممثليها من تكريمه وإعلان الثقة به في المحافل العامة والمآدب الخاصة، ولكن هذا الإجماع لم يكن تاماً عاماً سالماً من الشذوذ الخفي بل كان بعض أعضاء الوفد الذين خرجوا من أوربة مغاضبين وبعض الحاسدين الذين زادهم ما رأوا حسداً يخفون في أنفسهم ما لا يبدون للناس فلما تعذر التوفيق بين الوفد والوزارة أو بين رئيسيهما ظهر ما كان خفياً وصار أعضاء الوفد المغاضبون لرئيسهم يتسللون من «بيت الأمة» لواداً، وينفضون إلى الوزارة ثباتاً وأفراداً، ثم استمالوا هم والوزارة إليهم آخرين منهم، وحمي وطيس الخلاف والجدل؛ وصرح رئيس الوفد بعدم الثقة بتولي الوزارة للمفاوضة مع الحكومة

التام المطلوب فإنه نفي بينه وبين استقلال مبهم ثلاث مراتب - الجعل والمحل والشك - فإذا كان الاتفاق على أن تكون مصر كـبعض إمارات الهند أو الجزائر التي تسمى مستعمرات مستقلة فإنه يصدق عليه ما ذكر. والاسترشاد بما رسمته إرادة الأمة لا يقتضي اتباع إدارتها وعدم تجاوزه.

(٢) بيت الأمة لقب وضع لدار سعد باشا زغلول.

الإنكليزية والاتفاق معها على مستقبل مصر، فعارضته الوزارة وقاومته بكل ما لدى الحكومة من حول وقوة؛ تظاهرها في ذلك السلطة المحتلة، ومن ورائها الأمة البريطانية بحكومتها وجرائدها؛ وبها من قوى هائلة تستغيث من هولها الأمم، وتحشى صولتها كبرى الدول، فظهر بذلك صدق ما قيل من أنه قد تقرر في إنكلترا أن يتولى عدلي باشا الوزارة ويؤيده الوفد ثم يكون هو الذي يعقد الاتفاق بين بريطانية العظمى ومصر على قواعد تقرير ملنر بشرط إلغاء الحماية واستبدال علاقة بريطانية أخرى بها.

فوقع بذلك الشقاق في الأمة؛ وانشقت عصا تلك الوحدة التي ليس لمصر من دونها حول ولا قوة؛ فكان هذا أول طلائع الظفر البريطاني الذي يغالب جميع الخطوب بالصبر والجلد، مع الدأب في العمل.

وقل من جد في أمر يحاوله واستعمل الصبر إلا فاز بالظفر

فقيم كان هذا الشقاق الذي شوه تلك السمعة الشريفة التي نالتها مصر في العالم كله بوحدها واتفاق كلمتها مدة عامين؟ هل هو شقاق في المذهب السياسي أم تنازع على الزعامة والرئاسة بين الأفراد وانتصار كل فريق لزعيم لتفضيله إياه في الزعامة للمصلحة العامة أو المنفعة الخاصة؟ ومن المذنب المسؤول؟ وأي الحزبين هو الظافر وأيهم المغبون؟

موضوع الشقاق وزعيماه

١٤ - من القضايا التي صارت معروفة لكل أحد أن وحدة الأمة المصرية التي كان يمثلها سعد باشا زغلول رئيس الوفد المصري قد انصدعت فصارت الأمة في طريق السعي إلى استقلالها فريقين - وأن زعيم الفريق الأكبر أو الأكثر هو سعد باشا ويعبر عن أفراد حزبه بالسعديين، وأن زعيم الفريق الأصغر أو الأقل هو عدلي باشا ويعبر عن أفراد حزبه بالعدليين، وأن كل قوة سعد مستمدة من الأمة، وأن جل قوة عدلي مستمدة من

الحكومة المصرية التي هو رئيسها والسلطة البريطانية الموحدة لهذه الحكومة - وأن هذا الصدد قد كان من قبل الزعماء الذين أسسوا بناء الوحدة بما كان من استعداد الأمة له وهم زعماء هذه الوزارة وزعماء الوفد الذي تأسس بمساعدتها بما وقع في الخلاف بينهم فهم المسؤولون - وأن التنازع على رئاسة الوفد الرسمي الذي يتولى عقد الاتفاق بين بريطانيا العظمى ومصر إذا أمكن قد كان من أسباب هذا الخلاف .

هذه قضايا لا مراء فيها والعدليون يتهمون سعداً بأنه لا عذر له في الامتناع من تأييد الوزارة إلا حب الرئاسة وقد أذاع كتابهم في جرائدهم وغيرها أن المسألة شخصية، وهذا عار كبير على الأمة بأسرها . وسعد باشا يحتج بأنه يجب أن يكون هو الرئيس للوفد الرسمي لأنه هو الممثل للأمة التي وعدت الحكومة باتباع إرادتها في قضيتها السياسية والوزارة الحاضرة ليست إلا وزارة الحماية الإنكليزية فهي مظهر للسلطة البريطانية فإذا كانت هي التي تتولى إدارة المفاوضة ثم الاتفاق مع بريطانيا فكأن ملك الإنكليز هو الذي يتفق مع نفسه، وأن ما تعتذر به الوزارة أو تحتج به على ما تحرص عليه من جعل رئاسة الوفد الرسمي لرئيسها - وهو أن التقاليد المتبعة في جميع الدول أن رئيس الحكومة هو الذي يرأس كل جماعة رسمية يكون فيها وهو الذي يعقد المحادثات والاتفاقات مع الحكومات الأخرى - عذر باطل وحجة داحضة فإن ما ذكروه من تقاليد الحكومات المستقلة النيابية التي يمثل رئيسها الحكومة والأمة جميعاً إذ لا يكون رئيساً لها إلا بتأييد مجلس نوابها الممثل للأمة، وهذا مباين لحال الوزارة المصرية .

ويقول العدليون إن الوزارة أجابت سعد باشا إلى جميع ما اشترطه لتأييد الوفد لها إلا مسألة الرئاسة فمهما يكن له من حجة على طلب هذه الرئاسة لنفسه، فليس له أن يوقع الشقاق في الأمة لأجله، وناهيك بقبول كون أكثر أعضاء الوفد الرسمي من أعضاء وفد الأمة الذين يختارهم رئيسه وكون الثقة بشخص عدلي باشا لا نزاع فيها - وسعد باشا وحزبه يردّون

هذا القول بكلام لم ينشروه كله في الجرائد فينكرون إجابة ما عدا شرط الرئاسة من شروط الوفد فقد كان أهم الشروط إصدار المرسوم السلطاني ناطقاً بتحديد الأساس الذي تجري فيه المفاوضة على ما يتفق مع مطلب الأمة ومبادئ الوفد كالنص على إلغاء الحماية البريطانية على مصر حتى أمام الدول الأجنبية وعلى الاستقلال الدولي التام المطلق في الداخل والخارج، ويليه شرطاً إلغاء الحكومة العرفية والمراقبة على الصحف لتكون الأمة وصحفها حرة في أقوالها وأفعالها لا مسيطر عليها في إبداء رأيها إلا القانون، فلم ينفذ شيء من ذلك - ويقولون أيضاً إن الرئيس لم تبق له ثقة باقتدار عدلي باشا على تحقيق مقصد الأمة المصرية بعد أن تمحصت قضيتها لأنه يرضى بدون ما ترضاه، ولا ثقة له بأعضاء الوفد المتحيزين إليه فهذا كله مما كتب. وهو يفيد أنه لم يعد اشتراط كون أكثرية الوفد الرسمي من أعضاء الوفد غير الرسمي مفيداً، فإذا ألف عدلي الوفد الرسمي فجعل ثلثهم من رجال الحكومة الذين على رأيه والثلثين من أعضاء الوفد غير الرسمي وكان نصفهم من المتحيزين إليه تكون بيده الأكثرية الساحقة، وإذا كان مع هذا هو الرئيس الذي يتولى إدارة المفاوضة فلا يبقى لرأي سعد باشا معه تأثير - فلماذا اشترط أن يكون هو الرئيس للوفد الرسمي لا لمجرد حب الرئاسة فإنه ليس فوق ما خولته إياه الأمة من الزعامة فيها والرئاسة لها غاية تطلب.

وأظهر حجة لبعض العدليين، رضيها بعض المعتدلين، هي أن الوفد الرسمي الذي ترضى بريطانيا العظمى أن تتفق معه لا بد أن يكون من قبل عظمة السلطان فإذا جاز أن يرسم السلطان لغير رئيس حكومته بتأليفه فلا يجوز أن يجعل سعد باشا هو الرئيس له إذ لا صلة بينه وبينه يعرف بها رأيه وفكره ودرجة إخلاصه له وهؤلاء ينكرون على سعد باشا عدم زيارته للسلطان عقب عودته، وهو يعلم أيضاً أن الحكومة البريطانية لا ترضى برئاسة سعد باشا - فإذا كان الأمر كذلك فلا ينبغي لسعد باشا أن يوجه

كل نفوذه في الأمة إلى منع ما اتفقت عليه الحكومتان بمحاولة إسقاط عدلي باشا والجلائه إلى استعمال نفوذ حزبه ونفوذ الحكومة إلى جزائه على عمله بمثله الذي أدى إلى شق عصا الوحدة وخسارته بل خسارة البلاد ما كان من إجماع الأمة عليه زعيم واحد وهو هو «سعد باشا» وكان يكفيه ألا يؤيده ولا يشاركه في المفاوضة ويقف له ولوفده الرسمي بالمرصاد فإن جاء بالاستقلال التام الذي يرضاه هو والأمة لم يكن عليه أدنى غضاضة في قبول ذلك وتوجيه نفوذ زعامته إلى النهوض بأعباء هذا الاستقلال الذي يشهد الجميع بأنه كان حجر الزاوية له، وإن وقع الاتفاق الرسمي باسم من كان عوناً له لا خصماً. وإن جاء بحماية مقنعة أو استقلال صوري مقيد بقيود الأمبراطورية البريطانية ومغلل باغلاها فليحمل عليه بحمل الأمة على ردّ هذا الاتفاق وعدم التصديق عليه، فإذا لم ينفذ الاتفاق حينئذ نكون باقين في موقفنا بل أقوى مما كنا بعد اعتراف إنكلترا لنا بما اعترفت به، وإذا نفذ نكون قد ربحنا ما تركته لنا من حقوقنا من حيث لم تنقيد الأمة بالاعتراف لها بشيء بإثباتنا حينئذ إن الوفد الرسمي المفاوض لا يمثل الأمة أو لم تقره الأمة على ما عقده.

والسعديون يردون على هؤلاء بأنهم موقنون بأن عدلي لا يأتي إلا بالحماية المقنعة، وبأن السكوت أو ترك المعارضة يفضي إلى نجاح الوزارة في اغتصاب الثقة بها من الأمة بنفوذ الحكومة المعزز بالرجال والمال ثم إلى التصديق على ما تتعاقد عليه مع الحكومة البريطانية فإذا اجتمعت القوتان على ادعاء هذا التصديق والإقرار له وكونه مبنياً على تلك الثقة والتفويض فماذا تفعل الأمة الضعيفة بعد ذلك - فهذه صفوة حجج الفريقين في جوهر الموضوع وموضع النزاع وما نحن لما عدا ذلك من المرء والجدل بناظرين.

الموازنة بين الرئيسين

١٥ - عدلي باشا يكن - رجل عزيز النفس كريم النجيزة مهذب الأخلاق رقيق الطبع أبي مترفّع في غير كبرياء، مبالغ في حفظ كرامة

نفسه، مع المراعاة لكرامة معاشره وجليسه، واسع الحلم، نزيه النفس واللسان، قليل الكلام، وهو كبير بيت يكن الذي هو أكبر بيوتات السلاسل التركية في مصر بل هو البيت الأول بعد بيت الإمارة ممن تولوا الأحكام والمناصب العالية - وهو كبير في نفسه كما أنه كبير في بيته، حريص على حفظ شرفه - فهو بهذه الصفات جدير بمنصب السفارة والوزارة وبرئاسة الوزراء، وقد أوتي من العلم العصري ما يحتاج إليه المنصب وقلما يوجد بمصر من يقسر كبراء الإفرنج حتى الإنكليز منهم على احترامه مثله، بل هو قوي الشبه بكبراء الإنكليز في ترفعه وآدابه وشئائله.

ولكنه لم يؤت من طلاقه اللسان في الخطابة، ومن بلاغة القول في الكتابة، ومن الإقدام على مكافحة الخطوب ومصارعة الأخطار ما يؤهله لزعامة الأمة أو التأثير فيها والسير بها في سبل الارتقاء الاجتماعي، ولا لقيادتها في ميادين الجهاد السياسي، بل هو غير مستعد للتصدي لإحداث أدنى تأثير في الأمة بنفسه، ولعله لولا المناصب العالية التي تولاها - كإدارة الأوقاف العامة ومحافظة العاصمة والوزارة - لما كان يعرفه إلا القليل من طبقات الأمة الوسطى دع الدنيا، وهو لا يعرفهم بالأولى.

سعد باشا زغلول - هو رجل من بيت وسط من مديرية الغربية عربي السلالة - كما أخبرني صديقي المرحوم عبدالرحمن زغلول ابن أخي سعد باشا - طلب في حديثه العلم في الأزهر وكان من حسن الحظ أن اتصل في أثناء ذلك بالاستاذ الإمام [محمد عبده] وتلقى عنه وعاش معه زمناً وتخرج به فهو استاذ الأول ومربيه على ما خلق مستعداً له من الاستقلال في الرأي والفهم وقوة الإرادة والشجاعة وصناعة الحجة وحب الحق، وأدرك أيام موقظ الشرق ومصلح مصر السيد جمال الدين الأفغاني وحضر بعض أنديته وسماحه، ولما تولى الأستاذ الإمام [محمد عبده] إدارة المطبوعات ورئاسة تحرير الجريدة الرسمية، الوقائع المصرية، جعله محرراً في القسم الأدبي الإصلاحية الذي زاده فيها فتمرن على الكتابة في المسائل الاجتماعية

والسياسية والأدبية والاقتصادية واطلع على جميع شؤون الحكومة، فإن إدارة المطبوعات كانت في ذلك العهد مسيطرة على الجرائد وسائر المطبوعات ومراقبة على الحكومة تنتقد جميع أعمالها في جميع فروعها-، وفي أثناء ذلك حدثت الثورة العرابية - فهو قد نشأ وترعرع وشب في حجر العلم والسياسة والانقلاب الفكري والاجتماعي والسياسي.

ثم اشتغل بالمحاماة والتزم فيها جانب الحق فكان لا يقبل الوكالة في دعوى يرى أن صاحبها مبطل، فبرع في الخطابة وإقامة الحجة والاطلاع على القوانين والخبرة بشؤون الناس وأخلاقهم ومعايشهم وحيلها ثم صار قاضيا في أعلى مناصب القضاء الأهلي فاشتهر بدقته في التحقيق واستقلاله في الرأي وعدله في الأحكام حتى شهد له مستشارو الاستئناف من الأجانب والوطنيين كتابة بأنه رقى المحاماة وشرف القضاء بعدله واستقلاله. وهي شهادة لم ينلها فيما نعلم أحد من صنفه، ثم صار وزيراً للمعارف ثم وزيراً للحقانية ثم وكيلاً منتخباً للجمعية التشريعية.

وكان في كل منصب من هذه المناصب الكفو الكريم والممتاز بين أهله فيه، ولا نعرف أحداً في وطنه يشاركه في هذه المجموعة من المزايا بل قلّ أن يوجد له ند يضارعه في فرد من أفرادها - فهو بها أجدر أفراد هذه الأمة بزعامتها الاجتماعية والسياسية إلا أنه ينقصه من صفات الزعماء السياسيين - كما يقولون - ما يسمونه المرونة السياسية وهي تشمل سعة الصدر والحلم والقدرة والتمويه والخذاع وإن شئت قلت والبراعة في الأفك والكذب الذي يحتمل التأويلات الكثيرة والتملق والبراعة في الاستمالة والتزلف عند الحاجة. وهو لغلبة ملكة القضاء على كل ملكاته لا يستطيع كل ذلك ولو تكلفاً فهو لا يبالي بمن خالفه فيما يعتقد ولا يحفل بعداوته له مهما يكن عظيماً، وقد كان الأستاذ الإمام [محمد عبده] يقول إن سعداً خلق ليكون قاضياً، ووصف سيرته في القضاء واستقصاءه فيه للدلائل ودقته في الاستنباط وحرصه على العدل، وخصومه يسمون هذه

الملكة غلظة وكبراً أو يطلقون أمثال هذه النعوت على بعض لوازمها.

وقد زادوا في هذه الأيام في نعته إنه مستبد لا يخضع للشورى فهو يعمل باسم الوفد ما يراه وإن خالف قرار الأكثرين. وهذا خلاف ما نعرف فيه ونعهد منه، فإذا أردنا إنصاف القائلين بهذا بحمل كلامهم على الصدق ولا سيما فيما ينقلونه من الوقائع المعينة فلا نرى جامعاً يجمع بينه وبين ما هو معروف عنه من الإنصاف والاستقلال ومعرفة قيمة النظام ومراعاة القوانين إلا ما حدث في الوفد من الشقاق واختلاف النيات، وإلا فإن مثل سعد لا يخفى عليه أن شعبه الذي يفتخر بحق بارتقائه وأهليته لتولي أمور نفسه بنفسه في حكم دستوري لا يمكن أن يقبل في عمل من أعماله رئيساً مستبدلاً لا يجري على نظام الشورى ولا متكبراً لا يحترم آراء من معه وأن هذين الخلقين لا يخفيان على أحد.

على أننا قد سمعنا بآذاننا وسمع الجماهير مثلنا خطبه في المحافل والمجامع العظيمة وقرأها أكثر من سمعوها فهم يشهدون بأنه كان يعزو فيها كل عمل إلى أعضاء الوفد ويذكرهم بمنتهى الأدب والاحترام ويقدمهم أحياناً على نفسه، وعلمنا أنه زار من لم يزره ممن عادوا من أوربة قبله مغاضبين له مع العلم بأنه كان أشدهم زراية عليه وصدأ عنه، وفضله على نفسه في إحدى خطب المجامع الحافلة، ولم يكن هذا يجاذب لذلك العضو إلى الوفاق بل لم يزد إلا حقداً وضغناً، وإعراضاً وطعنًا.

الحكم في الشقاق بين أعضاء الوفد ورئيسه

١٦ - إنني أعرف بعض أعضاء الوفد المصري معرفة صحيحة وموادة، وأعرف بعضهم معرفة مواجهة ومحاولة، وأجهل حال غير المشهورين منهم جهالة تامة، فأنا أحكم بصدق الوطنية لبعضهم على علم وخبر، وأحكم به للآخرين على قاعدتي أصل البراءة وحسن الظن، وقد سمعت ما قاله المختلفون على رئيسهم سعد باشا وقرأت ما كتبوا - فرأيت أنهم قد اخطأوا

في اجتهادهم، حتى على تسليم جميع أقوالهم، فكيف إذا كان القول الوسط المعقول في هذا الاختلاف هو القول في كل اختلاف بين فريقين في أمر من الأمور العامة والمصالح السياسية والمسائل الاجتهادية التي تختلف فيها الآراء والأنظار. وهو أن يكون كل فريق مخطئاً في بعض ما اختلفوا فيه ومصيباً في بعض، فإن جاز عقلاً أن يكون أحدهما مصيباً في كل ما خلف فيه الآخر - فأى الفريقين هنا أجدر بأن يحكم له بالصواب؟ الفريق الذي يخطئه السواد الأعظم من الأمة بعد معرفة كل ما أدلى به من الحجج وما أدلى به خصمه؟ ولا يؤيده إلا نفر قليل جداً أكثرهم من أصدقاء أفراده أو من أتباع أصحاب العصبية منهم؟ أم الفريق الذي يؤيده السواد الأعظم ويرمي مخالفه بأشنع التهم وينبزههم بأفزع الألقاب؟

أقول إن المؤيدين لأعضاء الوفد الذين شاقوا الرئيس نفر قليل جداً في مجموع الأمة، مع العلم بأن الذين أيدوا الوزارة العدلية كثيرون جداً، فإن الذين أيدوا الوزارة لا يؤيد جميعهم ولا أكثرهم أعضاء الوفد المشايعين لها، بل أكثرهم يرى أن سعد باشا هو زعيم الأمة بحق وأنه هو المرجع الذي يعول عليه عند تحكيم الأمة فيما يأتي به وفد الحكومة الرسمي من الاتفاق مع الحكومة البريطانية، ولئن كان المشاقون لسعد أول من أيد عدلي ويعتقد أهل الرأي أنه لولاهم لما كان ما كان - فإن المؤيدين له بعد أن أصر على السير في القضية بدون اتفاق مع سعد والوفد إنما أيدوه أكثرهم بنفوذ الحكومة لا بنفوذ هؤلاء الأعضاء - فهم قد نزلوا بمشاققتهم لسعد عن مقام الزعامة العامة في الأمة إلى أدنى مما كانوا عليه قبلها فإن كانوا تركوا سعداً لحفظ كرامتهم الشخصية التي نقلوا عنه أنه لم يكن يعطيها حقها. ولتأييد المصلحة العامة التي قالوا إنهم رأوه باستبداده غير أهل لها - فقد كانت خسارتهم الشخصية بهذا الترك أعظم، وصاروا عن القيام بخدمة المصلحة العامة أعجز - فهذا هو وجه تخطيطي لاجتهادهم حتى على تقدير تسليم جميع أقوالهم، وإنما أكتب هذا لأجل التذكير وبيان وجه العبرة لمن

يعتبر من عقلاء أمتنا بما كان من أغلاط الزعماء والعلماء بالمصلحة العامة فيما نستقبله من حياتنا السياسية التي لا نزال فيها أطفالاً بالنسبة إلى الأمم التي طال عهدهم بالتمرس بأعمالها والجهاد في ميادينها.

يقولون إن العمل معه صار متعذراً. فإن لم نقل إن المتبادر أنه صار متعذراً بعد المشاقة إذ كان متيسراً قبلها - قلنا إن الإخلاص في العمل للأمة والحرص على وحدتها لا يمكن أن يكون بغير جهاد شاق، وصبر واحتمال وإيثار، وقد قيل في المثل: «إن صح منك الهوى إرشدت للحيل»، فعلى هذا لم يكن من المتعذر أن يقنع بعضهم بعضاً بالتناصر والتظاهر على الرئيس - وهم معه - فيما يرونه منه مخلاً بكرامة بعضهم، أو الاستبداد بالأمر دونهم، كما تظاهروا عليه في الانتقاد الصريح في الجرائد والخروج من الوفد، فإن كانوا توهموا أنه كان الممكن إسقاطه واستبدال غيره به قبل مجيئه من أوربة وما قابلته به جميع طبقات الأمة من أدنى البلاد إلى أقصاها من الحفاوة والغلو الذي كاد يكون من العبادة، فوقع هذا التوهم بعد ذلك كله من أغرب الخطأ ولا سيما من هؤلاء الأذكى العلماء بأخلاق الأمم وسنن الاجتماع.

لقد كان زعماء جمعية الاتحاد والترقي الذين شبهناهم بهم في أول المقال أهدي سبيلاً منهم في المحافظة على زعامتهم ونفوذ جماعتهم في الدولة والأمة، فقد كان ينكر بعضهم على بعض فيغلظون في الإنكار، ولكن لم يكن ذلك ليتعدى أنديتهم، ولا ليفرق جماعتهم، وبذلك كان لهم الفوز على جميع الأحزاب المناوئة لهم على قوتها، والوفد المصري لم يكن له في الأمة خصوم يعتد بهم ويخشى عليه منهم، حتى كانوا هم الذين شقوا عصاهم بأيديهم، وسنجد ألوفاً من العاذلين لنا على هذه الطريقة - ولا تتسامى إلى منصب القضاء فنقول هذه الرأفة - الرأفة في الحكم عليهم، أولئك الذين يتهمونهم بأنهم قصدوا بذلك خدمة أنفسهم، وما نحن لهذه

التهمة بشارحين، لأننا نكتب للوعظ والإرشاد، لا للتحيز إلى الزعماء والتحرف للأحزاب.

مكانة الزعامة في الأمة ومكان سعد منها

١٦ - إن اجتماع كلمة السواد الأعظم من الأمة على زعيم يمثلها ليس من الهنات الهيئات، ولا من المقاصد التي تنال بسعي الأفراد أو الجماعات، إلا بمساعدة الزمان بوقائعه وأحداثه وإشعاره الأمة بمعنى الزعامة والحاجة إليها، وإعداده للزعيم الكفو للنهوض بها، وتمثيل وحدتها فيما استعدت له وتوجهت إليه، فإذا وفقت الأمة للثقة بزعيم كفؤ للزعامة وجب على جميع أهل الرأي والمكانة فيها أن يؤيدوه في العمل، ويقللوا عثرته إذا عثر، ويقوموا عوجه إذا زاغ وانحرف، وأن لا يشترطوا في المحافظة على زعامته العصمة، فإن الكمال المطلق لله وحده، فبذلك يرجى نفعه، ويؤمن ضرر خطاه وضعفه، ولا يحل لهم أن يؤاخذوه على ما ينقمون منه بخذله ولا بالطعن في كفاءته، لما يعقب ذلك من تنكيت قوى الوحدة، وصدع بناء الزعامة، ورب نكت يتعذر إبرامه، ورب صدع لا يرجى التثامه.

وقد سبق القول بأن زعامة سعد كانت بالأكثرية الساحقة من السواد الأعظم، ولم تكن إجماعاً سالماً من الشذوذ كما كان يتوهم، لأن إجماع الأمة التام على رجل واحد في الظاهر والباطن محال في سنن الاجتماع وأخلاق البشر، وقد رأينا أن مظاهرات الحفاوة بقدم سعد كانت تحجب عن الأبصار ما على بعض الوجوه من وجوم اكتئاب، وأن صيحات الهتاف له كانت تشغل الأذان عما يتفلسف من الألسنة من هيمنة إنكار، بل كان يتخلل تلك الحفلات، ما يشير إلى ما سيكون بعدها من الحملات، وقد سمعت في بعض المظاهرات اعتراضات فلسفية عليها، وشهدت احتفالين أقامهما جيراننا وجهاء مصر القديمة صرح في أكبرهما بما أختصره وإن كان من لباب الموضوع:

دعيت إلى الخطابة في هذا الاحتفال فأبيت لزهدي في الظهور على مثل

هذه المنابر التي يتزاحم عليها طلاب الشهرة، ورغبتي عن الكلام في السياسة في محافل أكثر شهودها من العامة، وعجزني عن الإطراء، الذي يألفه الجمهور في هذا المقام، وكان من الخطباء فيه القمص سرجيوس خطيب قسوس القبط المشهور فخالف جميع الخطباء والشعراء الذين أخلصوا المدح والإطراء للرئيس سعد باشا بما جاء به من المزيج وأمشاج القول المتضمن لتوقع الخلاف بين سعد وعدلي ووصف سعد بالعناد والصلابة والإشارة إلى علاج ما يتوقع فارتأى أن تقتدي فيه الأمة المصرية بسيرة «الفاتيكان» عند انتخاب البابا وهي أن الكرديالات الذين لهم حق الانتخاب يجلسون في حجرة يوضع لهم فيها قوت قليل ولا يسمح لهم بالخروج منها إلا بعد الاتفاق على انتخاب أحد المرشحين.

ولما سمعت خطابه آذنت الذين كانوا يراجعونني في اقتراح إلقاء شيء في الحفلة بأنني قبلت فدعيت فصعدت المنبر وألقيت خطاباً بينت فيه تحقق تكوين الزمان للأمة المصرية بالعصبية القومية، وإن اتحاد الكثرة، إنما يحصل إذا مثلتها جهة واحدة، وهي ما يسمونه الزعامة والرئاسة. ومتى تكونت الأمة وشعرت بنفسها، هداها هذا الشعور إلى الزعيم الذي يمثلها، كما ينبت الرأس في الجنين عند تمام تكوين أعضائه وكم ينشأ في الأمة من رجال جديرين بالزعامة ولا تعرف الأمة قيمتهم، لأنها ليست أمة إلا بالصورة الظاهرة كما تسمى صورة الأسد في الورق أو الجدار أسداً. وقد كان الأستاذ الإمام [محمد عبده] يقول: يا ويح الرجل الذي ليس له أمة، ولا يعقل أن توجد أمة راشدة لا يوجد فيها رجل بل رجال حقيقون بالزعامة فيها. وقد كان الأستاذ الإمام من الرجال الذين يقلّ في الأمم الراقية أمثالهم، بل قال فيه الأستاذ الدكتور براون من أكبر علماء الإنكليز المدرسين في إحدى جامعاتهم الكبرى «كمبريدج»: «إنني لم أر في الشرق ولا في الغرب مثله. ولم تكن الأمة قد تكونت في عهده تكوناً تعرف به كنه قيمته، وتعمل بإرشاده وزعامته، وهذا تلميذه [سعد زغلول] الزعيم

الكبير الذي نحتفل به اليوم قد كان أهلاً لهذه الزعامة منذ سنين كثيرة ولم تكن الأمة تعرف فيه ذلك على شهرته، لأنها لم تكن تعرف نفسها فتعرف زعيمها، ثم ذكرت من صفات سعد ما اقتضاه المقام، وهو في معنى ما تقدم في موضعه من هذا المقال.

وهنا تلطفت في الإشارة إلى الرد على ما رماه به القمص سرجيوس من العناد والتعصب لرأيه، وقلت إن الذي نعهده منه بالاختبار الاستقلال في الرأي واحترام الحقيقة والاعتراف بها إذا ظهرت له، وطالما شهدنا له في داره محاورات في مسائل علمية واجتماعية كان ينصف فيها مناظريه ومحاوريه بكل ارتياح، ويعترف بصحة رأيهم إذا ظهر له أنه الصواب، وربما كنا منهم أو معهم في بعض الأحيان.

واستطردت في الخطاب إلى الرد على من ينكرون فائدة هذه الاحتفالات والمظاهرات بأنها هي الذريعة الوحيدة إلى جعل عقيدة الاستقلال شعوراً عاماً شاعراً لقلوب جمع أفراد الأمة من جميع طبقاتها في زمن قصير، وإلى تربية أطفالها ونابته عليها، فإن هتاف الألوف الكثيرة من الرجال والنساء والأطفال في المجمع والشوارع والبيوت للاستقلال التام ولمصر الحرة ولزعيمها المطالب باستقلالها وحريتها والوفد العامل معه قد علم جميع الأميين من الطبقات الدنيا وأشعرهم بما لم يكن يعلمه ويشعر به إلا أهل التعليم العالي والتربية الاجتماعية السياسية.

وانتقلت من هذا إلى بحث قلت إنه أشبه بالدرس منه بالخطابة، وهو ما يجب على الأمة من العمل للمحافظة على دوام وحدتها وتكافلها في سبيل المطالبة باستقلالها وما يجب لحفظ الاستقلال والنهوض بأعبائه إذا نالته وأهم ذلك وأعلاه ما يسمى المسألة الاقتصادية وحفظ ثروة الأمة؛ وليس هذا من موضوع مقالنا هذا فنلخص فيه ما قلناه في ذلك الخطاب وطالما كررناه في المنار وفي بعض المقالات التي نشرناها في المؤيد والجريدة ومن أشهر هذه المقالات ما عنوانه «إلى أي شيء أنت يا مصر أحوج».

وجملة القول إن مكانة الزعيم الذي يمثل وحدة الأمة في أول العهد بتكونها السياسي ودخولها في ميدان الجهاد القومي للحرية والاستقلال لها شأن عظيم في جهادها فيجب أن يحرص على تقويتها لئلا ينصدع بناء الوحدة في أشد أوقات الحاجة إليه ولا يخفى على أهل البصيرة أن تقويم عوج في الزعيم الموثوق به في السواد الأعظم أيسر من إسقاطه واستبدال غيره به، وأن تأييد الوحدة به على ضعف وعوج فيه، خير من شق عصاها بخذله والتفرق عنه.

فإن استطاع خصوم سعد إسقاطه من مكانته، بإقناع الأمة بعدم كفاءته، فمن ذا الذي يستطيع اقناعها بكفاءة زعيم آخر من بعده، إذا فرضنا أنه يوجد فيها كثيرون من مثله، ومثل كثير في الأنام قليل،؟ ومن ذا الذي يستطيع في كل وقت أن يحدث لها أحداثاً كالأحداث التي مهدت السبيل لزعامة سعد؟ كغفلة رقباء الشعوب وحراسها، ورعاة الأمم وسؤاسها، وقطاع طرق الاستقلال والحرية عليها، تلك الغفلة التي أوقعت إنكلترا فيها سكرة الحرب أولاً ونشوة الظفر آخراً فكان من أثر السكرتين في رجالها بمصر ما وقعوا فيه من الأغلاط الإيجابية والسلبية التي جمعت كلمة الشعب مع حكومته أول مرة في تاريخ الاحتلال. وقد أشرنا في هذا المقال إلى ما كان من فائدة ذلك في تكوين الوحدة المصرية وجمع الكلمة على سعد في وزارة رشدي، وقد تم ذلك وكمل في وزارة عدلي التي هي وزارة رشدي بعينها في وقت آخر وترتيب آخر، إذ لولا هذه الوزارة لما أمكن للشعب أن يحتفل بعودة سعد إلى البلاد تلك الاحتفالات العامة التي لم يسبق لها نظير- ولكن وا أسفاه قد صدق في هذا المقام قول الشاعر: «إذا تم شيء بدا نقصه»، على أن هذا التهام وما تلاه من النقص إنما كانا في طور واحد من أطوار حياة هذا الشعب الاجتماعية وفي فصل من فصول تاريخه؛ فعسى أن يفيد عبرة تقيه أن يلدغ من جحر مرتين، وخبرة تجعل الفوز منه قاب قوسين.

جهاد سعد الأخير

١٧ - علم سعد باشا بما كان من التجربة الأخيرة والاختبار، أن الأمة التي اجتمعت كلمتها على طلب الحرية والاستقلال، وجعلته لسانها الناطق، وقلبها الخافق، لم يمكنها إعلان رأيها وإظهار شعورها، إلا بمواتاة الحكومة الوطنية لها، وأن تأثير الحكام في أنفس هذا الشعب وما ورثه وتربى عليه من الخضوع لهم منذ التاريخ القديم لا يزول كله في أول نهضة قومية جديدة، وإن وافق أصول شرعها الإلهي، «وأمرهم شورى بينهم»، وأصول الحقوق العصرية التي يسمونها الديمقراطية الحديثة، ولعله لم يقدر هذا قدره كما ينبغي إلا بعد الحوادث الأخيرة، إذ لم يكن يخطر ببال أحد أن يصد عنه بنفوذ الوزارة الألوف الكثيرة، حتى من أولئك الذين أقاموا له أكبر المحافل، وأنق المآذب، وأن يشايعهم على ذلك أكثر الجرائد، فلهذا وجه كل عنايته إلى تقوية روح شخصية الأمة والفكرة الديمقراطية فيها بحملاته الشديدة على الوزارة العدلية في خطبه البليغة وبلاغاته واحتجاجاته المختلفة على سلوكها فيما سماه «اغتنصاب الثقة من الأمة».

فهو يمثل للأمة وزارة عدلي باشا متفقة مع الدولة البريطانية على جعل سلطانها «أي حكمها وسلطانها» على مصر شرعياً بعقد معاهدة على أصول مشروع ملنر الذي رفضه هو البتة يلغى فيها لفظ الحماية ويقرر معناه بصفة شرعية، بعد أن كان عدواناً تبطله الحقوق الأساسية والقوانين الدولية، وترشى فيه البلاد بضرب من الاستقلال في الإدارة يتعذر تنفيذه لما وضع في سبيله من العوائير والعقبات الكأداء، على أنه عرضة للإلغاء أو الاسترداد، ما دامت قوة الاحتلال العسكرية راسخة الإقدام في البلاد، وناهيك بما أنشأوا فيها من ميادين الطيران الحربية والتجارية، لجعلها ملتقى جميع قوى الامبراطورية البريطانية.

وأقول إن من أقوى حجج له على أن الإنكليز يريدون خداع مصر وإرضاءها باستقلال صوري حظها من دون حظ سائر مستعمراتها المستقلة

تعظيمهم لشأن حادثة الإسكندرية التي يمكن حدوث مثلها في كل بلد من البلاد يوجد فيه أجناس مختلفون أو أحداثه ببذل قليل من المال، فقد هيجوا جاليات الأجانب والدول الأوروبية بها على المصريين وخوفوهم منهم على أرواحهم وأموالهم، إذا لم تكن الجيوش البريطانية بمدافعها وطياراتها حامية لهم، واتخذتها برقياتهم وجرائدهم إياها حجة بالغة على أن المصريين غير أهل للاستقلال بالإدارة والحكم.

حادثة الإسكندرية، وما أدراك ما حادثة الإسكندرية، هي الحادثة التافهة التي عظم شأنها غلاة الاستعمار بكيدهم وعبثهم بالأمم والدول، ولعبهم بها كلعب الصبيان بالكرة، حتى جعلوها من أعظم حوادث الكون التي يقضي العدل بأن تكون القضية على حرية الأمة المصرية بأسرها - وهي إن بعض السوق والعوام مروا في مظاهرة وطنية ببعض بيوت الروم (اليونانيين) وكانوا يهتفون لمصطفى باشا كمال بعاطفة الوجدان الديني الذي لا يدع عدداً من جريدة إسلامية في تونس خالياً من الإشادة بذكره، والتعظيم لأمره، فأطلق عليهم الرصاص بعض اليونانيين فأصاب بعضهم وجرح ذلك إلى تشاجر بين الوطنيين واليونانيين ومن يشته بهم من الغربيين قتل به أفراد من الفريقين وجرح آخرون والمصابون من الوطنيين أكثر، وقد استنكر ذلك وأظهر الأسف لوقوعه جميع المصريين من جميع البلاد في جميع الجرائد، وأصدر الزعيم الأكبر سعد باشا زغلول وصية للأمة بأن تبالغ في مجاملة الأجانب وحسن معاملتهم ولا تعتدي عليهم وإن هم اعتدوا عليها.

لكن السياسة التي تستحل كل منكر في سبيل مطامعها جعلت هذه الحادثة برهاناً قاطعاً على بغض جميع المصريين الذين استنكروها وقبحوها لجميع الأجانب وتعصبهم عليهم وتربصهم بهم الدوائر ليفتكوا بهم، ولو كان المصريون متعصبين على الأجانب وماقتين لهم، لظهر أثر ذلك في كل بلد فيه أجنب ليس لهم من القوة عشر ما للأجانب في الإسكندرية التي

تكاد تكون بلداً أجنبية ولا سيما في أثناء ثورة سنة ١٩١٩ على الإنكليز أنفسهم، والهجوم على رشاشاتهم ومدافعهم، وقد كانت السلطة في كثير من البلاد العامة للأمة في تلك الأثناء لا للحكومة الوطنية ولا للمحتلين - ولو كان المصريون كذلك لما نال اليونان في بلادهم هذه الثروة الواسعة التي ليس لهم مثلها في بلادهم ولقد كانوا قبل الاحتلال مع سائر الأجانب أعظم كسباً وأقوى نفوذاً، ولو كان المصريون كما ذكر لأمكنهم أن يبلغوا من النكاية باليونان بمقاطعة تجارتهم وزراعتهم ما لا يبلغه الاعتداء على أشخاصهم.

فحق لكل مصري أن يعد سلوك الإنكليز في تكبير هذه الحادثة دليلاً على نيتهم فيهم، وهم يعلمون أنه إذا كان الاستقلال يتوقف في وجوده أو بقائه على استحالة وقوع مثل هذه الحادثة فلا مطمع لأن هذا مما يمكن حدوثه وإحداثه في كل آن، ومن غرائب تهافت هؤلاء البارعين في تصوير الحوادث بغير صورها والاستفادة منها في كل زمن بحسه أن حادثة الإسكندرية كانت في الزمن الذي تروي لنا برقيات إنكلترا وجرائدها أبناء الارلنديين «السين فين» أخذان المصريين في رفض العبودية البريطانية في تدميرهم للمباني التجارية وغيرها واغتيالهم لمن استطاعوا اغتياله في السالبيين لحريتهم، ولم نسمع أن أحداً منهم احتج بهذه الأفاعيل الفظيعة بمثل ما احتجوا على المصريين في حادثة تعد بالنسبة إليها ضئيلة، ويكثر وقوع مثلها في كل أمة، ولكن عارض هذا التهويل في الحادثة كثير من عقلاء اليونان وغيرهم من فضلاء الأوروبيين وشهدوا حقاً بتسامح المصريين وإكرامهم للأجانب وحسن معاشرتهم لهم، ولو سكت هؤلاء أو جروا في أباطيل تيار السياسة الكاذبة لغرسوا في قلوب المصريين وسائر الشرقيين من بغض الأوروبيين وسوء الاعتقاد فيهم ما لا يمكن أن يتلافى مستقبله الاحتلال العسكري للبلاد لا يزيده إلا اشتعالاً، وهل يوجد بشر يجب الإنسانية يود هذا ويرضاه؟

وجملة القول أن جهاد سعد باشا موجه الآن لتقوية الأمة وإعدادها لرد ما يتوقع من تقييد وفد الحكومة البلاد به بضمها إلى الإمبراطورية البريطانية بأي اسم من الأسماء وأي شكل من أشكال الحكم الذاتي بحيث يكون الاتفاق الجديد بين الحكومتين إن نفذ مظهراً من مظاهر القوة لاشية فيه من الحق وتستمر الأمة على جهادها له حتى تنال حريتها تامة كاملة بإذن الله وقوته التي لا تعلوها قوة، ورحمته التي لا تضيق حقاً إلا على من فرط في حقه وترك الجهاد في سبيله فكان هو المضيق له بمخالفته لسنن الله في العمران.

لهذا الذي شرحناه كنا نعجب جد العجب من طلب سعد لرئاسة الوفد الرسمي وتولى المفاوضة لأننا نعتقد أنه لا يخفى عليه أن الدولة البريطانية يستحيل أن تسمح بحرية مصر واستقلالها التام بمجرد المفاوضة السياسية ونقول في نفسنا لم يريد أن يعرض نفسه للفشل وإذا كان لا يرضى بجعل الحماية شرعية باسم آخر؟ أم يظن أن الاتفاق على تولية أمر المفاوضة كاف في جعل ذلك المحال السياسي ممكناً وواقعاً؟ ولما اعترض بعض الكتاب كأمين بك الرافعي على دخوله في المفاوضة الرسمية كنا محبذين لرأيه إذا كان عين رأينا إلى أن صار شقاقاً لزعيم الأمة لأن الزعامة الممثلة للوحدة فوق كل شيء في هذا المقام. ولم نجد مخرجاً من هذا العجب والحيرة إلا بما جاءتنا به الجرائد الإنكليزية من التصريح برفض سعد لمشروع ملنر برمته وعدم الرجاء بعقد اتفاق معه يرضى بريطانيا العظمى - فظهر لنا من ذلك أنه كان يخفي في نفسه شيئاً وسع إخفاؤه دائرة الجدل ومجال الشقاق لأن إظهاره يفسد الخطة التي كان يرى أنه لا بد منها وهي - أي الخطة - إما حمل الحكومة بقوة وحدة الأمة على تقييد نفسها بالمرسوم السلطاني الذي طلبه حتى تكون الحكومة والأمة كلمة واحدة لا يخشى أن يفرقها الدهاء الإنكليزي لينال مراده من جعل مركزه في مصر شرعياً - وإما جعل الحكومة عاجزة عن عقد اتفاق مع الدولة البريطانية لا ترضاه الأمة ويكون

حجة عليها، ولو تحقق الشق الأول من خطته لكانت الأمة المصرية وحكومتها وسلطانها كتلة واحدة كلمتها واحدة، وإذا لم يتم فتأييد الوفد الرسمي والوزارة يحبط الشق الثاني - فتعينت معارضتها. ولم يكن التصريح بذلك لأعضاء الوفد المتفقين مع عدلي باشا من قبل ممكناً كما علم مما سبق من التفصيل، بل لم يكن من الممكن أيضاً أن يصرح سعد للأمة عقب عودته بأن الدولة البريطانية تريد منا كذا وكذا ونرى أنها لن تجد إليه سبيلاً إلا بقوة حكومة وطنية تصدع بناء الوحدة التي هي قوتنا في إظهار حقنا أمام قواها الكثيرة التي تعتمد عليها في سلب هذا الحق منا لأن هذا التصريح ينافي الخطة التي استنبطناها على كونه غير معقول - فإن معناه دعوة الحكومة جهراً من أعلاها إلى أدناها إلى مقاومة الدولة البريطانية، وهو تصريح لا يأتي من عاقل.

النتيجة

١٨ - هذا ما ظهر لنا من سياسة سعد باشا وخطته بعد التروي والتمحيص، ولعل هذا قد خفي على الألوف من الناس بضروب الجدل والمطاعن، وأكثر من أيد وفد الوزارة الرسمي إنما أيدوه في طلب الاستقلال التام المطلق لمصر والسودان الذي هو جزء من المملكة المصرية لا يقبل الانفصال، وكثير منهم يعتقدون أن مطلب سعد وعدلي واحد وإن عدلي إذا لم يوفق إلى هذا المطلب فإنه يقطع المفاوضة ويعود بالوفد الرسمي أدراجه خلافاً لما يعتقد السعديون كافة. فالاحتمالات في نتيجة سعي الوفد الرسمي ثلاثة أو أربعة لكل منها عاقبة:

الاحتمال الأول - عقد الاتفاق مع الحكومة البريطانية على اعترافها باستقلال مصر مع السودان استقلالاً دولياً تاماً مطلقاً من كل قيد ينافيه مع مخالفة بين الدولتين أساسها مبادلة المنافع كسائر المحالفات الدولية، فإن وفق الوفد لهذا فإن الأمة تتلقاه بالقبول والثناء وتكرمه بمثل ما كرمت

به سعد باشا بل أعظم ويكون ذلك إجماعاً صحيحاً من الأمة - وإن فرض أن شذ سعد باشا عنها في ذلك وظل معارضاً لعديلي باشا فإنها تنبذه ظهرياً وتحكم عليه بأنه يعمل لنفسه لا لها .

فيا دارها بالحيف أن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

الاحتمال الثاني - أن يأس عدلي باشا من الاستقلال التام المبين في الاحتمال الأول أو ما يقرب منه فيقطع المفاوضة ويعود بالوفد أدراجة - وعاقبة هذا أن تعود وحدة الأمة إلى خير مما كانت عليه وتستأنف الجهاد السياسي في سبيل حريتها، ويتفق سعد وعدلي ورشدي ثانية في ذلك ويكون الرجاء في النجاح عظيماً، فإن يد الله على الجماعة كما صح في الحديث ويد الله لا تغلب. وقد رأيت من المحسنين للظن في هؤلاء الكبراء كلهم من كان يعتقد أن الخلاف بينهم صوري تواطؤوا عليه لأجل المصلحة. ويتوقع كثير من العارفين بأخلاق عدلي باشا ووطنيته أن يقطع المفاوضة بل يرجحون ذلك على نجاحه فيها.

الاحتمال الثالث - أن يصح رأي سعد ويعقد الوفد الرسمي الاتفاق الذي يقيد مصر وينظمها في سلك الامبراطورية البريطانية باسم من الأسماء المعروفة والمخترة. وعاقبة هذا أن تتحول قلوب أكثر الذين كانوا يحسنون الظن بعدلي أو رشدي عنهما ويكبر حزب سعد بل تكون الأمة كلها معه إلا من لا يذكر من طلاب الوظائف والمنافع من الحكومة ولكن لا يعلم أحد إلا الله ما يترتب على اصطدام قوة الأمة وقوة الحكومة المؤيدة بقوة الاحتلال إذا حاولت الوزارة تأييد الاتفاق بالقوة، ولا يظن أحد يعرف قيمة عدلي ورشدي بأنها يفعلان ذلك ولكن قد يفعلانه في حال الاحتمال الرابع المذبذب بين هذا وبين الأول وهو:

الاحتمال الرابع - أن يعقد الاتفاق على اعتراف إنكلترة باستقلال سياسي دولي تام لمصر في داخليتها وخارجيتها وحقوق في السودان لا تتبع

مصر في الإدارة وارتباط بالامبراطورية بمعاودة لا يعرض مصر للخطر في سلم ولا حرب. وأعظم الخطر تعهد مصر بأن تجعل قواها ومواصلاتها تحت تصرف الجيش البريطاني وهو ما سبق المقطم جميع الجرائد إلى بيانه. ففي مثل هذه الحالة تجد الوزارة من الأنصار ما تقاوم به السواد الأعظم الذي يقوده سعد باشا ونسأل الله حسن العاقبة وإنقاذ هذه البلاد من كل محنة إنه سميع مجيب.



السياسة ورجال الدين في مصر



[المنار ج ٢٢ (١٩٢١) ص ٥٢٢ - ٥٣٥]

يعلم رجال الاستعمار ما لا يعلم رجال الدين في البلاد المستعمرة بالفعل أو بالقوة من سلطان الدين على الأرواح، وتأثيره في الإرادة الباعثة على الأعمال. فهم يعنون أدق العناية في كل شعب يظله سلطانهم بإزهاق روح دين الشعب الذي على غير دينهم، أو تحويله عن مذهبه إذا كان مخالفاً لمذهبهم ويبشون فيه دعاة مذهبهم الديني ويؤيدونهم بما لديهم من حول وقوة، ومن مناهضتهم لدين الشعب وإبعاد رجاله عن أعمال الحكومة ومناصبها وتحري جعل أصحاب الوظائف الشرعية الخاصة بهم لأحد ثلاثة رجال، إما رجل منافق فاسد الأخلاق ليكون بعمله حجة على الشرع ومنفراً عن الدين، وإما رجل زكي مبال للإصلاح يشغلونه بالوظيفة وراتبها ورجاء الترقى فيها عن عمل حر لا تسهل مراقبته فيه وصدده عنه - ولا يقبلون مثل هذا إذا كان لهم مندوحة عنه - وإما رجل مشهور بصلاح أو علم ولكنه فقير جبان حريص على رزقه، فيستفيدون من شهرته عند الحاجة.

كذلك يحولون بين المستمسكين بعروة الدين والغيرة عليه وبين الترقى في مناصب الحكومة إذا انتظموا في سلوكها بمقتضى نظام البلاد من حيث يكلون أمر مناهضة التعليم الديني ومراقبة المتدينين من عمال الحكومة ولا سيما عمال وزارة المعارف إلى أهل الدين المتعصبين له منهم . ولا يثقون إلا بمن يظهر لهم عدم المبالاة بدينه ويواتيهم فيما يعلم من مقاصدهم ونياتهم في ذلك .

ومن الشواهد على ذلك أن مستر دنلوب الذي جعلوه مسيطراً على وزارة المعارف في معظم عهد الاحتلال هو قسيس من رجال المذهب البروتستانتي ، وهل يطمع عالم من الأزهر بأن يكون وزيراً بجانبه أو رئيس إدارة أو قلم تحت سيطرته ؟ لا ، لا .

ومن الشواهد الجلية أيضاً منع مجلة المنار من السودان ومصادرة نسخها التي أرسلت مسجلة وإحراقها بالنار وذلك قبل الحرب التي أوجدت في زمنها المراقبة على الصحف في كل مكان ، وقد علمنا من الثقات الذين كانوا في السودان أن المنع كان إجابة لرغبة بعض المبشرين ، وقد شكونا الأمر إلى السر ونجت باشا إذ كان الحاكم العام للسودان فما أشكنا وهو هو المعداد من أوسع الإنكليز صدرأ وألينهم عريكة وأكثرهم مداراة واستمالة للناس .

وأكبر الشواهد عندنا على ذلك ما تفلت من قلم لورد كرومر في كتابه عباس الثاني وهو الواسع الصدر الذي ضمن الحرية الشخصية في طول مدته ضمناً تاماً كان من أكبر أسباب شهرة الإنكليز الحسنة في الشرق كله ، تفلت من قلمه في هذا الكتاب ما شف عما كان منطوياً عليه من التعصب الديني الذي كان يخفيه بالرياء الفريسي الذي يوصف به البريطانيون وأظهر للناس أن من أصول سياستهم ظلم كل مسلم تربى تربية إسلامية وتخلّق بأخلاق الإسلام بإبعاده عن مناصب الحكم في بلاده وحصر هذه المناصب في المتفرنجين بالتربية الأوروبية الذين رماهم اللورد

نفسه في كتاب مصر الحديثة بأقبح النعوت ونبزهم بشر الألقاب، وهالك تصريح منه في ذلك:

قال اللورد في أواخر الفصل الرابع من كتابه هذا بمناسبة الكلام على استقالة وزارة رياض باشا الأخيرة ما ترجمته: «إن فشل تجربة رياض باشا لقنني درساً هو أن لا فائدة من محاولة قيادة الرأي العام الإسلامي في مصر بواسطة رجل مثل رياض باشا. على أن التجربة كانت في غير محلها فلو أنها نجحت لكانت الحالة السياسية تغيرت تغيراً حسناً إلا أنها لسوء الحظ فشلت فشلاً تاماً.

«ولو جربت مرة ثانية تكون نتيجتها فشلاً ثانياً فإن من الواضح أن المسلم غير المتخلق بأخلاق الأوروبيين لا يقوى على حكم مصر في هذه الأيام لذلك سيكون المستقبل الوزاري للمصريين المترين تربية أوربية». فهذا قوله في رياض باشا الذي لم يتول الوزارة في هذا العصر رجل مثله في عدله وحسن إدارته وإخلاصه قد أثنى عليه لورد كرومر في خطبته الشهيرة «بالأوبرة الخديوية» وفي أحوال أخرى بما لم يثن على غيره، ولكن ذنبه عنده إنه كان يراعي الشعور الإسلامي ويحافظ على كرامة الإسلام.

وقد اعتذرت مجلة المقتطف عن تصريح اللورد في كتابه هذا بمثل هذا الكلام - ولم تذكره - بأنه كتب كتابه هذا لقومه ولم يخطر بباله عند كتابته أنه سينشر في مصر وغيرها من بلاد الشرق.

وهذه السياسة قد لقنها المسيطرون البريطانيون للموظفين المصريين بالعمل فصار يعرفها كل أحد، وكان من تأثير ذلك ما لا محل لشرحه هنا، وإنما غرضنا أن نثبت أن المسلمين حقيقة وهم المؤمنون بعقائد الإسلام المتخلقون بأخلاقه المحافظون على شعائره وعباداته الحريصون على مجده وكرامته لم يكن لهم حظ كبير من حكومة بلادهم ولا سيما إذا تربوا في المعاهد الدينية كالأزهر والتزموا زي علماء المسلمين.

وغرضي من بيان هذه الحقيقة أن أذكر الغافل عنها بأنها أقوى أسباب
بعد علماء الأزهر في عهد الاحتلال عن الاشتغال بالمصالح العامة وسياسة
البلاد، وكان الإنكليز يظنون أنهم أمنوا بهذا من القيام بنصرة قومية
للمطالبة بحقوقهم من الحكم في بلادهم بدلاً من الأجانب الذين أفتأتوا
عليهم فيها وحلوا محلهم في كل فروع أعمال حكومة بلادهم ومصالحها،
وأن من أكبر أسباب كراهة الإنكليز لسعد باشا زغلول كونه جاور في
الأزهر في حادثه عدة سنين ولكنهم لم يظفروا بطائل من نبزه بلقب
التعصب الديني على حسب عادتهم «رمتني بدائها وانسلت» لأنه قد اشتهر
بالتساهل الديني بما لم يشتهر به غيره من الوزراء وكان هو الوزير الذي
أدخل تعليم الدين المسيحي في مدارس الحكومة في عهد وزارته للمعارف
فجاء بعمل لا نظير له في حكومة من حكومات أوربة نفسها دع غيرها،
والقبط يعرفون ظاهره وباطنه ويعتقدون أنه إذا تم الاستقلال لمصر على
يده وكان صاحب النفوذ اللائق به في حكومتها المستقلة فإن حظهم منها
سينيلهم ما لم ينالوا في عهد الاحتلال.

وقد كان الإنكليز آمنين من انقلاب سياسي في البلاد بسعي الذين
يتربون على الطريقة الإفرنجية ولا سيما الإنكليزية لاعتقادهم أن هؤلاء لا
يهمهم غير أهوائهم وشهواتهم الشخصية فبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون
وجاءت النهضة الحديثة من قبل الشبان الذين نشأوا في المدارس الأوروبية
التربية سواء كان بمصر أو أوروبا وانتقلت من هؤلاء إلى الأزهرين وغيرهم
من شبان المعاهد الدينية، فكان هؤلاء الشبان ولقليل من الشيوخ تأثير
يذكر في نهضة سنة ١٩١٩ ولما سكنت الحركة وكان من الضغط على كثير
من رجالها وشبانها في عهد وزارة توفيق باشا نسيم ما كان وضع للأزهرين
وسائر طلاب المعاهد الدينية نظام خاص حظر على أهلها أن يشتغلوا
بالسياسة وفرض على المشتغل بها منهم عقاب ليس هذا محل بيانه.

ولما تنفس الزمان لمصر في هذا العام وسمحت السياسة بما سمحت به

من المظاهرات للوزارة العدلية ثم لسعد باشا زغلول على أمل اتفاهه معها
في العمل كان لعلماء الأزهر ظهور لم يكن لهم من قبل .

فقد ظهر في ميدان الوطنية السياسية الشيخ محمد بخيت الذي كان من
أقوى أنصار الاحتلال في عهد إعلان الحماية الإنكليزية على البلاد وقد ولي
منصب افتاء الديار المصرية فخدم السلطة المحتلة به أي خدمة فبرأيه
ورأي شيخ الأزهر في ذلك العهد حذفوا اسم السلطان العثماني من خطبة
الجمعة مع اعتراف البلاد له بمنصب الخلافة ولم تجد بريطانيا في
امبراطوريتها الهندية من رجال الدين كهذين الشيخين تستعين بهما على
حذف اسم الخليفة من الخطبة - وهما اللذان أكرها علماء الأزهر على إعانة
الصليب الأحمر .

وانفرد المفتي الشيخ [محمد] بخيت بإصدار تلك الفتوى الطويلة
العريضة في تقبيح البلشفية والتنفير منها حسب اقتراح السلطة المحتلة ،
وقد سبقت جريدة التيمس الإنكليزية إلى اخبار العالم بالفتوى البخيتية
وبموضوعها قبل صدورها بمدة طويلة . ولذلك قامت عليه قيامة الجرائد
الوطنية ورد عليها الأزهريون وغيرهم .

ولما اشترك الأزهريون بالحركة الوطنية عند قيام الوفد بها كان الشيخ
[محمد] بخيت حرباً لهم حتى قيل إنهم هددوه وأسقطوه في مظاهراتهم
وطعنوا فيه بخطبهم وأسمعوه ما يكره في نفس الأزهر في أثناء تشييع جنازة
الأستاذ الشيخ إبراهيم القاياتي رحمه الله تعالى .

وأما في هذه الكرة فقد اتفق مع الشيخ عبد الحميد البكري شيخ
مشايخ الطرق الصوفية على الاحتفال بسعد باشا في دار الثاني الواسعة
وانضم إليهما كثير من الشيوخ المدرسين في الأزهر فكانوا من أرفع أنصار
سعد باشا صوتاً .

ولما اشتد الخلاف بين سعد ووفده والوزارة العدلية مال الشيخ [محمد]

بخيت بأعوانه من الشيوخ إلى تأييد الوزارة مع حفظ خط الرجعة مع سعد أو الصلة به وسعد يرى تأييد الوزارة منتهى القطيعة له وللوفد بل للأمة فمن أيدها لا يبقى له حبل ولا خيط يصله به، فمن ثم عد الشيخ خصماً وهدم ما بناه في هذه المدة القصيرة من المنزلة الوطنية وكثر طعن السعديين فيه من حيث صار العدليون يكبرون مقامه ويلقبونه مع أنصاره من الشيوخ بأئمة الدين الذين يجب تقليدهم في السياسة كما يقلدون في الدين.

ولكن زعيم هؤلاء الأئمة أو إمامهم لم يلبث أن جنى على نفسه جناية أدبية تؤثر في صيت مثله ومقامه ما لا تؤثر الجنايات القانونية، ذلك بأن الشيخ بخيتا افترض تألم الأمة المصرية على اختلاف أحزابها من نبز بعض الإفرنج لها بلقب التعصب الديني من جراء ما سمي حادثة الإسكندرية إذ زعموا أن بغض المصريين للأجانب بسبب مخالفتهم لهم في دينهم هو الذي حملهم على الاعتداء عليهم - افترض ذلك بنشر مقالة بليغة في فلسفة التعصب اعتقد أن سيكون لها أكبر وقع في قلوب جميع أحزاب الأمة وطبقاتها لما فيها من الحقائق المتجلية في أبهى معرض من البلاغة والفصاحة يجمعها بين الجزالة وعلو الأسلوب والسهولة التي تتناولها إلهام العامة . فهي تشرح معنى التعصب وتبين كنهه وأسبابه ودواعيه وكونه من سنن الاجتماع وال عمران سواء كان مناطه الجنس والنسب، أو اللغة أو الوطن أو الدين، وأنه كغيره من الغرائز والملكات الإنسانية له حد اعتدال يكون نافعا للأمم والشعوب بالتزامه والوقوف عند حده، وطرفا إفراط وتفريط يعرض الضرر للأمة بتجاوز حد الاعتدال إلى أي منهما، فالاعتدال في التعصب أن يكون تعاون الجماعة أو الأمة الذين تجمعهم رابطة على ما يحفظون به حقوقهم ومصالحهم ويرفعون به شأنهم في العلوم والأعمال التي يرتقي بها البشر وتتنافس فيها الأمم - من غير تقصير فيما ينبغي لذلك يحول دون الغاية وهو التفريط ولا إسراف يحمل على ظلم الخارج عن هذه الرابطة والاعتداء عليه لأنه مخالف وهو الإفراط .

وكل من تجلت له هذه الحقيقة من مرآة الشعب المصري يجزم بأنه لا يزال يقرب إلى التفریط فيما ينبغي له من حفظ جامعته القومية والوطنية وإعلاء شأنها بمساماة الشعوب العزيزة منه إلى الإفراط الحامل على العدوان على المخالفين وهضم حقوقهم كما يفعله جميع المستعمرين من الإفرنج - فنشر المقالة في هذا الوقت كان عملاً نافعاً من وضع الشيء في محله في الوقت المناسب له .

ولكن المقالة ليست من إنشاء الشيخ محمد بخيت الناشر لها في الأهرام ولا هو بالذي يقدر على كتابة مثلها في أسلوبها ولا تحرير الحقيقة التي شرحت فيها، بل هي من مقالات الأستاذ الإمام، الشيخ محمد عبده، الشهيرة التي نشرت في جريدة العروة الوثقى التي أنشأها هو واستاذة موقظ الشرق وحكيم الإسلام السيد جمال الدين الأفغاني، قدس الله روحيهما، في باريس عقب احتلال الإنكليز لمصر لمقاومة الاحتلال ودعوة المسلمين إلى الاتحاد، وكان السيد هو المدير السياسي والأستاذ هو المحرر الأول لها. وقد نشرنا هذه المقالة في المنار من زهاء عشرين سنة معزوة إلى الأستاذ الإمام [محمد عبده] ثم نشرتها جريدة المؤيد نقلاً عن المنار. ثم نشرناها في الجزء الثاني من تاريخ الأستاذ الإمام الحاوي لأشهر منشآته من مقالات ومكتوبات. ثم طبعت أعداد العروة الوثقى برمتها في بيروت ونسخها تباع في مصر، وبلغنا أن بعض الشبان يحفظونها عن ظهر قلب، ولا غرو فالمقالات الاجتماعية في العروة الوثقى من المحفوظات التي يستعان بها على طبع ملكات الإنشاء العالي في النفس، كما أنها من أفضل ما يوقظ الأفكار، ويبعث فيها روح العظة والاعتبار، وينبهها لما يساور هذه الأمة من الغوائل والأخطار، مع بيان عللها وأسبابها، وطرق معالجتها والتفصي منها، وقد كان تنحل الشيخ [محمد] بخيت لهذه المقالة منها على ما ذكرنا من شهرتها أغرب ما ينتقد عليه، ويسدد سهام اللوم والتثريب إليه.

نشرت المقالة في الإهرام، فلم تلبث أن كانت الشغل الشاغل للألسنة

والأقلام، وانبرت الجرائد اليومية لمؤاخذه الشيخ على هذه السرقة المفضوحة، وطفقت الجرائد الهزلية تخرع النكت المضحكة المبكية في غميزته والرزاية عليه، وقد كان مما قرن به هذا الانتحال من الخذلان أن الشيخ بخيتاً حرّف في المقالة بعض الجمل وغير، وقدم وأخر، وكان محمد بك أبو شادي المحامي الشهير أشد من انتقده إذ كتب في جريدة وادي النيل الشهيرة مقالاً تهكيمياً في جعل موافقة ما نشره اليوم لما نشر بقلم الأستاذ الإمام [محمد عبده] منذ أربعين سنة ومن باب توارد الخواطر وقد أودعه المقالة بحروفها، مع التنبيه إلى ما حرف الشيخ [محمد] بخيت منها، بجعل المحرف مقابلاً للأصل في جدولين متوازيين، ونشر محروس أفندي عبده أخو الأستاذ الإمام لأبيه المقالة في جريدة الأمة مقرونة بما يقتضيه المقام من الاستغراب والنقد. وقد حدثنا بعض العلماء الثقات أن بعض الناس في دمنهور طفق يقرأ المقالة عند وصولها إليه في اليوم الذي نشرتها فيه جريدة الأهرام فقال له أحد السامعين: على رسلك وألق السمع إليّ لأتم لك قراءة ما شرعت فيه فإنني أحفظه وأتم قراءة المقالة من حفظه فلم يكن بينه وبين ما في الأهرام إلّا تلك الجمل القليلة التي شوه حسننها التحريف.

ولو أن الشيخ بخيتاً نشر هذه المقالة مع مقدمة بين فيها ما أشرنا إليه آنفاً من كونها أفضل ما يرد به على اتهام المصريين بالتعصب الديني الضار بحمله على إيذاء المخالف في الدين لأنه مخالف وعزاها إلى صاحبها أو إلى العروة الوثقى إذاً كان يثقل على طبعه التنويه بفضل الأستاذ الإمام [محمد عبده] باسمه - لكان خيراً له وللمصلحة العامة - أما الأول فظاهر وأما الثاني فهو إن علم الناس بصاحب المقالة ذي المكانة العالية المعروفة التي يتضاعف ارتفاعها في الأنفس عاماً بعد عام يزيدهم رغبة في قراءتها وتأملها والانتفاع بها، ولا شك في أن قراءة الناس للمقالة قد زاد بعد أن نشر في الجرائد ما نشر من إنكار انتحالها على الشيخ [محمد] بخيت وعزوها إلى الأستاذ الإمام [محمد عبده]. وقد قلت لأستاذ شهير من أهل

العلم والأدب زارني في اليوم التالي لليوم الذي نشرت فيه المقالة: هل قرأت المقالة التي نشرتها جريدة الأهرام أمس للشيخ بخيت؟ قال رأيتها وقرأت أسطراً من أولها ولم أتمها، ولم أضيع وقتي في قراءة ما يكتب الشيخ [محمد] بخيت في التعصب والبحث في تعريفه بمثل ما يبحثون في الأزهر بتعريفات الفنون. وقد كان مما حُرف من المقالة بيان معنى التعصب لغة وعرفاً فقدّمه الشيخ عن موضعه فجعله في أول المقالة محرفاً، قلت إن هذه المقالة هي مقالة العروة الوثقى الشهيرة التي تعرفها - وذكرت له تصرف الشيخ فيها فقال إذا أعود فاقراها.

إلا إن فعله الشيخ بخيت هذه من الغرابة بمكان وإن كان أكثر ما يكتب أمثاله ليس إلا نقلاً لما كتب من قبلهم، وأغرب ما حدثنا به غير واحد من الثقات عنه أنه قال إن المقالة له، وأنه كان هو والمرحوم الشيخ أحمد أبو خطوة يكتبان المقالات ويرسلانها إلى الشيخ محمد عبده في باريس فينشرها والعروة الوثقى غير معزوة إليهما!! وهذا تخلص عرض له في المجلس لم ير له مخرجاً سواه، وقد كرم نفسه أن ينشره في الجرائد ولو نشره لسمع من تنفيذه وما يحتف بهذا التنفيد فوق ما منعه توقعه من نشره.

وإن تعجب أيها القارئ لهذا الجواب، فاسمع ما هو أجدر منه باسم العجب العجيب، وهو أن الشيخ بخيتاً قال في ملأ من العلماء إن فتواه في البلشفية قد كانت وسيلة إلى أمر عظيم وهو تطبيق قواعد البلشفية وقوانينها على الشرع الإسلامي، ذلك أن أنور باشا امتنع على زعيم البلشفية «لينين» الشهير أن يساعده على نشر البلشفية بسبب هذه الفتوى وفتوى أخرى لشيخ الإسلام في الأستانة مختصرة في معناها فاضطر «لينين» إلى تغيير قواعدها وجعلها موافقة للشرعية.

على هذا وكان الشيخ [محمد] بخيت هو والشيخ أحمد أبو خطوة هما المحررين لتلك المقالات الإصلاحية التي نشرت في بضعة عشر عدداً من العروة الوثقى فاهتز لها العالم الإسلامي وكادت تحدث فيه انقلاباً عظيماً

على منع بريطانية العظمى إياها من دخول مصر والهند وغيرهما من الأقطار الإسلامية وفرضها غرامة تذكر على من توجد بيده . سمعت شيخنا الشيخ حسيناً الجسر يقول : ما كنا نشك في أن العروة الوثقى ستحدث ثورة كبرى في العالم الإسلامي إذا طال أمرها، الخ . وحدثنا الثقة أن الزعيم الكبير السيد سلمان الكيلاني نقيب الأشراف ببغداد في ذلك العهد كان يقول كلما قرأ عدداً من العروة الوثقى لعله لا يجيء العدد التالي له إلاً والى انقلاب المنتظر قد وقع - أو ما هذا معناه - هذا الروح القوي المؤثر المتجلي في تلك البلاغة العالية كان العالم يزعم أن مصدره اتصال كهربائية السيد جمال الدين الأفغاني بكهربائية الشيخ محمد عبده نابغتي الشرق والإسلام في هذا العصر، ذلك أول اتصال الذي تألق برقه فأضاء طريق النجاة للشرق وكاد يكون صاعقة محرقة لمستعبديه . ولكن الشيخ [محمد] بخيت يقول اليوم لأفراد من الناس إن هذا الروح روحه كان ينفخ فيه وهو في شرح الشباب بما كان له ذلك التأثير في العروة الوثقى . ولكن ما باله قد زهق مدة أربعين سنة فلم يظهر له أثر في خطبة مؤثرة، ولا في صحيفة من الصحف المنتشرة؟ وما باله اليوم وقد طفق يعيد ما بدا، لم يحدث من التأثير إلاً التهكم والأذى؟ وما بال مقالة الشيخ الثانية، ليس فيها أدنى نسمة من ذلك الروح، ولا أقل مسحة من جمال ذلك الأسلوب؟

نشر الشيخ مقالة ثانية في التعصب انتقم بها من الذين صوبوا إليه سهام الإزراء والغميمة، ومن الأمة المصرية أو الإسلامية بجملتها أن سكنت لهم ولم يناضلهم عنه أحد منها، افتتحها بقوله تعالى : «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون» [سورة الأنبياء رقم ٢١، الآية ٢٨] وجاء بعد ذلك بجملته طويلة من كتاب تهذيب الأخلاق لابن مسكويه وكتاب رياضة النفس من أحياء الغزالي في صفات النفس وما في اعتدالها من الفضائل، وما في الخروج عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط من الرذائل، وجعل ذلك مقدمة لنفي الاعتدال

وجميع ما يتبعه من الفضائل عن المسلمين وإثبات ضدها لهم بما كرره من قوله : لو أن المسلمين كذا لما فعلوا كذا وكذا من المعاصي والردائل ولا سيما التباغض والتحاسد وكل ما يصح أن يوصف به من خاضوا فيه بما خاضوا مما لا يتسع المقال لنقله ولا لنقده، إلا أن نقول إنه ليس فيه من موضوع التعصب إلا إثبات إفراط المسلمين فيه كغيره من الأخلاق والصفات، وهذا تصديق للأجانب الذين رموا المصريين بالإفراط والتعصب وزيادة لو فطنوا لجعلوا الشيخ حجة أو فتوى على عدم استحقاقهم للاستقلال، وهو ينقض أو يناقض الغرض السامي الذي تراءى لنا أنه نشر مقالة العروة الوثقى لأجله كما تقدم!!

هذا ما كان من أمر الشيخ [محمد] بخيت في تصديه وتصدره للزعامة السياسية مع رجال الدين وكنا نود لو يوفق في هذا العمل لما يرفع من قدر علماء الأزهر ويثبت لمن راجت عليهم دسائس الأجانب في استحسان عزل رجال الدين عن السياسة وسائر المصالح المدنية أنهم أهل لكل ما ينفع الأمة بأفكارهم وأقلامهم وأعمالهم لأن هذا ما نراه لهم وسبق لنا القول فيه مراراً، فلا غرو إذا ساءنا جعل الشيخ مضغة في الأفواه، وإن كان هو عقبة في سبيل الإصلاح الديني المدني الذي نسعى إليه حتى مقاومة البدع كما يعلم من ردنا على ما كتبه في تأييد بدع يوم الجمعة وغير ذلك فالشيخ [محمد] بخيت لا يصلح للسياسة.

وأما قرينه في هذه الحركة الشيخ عبد الحميد البكري فهو يعد من رجال الدين بالورثة ومشيخة الطرق التي هي وظيفة رسمية لتقاليد معروفة، وإنما كانت تربيته وتعلمه مدنيين لا دينيين أزهريين وهو محافظ على فرائض الدين وآدابه وأخلاقه قلما يوجد مثله في الجمع بين العيشة المدنية كالمفترنجين مع هذه المحافظة على الدين بأداء الفرائض واجتناب المعاصي والردائل، وهو كما نعلم غير راض عن بدع أهل الطرق وإن رضي أن يكون شيخاً تقليدياً لهم، ويتمنى لو يستطيع إلى إصلاح حالهم سبيلاً، ثم

إنه يجب الإصلاح الديني المدني الذي ندعو إليه وهو معتدل الفكر في ذلك على كثرة قراءته للكتب الفرنسية في الاجتماع والأدب والسياسة، وقلما تذاكرنا معه في مسألة وإلا وكُنّا على اتفاق أو انتهينا إلى اتفاق، فهو في مكانة بيته وفي استقامته وآدابه واعتدال أفكاره أهل للزعامة إلا أنه ينقصه من شروطها ما قلنا إنه ينقص عدلي باشا فهو يشبهه في المبالغة في حفظ كرامته الشخصية والبيئية وفي الاحجام عن كل ما من شأنه أن يثير خصاماً أو يعقب ملاماً، وفي عدم تعود الخطابة والكتابة والجدل والمحااجة، وقد عجبنا من دخوله في هذه المعمة على خلاف ما يعرف من طباعه على أنه تصدى أولاً لأمر متفق عليه وهو الاحتفال بوكيل الأمة ورئيسها قبل ظهور الخلاف فجعل احتفال العلماء به في داره الواسعة بل قصره الفخم، ثم جرى الشيخ بخيتاً على تأييد الوزارة مع حفظ الصلة أو خط الرجعة مع سعد باشا ووفده، ثم جرى الأمير عزيز حسن ورضي أن يعقد في باحة قصره اجتماع عام يرأسه الأمير للاحتجاج على تصريح وزير المستعمرات البريطانية المستر تشرشل.

ولكنه لما علم أن سعد باشا سيخطب في هذا الاجتماع، بعد أن صارت خطبه كلها تتضمن الرد على الوزارة والدعوة إلى عدم الثقة بها - ترك الدار للمدعويين من جميع طبقات الأمة الممثلين لها وسافر إلى الإسكندرية ولم يحضر اجتماعهم. فإذا لم يكن هذا اعتزال منه للسياسة ومشاغباتها بل ظل عازماً على الاشتغال بها مع رجال الدين أو غيرهم فالذي أراه أنه لا يمكن أن يمضي في ذلك ويثبت إلا أن يكون رئيساً للجماعة من المتعلمين المعتدلين العارفين بحال العصر بشرط أن يسيروا بنظام مدون بحيث لا يعملون عملاً إلا بقرار مدون، وأنا ممن يرشحونه لهذه الرئاسة إن هو أقدم، وأرجح أنه لا يفعل.

تبجح البخيتين وغرورهم بلقب أئمة الدين

إذا أراد رجال الدين الاشتغال بسياسة أمتهم ومصالحها العامة فأحوج

ما يحتاجون إليه من الاستعداد لذلك التوسع في تاريخ الملل والأمم المعاصرة وما وقع فيها من الانقلابات الدينية والمدنية وما دعا الشعوب الأوروبية إلى الفصل بين الدين والسياسة وإزالة سلطان البابوات وتأثير ذلك في البلاد الإسلامية كبلادهم وبلاد الدولة العثمانية التي كانوا تحت سيادتها على تجلي سلطانها بلقب خليفة المسلمين، ويجب أن تكون أولى الفوائد أو الحقائق المأخوذة من هذا التاريخ أن يعلموا أن شعبهم المصري، نفسه وسواده الأعظم من المسلمين لا يقبل أن يخضع لشيوخ يزعمون أنه يجب اتباعهم والخضوع لهم في أقوالهم وآرائهم في السياسة والمصالح المدينة لأنهم من رجال الدين، وإن انتحلوا لأنفسهم ألقاب الأئمة أو جاد عليهم بها في وقت من الأوقات من ينتفع بهم في مظاهرته على خصمه.

أقول هذا لأنني أراه أول شرط من شروط نجاحهم الذي أوده وأتمناه وقد ذكرني به مقال رأيته في بعض الجرائد لأحد أفراد حزب الشيخ [محمد] بخيت يرد به على سكرتير الوفد المصري فيما عزاه إلى حزبها من خطأ لا أرى ما أتوخاه من الفائدة في نقد هذا المقال يتوقف على بيان الخلاف بين هؤلاء الشيوخ وبين الوفد، وهذه الفائدة بيان خطأ الكاتب فيما كتب كما خطأ في الباعث على هذه الكتابة وهو ما علم من التمهيد آنفاً.

نشر هذا المقال في جريدة الأخبار بإمضاء «عبد ربه مفتاح من علماء الأزهر» وقد وصف فيه الشيوخ الذين خطأهم ناموس الوفد، سكرتيه، ورماهم بما ينافي الوطنية، كما يفهم من كلام الكاتب، بقوله إنهم «أشرف وأرقى طائفة في الأمة بل في العالم الإسلامي وإنهم قادة الأمة وأمنائها على وحي الله تعالى الذي به السعادة الأبدية أو شقاؤها السرمدي» (كذا).

ثم قال بعد هذا الوصف: أيها القوم إن لكل مقام مقالاً، وإن مقام التكلم مع رجال الدين وفيهم مثل فضيلة الشيخ [محمد] بخيت وسماحة السيد [عبد الحميد] البكري شيخ مشايخ الصوفية وابن أبي بكر الصديق

أمين هذه الأمة (؟) يجب ألا يكون كما تكتبون. رجال الدين في كل زمان ومكان هم أمناء الله على دينه فمصيبة كبيرة وفتنة عظمى إذا رمينا هم بالمرور من الوطنية من أجل أنهم خالفوا في الرأي شخصاً معيناً.

ثم قال «هبوا العلماء أخطأوا في هذا أليس النبي ﷺ يقول «اتقوا زلة العالم» ويقول «لحوم العلماء مسمومة» فلماذا استمرأتموها فأكلتم منها حتى التخمة؟ اهـ.

أقول يا للعجب من هذا العجب والغرور والدعوى العريضة والجرأة على رواية الحديث والاستدلال بكل ما جرى على الألسنة منه وإن كان ضعيفاً.

من أين علم الأستاذ الكاتب أن هؤلاء الشيوخ الذين وقعوا مع الشيخ [محمد] بخيت على ما ارتآه في المسألة المصرية هم أشرف وأرقى طائفة في الأمة بل العالم الإسلامي وهذا شيء لا يمكن أن يعلمه إلا الله تعالى؟ وإن أريد به ظاهر ما عليه الناس من العلوم النافعة والأعمال الصالحة، دون السرائر التي عليها المعول في الواقع، فهل طاف الأستاذ الكاتب العالم الإسلامي كله واختبر جميع علمائه وصلحائه وأحاط علماً بدرجات علومهم وكنه أعمالهم وشرفهم في بلادهم ووضع شيوخه الذين يرأسهم الشيخ [محمد] بخيت في كفة ميزان وسائر أولئك العلماء والصلحاء في كفة فرجحت كفة شيوخه وشالت كفة أولئك؟

ثم ما معنى التنويه هنا بنسبة السيد [عبد الحميد] البكري إلى الصديق رضي الله تعالى عنه؟ أيجعل هذا كمشيخة الطرق مما يفضل به جميع العالم الإسلامي وهو يعلم كما يعلم كل من يعرف الناس أن في المنسوبين إلى الصديق وإلى بنت الرسول ﷺ وغيرهما من الصحابة البر والفاجر، وأن مشيخة الطريق هي مما يعد على الشيخ عبد الحميد البكري ولا يعد له لأنها مشيخة بدع وخرافات ما أنزل الله بها من سلطان؟

ايه! ايه! أيها الأستاذ اربع على ظلعك، وقف عند حدك، وراقب ربك في هذه الألقاب والنعوت التي تكيلها جزافاً، واعلم أن أمانة الله على وحيه مرتبة عالية لا تنال بشهادة تؤخذ من الأزهر وأمثاله، ولا بكسوة تشريف من الأمراء والسلاطين، أين آثار شيوخك في قيادة الأمة التي نحلثهم إياها من الدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله ومحاربة البدع والخرافات والإلحاد والشبهات بهما؟ راجع ما كتبه حجة الإسلام الغزالي في الفرق بين علماء السوء وعلماء الآخرة لتعلم أنه ليس كل من علم شيئاً من هذه العلوم الشرعية وآلاتها العربية كما وصفت، وراجع مراجعة خاصة ما كتبه هو وما كتبه الشعراني في الميزان في حديث «العلماء أمناء الرسل ما لم يخالطوا السلطان»، إلخ.

إيه! إيه! أيها الأستاذ من أين علمت أن النبي، ﷺ، قال ما أسندته إليه؟ هل رويت هذا بالسند عن الشيخ [محمد] بخيت وأمثاله الذين فضلتهم على جميع الأمة والعالم الإسلامي فأديت الأمانة التي تلقيتها عنهم؟ أم تلقيت هذا من أفواه الذين يتجرءون على الرسول بغير علم فيسندون إليه كل ما يسمعون من فم أو يقرأونه في كتاب؟ أليس هذا مما صرح الفقهاء والمحدثون بحظره وتعزيز مرتكبه ومنعه، كما بينه ابن حجر في الفتاوى الحديثة؟

أما حديث «اتقوا زلة العالم» فقد رواه العسكري في الأمثال والديلمي من حديث عمرو بن عوف بزيادة «وانتظروا فيثته» وأورده السيوطي في الجامع الصغير بلفظ: اتقوا زلة العالم وانتظروا فيأته؛ وأبو نعيم في السنن وابن عدي في الكامل وراويها الذي انفرد به هو كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف بن زيد المزني عن أبيه عن جده^(١) قال الحافظ الذهبي: قال ابن معين ليس بشيء. وقال الشافعي وأبو داود: ركن من أركان

(١) الحديث أورده الشيخ الحوت في كتابه «رسالة في بيان الضعيف من أحاديث الجامع الصغير».

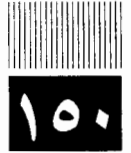
الكذب. وقال مطرف بن عبد الله المدني رأيته وكان كثير الخصومة لم يكن أحد من أصحابنا يأخذ عنه. وقال له ابن عمران القاضي: يا كثير! أنت رجل بطل، الخ. وقال ابن حبان: له عن أبيه عن جده نسخة موضوعة. وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه اهـ. وهو معنى حديث رواه البيهقي من حديث مجاهد عن ابن عمر وفيه «أن أشد ما أتخوف على أمتي ثلاث زلة عالم وجدل منافق بالقرآن ودنيا تقطع أعناقكم فاتهموها على أنفسكم»، اهـ. من تمييز الطيب من الخبيث وهو في معناه حجة على الأستاذ الكاتب وإن كان لا يحتج به كما هو ظاهر.

وأما جملة «لحوم العلماء مسمومة» فلا أعلم أن أحداً رواها حديثاً بل وجدت في كلام لابن عساكر فأما أن يأتينا الأستاذ عبد ربه بنقل في روايتها حديثاً وأما أن يكون هو الواضع لهذا الحديث وهو موضوع بلا شك. ونسأل الله تعالى أن يصلح هذه الأمة ويلهمها رشدًا ويقيها شر الغرور القاتل، إنه على ذلك قدير.

وكتب هذا في الباخرة كليوباترة بالقرب من سواحل إيطاليا.



بدء تفرق هذه الأمة وعاقبته



[فرقتهم السياسة وستجمعهم السياسة]

[المنار ج ٢٢ (١٩٢١) ص ٧٣٨ - ٧٤٦]

كان المسلمون في عهد رسول الله ﷺ، أمة واحدة على ملة واحدة فكان أول خلاف نجم بينهم الخلاف على الإمارة فقال بعض زعماء الأنصار للمهاجرين، رضي الله عنهما، منا أمير ومنكم أمير. وكان بعض

آل بيت الرسول، عليهم السلام يرون أنهم أولى بهذا الأمر من غيرهم وخاف عمر الفاروق، رض، بما كان عليه من بعد الرأي والحزم أن يحدث صدع في بنية الأمة قبل دفن رسولها فبادر إلى مبايعة أبي بكر الصديق، رض، الذي لم يكن أحد ينكر مكانته في الإسلام سبقاً وعلماً وفهماً ونصراً لله ولرسوله فتبعه السواد الأعظم من المهاجرين والأنصار وتلا ذلك علي [كرم الله وجهه] ومن كان تأخر فتم الإجماع، وإنما بايعه من أهل البيت ومن على رأيهم من كانوا يرون أن علياً، كرم الله وجهه، أولى منه بالأمر لأجل جمع الكلمة، والخوف من التفرق الذي برأ الله رسوله من أهله، فإن الاجتماع والاتفاق هو سياج الدين وحفاظه فيرجح على كل ما عارضه من المصالح، وكذلك بايعوا عمر وعثمان من بعده، وكذلك تنازل الحسن عليه السلام لمعاوية عن الخلافة لترجيح هذه المصلحة على غيرها.

وأما مقاومة بعض أئمة العترة وغيرهم للأمويين فلظلمهم وجعلهم الخلافة مغنماً لهم وإراثاً فيهم ومغرمات وعذاباً على من لم يتبع أهواءهم فهدموا بذلك قاعدة القرآن في الشورى وجعلوا إمامة الدين وخلافة النبوة ملكاً عضوياً - كما أنبأت أحاديث دلائل النبوة - وقد بين ذلك الإمام زيد بن علي إذ سئل عن سبب موالاته لأبي بكر وعمر مع اعتقاده أن جده الأعلى علي المرتضى أولى منهما بالخلافة وخروجه على هشام الأموي إذ قال لسائله ما معناه أن أبا بكر وعمر ولاهما جمهور الصحابة لأجل المصلحة الراجحة فأقاما الحق والعدل فتولاها جده الأعلى لأنها قاما بما كان هو يقوم به وكان هو قاضيهما ومستشارهما - فهو، أي زيد، يتولاها كما تولاها جده وهشام ليس كذلك. فالإمام زيد وأتباعه من المصلحين الذين يلقبون في عرف هذا العصر بالفدائيين، الذين يقاومون الظلم بالثورات على الجائرين الظالمين، إلى أن يثلوا عروشهم، ويريحوا الأمم من جورهم، وجمهور أهل السنة يرجعون في هذه المسألة إلى قاعدة تعارض درء المفسد وجلب المصالح وقاعدة ارتكاب أخف الضررين في مقاومة الظلم وأهله

لثلا يفضي إلى فتنة التفرق والشقاق، ولكنهم أيدوا الظالمين وأطاعوهم
شبهة هذه القواعد حتى ضاع الإسلام وشرعه وتضعع كل ملك لأهله
لأنهم لم يحكموا تحكيمها وتطبيقها.

وقد رفض غلاة الشيعة الإمام زيداً إذ أبي قبول ما اشترطوه عليه
لاتباعه وهو البراءة من أبي بكر وعمر فلذلك سمووا الرافضة، ولماذا
اشترطوا البراءة من أبي بكر وعمر دون عثمان بل دون معاوية ويزيد؟ إن
أكثر الشيعة الصادقين من المتقدمين والمتأخرين لم يكونوا يعرفون هذا ولو
فكروا فيه لعرفوه وعرفوا بمعرفته كيف جرفهم تيار دسائس المجوس
أصحاب الجمعيات السرية العاملة للانتقام للمجوسية من الإسلام الذي
أطفأ نارها وثلّ عرش ملكها على يد أبي بكر وعمر اللذين كانا يفضلان آل
بيت رسول الله، ﷺ على آلهما، فتلك الجمعيات المجوسية بثت دسائسها
في الشيعة لأجل التفریق بين المسلمين وإزالة ذلك الاتحاد الذي بني على
أساس مجد الإسلام من حيث لا يشعرون.

لم توجد في الدنيا جمعيات أدق نظاماً وأنفذ سهاماً من جمعيات الباطنية
التي أسسها عبد الله بن سبأ اليهودي ومجوس فارس لإفساد الدين
الإسلامي وإزالة ملك دعائه العرب فقد راجت دسائسها في شيعة آل بيت
الرسول من المسلمين الذين كانوا يرون أنهم أحق بملك الإسلام بل راج
بعضها في سائر المسلمين أيضاً، ولكن الإسلام كان أقوى في نفسه فبينما
كانت تلك الدسائس تعمل عملها في الحجاز والمغرب وغيرها من بلاد
العرب والبربر كان الإسلام ينتشر في أمة الفرس النبيلة وكتب السنة
والتفسير وفنون العربية تدون في مدنها بأقلام أبناء فارس ومن استوطن
بلادهم من العرب وتنشر في مشارق الأرض ومغاربها تؤيد هذا الدين
القيوم ولغته، وقد صار لأولئك الباطنية دولة في مصر ولم يكن لهم دولة في
بلاد الفرس، ولم تستطع دولتهم في مصر أن تقضي على الإسلام ولا أن
تعيد المجوسية وتجعل لها ملكاً، لأنها لما كان لها ظاهر هو الإسلام على

مذهب الشيعة الذي كان مذهباً سياسياً فصار مذهباً دينياً ولها باطن سري لا يعرفه إلا رؤساء الدعاة - ولما كان المتحلون لها من العرب والبربر جاهلين بأصلها وبما وضعت له - غلبت الصبغة الدينية فيها على الصبغة السياسية وكان عاقبة دعوتها أن مرق بعض الشيعة من الإسلام في الباطن واتخذوا التعاليم الباطنية ديناً يدينون به فيقولون بألوهية بعض آل البيت ويعبدونهم بضروب من العبادات ويتأولون آيات القرآن تأولاً يحتجون به على تلك التعاليم وهم لا يدرون أن الغرض الأول من القول بعصمة بعض آل البيت ثم القول بألوهية بعضهم هو إبطال دين جدهم وإزالة ملكه من آلهم وسائر قومه - ومن الغريب أن الباطنية تجدد له دين جديد في هذا العصر مبني على القول بألوهية رجل من غير آل البيت وهو البهاء الإيراني والد عباس عبدالبهاء - وبقي سائر الشيعة مسلمين يؤمنون بالله وبأن محمداً خاتم رسل الله ويصلون ويصومون ويؤدون زكاة أموالهم ويحجون البيت من استطاع منهم إليه سبيلاً، ومنهم من لا يزال يغلو في آل البيت غلواً يختلف حكم الشرع فيه، ويطعن في أبي بكر وعمر وجهور الصحابة ظناً منه أنه ينتصر بذلك لآل البيت غافلاً عن كون أئمة آل البيت علي وأولاده كانوا أولياء وأنصاراً لأبي بكر وعمر، فإن صح أن هذا كان تقية منهم لأجل مصلحة الإسلام، فلماذا لا يكفون هم عن الشقاق والتفريق بين المسلمين بالطعن فيهما لأجل مصلحة الإسلام؟

أضعفوا الإسلام بهذا التفرق الذي نهى عنه القرآن وجعل الرسول ﷺ، بريئاً من أهله وكل شيعة وفرقة تظن أنها بهذا التفرق والخلاف تنصر الإسلام وتؤيده فكانت عاقبة أمر المسلمين أن ضعف ملكهم على اختلاف مذاهبهم وكادت الإفرنج تستعبد الدول والإمارات الإسلامية كلها ومنها من يعد سنياً ومن يسمى شيعياً إمامياً ومن يدعى شيعياً زيدياً، ونحمد الله أن عرف جمهورهم بهذا الخطر حقية ما بيناه مراراً وهو أن ذلك التفرق كان من فساد السياسة، واستجمعهم السياسة كما فرقته السياسة.

ضعف المذاهب والدين ودسائس الأجانب في المسلمين

ضعفت في هذا العصر عصبية المذاهب نفسها ولا سيما في الفروع من حيث أنها لم تعد من وسائل سعة الرزق ولا عرض الجاه بالمناصب والجلوس على مناصب الحكم وإنما كانت العصبية لذلك - وبضعف الدين نفسه، فإن الجاهل بحقيقته صار عاماً وصنف العلماء أعماهم التقليد عن النظر في مصالح الأمة والسير بالقضاء والإدارة والسياسة على ما تجدد لها من هذه المصالح، وما استهدفت له من الغوائل والمفاسد، حتى اقتنع حكامها الجاهلون في أكثر البلاد بأن شريعتها لم تعد كافية للإعتماد عليها في ذلك فصاروا يقلدون الإفرنج فيما اشترعوا لأنفسهم من القوانين التي يرونها موافقة لعاداتهم وآدابهم وعقائدهم وتقاليدهم وإن لم تكن موافقة للمسلمين في شيء من ذلك، ولم يعقلوا ما في هذا التقليد من المفاسد السياسية والاجتماعية المضعفة للأمة في دينها ودنياها بل حسبوا بجهلهم وبإغواء الطامعين فيهم لهم أنهم بهذا ينفصون من عقال الشرع وسيطرة رجاله الجامدين فيكون أمر حكومتهم بأيديهم يتصرفون فيها كما يشاؤون ويكونون كالدولة الأوروبية في عزتها وثروتها فكانت عاقبة هذا الإغواء أن سلبهم أولئك المغوون ملكهم وجعلوهم أسلحة وآلات بأيديهم يذللون بهم أمهم وشعوبهم ويضربون بعضها ببعض فلم يستطيعوا أن يقضوا على استقلال مملكة إسلامية إلا بمساعدة فريق من أهلها أو من الشعوب الإسلامية المتصلة بها وفاقاً لما وعد الله تعالى به النبي، ﷺ، كما في حديث ثوبان في صحيح مسلم وكتب السنن «وإني أعطيتك لأمتك إلا أهلكهم بسنة عامة وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، سلطتهم وملكهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً» ومن اطلع على تاريخ استعمار الأجانب للممالك الإسلامية من أوله إلى هذه الأيام يرى مصداق هذا في غرب تلك البلاد وشرقها.

وقد اجتهد أولئك الطامعون المغوون بإفساد أفكار الشعوب الإسلامية وقلوبها، كما اجتهدوا في دس الدسائس لإفساد سلاطينها وأمرائها، لئلا ترجع إلى هداية القرآن فتجتمع كلمتها وتصلح حكومتها، فتكون أمماً عزيزة يتعذر استعبادها، فبثوا فيها دعاة الدين لتشكيكها في القرآن والنبوة واستمالتها إلى دينهم الذي قلّ من بقي له ثقة به من ساستهم وعلمائهم، ومنهم من يشككها في أصل الدين أي وجود الإله وبعثة الرسل، كما بثوا فيها دعاة السياسة يرغبونها في قطع الرابطة الدينية التي تربط بعضها ببعض واستبدال الرابطة الجنسية أو الوطنية بها، فكان عاقبة ذلك وقوع العداوة والبغضاء بين الترك والفرس ثم بين الترك وبين الألبان والعرب، صار أهل الجنس الواحد الذي تضمه رابطة الدين ورابطة اللغة ورابطة العادات وغيرها يتعادى باسم الوطنية فيعد المصري أخاه السوري والحجازي دخيلاً في بلاده.

فهذا النوع من التفرق إذا لم يكن من التفريق للدين في إحدى القراءتين في الآية فهو من المفارقة له في القراءة الأخرى وهي شر الأمرين، فإنه ترك هدايته في وحدة الأمة وأخوة الدين وإقامة الشريعة وحفظها. غير هؤلاء المسلمون بفساد أمرائهم وزعمائهم ما بأنفسهم فغير الله ما بهم، وسلبهم عزهم وسلطانهم، وما ظلمهم بذلك ولكن ظلموا أنفسهم، بعد أن أنذرهم وحذرهم، فكانوا من الأخسرين أعمالاً «الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» [سورة الكهف رقم ١٨، الآية ١٠٤].

بين الله تعالى لهم في كتابه سننه في الأمم - ومنها هلاك المتفرقة - وأنها لا تبدل ولا تتحول ولكنهم هجروا الكتاب حتى أن رجال الدين تركوا إرشاد الحكام والأمة به بل استغنوا عن هدايته بتقليد شيوخهم، وأيدوا الحكام وأقروهم على ضلالهم، لأجل ما بأيديهم من فضلات الرزق ومظاهر الجاه.

الإصلاح والدعوة إلى الوحدة

ولكن الله تعالى لم يحرم الأمة من نذير يجدد هداية الرسل فقد بعث على رأس هذا القرن الهجري حكيماً [جمال الدين الأفغاني] من سلالة العترة النبوية يجدد لها أمر دينها بالدعوة إلى الوحدة، والرجوع عما ابتليت به من التفرقة، وشد أزرها في ذلك مريد له [محمد عبده] تخرج به فكان أفصح لساناً وأوضح بياناً، وقد استفادت الأمة من إصلاح هذين الحكيمين ومن جرى على أثرهما ما بعث فيها الاستعداد للوحدة، والدعاية لجمع الكلمة، ولكن الأمم لا تتربى بالإرشاد إلا إذا أعدت الأنفس له الشدائد والمصائب، ولا سيما أنفس أهل الجهل المركب المغرورين بما بقي لهم من حثالة الملك وبقايا مظاهر العظمة الباطلة. ومن الغريب أن أكثر الشعوب الإسلامية كانت مغرورة بالدولة العثمانية متكلة عليها لأنها أقوى دولهم وهم غافلون كشعبها عما عراها من الضعف والوهن حتى أن كانوا ليعادون من يقول أنها تحتاج إلى إصلاح، وكان السيد [جمال الدين] الأفغاني - وهو الموقظ الأول - يقول إن انكسار الدولة العثمانية في الحرب الروسية الأخيرة في عهده هو الذي أعد المسلمين لإدراك الخطر الذي يحيق بهم والحاجة إلى الإصلاح. وقال بعض أذكى رجالاتها: إن انتصار السلطان عبد الحميد على الدولة آخر ما نرجو من الإصلاح سنين كثيرة. ونقول إن السواد الأعظم منهم من التابعين لها ومن غيرهم قد ظلوا سادرين في غرورهم، جامحين في غيهم، إلى أن انكسرت هذا الانكسار الفظيع في هذا العصر، واحتل الأجانب المنتصرون عليها عاصمتها التي كانت أعظم مظاهر غرورها، حتى كنا نعتقد أنها أكبر عقبات الحياة في سبيلها، وصرحوا بأنهم قضوا عليها القضاء الأخير المبرم الذي لا مرد له، ولا سيما وقد أمضى من أنابت عنها في مؤتمر الصلح تلك المعاهدات الناطقة بانتزاع جميع البلاد العربية وبعض البلاد التي سموها أرمنية ويونانية من سلطتها وجعلوا بقية بلادها وهي الولايات التركية مع العاصمة تحت سيطرة الدول

آيات الله في المسلمين والرجاء بعد اليأس

لم يبق بعد هذا متكأ ولا ملجأ يأوي إليه الغرور ولا منفذ يتسرب منه الأمل، على ما هو المؤلف والمعهود في عرف الدول، هنالك يئس الضعفاء، واستسلموا للأعداء، ولكن الله تعالى أراد أن يري المسلمين بعض آيات عنايته، الدالة على كفر اليائسين من روحه وضلال القانطين من رحمته، فألهم بعض أصحاب العزائم من قواد الدولة في الأناضول أن من أراد الحياة فعليه أن يحتقر الموت، وإن كل ميتة يموتها الإنسان، فهي أشرف من الاستخذاء والمهانة بالاستسلام للأعداء، وإنه تعالى قد ينصر الفئة القليلة المعتصمة بالحق والصبر، على الفئة الكثيرة المعتدية بالباطل والبغي، فألفوا جمعة وطنية ووضعوا لها ميثاقاً تواتقوا على أن يقاتلوا في سبيله إلى أن يطهروا جميع البلاد التركية من الاحتلال الأجنبي فتكون مستقلة خالصة لأهلها، وقد كانت جيوش الاحتلال في بلادهم مؤلفة من الإنكليز والفرنسيين والطلليان واليونان فأقدموا على مقاومة هذه الدول الظافرة بفئة قليلة من جند الأناضول وحده قد انهكته الحرب بضع عشرة سنة متوالية، فإن ما بقي من بلاد الروملي تركيا على رأيهم قد حيل بينهم وبينه بالآستانة التي نزع سلاحها واحتلتها هذه الدول براً وبحراً. وقد كان من آيات الله وحججه على اليائسين أن كان الفلج والظفر لهذه الفئة القليلة من بقايا الجيش العثماني الكبير المؤلف من جميع الشعوب العثمانية الذي فشل مع أعظم جيش وجد على ظهر هذه الأرض قوة وسلاحاً ونظاماً وهو في أوج انتصاره - أعني الجيش الألماني .

ذلك بأن الجيش العثماني الكبير كان يتولى أمره غلاة العصبية الطورانية، من الاتحاديين المغرورين بما لقنوا من دسائس السياسة الاستعمارية، وخداع الماسونية، والجاهلين بقوة الإسلام وعزته، وحقيقته

وحقيقته، فبشوا دعوة الكفر، وأباحوا كبائر الفسق، وفرقوا الكلمة الإسلامية، وفتكوا بالأمة العربية، بعد أن جندوا منها زهاء خمسمائة ألف جندي تقاتل في سبيلهم، فقتلوا وصلبوا النابغين، ونفوا الولدان والنساء والشيوخ العاجزين، فمهّدوا السبيل لثورة الحجاز، وخسروا ما للأمة العربية من القوة العسكرية والروحية في وقت الحاجة القصوى إلى الاتحاد، فأنى ينتصرون، أو ينتصر بهم من يحالفون؟

وأما جيش الأناضول الذي أيده الله تعالى على قلته فإنه يدافع عن الحق والحقيقة وقد أحسن زعيمه الأكبر، مصطفى كمال باشا، أنه لم يسمح لأحد من زعماء أولئك الغلاة بدخول الأناضول في هذه الأثناء لئلا يفسدوا على البلاد أمرها، على أنهم قد عرفوا خطأهم وضلالهم من الوجهة السياسية والاجتماعية، وعرفوا قيمة الرابطة الإسلامية، فطفقوا يسعون إلى جمع كلمة المسلمين، والتأليف بينهم وبين البلشفيين الروسين، للاستعانة بهم على مقاومة المستعمرين، وجعل شعوب الشرق ولا سيما الإسلامية منها حرة مستقلة. وقد قويت آمال هذه الشعوب في الاستقلال. وطفقوا يعقدون المعاهدات بينهم وبين حكومة الغازي مصطفى كمال، ولم يشذ عن هذه الوحدة الشرقية، غير شعب من الشعوب الإسلامية، كان أولها بطلب الوحدة، والدعوة إلى جمع الكلمة، ولكن خدعه زعماءه، وأضله سادته وكبرائه، على تفاوت بينهم في هذا الضلال والإضلال، وشرهم من غش قومه وصرفهم عن حقيقة معنى الاستقلال، بتسميته الأشياء بأسماء الأضداد، كإطلاق اسم المساعدة والانتداب على الاستعمار المرادف للاستعباد، وزعم أن السلطة الأجنبية ضربة لازب، وأن مناصبتها ضرب من الجنون وولاءها هو الواجب، وسيعلم المفتونون بغشهم أي الفريقين أقوم قила، وأحسن عاقبة ومصيراً، ويقولون «ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً» [سورة الأحزاب رقم ٣٣، الآية ٦٨].

ومن آيات الله وحججه على اليائسين ومرضى القلوب أنه تعالى جده ألقى الفشل السياسي بين الدول المحتلة لبلاد الأناضول والقسطنطينية والروملي فسالم المسلمين فيها الطليان، ثم صالح الكماليين فيها الفرنسيين، وخذل الله تعالى اليونان المجاهرة بالعداوة والمنفردة بالحرب، اعتماداً على مساعدة الدولة البريطانية التي لم تتحول عن سياستها القديمة في ضرب الأمم بعضها ببعض، وخلق لهذه الدولة من المشاكل السياسية ما حال بينها وبين ما تشتهي من الإجهاز على سلطان الإسلام، والجري على قاعدة ما أخذ الصليب من الهلال لا يعود إلى الهلال^(١)، حتى عجزت على دهائها وحزمها؛ وعلو نفوذها السياسي والمالي والحربي في أوربة كلها، عن حل أية مشكلة منها.

ولو كان ربحاً واحداً لاتقوته ولكنه ربح وثان وثالث فأرتنا قدرة الله تعالى فيها منتهى العجز، عند بلوغ منتهى القدرة والأيد، فقد ثارت عليها إرلندة ومصر، وفلسطين والعراق والهند، ثورات مختلفة المظاهر، متفقة المقاصد، وربما كان أضعفها في الظاهر، أقواها في الباطن، كثرة الهند السلبية، بالمقاطعة الاقتصادية، فقد دعا الزعيم الهندي الأكبر «غاندي» قومه إلى عقاب حكومتهم الإنكليزية المستعمرة على استبدادها بأمورهم، وعدم مبالاتها بوجدانهم وشعورهم، بمقاطعة تجارتها، وترك لبس منسوجاتها، فردد صدى دعوته جميع الزعماء، من المسلمين والهندوس على سواء، وطفقوا يحرقون ما على أبدانهم من هذا اللباس في المحافل العامة ولا سيما عقب الخطب التي تلقى فيها، ولو حذا المصريون حذوهم بترك شراء الحديد، ولو مع استبقاء التليد، لكان ذلك أقرب وسيلة إلى نيل الاستقلال والحرية، من خطب الزعيم سعد باشا البليغة ومفاوضات الوزير عدلي باشا الرسمية.

(١) بلغنا أخيراً أن واضع هذه القاعدة هو مستر غلادستون أشهر وزراء إنكلترة من حزب الأحرار وكان بغضه للإسلام عظيماً وكنا سمعنا من قبل أن واضعها هو اللورد سالسبوري من رؤساء وزارات المحافظين، ولها فقرة أخرى وهي ما أخذه الهلال من الصليب يجب أن يعود إلى الصليب.

ومن آيات الله تعالى وحججه أيضاً أن سخر الدولة الروسية الجديدة لمظاهرة الترك وشد أزرهم بعد أن كانت هذه الدولة على عهد القياصرة هي الخطر الأكبر على السلطنة العثمانية بظهورها عليها في عدة حروب، بل انبرت حكومة السوفيات الروسية الجديدة لبث الدعوة في العالم الإسلامي كله وسائر شعوب الشرق المستعبدة للأجانب بأن يهبوا لطلب الحرية والاستقلال، فكان ذلك من أهم أسباب الثورة في الهند - وجعل الإمارة الأفغانية التي كانت مقهورة محصورة بين البريطانيين في الهند وبين الروس دولة مستقلة ذات سفراء لدى الدول الأوروبية وغيرها - ونجى الدولة الإيرانية من شر تلك المعاهدة التي عقدها مع إنكلترا في أثناء الحرب فكانت قاضية على استقلالها، بسوء اختيار مرضى القلوب من رجالها، بل فعلت دولة السوفيات أعظم من هذا: عقدت معاهدات بينها وبين الدول الإسلامية الثلاث الترك والفرس والأفغان - اعترفت بها باستقلال كل منهن، وأرجعت إليهن ما كانت دولة القياصرة قبلها قد سلبتهن، وأسقطت للمدنيات منهن للروسية ما كان لها من الدين عليهن، وسمحت للدولة الإيرانية بما لها في بلادها من سكك الحديد، - فلذا كان العالم الإسلامي مع الشعوب الشرقية كلها راضياً من حكومة الروس الجديدة شاكراً لها مثنياً عليها لا يثنيه عن ذلك ما أصاب البلاد الروسية نفسها من المصائب بتنفيذ نظريات الاشتراكية الشيوعية فيها، ولا ما بثته الدولة البريطانية في العالم من ذم هذه الحكومة والتشجيع عليها والتنفير عنها، بل كان هذا من أسباب الزيادة في العطف عليها والشكر لها، وإن كان المسلمون أبعد الشعوب عن البلشفية ومذاهبها.

فإذا ثبتت هذه الشعوب على الاهتداء بآيات ربها، ومراعاة سننه في دفع العدوان عنها، وطلب الحرية والاستقلال المطلق لها كلها، فهي بالغة بتوفيق الله منتهى ما تؤمل وترجو منها، وإنما الخزي والسوء على المغترين باغواء عدو الله، اليائسين من روح الله، المعرضين عن آيات الله، «ومن

أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه» [سورة الكهف
رقم ١٨، الآية ٥٧].

تنبيه - إن ما نوهنا به من اتحاد الشعوب الإسلامية الأعجمية في الشرق
بعضهم مع بعض وتآلفهم وتكافلهم مع أبناء أوطانهم وجيرانهم من
النصارى والوثنيين يجب أن يزيدنا عناية بالدعوة إلى مثل ذلك في شعبنا
العربي فلا يصدنا عنها تعصب المتعصبين ولا سيما الغلاة الذين فضحوا
أنفسهم وطوائفهم بأن رضوا أن يكون لسان حالهم قول الشاعر:

أقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي

رضوا بهذا بعد أن يشؤوا قبل من مالك وحده. وقد بينا مراراً أن
الأخوة الإسلامية عندنا لا تنافي الرابطة الوطنية ومساواة المسلمين بغيرهم
فيها، وجرينا على ذلك بالفعل، كما أثبتناه بالقول الفصل.



الجامعتان الإسلامية والشرقية



دعوة السيد [جمال الدين] الأفغاني إليهما -

تأثير دعوته بعد جيل كامل في الشعوب الإجمية

- جمود جزيرة العرب واضطراب العراق

وسورية - الإنكليز مثيرو الفتن وعليهم تقع تبعاتها

[المنار ج ٢٣ (١٩٢٢) ص ٢٥ - ٢٧]

كانت فكرة الجامعة الإسلامية خيالاً لاح في أذهان بعض رجال
السياسة في أوربة فطفقوا يبحثون فيه، ويصورون لأقوامهم قوادمه
وخوافيه، حتى صار الكثيرون منهم يحسبون أنه حق لا ريب فيه.

أثار هذا الخيال في تلك الأدمغة كثرة التفكير في تاريخ الشعوب الإسلامية التي أسرعت أوربة في ثل عروشها، واستعباد أمرائها وملوكها، والتمتع بخيرات بلادها، فإن المطلع على ذلك التاريخ الفياض بما كان لها من العزة والبأس في الحرب، والعلم والحكمة وإقامة العدل، جدير بأن يحسب لانتفاضها على المستذلين لها ألف حساب، وإن استحوز عليها الجهل، وخرقت نسيج وحدتها العداوات الجنسية والمذهبية، فصار بأسها بينها شديداً، وقيادها للأجانب ليناً سلساً، ولئن نبهت مباحث أولئك السياسيين بعض الأذكياء إلى هذا الأمر العظيم، فلم يكن في استطاعتها أن تحفز همة أحد من أمرائهم ولا من كبراء الهمم والعقول فيهم إلى السعي له والدعوة إليه؛ ولئن وجد أفراد - منهم السلطان عبد الحميد - أحبوا أن يستفيدوا من حذر الأوروبيين منه بإيهاهم إياهم أنهم يعدون له عدته، ويتخذون له أهبته، فقد كان من تأثير هذا الإيها مبادرة أولئك الخازمين إلى قطع طرقة، والإسراع بالقضاء إلى ما بقي لتلك الشعوب من ذماء الإستقلال ورمقه.

إي وربي، إن الشعوب الإسلامية لم تنجب من بعد الحروب الصليبية رجلاً عظيماً عالي الهمة، يسعى إلى جمع كلمة المسلمين وتوحيد قواهم المتفرقة، لدفع عوادي الذل والاستعباد عنهم، لا بدعوة علمية اجتماعية، ولا بتأليف قوة عسكرية عصرية، إلا «السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني» حكيم الشرق، وحافزه لتحرير نفسه من الرق، فهو الذي اهتدى بذكائه ونظره البعيد وفكره الوقاد، إلى تدارك الإسلام، وإنقاذ الشرق من الاستعباد، بالسعي إلى هذا الاتحاد، فطاف لأجله البلاد، ونادى به على رؤوس الأشهاد، فلم تكن دعوته في عصره صرخة في واد، أو نفخة في رماد، بل كان في خلل الرماد وميض نار، طار شرارها كل مطار، حتى عم بعده الأقطار.

ألقى بذور دعوته الأولى بمصر وكانت عنايته فيها موجهة إلى إحياء

الشعب المصري لتكون مصر مركز الدعوة العامة، وتكون دولة وادي النيل هي الدولة القوية التي تعزز بها الأمة، وتكون النواة لتنفيذ مذهبه السياسي في إعزاز الإسلام وتقليص ظل الدولة البريطانية عن رؤوس المسلمين.

وبعد أن نفي بتأثير الدسائس الإنكليزية من مصر بث الدعوة ألف جمعية العروة الوثقى وأنشأ جريدتها في باريس للدعوة العامة إلى الوحدة تحت لواء الخلافة الإسلامية - وكان جل سعيه وعمله فيما وراء الغاية العامة الدافع عن مسألة مصر عقب الاحتلال؛ وقد عني عناية خاصة بجمع الكلمة والتأليف بين الشعبين المتجاورين اللذين نشأ هو وكثير من آبائه وأجداده في بلادهما - أعني الشعب الأفغاني والشعب الإيراني. وقد بينت جريدة العروة الوثقى - التي كانت تتجلى بها آراؤه بقلم مريده وصديقه شيخنا الأستاذ الإمام [محمد عبده]، رحمهما الله تعالى - الغاية وأشرعت السبيل، وبينت الوسائل، وأرشدت إلى إزالة الموانع، وكان من رأيه أن تكون مكة المكرمة هي مركز الدعوة.

كان لهذه الدعوة تأثير عظيم في العالم الإسلامي حتى كان العقلاء وأهل الرأي من قرائها في الأقطار المختلفة يعتقدون أنها لا تلبث أن تحدث انقلاباً عظيماً في الشرق - سمعنا هذا من شيخنا الشيخ حسين الجسر الشهير في طرابلس، ورواه لنا محمد علي بك المؤيد عن الزعيم الكبير السيد سلمان الكيلاني نقيب بغداد في ذلك العهد. بيد أن مصادرة الدولة البريطانية للجريدة ومنعها من مصر والهند وغيرها من أقطار المشرق كانت سبباً لترك الاستمرار على إصدارها فكان كل ما صدر منها ١٨ عدداً. ولكنه لم يترك الدعوة والسعي إلى الغاية بل بثها في البلاد الفارسية ثم في القسطنطينية.

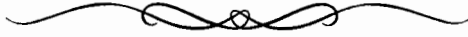
ثم قضى السيد وما قضى منها وطراً، ولم يبق بعده أحد بالدعوة، والسعي لها بمثل تلك القوة، بل ضعفت الرابطة الإسلامية، بما تغلب عليها من العصية الجنسية، ولا سيما في الشعوب الأعجمية، بيد أن

القوي في الضار قد يكون قوياً في النافع، فهذه الشعوب التي كانت في غاية التعادي الجنسي، وكانت قبل ذلك فيما هو أشد من التعادي المذهبي - هذا سني وهذا شيعي - ثابت الآن إلى رشدها، وعلمت كل منها أن الوحدة هي التي تحفظ جنسها ودينها ومذهبها، فمد كل منها يده إلى الآخر يصافحه مصافحة الأخ لأخيه، ويعاهده معاهدة الولي لوليه.

تعاهد الترك والفرس والأفغان، وشدوا معاهد حلفهم ببخارى وخيوة وأذربيجان، وبثوا دعاية الولاية والبراءة في سائر الشعوب الإسلامية في الشرق، يؤيدها بالمال والرجال مسلمو الهند، بل شدوا أواخي الجامعة الشرقية، بوثنى الهند ونصارى الروسية البلشفية، التي سخرها الله لجهاد تأليه الثروة والعظمة الأوروبية، والغرض العام لهذه الأمم كلها تحرير الشرق من رق الجزيرة البريطانية، التي طمحت باستعبادها له إلى منازعة الربوبية، وما يتلو ذلك من تحرير سائر الشعوب المستضعفة.

كل هذا - والشعب العربي الذي ضعفت رابطته الجنسية بتعاليم الإسلام، ووحدته الدينية باختلاف المذاهب وتنازع الحكام، مُصرّاً على تفرقه غافل عما يراد به، حتى في مهد الإسلام من جزيرته، وقد رأى سوء عاقبة ذلك في سلب الأجانب لاستقلال أخصب بلاده، ومحاولة إنشابه برائته في باقيها، والإحاطة بها من أطرافها، وهو مع ذلك في غمة من أمره لا يدري كيف يخرج منها. وإنما الذنب في ذلك على ملوكهم وأمرائهم، الجاهلين بكنه تأثير دسائس أعدائهم، وتسخيرهم لمنع الجامعات الإسلامية والشرقية والعربية جميعاً من حيث لا يشعرون، ولكن هذه السياسة الخبيثة ستنتهي بالخيبة. ولن ينقذ الإنكليز من سوء عاقبة عداوتها الإسلام، اصطناع بضعة رهط من زعماء العرب بعضهم لبعض عدو، وودهم كله سلبي، وهم عاجزون عن إقناع شعوبهم بصدقة الإنكليز لهم، مع احتلالها لأخصب بلادهم وإلقائها للفتن بينهم، ولا هم قانعون بذلك فيقنعوا غيرهم، بل كل واحد منهم يكابر نفسه ويتأول لها، ويخفي مودته

ويتعذر عما ظهر منها. وإنما تنقذ الإنكليز سياسة أخرى عموا عنها وصموا وقد نصحوا وأنذروا، لا أقول سياسة الصدق والوفاء للعرب بل التحول عن محاولة استعبادهم من حدود برقة إلى العراق وعمان، وقتل الإسلام في مشرق نوره ومواطن حضارته، مع القضاء على بلاد الترك أمنع حصونه وأمضى أسلحته. فإن كان الترك قد أفلتوا من الشرك الذي وقع فيه وحيد الدين، فسيفلت العرب مما وقع فيه أمثاله من المخدوعين، «ولتعلمن نبأه بعد حين» [سورة صّ رقم ٣٨، الآية ٨٨].



أحوال العالم الإسلامي



(مؤتمر الصلح بين الترك وأوربة في لوزان)

[المنار ج ٢٣ (١٩٢٢) ص ١٤٥ - ١٥٢]

عرف الترك كيف يعاملون أوروبة في هذا المؤتمر معاملة الأمثال، ويدلون إدلال المنتصر في القتال، وعرف من لم يكن يعرف من العالم أن أوربة المادية لا تحترم إلا القوة، ولا تذلل إلا للقوة، ولا تعترف بحق لغير القوة، وقد جلبت الدول الكبرى إلى لوزان أمماً كثيرة من الشرق والغرب جعلتها عوناً لها على الترك، فالأرمن طلبوا وطناً قومياً في بلاد الأناضول، كالوطن الذي تأسسه إنكلترة لليهود في فلسطين من بلاد العرب، وشرذمة من بقايا الأشوريين والكلدانيين يطلبون وطناً قومياً في العراق، وأوربة هي التي تؤيد هؤلاء وأولئك لأنهم نصارى بالمساومة بهم، ونصارى الشرق ما زالوا شرّاً آلة في يد دول الإستعمار المادية تستعملها للتفريق بين سكان البلاد التي تطمع فيها وتلقي بينهم وبين الأكثرين من أبناء وطنهم العداوة والبغضاء، باسم المسيحية التي تأمر بمحبة الأعداء (!) وتمنيهم بالسعادة

والملك إذا خانوا أوطانهم في خدمتها، وهم أهون عليها من نعالها، دماؤهم أرخص لديها من غسالة أرجلها، وإلا فليؤسسوا الوطن القومي الذي وعدوا الأرمن ومنوهم به حتى حملوهم بالتغريب والتضليل على خيانة دولتهم العثمانية التي كانوا أنعم وأعز فيها من جميع شعوبها حتى اضطرت إلى البطش بهم. عرف العالم كله كنه مسيحية دول الاستعمار وغيرها على المسيحيين بعد تبرؤهم من الأرمن كما تبرأ الشيطان ممن أغراه بالكفر. وكان القبط أعقل نصارى الشرق فاتفقوا مع المسلمين ولم يقعوا في الفخ الذي كان يراد به تضحياتهم - فمتى يعقل من يدعون أنهم أذكى البشر وأحذقهم وأدهاهم ويفيقون من سكر تعصبهم.

كان الوفد التركي في لوزان أدهى الوفود وأحزمها، فما زال يخضع وفود الدول العظمى ويخضعها حتى لم يترك لاتحادها عليه مع البلقان قيمة واضطرها إلى تساهل لم يسبق له نظير في معاملتها للترك في المؤتمرات السابقة منذ عدوا دولة أوربية، وداس في لوزان كل ما كان من عظمة هذه الدول وجبروتها وكبريائها في فرسايل، وسيفر، وسان ريمو، ثم إنه لم يقبل المعاهدة التي حررت وقيل إنها منتهى ما يمكن من التساهل والسخاء الحائمي مع الترك. بل حملها إلى المجلس الوطني في أنقرة ليرى رأيه فيها، وقد غلب الدهاء البريطاني الذكاء الفرنسي في هذا المؤتمر فتحول الترك بعده عن فرنسة وتقربوا من بريطانيا، وطفقت جرائدهم - وقد سكتت عن الطعن في الإنكليز - تطعن في فرنسة وتعدّها أكبر خصومهم فجعلت تبجح فرنسة بصداقة الإسلام مدة سنتين هباءً مشوراً.

الوفود العربية في المؤتمر :

كان للجنة المؤتمر السوري الفلسطيني وفد في جنيف عند اجتماع جمعية الأمم فيها ثم انتقل إلى جنوى عند انعقاد المؤتمر الإقتصادي فيها - فكان هذا الوفد أسبق الوفود القومية غير الدولية إلى لوزان عند الشروع في عقد

مؤتمر الصلح فيه وكان رئيس هذا الوفد الأمير شكيب أرسلان وهو لحسن الحظ صديق للترك قديم يعرفه كبارؤهم وخواصهم . ثم ذهب وفد من فلسطين واتحد بهذا الوفد، وذهب وفدان من مصر واتحدا هنالك أيضاً . واجتهد السوريون والمصريون في استمالة الترك ومطالبة وفدهم بالاعتراف باستقلال القطرين وسائر البلاد العربية عملاً بالميثاق الوطني التركي . وكان الغرض أن يقترح جعل ذلك في معاهدة الصلح ، وبأن يتوسل إلى مؤتمر الصلح بقبول عرض مطالبهما له رسمياً فلم ينجحاً في هذا ولا ذاك . وكل ما كان أن عصمت باشا رئيس الوفد التركي صرح بالاعتراف بأن الترك قد تركوا لمصر والولايات العربية العثمانية أمر تقرير مصيرها واستقلالها . وكانت فائدة ذلك أمام الدولتين المحتلتين لهذه البلاد أنها تحولتا عن طمعهما بأن ينص في معاهدة الصلح على تقرير الحالة الحاضرة في مصر والانتداب في سورية وفلسطين والعراق وقنعنا بأن تحدد بلاد الدولة التركية تحديداً يخرج منها سورية والعراق ، بله أفريقية العثمانية ، وفائدة هذا سلبية محضة . وههنا وقع الخلاف في ولاية الموصل فالترك يعدونها من بلادهم التي حددوها في الميثاق الوطني ، وقد ناقشهم الوفد البريطاني في ذلك باسم دولته الوصية «المنتدبة» على العراق وأقرها على ذلك الملك فيصل ووالده الملك حسين وإنما جعلتهما ملكين لمثل هذا التأييد الذي هو لازم الحماية والتابعة .

هذا وإن كلاً منهما قد أرسل مندوباً إلى لندن ولوزان ، فكانا في لوزان تحت تصرف لورد كرزون قولاً وعملاً ، ولما اعترف عصمت باشا باستقلال البلاد العربية وذكر منها الحجاز بسعي الأمير شكيب أرسلان ، بادر مندوب الملك حسين بتطير النبأ إلى مولاه بالبرق ليؤهم أن هذا كان بعض ثمرات سعيه . ثم بلغ شركة روتر أن عصمت باشا ذكر في ضمن اعترافه أن الملك حسيناً رئيس الأمة العربية وأكبر زعمائها الممثل لها فطيرت هذه الفرية في الأقطار لتكون توطئة وتمهيداً لتنفيذ المشروع الذي تعده وزارة المستعمرات

البريطانية للبلاد العربية. وأن عقل عصمت باشا ليربأ به أن يفتات على الأمة العربية بالصدق فكيف يفتات بالكذب.

كيد السياسة البريطانية للبلاد العربية

لم تنجح وزارة المستعمرات البريطانية النجاح التام بإقناع دافعي الضرائب من البريطانيين ومثليهم في مجلس النواب بأن نصبهم الأمير فيصل ملكاً على العراق والأمير عبدالله على شرق الأردن يضمن للدولة البريطانية استعمار فلسطين والعراق بدون نفقة كثيرة ترهق دافعي الضرائب عسراً، ويؤسس لدولتهم أمبراطورية عربية جديدة تفيض على الخزينة تبراً، وعلى المستعمر السكسوني عسلاً وخمراً، ورأت هذه الوزارة في عهد المحافظين - الذين هم أشد قومهم جشعاً وحرصاً على الاستعمار، وضراوة باستعباد الأحرار - إن الترك مصرون على انتزاع الموصل من ملك العراق، وإن استيلاءهم على الموصل يمكنهم من الاستيلاء على بغداد في كل وقت بكل سهولة وأن عرب العراق كغيرهم يفضلون الترك على البريطانيين بعد أن بلوهم وعرفوا إفكهم وخداعهم، وذاقوا مرارة جبروتهم وظلمهم، فلا يمكن أن يحاربوا الترك معهم أو تحت قيادتهم، لأجل أن تكون العراق مستعمرة هندية لهم. ومن البديهي أن بريطانية لا تستطيع قتال الترك في العراق وحدها وضلع العرب معهم عليها، ولو تصدت لذلك لقامت عليها الأحزاب البريطانية بأسرها، وخشي أن يمتنعوا من بذل مئات الملايين من الذهب والرجال، في هذه المقامرة التي تجر وراءها الخزي والنكال، وشدة وطأة المقاطعة في الهند، وشوب نيران الثورة في فلسطين ومصر، - ورأت هذه الوزارة أيضاً أن بعض الجرائد والأحزاب وكبار الساسة من الإنكليز يطالبون الحكومة بالجلء عن العراق وفلسطين من قبل الاستهداف لهذه الأخطار - ورأت أن جعل فلسطين مملكة يهودية فاصلة بين مصر وسائر بلاد العرب ليست من الهنات الهيئات، وأنها قد صارت من المسائل الإسلامية العامة. فالهند قد وضعت استقلال فلسطين وسائر

البلاد العربية في برنامجها، وإمام اليمن على عزله قد احتج بها عليها، وكاد أهل اليمن يجلون اليهود من بلادهم لأجلها، حتى أن حكومة عدن البريطانية أجابت اليمن بأن مسألة احتلال فلسطين عرضية مؤقتة وانهم سيتركونها لأهلها بعد بضع سنين ريثما تستقر الأحوال! وهذا الجواب من أسلوب الحكيم فإنهم إنما يعنون باستقرار الأحوال حل مشكلات الكون الكبرى وتوطيد سلطانهم حيث وضعوا أقدامهم.

رأت وزارة المستعمرات كل هذا وأكثر منه مما نعلم ومما لا نعلم فرجحت إحداث تغيير جديد في شكل إدارة البلاد العربية وتجديد الضغائن والبغضاء بين العرب والترك قطعاً لطريق الجامعة الإسلامية، قبل أن يستيقظ جمهور الشعب العربي من رقاذه، ويثوب الجمهور المخدوع منه إلى رشاده، ويدوس الزعماء المتجرين به وبلادهم، وهي مراقبة لما حدث من تحول العراق عن فيصل وعدم انخداعه بالمعاهدة، وفلسطين عن عبد الله، وإنه لما عاد من زيارتهم في أوربة لم يزره ولا هنأه من أهلها أحد، على ما بثه - ويثبه - أجراءه من الدعاية (البروبغندا) في شأن رحلته وفوائدها المنتظرة (?) كما أنها عالمة بما كان من فشل حسين في محاولة استمالة الإمامين يحيى والإدريسي، وليس لهم أحد يعتمدون عليه من كبراء الأمة العربية غير أهل هذا البيت الذي هو رئيسه - لا رئيس العرب - يطالبها باسم العرب - لا باسمه - بإنجاز ما وعدته من تأليف مملكة عربية بقوتها وتحت وصايتها وحمايتها، بشرط أن يكون هو رئيسها، تمتد من البحر الأحمر إلى حدود الأناضول وتحتل هي ولاية البصرة منها وتقدم لسائر الولايات المستشارين والموظفين الذين يديرون شؤونها.

مشروع الشكل الجديد لاستعمار البلاد العربية

فالمشروع الذي تدرسه وزاره المستعمرات مبني على التوفيق بين مقاصد معاهدة سايكس بيكو ووعود (السر هنري مكماهون) للملك حسين في

أثناء ما دار بينهما من المكاتبات التي عرفها قراء المنار في المجلد السابق منه (م ٢٣). ولما كان هذا التوفيق لا يتم إلا بتوقيف فرنسة عليه، وإقناعها بجعل داخلية سورية داخلية في المملكة العربية الشريفة، والقناعة الموقفة بجعلها منطقة نفوذ فرنسية، وحصر الانتداب المباشر المؤيد بالاحتلال العسكري في المنطقة الساحلية كما تقنع إنكلترة بجعل العراق منطقة نفوذ بريطانية وحصر الحكم الاحتلالي المباشر في ولاية البصرة - لما كان الأمر كذلك كاشفت وزارة الخارجية البريطانية حكومة الجمهورية الفرنسية بعزمها معتمدة في إقناعها على التخويف من استيلاء الترك على سورية والعراق والقيام بحركة الجامعة الإسلامية التي يمتد خطرها إلى شمال أفريقيا الفرنسي فيفسده على ولاية أمره كما يفسد الهند ومصر على الدولة البريطانية - وكانوا قد مهدوا السبيل لذلك بتدريب الأمير عبد الله على استمالة فرنسة إلى شخصه قبل سفره إلى لندن وفي أثناء وجوده في أوربة. ومن حججهم التي قويت بعد إعراض الترك عن فرنسة في أواخر العهد بمؤتمر لوزان أن أسرة الملك حسين هي الأسرة الوحيدة التي أشربت دون غيرها من البيوتات العربية بغض الترك والحقد عليهم. وكان الغرض من هذا السعي أن يجعل الأمير عبد الله ملكاً على شرقي الأردن وولاية دمشق وحلب ما عدا سواحل حلب وما ألحق من ولاية دمشق بלבnan الكبير، وبذلك يسهل حمل أهل هذه البلاد وأهل العراق على مبايعة الملك حسين بالخلافة، فينشق العالم الإسلامي فيها وتستحكم العداوة بين الترك والعرب ويتيسر للدولتين ضرب أحدهما بالآخر عند الحاجة إلى ذلك. وتدوم لهما السيطرة على البلاد العربية.

وقد درست وزارة خارجية فرنسة هذا المشروع فترجع عندها عدم الثقة بهؤلاء الحجازيين صنائع الإنكليز الذين لا تأمن فرنسة إغراءهم بإخراجها من سورية عند سنوح الفرصة وإرادة الإنكليز ذلك، وقيل إنها كانت تدرس معه مشروعاً آخر مضاداً له وهو جعل هذه البلاد تحت سيادة الترك

إذا رضوا بأن تكون مناطق نفوذ لهم وللإنكليز وبذلك يقضون على النهضة العربية ويكتفون أخطارها ولكنها لما تقرر هذا ولا ذاك .

ولما شعر الناس في سورية بهذه المفاوضات والمباحث، انبرى أصحاب الأطماع يتزلفون إلى حيث يتخذ كل منهم له يداً يستغلها عند تنفيذ المشروع المنتظر ولهجت بذلك جرائد سورية ومصر منذ بضعة أشهر فكانت شقشقة هدرت وتلتها أخرى ثم قرنا في سورية وكذبتهما الحكومة المحتلة وإن لم يصدق كل الناس تكذيبها في وقتها .

وأما الدولة البريطانية فلا تزال تدرس المشروع وقد توسل أعوانها في العراق بطلب الترك للموصل إلى تنفير العراقيين منهم من حيث أظهرت هي الميل إلى إنجاز الوعد باستقلالهم والاستعداد للجلاء عن بغداد لولا أن قام الملك فيصل يستغيث بها أن لا تفعل وشهد وفده لديهم أو ضيعتهم عنده (جعفر باشا العسكري) بأن خروجهم من العراق نكبة ما بعدها نكبة (!) وهل هذه الشهادة إلا شهادة عليه وعلى مولاه الملك فيصل بما يفهمه كل أحد (?) وهل يخفى على الأكمة أن هذه الدولة إذا لم تخرج في مثل هذه الفرصة من العراق فلن تخرج منه بعد ذهابها إلا بانقلاب جديد في العالم تزلزل به الأرض زلزالها، وتخرج أثقالها، ويتقوض صرح الأمبراطورية البريطانية كلها؟ ولن يكون هذا بعمل العراق بل لن يكون للعراق عمل في الوجود بعد استقرار السيطرة البريطانية عليه إلا زرع القطن للمعامل الإنكليزية واستخراج البترول لها وما أشبه ذلك، وماذا يهم فيصل وآل فيصل إذا شقي العراق واستعبد وهو متمتع فيه بلقب الملك وأبنته ونعمته وفخفته؟ ألم يكن يسعى لمثل ذلك في سورية وكان كل الخلاف بينه وبين الوطنيين عليه؟ بل قد ظهروا عليه حين أعلنوا الاستقلال واضطروا إلى اكتفاء شر سعيه للوصاية الأجنبية بجعله ملكاً عليهم حتى إذا ما ألح عليه الجنرال غورو بإعلان الوصاية الفرنسية أجاب بالقبول، قبل أن يوجه إليه الجنرال الإنذار المعلوم، وهذا أمر لم نعلمه إلا

من عهد قريب، ولذلك لا نستبعد الآن أن يكون الإنذار عن تواطؤ بينهما ليتخذه فيصل ذريعة إلى إقناع المؤتمر السوري العام وسائر زعماء البلاد بقبول الوصاية التي بذل جهده قبل ذلك في إقناعهم بها فأبوا - ويؤيد هذا انتظاره الاحتلال الفرنسي في ضواحي دمشق حتى إذا ما تم عاد إلى قصره ليقوم بأمر الملك تحت وصايته وظله (؟؟) ولو رضى الفرنسي أن يبقى فيصل في دمشق لرضى هو بمحاولة اسلاس البلاد لهم بدون نفقة تذكر كما فعل أخوه للإنكليز في شرق الأردن ولكان هذا شراً للبلاد لا خيراً لها، ولو أن الإنكليز جعلوا هذا ملكاً على فلسطين كلها لكان تنفيذ الوصاية والوطن القومي لليهود أقرب منالاً وأقل نفقة، ولكن الله نجى فلسطين من هذه النكبة لأنه أراد أن ينفخ فيها روح القومية والوحدة الصحيحة، فلولا هذا الاتحاد بين عرب فلسطين المسلمين والمسيحيين لحكمتنا على هذه البلاد حكماً مخزناً مخزياً، وقد كان من فوائد هذا الاتحاد واليقظة أن علم الشعب الفلسطيني كله ما كان خفياً إلا على أفراد منه وهو أن الأمير عبد الله الحجازي صنعة الإنكليز كاييه وأخيه وأنهم موطنون أنفسهم على أن يكونوا ملوكاً في دائرة الأمبراطورية البريطانية المرنّة كسلطان زنجبار ونظام حيدر آباد وراجا كشمير أمثالهم، أما وقد عرفت حقيقتهم فقد صاروا عاجزين «عن تسليم البضاعة».

نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبأنه لا يمكن أن يتفق الإنكليز مع هؤلاء الملوك الحجازيين إلا على استعمار البلاد العربية واستعمار الشعب العربي وأن كل تغيير يحددانه في البلاد العربية تجارب بريطانية كالتجارب التي نراها في مصر، فيجب على الأمة العربية أن لا تثق بشيء يجري بين الفريقين، عملاً بالحديث الصحيح «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».

أحوال العالم الإسلامي

[المنار ج ٢٣ (١٩٢٢) ص ٣١٨ - ٣٢٠]

لم يبق ريب ما في أن الشعوب الإسلامية قد استيقظت من رقادها السياسي الذي كاد يكون موتاً زوأمًا، وذلك بعد أن بلغ الضيم فيها غايته بهذه الحرب الأخيرة، وأحيط بها أو كاد، ولا يزال الطامعون يحاولون الإجهاز عليها، والقضاء على ما بقي من ملكها، لئلا تحيا بهذه اليقظة حياة جديدة تنال بها حريتها، وتحفظ حقيقتها، ولكنهم غير متفقين على قسمة الغنيمة، وشعوبهم تناقشهم الحساب على ما ينفقون في سبيل التوسع في الاستعمار، وسياسة الشعوب بقوة الحديد والنار، لأن هذه الحرب قد أكلت ثروتها، وضاعفت الضرائب عليها، فهذه فرصة يجب على الشعوب الإسلامية اغتنامها بتقوية أنفسها، وتعاونها فيما بينها وبين سائر الشعوب الشرقية المجاورة لها، والظاهر أن كلاً منها يبذل جهده بقدر ما يصل إليه علمه وقدرته.

الأفغان

وإننا نرى الشعب الأفغاني خيراً من غيره فهو لا يهاجم الآن ولا يقاوم من الخارج، ولا شقاق يعرقل عمله في الداخل، وقد سلك طريقة الحياة المثلى إذ جعل همه الأول في تنظيم القوة العسكرية عالماً أن خصمه لا يحترم غير القوة، ثم في التعليم وتنمية الثروة لأن القوة وسائر شؤون العمران متوقفة عليها، وهو مع هذا يعتصم بولاء إخوانه من الشعوب القريبة منه كالفرس والترك. ومن توفيق الله تعالى أن كان أميره في هذا الطور من أفضل أمراء الشرق علماً وعقلاً وأخلاقاً وهمة وحزمًا وعزماً ودينًا.

الفرس

ويسوءنا أن جاره الشعب الإيراني لا يزال مصاباً بالشقاق الداخلي الذي كان سببه الباطن تأثير التعاليم الإفرنجية، والدسائس الإنكليزية والروسية جميعاً، فعسى أن يوفق في هذه الفرصة السانحة إلى جمع كلمته، وإتفاق زعمائه على خطة واحدة ينحون فيها نحو جيرانهم الأفغانين. ونذكر الزعماء المختلفين أن دوام الخلاف بإصرار كل فريق منهم على تنفيذ رأيه دون غيره أشد خطراً على البلاد من الاتفاق على خطة يرى بعضهم أن فيها شيئاً من الخطأ فإن الشقاق الداخلي أكبر المهالك. ولا سيما في مثل هذه الأيام والأحوال التي هم فيها.

الترك

أما الترك فهم على كونهم قد استفادوا من العبر بهذه الحرب أكثر من غيرهم، وعلى كونهم لا يزالون أعظم استعداداً من غيرهم لحماية حقيقتهم، والدفاع عن بيضتهم، وعلى انتفاعهم بعطف العالم الإسلامي كله - ولا سيما مسلمي الهند - عليهم، وعلى تسخير الله الدولة الروسية عدوتهم التاريخية الكبرى في عهد القياصرة إلى مساعدتهم، وعلى استفادتهم من الخلاف السياسي بين فرنسا وإنكلترا - هم على هذا كله - لا يزالون على خطر من إصرار الدولة البريطانية على ثلّ عرشهم (رفعه الله) وتقويض دعائم ملكهم (حماء الله) ولا تزال اليونان محتلة لجزء عظيم من بلادهم. وذلك يوجب عليهم من الحذر والدهاء في السياسة مع الاستعداد الحربي ومن التفاني في الإصرار على الاستقلال المطلق، والحرص على استدامة صداقة الشعوب التي عطف عليهم والسعي لاكتساب مودة غيرها ما نرجو أن يكون فيهم من الرجال من يقوم به كله.

مصر

وأما مصر فقد استفادت من جهادها رفع الإنكليز للحماية الباطلة عنها،

واعترافهم بالاستقلال والسيادة القومية لها، وتلا ذلك اعتراف الدول بذلك واحدة بعد أخرى، فصارت أقدر على الجهاد في سبيل إزالة الاحتلال الأجنبي عنها وعن سودانها الذي هو مصدر حياتها، إذا هي وحدت أحزابها وعرفت كنه قوتها، وإنما هي قوة سلبية اقتصادية، لا حربية ولا عدوانية.

العرب

وأما سائر العرب فلا يزالون على ما شكونا منه من تفرقهم إلا أن إخواننا العراقيين قد أقرروا أعيننا بما علمنا من اتفاق السواد الأعظم منهم على الاستقلال المطلق من قيود الحماية والوصاية والانتداب، وعجز الدسائس الأجنبية عن تفريق كلمتهم وعن خداعهم بجعل السيطرة عليهم موهبة في شكل معاهدة، ولكن ساءنا غفلة الكثيرين منهم عما تبغيه من إيقاع العداوة والبغضاء بينهم وبين جيرانهم النجديين، وما يجب من تحامي ذلك والحذر من إلباسه لباس الدين، ونرجو أن يفتن لذلك سلطان نجد الحكيم، ويعلم أن الأجانب يخوفون العراقيين من عدوانه عليهم ليرضوهم ببقائهم تحت سيطرتهم العسكرية. وإننا نعتقد أن دينه وعقله يأبيان عليه أن يجعل وهو لا يجهل أن استتباب السلطة الأجنبية في العراق والشام خطر على استقلال نجد وسائر جزيرة العرب، وقاض على كل سلطة للإسلام فيها، ولا سيما إذا امتدت فيها السكك الحديدية العسكرية، وقواعد الطيارات الحربية، التي تؤسسها السلطة البريطانية في العراق وشرق الأردن من سورية، ولكن الحجازيين يجتهدون في بث الدعوة (البوربغندة) لتشويه سمعته، والطعن فيه وفي أهل بلاده، ويوهمون الناس أنهم وحوش ضارية يستحلون سفك الدماء بغير حق، فيعاقبون بالقتل على أقل ذنب، أو ما لا يعد عند غيرهم بذنب، وغير ذلك من الزور والبهتان والكذب، وقد راجت هذه الدسائس حتى في سورية وفلسطين ومصر.

والحق أنه لا يوجد فيما نعلم من أمر بلاد الإسلام قطر يقام فيه الإسلام مثل نجد، سواء في ذلك الأعمال الشخصية والقضائية أو بث الدعوة ومقاومة البداوة، وإلزام البدو بال عمران والحضارة، ومنعهم من الغزو والعدوان بغير حق، لأجل الارتزاق والكسب، وإنما يقاتل النجديين البدو لأجل هذا، ولم يتعدوا على حكومة منظمة لأجل فتح بلادها، وإنما أزالوا إمارة ابن الرشيد لأنه لا يجوز أن يكون في قطر واحد حكومتان مختلفتان، وآل سعود هم الأمراء الشرعيون لهذه البلاد، وقد اختاروا في إزالتها أخف الضررين وهو الحصار.

وأما اليمن فلا يزال العداء والشقاق بين إماميها يحيى والإدريسي مستمراً، والقتال آونة بعد أخرى مستحراً، وقد اتفق الثاني مع صاحب نجد وتحالفا فاشتد أزره، وكان صاحب الحجاز يطمع في جعلهما تابعين له ولو في السياسة على كونها أقوى منه وأعز، ثم حاول الارتباط معها بمحالفة هجومية دفاعية وانتهى الأمر بوفاق اقتصادي وهو لا يبلغه غرضه من تدوين نجد، ولا يؤمنه تغلبها على الحجاز، ولا يرتاح مع ذلك إلى الصلح والاتفاق مع صاحبها، لأنه يخاف أن يث دعوة التدين في سائر بدو الحجاز وحضره آمنة والبلاد مستعدة لذلك ولا سيما الأعراب فيها. ولعله لولا رجاءه في جمع قوته إلى قوة ولديه في العراق وشرق الأردن للإحاطة بنجد وإزالة سلطانها لجنح إلى السلم ورضي بالاتفاق، وهم يبتون الدعوة في هذه الأقطار الثلاث وما جاورها من سورية ومصر تمهيداً لذلك، ويعتقد أنهم إذا استولوا على نجد يتم له تأسيس الأمبراطورية العربية، في ظل الدولة البريطانية، تنفيذاً لمقررات نهضته الرسمية.

فيا دارها بالحيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال



١٥٣

المعاهدة البريطانية الحجازية

وخذعة الوحدة العربية

[المنار ج ٢٤ (١٩٢٣) ص ٤٢٨ - ٤٤٠ : ٥٣٢ - ٥٤٥]

بلغنا منذ بضعة أشهر أن الدكتور ناجي الأصيل الموصلية ذهب إلى مكة وأخذ تفويضاً من ملك الحجاز بالسعي لدى أرباب الأموال من الإنكليز بعقد امتيازات في الحجاز باستخراج المعادن وبغير ذلك ثم سافر منها إلى «لندن» ماراً بمصر، ثم شاع أن الدكتور وكيل سياسي لملك الحجاز، ثم جاءتنا أخبار أوربة العامة والخاصة بأنه ذهب إلى لوزان لحضور مؤتمر الصلح فيها بالوكالة عن ملك الحجاز، وأنه كان هناك مع جعفر باشا العسكري البغدادي مندوب الملك فيصل ملحقين أو تابعين للوفد البريطاني، ولنا من أخبارهما التفصيلية الفاضحة هنالك ما ليس من موضوع هذا المقال.

ثم إن برقيات روتر الإنكليزية وجرائد لندن أذاعت في العالم كله نبأ عقد مؤتمر عربي يمثل الشعوب العربية كلها لأجل حل المسألة العربية ووضع أساس الاتحاد العربي، ثم علمنا أن أعضاء هذا المؤتمر خمسة نفر من صنائع أمراء الحجاز ووسائلهم لدى الإنكليز وهم جعفر باشا العسكري وناجي بك السويدي والدكتور ناجي الأصيل وأمين بك التميمي وإحسان بك الجابري. فتذكرنا بذلك ما كانت البرقيات والجرائد الإنكليزية بلغتنا إياه عند إعلان «اتفاق سايكس بيكو» على قسمة البلاد العراقية والسورية بين إنكلترة وفرنسة إذ زعمت أن الأمة العربية قد اشتركت في الاحتفال بإعلان هذا الاتفاق في لندن بحضور ممثلها فيه. ثم علمنا أن المراد بهؤلاء الممثلين تاجر سوري مسيحي مقيم بلندن ومتجنس

بالجنسية الإنكليزية وأسير مسلم من عكا إسمه إساعيل!! .

وهذا شأن الأجانب في العبث واللعب بالشعوب والأمم والكذب والتزوير: رجلان مجهولان يمثلان أمة بدون علمها ولا إذنها، ويقرران ابسال بلادها واستعبادها، أو ينسب ذلك إليهم، وخمسة نفر يعقدون مؤتمراً بإسم الأمة العربية بدون توكيل ولا إذن ولا علم منها، وذلك أنهم يعملون بأمر الأجنبي في بلده، وأما المؤتمر السوري الفلسطيني الذي عقد في جنيف ممثلاً للأحزاب الاستقلالية في الوطن والمهاجر، والمؤتمر السوري العام المنتخب من جميع المناطق السورية والمؤتمرات الفلسطينية العامة المنتخب أعضاؤها من جميع بلاد فلسطين - فهي لا تمثل من تتكلم باسمهم في عرف الأجانب المغتصبين للبلاد.

ثم أذاعت البرقيات والجرائد الإنكليزية في أقطار العالم أن ناجي الأصيل قد اتفق مع الحكومة البريطانية على عقد معاهدة بريطانية عربية تقرر فيها اتحاد الممالك العربية واستقلالها فكانت الجرائد العربية تعنى بنقل هذه الأخبار والتعليق عليها في مصر وفلسطين وسائر سورية وفي مهاجر السوريين واغتر بذلك كثير من الناس وصدقوها، واتسع مجال الإيهام والتغريب لجرائد الدعاية «البوربغندية» الحجازية في سورية وفلسطين بها فصورت للبطش تأليف سلطنة «أمبراطورية» عربية مؤلفة من جزيرة العرب برمتها ومن ممالك فلسطين وشرق الأردن والعراق والدويلات السورية، وصدق أحداث السياسة والعوام في سورية أن بلادهم داخلية في هذه الأمبراطورية الجديدة، وروج هذه الخدعة الخيالية فيهم ما نقلته إليهم الجرائد من تودد الأمير عبدالله الحجازي لفرنسة فحسن عندهم هذا لتحقيقه الغاية التي أذاعوها منذ حلول ركابه في شرق الأردن وهي أنه ما جاء إلا لإنقاذ سورية من فرنسة، ومن البديهي أن إنقاذه إياها بالدهاء السياسي أولى وأسلم من إنقاذها بالحرب. وكل ذلك غش وحادع لم يتقن هؤلاء الأمراء الحجازيون من أمور السياسة العصرية غيره، وهو إنما يقوم بالبذل.

كان بعض الإخوان يسألونني عن رأيي في هذه الأخبار كلما حملت الجوائب شيئاً منها فأقول إنني أتمنى لو يكون فيها خير ولكنني أعتقد أنها خداع وتضليل فلو كان الإنكليز يريدون للعرب الاستقلال والاتحاد لما احتاجوا إلى الدكتور ناجي الأصيل في وضع الخطط لذلك، وإنما يريدون من وكيل الملك حسين الاتفاق على خدعة ينالون بها ما يريدون منه، وهو موافقته الرسمية على ما قرروه ونفذوه في البلاد العربية، وقد سألتني بعض هؤلاء الإخوان أن أكتب رأيي في ذلك وأنشره في الجرائد لكشف الغش والتليس للأمة العربية فكنت أقول أرى أن نصبر إلى أن تظهر نتيجة هذه الأخدوة الجديدة فنكون على بينة فيما نقول، ولا نرمي من أعوان الخادعين باتباع الهوى أو الفضول، وإنني على سوء ظني المبني على طول التجربة والاختبار أتمنى لو أكون مخطئاً في هذه المرة، وإذا أكون في طليعة أنصار ما يأتي من كل مشروع أو عمل لاستقلال العرب واتحادهم.

صبرت إلى أن انكشف الستر، وظهر ما بولغ في إخفائه من الأمر، وتركت السبق لغيري في انكار ذلك فكان أول المنكرين له من كانوا أول المحسنين للظن، بالملك حسين والأمير عبدالله وهم أهل فلسطين. ولما زالت ثقتهم بالثاني ظلوا واثقين بالأول، حتى كادوا يكابرون أنفسهم، ويكذبون الأخبار الرسمية البريطانية الجليلة، اغتراراً ببرقيات الحجاز المبهمة الموهمة.

ألم تر أن ناجي الأصيل عاد من لندن إلى مصر فسبقه إليها كل من الشيخ عبدالقادر المظفر وأمين بك التميمي من دعاة ملك الحجاز في فلسطين فاستقبلاه في الإسكندرية فاستنطقاه ليسبقا بالبشائر إلى قومهما فلم يفهما منه شيئاً جلياً! ألم تر أنه سافر إلى الحجاز في بارجة بريطانية فسابقه إليها الشيخ عبد القادر المظفر ثم سبقه بالعودة إلى مصر مبشراً بتأويل حلم الاتحاد العربي، وبأن وعد بلفور قد ألغي، أخبرني بذلك فلم أصدق، ولكنني قلت له: إنني أصبر فإن صح هذا كنت أول مؤيد له ومنوه به،

وإن كوفت على ذلك بالإيذاء، وإعراض هؤلاء الزعماء، وقد استنبط الشيخ بشائره من فرح الملك بهذه المعاهدة واحتفاله بالدكتور ناجي الأصيل كاحتفال الأمم بالقواد الفاتحين، ولم يطلعه أحد على شيء من مواد المعاهدة كدأب الملك حسين في الكتمان وعدم استشارة أحد في شيء من أمور الأمة، ولكنه روى لنا عن فؤاد الخطيب وكيل الخارجية عن الملك الجرم بإلغاء وعد بلفور، فجزمت بعدم صحة متن هذه الرواية جزمًا لا تردد فيه وتركت الكلام في سندها، ثم أيدت الحوادث كذب المتن بما لا يعد طعنًا في سنده، إذ علم أن الملك فهم ذلك من المعاهدة وهي نص في ضده كما ثبت في النصوص الرسمية الآتية.

بناءً على هذا الفهم الملكي أعلن المعاهدة بمكة يوم عيد الفطر باحتفال رسمي حافل، وتضمن الإعلان الملكي الأمر بجعل هذا اليوم عيداً. وهاك نص الإعلان منقولاً عن العدد ٦٨٨ من جريدة القبلة الرسمية المؤرخ في ٥ شوال الحال^(١) بعد ذكر الاحتفال بعيد الفطر:

عيد على عيد

(إعلان استقلال العرب ووحدتهم في جميع الجزيرة العربية)

ولما استقر بجلالة المنقذ [حسين بن علي] المقام، في بهو الاستقبال العام مثل بين يدي جلالته الأشراف والسادة العلماء والأعيان والوجهاء وأماثل الأمة على اختلاف طبقاتها حاضرها وباديها، وحينذاك تفضل جلالته ففاه بخطاب ملوكي سام حمد الله فيه وأثنى عليه ثم أشار إلى أن هذا العيد المبارك لا شك في تضاعف يمنه حيث صادف قبول المراجع الإيجابية^(١)

(١) القبلة. العدد ٦٨٨ تاريخ ٥ شوال ١٣٤١ هـ/٢١/٥/١٩٢٣.

(١) هذه الكلمة من الإصطلاحات التركية وهي بمعنى أولي الأمر والمراد هنا الحكومة الإنكليزية لأنها في عرف ملك الحجاز ولى أمر العرب والوصية عليهم كما سيأتي.

لجميع المطالب العربية فلا ريب في أنه يوم اجتمع فيه عيدان؟ عيد الفطر السعيد وعيد الاعتراف باستقلال العرب ووحدتهم وعليه فجلالته يعلن ذلك للأمة العربية حاضرها وباديها، وعلى أثر ذلك أمر جلالته صاحب الإقبال رئيس الديوان العالي أن يلقي في ذلك المحفل الجليل الخطاب الملوكي الهاشمي الآتي وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

نصرح في هذا العيد المبارك بمآل المعاهدة العربية البريطانية، المؤسسة على مقرراتنا الأساسية والتي يعترف بها صاحب الجلالة البريطانية لنا باستقلال العرب بجزيرتهم وسائر بلادهم، ويتعهد لنا حشمته الملوكية بالمعاوضة الفعلية لتأسيس الوحدة العامة الشاملة لكل هذه البلاد بما فيها العراق وفلسطين وشرق الأردن وسائر البلاد العربية في جزيرة العرب، ما خلا عدن، فنأمر أن يعتبر هذا اليوم المبارك عيد الاعتراف باستقلال الأمة العربية والله ولي التوفيق. انتهى.

وعقبه خطاب مندوب الحكومة بلندن وهذا نصه أخذناه منه بخط يده:

مولاي:

«أحمدته تعالى وأشكره على هذه الوقفة الفريدة التي مننتم يا مولاي عليّ بها لأقف بين يدي جلالتك في هذا اليوم العظيم لأقول كلمتي عن المعاهدة العربية البريطانية التي انتهت والحمد لله باعتراف بريطانيا باستقلال العرب في جزيرتهم وسائر بلادهم، ويتعهد لها لجلالتكم بالمعاوضة الفعلية لتأسيس الوحدة العربية العامة.

«إن بداية هذا الانقلاب الكبير في تاريخ الأمة العربية ظهر يوم نادى جلالتك بأمته مستصرخاً إياها بالنهوض وفك القيود لإعادة حريتها القديمة واستقلالها المغصوب، فيا لها من نهضة مباركة قامت فحطمت سلاسل

الذل والاستعباد، وجاءت اليوم بالاستقلال والاتحاد، لأمة عرفها التاريخ بفتوحاتها العظيمة ومجدها المشيد. فالأمة العربية مديونة لكم (يا مولاي) في نهضتها، مديونة لكم في العهود التي قطعتموها لحفظها وصيانتها من مصائب الحرب ونتائجها، مديونة لكم في هذا الاعتراف باستقلالها ووحدتها، فكما أني ما قمت إلا بواجبي الوطني يوم لبّيت الدعوة فتركت الجيش التركي والتحقت بجيوش جلالكم لأشترك بالدفاع عن استقلال بلادي العربية في تلك المعركة الكبرى، أيضاً يا مولاي بذهابي إلى لوزان حسب تنسيب جلالكم للدفاع عن القضية العربية أمام المؤتمر، وثم إلى عاصمة بريطانية لمطالبتها بإيفاء العهود لم أقم إلا بنفس ذلك الواجب السامي الذي يفديه كل عربي صميم بروحه وماله وما تملك يداه.

«أسأله تعالى أن يؤيد جلالة مولاي المنقذ الأكبر ويبقيه ذخراً للأمة العربية وأن يجعل هذا اليوم بدء كل خير لصالح الأمة العربية» انتهى.

وقد جاء في رسالة أرسلت من جدة إلى الإهرام نبأ الاحتفال بالمعاهدة فيها بالنص الذي أرسله الملك إلى حاكمها الإداري (قائمقام جدة) وأن هذا قال بعد تلاوة أمر الملك في الحفلة «وقريباً سنتفق مع فرنسا على سورية اتفاقاً مرضياً». ولقب ملك الحجاز بملك البلاد العربية ومؤسسها.

مضمون الإعلان الملكي وما ترتب عليه

دلّ هذا الاحتفال وما قيل فيه دلالة قولية فعلية على الأمور التالية:

١ - إن المعاهدة التي حملها الدكتور ناجي الأصيل من لندن قد اشتملت على اعتراف صاحب الجلالة البريطانية باستقلال العرب في جزيرتهم وجميع بلادهم.

٢ - إنها مبنية على المقررات السابقة وهي التي عرضها أمير مكة حسين بن علي على الدولة البريطانية في بيان شروط قيامه بالثورة العربية فقبلتها مع تحفظات مبينة في كتب السر هنري مكماهون له وقد نشرنا ذلك

كله في الجزء الثامن من مجلة المنار م ٢٣ الذي صدر في سلخ صفر من هذا العام (الموافق ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٢٢).

ولعل القراء يتذكرون أن المادة الأولى من تلك المقررات أن الحكومة البريطانية تتعهد بتشكيل حكومة عربية مستقلة، الخ. وأن المادة الثانية نص صريح في محافظة الدولة البريطانية وصيانتها لهذه الحكومة بأي صورة كانت في داخليتها وسلامة حدودها البرية والبحرية من أي تعد في أي شكل يكون، حتى الدسائس والفتن الداخلية. وأن المادة الثالثة تصرح بأن هذه الحكومة العربية حكمها حكم القاصر في حضن الدولة البريطانية.

وبناءً على هذا يكون الاستقلال المعترف به نوعاً من أنواع استقلال بعض المستعمرات البريطانية لا الاستقلال المطلق من كل قيد.

٣ - إن الملك قد فهم أن فلسطين داخله في مملكته الجديدة ومن لوازمه أن عهد بلفور بإنشاء وطن قومي فيها لليهود قد ألغي كما لقن الشيخ عبد القادر المظفر قبل الاحتفال بإعلان المعاهدة عند سفره من الحجاز وكان من لوازم هذا الفهم أن «ملك البلاد العربية ومؤسسها» أرسل برقية إلى كاظم باشا الحسيني رئيس الوفد الفلسطيني - وهو في القدس - بلغه فيها خبر المعاهدة وأمره لرعيته أهل فلسطين بالتزام الهدوء والسكينة أي إلى أن يتسلم جلالته إدارة البلاد بالفعل، حتى إنه قال له في البرقية «وأنتم المسؤولون عن كل ما يحدث» وظاهر هذا أنه يرى أن حكومة فلسطين البريطانية الصهيونية تلغى بمجرد وصول برقيته.

لهذا بادرت هذه الحكومة إلى نشر بلاغ رسمي صرحت فيه بأن المعاهدة الجديدة لا تتضمن أدنى تغيير في حكومة فلسطين، فهاج ذلك أهل فلسطين وبلغوا الملك حسيناً خبره فكذب بلاغ الحكومة الفلسطينية إذ صرح بأنه مخالف لنص المعاهدة الواردة من وزارة الخارجية البريطانية.

فنشرت هذه الحكومة خلاصة نص المعاهدة ومنها التصريح بأن فلسطين غير داخلة في البلاد التي اعترفت الحكومة البريطانية باستقلالها إذ سبق بيان ما تقرر بشأنها، وتضمن هذا بقاء عهد بلفور وأنه لم يُلغ ولم يعدل كما سيأتي.

لا يتوهم أحد أننا سررنا بخطأ الملك حسين في فهمه وبخية أمله، فوالله إننا نتمنى لو تستقل فلسطين استقلالاً صحيحاً ولو بسعيه ودخولها في حدود ملكه، فإن لم يكن أهلاً لإدارتها فما هو بخالد فيها، على أننا نعلم أنه لا يستطيع أن يستبد فيها كما يستبد في مكة وجدة، وإنما نحن ندون أهم أحداث تاريخنا الحديث بما فيه العبرة لأهل العصر ولمن بعدهم.

وأهم ما نذكر به من العبرة في هذه المسألة التفكير في سبب خطأ الملك في فهمه الذي كان سبباً لأقبح الخزي المحزن، ونحن نرى أن الذنب في هذا على الدكتور ناجي الأصيل وفؤاد أفندي الخطيب وزير خارجية الملك الذي اشترك مع الدكتور في ترجمة المعاهدة.

ذلك بأن صيغة المعاهدة قد وضعت باللغة الإنكليزية قطعاً ومن دأب الملك حسين عدم إطلاع أحد على شيء من أسرار سياسته إلا من يضطر إلى استخدامه فيها. ولا نرى منجاة للدكتور ناجي الأصيل وفؤاد أفندي الخطيب من تبعة غش الملك في الترجمة إلا إذا كانت الترجمة صحيحة وألقيت إلى الملك مكتوبة فلم يفهمها ولم يجعلها هو والمترجمين لها موضع البحث بل بلغ فلسطين ما بلغها قبل أن يبحث مع وكيله ووزير خارجيته فيها، ولكن هذا بعيد وخلاف الظاهر - وإن كان الملك لا يفهم اللغة العربية العصرية ولا القديمة فهما صحيحاً بدليل أن كتابته كثيرة الغلط والعسلة فلا تفهم إلا بالقرائن - فإن ناجي الأصيل حضر إعلان الاستقلال ووافق عليه ببيان منه بخطه، فإن قيل إنه تعذر عليه أن يصحح خطأ الملك عقب إلقاء خطابه فكيف لم يبينه له بعد ذلك وتركه على غلظه حتى تجرأ على تخطئة حكومة فلسطين الإنكليزية في فهمها للمعاهدة وعلى

مخاطبته للفلسطينيين بعد مراجعتهم إياه في المسألة بما يدل على أنه لا يزال على فهمه الأول وكذا رده على الجرائد المصرية فإنه يدل على ذلك أيضاً.

وأما احتمال عدم فهم ناجي الأصيل للنص الإنكليزي الذي لم يوضع إلا بعد طول البحث مع وزارتي الخارجية والمستعمرات الإنكليزيتين فيه فغير معقول، وقد جرى له حديث مع مكاتب الأهرام في الإسكندرية إثر وصوله إليها عائداً من لندن يدل على أنه واقف على دقائق المعاهدة وعلى أن المناقشة في مسألة فلسطين معه كانت شديدة وقد علم أن فؤاد الخطيب قد ساعده على ترجمة المعاهدة فهل يتفقان على الخطأ في جعل المنفي مثبتاً.

على أن البلية في عدم فهمهما للمعاهدة حينئذٍ أعظم من البلية في غشهما للملك، فما أعظم مصاب العرب فيمن يقيدونهم بمعاهدات لا يفهمون معناها مع دولة يحتاج من يعقد معها أي معاهدة أو اتفاق أن يكون من أدق الناس فهماً وأقدرهم على تحديد المعاني بحيث لا تحتل التأويل بضرب من ضروب الاشتراك أو المجاز أو الكناية لأن رجالها أبرع الناس في التفصي من المعاهدات بالتأويل كما قال البرنس بسمارك.

وما طرقت باب هذا المبحث إلا لأنني قد عز عليّ أن أوافق من يظنون أن الملك حسيناً قد خدع الفلسطينيين ليؤيدوه فيما رضىه للبلاد كلها من الوصاية البريطانية وفلسطين معها من عهد بلفور إلى أن ينفذ السهم، وإنما أوافقهم بسهولة إذا جعلته الحكومة البريطانية هو القوس الذي ترمي سهمها منه. على أنه خدع الأمة العربية منذ بدء الثورة فإنه اتفق مع حلفائه على استقلالها ولا يزال يدعي ذلك بعد علم الناس بمقررات النهضة ومع أخذ البلاد باسم الانتداب الذي وافقهم عليه في هذه المعاهدة.

سوء تأثير هذه المعاهدة

احتفل الملك حسين بهذه المعاهدة احتفالاً رسمياً في مكة المكرمة وغيرها

من بلاد الحجاز وجعل يوم هذا الاحتفال عيداً وطنياً دائماً كما تقدم،
وقدم له أركان حكومته وكبار الدولة التهنائي على هذه النعمة التي أصابت
الأمة العربية بسعيه، واحتفل مثل هذا الاحتفال في شرق الأردن عاصمة
إحدى أركان هذه الدولة العربية المستقلة المتحدة (؟) ولقب الملك حسين
في هذه الاحتفالات بملك البلاد العربية ومؤسسها، وبأمر المؤمنين، ومدح
هو ونجله الأمير عبدالله بالخطب والقصائد، ورجعت صدى ذلك كله
الجرائد، وأظهرت المستأجرة والمغرورة منها غاية الحبور والابتهاج.

في أثناء هذا نشرت حكومة فلسطين خلاصة المعاهدة مترجمة باللغة
العربية ففهم منها جميع الناس في كل مكان أنها أعظم نكبة على الأمة
العربية والإسلام، واجتمع المؤتمر الفلسطيني العام للنظر فيها فقرر رفضها
والاحتجاج عليها، وقامت قيامة الصحف المصرية وانبرت جميعها للرد
والاحتجاج والتشنيع على ملك الحجاز. وستفعل ذلك سائر جرائد العالم
الإسلامي وهذا ترجمة خلاصة المعاهدة.

خلاصة المعاهدة البريطانية العربية

نشرت حكومة فلسطين بلاغاً رسمياً قالت فيه :

فيما يلي خلاصة المعاهدة التي جرت المفاوضة بشأنها بين حكومة جلالة
ملك بريطانيا وجلالة ملك الحجاز أما المعاهدة، فلم تبرم نهائياً حتى الآن
وقد اقترح جلالة الملك حسين تعديلات صغيرة لم تعرف تفاصيلها تماماً
والبحث جار فيها.

المادة الأولى - تنص على وجود سلم بين الحكومتين وعلى منع استعمال
بلاد الحكومة الواحدة قاعدة لأعمال موجهة ضد الحكومة الأخرى.

وهذا نص المادة الثانية :

يتعهد جلالة ملك بريطانيا بأن يعترف باستقلال العرب في العراق

وشرقي الأردن والدول العربية في شبه جزيرة العرب ما خلا عدن وأن يعضد هذا الاستقلال. وأما فيما يتعلق بفلسطين فقد تعهد صاحب الجلالة البريطانية بأن لا يجري شيء في هذه البلاد مما يمكن أن يححف بحقوق الأهالي العرب المدنية أو الدينية. وأما إذا أبدت إحدى هاته الحكومات أو كلها رغبة في الاشتراك في الجمارك أو خلاف ذلك بقصد إيجاد حلف في ما بعد فإن صاحب الجلالة البريطانية يسعى لترويج رغبتهم إذا طلب إليه ذلك المتعاقدون ذوو الشأن.

ويعترف صاحب الجلالة الهاشمية بالمركز الخاص الذي لجلالته البريطانية في العراق وشرقي الأردن وفلسطين ويتعهد بأن يبذل غاية جهده في التعاون مع جلالته البريطانية على القيام بتعهداته في المسائل التي تقع ضمن نفوذ جلالته الهاشمية بشأن هذه البلاد.

في المادة الثالثة يتعهد جلالة ملك الحجاز بالمحافظة على العلاقات الودية التي وجدت قبل الحرب بين جلالته وبين حاكم العسير وحاكم نجد.

في المادة الرابعة يتعهد صاحب الجلالة الهاشمية بأن يسعى في تسوية المنازعات بشأن الحدود بين بلاده وبلاد حاكمي العسير ونجد بمخابرات ودية ويتعهد صاحب الجلالة البريطانية بأن يسعى في المساعدة بتسوية منازعات كهذه عندما يرغب في ذلك.

وفي المادة الخامسة يتعهد صاحب الجلالة البريطانية بأن يصد بجميع الوسائل السلمية والممكنة أي اعتداء يقع على بلاد جلالته الهاشمية ضمن الحدود التي قد تقرر نهائياً.

المادة السادسة - تنص على تعيين وكيل من قبل جلالته الهاشمية في لندن وعلى تعيين وكيل من قبل جلالته البريطانية في جدة أو أي مدينة ساحلية أخرى. ويجوز لجلالته الهاشمية أن يعين أيضاً قناصل من قبله في

انكلترا والهند وكذلك يحق لجلالته البريطانية أن يعين قناصل في جدة وغيرها من المدن الساحلية كما يرى جلالته موافقاً ويتمتع هؤلاء الوكلاء والقناصل بالامتيازات السياسية والقنصلية العادية .

في المادة السابعة - يعترف صاحب الجلالة الهاشمية بالترتيبات الصحية (الكورنتينات) الموضوعة مؤقتاً من قبل صاحب الجلالة البريطانية في (قمران) قياماً بنصوص الإتفاق الصحي الدولي الموضوع في سنة ١٩١٢ .

ويتعهد صاحب الجلالة البريطانية بأن يعترف بالتدابير المتممة التي قد تتخذ في جدة أو غيرها من المرافئ الواقعة في بلاد جلالته الهاشمية وفقاً لأنظمة يصدرها صاحب الجلالة الهاشمية .

في المادة الثامنة - يتعهد صاحب الجلالة البريطانية بأن لا يتدخل في التدابير التي يتخذها صاحب الجلالة الهاشمية للاعتناء بالحجاج ويتعهد صاحب الجلالة الهاشمية أن يعضد المساعي التي يبذلها الرعايا البريطانيون المسلمون لمساعدة الحجاج في الحجاز .

المادة التاسعة - تنص على تعيين مبلغ محدود كي يدفعه كل حاج وعلى نشر المبلغ المعين سنوياً .

وتنص المادة العاشرة أيضاً على الاعتراف بالصفة الهاشمية التي لرعايا جلالته الهاشمية في بلاد جلالته البريطانية وكذلك تنص على الاعتراف من قبل جلالته الهاشمية بالصفة البريطانية التي لرعايا جلالته البريطانية في بلاد جلالته الهاشمية .

المادة ١١ - تنص على تسليم أموال الرعايا البريطانيين ممن يموتون في بلاد جلالته الهاشمية إلى المعتمدين البريطانيين في تلك البلاد ويصير التصرف بأموال كهذه وفقاً للقانون الساري على ظروف كهذه .

المادة ١٢ - تنص على حضور قنصل بريطاني في محاكم جلالته الهاشمية عندما تنظر هذه المحاكم في قضية يكون فيها أحد الرعايا البريطانيين مدعياً

أو مدعى عليه وعلى تأجيل أي حكم إذا رغب المعتمد البريطاني في اجراء
المخابرات طلباً للعدالة .

ولا تسري نصوص هذه المادة في حالة الرعايا البريطانيين أو الأشخاص
الذين يتمتعون بحماية جلالته البريطانية القاطنين في بلاد جلالته الهاشمية
بصورة دائمة .

المادة ١٣ - تنص على تسليم صاحب الجلالة الهاشمية الرعايا
البريطانيين الذين يلقي عليهم القبض من قبل السلطات الهاشمية إلى
القناصل البريطانيين بشرط أن يعطى هؤلاء ضماناً لإحضارهم عند
الاقضاء .

ولا تسري نصوص هذه المادة على الرعايا المقيمين بصورة دائمة في بلاد
الحكومة الهاشمية خارج جده وغيرها من المرافق التي قد يعين لصاحب
الجلالة البريطانية قناصل فيها .

المادة ١٤ - تنص على رؤية دعاوي الرعايا البريطانيين التي لا تمس فيها
مصالح رعايا الحكومة الهاشمية من قبل القناصل البريطانيين .

المادة ١٥ - تنص على التنازل من قبل جلالته البريطانية عن جميع
الامتيازات والاستثناءات خلاف المنصوص عليها في هذه المعاهدة التي كان
يتمتع بها الرعايا البريطانيون بمقتضى الامتيازات بين بريطانيا العظمى
وتركيا .

المادة ١٦ - تنص على إعلام جلالته الهاشمية المعتمد البريطاني عند ما
يرغب جلالته في إبعاد أحد الرعايا البريطانيين .

المادة ١٧ - تعالج الشروط التي بموجبها يعترف صاحب الجلالة
البريطانية بعلم جلالته الهاشمية .

المادة ١٨ - تصرح بأنه لا يجوز لأي الفريقين المتعاقدين الساميين أن

يعقد أية معاهدة أو اتفاق مع فريق ثالث ضد مصالح الفريق المتعاقد السامي الآخر.

المادة ١٩ - تنص على أن لا شيء في هذه المعاهدة يبطل أي تعهد قد تعهد به أو قد يتعهد به في المستقبل أحد الفريقين المتعاقدين الساميين بمقتضى عهد جمعية الأمم.

المادة ٢٠ - تنص على تصديق هذه المعاهدة وإنها نافذة الفعل لمدة ٧ سنوات اعتباراً من اليوم الذي توضع فيه موضع العمل.

هذه خلاصة المعاهدة التي نشرتها حكومة فلسطين البريطانية. فهم الناس منها في فلسطين ومصر وفي كل مكان أنها تستثني فلسطين من البلاد العربية التي يعترف ملك الإنكليز لها بالاستقلال - على ما فيه - معللة ذلك بأنه قد سبق للحكومة البريطانية تقرير أمرها وأنها تضمن للعرب في حكمها إياها حريتهم المدنية والدينية أي لا يمنعون من البيع والشراء ورفع القضايا إلى حكاهم من الإنكليز واليهود، ولا يمنعون من الصلاة والصيام - مثلاً - وجميع الناس يعلمون أن المراد بذلك هو ما يسمونه الانتداب المتضمن لعهد بلفور بالوطن القومي لليهود، وهذه العبارة الضمانية مأخوذة من صك الانتداب المذكور.

هذا ما فهمه الناس كافة وهو خلاف ما فهمه الملك حسين أو أراد أن يفهمه الناس في فلسطين وغيرها.

ولهذا قامت قيامة المسلمين في مصر وشايعتهم الجرائد كلها على الطعن في هذه المعاهدة باسم الإسلام فعسى أن يكون في هذا وفي رفض أهل فلسطين لها ما يحمل الملك حسيناً على ترك عناده وإصراره على عقدها، أو يحمل الحكومة الإنكليزية. وسنشرح مواد خلاصة المعاهدة في الجزء التالي، ونعجل في هذا الجزء بإعلام الشعب البريطاني الحكيم بشعور العالم

الإسلامي وشعور الأمة العربية بهذه المعاهدة لعله يتدارك الأمر ويحول دون عقدها، ويتلافى شر ما نكرهه من جعل العداء بين الإنكليز والإسلام أمراً واقعاً نهائياً لا مفرّ منه . فلإننا نعلم ما في تفاقم هذا العداء من الضرر والفساد، وما في استبدال الصداقة به - إن أمكن من الخير الخاص العام . ولهذا القصد ننشر الخطاب التالي، على أن نقفي عليه بخطاب آخر يبين للشعب الإنكليزي الطريقة المثلى لصداقة الإسلام والعرب كما بينها لحكومته من قبل .

المعاهدة البريطانية الحجازية

وخدعة الوحدة العربية

[المنار ج ٢٤ (١٩٢٣) ص ٥٣٢ - ٥٤٥]

- ٢ -

تعليق وجيز على خلاصة المعاهدة

لم يظهر لنا أدنى وجه لجعل المسيطر على الحجاز هذه المعاهدة عيداً للأمة العربية، فما أبعد الفرق بين معاهدة لوزان التي جعلت الحكومة التركية عيد النحر وهو يوم إعلانها عيداً وطنياً للترك، وبين هذه المعاهدة التي جعل الملك حسين يوم إعلانها بمكة عيداً وطنياً للعرب؟

معاهدة لوزان قررت استقلال الترك استقلالاً مطلقاً من كل قيد سياسي واقتصادي واجتماعي، والمعاهدة البريطانية الحجازية قررت استعباد بلاد العراق وفلسطين وشرق الأردن بالوصاية البريطانية، وبلاد الحجاز بالحماية الإنكليزية، فتلك جديرة بأن تجعل ذكراها عيداً وموسماً، وهذه جديرة إن أمضيت بأن تجعل ذكرى خزيها مناحة ومأتماً .

بينت الجرائد المصرية ما في هذه المعاهدة من قيود استعباد العرب

والحجاز - وبين المؤتمر العربي الفلسطيني الخامس ما فيها من استعباد فلسطين والاعتراف بالحال الحاضرة فيها وما هي إلا الاستعمار الإنكليزي بالانتداب المتضمن للوطن القومي لليهود - وبينت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الفلسطيني هذا أيضاً وزادت عليه ما فيها من إقرار الانتداب في سورية الشمالية أيضاً. وإننا نسجل في المنار أهم ما ظهر من غوائل هذه المعاهدة المشؤمة بما لا نعلم أن أحداً سبقنا إلى مثله، ونسأل الله أن يقضي عليها بالفشل، وحسبنا من أعياد ملك الحجاز (عيد النهضة) التي هي علة كل هذا الشقاء.

(المادة الأولى) «تنص على منع استعمال بلاد كل من الحكومتين المتعاهدين قاعدة لأعمال موجهة ضد الحكومة الأخرى».

ليس في هذا النص أدنى فائدة للعرب بل فيه من الضرر أنه يحظر عليهم وعلى جميع مسلمي الأرض أن يتواطئوا في الحجاز أو يتشاوروا في أي أمر ينكرونه على الإنكليز من ظلم شعوبهم أو استعباد بعض بلادهم، والاعتداء على حكوماتهم، وكل ذلك واقع. وسلب المسلمين لهذه الحرية في مهد دينهم ليس مما أعطاه الله لهذا الرجل الذي نصبه الإنكليز ملكاً على بلادهم المقدسة التي جعل كتاب الله لكل مسلم من الأمن والحرية فيه مثل ما لهذا الملك وأولاده ورجال حكومته سواء. وأما حكومته فلن تنال في مقابل ذلك شيئاً فإن الإنكليز لن يمنعوا مسلمي الهند من الأعمال الموجهة إلى الإنكار على ملك الحجاز وحكومته وعليهم أيضاً في سياستهم الحجازية والعربية لا في الهند ولا في إنكلترا نفسها.

وأما (المادة الثانية) فهي مشتملة على ست قضايا بعضها خداع وبعضها خزي ونكال.

(١) تعهد عاهل بريطانية بأن يعترف باستقلال العرب في العراق وشرق الأردن والدول العربية في شبه جزيرة العرب ما عدا (عدنا).

نريد قبل كل شيء أن نفهم معنى هذا الإستقلال - فإن عند الإنكليز ممالك وولايات تسمى مستقلة وهي ذات نظم مختلفة، فنرى هنا أن الإنكليز لا يزالون متمسكين بما يسمونه الإنتداب - أي الوصاية - على العراق وفلسطين وشرق الأردن فكيف تكون مستقلة إذا؟ وهنالك حكومات عربية كانوا جعلوها تحت حمايتهم كلحج وحضرموت ولا نرى دليلاً يدل على رفع هذه الحماية عنها، والحجاز وقد قيدها (موبقها) بمقررات النهضة من قبل، وقيدتها هذه المعاهدة بما يأتي بعد، فما معنى استقلال هذه الممالك إذا؟ وأما حكومات اليمن وتهامة ونجد فهي مستقلة ولم ينكر الإنكليز عليها استقلالها وإنما كل همهم تقييدها بعهود واتفاقات وامتيازات خادعة، تمهد لهم السبيل للعبث باستقلالها عند سنوح الفرص المناسبة. فإذا لم يكن هذا الاستقلال لفظاً خادعاً فليصرحوا في المعاهدة بإلغاء الإنتداب والحماية . . . كيف وهي لم تعقد إلا لتثبيت ذلك وتوكيده كما يعلم مما يأتي في القضية الخامسة أفصح أن تعد هذه نعمة على العرب يأمرهم من سمى نفسه ملكهم بأن يتخذوا ذكرى إعلانه عيداً لهم؟

(٢) تعهد العاهل البريطاني بتعزيد هذا الاستقلال. هذه قضية مبهمة تخشى عواقبها ولا ترجى أوائلها، فإنها باب مفتوح للتدخل في شؤون البلاد الداخلية بحجة تعزيد الاستقلال كما تدخل الإنكليز والفرنسيين في شؤون بلاد اليونان في أيام الحرب فعزلوا ملكها اتهاماً له بأنه يعبث باستقلالها وقد كانوا صرحوا بأنهم ضامنون له! فهل تعد هذه سعادة للعرب يجعلون بها يوم اعلانها عيداً؟

(٣) التصريح بأنه لا حظ لعرب فلسطين أصحاب البلاد إلا ما ضمنته لهم به الحكومة البريطانية في صك الإنتداب المرتبط بعهد بلفور لليهود وهو أنه لا يجري في البلاد شيء يححف بحقوقهم الدينية والمدنية، وهو حق سلبي محض معناه أن الحكومة البريطانية صاحبة السيادة على البلاد لا تمنعهم ولا تدع اليهود الذين تجعل هذه البلاد وطناً قومياً لهم أن يمنعوهم

من الصلاة والصيام، ولا البيع والشراء أو من التقاضي إلى المحاكم مثلاً، - على إننا علمنا بالتجارب أن كل ضمان وعهد من قوي لضعيف لا ينفذ منه إلا ما فيه مصلحة القوي، وقد ضمن ملك الإنكليز لمصر أن يدافع عنها في الحرب الكبرى ولا يكلفها شيئاً في مقابلة ذلك - فكان من أمر سلطة جيشه العسكرية أن جعلت جميع ما تملك الحكومة المصرية والشعب المصري رهن تصرف الجيش ويقدر ما استفاده الجيش من مصر بمئات الملايين من الجنيهات لزهاء مليون مصري استعان بهم على فتح فلسطين والعراق.. فهل يصح - والحالة هذه - أن يتخذ يوم إعلان تسجيل هذه الرزية العظمى عيداً للعرب؟

(٤) إذا رغبت هذه الحكومات كلها أو بعضها في الاشتراك في الجمارك أو غير الجمارك بقصد التوصل به إلى عقد حلف بينها فيما بعد وطلبت من العاهل البريطاني أن يروج رغبتهم فإنه يسعى لذلك.

ونقول إن كانت هذه الحكومات مستقلة استقلالاً صحيحاً فأى حاجة إلى طلبها من ملك أجنبي أن يروج ما تريد تنفيذه في بلادها من تلقاء نفسها؟ وهل وعد هذا الملك لهم بالسعي لذلك يصح أن يعد نعمة له عليهم يتخذون يوم إعلانها عيداً لهم؟

(٥) يعترف «صاحب الجلالة الهاشمية بالمركز الخاص الذي للجلالة البريطانية في العراق وشرق الأردن».

ونقول إن هذا المركز الخاص المذكور بصيغة المعرفة - أي بلام العهد - لا يمكن تفسيره لغة ولا عرفاً سواء كان العهد ذهنياً أو خارجياً إلا بالحال الحاضرة التي سموها الانتداب في هذه البلاد الذي اختاروا في تنفيذه أن تكون كل حكومة فيها على الوضع الذي هي عليه الآن ومنه حكم فلسطين بما يستغيث أهلها منه من الإدارة اليهودية والسيادة البريطانية.

ثم نقول على سبيل الإنذار والتحذير: إن استحلال ملك الحجاز لإقرار

الإنكليز على هذا ورضاه به يعدّ ارتداداً عن الإسلام بإجماع المسلمين، ولا يوجد عالم مسلم يمكن أن ينازعنا في هذا بعد العلم به، فهل يصح أن يستبدل بهذا جعله نعمة يمنّها ملك الإنكليز على «ملك العرب» يأمر هذا بجعل إعلانها عيداً للأمة العربية؟

(٦) يتعهد (صاحب الجلالة الهاشمية) بأن يبذل غاية جهده في التعاون مع جلالته البريطانية على القيام بتعهداته في المسائل التي تقع ضمن نفوذ جلالته الهاشمية بشأن هذه البلاد.

ونقول يا لله العجب كيف لم يكتف الإنكليز من هذا الرجل بمطالبته أن يبذل في سبيلهم دينه وشرفه بأن يعترف لهم بالاستيلاء على بلاد الإسلام المقدسة والتصرف في رقبتهما كيفما ارادوا حتى حملوه على التعهد لهم ببذل منتهى جهده على القيام بتعهداتهم في المسائل التي تقع ضمن نفوذ جلالته أي في الحجاز وغيره من البلاد العربية - ثم يا لله العجب كيف يفرح هو بهذا وذاك ويعلن في بيت الله أنه يجب على العرب اتخاذ يوم إعلانه عيداً وطنياً؟

(المادتان ٣ و ٤) يفرض فيهما على ملك الحجاز المحافظة على العلاقات الودية بينه وبين حاكمي عسير ونجد وأن يسعى لتسوية المنازعات على الحدود بينه وبينهما بالمفاوضات الودية، ويتعهد ملك الإنكليز في الثالثة بالسعي لتسوية أمثال هذه المنازعات إذا رغب إليه في ذلك.

ونقول أما الأول فحسن في نفسه ويغلب على ظننا أن الملك حسين لم يرض به وأنه أهم ما أعاد الدكتور ناجي الأصيل إلى لندن لأجل تعديله، ودليلنا على هذا أنه في أثناء المفاوضة في عقد هذه المعاهدة قد اعتدى على نجد وعسير فأرسل جيشاً احتل (أبها) عاصمة العسير التي كان نزل عنها المرحوم السيد الإدريسي لصديقه سلطان نجد عند عقد المعاهدة بينهما، كما أنه اعتدى على بعض القبائل التابعة لنجد، ولكنه باء بالخيبة والخسران في كلتا الحملتين.

(المادة الخامسة) فيها «يتعهد صاحب الجلالة البريطانية بأن يصد بجميع الوسائل السلمية والممكنة أي اعتداء يقع على بلاد جلالته الهاشمية ضمن الحدود التي تقرر نهائياً».

هذه هي الطامة الكبرى والصاخة العظمى التي صخت مسامع العالم الإسلامي فعلا صراخه في جميع الأقطار وهي إهانة حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ بجعلهما تحت حماية دولة لا تدين الله بدينهما بل هي طامعة في محوه وتنصير أهله. وقد اتفقت الجرائد المصرية والسورية التي ترجمت خلاصة المعاهدة الرسمية على التعبير بعطف الممكنة على السلمية - وعبر بعضها بالفعليلة بدل السلمية - والعطف يقتضي المغايرة فيكون معناها والوسائل الحربية الممكنة أي من برية وبحرية وجوية واحتلال وغير ذلك. وهذا عين ما صرح به فيما يسميه ملك الحجاز بمقررات النهضة فهو قد اشترط فيها على الإنكليز حماية البلاد في الداخل والخارج حتى حال الفتن الداخلية واعتداء الأمراء الحاسدين!!

(المادة السادسة) تنص على تعيين وكيل سياسي بريطاني في جدة ووكيل سياسي حجازي في لندن - وعلى قناصل حجازيين في إنكلترا والهند - وقناصل بريطانيين في جميع سواحل الحجاز.

ونقول إن لذة صاحب الجلالة الهاشمية في هذه المادة أنها من مظاهر فخفخة الملك الصوري، وإلا فأين المصالح السياسية والتجارية للحجازيين في بلاد الإنكليز ومستعمراتهم التي تقتضي بذل النفقات العظيمة لتأسيس الوكالات السياسية والقنصلية في هذه الممالك الواسعة وأين المال الذي ينفق في هذه السبيل؟ أيؤخذ من الضرائب والمكوس على أداء فريضة الحج؟

وأما الإنكليز فلهم مصالح كثيرة في تطويق سواحل الحجاز برجالهم السياسيين والبحريين الحربيين لمراقبة كل ما يدخل في هذه البلاد المقدسة

وما يخرج منها، ولسبر غور هذه السواحل ومعرفة ما يكفي من القوة البرية والبحرية للإحاطة بها عند الحاجة التي يتوسلون إليها عند سنوح الفرصة باسم الحماية الممنوحة لهم من الجلالة الهاشمية المالكة المتصرفة بالدين ومعاهده أو بإسم المحافظة على معاهدهم هذه وعلى رجالهم إذا اعتدى عليها أحد من أعراب البلاد - ولو بدسياسة منهم - وقد عهد في تاريخ الاستعمار البريطاني أن يكون دخول بريطاني واحد في قطر عظيم مقدمة لسلب استقلاله وإذلال أهله لعظمتهم وآخر الأمثلة لهذا قنصلهم في جزيرة البحرين فقد سلب سلطة حكومتها وانفرد بالتصرف فيها وجعل حاكمها الصالح التقي الجاهل أذل من غير الحي والوتد.

ومن دواعي الأسى والحزن أن هذه الحقيقة قد عرفت مثلها ملكة سبأ العربية منذ ألوف السنين ويجهلها صاحب «الجلالة الهاشمية» الذي يظن في أنه أرقى الخلق علماً وخبرة وسياسة وكياسة حتى إن جريدته (القبلة) كانت تدعي أنها تعلم دول أوربة الخطط الحربية بما ينشره من آرائه فيها - والذي يدعي أن حكومته شرعية ويقرأ في القرآن قوله تعالى حكاية عن ملكة سبأ (ان الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) وقد بلغت وصية النبي ﷺ في أمر جزيرة العرب وأهم المراد منها أن لا يقيم في بلاد الحجاز غير المسلمين، ولا سيما الطامعين. وأن دخول تاجر إنكليزي في بلاد شرقية ضعيفة وإقامته فيها ليعد أعظم خطر عليها من دخول ملك فاتح من المتقدمين. فكيف بدخول الرجال السياسيين والحربيين، إذا أعطوا صفات الحماة المحافظين؟ فإذا كان صاحب الجلالة الهاشمية يجهل تاريخ تأسيس أمبراطورية الهند بسعي شركة الجلد البريطانية فإن له في سودان مصر وجزيرة البحرين لعبرة ماثلة إن كان من المعتبرين. وقد بينا من قبل أن الإنكليز قد أسسوا لإدارة سواحل الحجاز وغيره من بلاد العرب محافظة جديدة سموها محافظة البحر الأحمر شرعت في أعمالها بهدوء وخفاء.

(المادة السابعة) - يعترف فيها ملك الحجاز بنظام الحجر الصحي الذي اتخذته الإنكليز في جزيرة قمران لأجل الحجر فيها على حجاج الشرق والجنوب - كما يعترف له ملك الإنكليز «بالتدابير المتممة التي قد تتخذ في جدة أو غيرها من مرافئ بلاد جلالته».

ونقول إن هذه المادة تعترف للإنكليز بما لا تعترف بمثله لدولة مصر الإسلامية، وموضوع هذه المادة أن يكون عملها في مسألة الحجر على الحجاج متمماً لعمل الإنكليز في (قمران) لا مستقلاً، ولا ندرى كيف يكون تنفيذ ذلك وإنما ظاهره يدل على ترجيح ملك الحجاز رفض قبول الحجاج الذين يحجر عليهم في (الطور) محجر الحكومة المصرية الإسلامية وحتم أن يحجر عليهم ولو مرة ثانية في محجره بجزيرة (أبي سعد) مع أن هذا تضيق على الحجاج ليس له مسوغ شرعي ولا فني.

(المادة الثامنة) - يتعهد فيها ملك الإنكليز بأن لا يتدخل في التدابير التي يتخذها ملك الحجاز للاعتناء بالحجاج - ويتعهد ملك الحجاز بأن يعضد المساعي التي يبذلها الرعايا البريطانيون المسلمون لمساعدة الحجاج في الحجاز.

ونقول لماذا جعل ملك الحجاز لملك الإنكليز حقاً في الاعتراف له بالاعتناء بالحجاج إذا لم يكن هذا مبنياً على أن الحجاز داخل في دائرة الأمبراطورية. ثم ما هذا الاعتناء الذي يريده ويرى أنه لا يتم له إلا بإجازة ملك الإنكليز؟ إن الذي يتبادر إلى الذهن إن العناية بالحجاج إنما تكون بتأمين البلاد وتسهيل الطرق وتوفير المياه والعناية بمواد الغذاء والنظافة وتحتيم الاعتدال في أجور الجمال والمساكن - فهل يحتاج شيء من هذا إلى إجازة ملك الإنكليز وهو من أمور الإدارة الداخلية المحضة؟ أم لهذه الكلمة معنى سياسي خفي يراد به التحكم في الحجاج بمصادرة أموالهم وضرب المكوس عليهم، وإذا كان هذا أو ذاك يتوقف على إجازة ملك الإنكليز لأن له رعايا من الحجاج فلماذا لا يتوقف على إجازة سائر الدول

والحكومات التي لها رعايا يحجون كمسلمي الدولة البريطانية، وما وجه تخصيص هذه الدولة بهذا الحق إذا لم يكن منقذ الحجاز والعرب قد جعل كل ما يدخل في ملكه تابعاً لمستعمراتها؟

ثم إن تعهد ملك الحجاز في هذه المادة بتعصيد مساعي الرعايا البريطانيين لمساعدة الحجاج في نفس الحجاز يقتضي أن يقبل منهم بعد إمضاء هذه المعاهدة ما منع منه الحكومة المصرية في هذا العام من البعثة الطبية المرافقة لركب المحمل المصري مع أننا رأينا في الاعتذار له عن قبولها أنه يفتح الباب لغير دولة مصر من الدول غير الإسلامية لإرسال بعثات طبية - فما الذي أباح للبريطانيين ما حرم على المصريين؟ أليست الدولة المصرية الإسلامية، أولى بهذا من الدولة البريطانية؟ إذا لم يكن الحجاز كله تابعاً لهذه الأمبراطورية.

(المادة التاسعة) «تنص على تعيين مبلغ محدود كي يدفعه كل حاج».

ونقول هذا نص صريح في ضرب المكوس على الحجاج بإطلاق. ولا شك في أن هذا محرم بإجماع المسلمين ولا سيما إذا جعل شرطاً لدخول الحجاز لأجل النسك كضريبة جواز السفر ومن يستحله يكون مرتدّاً عن الإسلام - هذا حكمه الشرعي، أما حكمه السياسي فيقال فيه ما قيل فيما قبله لماذا جعل منوطاً بأجازه ملك الإنكليز له دون غيره من ملوك المسلمين وغيرهم الذين تضرب هذه المكوس على رعاياهم؟ أوليس الواجب أن لا يكون في الحجاز نفوذ ولا وجود لأجنبي غير مسلم؟

وماذا يقول ملك الحجاز إذا خاطبته هذه الحكومات بأنه ليس له حق أن يتقاضى من رعاياهن مكوساً بغير اتفاق معهن عليها كما اتفق مع الإنكليز؟ أيجتز بالحماية والوصاية؟ أم يعاملها كما عامل الحكومة المصرية؟

(المادة العاشرة) - في الاعتراف بما لرعايا كل من الحكومتين في بلاد الأخرى من الصفة وهي محملة لا يمكن العلم بما فيها من ضر أو نفع إلا

بعد بيان صفة كل منها وهو لا بد أن يكون مبيناً في أصل المعاهدة.

(المادة الحادية عشرة) وما بعدها إلى (السادسة عشرة) في تفصيل الامتيازات القضائية للإنكليز في بلاد الحجاز وكل ما يتوقعون أن يدخل في ملك حسين بن علي وكلها تنافي الاستقلال التام وتنفيذ الشرع الإسلامي في الحجاز في المسلمين التابعين للدولة البريطانية، وهذه المسألة قد رفض المصريون مثلها في مفاوضة الإنكليز، وقد رفضها الترك وما زالوا يجادلون ويناضلون في مؤتمر الصلح حتى أنقذوا دولتهم من رقعها، وملك الحجاز يقبلها في الحرمين الشريفين من تلقاء نفسه بلا موجب ولا مقتضى ولا مقابلة لها بمثلها، فما أذل هذا الرجل للبريطانيين! وما أعزه وأعظم جبروته وكبريائه على المسلمين!!

(المادة السابعة عشرة) «تعالج الشروط التي بموجبها يعترف صاحب الجلالة البريطانية بعلم الجلالة الهاشمية» وهي جملة لا يمكن بيان الرأي فيها إلا بعد بيان الشروط المشار إليها فيها وستعلم متى نشرت المعاهدة بنصها.

(المادة الثامنة عشرة) تصرح بأنه «لا يجوز لأي الفريقين المتعاقدين الساميين أن يعقد أية معاهدة أو اتفاق مع فريق ثالث ضد مصالح الفريق المتعاقد السامي الآخر».

ونقول إن هذه مادة عادلة في صورتها لما فيها من التساوي وإنما يقال فيها ما يقال في المعاهدة بجملتها وهو أن الإنكليز يقيدون فيها الحجاز ولا يتقيدون معه في شيء بالفعل، كما فعلوا فيما اتفقوا عليه عند حمله على الخروج على الدولة العثمانية، وذلك إن المعاهدات عند أوربة حجة القوي على الضعيف، والإنكليز أبرع الأمم في التفصي من الوفاء بها بالتأويل، كما قال البرنس بسمارك، أو هي عبارة عن عقد شركة بين طرفين متكافئين في القوة كما قال لويدي جورج، وقد لدغ الملك حسين من هذا الجحر المرة

بعد المرة ولا يزال لاصقاً به متعرضاً لتوالي لدغته، فلم يكن له حظ من حديث «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».

(المادة التاسعة عشرة) «تنص على أن لا شيء في هذه المعاهدة يبطل ما قد تعهد به أو قد يتعهد به أحد الفريقين المتعاقدين الساميين بمقتضى عهد جمعية الأمم».

ونقول إن ذكر الفريقين الساميين هنا كغيره من المخدرات التي تخدر أعصاب الملك حسين وتشغله بنشوة توهم مساواته بما يسميه «العظمة البريطانية» فهو ما تعهد بمقتضى عهد عصبة الأمم بشيء وإنما تعهد الطرف الآخر بالانتداب على أعظم بلاد العرب عمراناً وخصباً بالاشتراك بينه وبين فرنسا فإمضاء الملك حسين لهذه المعاهدة يسلبه حق مطالبة الإنكليز بتركها هذا الانتداب على العراق وفلسطين وشرق الأردن أو إلغاء وعد بلفور الداخِل في صك الانتداب والوصاية على فلسطين بمقتضى عهد جمعية الأمم.

(المادة العشرون) في تحديد مدة العمل بهذه المعاهدة وجعله سبع سنين، وهي المدة التي يقدرها الإنكليز لفض المشاكل وحل المعضلات السياسية والاقتصادية التي خلفتها الحرب الكبرى، ولتأسيس قوى الطيران والمواصلات الجوية والحربية في شرق الأردن والعراق ومصر والقوة البحرية ومراكز الدسائس في سواحل الحجاز وغيرها من البحر الأحمر، وهم يعتقدون أن «ملك البلاد العربية» سيضطر بعد هذا كله إلى تجديدها بما هو خير لهم وشر له ولبلاده وقومه منها.

فهذه كلمتنا المجملّة المختصرة في النص الرسمي الذي نشر لخلاصتها وقد كان من المعقول المتوقع أن يضطرب العالم الإسلامي كله لها ويستنكر ما فيها من تدخل دولة غير مسلمة في مهد الإسلام المقدس بالحماية والامتيازات السياسية والقضائية والحماية وما تقتضيه من الخزي والنكال.

ولكن العجب العجاب أن يشذ مسلمو سورية وفلسطين وحدهم عن سائر المسلمين إذ لم نر لهم قولاً ولا احتجاجاً في استنكار شيء منها إلا ما أنكره أهل فلسطين وهو ما يخصهم من تضمن المعاهدة لإقرار الانتداب وما فيه من عهد بلفور، كأن حرم الله تعالى وحرم خاتم رسله ﷺ لا قيمة لهما عند أحد من مسلمي تلك البلاد؟ ولماذا يطالبون العالم الإسلامي أن يهتم بأمرهم لمكان المسجد الأقصى منه وهو في المرتبة الثالثة؟

فيا ليت شعري هل جهل علماءهم ومديرو جرائدهم ومحرووها ورجال الشرع والقوانين فيها ما فهمه المصريون وغيرهم من معناها، أم هم يرون أن للملك حسين أن يتصرف في دين الله ومعاهدته المقدسة بما شاء وإن خالف أحكام الشرع المجمع عليها وكرامة الإسلام ومشاعره العظام بشرط أن لا يقر وعد بلفور عند بعضهم؟

فإذا كانوا لا يرون في هذه المعاهدة منكراً شرعياً ولا خطراً سياسياً إلا تضمنها لوعده بلفور فليبينوا لنا خطأنا فيما فهمناه نحن وغيرنا من المسلمين، وإلا فليرفعوا أصواتهم في إنكار هذا المنكر، ولهم أن يسلكوا في التعبير الطريق الذي يفضلونه، والأسلوب الذي يرجحونه، ولا يغفلوا عن كون سكوتهم عاراً عظيماً عليهم، وتأييداً لمرتكب المنكر وتجربة له على الإصرار عليه، بل الأمر أعظم من ذلك هو إقراره مع أولاده على القضاء على استقلال بقية البلاد العربية، حتى الجزيرة التي عزت على جميع الفاتحين من قبل. ولقد كان استعبادهم لمصر والسودان وحماية فرنسة لمملكة مراكش وسلاطينها أولاد عم شرفاء مكة بما هو دون تداخل الإنكليز في البلاد العربية الآن بمعاونة هؤلاء الإشراف والزعماء فليتبذر العقلاء أصحاب الغيرة على أمتهم ودينهم.

نص البيان الذي أصدره المؤتمر الفلسطيني السادس عن المعاهدة

«يعلن المؤتمر العربي الفلسطيني السادس المنعقد في يافا رفض مشروع

المعاهدة التي نشرت حكومة فلسطين خلاصتها رسمياً بتاريخ ٥ حزيران سنة ١٩٢٣ وفيها أن المعاهدة لم تبرم نهائياً وأن المفاوضات بشأنها بين جلالة الملك حسين وحكومة بريطانيا العظمى جارية حول تعديلات طفيفة لا تزال مجهولة وأن هذا المؤتمر الممثل للأمة العربية الفلسطينية يرفض كل مشروع لا يضمن لها في وطنها المقدس مطالبها العادلة المعلومة التي ذكرت تأييدها المؤتمرات السابقة من استقلال البلاد وإلغاء السياسة الصهيونية الفاضحة وقد أبرق المؤتمر بذلك إلى صاحب الجلالة الهاشمية.

قبل هذا النص بعد حوار قليل وبعد أن زيد في آخره ما اقترحه السيد عمر البيطار من ذكر البرقية التي ارسلت لجلالة الملك حسين.

صورة البرقية التي اقترح هذا المؤتمر إرسالها إلى الملك حسين

«حاولت حكومة فلسطين نحو السرور الذي أحدثته برقية جلالته التبشيرية بنشرها مشروع المعاهدة الإنكليزي المناقض للبرقية فاغتم الأهالي ودعت الحالة لجمع مؤتمر عام بيافا فقرّر عرض الشكوى لأعتابكم التي لا يمكن أن تقبل مثل هذا المشروع ولن يقبله فلسطيني ما دام فيه رمق حياة واسترحام التفضل على أهل البلاد باطلاع ممثليها على ما يتعلق بهم في المعاهدة قبل إبرامه نهائياً لا زلتم للقضية العربية بجميع وجوهها وقبله إجلال العرب واحترامهم».

فجرت مناقشة طويلة في نص البرقية وأخيراً تقرر قبولها بعد أن اقترح السيد عيسى العيسى زيادة «سيما فيما يتعلق بفلسطين» بعد جملة مشروع المعاهدة الإنكليزي المناقض للبرقية وزيادة كلمة «الإسراع» بعد الاسترحام.

وقد أجاب الملك حسين عن هذه البرقية ببرقية هذا نصها «حسنوا الظن» وكيف يحسن العاقل الظن بالأمر المعلوم ضرره وفساده بالقطع؟

صورة البرقية التي أرسلها المؤتمر

إلى رئاسة الوزارة، وزارة الخارجية، وزارة المستعمرات. رئاسة مجلس الأعيان، رئاسة مجلس النواب والجمعية الوطنية السياسية بلندن.

«قرار المؤتمر العربي الفلسطيني السادس المنعقد في يافا والممثل للأمة رفض مشروع المعاهدة الانكليزية المقدم لجلالة الملك حسين والذي نشرت حكومة فلسطين خلاصته لأنه مخالف للعهد المقطوعة للعرب ولحقوق الشعب الفلسطيني ومطالبه بإلغاء السياسة الصهيونية وبتأسيس حكومة وطنية نيابية مستقلة. والأمة ترفض كل مشروع لا يضمن جميع مطالبها وقد أبرقنا بهذا لجلالة الملك حسين».

بيان اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني بمصر في شأن المعاهدة الذي نشرته في الجرائد

«عقدت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني جلسة فوق العادة في ٢٠ يونيه ١٩٢٣ للبحث في حظ الوطن السوري من المعاهدة البريطانية العربية التي قررت مبدئياً ولا تزال موضوع المفاوضة النهائية بين مكة ولندن. وبعد البحث والمناقشة في الخلاصة الرسمية التي نشرتها حكومة فلسطين أخيراً لهذه المعاهدة تقرر بالإجماع إصدار البيان الآتي:

إن المادة الثانية من هذه المعاهدة تنص على إصرار الحكومة البريطانية على موقفها الحاضر في فلسطين. ولم تعترف لأهلها العرب فيها بحق من الحقوق السياسية والقومية غير ما تضمنه صك الانتداب وعهد بلفور من الحق السلبي وهو أن لا يجري في البلاد ما يححف بحقوقهم المدنية والدينية.

وتنص أيضاً «على اعتراف صاحب الجلالة الهاشمية بالمركز الخاص الذي لصاحب الجلالة البريطانية في العراق وشرق الأردن وفلسطين».

«ثم أن المادة التاسعة عشرة تنص على أن لا شيء في المعاهدة يبطل أي عهد تعهد أو قد يتعهد به في المستقبل أحد الفريقين المتعاقدين بمقتضى عهد جمعية الأمم .

«ولا يخفى أن المركز الخاص المشار إليه وهو ما يسمونه الانتداب الذي كان صاحب الجلالة الهاشمية يأبى الاعتراف به قبل هذه المعاهدة فنصت على اعترافه به فيها بأسلوب سياسي في كل من العراق وشرق الأردن وفلسطين كما انطوت على الاعتراف ضمناً بتجزئة سورية وبوعد بلفور في الوطن القومي لليهود .

«ومن المعلوم أن مجلس جمعية الأمم قرر انتداب فرنسا على سورية الشمالية (سورية ولبنان) وانتداب انجلترا على سورية الجنوبية (فلسطين وشرق الأردن) فالانتداب باق إذن على حاله لا تنقض هذه المعاهدة شيئاً منه .

«فاللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني الأمانة على ما قرره مؤتمر جنيف من طلب الاعتراف باستقلال البلاد وإعلان إلغاء الانتداب تصرح بأن كل اتفاق وكل معاهدة تتضمن ما يخالف هذه القرارات في الوطن السوري هي باطلة في نظر أهله الذين لا يقبلون شيئاً يخالف حقوقهم الطبيعية والشرعية في تقرير مصيرهم .

«فبناءً على هذا لا تكون هذه المعاهدة مقيدة أهل سورية وفلسطين ولبنان بحق لأحد فيها، ولا بقيد تتقيد به الأمة، ولا بمخلية للطرفين المتعاقدين ولا للحلفاء ولا للولايات المتحدة مما كانوا صرحوا به لأهل هذه البلاد في ضمن البلاد العربية المنفصلة عن تركيا من حق الاستقلال وتقرير المصير .

«لتحيا سورية حرة مستقلة»

(المنار) اتفقت الأحزاب والجماعات والصحف العربية على أن المادة

الثانية من هذه المعاهدة صريحة في استثناء فلسطين من الاستقلال الخادع المذكور في المادة الأولى وجاءت البرقية الإنكليزية من لندن مصرحة بهذا ولكن الملك حسيناً لا يزال يصرح في قبلته بما أراد أن يقنع به أهل فلسطين وغيرهم بخلاف ذلك. وهذا الإصرار من أغرب وقائع عناده المعهود، وأغرب منه إصرار دعامة المأجورين في فلسطين على وجوب الاعتصام بحبله غير المتين، بغير حياء ولا خجل من العالمين، وحجة بعضهم أن نيته حسنة في هذا كما كانت حسنة في مساعدة الإنكليزية على فتح بلادهم وتهنتهم به، فليهنثوا بسياسة حسن النية، وسياسة الصوفية؟!

خطاب مفتوح من روح الإسلام

والجامعة العربية إلى الشعب الانكليزي
والحكومة البريطانية



١٥٤

[المنار ج ٢٤ (١٩٢٣) ص ٤٤١ - ٤٤٨]

فعلتم ما فعلتم في الدولتين العثمانية والإيرانية، وكدتم ما كدتم للشعوب العربية، فتركوا لنا قبلة صلاتنا، ومشاعر حجنا، وأمهات مساجدنا، وقبر نبينا، ولا تحسبوا أن الفرصة قد سنحت لكم للقضاء على ديننا، كما حسبت حين أردتم القضاء على دولنا، اغتراراً بقوتكم وضعفنا، واجتماعكم وتفرقنا، فرب قوة أحالها الغرور ضعفاً، ورب ضعف أعطاه اليأس قوة وبأساً.

أردتم استعباد الشعب الأفغاني بفرصة زوال المعارضة الروسية، فحررتهم وأنتم كارهون، وأردتم استعمار بلاد الشعب الفارسي بفرصة الحرب العظمى فغادرتهم وأنتم عاجزون، وأردتم إماتة الشعب التركي

بفرصة انكسار دولته فأحييتموه وأنتم مرغمون، وخذعتم أكثر رؤساء الشعب العربي بالأموال، والتغريز بالوعد والآمال، فسترون سوء العاقبة والمآل، وأنتم الغارمون الراغمون، إلا أن ترجعوا عن سياستكم فيهم، قبل أن يخرج الأمر من يديكم، وأنتم بذلك جديرون.

اغتر العرب بوعدوكم، ووثقوا بعهودكم، ووالاكم بعضهم على أهل دينهم، وساعدوكم على احتلال أخصب بلادهم، فكان جزاؤهم منكم، شراً من جزاء من قاتلوكم بسيوفهم ومدافعهم، ولم تقفوا عند حد في النكاية بهم، واتخاذ الوسائل للاستيلاء على جزيرتهم، بعقد المعاهدات السياسية والامتيازات في بلادهم، وإلقاء العداوة والشحناء بين الشافعية والزيدية في اليمن، وبين السنية والشيعة في العراق ونجد، وبتجديد شعوب آشورية وكلدانية في العراق، لعدم نجاح إلقاء الشقاق بين العرب والإكراد، وبإيجاد شعب يهودي في فلسطين، يعادي أهلها في أمري الدنيا والدين، وأنتم مع هذا تمنون على العرب بتحريرهم من الرق، وإنقاذهم من الترك، وتطالبونهم بالحمد والشكر، لأنهم في نظركم قوم لا يعقلون، «كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون» [سورة التكاثر رقم ١٠٢ الآية ٣-٤].

ولم أر ظلماً مثل هضم ينالنا يساء إلينا ثم نؤمر بالشكر

لقد جئت أيتها الحكومة البريطانية في فلسطين، بمثار شرور لم يأت بمثله أحد من الظالمين، ألا وهو محاولة انتزاع شعب من وطنه أو وطن من أهله، وإحلال شعب آخر في محله، وإيقاد نار العصبية الدينية بين اليهود والعرب وسائر الأمة الإسلامية، ومن يشايعها من الشعوب المسيحية، فإن غرض اليهود من تجديد ملكهم في هذه البلاد، لا يتم إلا بالاستيلاء على المسجد الأقصى لإعادة هيكل سليمان، وإذا تمت لهم القوة لا يأمن المسلمون أن ينسفوه نفساً، فيذروا أرضه قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ثم يبنوا بأنقاضه هيكلهم، ويذبحوا لدى صخرته قرايينهم، فإذا عجز أهل

فلسطين عنهم، بنصركم إياهم وحمايتكم لهم، فماذا يفعل سائر العرب والعالم الإسلامي بقوله تعالى «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى»؟ ثم ماذا يفعلون بما ورد في الأحاديث النبوية التي لا أذكرها لكم، لئلا تدعوا أنني أريد بها الإغراء الذي تطرق سياستكم أبوابه، وتمهد له أسبابه، على أنها مشهورة في كتب السنة، التي يتداولها جميع علماء الملة؟

أما يكفيكم رفع علمكم وعلم اليهود حيث ثالث الحرمين، وأولى القبلتين، حتى عمدتم إلى جعل الحرمين الشريفين تحت سيادتكم، ومهانين بالعدول عن تأمين الله لهما إلى تأمينكم وحمايتكم؟

أما ترحمون هذا الشيخ الكبير المستبد برأيه، المغرور بنفسه، المحتقر لقومه وأهل ملته بالافتيات عليهم، بالتصرف بمهد دينهم وقبلة صلاتهم بدون إذنهم، الذي ضحى نفسه في سبيلكم، غروراً بوعدوكم وعهودكم، فأصبح عدواً لأمرء الجزيرة، ومضغة في أفواه مسلمي المعمورة، تنبزه أفواههم وأقلامهم بالألقاب، ويكيلون له الذم والتثريب بغير حساب، بما والاكم ونصركم، وجعل ما لا يملك من بيت الله تعالى وقبر رسوله ﷺ تحت وصايتكم؟ وتعهده ببذل ما جعلتم له من النفوذ الصوري على تأييد نفوذكم في الحرم الثالث (الأقصى) وفي العراق، حيث مشاهد آل بيت الرسول عليه وعليهم السلام، وإقراركم على الوفاء لأحلافكم الفرنسيين في استعمار سورية؟ وهل يكفيهم من جزائكم على ذلك اعترافكم له بتسميته لنفسه بملك العرب، وقد جعلتموه به عدواً لمسلمي العرب والعجم؟ وهل العرب من رعاياكم، حتى تولوا عليهم من شئتم من صنائعكم؟

أيها الشعب الإنكليزي الحكيم! اعلم أن حكومتك الحاضرة، إنما تضع الألغام لنسف ما شيدته لك حكوماتك الغابرة، اعلم أنها تصطنع ثلاثة رجال تعادي بهم ثلاثمائة مليون، اعلم أن نصبها حسين بن علي ملكاً على الحجاز لا يعطيه من السلطة الشرعية المطلقة ما يجعل له أدنى حق أو امتياز

فيه، اعلم أن سيد العرب والعجم، وخاتم رسل الله إلى جميع الأمم، لم يجعل لنفسه حقاً بأن يحتجر مكاناً صغيراً في (منى) من أرض الحرم، يتخذ فيه مظلة تقيه حر الشمس، ولما سئل ذلك قال «منى مناخ من سبق»، ومقتضاه أنه إذا جاء نفر من حجاج الصين وسبقوا إلى النزول في المكان الذي ينصب فيه أمير مكة - أو ملك الحجاز - خيامه فليس له أن يخرجهم منه، أفيملك أن يجعل لغير المسلمين حق حمايته أو أدنى امتياز فيه؟؟ كلا إن كل ما تعقدونه معه في ذلك سيكون قصاصة ورق، لا يملك تنفيذه أحد.

بل اعلم أيها الشعب الحكيم وأعلم حكومتك بما لا يمكن أن تعلمه حق العلم إلا منك؛ لأنها تحتقر جميع البشر من دونك: لا أقول أعلمها بأنه لا يوجد مسلم قوي الإسلام ولا ضعيفه يرضى بأن يكون لأي دولة غير مسلمة أدنى سلطة أو نفوذ أو امتياز في الحجاز، أو يجوز لمن نصبتموه ملكاً عليه أن يعقد معكم أي عهد أو اتفاق على شيء من تلك البلاد، أو يسكت له على ذلك أو على فرض الضرائب على الحجاج، أو على جعل حكومته دولة حربية تعادي من تشاء وتوالي من تشاء.

لا أقول لك أيها الشعب الحكيم أعلمها بذلك، فأنها تعلمه، ولكنها لا تبالي بعاقبته - بل أقول لك اعلم وأعلم حكومتك بالحقيقة التي لعلها لم تعلمها ولم تسمع بها قبل هذا الخطاب.

أقول لك اعلم وأعلم حكومتك أن العالم الإسلامي لا يرضى لمهد دينه وموضع إقامة شعائره إلا أحد أمرين لا ثالث لهما.

(أحدهما) أن يكون الحجاز في كفالة خليفة المسلمين عندما تتجدد الخلافة الإسلامية على وجهها الشرعي ويباع الخليفة أهل الحل والعقد من أمر المسلمين الحاكمين وزعماء بلادهم في جزيرة العرب وغيرها من البلاد الإسلامية الحرة على السمع والطاعة بشروطها الشرعية، ويكون له دولة قوية تستطيع حماية الحجاز وغيره بقوتها الذاتية، وهذا ما يجب على

المسلمين السعي إليه وقد شرعوا فيه، ولا يعلم غير الله متى يدركونه، وإنما نعلم كما تعلم الحكومة البريطانية أنه لن يرضى شعب من الشعوب الإسلامية أن يكون حسين بن علي بن عون خليفة للمسلمين، وإن لقبه ابنه عبد الله أو جميع أولاده وصنائعهم بأمر المؤمنين.

(الثاني) أن يكون الحجاز قطراً سلمياً على الحياد باعتراف جميع الدول الإسلامية وغير الإسلامية: لا يعتدي ولا يعتدى عليه، ولا يقاتل ولا يقاتل، ولا يكون لفرد من الأفراد ولا لشعب من الشعوب ولا لدولة من الدول امتياز فيه. وأن تكون له حكومة إسلامية شورية لحفظ الأمن، وإقامة العدل، وتسهيل سبل الحج، وتعمير البلاد، وتنفيذ مضمون قوله تعالى «سواء العاكف فيه والباد». وأن يكون لهذه الحكومة مجلس شورى مؤلف من أشرف الحجاز وعلمائها بالانتخاب، ومن أعضاء مختارين من علماء جميع الشعوب والأقطار التي تحج بيت الله الحرام، وتزور حرم رسوله عليه وآله الصلاة والسلام، - كاليمن وعسير ونجد وسورية والعراق ومصر وسائر أقطار أفريقية والترك والفرس والأفغان والهند وجاوه والصين - وأن يكون لهذه الحكومة حرس مؤلف من الحجازيين ومن جند الحكومات الإسلامية المستقلة، التي لا سيطرة فعلية عليها لدولة أجنبية، كحكومات جزيرة العرب والترك والفرس والأفغان ومصر (التي سيتم استقلالها في هذا العام بمشيئة الله).

وهذا هو الممكن الآن الذي يجب على العالم الإسلامي أن يبادر إلى السعي إليه، ووضع النظام له والسعي لتنفيذه، وهو فاعل إن شاء الله تعالى، وحينئذ تعلم الدولة البريطانية إن لم تعلم اليوم أن سمساراً اسمه (ناجي الأصيل) لا يستطيع أن يضع معاهدة بين حسين بن علي موكله وبين وزارتي المستعمرات والخارجية البريطانيتين في شأن الحجاز وبلاد العرب بحيث تنفذ على الأمة العربية والشعوب الإسلامية كلها، وتذل رقاب ٣٠٠ مليون من المسلمين لها.

لقد أسرفت الحكومة البريطانية في احتقار العالم الإسلامي اذ ظنت أن خضوع هذا الرجل وأولاده لها يجعلها قيمة ووصية على البلاد الحجازية، وسيدة للأمة العربية، وستعلم وتعلمون أن هذا الاحتقار، وما يبنى عليه من الأعمال، لن يفيدوها إلا إسراف العالم الإسلامي كله في عداوتها، ويضل سعيها في حمل ناجي الأصيل على بوارجها الحربية وغير الحربية، في سبيل استخدامها إياه بين لندن ومكة.

سيعقد مؤتمر إسلامي حر يقرر أمر الحجاز وحكومته وحرسه على القاعدة التي أشرنا إليها، إذ لا سبيل إلى انقاذه وحرية بدونها، وسيبلغ قراره لحكومة الحجاز الحاضرة ولجميع الدول ولا سيما ذوات الرعايا من المسلمين. ولا يسع الدولة البريطانية حينئذ إلا أحد أمرين: إما نصر صنيعتها حسين بن علي بن عون، الذي تعهدت بحماية الحجاز له لتكون لها السيادة على الحرمين الشريفين، إن لم تكن بإبرام المعاهدة الجديدة، فيما يسميه هو مقررات النهضة المعروفة^(١) - وإما النزول على إرادة العالم الإسلامي وانتظار حكمه، تفادياً من إظهار عداوتها له ولدينه. أفليس الخير لها أن تنفض يدها من هذه المعاهدة وأمثالها اختياراً، قبل أن تضطر إلى إقرار إحدى الخطتين اضطراراً؟

ثم اعلم أيها الشعب الإنكليزي الحكيم أن كل ما تنفقه حكومتك الحاضرة من أموالك لأجل السيطرة على بلاد العرب واحتكار خيراتها ستضيع كما ضاعت الأموال التي بذلتها في سبيل الحجاز، فإياكم أن تتبعوها فتبدلوا أموالكم في تأليف الشركات، لما عقدته أو تعقده لكم في جزيرة العرب من الامتيازات، فإنكم لن تنالوا من هذه الامتيازات - والحالة هذه - إلا الخسار.

(١) أن من مواد مقررات النهضة التي بنى عليها أمير مكة ثورته أن تكون البلاد العربية وفي مقدمتها الحجاز بمنزلة القاصر في حجر الدولة البريطانية وأن على هذه الدولة حمايتها في الداخل والخارج حتى في قمع الفتن والثورات الداخلية والأهلية.

أيها الشعب الإنكليزي العاقل! إن حكومتك تعلم أن صاحب هذا الخطاب صدوق لا يكذب، وصريح لا يخدع ولا يختل، فإنه بين لرجالها خطأهم في المسألتين العربية والإسلامية قولاً وكتابة، وظهر لها صدق أقواله، وصواب آرائه، ولكن لم تعمل بها، لمخالفتها لأهوائها ومطامعها، فإذا رأت تأثير هذا الخطاب في شعبها، فستقول له إنه خطاب عدو لها، وما هو بعدو لأحد ولكنه صديق لأمته وملته، ويرى أن من الممكن أن يكون الشعب الإنكليزي (ودولته من ورائه) صديقاً لهما أيضاً، ويرغب كغيره من عقلاء الأمة في ذلك، ويعلم أن رجال هذه الدولة يعرفون الوسيلة المثلى لتحقيق هذه الصداقة ولا يتغونها، وأن كانوا يدعونها، لأنهم ألفوا سياسة قديمة لا يتركونها، ولكن الشعب الإنكليزي إذا عرفها، فلا يعز عليه أن يوجدها، لأن من عادته أن يساير طبيعة الاجتماع لا أن يعاندها، وسأبينها له في خطاب آخر كما بينتها لحكومته من قبل في مذكرات آخرها (مذكورة في بيان رغائب العرب والمسلمين السياسية) ارسلتها إلى الوزير لويد جورج في يونيو سنة ١٩١٩ وحملها إليه رجل من كبار الإنكليز: سأذكر خلاصتها لكم، فإما أن نجد فيكم من يقدر أن يجمع بين مصلحتنا ومصلحتكم، وإما نياس منكم كما يشنا من حكومتكم، والياس إحدى راحتين: والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.

صاحب المنار الإسلامي

محمد رشيد رضا

[المنار ج ٢٤ (١٩٢٣) ص ٥٩٣ - ٦١٨]

موقفه الحاضر، سلطته ومخالفته دولة مسيحية على أن تحمي الحجاز وتمتاز فيه على المسلمين، ضربه الضرائب على الحجاج، ومصادرة أموالهم، ومنعه من شاء أن يحج بيت الله، صفات سلطته، خدعة استقلاله. صفته الحقيقية وحكم الشرع فيها. الوحدة العربية. ما يجب على المسلمين في أمر الحجاز.

استفتينا في هذه المسائل قولاً وكتابة في الجرائد كما استفتي غيرنا فوجب علينا أن نجيب بما نعلم فيها إذ لم نر أحداً أجاب عنها كلها، وقلما يوجد من أحاط بما أحطنا به منها، فنقول:

موقفه الحاضر

أسرف حسين بن علي المتغلب على الحجاز في استبداده، وفي احتقاره للعالم الإسلامي كله كاحتقاره لأهل الحجاز المستضعفين، وحسب أن حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ ملك له يتصرف فيهما كما يشاء ويستغلها كيفما أراد، وأنه متى نال تعضيد الدولة البريطانية وحماتها، لا يبالي بأحد من دونها، بل هو يعد الحجاز وسائر بلاد العرب جزءاً من امبراطوريتها - ورضي أن يكون هو وولده فيصل وعبدالله من عمالها، بدليل أنه طلب منها مراراً أن تولي غيره، وتختار له ولأولاده مكاناً آخر يقيمون فيه، ونشر ذلك في جريدته (القبلة) وسيجيء نص عبارته في ذلك (وإن سبق نشره في المنار).

والأصل في هذا عندما يسميه «مقررات النهضة» وهي ما اشترطه على الإنكليز للقيام بالثورة والخروج على الدولة، ومنها حماية الإنكليز للبلاد في

داخلها وخارجها، حتى في حال الفتن الداخلية بين أهلها. ومنها الاعتراف بجعل الأمة العربية في حكم القاصر في حجر الدولة البريطانية، وقد كان يكتّم هذه المقررات حتى نشرها ولده فيصل في دمشق الشام، فلما رأى أنه لم ينكرها عليه أحد من المسلمين غير صاحب المنار، توهم أن العالم الإسلامي لا يهتم بأمر الحجاز، أو لا يتجرأ على إنكار شيء تتفق عليه الجلالة الهاشمية مع العظمة البريطانية (هذا تعبيره) حتى بدا له في هذه الأيام ما لم يكن في الحسبان.

تلك «المقررات» كانت قد دارت في شأنها مكاتبات بينه وبين السر هنرى مكماهون الذي كان يسجل عليه كل ما اعترف به من الحقوق للدولة البريطانية ويتحفظ من التصريح له بما طلب لنفسه من توليته على جميع البلاد العربية في ظل الوصاية البريطانية، فاستثنى منها معظم سورية الشمالية وكيكسية، واحتفظ بحقوق بريطانية في العراق - إلى آخر ما هنالك - وقد نشرنا هذه المكتوبات بنصها في مجلد المنار الثالث والعشرين، وسنذكر بعضها هنا ونرى أنه لولا السكوت فيها عن استثناء فلسطين من الدخول في المملكة العربية التي وعد بها لنفذت تلك المقررات الموبقات، ولكن رغبة الإنكليز في حمل الملك حسين على الاعتراف لهم بفلسطين وما يلزمه من إقرار وعدهم لليهود بجعلها وطناً قومياً لهم، هي التي دعتهم إلى وضع معاهدة بينهم وبينه يعترف لهم فيها بفلسطين كالعراق وشرق الأردن، ويلطفون فيها ما يذكر بشأن حماية البلاد العربية كلها، فلا يكون صريحاً كمقررات النهضة المحتفظ بها.

طال أمد المراجعة والمناقشة في هذه المعاهدة إذ كانت توضع بصيغة فاضحة مفضوحة ليس للملك حسين فيها ما يرضاه ثمناً لخزي ما يعترف به، حتى أُتيح للإنكليز أن يضعوا مع سمساره الدكتور ناجي الأصيل الصيغة الراضية المرضية عنده التي قام لها الاحتفالات في بلاده وأعلن الرضى بها واتخذ يوم الاعتراف بها عيداً قومياً وقبل التهاني عليها، ولقب

بملك البلاد العربية ومؤسسها!! وأراد خداع أهل فلسطين بأنه أنقذهم بها من اليهود كما أنقذ الحجاز وسائر البلاد العربية من الترك لأجل إخماد الحركة الوطنية فيها، وهددهم بإلقاء المسؤولية عليهم إذا حصل ما يوجبها في البلاد - فنشرت السلطة البريطانية الحاكمة في فلسطين خلاصة المعاهدة فكان هذا سبباً لإطلاع الناس كافة على سر المعاهدة المكتوم، فماذا كان من تأثيره؟

هَبَّ أهل فلسطين فعقدوا مؤتمراً عاماً احتجاجوا فيه على المعاهدة وقرروا أنه ليس للملك حسين أن يعقد معاهدة يتقرر فيها شيء في أمر بلادهم بدون رأيهم ولا رضاهم، وهَبَّ مسلمو مصر وغيرها من الأقطار ينكرون على الرجل أن يكون له حق في عقد معاهدة تجعل الحرمين الشريفين تحت حماية دولة نصرانية أو تجعل لرعاياها أدنى امتياز في الحجاز، فما فعل المعتدي المفتات؟

كتب إلى الفلسطينيين يرجوهم أن يحسنوا الظن به ويفوضوا الأمر إليه - وهزىء وتهكم بإنكار المصريين عليه فرد عليهم في جريدته (القبلة) معبراً عنهم بكلمة «أخو ثومها وبصلها» فلما اشتد الإنكار والاحتجاج منهم بغيرة الدين أصدر منشوراً رسمياً جمع فيه بين تجهيلهم والتهكم بهم، وبين التعريض برميهم بالكفر بما وضعوا من الدستور لحكومتهم، كما كَفَّر الترك وحكومتهم من قبل بمثل ذلك. ولكن أكثر المصريين لم يفهموا مراده هذا من منشوره لفساد لغته، وعدم علمهم برأيه في القوانين والعاملين بها. فاشتغلوا بالتهكم بعبارته كما تهكم بهم بالإشارة إلى قول الشاعر:

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار

ذلك بأن جريدة القبلة كانت قد نشرت مقالة في تكفير الدولة العثمانية في أول العهد بالثورة الحجازية، لتكون من حجج أمير مكة العثماني بالخروج على دولته. ثم أعادت نشرها في أوائل هذا العام الهجري عندما

اشتد النزاع بين الحكومة التركية الجديدة والحكومة البريطانية انتصاراً من الملك الحجازي لدولته الحامية له، واستدلت على كفر الترك بوضعهم للقانون الأساسي وبين أيديهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن وجوه استدلالها أن القانون الأساسي يوجد الحرج من حكم الرسول ﷺ والله تعالى يقول «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً» بل زعمت أنه لا يمكن لمن يزعم أنه يؤمن بما أنزل على محمد ﷺ التردد في حصول الحرج مما قضاه «في الذين ألفوا القانون الأساسي وسنوا أحكامه ورضوه وارتضوه وجعلوه دستوراً للأعمال والأحكام. ولا مشاحة والحالة هذه في أنهم لا غاية ولا قصد لهم من اعتنائهم بجمعه وتنسيقه إلا دعوى أن هنالك نقصاً أو خطأ - والعياذ بالله تعالى - في كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه وسلامه فأرادوا إكمالها وتعديلها وإلا فلماذا؟».

هذا أحد نصوص جريدة القبلة في تكفير الترك بوضع الدستور وهو يتضمن تكفير من لم يكفرهم به. ثم استدلت أيضاً بعدم اقامتهم لحدود الزنا والسرقة للقصاص الشرعي ومن شاء فليراجع العديدين ٦١٧ و٦٢٤ من جريدة القبلة أو المقالات التي رد عليها بها (السيد العلوي) ونشرت في جريدة الأخبار المصرية في شهري صفر وربيع الأول من هذا العام ومنه يعلم مغزى استفتاء تهكم بلاغة عسلطته^(١) الهاشمية (ويا للأسف) في قوله «تأليف الدستور - وبين أيديهم كتاب الله وسنة رسوله».

وبعد أن بين للمصريين مكائنتهم من الدين عنده أراد أن يبين لهم مكانة حكومتهم لدى جلالته، وقدر استقلالها في جنب استقلاله، فعارضها في إرسال بعثة طبية مع الحجيج المصري تنقص من استغلاله، وكان يقدر أنها تخضع لعزة سلطانه كما خضعت في مسألة الحجر الصحي،

(١) العسلطة الكلام الذي لا نظام له، وتكرار الإضافات هنا تعريض بأسلوبه.

ولم يخطر بباله أن تفعل ما فعلت، أما وقد فعلت فكل شيء أسهل عليه من الرجوع عن قول قاله أو رأي ارتآه وعرفا عنه، لذلك أقدم على المشاكسة التي أدت إلى حرمان ركب المحمل الرسمي مع بعثه الطبي من أداء فريضة الحج وحرمان أهل الحجاز مما كانوا يربحونه منهم بغير مبالاة بسوء العاقبة وقبح الأحدث.

فهذا ملخص موقف الرجل في الحجاز: إصرار على عقد المحالفة مع الإنكليز، وتعجيل بما أباحته له من ضرب الضرائب على كل من يريد الحج إلى بيت الله الحرام قبل دخول الحجاز، ومصادرة لأموالهم بعد دخوله، واستبداد في أمر صحتهم، ومنع لمن شاء من الحج لأسباب سياسية أو مالية أو وهمية، كما منع أهل نجد عدة سنين.

صفات سلطته في الحجاز

وأما سلطته فلها أربع صفات: (الأولى) صفته عند الإنكليز ومن اعترف بحكومته من الإفرنج وهو أنه ملك مطلق ذو حكومة شخصية مستبدة فكل ما يعقدونه معه من اتفاق أو عهد أو امتياز يكون نافذاً، ولهم أن يطالبوا به من بعده وإن تغير شكل الحكومة الحجازية، وهم في هذا مخطئون.

(الثانية): صفته في نظر جمهور العالم الاسلامي وهو أنه خارجي متغلب خرج على سلطانه وخليفته كما يخرج البغاة وسيأتي بيان حكم الشرع في ذلك.

(الثالثة): صفته في نظر أهل الحجاز وهو أنه ملك مستبد قاهر أزال سلطة حكومتهم السابقة فاضطروا إلى مبايعته ولكنهم اشترطوا فيها شرطاً عاهدوه عليه فنكث، فهم الآن في حلٍّ من مبايعته شرعاً، ولكنه متغلب عليهم بالقهر وإن سمي نفسه «منقذاً» ويتمنون أن يقيض هم الله تعالى من ينقذهم من هذا (المنقذ).

وإننا نعيد هنا نص المبايعة الرسمية له كما وضعت في العريضة التي كتبها قاضي القضاة وقرئت في حفلة المبايعة في غرة المحرم سنة ١٣٣٥ منقولة عن جريدة القبلة التي صدرت في ٣ المحرم من ذلك العام وهو:

وإننا نباع سيدنا ومولانا الحسين بن علي ملكاً لنا نحن العرب يعمل بيننا بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ونقسم له على ذلك يمين الطاعة والإخلاص في السرّ والعلانية، كما إننا نعتبره مرجعاً دينياً لنا أجمعنا عليه ريثما يقر قرار العالم الإسلامي على رأي يجمعون عليه في شأن الخلافة الإسلامية.

نبايعك على هذا يا صاحب الجلالة ونقسم لك بالله العظيم على طاعتك والرضا بك والانقياد اليك في السر والعلانية. ولك علينا في ذلك عهد الله وميثاقه ما أقمت الدين، واجتهدت فيما فيه صلاح العرب والمسلمين «فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً» اهـ.

ومن البديهي أنه ما أقام الدين ولا يستطيع أن يقيمه لأنه جاهل به وبلغته التي يتوقف فهمه عليها بدليل فساد لغة مكتوباته واشتمالها على الأحاديث التي لا أصل لها وعلى تحريف القرآن - والعمل يتوقف على العلم - ولأنه مستبد والدين قيد الحكام بالشرع والشورى - ولأنه جعل لغير المسلمين في الحجاز نفوذاً وامتيازات مخالفة لأحكامه ولوصية الرسول ﷺ في مرض موته ولأنه ضرب المكوس على الحجاج بدون مسوغ شرعي كما تقدم - إلى غير ذلك من مظالمه واستبداده.

(الرابعة) صفته عند ولده الأمير عبدالله وبعض رجال حكومته وهي أنه أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، ولديه هو في هذا صحيفة معلقة في ديوانه الهاشمي فيها أسماء مئات من أحياء السوريين وأمواتهم قد بايعوه فيها بالخلافة جاءه بها أحد سماسرته في أيام مشاركة الجيش الحجازي لجيوش

الحلفاء في احتلال سورية، وقد أخبرنا بعض ثقات الدمشقيين الذين رأوها أنها مزورة. على أننا نعلم أن ولده فيصلاً كان قد أخذ له البيعة على كثير من أهل سورية في ذلك العهد وأمثال هذه المبايعات لا قيمة لها لأنها ليست من أهل الحل والعقد، ولا يراعى فيها سائر أحكام الشرع.

مثال ذلك أنهم بايعوه مع وجود خليفة قبله في الأستانة، وقد قال النبي ﷺ «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر» رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري.

(يقولون) أن خلافة ذلك التركي غير صحيحة لأنه غير قرشي (ونقول) إن خلافة صاحبكم غير صحيحة لأنه فاقد لما هو أهم من شرط القرشية كشروط العلم الاجتهادي والعدالة والمنعة ولعدم مبايعة أهل الحل والعقد له، ولذلك بنى سلطته على حماية دولة نصرانية يعد ملكها حامي الإيمان المسيحي ودعاة النصرانية.

(يقولون) إن خليفة الأستانة كانت هذه الدولة وغيرها قد احتلن عاصمته وفقد الاستقلال والمنعة، ثم خلعه قومه وأسسوا لأنفسهم حكومة جمهورية وسموا أحد أفرادهم خليفة ولكن لم يجعلوا له أمراً ولا نهياً فلا ينافي به إقامة أحكام الشرع وحدوده، ولا حفظ البلاد الإسلامية من الأعداء، وقد اعترفوا بعد ذلك باستقلال بلاد الحجاز وبالحالة الحاضرة في سائر البلاد العربية حتى المحتلة منها، فوجب علينا أن لا نعطل حكم الخلافة الإسلامية في مهد الإسلام.

(ونقول) إن لديكم في البلاد العربية المجاورة لكم إماماً قرشياً علوياً عالماً مجتهداً عادلاً ذا منعة قاتل الإنكليز مع الترك ولم يتغلب على بلاده أجنبي غير مسلم، بل أصبحت حكومته الآن أقدم حكومة إسلامية مستقلة تسلسلت فيها الإمامة الإسلامية من القرن الثالث للهجرة كما صرح به شيخ الإسلام الحافظ بن حجر في شرحه لصحيح البخاري في

سياق حديث «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم إثنان» وجعلهم مصداقاً للحديث .

فإن كنتم صادقين في زعمكم أنكم غير طامعين في الملك والرياسة كما أذاع رئيسكم مراراً في جريدة القبلة فلماذا لم تضموا الحجاز إلى اليمن وتبايعوا إمامها الذي عقدت إمامته منذ عشرات من السنين، وحينئذ يضطر صاحبنا نجد وعسير إلى الارتباط بهذه القوة والاتحاد بها، ولا سيما إذا دعيا إلى بناء قواعد الوحدة العربية على أساس اللامركزية التي يستحيل جمع الكلمة في هذا العصر بدونها، ومتى تمت الوحدة في الجزيرة كان ذلك تمهيداً لتحقيقها في غيرها، مع الاستقلال المطلق من قيود النفوذ الأجنبي بله الحماية وخزيتها. ولكنكم أناس لا تطلبون إلا الرياسة والعظمة الصورية لأنفسكم، وإذ كنتم عاجزين عن الوصول إليها بقوتكم توسلتم إليها بالأجنبي وفضلتم أن تبعوه استقلال الأمة العربية بتيجان يتوجكم بها في ظل امبراطوريته على حفظ هذا الاستقلال لها بالحق .

خدعة الاستقلال

يخدع أهل هذا البيت أقوامهم بأنهم أنقذوهم وجعلوهم أمة مستقلة ولا يزالون يهذون بكلمة الاستقلال التي ابتذلت وامتهنت بإطلاقها على شر ضروب الاستعمار والاستعباد، ولو لم تنشر «مقررات النهضة» التي أشرنا إليها وبعض مكتوبات الملك حسين للإنكليز التي صرح فيها بأنه عامل من عمالهم لكان لنا أن نخدع بأنه مستقل في بلاد الحجاز، وإن كان الإنكليز يعدونها من مستعمراتهم وقد أنشأوا لها محافظة سرية سموها محافظة البحر الأحمر. وأنا نعيد في هذا المقال الوجيز نبذة من كتاب الملك المستقل العظيم وبرقية من برقيات الدالة على كنه استقلاله (وكنا نشرناها من قبل).

كتب إلى نائب ملك الإنكليز بمصر كتاباً نشرته جريدة القبلة مراراً

متبجحة به زاعمة «ان الأمم تتباهى بالجزئية مما احتواه تحرير مولاه المنقذ»؟
وتمثلت بقول الله عز وجل ، من غير حياء منه تعالى ولا وجل (مثل هذا
فليعمل العاملون).

أعني ذلك الكتاب الذي تضرع فيه «صاحب الجلالة الهاشمية» لنائب
ملك الإنكليز بأن لا تعدل حكومته «مقررات النهضة» التي أشرنا إليها آنفاً
الناطقة بتأسيس الملك العربي له في ظل ذل الوصاية وخزيها، الذي يقول
فيه ما نصه السقيم:

«فإن كان ولا بد (?) من التعديل فلا لي (?) سوى الاعتزال
والانسحاب ولا أشتبه في مجد بريطانيا أن يتلقى هذا منا إلا أنه أمر (?)
يتعلق بالحياة لا لقصد عرضي، ولا لفكر غرضي، وأنها لا ترتاب في أي
وأولادي أصدقاؤها الذين لا تغيرهم الطوارئ والأهواء، ثم تعينوا (?)
البلاد التي تستحسن إقامتنا فيها بالسفر إليها في أول فرصة (?)».

«وأن رأيت ذلك ولكن مشاكل الحرب الحاضرة تقتضي بتأجيله (?) إلى
ختامها فحقوق الوفاء والجميل يفرض (?) علينا الثبات أمام ما سيتضاعف
علينا من التهمات ونحوه من العموم (?) مما لا مقاومة لدينا أمامها إلا
حسن النية - فالأمر إليها.

«أما عطف الأمر وتعليقه بمؤتمر الصلح فالجواب عليه من الآن بأنه لا
علاقة لنا به ولا مناسبة بيننا وإياه حتى ننتظر منه سلباً أو إيجاباً، ولو قرر
المؤتمر المذكور أضعاف مقرراتنا وكان ذلك من غير وساطتكم وقبلناها فنكن
(?) من المطرودين من رحمة الباري جل شأنه الرقيب على قولي هذا. اهـ
المراد منه.

وقد عزز الملك المتبجح بالاستقلال هذا الطلب الناطق بأنه موظف
بريطاني ببرقية بمعناه أرسلها إلى جريدة التيمس وهذا نصها منقولاً عن
العدد ٥٥٣ من جريدة القبلة.

المدير العمومي لصحيفة التيمس .

اطلعت على عددكم المشتمل الرد والقدح باتحاد العرب والتزامكم أحد أمرائهم ، ولزيادة اقناع حكومة جلالة الملك وإيضاح الحقيقة لعموم الشعب النجيب البريطاني أكرر بهذا طلبي بواسطتكم من حكومة جلالته تأكيد تعيين الأمير المذكور أو من تراه ليستلم البلاد فإن غايي الراحة العمومية وخدمتها كما يعلم من أساسات قياسي وشرائطه يؤيده طلبي هذا المثبت للحقيقة من سائر وجهاتها .

الأمير المشار إليه في البرقية عدوه سلطان نجد ، وقوله «أساسات قياسي وشرائطه» يعني به «مقررات النهضة» الخمس التي سبقت الإشارة إليها .

صفته الحقيقية وحكم الشرع فيها

قد صرح بعض علماء الأزهر بما قلنا أنه صفة ملك الحجاز في نظر جمهور المسلمين ، وهو أنه من البغاة المتغلبين ، وأحكام البغاة مفصلة في كتب الفقه ، وهي مبنية على وجود دار العدل التي يقيم الشرع فيها امام المسلمين الحق وجماعتهم ، والإمام الحق هو المستجمع لشروط الخلافة كلها ، المبايع من جماعة أهل الحل والعقد باختيارها ، في حال عدم وجود إمام آخر قد بويع قبله بها . ولهم مع الإمام والجماعة أحوال أشبهها بحال هذا الرجل ما يعلم حكمه من قول العلامة الماوردي في (الأحكام السلطانية) قال :

«وان امتنعت الطائفة الباغية من طاعة الإمام ومنعوا ما عليهم من الحقوق وتفردوا باجتباء الأموال وتنفيذ الأحكام فإن فعلوا ذلك ولم ينصبوا لأنفسهم إماماً ولا قدموا عليهم زعيماً - كان ما اجتبهوا من الأموال غصباً لا تبرأ منه ذمة ، وما نفذوه من الأحكام مردوداً لا يثبت به حق .

«وأن فعلوا ذلك وقد نصبوا لأنفسهم إماماً اجتبهوا بقوله الأموال ، ونفذوا بأمره الأحكام ، لم يتعرض لأحكامهم بالرد إلا لما اجتبهوا بالمطالبة ،

وحاربوا في الحالين على سواء لينزعوا عن المباينة، ويفيئوا إلى الطاعة» ثم بين أن قتال هؤلاء يخالف قتال المرتدين والمشركين من ثمانية أوجه.

فإذا قلنا إن الحال الأخيرة هي عين نازلة متغلب الحجاز وأنه يجب قتاله على إمام المسلمين الأعظم (ال خليفة) المؤيد بجماعتهم، فهذا الإمام هو الذي يجب عليه أن يدعو إلى الطاعة، والاعتصام بالجماعة، ويقاتله على الإصرار على البغي وعدم الإجابة، فأين هذا الإمام؟ ولماذا لم يفعل؟ وأين جماعة أهل الحل والعقد الذين هم أهل الشورى عنده، والممثلين لسلطة الأمة في مراقبته وتأييده إذا استقام على الطريقة، وتقويمه إذا زاع عنها، الذين حكمهم الخليفة الأول في ذلك على منبر رسول الله ﷺ؟

قد بينا في مباحث الخلافة تفرق المسلمين ونصب أئمة وسلاطين وأمراء كثيرين لهم في بلاد العرب والعجم، ولكن لا نرى أحداً منهم يتصدى الآن للقيام بأعباء الإمامة العظمى العامة ويدعو جميع المسلمين إلى مؤازرته على ذلك بنظام يرجى تنفيذه في مهد الإسلام وموطن مشاعره وأداء شعائره، فنطالبه بأن يلزم هذا الباغي الملحد في الحرم الطاعة له ويقاتله على ذلك إن لم يستجب.

أما خليفة الأستانة فلم يبلغ درجة المتغلب بالقوة إذ لم يعط من حقوق الخلافة شيئاً، فلا حكم له وأمر ولا نهي ولا جيش ولا أسطول، وحكومة جمهورية انقرة الناصبة له قد أقرت الحالة الحاضرة في الحجاز في مؤتمر الصلح مع الحلفاء فهي لا تبذل في إنقاذ الحجاز درهماً ولا ديناراً، ولا تجرد له جيشاً ولا أسطولاً، أعني أنها لا تريد، وإذا أرادت لا تقدر. ولكن يرجى أن تشارك مع غيرها من الحكومات الإسلامية في تنفيذ ما يقرره مؤتمر إسلامي عام في مسألة الحجاز.

وأما إمام اليمن فهو قادر على انقاذ الحجاز من هذا المتغلب وكذا سلطان نجد ولا سيما بعد اتفاق هذا مع السيد الإدريسي ولكن هؤلاء

يعلمون أن تصديهم لهذا الأمر يحمل حسين بن علي على الاستعانة عليهم بمواليه وحلفائه الإنكليز الذين بنى «مقررات نهضته» على حمايتهم له في داخل بلاده وخارجها فيكون في التصدي له فتنة يرونها أرجح من مفسدة إقراره على سلطته العارضة، وهي مفسدة احتلال الإنكليز لبلاد الحجاز ولو بجيش يسمى مسلماً، وقد بينا من قبل أن خوفه من جيرانه هو الذي حمله على جعل الحجاز تحت حماية الإنكليز وهالك ما جاء في نصل المادة الثانية من «مقررات النهضة» التي أشرنا إليها من قبل:

«تتعهد بريطانية العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من أي مداخله كانت بأي صورة كانت في داخليتها وسلامة حدودها البرية والبحرية من أي تعدد بأي شكل يكون حتى لو وقع قيام داخلي من دسائس الأعداء أو من حسد بعض الأمراء فهي تساعد الحكومة المذكورة (أي العربية الهاشمية) مادة ومعنى على رفع ذلك القيام لحين اندفاعه».

قلنا إن كلا من إمام اليمن وسلطان نجد قادر على انقاذ الحجاز من هذا الرجل فكيف إذا اجتمعا، ولكن الأول لا مطمع له في غير ملك اليمن وكذلك كان سلفه ولذلك لم تتوجه همتهم إلى اتخاذ الوسائل لتعميم سلطة إمامتهم، على اعتقادهم أن الإمامة الحق محصورة فيهم، ولعمر الحق أنهم كانوا أولى بها من العباسيين والعباسيين (الفاطميين) لأنهم حافظوا على العلم الاستقلالي والعدالة وسائر الشروط الشرعية على صراحة نسبهم، وسبب ذلك أو أهم أسبابه اعتمادهم على عصبية الزيدية دون غيرهم، وما زالت عصبية المذاهب ضارة حتى فيما يظن أصحابها أنها مفيدة فيه.

وأما الثاني فأكثر الناس يعتقدون أن المانع له من الاستيلاء على الحجاز اصطناع الإنكليز له بالمال وتخويفهم إياه من تأليب الحجاز والعراق وعرب فلسطين عليه إذا خالف رأيهم في ذلك، ويقولون إنهم هم الذين صرفوه عن الاستيلاء على مكة يوم سحق أكبر قوة أمكن للشريف جمعها وسوقها

عليه بقيادة ولده الأمير عبدالله عقب هدنة الحرب العامة وجلاء الترك عن المدينة المنورة.

ويقول بعض النجديين من بطانة سلطانهم وثقات رجاله أن المانع الحقيقي له من ذلك حبه للسلم وكراهته القتال مطلقاً ولذلك أخضع آل الرشيد بالحصار الطويل الذي كلفه أعظم النفقات في أشد أيام العسرة والغلاء وكان قادراً على إخضاعهم بالمناجزة بنفقة قليلة، وقال بعضهم إننا الحننا عليه عند سحق قوة الشريف في طربة بأن يستولي على مكة المكرمة فلم يقبل وتخرج أن يدخلها فاتحاً مع قول النبي ﷺ يوم الفتح من الحديث الصحيح المشهور «وأنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة».

وأقول إن هذه المسألة تدخل في مسائل الاستفتاء عما يجب على المسلمين من إنفاذ الحرمين فيجب أن نبين أقوال أئمة الشرع فيها.

قال الحافظ ابن حجر في الكلام على هذا الحديث من شرحه لصحيح البخاري: واستدل به على تحريم القتل والقتال في الحرم - وبعد أن ذكر الخلاف في مسألة القتل حتى إقامة الحد الشرعي في الحرم قال:

«وأما القتال فقال الماوردي: من خصائص مكة أن لا يحارب أهلها، فلو بغوا على أهل العدل فإن أمكن ردهم بغير قتال لم يجوز (أي قتالهم) وأن لم يمكن إلا بالقتال فقال الجمهور يقاتلون لأن قتال البغاة من حقوق الله تعالى فلا يجوز إضاعتها وقال الآخرون: لا يجوز قتالهم بل يضيق عليهم إلى أن يرجعوا إلى الطاعة. قال النووي والأول نص عليه الشافعي. وأجاب أصحابه عن الحديث بحمله على تحريم نصب القتال بما يعم أذاه بالمنجنيق ونحوه بخلاف ما لو تحصن الكفار في بلد فإنه يجوز قتالهم على كل وجه. وعن الشافعي قول آخر بالتحريم اختاره القفال وجزم به في شرح التلخيص، وبه قال جماعة من علماء الشافعية والمالكية.

«قال الطبري : من أتى حداً في الحل واستجار بالحرم فلإمام إلقاه إلى الخروج منه وليس للإمام أن ينصب عليه الحرب بل يحاصره ويضيق عليه حتى يدعن للطاعة لقوله ﷺ «وإنما أحلت لي ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس» فعلم أنها لا تحل لأحد بعده بالمعنى الذي حلت له به وهو محاربة أهلها والقتل فيها. ومال ابن العربي إلى هذا. وقال ابن المنير قد أكد النبي ﷺ التحريم بقوله «حرمة الله» ثم قال «فهو حرام بحرمة الله» ثم قال «ولم تحل لي إلا ساعة من نهار» وكان إذا أراد التأكيد ذكر الشيء ثلاثاً. قال فهذا نص لا يحتمل التأويل.

«وقال القرطبي ظاهر الحديث يقتضي تخصيصه ﷺ بالقتال لاعتذاره عما أبيح له من ذلك. مع أن أهل مكة كانوا إذ ذاك مستحقين للقتل والقتال لصددهم عن المسجد الحرام وإخراجهم أهله منه وكفرهم، وهذا الذي فهمه أبو شريح كما تقدم وقال به غير واحد من أهل العلم. وقال ابن دقيق العيد: يتأكد القول بالتحريم بأن الحديث دال على أن المأذون للنبي ﷺ فيه لم يؤذن لغيره فيه، والذي وقع له إنما هو مطلق القتال الا القتال الخاص بما يعم المنجنيق فكيف يسوغ التأويل المذكور؟ وأيضاً فسياق الحديث يدل على أن التحريم لإظهار حرمة البقعة بتحريم سفك الدماء فيها وذلك لا يختص بما يستأصل» اهـ ما لخصه الحافظ من أقوال العلماء في المسألة.

فعلم منه أن التحقيق أن الحديث على ظاهره فكل من القتل والقتال محرم في أرض الحرم، وإذا كان قتل الطير والحيوان والحشرات - ما عدا الفواسق الخمس محرماً فيها فهل يكون قتل الإنسان مباحاً؟ وما الفرق بينه وبين غيره إذن؟ ولكن الملك حسيناً قاتل الترك ولا يزال يقتل من يستحل قتله في نفس مكة إذا كان يعد قتله حداً شرعياً بحسب رأيه، كما قطع يد من هرب من سجنه ورجله مدعيّاً أنه داخل في حكم المحاربين لله ولرسوله والساعين في الأرض بالفساد ونحوه، وأمر بصلب رجل في المدينة

لأنه أنكر على الخطيب تعظيمه له بما هو مأمور به من الألقاب والنعوت لهذه الشبهة.

فإن قيل: إن ترجيح هذا القول يستلزم جواز جعل الحرم الشريف الذي عظم الله شأنه مأوى للقتلة واللصوص ومرتكبي الفواحش، وأنه إذا تغلب عليه الكفار لا يقاتلون لإخراجهم منه، وهو يؤدي إلى ضد ما أراد الله تعالى من تعظيمه وتكريمه وتأمينه لإقامة شعائره وعبادته فيه.

فالجواب أن الوسيلة إلى ذلك قرية المنال وهي إلقاء أفراد الجناة أو جماعة البغاة إلى الخروج منه بالإحاطة بهم في شقة الحرم الضيقة، وبالدخول على جماعة البغاة بالقوة الكافية من غير قتال فإن بدأوا هم بقتال أهل العدل فيه قتلوا كما يقتل من قتل فيه وانتهك حرمة من أفراد المجرمين عملاً بقول ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى «ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم».

وجملة القول في هذه المسألة أن القتال الشرعي ليس محرماً في كل أرض الحجاز بل بقعة الحرم منها وهي معروفة الحدود فإذا أمكن لقوة عسكرية الوصول إليها فهي لا تصل إلا بعد الإحاطة بكل قوة يمكن لحكومة الحجاز تجهيزها للدفاع عنها. ولكن في تصدي بعض جيران الحجاز لذلك ففاسد غير ما أشرنا إليه من تدخل الأجانب على أن كلا منهم يضمن بهذا المكان أن يدخل في سلطان الآخر وإن كانوا مجتمعين على أن كلا منهم خير من هذا الرجل الذي رضي أن يكون هو وبيت الله وحرم رسوله تحت وصاية دولة طامعة في إزالة ملك الإسلام واستعباد المسلمين أو تنصيرهم، ولن يرضى أحد منهم بمثل ذلك لأي بلد إسلامي - بله الحرمين الشريفين - فليس من المصلحة إذاً أن يأخذ أحد منهم الحجاز بالقوة.

الوحدة العربية

لو أن الملك حسيناً يريد الوحدة العربية التي يدعيها مع الاستقلال

الصحيح للعرب لما وجدت هذه المسألة الحجازية التي هي أعظم مشكلة إسلامية ستشغل جميع شعوب المسلمين إلى أن تحل على وجه يرضيهم .

إن الطريقة المثلى أو الوحيدة للوحدة العربية هي أن يعقد حلف بين امراء الجزيرة في الحجاز وعسير واليمن ونجد أساسه استقلال كل حكومة ثابتة في إدارة بلادها مع اتفاق الجميع على صيانة البلاد كلها من كل عدوان أو نفوذ خارجي والتعاون على انقاذ البلاد العربية التي احتلها الأجانب بالطرق الممكنة . وأن يكون لهم مجلس حلفي تقرر فيه جميع المسائل العامة المتعلقة بحفظ استقلال البلاد وترقيتها .

اقترحنا نحن وغيرنا هذا على الشريف حسين فأباه لأنه يريد أن يكون ملكاً لجميع هذه البلاد وخليفة للمسلمين بقوة الإنكليز لا بقوة العرب ولا غيرهم من المسلمين ، ولو قبل ذلك وسعى إليه وتم على يديه وثبت بالعمل أنه يرجح المصلحة العامة للعرب والمسلمين على حب السيادة والملك لرجي أن يكون هو رئيس مجلس الحلف العربي إذ لا يعقل أن يعقد هذا المجلس في غير مكة المكرمة وهذه الرئاسة أفضل وأحسن عاقبة مما هو عليه الآن ولو لم يكن فيه تحت وصاية دولة أجنبية نصرانية ، ولكنه فضل هذه الوصاية وأصر عليها وهو يتوقع أن يسود البلاد العربية كلها بعد استقرار سلطته وسلطة ولديه بمقتضى المحالفة الجديدة في العراق وشرق الأردن - بل فلسطين كلها على ما فهم أو زعم - وكذا سائر سورية كما وعد أو أوهم .

فثبت بهذا أنه الخصم الأكبر للعرب والوحدة العربية واستقلال العرب كما أنه الخصم الأكبر للإسلام بوجوده في الحجاز ، ولكن جريدة مذبذبة لمأجور غير مسلم يقول إنه لا زعيم للعرب ولا أهل للخلافة الإسلامية إلا هذا الرجل ، ولا يزال في مسلمي سورية من يرضى بهذه الزعامة مهما تكن صفتها وعواقبه لتألمهم من السلطة الفرنسية وتوهمهم أنه مع الإنكليز ينقذونهم منها (؟؟)

ما يجب على المسلمين في أمر الحجاز

مكانة الحجاز والحرم الشريف فيه

ليس شأن الحجاز كشأن غيره من البلاد فيقال إن حكومته التغلب فيها كغيرها - فالحجاز مهد الإسلام الأول ومهبط الوحي الأكمل، ومحل الشعائر الدينية التي لا يوجد في غيره، ومعهد إقامة الركن الاجتماعي العام من أركان الإسلام، الممتاز عن غيره من الأركان. وهو مأرزه الذي يأوي إليه وينصوه في آخر الزمان، وقال أحد الأعلام في صفة مكة: دار النسك، ومتعبد الخلق، وحرم الرب تعالى الذي «جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد، ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم» والمسجد الحرام هنا المراد به الحرم كله. وقوله سبحانه «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى» وفي الصحيح أنه أسرى به من بيت أم هانئ؟

وقال تعالى «ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام» وليس المراد به حضور موضع الصلاة اتفاقاً وإنما هو حضور الحرم والقرب منه، وسياق آية الحج يدل على ذلك فإنه قال (ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) وهذا لا يختص بمقام الصلاة قطعاً بل المراد به الحرم كله، والذي جعل للناس كلهم سواء العاكف فيه والبادي هو الذي توعد من صد عنه ومن أورد لإلحاد بالظلم فيه.

«فالحرم ومشاعره كالصفا والمروة والمسعى ومنى والمزدلفة لا يختص بها أحد دون أحد بل هي مشتركة بين الناس إذ هي محل نسكهم ومتعبد لهم - فهي مسجد من الله ووقفه ووضع خلقه، ولهذا امتنع النبي ﷺ أن يبني له بيت بمنى يظله من الشمس وقال «منى مناخ من سبق».

«ولهذا ذهب جمهور الأئمة من السلف والخلف إلى أنه لا يجوز بيع أراضي مكة ولا إجارة بيوتها. هذا مذهب مجاهد وعطاء من أهل مكة

ومالك من أهل المدينة وأبي حنيفة من أهل العراق وسفيان الثوري والإمام أحمد بن حنبل واسحق بن راهويه رحمة الله عليهم.

«وروى الإمام أحمد رحمه الله عن علقمة بن نضلة أنه قال كانت رباع مكة تدعى السوائب على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر: من احتاج سكن ومن استغنى أسكن. وروي أيضاً عن عبد الله بن عمر «من أكل أجور بيوت مكة فإنما يأكل في بطنه نار جهنم» رواه الدارقطني مرفوعاً إلى النبي ﷺ وفيه «إن الله حرم مكة فحرام بيع رباعها وأكل ثمنها».

وبعد أن أطال في أدلة هذا المذهب ذكر أدلة القائلين بجواز بيع بيوت مكة وإجارتها كالشافعية الذين أجازوا القتل والقتال الشرعيين في الحرم، وأن التحقيق الجمع بين القولين وهو أن المباني تملك دون الأرض، كمن يبنى في سائر الأراضي الموقوفة.

وقال إمام المفسرين ابن عباس (رض) في تفسير (والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد): المسجد الحرام الحرم كله خلق الله فيه سواء. وفي رواية أخرى عنه: «سواء» يعني شرعاً واحداً «العاكف فيه» أي أهل مكة في مكة أيام الحج «والباد» من كان من غير أهلها ممن يعتكف فيه من أهل الآفاق (قال) هم في منازل مكة سواء فينبغي لأهل مكة أن يوسعوا لهم حتى يقضوا مناسكهم. وفي رواية ثالثة: البادي وأهل مكة سواء في الحرم. وقال قتادة: سواء في جواره وأمنه وحرمة العاكف فيه أهل مكة، والبادي من يعتكفه من أهل الآفاق. فعلى هذا لا يجوز التفرقة هنالك بين المسلمين بأن هذا وطني من رعايا الحكومة الهاشمية، وهذا غير وطني من مسلمي الممالك الأجنبية. بل لا يمتاز هنالك ملك ولا سوقة فكل المسلمين فيه سواء.

هذا وإن الله قد امتنَّ على هذه الأمة بتأمين هذا الحرم الشريف في آيات من كتابه كقوله (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً) وقوله (ومن

دخله كان آمناً) وقوله (أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويُتخطف الناس من حولهم) فيجب أن يظل هذا الحرم الشريف في أكمل درجات الأمن والحرية لجميع المسلمين في أنفسهم وأموالهم وأقوالهم وأفعالهم ما لم تكن معصية لله تعالى. وهو أحق بهذا من (لندن) عاصمة الإنكليز التي يضرب المثل بحرية ساكنيها وإن كانوا أعداء حكومتها وأشدّهم طعنًا فيها. وإذا منع الله تعالى فيه تنفير الصيد وترويع الحيوان الأعجم والاعتداء على النبات بقلع أو قطع، فهل يحل أن يكون فيه ملك ذو جبروت يضرب على حجاجه المكوس فلا يبيح لأحد أن يدخل حرم الله تعالى لعبادته إلا من إذا أعطاه كذا من النقد باسم التوقيع على جواز السفر أو الحجر الصحي أو بغير ذلك من الأسماء؟ ثم تصادر أمواله إن كانت من الفضة لأن هذا الملك أوجب أن يكون سعر الفضة النسبي دون سعر الذهب، ثم تحيط به الجواسيس فإن رأى ظلماً أو منكراً من أعمال الملك أو حكومته فأنكره لما فرض الله من النهي عن المنكر قبض عليه ووضع في سجن شر من سجن الحجاج وعذب أقبح أنواع العذاب كما هو الواقع الآن، بل مما يروي الثقات أن من الناس من يعذب في ذلك السجن بمجرد التهمة كالرجل المغربي الذي كان رفيق الشريف شرف عدنان باشا، ومنهم من يعذب لمذهبه حتى يموت صبراً كالشيخ أبي بكر خوقير السلفي الحنبلي رحمه الله تعالى وقد كان السلف الصالح يعدون شتم الخادم في الحرم من الإلحاد فيه، وفي الحديث «احتكار الطعام بمكة إلحاد» رواه الطبراني في الأوسط، وقال ابن عباس: «تجارة الأمير بمكة إلحاد».

ذلك وإن النبي ﷺ قال «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ويأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها» رواه مسلم من حديث ابن عمر، والترمذي من حديث عمرو بن عوف بلفظ «أن الإسلام ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها، وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأروية من الجبل، أن الدين بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»، وقد

أوصى النبي ﷺ قبيل وفاته بأن لا يبقى في جزيرة العرب دينان، ونص على إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب على تسامحه مع أهل الكتاب في سائر ما يدخل في ملك أمته من البلاد، وأكثر ما تساهل به بعض العلماء أن خصوا ذلك بالحجاز، وحكمة هذه الوصية أن الله تعالى أعلم رسوله بما سيعاقب به أمته على ترك ما شرعه لهم من إقامة العدل والحق من تداعي الأمم عليهم، والإدالة لهم منهم، فأوصاهم بأن لا يدعوا لغيرهم سبيلاً إلى مهبط دينهم، ومنشأ شريعتهم، ليبقى ملجأ حراً لهم، لا يكون لغيرهم فيه نفوذ ولا وجود - ليجدد فيه الدين، ويكون مصدراً لإصلاح ما أفسد الناس منه - فهل يجوز أن يكون فيه ملك مستبد بالاستناد على سلطة دولة غير مسلمة جعلها وصية عليه وعلى حرم الله ورسوله - على ما يعرف الناس كافة عنها من طمعها في بلاد الإسلام والعناية بتنصير المسلمين - فيسلب المسلمين فيه ما وهب الله تعالى لهم، ويهب لغيرهم فيه ما سلب الله تعالى منهم؟

ما يجب على المسلمين في أمر الحجاز

أيها المسلمون إن الله تعالى قد جعل أمر مصالحكم العامة لكم فيما يزعم أهل القوانين الوضعية من أن نظرية سلطة الأمة هي من أحداثهم زعم باطل، إنها أصل من أصول الإصلاح الإسلامي التي أنزلها الله تعالى في كتابه ونفذها خاتم رسله صلى الله عليه وآله وسلم وخلفاؤه الراشدون ومن اهتدي بهديهم ممن بعدهم وصرح به العلماء المحققون كما بيناه في كتاب مباحث الخلافة، ومن شواهد القرآن المجيد في ذلك مخاطبة جماعة المسلمين بالأحكام العامة كقوله (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) وقوله (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا

إن الله يحب المقسطين) فجماعة الأمة هي التي تنصب الخلفاء وهي التي تعزهم، ودرء المفسد العامة والقيام بالمصالح العامة من فروض الكفاية على الأمة.

فيجب عليكم بما فرض الله عليكم من الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تقوموا بما يمكن من الوسائل لإنقاذ حرم ربكم وحرم رسولكم ﷺ من الظلم والاستبداد والسيطرة الأجنبية، ولتقرير الأمن فيهما لأهلها، ولكل مسلم يدخل في حماهما، بحيث يكون حراً آمناً لا يخاف أحد إلا الله تعالى، ولا يؤاخذ بشيء إلا بحكم شرعي من محكمة إسلامية مستقلة أتم الاستقلال في أحكامها، لا سيطرة لملك ولا لغيره عليها، تتألف من علماء جميع الشعوب الإسلامية - ولنع الفتن والدسائس السياسية والنفوذ الأجنبي أن تسري اليهما - وإلى جعل الحجاز قطراً سلمياً على الحياد لا يحارب أحداً ولا يحاربه أحد بحيث تعترف بذلك جميع الحكومات الإسلامية وغيرها - وإلى كفاية أهله الحاجة وإغناء أعرابه عن التعدي على الحجاج وغيرهم بتأمين معاشهم ونشر العلم والدين فيهم - ثم إلى جعل الحرمين الأشرفين مثابة للناس في تلقي العلوم والمعارف، كما أنها مثابة لهم في العبادة وأداء المناسك.

فكر أخوكم كاتب هذا المقال في هذه المسألة منذ سنين واقترح هذا الإصلاح في المنار (ج ٣ م ٢٢ الذي صدر في ٣٠ جمادى الأولى سنة ١٣٣٩) وصرح برجائه في الملك حسين أن يقبله ويبادر إلى تنفيذه برأي كبار الشرفاء والعلماء في مكة بأن يضعوا له نظاماً ينشر في جريدة القبلة وترسل نسخ منه مطبوعة إلى المدن الإسلامية الكبرى في الشرق والغرب والجنوب والشمال لأخذ رأي أهل العلم والخبرة فيه، ويضرب موسم الحج القابل من ذلك العام موعداً لتنفيذه، بعد جمع الآراء وتمحيصها فيه بعرضها على لجنة تؤلف من خيار حجاج الأقطار علماً ورأياً، فيكون هذا مؤتمراً إسلامياً يقرر ما يراه «من تعاون المسلمين على عمران الحجاز

وتسهيل طرقه، وتكثير موارده، ونشر العلم فيه وغير ذلك من المصالح والمنافع».

إننا أعذرنا إلى ملك الحجاز بتفويض أمر هذا الاقتراح إليه قبل كل أحد، وأثبتنا بهذا أننا نود لو يكون هذا الإصلاح على يديه على سوء ظننا فيه، ونأسف الآن أن صدق ظننا فيه من كل وجه، فهو لم يرفع لهذا الاقتراح رأساً، ولم يدرك أنه أضمن لعظمته وجاهه من الحماية البريطانية، بتلك الاتفاقات السرية الشائنة، والمعاهدات الجهرية الخادعة، ولولا أنه يفضل لذة الاستبداد الشخصي والإلحاد في الحرم على كل إصلاح يشاركه فيه المسلمون لبادر إلى تنفيذه.

على أننا في ذلك الوقت قد وضعنا نظاماً لمشروع جمعية إسلامية تقوم بالسعي لهذا الإصلاح الإسلامي العام على ما وصل إليه علمنا ورأي من أطلعناه على هذا المشروع في مصر، وأرسلنا نسخاً من هذا النظام إلى أنقرة فاستحسن فيها وظهر أثر استحسنه في الجرائد بتصريح في معناه نطق به مصطفى كمال باشا، وما منعنا من إظهار المشروع وتأليف الجمعية بالفعل إلا العلم بأن السلطة العرفية البريطانية تشدد في مقاومته. ثم أعدنا نشر الاقتراح بما أودعناه في (الكتاب المفتوح) الموجه من روح الإسلام والجامعة العربية إلى الحكومة البريطانية والشعب الإنكليزي، إنذاراً لهما بأن لا يعتمدا على الملك حسين فيما تطمع فيه تلك الحكومة من الحجاز وبلاد العرب وأن لا يصرا على ترجيح صداقته على صداقة العالم الإسلامي والأمة العربية.

أما وقد خابت جميع المساعي وفشلت جميع الوسائل لإقناع هذا المتغلب على الحجاز بحفظه وصيانته من نفوذ الأجانب وحفظ سياجه من جزيرة العرب وقد ظهر للشعوب الإسلامية كلها أمره وما فيه من الخطر على مشاعر دينهم ومأواه ومأرزه بجعله الحجاز تحت حمايتهم وتوطيده مع أولاده لنفوذهم وسلطانهم في قلب الجزيرة من حدود مصر إلى خليج فارس -

فالواجب عليهم شرعاً أن يسعوا إلى إنقاذه من هذا الخطر وجعله قطراً حراً حيادياً لا سلطان عليه لغير الشرع العادل الذي أنزله الله تعالى فيه بضمان العالم الإسلامي كله .

وقد بينا في هذا المقال أن هذا الإنقاذ إذا صمدت له إحدى الإمارات العربية المجاورة للحجاز يخشى أن يكون إثمه أكبر من نفعه ومفساده أرجح من المصلحة المطلوبة، وأنه لا يرجى من دولة أخرى كالمصرية والتركية لأن طريق البحر إليه تحت سلطان الإنكليز حماة هذا المتغلب وأنصاره على المسلمين فلا يمكنون دولة أن تسوق إليه جنداً .

وإذ كان الأمر كذلك تعين لإنقاذ الحجاز سعي جميع الحكومات الإسلامية المستقلة واتفاقها على الوسيلة التي تبتغي له وتعاونها على تنفيذها، فإن لم تتفق كلها فأقدرها وأقربها - وإلا فالواجب على شعوب المسلمين اتخاذ الوسيلة لذلك فإن لم يفعلوا كانوا كلهم فساقاً ضالين ولن تجتمع هذه الأمة على ضلالة، فانقاذ الحجاز فرض ولا بد من أدائه .

أما الدول الإسلامية التي تطالب بذلك أولاً فهي اليمنية والنجدية والمصرية والتركية والإيرانية والأفغانية، فأن لم تبدأ احداهن بالدعوة إلى عقد مؤتمر من أعضاء مفوضين من كل منهن فليدعهن إلى ذلك بعض أصحاب المكانة المحترمة كشيخ الجامع الأزهر أو جمعية تؤلف لذلك . فإذا أجبنا الدعوة فليس لأحد أن يفتات عليهن في تعيين الزمان والمكان للاجتماع، وإن كان كل أحد يعلم أن مصر أوسط بلاد الإسلام وأليقها بذلك . ولكن لكل مسلم أن يقترح على المؤتمر ما يرى فيه الصلاح والإصلاح . ومتى قرر مؤتمرهن شيئاً فلا يعقل أن تتصدى الدولة البريطانية لمقاومة جميع دول الإسلام في مسألة إسلامية محضة انتصاراً للشخص الذي نصبته ملكاً على مهد دينهم وقبله صلاتهم وشعائر حجهم بل يرجى أن تغتنم هذه الدولة العاقلة فرصة اتحاد الحكومات الإسلامية المستقلة

فتواتيهن، وتعقد رابطة المودة معهن، ولا يخفى ما في هذا من الخير لها ولهن. وللإنسانية كلها.

وأما الشعوب الإسلامية فلا يمكنها أن تعمل شيئاً إلا بتأليف جمعية منظمة وإننا ننشر بعض المواد التي كنا وضعناها مع بعض أهل الغيرة الدينية لمثل هذه الجمعية على سبيل التذكير لتبادل الآراء فيها وبناء الدعوة عليها.

المواد الأساسية لجمعية سلامة الحجاز

(١) تألفت في العالم الإسلامي جمعية إصلاحية باسم (جمعية سعادة الدارين في تجديد الإسلام في الحرمين الشريفين) ذات شعب وفروع في جميع الأقطار الإسلامية.

(٢) سيكون المركز العام الدائم لهذه الجمعية مكة المكرمة حيث الشعبة الأولى لها في المرتبة وهو الآن حيث الشعبة الثالثة في المرتبة (وهي الأولى المؤسسة).

(٣) مقصد هذه الجمعية (١) إقامة الدين في الحجاز علماً وعملاً وإرشاداً وتعليماً كما شرعه الله (٢) وتحقيق جعل الكعبة البيت الحرام قياماً للناس (٣) ومثابة للناس وأمناً (٤) سواء العاكف فيه والبادي كما جعله الله (٥) ومنع الإلحاد والظلم فيه كما منعه الله (٦) ليكون الحجاز مأرزاً للإسلام كما أنبا رسول الله ﷺ (٧) وتقام فيه وصيته الأخيرة عليه وعلى آله صلوات الله (٨) ويظل أية بينة على استجابة دعاء إبراهيم الخليل عليه وعلى آله صلوات الله (٩) فيكون قطر سلام وحياد لا ينال بحرب ولا عدوان يغضب الله (١٠) وتحترمه جميع الأمم والدول كما يجب ويرضى الله ورسوله والمؤمنون.

(٤) تتوسل الجمعية إلى هذه المقاصد الشريفة بأنواع الوسائل المشروعة الآتية:

(أ) السعي لإحصاء أوقاف الحرمين الشريفين في جميع الأقطار وضبط مواردها وجلب ريعها إلى خزانة الحرمين الشريفين وصرفها في مصارفها الشرعية التي وقفت عليها.

(ب) جمع الإعانات والتبرعات الاختيارية بنظام لصرفها في أحياء هذا القطر بالعلم والعمران.

(ج) السعي لصيانة سكة الحديد الحجازية وتعميم نفعها فيما أنشئت لأجله.

(د) السعي لاعتراف جميع الدول والحكومات بكون الحجاز قطر سلم وحياد واحترامها له وضمان له وضمان أولي الأمر لها فيه قيامه هو بهذا الحياد والسلم العام.

(هـ) السعي لجعل ما يقام فيه من الإصلاح الديني والمدني والعمراني في أيدي الأكفاء من أهل العلم والرأي والمكانة من جميع الشعوب الإسلامية.

(و) السعي إلى كفاية البدو فيه أمر معاشهم مع حفظ كرامتهم وتعليمهم أمور دينهم وما تمس إليه الحاجة من أمر دنياهم والاجتهاد في تحضيرهم.

(ز) نشر العلوم والفنون فيه ولا سيما التفسير والحديث وفنون البلاغة بأعلى الدرجات حتى تشد الرحال إلى المسجدين لأجل النبوغ والتخرج في العلم كما تشد إليهما لأجل العبادة وحتى يكونا مصدراً للإرشاد والإصلاح الإسلامي في العالم كله.

(ح) السعي لتأليف محكمتين شرعيتين إحداهما في مكة المكرمة والأخرى في المدينة المنورة يكون لكل قطر إسلامي وكل شعب إسلامي حق تمثيله فيهما بعضو من علماء الشرع - المنتسبين إلى المذاهب الإسلامية التي يحج المتبعون لها هذا البيت ويستقبلونه في صلاتهم - لأجل محاكمة من يرتكب هنالك ذنباً يتعلق بالحقوق الشخصية أو الحقوق والمصالح العامة،

بحيث يكون كل من تبوأ هذه البلاد المقدسة من حاج ومقيم آمناً على نفسه وكرامته واثقاً بأنه في كنف الله تعالى وحماية شرعه الذي يقيمه ويحكم به طائفة من كبار علمائه من الأقطار المختلفة لا سيطرة عليهم في ذلك لأحد من الخلق وليسوا مظنة لاتباع الهوى في الحكم.

(ط) يوضع لهاتين المحكمتين نظام خاص يبين فيه وصف تأليفهما وأعضائهما وأنواع الذنوب العامة والخاصة التي يحاكم المذنبون فيها وأنواع العقوبات عليها - من حد أو تعزير - وينشر هذا النظام على الناس باللغات الشهيرة للشعوب الإسلامية ليكون جميع الحجاج كأهالي البلاد عالمين به. اهـ المراد من هذا القانون هنا.

ويضاف إلى هذه المواد ما اقترحنه في الخطاب المفتوح من السعي لإقامة حرس فيه من أهله ومن جنود الدول الإسلامية المستقلة العربية والعجمية.

فنحن نعرض هذه المواد على علماء المسلمين وعقلائهم ليسعوا لها سعيها ولا سيما إذا قصرت الحكومات الإسلامية عن القيام بما يجب عليها في هذا الأمر.

ملخص الفتوى

إن هذا الرجل قد جنى على الحرمين الشريفين وعلى الحرم الثالث وهو المسجد الأقصى (أولاً) بمولاته لغير المسلمين ومساعدتهم على فتح الأرض المقدسة وغيرها من بلاد العرب (وثانياً) بجعل الحجاز تحت وصايتهم وحمايتهم (وثالثاً) بإقراره هو وأولاده إياهم على مركزهم الممتاز في السيادة والسيطرة على فلسطين وشرق الأردن والعراق.

وهو باعتماده على حماية هؤلاء الأجانب له قد وضع المكوس والضرائب على حجاج بيت الله الحرام فلا يسمح لأحد بأداء هذه الفريضة إلا إذا دفع لحكومته المكوس التي قررها، ولا يبعد أن يضرب أتاوات أخرى على

كل ركن من أركان الحج كالطواف والسعي والوقوف بعرفات وعلى الصلاة في الحرم أيضاً إذ لا فرق بين الأثاوتين - ثم أنه يمنع عمل البر من الحجاز كتطبيب المرضى كما منع البعثة الطبية الهندية ثم المصرية، ويصادر أموال الحجاج ويمنعهم من التصرف بالفضة منها في الحجاز لأجل أن يأخذها بثمان بخس دون ثمنها الإضافي أي بالنسبة إلى ثمن الذهب، فإذا كان يعذر باستحلاله لبعض هذه المحرمات لتأوله فيه فلا وجه لاستحلاله لسائرهما لأنها من المجمع على تحريمها المعلومة من الدين بالضرورة بحيث يعد مستحلها مرتدّاً عن الإسلام إلا إذا كان حديث عهد به ونشأ في شاهر جبل بحيث لم تبلغه الشريعة كما هو المنصوص في كتب العقائد والفقه.

وقد كان فيما سئلنا عنه عقيدته . . . فنحن نبين أعماله وحكم الشرع فيها وندع تطبيقها للمسلمين ولا نفتي بأنفسنا بكفره وإن كُفر هو في جريدته الترك والمصريين والنجديين، وحرّف آيات القرآن المبين لفظاً ومعنى كما فعل في منشور رسمي له يرد فيه على الترك الذين أزالوا حجاب النساء ويحتج عليهم بالقرآن الذي يدعي العمل به فأورد قوله تعالى (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) فحرّف الجملة الأخيرة بقوله: ذلك أدنى أن لا يعرفن فيؤذين - فجعل النفي إثباتاً والإثبات نفياً ليثبت أن المرأة المسلمة لا يجوز أن يعرفها أحد. وقد كتبنا يومئذ إلى جريدة القبلة بأنه يجب أن تصحح الآية من قبل الديوان الهاشمي فلم تصحح لئلا يكون تحطئة «للمنشور الكريم» كأن ذلك المنشور الجهلي السخيف أكرم في اعتبار ذلك الديوان من كتاب الله عز وجل، ثم نشرنا المنشور في المنار وبيننا الخطأ الذي وقع في الآية مع بيان معناها وسبب نزولها وأرسلنا ذلك إلى الملك نفسه وإلى جريدة القبلة فلم يفد إرساله شيئاً. وهو يسفك الدماء فيقتل ويصلب مدعيّاً إقامة الحدود بما ليس منها بإجماع المسلمين من

غير حكم شرعي يصدر ممن هو أهل للحكم من علماء الشرع، وكذلك يفعل ولده الأمير عبدالله في شرق الأردن، ويسميان تصرفهما بأهوائهما عملاً بالكتاب والسنة وهما لا يعلمان منهما ما يؤهلها لذلك. لأنهما لم يتعلما، «ولما العلم بالتعلم» كما ورد، وهو ما لا يخفى على أحد.

فأقل ما يقال في هذا الرجل أنه ملحد في الحرم - وكالإلحاد فيه ليس كالإلحاد في غيره إذ الصغيرة في غيره كبيرة فيه - وإنه مستحل لما حرمه الله بالفعل، ولكننا نجهل كنه حاله فلا ندري أيستحل ذلك اعتقاداً، ويفعله جهلاً أم عناداً، وإن في بقائه ملكاً في مكة خطراً على الحرمين الشريفين وسائر جزيرة العرب أن يزول ملك الإسلام عنها كما زال عن غيرها بمساعدته ومساعدة أولاده، فالواجب على المسلمين ملوكهم وأمرائهم ودهمائهم المبادرة إلى إنقاذ الحرمين وجزيرة العرب، وأقرب الطرق إلى ذلك وسيلة ومقصداً ما شرحناه آنفاً.

هذا ما ظهر لنا من حكم الشرع فيه مبنياً على أعماله الرسمية التي لا يستطيع أن ينكرها. فإن رأى علماء الإسلام خطأ فليبادروا إلى بيانه وإلا فليبادروا إلى السعي لإزالة هذه المنكرات كما فرض الله عليهم، والله أعلم.

(تنبيه) يرى قراء المنار في هذه الفتوى مع ما سبق لنا نشره في المسألة الحجازية تكراراً وسببه أن هذا كتب لأجل نشره في صحف الأخبار اليومية التي نشر فيها الاستفتاء فنشر في بعضها ولخص في بعض، وقد نشرت جريدة الأخبار بعضه في أوائل ذي الحجة وبعضه في أواخره ونشرته جريدة الأهرام بعد أن اختصرت منه مشروع جمعية إنقاذ الحجاز وقد كبر على المنافقين من أجراء الملك حسين وولده الأمير عبدالله أن ينتقد عليهما وينكر من أعمالهما ما خالف الشرع لأنهما مشهوران بشرف النسب كأن الله أباح للشرفاء ما حرمه على سائر عباده، فإن كان للشرفاء حكم خاص في هذا

المقام فهو مضاعفة العذاب على ما يعصون الله تعالى به، وسنبين هذا في مقال آخر.



بطل العرب والإسلام العظيم

١٥٦

القائد الكبير محمد عبد الكريم

[المنار ج ٢٤ (١٩٢٣) ص ٦٨٤ - ٦٩١]

اقتسمت فرنسا مع اسبانية مملكة المغرب الأقصى كما اقتسمت مع إنكلترة سورية والعراق. وقد قيّض الله تعالى لأهل الريف الذي جعل حصّة لإسبانية زعيماً عظيماً نظم لهم جيشاً من أنفسهم يقاتل به الإسبانين لإخراجهم من بلادهم فأتي في قتاله لهد الدولة بما يكاد يكون من خوارق العادات التي أيد الله بها سلف هذه الأمة في صدر الإسلام، وما زلنا نغني النفس بالتثوية بجهاده منذ بطش البطشة الكبرى قبل ثلاث سنين حتى رأينا في هذه الأيام ما كفانا المؤنة من المقال الآتي «لسعادة الكاتب السياسي الكبير» الذي يغني وصفه عن تعيين شخصه، وحرف الإمضاء عن التصريح باسمه، (المنار).

من عادة الجرائد أن تكثر من لفظة «البطولة» تعرب بها كلمة Heroisme التي تدور كثيراً في الكتابات الأوروبية والناس مضطرة اليوم إلى تعريب كلماتهم وتقليد مناحيهم. أما أنا فكنت غير راغب في هذا الاستعمال لأنني لا أكتفي من اللفظة بأن تأتي في معاجم اللغة وأن لا تعد غلطاً بل أحب أن أجدها في كلام من العرب الأولين أو المخضرمين أو المولدين على الأقل، ولا أتذكر أنني عثرت بالبطولة أي حالة من كان بطلاً في غير متون اللغة. أما الآن فأريد أن أستعملها لهذا الأسد الزائر،

والفحل الصائل، المسمى بمحمد بن عبد الكريم المتولي كبر تحرير قومه في شمالي مراكش - فأقول بطل محمد بن عبد الكريم بطولة وبطالة فهو بطل، لا بل هو بطل الأبطال، وفذ الأفذاذ، وعلم الأعلام، بل هو عندي أعظم مزية من مصطفى كمال، ومن جميع أبطال العصر الحاضر، البادي منهم والحاضر. وكل من ينظر في قضية الأمير محمد بن عبد الكريم ويتأمل فيها ويرى موقفه المدهش المحير للعقول في وجه إسبانية مع الفرق الشاسع والشقة الهائلة بين درجتي كل من إسبانية والمنطقة التي تقاتلها من شمالي المغرب يحكم بأنه لو كان في الدنيا إنصاف لما كان أحد اليوم أولى من محمد بن عبد الكريم بأن يوضع في مقدمة أبطال العصر، ويكتب تاريخه، وتدون سيرته، وتعرض صورته، ويرجع على فوش وهندنبورغ ومصطفى كمال ودانونسو ولنين ومسولينى وطبقتهم التي اختلط ذكرها بالتاريخ العام.

أن فوش عندما أحرز النصر كان رأساً على ١٥ مليون جندي من عساكر الحلفاء عدا جنود أميركا التي كان وصل منها إلى فرنسا مليونان ونصف مليون وبقي منها مثل هذا العدد في أميركا، وأن هندنبورغ كان قائداً لستة ملايين ألماني هم أحسن جنود العالم بدون نزاع، وأن مصطفى كمال وإن صح أن يقال إنه بعث تركية من قبرها، فإنه كان في تركية عساكر منظمة، وجنود مدربة، وضباط أركان حرب معدودين من الطبقة الأولى، وبقايا أسلحة، وآثار دولة مبنية من أصلها على الأسل، وجاءها لويد جورج بمعااهدة سيفر التي تجعل تركية أثراً بعد عين، وزحف إليها اليونانيون يذبحون الرجال، ويهتكون الأعراض، فأتيحت لهمة مصطفى كمال أسباب عديدة تجمع حوله أمة باسلة مستبسلة كالأمة التركية. وأن سائر من ذكرنا من الرجال المعدودين في هذا العصر كانوا في حركاتهم متوكلين على أمم عظام، وأعداد لا تحصى، وتشكيلات إدارية تامة، فاستوسق لهم من الأمور ما استوسق، وظهر من شأنهم ما ظهر.

وأما محمد بن عبد الكريم فإن جثنا إلى عد أنصاره فإن الريف كله يبلغ

جزءاً من سبعة من سلطنة المغرب فإن كانت هذه السلطنة ثمانية ملايين فيكون الريف زائداً قليلاً على المليون، وإن كانت هذه السلطنة لا تنوف على أربعة ملايين أو خمسة كما جاء في بعض مؤلفات الفرنسيين الأخيرة فيكون الريف نحو ثلثي المليون أي أكثر قليلاً من جبل لبنان وأقل شيئاً من فلسطين، ومع هذا فإن هذين الثلثين من المليون أو فلنقل هذا المليون واقف في وجه دولة إسبانية التي عدة أهلها عشرون مليوناً. بخلاف تركية مع اليونان، إذ تركية مع كل ما اقتطع منها بقيت ١٢ مليوناً واليونان مع كل ما أضيف إليها لا تزيد على ٦ ملايين. فأنت ترى ما هنالك من الفرق، وزد عليه أنه لم يجتمع من جنود اليونان في وجه مصطفى كمال ما اجتمع من جنود الإسبانيول في وجه محمد بن عبد الكريم فقد كان جيش اليونان المحارب لجيش أنقرة من ١٥٠ إلى ١٧٠ ألفاً حال كون الجيش الإسبانيولي الذي غزا الريف سنة ١٩٢١ بلغ عدده ٢٥٠ ألف مقاتل وباء بالخذلان كما هو معروف. والجيش الإسبانيولي الزاحف اليوم إلى الريف هو بحسب قول الجرائد الأوروبية مائة وستون ألف مقاتل. وأنه في كلتا المرتين تطوع في الجيش الإسبانيولي ألوف مؤلفة من أصناف الإفرنجة لا سيما من الإنكليز - الذين لا يتركون فرصة يظهر فيها فرط محبتهم للإسلام إلا ولجوها - وهذه المرة يقال إن أكثر الإلحاح على الدولة الإسبانية في استئصال شأفة المقاومة من الريف واقع من دولة بريطانيا العظمى.

ثم لا يخفى ما يوجد من الفرق بين زحف اليونان من بلادهم راكبين إثباج البحر الواسع وإيغالهم في بلاد الأناضول الطويلة العريضة التي تأكل الجيوش بمساوفهم وبين ركوب الإسبانيول بحراً إسمه بحر الزقاق أو بوغاز جبل طارق عرضه ساعات قلائل وكون الريف كله لا يساوي في الرقعة ولاية من ولايات الأناضول.

لا نريد في هذه المقابلات والمقارنات تصغير شيء من مجادة العمل الذي قام به إخواننا الترك وأدهش الربع العامر بأسره، وترنحت له أعطاف

الشرقيين عند من يقول بجامعة شرقية، وقرّت به عيون المسلمين عند من يأخذ بجامعة إسلامية. إن الأتراك أشهر في الحروب من أن ينوه فيها الإنسان بقدرهم، وأن انتصارهم الأخير بعد أن أنهكت قواهم الحروب المتتابة بدون انقطاع ولا فتور منذ بضع عشرة سنة أضاف صفحة جديدة على تاريخ مجدهم، وخلد مصطفى كمال ذكراً لا تمحوه الأعصر بأنه هو المؤسس الأخير للدولة التركية.

ولكننا نريد أن نثبت بهذه المقارنات أنه بالنسبة إلى قلة الوسائل وضيق الرقعة وفقد التشكيلات ونزارة الأسلحة وندورة الضباط وانحصار الريف بين البحر من جهة والمنطقة الفرنسية من أخرى وصغر الريف من أصله فإن فضل محمد بن عبدالكريم هو أعظم من فضل مصطفى كمال ومن فضل أعظم قواد أوروبا لأنه لو قام أي واحد من أولئك العظام مقام ابن عبدالكريم لعجز أن يأتي بشيء مما أتاه.

في تموز سنة ١٩٢١ استأصل الريفيون بقيادة هذا البطل الغشمشم ٢٥ ألف مقاتل إسبانيولي وأسروا ألوفاً وغنموا ١٧٠ مدفعاً وقيل ٣٠٠ مدفع و٧٠ ألف بندقية وأعتاداً حربية لا تحصى وعدداً من الطيارات وسبق لهذا العاجز - المعجب بمحمد ابن عبدالكريم المتحسر على أن ليس في سورية مثله - مقالات متعددة عن تلك الطوائل التي طال بها والوقائع التي انتصر فيها منها ما نشرناه «بالبیان» ومنها في «الصباح» الذي كان يطلع بفلسطين. لأن حرية المطبوعات... في سورية لعهد محرري الأمم... لم تكن تسمح بنشر شيء عن قوم يدافعون عن استقلالهم ولو كانوا من أقصى البلاد عن سورية.

وبعد هاتيك الهزيمة عول الإسبانيول على سياسة التفريق والشقاق بين الريفيين، تلك السياسة التي طالما نجحت بها الدول المستعمرة ونالت مآربها من الشرق من ثنايا منافسات الشرقيين بعضهم مع بعض، فعقد الإسبانيول الصلح مع الرسولي، وأعملوا الهمة في التضريب بين القبائل

الريفية، وخدروا أعصاب كثيرين منها، وبذلوا المواعيد ومنوا الأمانى، حتى خيل لهم أن الحركة قد همدت، وأن حزب ابن عبدالكريم قد ضعف جداً عن ذي قبل، وأنهم إن صمدوا إليه وجدوه هذه المرة في قلة من قومه وقضوا منه وطهرهم، فكان الأمر بعكس ما خالوا، وهو أنهم لما آنسوا منه رقة الجانب وطمعوا في أخذه بالقوة عاد هذا الأمير فاستفز قبائل الريف وأوضح لهم الخطر فارتفعت الواعية، وامتدت الصارخة، واعصوبت القبائل حول قائدها، وتأهبت للنضج عن ذمارها، وعاد الأمر كما بدا، لا بل رأى محمد بن عبدالكريم أن يجعل الإسبانيول غداه قبل أن يجعلوه عشاءهم، فجمر^(١) للزحف على مواقعهم الأمامية بقرب مليلاً، وناوشهم القتال منذ أوائل هذا الصيف، فدارت رحى الهيجاء وحمى الوطيس وتباعث العرب والبربر على الموت في سبيل دينهم ووطنهم، فجفلوا الأسبانيول عن مراكزهم، وأفحشوا النكاية فيهم، ورأت أسبانية أن ابن عبدالكريم لا يزال ابن عبدالكريم من المنعة في قومه، والحيلة من وراء أمره، والحمية على وطنه، والحفيظة لحقه، وأن الريفيين لم يبرحوا على عهدهم بالشهامة وإباء الضيم، والبصائر بالحرب، والغرام بالطعن والضرب، فسقط في يدها، وخابت آمالها، وجردت إلى الريف زحوفها، حتى بلغ عدد الفيلق^(٢) الإسبانيولي المرباط الآن بالريف ١٦٠ ألفاً وهي لم تنل وطراً، ولا قضت حاجة، فثارت الخواطر في مادريد واضطربت الحكومة وادلهم الخطب، وأبى الحزب العسكري إلا أن يتابع إرسال الإمداد إلى أن تستقيم عصاة الريف أو تنكسر، وذهب آخرون إلى أنه لا

(١) النار: جمر بنو فلان اجتمعوا وجرتهم حشدتهم وهو مأخوذ من جمرات العرب جمع جرة وهي الطائفة التي تجتمع على حدة لقوتها وشدة بأسها. وقول الكاتب جمر للزحف معناه لأجل الزحف. وفي حقيقة الأساس: وجر الأمين الغزاة (بتشديد الميم) حبستهم في الثغر وفي نحر العدو لا يقللهم اهد. أي لا يأذن بالرجوع.

(٢) الفيلق بوزن زينب الكتيبة العظيمة مؤنثة والمعنى وكتاب العصر يذكرونها بتذكير اللفظة أو بمعنى الجيش.

فائدة من غزو الريف إلا تراكم الخسائر في المال والرجال، وقدم اثنان من
النظار استعفاءهما أحدهما ناظر المالية الذي شكّا من كون عجز الموازنة
المالية هذه السنة بلغ ٩٠٠ مليون فماذا يكون إن أصرت الحكومة على
متابعة حرب الريف؟

هذه حالة إسبانية اليوم، وهذا هو الفري الذي فراه محمد بن عبد
الكريم عوداً على بدء، فأثبت أنه بطلها اليوم كما كان بطلها بالأمس،
وسترى أنه بطل السلم كما هو بطل الحرب، وأنه أصدر أوامر بالاتفاق مع
أعضاء الحكومة الريفية التي هو رأسها بإنزال أشد العقاب إلى حد القتل
بمن يعتدي على إسبانيولي أو أي أوروبي أو يخالف القوانين الحربية المرعية
بين الدول المتمدينة.

وقد نشر رجل سويسري من زوريخ منذ أيام رسالة تناقلتها كثير من
جرائد سويسرة كنا نود تعريبها ونشرها كلها نقلاً عن جريدة «فوي دافي»
الصادرة بلوزان لكن طولها حال دون تعريبها برمتها. ومآلها أن بعض
الشبان من سويسرة قصدوا إسبانية للعمل وبينما هم يعملون ببرشلونة^(١) إذ
أخذتهم حكومة أسبانية إلى الريف بحجة أنها تريد أن تستخدمهم في
النقلات. وأن هنا عملاً بأجرة وهناك عملاً بأجرة فذهبوا مسيرين غير
مخبرين. ولما صاروا إلى مليلاً نظمهم في التابور وأرسلوهم إلى ميدان
الحرب خلافاً لما كانوا وعدوهم به. ولما كانوا من رعية سويسرة لا شأن
لهم في حرب واقبة مع إسبانية فر منهم بضعة نفر فأدركهم الإسبانيول
وحاكموهم محاكمة «البط» (الفارين من العسكر) وحكموا عليهم بالقتل
ونفذ فيهم الحكم رمياً بالرصاص مع أنهم لم يكونوا متطوعين في جند
إسبانية وإنما سيقوا إلى الحرب جبراً وقهراً بعد أن خدعوا بقول الحكومة

(١) قال في معجم البلدان: برشليانه بسكون اللام وياء والف ونون بلدة بالأندلس من أقاليم
لبلة.

الإسبانية لهم إنهم يكونون في مليلا عملة كما كانوا في برسلونة. قال هذا الرجل السويسري الزورنجي - فالتزمنا أن نشهد وقائع من أشد وأهول ما يتصور العقل كانت غالباً خسائر الإسبانيول فيها أفدح من خسائر المغاربة. وذكر واقعة قال ان الإسبانيول خسروا فيها وحدها أربعة آلاف مقاتل: وهو يحزر مجموع خسائر الإسبانيول بستين ألف مقاتل.

ثم قال - اننا مللنا القتال ونحن لا ناقة لنا في الأمر ولا جل ففررنا إلى جهة العرب فأخذونا إلى عبد الكريم فأمر بانتظامنا في الجيش فبعد أن كنا نقاتل في صف الإسبانيول صرنا نقاتل الإسبانيول، وكنا في كلا الحالين مكرهين لا أبطالاً. فبعد أن شهدنا عدة وقائع لاحت لنا فرصة للفرار ففررنا أملاً بالوصول إلى ساحل البحر ومنه نجد فلماً يأخذنا إلى أوروبا فكانت وقعتنا بالقرب من قرية عربية فقبضوا علينا وساقونا إلى الأمير عبد الكريم فأيقنا في أنفسنا بالهلكة وقلنا يصيبنا هنا ما أصاب رفاقنا عند الأسبانيول فلما وصلنا إلى الأمير كان منه أن قال لنا - نعم يحق لكم أن تفروا لأنه طال عليكم الغياب عن أوطانكم ولكن أخطأتم بأنكم لم تجربونا بعزيمتكم حتى نؤدي اليكم نفقة الطريق. ثم نقد لنا^(١) مبلغاً يكفي نفقتنا وأرسلنا إلى جهة ركبنا منها البحر الخ. ويذكر هذا السويسري بعد ذلك الفرق بين الإسبانيول والمغاربة مما هو ظاهر للعيان من سياق هذه القصة.

أن الذي يربطنا بعبد الكريم وقومه ليس أنهم مسلمون فقط ولا أنهم معدودون من الأمم الشرقية ولو كانوا من الغرب - بل لكوننا مقيدين وإياهم بسلسلة طويلة فهي متصلة الحلقات لا خرم فيها من أولها إلى آخرها. ومن المحال أن يفوز المغربي في الريف أو في أي مكان آخر بدون أن ينتشق أخوه المشرقي أرج الفرج ولو على بُعد ألوف من الفراسخ وهذا أمر يعرفه الأوروبيون جيداً لذلك تجدهم متضامين متكافلين في وجهنا

(١) يقال نقدته الدراهم ونقدتها له على الزيادة بمعنى أعطيته إياها.

مهما اشتدت الشحنة بينهم في بلدانهم . وهاك مثلاً وقع معنا نحن الوفد السوري .

انه لمعلوم كون فرنسا منافسة إسبانية في المغرب . وإسبانية لا تود فرنسا ، وأكثر الخلاف بينهما على مسألة طنجة ، فذهب مرة أحد زملائنا أعضاء الوفد السوري لمقابلة المندوب الإسباني في جمعية الأمم نظير غيره من مندوبي الدول الذين قابلناهم وشرحنا لهم قصة سورية . إلا أنني لم أكن والحمد لله حاضراً هذه المرة لمقابلة المندوب الإسباني بل كان الرصيف وحده . فما كاد يفتح له حديث الاستقلال وحق سورية في الاستقلال إلا وجد المندوب الإسباني نفر وانتثر وقال له - «نحن لا نساعد أبداً أمماً أمثالكم على الإستقلال ويكفي ما عندنا من مسألة الريف» وصادف أن رصيفنا لم يكن يريد إغضابه ظناً بأن مرضاته ربما تفيد شيئاً وأنه هو أيضاً ممن يعتقد المصانعة وكتمان الضمير في السياسة ، فأخذ يبرهن له على أهلية سورية للاستقلال ويؤكد له وجود قسم كبير فيها من المسيحيين . وشرع الإسباني يرد عليه بأن المسيحيين في سورية هم فئة قليلة فأجابه رفيقنا - لا بل عندنا مسيحيون نحو الثلث . وأخيراً فصل السياسي الإسباني الخطاب بأنهم هم أي الأوروبيين لا يجدر بهم أن يساعدوا أمة شرقية على الاستقلال ولو كان فيها مسيحيون . وأتى بهذا الجواب المقشر بدون أدنى محابة ولا محاية . فلينظر إذاً الشرقي وليتأمل .

هذه قضية لم نأخذ منها النتيجة عقلاً بل أخذناها نقلاً بل شفهاً من فم مندوب إسبانية في جمعية الأمم . يكره هؤلاء استقلالنا بالشام لثلاث تشدد بقوتنا نحن عزائم أهل الريف ، ولو كان الإسبان أضداد الفرنسيين . أبعد هذا شك في وجود التضامن بينهم ووجوب التضامن لا بيننا وبين كل أمة إسلامية فقط بل كل أمة شرقية بل كل أمة مظلومة مقهورة مسلمة أو غير مسلمة؟ إذا فليحي محمد بن عبد الكريم . لأن قضيته هي قضيتنا . البيان . (ش) [شكيب أرسلان].

(المنار) ان فيما ختم به مقاله أمير الكتاب، لموعظة وذكرى لأولي الألباب، ومن العجب العجاب، ان أهل الشرق كافة، والمسلمين منهم خاصة والإفريقيين منهم على الأخص، لم يحفلوا بأمر هؤلاء الريفيين على إعجابهم ببسالتهن، وعلمهم بقلّة الوسائل التي بأيديهن، ولو كنا أحياء كالأفرنج الذين يتعاونون على استعبادنا، ويتكافل المتنازعون منهم فيما بينهم في كل ما يقضون به علينا، - لكننا أجدر بإرسال المتطوعين إلى الريفيين، من الإنكليز بالتطوع مع الإسبانيين، وإننا نرى نهضة شعبنا المصري قد دخلت في كل طور من أطوار حياة الأمم إلا طور الجهاد بالنفس، والتمرّن على فنون الحرب، أفلم يكن يجدر بهم أن يغتنموا مثل هذه الفرص - حرب طرابلس وحرب الريف - فيرسلوا حملات المتطوعين من شبانهم التي دلتنا الثورة الأخيرة على شجاعتهم فيها وعدم مبالاتهم بالرصاص في أثنائها، وأن يجدوا من ضباطهم الذين في «الاستيداع» من يقود حملتهم ويدربها؟ بلى والله ثم بلى.

فإن كان هذا طور جديد لما يتح لهم فما بال أغنيائهم الذين حمد العالم لهم بذلهم المساعدة للدولة العثمانية في حروبها ولا سيما حرب طرابلس الغرب وحرب الأناضول لا يمدون أيديهم السخية لمساعدة هؤلاء المنكوبين حتى أن جمعية الهلال الأحمر لم تبال بهم، كأنها لا تشعر بوجودهم؟



أحوال العالم الإسلامي و[أمين] الريحاني. الحجاز. الترك اليمن وتهامة. نجد والكويت

[المفارج ٢٤ (١٩٢٣) ص ٧٩٦ - ٧٩٩]

لا تزال جزيرة العرب على ما يعلم الناس عنها من شقاق وتقاتل في اليمن وتهامة يغضب الله والمسلمين وجميع العرب الصادقين، ويرضي الأعداء الطامعين. ولو أثر الإمام والسيد الإدريسي حقن الدماء على سفكها وانصرف كل منها إلى الأخذ بوسائل العمران في بلاده لكان لكل منها في منطقته أضعاف أضعاف ما يطمع به من توسيع حدوده بالبلاد المتنازع عليها، وأهم ما يتنازعان عليه وأعظمه شأنًا عندهما ثغر (الحديدة) ويمكن أن يتفقا على جعله ثغراً حراً لكل منها حق مساو لحق الآخر في الانتفاع منه بالتجارة ورداً وصدرًا على أن يحمي كل منهما بالتعاون مع الآخر ممن يعتدي عليه، وتكون حكومته وطنية مستقلة ينفق عليها من رسوم المكوس فيها.

وأما نجد فقد ذكرت الجرائد أن سلطانها منح بعض الشركات الإنكليزية امتيازاً كبير الشأن في منطقة الإحساء بزيوت البترول وغيره مما يوجد من المعادن وما يستلزم ذلك من مد الخطوط الحديدية... وأشارت إلى ما في هذا الامتياز من الضرر على هذه البلاد والخطر على استقلالها. وقد بلغنا عن أمين أفندي الريحاني الأديب اللبناني المشهور أنه هو الذي أقنع السلطان عبد العزيز بن سعود بمنح هذا الامتياز للإنكليز وأقنع شيخ الكويت بامتنياز مثله وأنه لم يذهب إلى جزيرة العرب إلا بنفقة شركة إنكليزية معروفة لأجل إقناع أمرائها بإعطائها أمثال هذه الامتيازات فخاب سعيه إلا في نجد والكويت، وكان يظن أن النجاح فيهما أبعد منه في

غيرهما، ولا مندوحة لحكوماتهما إذا لم يتفصيا من إمضائه وإنفاذه أن يعلما بعض نابتتهما لغة القوم وتاريخهم وقوانينهم والقانون الدولي العام والمعاهدات الدولية ليعرفوا كيف يعاملونهم ويتقون بعض مفاسدهم وغوائلهم، فهم بعد تقييد أنفسهم بإدخال الأجانب في بلادهم لا يستطيعون أن يبقوا بمعزل عن العالم المدني، والطريق وعمر، والمركب صعب، وكان الواجب أن تعد لها عدتها، قبل التقحم في مهامه مفازتها. وقد كنت نصحت للمرحوم الشيخ مبارك الصباح بأن يعلم صغار أولاده وأحفاده تعليماً خاصاً فأجابني بأنهم لا يحتاجون إلى العلم!!! وأنى لذي الجهل المركب المطلق أن يشعر بمنفعة العلم؟

ساعد الريحاني على نجاح سياحته في جزيرة العرب ما كان له من حظ الخطوة بمصر ولا سيما احتفال أحمد زكي باشا به في جوار الأهرام ذلك الاحتفال الغريب الذي حضره ألاف من الناس، وشغل الصحف المصرية بالنقد والاستحسان. ذهب بعده الريحاني إلى الحجاز ويقال أن ملكه قد أوصي به، وكان اطلع على ما كتب في الجرائد بشأنه. فغني به وأكرم مثواه، وعرض عليه أن يحليه بلقب أمير فاعتذر، فأهداه هدايا منها خنجر ذهبي مما يتقلده شرفاء الحجاز على بطونهم ويسمى (الجنينة) وزوده بكتب توصية إلى إمام اليمن والسيد الإدريسي وأرسل معه قسطنطين أفندي يني وهو سوري من موظفي حكومته بجدة فجعلها وفداً له، بلغنا أن الإمام أكرمها بضيافته ومجالسه ولكن جعل حديثه معها في المسائل الأدبية والشعر ولم ينالا منه شيئاً مما زاراه لأجله، وكذلك السيد الإدريسي رحمه الله تعالى. وقد كان الريحاني طلب مني توصية كتابية إلى (الحجاز) أمراء الجزيرة فتصلت بلطف لأنني كنت مرتاباً في الحامل له على السفر، ورأيت بعض إخواني جازماً بأنه يقصد خدمة سياسية للإنكليز.

نحمد الله تعالى أن خابت «المعاهدة العربية البريطانية» التي أمر الملك حسين بجعل يوم إعلانها عيداً للأمة العربية التي يدعي افتياتاً عليها أنه

ملكها، وأن جعلنا من المجاهدين في سبيل خيبتها، ودفع ما فيها من الخزي والخطر على بلاد الحرمين الشريفين وعلى ثالثهما وهو المسجد الأقصى، وقد ظهر للعالم كله بطلان دعوى الملك حسين أن المادة الثانية من المعاهدة نص صريح في استقلال فلسطين وسائر البلاد العربية ما عدا (عدنا) وحدها. . . وما كررته جريدته (القبلة) من الكذب والأفك في ذلك، ولا ندري ما يقول أنصاره اليوم - فإذا كان قد تعمد خداع العرب عامة والفلسطينيين خاصة ليكفوا عن جهادهم، ويفوضوا إليه وإلى حليفته إنكلترا أمر بلادهم، فكيف يدعون بعد هذا أنه يخدم العرب ويسعى لاستقلالهم؟ (وان قالوا) إنه هو قد خدع بهذه المعاهدة إذ لم يفهم موادها كما خدع قبلها بمقررات النهضة الناطقة بحماية الإنكليز لبلاد العرب كلها وإن كان هو الواضع لها (قلنا) - أولاً - إذا كان يعقد معاهدات مع أدهى الدول مرة بعد المرة وهو لا يفهم معناها فكيف تتخذونه زعيماً لأمتكم؟ - وثانياً - إذا كان لم يفهم ترجمة المعاهدة بالعربية فكيف لم يفسرها له بالعامية وكيل خارجيته (فؤاد أفندي الخطيب) ومندوبه لدى الدولة البريطانية (الدكتور ناجي الأصيل) اللذين ترجمها لها بل وافقاه على ما فهمه منها خطأ بزعمكم؟ - وثالثاً - إن كانا هما اللذان خدعاه بالترجمة أو بموافقته على سوء فهمه فلماذا لم يعاقبهما على هذه الخيانة ولو بطردهما من خدمته؟ بل لماذا أعاد الدكتور إلى لندن لإتمام المساومة في شأنها وهو لا يزال يرجو إبرامها؟

هذا وأنه بعد هذا يريد عقد مؤتمر عربي في (معان) بدسيسة بريطانية قد بثت الدعاية لها في البلاد السورية كلها، وبذل من المال ما بذل في سبيلها، وسنشرح ذلك وما يجب من تلافي ضرره في مقال آخر.

وقد كان من سوء سياسة الرجل ومقت العالم الإسلامي له أن أبطأ مسلمو الهند فيما قرروه من مساعدة جزيرة العرب على الاستقلال فهو العقبة في طريقها، وإن بثت الدعوة في الهند وأفريقية الواقعة تحت السيطرة

الفرنسية إلى مقاطعة الحجاز بترك أداء فريضة الحج ما دام الرجل مسيطراً عليه . ولا شك في أن هذا يسر حليفته البريطانية والفرنسية وإن لم يشعر أولئك المسلمون في الشرق والغرب بذلك - فنحن - ننكر عليهم ترك الحج الذي هو ركن الإسلام الاجتماعي العام ونجزم بأنه نكبة وجريمة دينية سياسية اجتماعية ، وأن لديهم أسهل الطرق لإنقاذ الحجاز مما جناه عليه هذا الرجل وهو تعزيد الجمعية التي وضعت لحياذه واستقلاله وحفظه من كل نفوذ غير إسلامي ، وسنعلن ذلك إن شاء الله تعالى في الشهر الآتي .

(الترك) ثم نحمد الله تعالى أن تم للترك الاستقلال المطلق بمعاهدة الصلح الأخيرة وقد جرأهم ذلك على التصريح بما كانوا يكتُمونه من جعل حكومتهم جمهورية ، وهو ما سبقنا إلى التصريح به في العام الماضي عقب اطلاعنا على التشكيلات الأساسية للجمعية الوطنية ، وقد ألغيت الأحكام العسكرية فظهرت المعارضة للحكومة الكمالية في مسألة الخلافة الإسمية ، ومسألة أسرة السلاطين العثمانية ، التي هضمت حقوقها بحرمانها من مساواة الأمة في المناصب والوظائف وفي النيابة عن الأمة - ومسألة جعل الغازي مصطفى كمال باشا رئيساً للجمهورية ورئيساً للجمعية الوطنية ورئيساً للحكومة التنفيذية ورئيساً لحزب الشعب الذي ألفه لأجل حصر السلطة كلها فيه ، فنزل عن بعض هذه الرياسات في الظاهر الرسمي وجعلها لأقرب أعضاء حزبه منه - ولو أنه أنجز ما كان وعد به من اعتزال الحكومة بعد نيل الاستقلال كما فعل واشنطنون محرر مملكة الولايات المتحدة في أمريكا لأجمعت الأمم على تمجيده مع الشعب التركي ولكانت رياسته أتم ، ونفعه لقومه أعظم - ولكنه قد استهدف الآن لمقاومات كثيرة فاتهم بأنه يسعى لجعل نفسه حاكماً عسكرياً مطلق التصرف من وراء ستار الجمهورية كما جرى في البلاد الإسبانية ، أو ما هو قريب منه كما جرى في الدولة الإيطالية ، واكتشفت مكيدة لاغتياله ، وانطلقت الألسنة والأقلام بالخوض في شخصه وعمله .

وظهرت في البلاد التركية ولا سيما انقره دعوة الغلو في التفرنج بجعل الحكومة غير دينية كالجمهورية الفرنسية وبإطلاقها للنساء والرجال حرية الإباحة كغشيان التركيات للمراقص، ورقصهن متهتكات مع الأجانب والأقارب، وتمثيلهن أنواع القصص في المسارح، والدعوة إلى تعديل قانون المسكرات وغير ذلك. وقد نشر في الجرائد أن الحكومة الجمهورية ألغت المحاكم الشرعية البتة ويقال إنها منعت تعليم الدين في مدارس الحكومة أيضاً، وعادت دعوة العصبية الجنسية والغلو في التفرنج المنافي للإسلام إلى ما كانت عليه بالصراحة التامة. وظهر أن الحكومة الكمالية كالحكومة الاتحادية التي كانت قبلها، وأنها لا تحالفها إلا في شكلها، على أن أكثر الكماليين في الاتحاديين، وقد ظهر أن من لم ينتظم في السلك الكمالي من بقايا رجالاتهم أحرص على المحافظة على منصب الخلافة فيهم. ونسأل الله تعالى أن يقي هذا الشعب الإسلامي شر الغرور بالمادية وشر الشقاق، فالذي يهمن أن يبقى حصناً من حصون الإسلام في الشرق، وإنما يكون ذلك بنجاح حزب الإصلاح الإسلامي.



خطاب عام



فيما يجب على المسلمين لبیت الله الحرام

[المنار ج ٢٥ (١٩٢٤) ص ٣٣ - ٦٢: ص ١٠٤ - ١١٢: ص ٣٠٥ - ٣١٤: ص ٤٢١ - ٤٣٢: ص ٦٣٠ - ٦٤٠]

بسم الله الرحمن الرحيم

«إن أول بيت وُضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدياً للعالمين * فيه آيات بينات: مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً، ولله على الناس حجٌّ

البيت مَنْ استطاع إليه سبيلاً، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين» [سورة آل عمران رقم ٣، الآيتان ٩٦ و٩٧].

«جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس» [سورة المائدة رقم ٥، الآية ٩٥].

«وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً، واتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» [سورة البقرة رقم ٢، الآية ١٢٥].

«إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد، ومن يرد فيه بإلحادٍ بظلمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ» [سورة الحج رقم ٢٢، الآية ٢٣].

أخبر الله تعالى عباده في آخر كتاب أنزله وكفل حفظه - وهو القرآن - على لسان آخر نبي أرسله وأكمل به دينه العام، وهو محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، أن هذا المعبد المعروف بمكة أم القرى من بلاد العرب باسم الكعبة، والبيت الحرام، والمسجد الحرام، هو أول بيت وضعه تعالى للناس كافة، وجعله قياماً، ومثابة، وأمناً، ومسجداً، للناس كافة، سواء العاكف فيه من المقيمين حوله، والبادي ممن يؤمنونه من مؤمني سائر الأقطار لعبادة الله وحده، فمن دخله كان آمناً بتأمين الله تعالى على نفسه وماله وعرضه وشرفه، وحرية في قوله وفعله، لا مسيطر عليه غير دين الله وشرعه - وجعل حجه ركناً من أركان الإسلام، وجعل الصد عنه وعن سبيله من شأن الكفار، وجعل إرادة الظلم والإلحاد إليه فيه، كاقتراف الظلم في غيره، وجعل السيئات فيه مضاعفة العقاب، كما جعل الحسنات مضاعفة الثواب، بل حرم سبحانه على لسان إبراهيم خليله ومحمد خاتم رسله (عليهما الصلاة والسلام وعلى آلهما) الاعتداء في ذلك الحرم المحيط ببيته على كل ذي حياة حيوانية أو نباتية، فلا يُعَصَّد شجره ولا يُتَخَلَّى خلاه^(١)

(١) أي لا يقطع شجرة ويقلع حشيشه إلا ما رخص فيه النبي من قلع الأذخر لوضعه على الموق عند الدفن وهو نبات طيب الرائحة.

ولا يحل فيه الصيد ولا ترويع الحيوان، ولا يقتل فيه إلا الفواسق الضارة التي تقل في الحل والحرم كالحيات والعقارب والفيران.

وقد صح في الأحاديث النبوية أنه يحرم من المدينة مثل ما يحرم من مكة، وأن الإسلام يبرز بين المسجدين ويأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها، أي ينكمش وينقبض فيه ويعود إليه، وأنه لا يجوز أن يكون هنالك ولا فيما حوله دينان، كما جاء في آخر ما أوصى به عليه الصلاة والسلام.

وقد أجمع المسلمون على أن حج هذا البيت مفروض على كل من استطاع إليه سبيلاً، وأن الأمة الإسلامية مطالبة به في جملتها، لا بد أن يؤديه في كل عام بعض المستطيعين من أفرادها، وهو الركن الروحي البدني المالي الاجتماعي السياسي من أركان دينها، فهي مطالبة بإقامة هذا الركن مع كل ما تتوقف عليه إقامته، وكل ما أوجبه الله تعالى من حرمة وتأمينه، وتحقيق مقاصد الدين من ذلك. ولا نطيل في تفصيل هذا فهو مما لا يحله مسلم في جملته، وإنما أتينا بهذه المقدمة تمهيداً لما نذكر بعدها من الخطر الحديث على هذا الركن الإسلامي وعلى حرم الله وحرم رسوله، وعلى كل ما شرع الله تعالى هنالك من عبادة ونسك وإجلال، وتعظيم للشعائر والمشاعر العظام التي تجدد في قلوب الحجاج والمعتمرين روح الإسلام.

ومن المسلمات التي لا نزاع فيها أن ما أوجبه الله تعالى وشرعه لهذه البلاد وما أوجبه فيها مما أجمعنا التذكير به لا يتم ولا يضمن في هذا الزمان إلا بجعل هذه البلاد المقدسة مصونة من التعدي عليها، ومن جعلها عرضة للغزو والقتال - ومحفوظة من أي تدخل أو نفوذ لغير المسلمين فيها ولا سيما الدول الاستعمارية القوية، وبإقامة حكومة شرعية لها تكون قادرة على حفظ الأمن والشرع، وعاجزة عن الاستبداد والظلم، بمراقبة العالم الإسلامي لها، ومساعدته إياها بالرجال والمال على الوجه الذي نقترحه

بعد، فسكان الحجاز غير قادرين على ذلك حتماً لفقرهم وفقدهم المال والعلم اللذين يتوقف عليهما ذلك.

أيها المسلمون:

إنه لا يخفى على شعب من شعوبكم في مشارق الأرض ومغاربها أن الدولة العثمانية كانت كافلة للحجاز، ومدة لحكومته وأهله بالرجال والمال، وكانت دولة حربية مرهوبة، وذات حقوق دولية مرعية، ومعتز بها بمنصب الخلافة الإسلامية، وهي مع هذا كله لم تؤد لهذا المكان، كل ما يجب له من الأمن والعمران، ولم ترق فيه العلم والعرفان، وإنما كان مصوناً بها من أن يهاجم بحرب أو يمتد إليه نفوذ غير إسلامي وقد زال بزوالها كل من الأمرين:

ذلك بأنها كانت قد نصبت في مكة أميراً اسمه (الشریف حسين بن علي) وأن هذا الأمير خرج عليها وحاربها في الحرب الأخيرة هو ومن أجاب دعوته إلى قتالها، ووالى الدولة البريطانية وأحلافها، وأذاع بالدعاية العامة أنه يريد بذلك إنقاذ البلاد العربية واستقلالها، وكانت دعواه في نفسها معقولة، ثم تبين أنها غير صحيحة، فقد ظهر أنه استبد بالأمر، واتجر بالأمة وسمى نفسه (ملك البلاد العربية) بغير مبايعة ولا رضا من أهل الحل والعقد في جزيرة العرب وهم الأئمة والأمراء والعلماء في بلادها المستقلة كاليمن وتهامه ونجد، ولا في غيرها بالأولى، بل جعل هؤلاء أعداء له وهم يحيطون بالحجاز من كل جانب كما نبينه لكم بالوثائق الرسمية، ورفض ما دعاه إليه أهل البصرة من عقد روابط الحلف وشد أواخي الإخاء بينهم ليكونوا كلهم أعواناً على حفظ الحرمين الشريفين وسياجهما من جزيرة العرب أن ينالها عدوان أجنبي، أو يتسرب إليها نفوذ غير إسلامي، عملاً بوصية النبي ﷺ قبل لقاء ربه في الرفيق الأعلى.

إن هذا الرجل لم يقدم على ادعاء التملك على الأمة العربية بأسرها

ويعادي أمراء الجزيرة المقدسة على ما هو عليه من الضعف، ويعقد بانفراده مع الأجانب المعاهدات السياسية والحربية باسم العرب فيعطيه من الحقوق السياسية والعسكرية ما شاء حتى في الحرمين الشريفين، ومن رقة البلاد بالاحتلال ما شاء - لم يفعل هذا كله إلا اعتماداً على قوة هؤلاء الأجانب، فقد تواطأ واتفق معهم على اقتسام السلطان والنفوذ بينه وبينهم في مهد الإسلام من غير مشاورة أحد من أصحاب الزعامة والسلطان كالأمراء والأئمة، ولا من أهل العلم والرأي في هذه الأمة.

فهو بهذا وذاك قد أدخل النفوذ الأجنبي غير الإسلامي في الحجاز، وجعله ملكاً سياسياً حربياً معرضاً للغزو والقتال، ولم يقف عند حد هاتين الجنايتين الخارجيتين، بل استبد وظلم، وألحد في الحرم، كما ثبت ذلك بالحجج الآتية، ولا غرض لنا إلا بيان الواقع ليعلم أمراء العرب وزعمائهم وعلماء المسلمين وكبرائهم ما يجب عليهم من تغيير المنكر. ومنع الخطر المنتظر. ولو بإقناع هذا الرجل بما يجب. وإقناع الحكومة الإنكليزية بترك معبد المسلمين الأكبر وقبلتهم لهم. وعدم تصديها لها بحيل المعاهدات وغيرها. ونرى أن هذا خير لنا ولها من ضم العداوة الدينية إلى العداوة السياسية. وهذا ما نريد بيانه من الوثائق وقد سبق نشر بعضها.

(وثائق الجناية الأولى: وضع الحجاز تحت النفوذ والسلطان الأجنبي).

الأولى: مقررات النهضة

من المعلوم المشهور أن هذا الرجل يسمي خروجه وثورته التي هي افتيات على العرب والإسلام «بالنهضة» ومن أعياده الرسمية «عيد النهضة» ومن أوسمته الملكية «وسام النهضة» ويسمي المواد التي عرضها على الدولة البريطانية والتزمها وقيّد نفسه وأمتة وبلادها بها بغير حق ولا أهلية «مقررات النهضة» و«أساس النهضة» وقد كان يكتّم هذه المقررات ويضن بها على كل أحد حتى أولاده قواد جيش ثورته - حتى إذا ما فشت الحرب

وجاء وقت اقتسام الغنائم ومنها حصته من السلطان على البلاد العربية كلها في ظل الحماية البريطانية، أنكرت عليه حليفته بريطانية العظمى ما يدعيه لنفسه منها - فحينئذ - سمح بإعطاء ولده (الأمير فيصل) صورة «مقررات النهضة» ليناضل له بها، وقد اقتضت الحال نشره إياها باسمه في جريدة المفيد التي كانت تصدر في دمشق على عهد إمارته لها، ونقلتها عنها صحف كثيرة في مصر والهند وغيرها، وهذا نصها:

(١) - تتعهد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معاني الاستقلال في داخليتها وخارجيتها وتكون حدودها شرقاً من بحر خليج فارس ومن الغرب بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الأبيض شمالاً حدود ولاية حلب والموصل الشمالية إلى نهر الفرات ومجمعة مع الدجلة إلى مصبها في بحر فارس ما عدا مستعمرة عدن فإنها خارجة عن هذه الحدود. وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات والمقاولات التي أجرتها بريطانيا العظمى مع أي شخص كان من العرب في داخل هذه الحدود بأنها تحل في محلها في رعاية وصيانة تلك الحقوق وتلك الاتفاقيات مع أربابها أميراً كان أو من الأفراد.

(٢) - تتعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من أي مداخلة كانت بأي صورة كانت في داخليتها وسلامة حدودها البرية والبحرية من أي تعد بأي شكل يكون حتى ولو وقع قيام داخلي من دسائس الأعداء أو من حسد بعض الأمراء فيه تساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع ذلك القيام لحين اندفاعه. وهذه المساعدة في القيامات أو الثورات الداخلية تكون مدتها محدودة أي لحين يتم للحكومة العربية المذكورة تشكيلاتها المادية^(١).

(١) توهم واضح هذا القيد أنه احتسب به عن جعل الاحتلال دائماً جهلاً منه باحتلال مصر وبأنه لا يمكن له ولا هي تمكنه من إتمام ما ذكر.

(٣) - تكون البصرة تحت إشغال العظمة البريطانية حينما يتم للحكومة الجديدة المذكور تشكيلاتها المادية ويعين من جانب تلك العظمة مبلغ من النقود يراعى فيه حالة احتياج الحكومة العربية التي هي حكمها قاصرة في حوض بريطانيا وتلك المبالغ تكون في مقابلة ذلك الإشغال.

(٤) - تتعهد بريطانيا العظمى بالقيام بكل ما تحتاجه ربيبتها الحكومة العربية من الأسلحة ومهماتا والذخائر والنقود مدة الحرب.

(٥) - تتعهد بريطانيا العظمى بقطع الخط من مرسين أو ما هو مناسب من النقط في تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن البلاد لعدم استعدادها. اهـ.

فملخص هذه المقررات: أن الدولة الإنكليزية هي صاحبة البلاد العربية. وأنها بما لها من حق التصرف فيها تؤسس لواضعها «أمير مكة» دولة منها تسمى مستقلة مع كونها قاصرة في حجرها وحضنها، وتحت حمايتها في داخلها وخارجها، حتى لو حصل قيام داخلي على ملكها في حرم الله تعالى أو حرم رسوله ﷺ كان على الإنكليز أن يساعده مادة ومعنى على قمعه، ويدخل في هذا إدخال جيوشها في الحرمين الشريفين لأجل حفظ ملكه فيهما.

فما تقولون أيها المسلمون فيمن يعطي هذه الحقوق لدولة غير مسلمة في الحرمين الشريفين وسياجهما؟ هل هو مشروع موافق لتلك الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والوصية الحمديدية، والأحكام الإسلامية، التي ذكرناكم بها في مقدمة هذا الخطاب؟ أم هو جناية على الحرمين وسياجهما ومشاعرهما وعلى الملة الإسلامية والأمة العربية فيجب عليكم السعي لإزالتها؟

إن الدولة البريطانية قد سجلت على هذا الرجل كل ما اعترف لها به من الحقوق على أمته وبلادها في هذه المقررات وغيرها، ولكنها لم تجبه إلى

كل ما طلبه لنفسه منها، بل استثنت سورية الشمالية من المملكة العربية لأجل حليفها فرنسة، وحملته على الاعتراف بحقوق لها في سائر العراق فلم تقنع بولاية البصرة التي سمح لها من تلقاء نفسه.

الوثيقة الثانية: كونه موظفاً بريطانياً

إن هذا الرجل هو الذي انفرد بإعطاء الدولة الإنكليزية الحق بأن تؤسس له دولة عربية تكون تحت حمايتها، وفي حكم القاصر في حضانتها، وهو الذي اختار لنفسه أن يكون من جملة رؤساء الممالك المنضوية إلى كف امبراطوريتها، وكم في هذه الامبراطورية من ممالك تسمى مستقلة، وكم فيها من أمراء وملوك وسلاطين؟ فلا غرو ولا عجب منه إذا صرح ونشر في جريدته (القبلة) ما يصرح بأنه عامل موظف عندها. وأنه هو وأولاده كالبلاد رهن تصرفها. ونكتفي بشاهدين على ذلك من جريدته القبلة:

(الشاهد الأول) لما علم هذا الرجل أن الحكومة البريطانية قررت عرض مطالبه على مؤتمر الصلح وإعطائه ما يقرره المجلس - أرسل كتاباً منه إلى نائب ملكها بمصر بتاريخ ٢٠ ذي القعدة ١٣٣٦ نشره بعد ذلك مراراً في جريدة القبلة وقد جاء فيه ما نصه:

«فإن كان لا بد (?) من التعديل فلا لي (?) سوى الاعتزال والانسحاب ولا اشتبه في مجد بريطانيا أن يتلقى هذا منا إلا أنه أمر (?) يتعلق بالحياة لا لقصد عرضي، ولا لفكر غرضي، وأنها لا ترتاب في أنني وأولادي أصدقاءها الذين لا تغيرهم الطوارئ والأهواء، ثم تعينوا (?) البلاد التي تستحسن إقامتنا فيها بالسفر إليها في أول فرصة.

«وإن رأت ذلك ولكن مشاكل الحرب الحاضرة تقتضي بتأجيله إلى ختامها فحقوق الوفاء والجميل يفرض علينا الثبات أمام ما سيتضاعف علينا من التهمات ونحوه من العموم مما لا مقاومة لدينا أمامها إلا حسن النية - فالأمر إليها.

«أما عطف الأمر وتعليقه بمؤتمر الصلح فالجواب عليه من الآن بأنه لا علاقة لنا به ولا مناسبة بيننا وإياه حتى ننتظر منه سلباً أو إيجاباً، ولو قرر المؤتمر المذكور أضعاف مقرراتنا وكان ذلك من غير وساطتكم وقبلناها فنكن (?) من المطرودين من رحمة الباري جل شأنه الرقيب على قولي هذا» اهـ.

نقلنا هذا بحروفه حتى أغلاطه اللفظية عن العدد ٣٩١ من جريدة القبلة الذي صدر بمكة المكرمة في ٢٣ رمضان سنة ١٣٣٨ وهو نص في جعل هذا الرجل إخلاصه في التبعية البريطانية تعبداً وأنه يقبل من الدولة الإنكليزية نفية مع أسرته من وطنه ولا يقبل من سائر الدول أضعاف مقررات استقلال الحماية لمصلحة الأمة بل يعده كالكفر بالله والطرده من رحمته!!!

(الشاهد الثاني) إنه قد استقال في هذا الكتاب من منصبه (ملك الحجاز) لدى الدولة البريطانية استقالة معلقة ويظهر أنه قد رفع استقالته إلى الحكومة البريطانية بلندن مباشرة بعد الاستقالة الضمنية بهذا الكتاب كما يفهم من نص البرقية الآتية التي أرسلها إلى مدير جريدة التيمس الإنكليزية يتوسل بها إلى قبول استقالته التي تكررت وهذا نصها منقولاً من العدد ٥٥٣ من جريدة القبلة:

«المدير العمومي لصحيفة التيمس.

«اطلعت على عددكم المشتمل الرد والقدح باتحاد العرب والتزامكم أحد أمرائهم^(١) ولزيادة إقناع حكومة جلالة الملك وإيضاح الحقيقة لعموم الشعب النجيب البريطاني أكرر بهذا طلبي بواسطتكم من حكومة جلالته تأكيد تعيين الأمير المذكور أو من تراه ليستلم البلاد فإن غايي الراحة العمومية وخدمتها كما يعلم من أساسات قيامي وشرائطه يؤيده طلبي هذا المثبت للحقيقة من سائر وجهاتها».

(١) يعني سلطان نجد إذ كانت التيمس قد أثنت في ذلك العدد عليه.

وهذا نص صريح قطعي في اعتراف الملك حسين بأنه تابع للحكومة الإنكليزية وخادم لها وبأنها هي صاحبة الحق في عزله وتولية من تشاء على الحجاز وغيره من بلاد العرب، وبأن هذا من «أساسات قيامه وشرائطه» يعني ما يسميه مقررات النهضة، ولو لم يكن له إلا هذه الخزية لما احتيج إلى حجة غيرها على جعل الحرمين الشريفين تحت السيادة البريطانية ومن ضمن مستعمرات التاج البريطاني، وكفى بذلك عداوة وإهانة للإسلام والمسلمين كافة، وإضاعة لإستقلال العرب خاصة، توجب على مجموعهم التعاون على إزالة هذا المنكر الأكبر والخطر الأعظم، فإن لم يفعلوا كانوا كلهم عصاة لله تعالى هادمين لأركان دينه ومحقرين لما أوجب عليهم من حفظ شعائره ومشاعره.

الوثيقة الثالثة : المعاهدة الجديدة

خاب أمل هذا الرجل في الإنكليز فلم يجعلوه ملكاً على جميع البلاد العربية بقوتهم وسلطانهم كما اقترح عليهم في «مقررات النهضة» والحجاز وحده لا يشبع مطامعه، وليس من مصلحة الإنكليز أن يقاتلوا أمراء جزيرة العرب لأجل إخضاعهم له وتحقيق جعله ملكاً عليهم ولا أن يجعلوه حاكماً من قبلهم على العراق وفلسطين، لأنه على خضوعه لهم ليس عنده لين ولده فيصل ومرونته، ولا فرق ولده عبدالله واستسلامه، وقد جعلوا الأول ملكاً على العراق ليروض لهم صعباب الشيعة الجامحة بشهرة نسبه وخلابة لسانه، ويسلس لهم قياد رؤساء الجند وزعماء الشعب بدمائة نفسه وجود بنانه، وجعلوا الثاني أميراً على شرق الأردن ليكف عن فلسطين عادية قبائل العرب ويمكن لهم السلطان في هذه المنطقة فيؤسسوا فيها حظيرة الطياريات التي هي العمدة الأخيرة لهم في تذليل جزيرة العرب وأمثالها بدون نفقة كبيرة ولا سفك دماء من جندهم - ويمهدوا بنفوذهم في البدو طرق السيارات والدبابات في قلب البلاد العربية، تمهيداً لما سيشرعون به من مد سكة الحديد العسكرية الحربية بين فلسطين والعراق

ليتصل البحر الأحمر بخليج فارس، ولقد صدق عليه وعلى أخيه ظن وزير المستعمرات البريطانية، فيما ضمنه لحكومته وأمته من تقليل نفقات الاستيلاء على هذه البلاد العربية، ولكن أباهما لا يرضيه إلا أن يكون هو ملك البلاد العربية كلها كما لقب نفسه، فهو ما زال يلح ويلحف في مطالبة الحكومة البريطانية بإنجاز وعدها له على ما فيه، وما زالت تعرض عليه ما لا يرضيه، حتى جاءه الدكتور ناجي الأصيل مندوبه لديها في شهر رمضان الماضي (سنة ١٣٤١) بالمعاهدة الجديدة فرضي بها وأعلنها بمكة المكرمة في عيد الفطر وأمر بأن يكون يوم إعلانها عيداً سياسياً للأمة العربية بأسرها، وأمضاها بالتوقيع الابتدائي مع طلب تعديل جزئي غير جوهري في بعض موادها غير الأساسية.

وإننا نذكر هنا أهم مقاصدها السياسية المنافية لمصلحة العرب والإسلام المؤكدة لما تقدم من جعله الحجاز تحت سيادتها وحمايتها بمنتهى الإيجاز معتمدين على ترجمة ما نشرته حكومة فلسطين الإنكليزية من الخلاصة الرسمية لها، وهي:

أهم غوائل المعاهدة الحجازية البريطانية

(١) «تنص المادة الأولى على منع استعمال بلاد كل من الحكومتين قاعدة لأعمال موجهة ضد الحكومة الأخرى» هذا نص الخلاصة الرسمي وفيه الغنم للإنكليز، والغرم على العرب وغيرهم من المسلمين، فهي تسلب أهل البلاد وغيرهم من حجاج الآفاق حرية التعاون والتشاور هنالك في أي مصلحة لهم في دينهم ودنياهم تعدها الدولة البريطانية «ضدها» وإن كانت خاصة بمصالح المسلمين الدينية كاضطهادها إياهم أو ظلمهم في أمر يتعلق بدينهم كالحج نفسه، وما زال المستعمرون للبلاد الإسلامية يخافون أن يستيقظ المسلمون من رقادهم الاجتماعي والسياسي ويتعاونوا على مصالحهم الإسلامية المشتركة في هذا المجمع العام، عند بيت الله الحرام،

فأعطى الملك حسين كبراهن السلطة على زهاء مئة مليون مسلم مأربها، وليس لأهل الحجاز ولا لغيرهم من العرب أو المسلمين ولا للملك حسين أدنى فائدة في مقابلة هذه الغائلة، فإن الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تمنع أهل بلادها مثل هذه الحرية الذي يتعهد ملك الحجاز بمنعها منه، إذ يرى أنه ماله لرقاب أهله ونواصي كل من لا حامي له من دول الأجانب ممن يحج بيت الله فيه، فإن الحرية في بلاد الإنكليز أقوى من كل معاهدة تعقدها أي حكومة فيها، ولكن ملك الحجاز يظن أن حكومة الإنكليز تستطيع أن تعمل في لندن وليفربول كل ما يستطيع هو أن يفعله في أهل مكة وجدة المستضعفين المستعبدين.

على أن الإنكليز أبرع خلق الله في التفصي من قيود المعاهدات التي يعقدونها مع الدول الكبرى بالتأويل كما قال أعظم ساسة أوروبا في عصره (البرنس بسمارك) فكيف يبالون بضعيف رضي لنفسه ولقومه سيادتهم عليهم؟ فأذا فرضنا أن بعض الإنكليز في بلادهم أو بعض رعاياهم من مسلمي الهند قاموا بعمل ضد حكومة الحجاز ولم تمنعهم حكومتهم فهل يستطيع ملك الحجاز أن يثبت ذلك ويكره الحكومة الإنكليزية على منعهم؟ لا، لا، لا.

(٢) من قضايا المادة الثانية تعهد ملك الإنكليز بتعزيد استقلال البلاد العربية التي اعترف باستقلالها، بالمعنى الذي لا ينافي الانتداب ولا الحماية بدليل كون فلسطين والعراق منها، وهذا التعهد يعطيه حق التدخل في شؤون هذه البلاد الداخلية باسم التعزيد ومنها الحجاز واليمن ونجد، كما جعلت حكومته وحكومة فرنسا لأنفسهما حقاً في عزل ملك اليونان بحجة أنها وعدتا بتعزيد استقلالها وأن أعمال ذلك الملك تنافي الاستقلال.

(٣) تتضمن هذه المادة إقرار الانتداب على العراق وعلى فلسطين أيضاً، وعبر عن هذا فيها بأن ملك الحجاز «يعترف بالمركز الخاص الذي لملك الإنكليز فيهما» وما هو إلا الانتداب ولوازمه، ومنه الاعتراف بعهد

بلفور في جعل هذه البلاد وطناً لليهود، وتتضمن فوق هذا تعهد ملك الحجاز ببذل غاية جهده في التعاون مع ملك الإنكليز على القيام بتعهداته في البلاد العربية (ومنها عهد بلفور والاتفاق مع فرنسا على سورية).

(٤) في المادة الخامسة «يتعهد صاحب الجلالة البريطانية بأن يصد بجميع الوسائل السلمية والممكنة أي اعتداء يقع على بلاد جلالته الهاشمية ضمن الحدود التي تقرر نهائياً» وهذا نص صريح بإعطاء الإنكليز حق حماية الحجاز ولهذا صرح الملك حسين بأن هذه المعاهدة مبنية على أساس مقررات النهضة وسيأتي نص عبارته في هذا.

(٥) تنص المادة السادسة على تعيين وكلاء سياسيين وقناصل للإنكليز في الحجاز وفي البلاد البريطانية للحجاز - والحجاز في غنى عن هذا التدخل الأجنبي السياسي بما سيجيء بعد.

(٦) يعترف ملك الحجاز في المادة السابعة للإنكليز بحق الحجر الصحي على حجاج الشرق والجنوب، ويعترف له ملك الإنكليز بالتدابير المتممة لذلك في ثغور الحجاز، وفي كل من الأمرين سيادة لملك الإنكليز على الحجاز وتحكم في الحجاج، فإن القانون الدولي يعطي لكل دولة الحق بأن تحجر على الموبشرين الذين يريدون دخول بلادها، وملك الحجاز أعطى حقه هذا للإنكليز واستمد من ملكهم حق الأعمال المتممة له في بلاده هو أي الحجاز ولم يسمح بمثل هذا الحق للحكومة المصرية الإسلامية، وما ذلك إلا أنه يعد نفسه تابعاً للدولة البريطانية كما تقدم في الوثائق السابقة.

(٧) يتعهد ملك الإنكليز في المادة الثامنة بأن لا يتدخل في التدابير التي يتخذها ملك الحجاز للاعتناء بالحجاج، ويتعهد ملك الحجاز بتعريض المساعي التي يبذلها مسلمو الرعايا البريطانيين لمساعدة الحجاج في الحجاز، فالأول مبني على الاعتراف بسيادة ملك الإنكليز على الحجاز إذ لا معنى لتعده بعدم التدخل في أمر الاعتناء بالحجاج إلا أن هذا وأمثاله من حقه وقد أباحه لملك الحجاز، والثاني مما أنكر ملك الحجاز مثله على الحكومة

المصرية إذا أرسلت مع ركب الحج المصري بعثة طبية فلم يقبلها محتجاً بأن قبولها ينافي الاستقلال؟ أليس معنى هذا أن استقلاله واقع في ضمن دائرة الأمبراطورية البريطانية التي تضم كثيراً من المستعمرات التي تسمى مستقلة؟

(٨) المادة التاسعة «تنص على تعيين مبلغ محدود يفرض على كل حاج» وهي معترضة من ثلاثة أوجه:

(أحدها) أن ضرب أتاوة أو غرامة على كل من يحج بيت الله تعالى محرم في الشريعة الإسلامية بالإجماع يدخل في عموم قوله تعالى «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل» وعموم «ولا تشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً» فقد قال تعالى في شأن بيته «فيه آيات بينات» وهو كفرض الضرائب على الصلاة والصيام، ومن يستحل ذلك يعد مرتدّاً عن الإسلام، ويعد أيضاً من الصد عن سبيل الله ويدخل في عموم قوله «إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس» الخ.

(ثانيها) أن وضع هذا التعدي على شرع الله ودينه وحجاج بيته الداخلين في أمانه - في معاهدة مع دولة غير إسلامية لا يعقل له سبب إلا الاستعانة بها على تنفيذه، والاعتماد على حمايتها في قهر جميع المسلمين على الإذعان له.

(ثالثها) أنه قد يكون مثار فتن بين الحكومات الإسلامية وبين ملك الحجاز تؤدي إلى تدخل هذه الدولة الحامية في الحجاز لتنفيذ عمل محرم في الإسلام يعد مستحله والراضي به كافراً خارجاً منه. ذلك بأنه إذا امتنع حجاج نجد واليمن وتهامة من جيران الحجاز عن دفع هذه الضريبة فلا سبيل إلى تنفيذها إلا أن يجبرهم ملك الحجاز عليها أو يصدّهم عن أداء الفريضة بقوة السلاح؟ وهو غير قادر على ذلك بنفسه؟ فإذا قاوموه وحاولوا دخول الحرم بالقوة لا يكون له معول في صدّهم إلا على إرسال الجند

البريطاني ليحيطوا بالحرم الشريف ويصدوا عنه هؤلاء الحجاج تنفيذاً لهذه المعاهدة ولمقررات النهضة؟

(٩) المادة الحادية عشرة وما بعدها إلى السادسة عشرة في امتيازات قضائية للدولة البريطانية في الحجاز تنافي الاستقلال الصحيح وتنفيذ الشرع الإسلامي فيه وتؤكد ما تقدم بيانه .

هذه بعض غوائل هذه المعاهدة ومفاسدها، وقد انفرد هذا الرجل المستبد في حرم الله تعالى بالتعاقد مع الإنكليز عليها، كأن حرم الله تعالى وحرم رسوله ملك له يتصرف فيه كما يشاء لا يتقيد بنص شرعي ولا بمشاورة أحد من أمراء المسلمين وعلمائهم .

فإن قيل أن المعاهدة لما تمض وتوضع موضع التنفيذ؟ قلنا نعم ولكن السبب الأول لذلك هو رفض الفلسطينيين لها، ولا تزال المفاوضات بين هذا الرجل وبين الإنكليز دائرة في حل المسألة الفلسطينية لأجل تنفيذها، والراجح أن مجيئه إلى فلسطين يقصد به قبل كل شيء إقناع أهلها بنص خادع فيها إذ لم ينخدعوا بالنص الأول .

الوثيقة الثالثة [الرابعة]: اتخاذ يوم إعلان هذه المعاهدة عيداً

جاء في العدد ٦٨٨ من جريدة القبلة الذي صدر بمكة المكرمة في ٥ شوال سنة ١٣٤٢ بعد بيان الاحتفال الرسمي بعيد الفطر ما نصه :

عيد على عيد

(اعلان استقلال العرب ووحدتهم في جميع الجزيرة العربية)

ولما استقر بجلالة المنقذ المقام، في بهو الاستقبال العام، مثل بين يدي جلالته الأشراف والسادة العلماء والأعيان والوجهاء وأماثل الأمة على اختلاف طبقاتها حاضرها وباديها، وحينذاك تفضل جلالته ففاه بخطاب ملوكي سام حمد الله فيه وأثنى عليه ثم أشار إلى أن هذا العيد المبارك لا

شك في تضاعف يمنه حيث صادف قبول المراجع الإيجابية^(١) لجميع المطالب العربية، فلا ريب في أنه يوم اجتمع فيه عيدان؟ عيد الفطر السعيد وعيد الاعتراف باستقلال العرب ووحدتهم وعليه فجلالته يعلن ذلك للأمة العربية حاضرها وبآديها.

وعلى أثر ذلك أمر جلالته صاحب الإقبال رئيس الديوان العالي أن يلقي في ذلك المحفل الجليل الخطاب الملوكي الهاشمي الآتي، وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«نصرح في هذا العيد المبارك بمآل المعاهدة العربية البريطانية المؤسسة على مقرراتنا الأساسية والتي يعترف بها صاحب الجلالة البريطانية لنا باستقلال العرب بجزيرتهم وسائر بلادهم، ويتعهد لنا حشمته الملوكية بالمعاضدة الفعلية لتأسيس الوحدة العامة الشاملة لكل هذه البلاد بما فيها العراق وفلسطين وشرق الأردن وسائر البلاد العربية في جزيرة العرب (ما خلا عدن) فنأمر أن يعتبر هذا اليوم المبارك عيد الاعتراف باستقلال الأمة العربية والله ولي التوفيق» انتهى.

هذا نص خطاب الملك الرسمي بحروفه، وقد نشرت جريدة القبلة عقبه خطاباً ألقاه الدكتور ناجي الأصيل سمسار هذه الخديعة وحسبنا التصريح الرسمي من الملك حسين بأن هذا الاستقلال مبني على أساس نهضته أي حماية الإنكليز لبلاد العرب ووصايتهم على أهلها كما علم من الوثيقة الأولى ولكن الناس يغفلون عند القراءة فيظنون أن المراد الاستقلال الحقيقي المطلق من كل قيد.

ولهذا يتعجب بعضهم من تصريحه هو وأولاده وجريدته (القبلة تسمية

(١) هذه الكلمة من الاصطلاحات التركية وهي بمعنى أولي الأمر والمراد هنا الحكومة الإنكليزية لأنها في عرف ملك الحجاز ولية أمر الحجاز وسائر العرب والوصية عليهم كما سيأتي.

العراق وشرق الأردن مستقلة فليس معنى الاستقلال عندهم إلا جعل الدولة الإنكليزية إياهم ملوكاً وأمراء في البلاد العربية تحت حمايتها إذ يعدون هذه البلاد ملكاً لها. فلو سمي عبدالله أو أخوه زيد ملكاً على سورية أي المدن الأربع منها - صارت مستقلة عندهم ، وصار الانتداب مساعدة ومحالفة في عرفهم .

الوثيقة الرابعة [الخامسة]: خداع أهل فلسطين

بيناً أن المعاهدة العربية البريطانية مشتملة على إقرار الانتداب وعهد بلفور ضمناً ولكن الملك حسيناً قد أرسل البرقية الآتية إلى أهل فلسطين ونشرت في جرائدها والجرائد المصرية ، وهذا نصها :

إلى عموم أهالي فلسطين

رغبة في وقوفكم على الحقيقة وضرورة إعلانها للعموم لقد صرحنا في هذا العيد المبارك بمآل معاهدتنا العربية البريطانية المؤسسة على مقرراتنا الأساسية التي يعترف بها صاحب الجلالة البريطانية لنا باستقلال العرب في جزيرتهم وسائر بلادهم ويتعهد لنا حشمته الملوكية بالمعاضدة الفعلية لتأسيس الوحدة العامة الشاملة لكل هذه البلاد بما فيها العراق وفلسطين وشرق الأردن وسائر البلاد العربية في جزيرة العرب ما خلا عدن . وهذا من منن الباري علينا وعلى عظمتها بالوفاء بمواعيدنا وأقوالنا للعرب رغماً عما نسبوني وعظمتها إليه من هضم حقوقهم وكلما يرمونا به ولا نشك أن هذا العيد المبارك سيعتبر أيضاً عيداً ميموناً باستقلال الأمة العربية .

ولا أحتاج لتحذيركم عن إحداث أي شيء يخل بالراحة والسكون بأي صورة كانت لما في ذلك من ضياع الحقوق فإنكم المسؤولين عن ذلك وباقي المعاملات تردكم عقب هذا .

حسين

هذه البرقية هي التي حملت حكومة فلسطين الإنكليزية الصهيونية على نشر خلاصة المعاهدة التي كان الملك حسين قد كتبها وأراد إقناع أهل فلسطين وسائر العرب بقبولها والإذعان لها ثقة ببيانه هو - كما فعل بمقررات النهضة منذ بدأ بالثورة فكانت جريدته (القبلة) وجريدة الكوكب التي أنشأها الإنكليز بمصر وغيرها من الجرائد المستأجرة للإنكليز يذعن في العالم أن الأمة العربية قد ضمن لها استقلالها وإعادة مجدها بولائها لإنكلترا وحلفائها.

ولما نشرت خلاصة المعاهدة وعلم أنها مقررة للانتداب لا نافية له بلغ رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الفلسطيني الملك حسين ذلك فأجابه الملك ببرقية هذا نصها «حسنوا الظن» وفاته أن اليقين لا ينقض بالظن وأن تقليد أهل فلسطين له وهم على علم بالحقيقة محال فهم لم يقبلوا برقيته ولا غيرها مما نشر في جريدته الكاذبة الخاطئة من المكابرة وتكذيب حكومة فلسطين وجرائد العالم . . . بل ألفوا مؤتمراً قرروا فيه عدم الاعتراف بالمعاهدة وبأن ملك الحجاز لا يملك أن يقرر شيئاً في شأن بلادهم افتئاتاً عليهم وبلغوه ذلك هو والدولة البريطانية - ولا نطيل بنشر ما لم نشر من الوثائق في ذلك لقرب العهد بها، وعلمنا أنه لا يكابرنا أحد فيها.

ولقد كان من عجب العقلاء الذي لا ينتهي أن ملكاً ينفرد بوضع نصوص معاهدة سياسية مع أدهى دول الأرض وأحذقهن وأدقهن في استعمال الألفاظ القابلة للتأويل، ثم أنه يفسر هذه المعاهدة بخلاف المتبادر من نصها ويخاطب بذلك أهل بلاد واسعة ليحملهم على الرضا بإضاعة وطنهم وجعل رقبته وحكمه لغيرهم، ويخطيء كل من يخالفه في ذلك حتى حكومة فلسطين البريطانية والجرائد الإنكليزية - دع العربية وغيرها - ومن شاء فليراجع في ذلك (العدد ٦٩٠ و٦٩٦ من جريدة القبلة. والمنشور الرسمي في العدد ٧٠١ الذي يرد به على المصريين خاصة). ثم يعلم أنه قد ظهر للعالم كله أنه هو المخطيء فيما فهمه أو ما نشره مخالفاً لفهمه

فيرجع عنه: وجه العجب الذي لم يعرف له نظير أن الملك حسيناً إن كان قد نشر ما نشر من تفسيره المعاهدة المخالف لنصها وهو يفهم معنى النص فتلك خيانة توجب عدم الثقة بقوله وعمله وأمانته، وإن كان نشره وهو لا يفهم معناه ولم يفهمه إياه نائبه لدى الدولة البريطانية ولا ناظر خارجيته فالمصيبة أعظم إذ هو حجة على أنه ليس أهلاً لعقد المحالفات ولا لتولي الأحكام ولا لنصب العمال - إذ يكون معتمده لدى الدولة البريطانية ووزير خارجيته قد خاناه بكتمان معنى المعاهدة حتى حملاه على التصريح بتضمنها لاستقلال جميع البلاد العربية - ما عدا عدناً - وبحمل أهل فلسطين على قبولها، ثم ظهر الأمر وافتضح، وبقي الرجلان موضع ثقته في أعماله السياسية الدولية!! على أن الظاهر المتبادر هو الأول وهو أنه صرح بما صرح به على علم بأنه عبودية للإنكليز لا استقلال كما أنه اغتبط باحتفال ولده الأمير عبدالله باستقلال شرق الأردن ونشر ما قيل فيه بجريدته وهو يعلم أنها تحت الوصاية البريطانية والتي لا تنافي الاستقلال عنده بل تقتضيه.

طور آخر وتصريح جديد

بعدها نشرت جريدته في العدد ٧٣٢ الذي صدر في ١٩ ربيع الأول سنة ١٣٤٢ مقالاً ذكرت فيه أنه صرح لبعض الحجاج من البلاد العربية المختلفة بما يدل على اعتراف بخطائه فيما صرح به في أول شوال وما كتبه بمعناه لأهل فلسطين وهو كسائر كلامه المتعارض أو المتناقض، وهذا نصه:

«يهمني من جميع البلاد العربية ما يهمني من أمر بيت الله الحرام وقد عرضت عليّ الحكومة البريطانية معاهدة وجدت في بعض موادها ما لم يتفق مع العهود المقطوعة لي التي تأسست عليها أعمال النهضة فعدلت تلك المعاهدة تعديلاً هاماً نصصت فيه على استقلال فلسطين استقلالاً مطلقاً يخول للفلسطينيين إدارة بلادهم بأنفسهم واختيارهم طريقة الحكم التي

يريدونها وبذلك جعلت وعد بلفور في حكم أنه لم يصدر وقضى عليه بالموت وفوق ذلك فأنني طلبت في التعديل أنه بعد عقد المعاهدة يؤمر المندوب السامي بفلسطين أن يصرح - بحضور مندوب من قبلي أمام ممثلي فلسطين - باستقلال الأقطار الفلسطينية استقلالاً تاماً مطلقاً ودخولها صراحة في الوحدة العربية طبقاً للعهد البريطانية المقطوعة لي، وأؤكد لكم أنه إذا لم تقبل الحكومة البريطانية التعديلات التي طلبتها فلا يمكن أن أوقع على المعاهدة بل أرفضها رفضاً باتاً وكونوا على ثقة أنه لا يمكن أن يذهب شبر من أراضي فلسطين وأنا وأولادي أحياء على وجه الأرض فإننا نحافظ على أحقر قرية في فلسطين محافظتنا على بيت الله الحرام ونريق في سبيل ذلك آخر نقطة في دماننا وعلى كل حال فإنني بعد انتهاء أمر المعاهدة سأحضر بنفسني إلى أطراف تلك البلاد فإذا ورد جواب لندن على مطالبي بالإيجاب أستشيركم في طريقة الحكم التي تريدونها وإذا ورد جوابها بالسلب أستشيركم فيما يجب عمله وأنني أسير معكم على ما تتفقون عليه، وكونوا على ثقة أنني أنظر إلى أهل فلسطين نظري إلى أولادي ولا أفرق في ذلك بين مسلم ومسيحي ويهودي وطني ومن يرجع من الصهيونيين عن أطماعه البلفورية، وأنني أشهد الله على ذلك وهو حسبي ونعم الوكيل» اهـ وسنين غرضه من هذا التصريح عند ذكر نتيجة هذه الوثائق كلها.

الجنائية الثانية عداؤه لأمراء جزيرة العرب

(وتعريضة الحرمين الشريفين للغزو والقتال)

لوشئنا لأتينا بوثائق كثيرة من جريدة القبلة ثبتت هذه الجنائية كالمنشورات الرسمية الصادرة باسم الملك حسين في الطعن بدين أهل نجد وتكفيرهم وزعمه أنه يجب على ولي أمر المسلمين (يعني نفسه) عقابهم الذي يقتضيه الشرع أي قتالهم قتال أهل الردة وغير ذلك من التحرش بهم والتصريح بعداوتهم والاستعداد لقتالهم والاعتداء عليهم بالفعل (كمنشور

٩ شوال سنة ١٣٣٦ الذي نشر في عدد ٢٠٢ من جريدة القبلة المؤرخ ٢٤ منه - والمنشور الذي نشرته في غرة ربيع الأول سنة ١٣٣٧ - والمنشور الذي نشرته في ٨ جمادى الأولى (سنة ١٣٣٧) وكالتصريح بغزوه لبلاد عسير بعد وفاة السيد محمد الإدريسي بالقوة الحربية والفتح الهاشمي ولكننا نستغني عن إيراد النصوص في ذلك من أعداد جريدته بالتصريح الأخير الذي بين فيه ما كان يكتمه من معنى الوحدة العربية عنده وهو إخضاع جميع أمراء جزيرة العرب للملك وما يراه من تقسيم البلاد وإدارة حكومتها بالقوة القاهرة، وهو الوثيقة الخامسة.

(الوثيقة الخامسة [السادسة]: التفسير الرسمي للوحدة العربية)

جاء في صدر العدد ٧٣٧ من جريدة القبلة الذي صدر بمكة المكرمة في ٦ ربيع الآخر سنة ١٣٤٢ (بيان عام من اللجنة التنفيذية لمؤتمر الجزيرة) بإمضاء رئيس لجناتها التنفيذية (محمد بن علوي) جعل عنوانه (هذا بلاغ للناس) وذكر فيه أن اللجنة تشرفت بالمثل بين يدي الملك حسين للوقوف على ما وصلت إليه القضية العربية فصرح لها بأمور أهمها عندنا تفسيره للوحدة العربية التي ملأ الدنيا تنويهاً بها وانخدع كثير من العرب الذين يصدقون دعايته بأنها هي التي تؤلف بين العرب وتوحد قوتهم - كما انخدعوا بمؤتمر الجزيرة الذي يستخدمه في ذلك، فتبين الآن من هذا التفسير أن هذه الوحدة عين الفرقة وأنه لا غرض له من هذه الدعاية إلا إذلال العرب والاستيلاء عليهم بقوة الأجانب الحامين له، وطالما بين الناصحون العارفون هذا قولاً وكتابة - ولا سيما المنار - فارتاب في نصيحهم الخادعون والمخدوعون وعدوه عداوة شخصية له، حتى صدقهم الملك حسين نفسه، وهذا نص تصريحه بحروفه:

«إن نهضتي عندما آن أوانها الذي قضت به قدرته جل شأنه قبل خلق العالم وكرتنا بما فيها من موجوداتها قد رسمتها على الأساس الآتي وهو

وحدة البلاد العربية واستقلالها بحيث تكون خارجيتها وعسكريتها وسياستها العامة واحدة، أما داخليتها فالإمارات المعروفة بجزيرة العرب تكون على ما كانت عليه قبل الحرب وإن كل أمير في أي أمانة من هذه الإمارات الموروثة لهم من آبائهم وأجدادهم يستقل بداخلية ضمن الحدود التي كانت عليها إمارته قبل الحرب بشرط أن يرتبط مع المجموع الذي كل من خرج عنه منهم أو شذ بالخروج عن الجامعة العربية يحكم عليه المجموع بمقتضى قوله تعالى: «فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله». وأما ما كان خارجاً عن حدود تلك الإمارات سواء كانت تلك الإمارات قائمة بذاتها ضمن حدودها أو طرأ عليها الاغتصاب كعسير قبل الحرب وابن رشيد بعد الهدنة فلا بد من عودتهم إلى ما كانوا عليه كعودة الإمام يحيى إلى صنعاء - فيكون أمرها (أي تلك المقاطعات - بما فيها الحجاز - الخارجة عن حدود تلك الإمارات) منوطاً برأي عموم أهاليها يعينون رياساتها وكيفية تشكيلاتها وإداراتها بالشكل الذي يستنسبونه بشرط المحافظة على الوحدة والارتباط وهي القاعدة التي ذكرتها آنفاً.

(وهنا تبرأ مما هو محسوس ومشهود من تهالكه على طلب الرياسة له ولابنائه ثم قال):

«وإنني أمقت التداخل الأجنبي وسياسة الاغتصاب والاعتداء في داخلية الجزيرة مما هو مشهود من اغتصاب بعض الأمراء لإمارة إخوانه فأنى أجده من أكبر الفظائع أمام حسياتي المذكورة إذ ان النهضة ومؤسساتها هي لحفظ حقوق الجميع، وليست لتمييز فريق على فريق».

(إلى أن قال بصدد هذا الاعتداء الذي سماه أجنبياً):

«ولذلك فهذه هي الخطة التي عليها نحيا وعليها نموت وعليها نبعث إن شاء الله من الأمنين. لذا فلا بد من إعادة آل رشيد وآل عايض إلى أمارتهم وحدودهم وقبائلهم التي كانوا عليها وإعادة كل أمير من أمراء الجزيرة إلى ما كان عليه قبل الحرب.

وإني لثابت (بقدره الله تعالى) على هذا الحس والشعور أمام التجاوزات الأجنبية إذا أصر أربابها على مطاعمهم الحاضرة لمقرراتهم (الصواب لمقرراتنا) التي تأسست عليها النهضة والمخالفة لكل عدل حتى لما جاهروا به من بعد ومن قبل. هذا الذي أدين الله عليه ولو لم تبق إلا ذاتي وحياتي لأنفقتها في هذا السبيل لا أريد بذلك جزاء ولا شكوراً إلا خدمة العرب خاصة والإسلام عامة والأعمال بالنيات (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)» اهـ.

هذا نص ألفاظ الملك حسين حتى إننا لم نصحح كلمة «لمقرراتهم التي تأسست عليها النهضة» مع القطع بأن لفظ لمقرراتهم غلط من المطبعة أو سبق لسان أو قلم منه لأن «مقررات النهضة» له لا لأولئك الأجانب في عرفه وهم أمراء العربية. ويتلخص هذا التصريح بالأمر الآتي:

(١) جعل جميع البلاد العربية (وهو ما يسمى نفسه ملكها، دولة واحدة تكون سياستها الخارجية وعسكريتها وإدارتها العامة واحدة).

(٢) تغيير شكل إمارات جزيرة العرب الحاضرة بانتزاع بلاد حایل وعشائر شمر من سلطنة نجد وإعادتها إلى آل الرشيد - وانتزاع بلاد عسير التي كانت لآل عايض من سلطنة نجد وإمارة الإدريسي وإعادتها إليهم - وانتزاع إقليم الحديدة من الإدريسي وجميع ما بيد الإمام يحيى مما كان للدولة العثمانية من بلاد اليمن واستشارة أهل هذه البلاد كالحجاز في شكل الإدارة التي يحبون أن تكون في بلادهم واختيار رؤسائها في ظل وحدته.

(٣) إعطاء إمارات الجزيرة الموجودة الموروثة حق الإدارة الداخلية بشرط الخضوع لملك العرب العام واتباعه في السياسة الخارجية والعسكرية والإدارة العامة.

(٤) أن من يأبى الخضوع لما تقدم يعد خارجاً عن أمر الله وحدود دينه

فيقاتل قتالاً دينياً حتى يرجع إلى أمر الله (يعني أمره هو بما ذكر إذ لم يأمر الله بذلك).

(٥) أن هذه الوحدة بهذه الصورة الدينية مبنية على مقررات النهضة المتضمنة لحماية الدولة البريطانية لجميع البلاد العربية.

(٦) أن هذه الكليات الخمس عقيدة دينية للملك حسين يدين الله بها فلا يرجع هو ولا أولاده عنها ولو لم تبق إلا ذاته وحياته لأنفقاها في سبيل تنفيذها.

ولا يخفى أن هذا التصريح الرسمي يتضمن جعل هذه الإمارات كلها في حالة حرب معه، فعلى أي قوة يعتمد في هذا؟ وهل هو مغرور في اتكاله على نجابة «الحسيات البريطانية» هذه المرة كما انخدع من قبل ومن بعد على ما نقل عنه المغرورون بأقواله، أم هو على ثقة من إنجاز وعدّها له؟ أم هو متكل على بعض أهل شرق الأردن وسورية وفلسطين الراضحين تحت أوزار الوصاية البريطانية والفرنسية بحيث لا يملكون من أمرهم شيئاً فيملكون أن يعطوه قوة حربية يقاتل بها أهل نجد واليمن وتهامة ويخضعوهم لوحدة العربية، أو قوة دينية بمبايعتهم إياه بالخلافة تخضع بها أمراء جزيرة العرب الثلاثة لأمره ونهيه معتقدين أن تلك المبايعة جعلته إمامهم الشرعي؟؟

لقد كان أنصار الملك حسين وأولاده من مأجورين ومغرورين يزعمون أنه هو الزعيم الوحيد الذي وجه عنايته للوحدة العربية التي لا رجاء في حياة الأمة العربية وحفظ استقلالها بدونها على حين يتقاتل الإمام يحيى أو السيد الإدريسي على حدود بلادهما طمعاً في ربح كل من الآخر - ويقاتل السلطان ابن سعود الأمير ابن الرشيد فيضم بلاده إلى إمارته ويعتدي أحياناً على حدود الحجاز (قالوا) فإذا كان الملك حسين هو الساعي إلى الاتفاق الذي يجمع كلمة الجميع فيجب على كل عربي مخلص

لأتمته أن يشد أزره ويجاهد تحت لوائه ويغفر له ما ألمَّ أو يلمَّ به من سيئة بإزاء هذه الحسنة الكبرى التي هي أم الحسنات . ويؤاخذ أولئك الأمراء حتى على الهفوة، لأنها تؤيد أكبر الكبائر وهي الفرقة .

وكان أهل البصرة من واضعي أساس الجامعة العربية وغيرهم يقولون لهؤلاء إننا كنا ظننا كما ظننتم أن الرجل يريد جمع كلمة العرب على أساس قاعدتنا المعقولة التي أظهر هو وأولاده الموافقة لنا عليها، وهي تحالف أهل البلاد المستقلة المسلحة على حفظ الاستقلال، والتعاون على عمران البلاد، وتأليف مجلس تحكيم لحل مسائل الخلاف، والتوسل بهذه الوحدة الحلفية، إلى الوحدة التامة التي سبقتهم إلى مثلها الشعوب القوية . ثم علمنا بالاختبار الدقيق له، والاطلاع على أسس نهضته، أنه إنما يسعى لقتل الأمة العربية وهدم استقلالها بمساعدة الدولة البريطانية على ضمها إلى امبراطوريتها المرنة على أن تجعله ملكاً على البلاد كلها تحت وصايتها وحمايتها (كما تقدم في الوثائق السابقة) ومن امتناعه المرة بعد المرة عن إجابة ما دعاه إليه مؤسسو الجامعة العربية من عقد التحالف مع أمراء الجزيرة على قاعدتهم التي ذكرت آنفاً وكان من أعوانهم لديه على ذلك ولداه عبد الله وفيصل والشواهد والوثائق والدلائل على هذا كثيرة أشرنا إلى بعضها في أول الكلام على هذه الجناية، ولم يبق للاستدلال بها حاجة، فقد قطعت جبهة قول كل خطيب، أقر الخصم وارتفع النزاع .

كان الملك حسين في أول العهد بالثورة يظهر لمؤسسي الجامعة العربية ودعاة وحدتها موافقتهم على رأيهم ويرجىء إجابة دعوتهم ويسوف فيها حتى لا يرتابوا فيه ويعرقلوا عمله على حين كان يصرح لمن يعتقد أنهم يخدمونه في اتفاه مع الإنكليز على استعباد الأمة العربية قائلاً: من هؤلاء الكلاب حتى أنفق معهم؟ اليوم يوجد في الدنيا ابن سعود غداً لا يكون في الدنيا ابن سعود، اليوم يوجد في اليمن إمام مطاع، في تهامة إدريسي مملك وغدا لا يبقى في البلاد غير ملك واحد وإمام واحد - أو ما هذا مآله كما

نقله المنار الصادق مراراً - وكان المأجورون والمغرورون يكابرون ويتنقدون، وقد انقطعت اليوم جميع الألسنة الخادعة والمخدوعة التي كانت تكثر اللفظ في تولية الرجل زعامة العرب وتسميته بملك العرب والبلاد العربية، على تلك القاعدة الكاذبة الريبية.

وقد صرحت إحدى جرائد هذا الحزب بخطته في هذه الأيام في سياق بث الدعوة لزيارته لأطراف سورية - وهي الجريدة التي يعبر عنها في جريدته (القبلة) بقوله «لسان حال أقوامنا» وهي تصدر في القدس بماله وما يفيضها عليه ولده الأمير عبد الله ومال الدولة البريطانية التي صرح أحد رجالها بأنهم جعلوها «مقطم فلسطين» فقد نشر صاحبها مقالة افتتاحية في العدد ٤٦٥ الذي صدر في ٢١ جمادى الأولى موضوعها (القضية العربية - جزيرة العرب ركنها وقوتها) تكلم فيها على صلابة أهل الجزيرة وقوتهم، وضعف أهل سورية والعراق وسهولة تغلب خصوم القضية العربية عليهم دون أهل الجزيرة.

ثم بين أن «في الجزيرة ثلاث قوات يجب إحلالها محلها اللائق بها من رعاية العرب واهتمامهم هي قوة سلطان نجد وقوة إمام اليمن (قال الكاتب) وكل منهما ارتجاعية متأخرة، وقوة الحجاز وما يتبع الحجاز من البلاد كالعراق والشرق^(١)» ثم صرح بأن الحجاز دون نجد واليمن قوة عسكرية (قال) ولكنه يفوقهما بطشاً واستعداداً إذا ألحقنا به الشرق والعراق فعرب سورية والعراق وفلسطين يميلون بمصلحتهم وتربيتهم وأخلاقهم وصلتهم لتأييد ملك الحجاز في سعيه وعمله».

ثم ذكر أن الجزيرة صارت بعد خروج الترك منها تحت رحمة الحكومات

(١) من المعلوم قطعياً أن العراق وشرق الأردن غير تابعين للحجاز في شيء من أمر الحكومة فالمراد أنها تتبعانه في قتال أهل نجد واليمن وتذليلهما وهذا إنما يكون إذا أمرت به الحكومة البريطانية فهل جاء وقته عندها؟

الثلاث، وأن حكومة نجد توسعت بإزاحة إمارة ابن الرشيد وحكومة اليمن توسعت في الجنوب حتى حضرموت، وأن حكومة الحجاز واقفة موقف المعارضة لكل منهما ولكنها لا تستطيع أن تعمل شيئاً لحاجتها إلى تكوين الاتحاد العربي من الحجاز والشرق والعراق (قال) «ففي نجد وحدة مكونة وفي اليمن كذلك، وأما الوحدة الثالثة أو الاتحاد الثالث فلا يزال في دور التكوين ولا يعلم أحد متى يتم وكيف يكون.

(قال) «والذي نراه هو أن حكومات هذا الاتحاد ستقف موقفاً صعباً أمام حكومتي الجزيرة في اليمن ونجد فلا هي تستطيع التغلب عليهما وإرجاعهما عن مطامعهما إلى الحق والصواب ولا يوافقها القبول بما تم لأنه يساعد على اختلال التوازن في الجزيرة وإيجاد عهد حروب ومشاغبات فيها. وكل حكومة عربية (مستقلة) تنشأ في سورية أو العراق ولا تتكل على دولة من الدول الأوربية تظل ضعيفة مهددة في حياتها الداخلية ما بقيت نجد في قلق نائرة على كل ما نسميه نحن نظاماً وبقيت اليمن في حالتها الحاضرة» اهـ.

هذا بيان صحيح لما يقصده الملك حسين من الوحدة العربية لضرب العرب بالعرب وإخضاعهم للاستعمار الأوربي الذي يظل مهدداً في العراق وسورية ما دامت نجد واليمن قويتين وهذا سبب [عدم] تحييد صاحب هذه الجريدة له وهو خادم للأجانب ليس مسلماً فيغار على الحرمين الشريفين ولا من عرق عربي فيغار على العرب وقد خانهم وغشهم رجال من أشهر بيوتاتهم. وإنما الذي نخشاه أن ينخدع بعض أهل بلادنا السورية باسم الوحدة العربية الذي يميلون إليه ويريدون منه غير ما يريده الملك حسين. أما وقد ظهر لهم ما يريده فلن ينال من أحد ذي قيمة منهم تأييداً ولا تفويضاً ولا مبايعة لسحق قوة العرب «بالاتكال على دولة أجنبية».

لم يبق بعد هذا التصريح الرسمي مجال لحزب مذبذب يخدع الناس

بقول الملك حسين باستقلال العرب والوحدة العربية، بل أصبحت الأمة العربية حزينين لا ثالث لهما: حزب الجامعة العربية الذي يسعى للوحدة العربية من طريق عقد التحالف والتأليف بين الأمراء بإقرار كل منهم في بلاده لوقاية البلاد من المطامع الاستعمارية الغربية والتمهيد للاتحاد الاختياري مع التعاون الودي بين العرب وسائر الشعوب الشرقية، والحزب الشريفي الاستعماري الذي يسعى لإرغام جميع أمراء العرب بالقوة الحربية على التبعية «لملك العرب» بتسليمه أزمة السياسة الخارجية والقوى العسكرية والإدارة العامة، في ظل السيادة والوصاية البريطانية.

ومن المعلوم بالضرورة لجميع المشتغلين بالسياسة وأولي الإلمام بحال البلاد العربية أن الملك حسين الذي وضع هذه الخطة من اليوم الأول الذي تصدى فيه للمسألة العربية لا يملك القوة التي يرغب بها أمراء جزيرة العرب عليها وأنه ليس أمامه قوة يعتمد عليها إلا قوة الدولة البريطانية وأنه لأجل هذا جعل ما يسميه النهضة العربية مبنياً على أساس الخضوع للسيادة والوصاية البريطانية، فلأجل هذا سمينا هذا الحزب «الشريفي الاستعماري» ويصح أن يسمى البريطاني أي الذي يسعى من حيث يدري زعماءه ويجهل دهماؤه إلى جعل الحجاز وسائر جزيرة العرب كالعراق وفلسطين وشرق الأردن تحت الوصاية البريطانية، ويتبع ذلك بقاء سائر سورية تحت الوصاية الفرنسية أيضاً لاتفاق الدولتين على ذلك وعلى تسميتها استقلالاً.

خطاب عام للمسلمين

- ٢ -

(الجناية الثالثة: الظلم والاستبداد في الحرمين)

[المنار ج ٢٥ (١٩٢٤) ص ١٠٤ - ١١٢]

إن استبداد الملك حسين وظلمه في الحجاز لا نعلم له نظيراً في حكومة وطنية من حكومات العالم في هذا العصر وإنما هو كحكم أشد المستعمرين للأمم الضعيفة قسوة وطمعاً في إبتزاز الأموال وإذلال الناس، فأهل الحجاز في هذا العهد بائسون ذليلون ولا يتجرأ أحد منهم على الشكوى بقول ولا كتابة، ونحن قد أمكننا الوقوف على كثير من الحقائق الآتية من بعض أهل البصيرة والتحقيق من حجاج الموسم الأخير الذين لهم أصدقاء في الحجاز يثقون بهم ومما اختبروه بأنفسهم على كثرة الجواسيس وحرص الملك على مرءات الحجاج، وقد جاءتنا رسالة طويلة في وصف حالة الحجاز من أحد حجاج الموسم الماضي من جزائر الهند الشرقية فنلخص من هذا وذاك ما يتعلق بغرضنا بالإيجاز ونجعله عدة أقسام.

المظالم المالية

(١) كل ما يرد على مكة من الأنعام ينتقي الملك كرائمها وخيارها لنفسه بواسطة سمسار له اسمه (إبراهيم) فيدفع ثمن الجمل الأعلى منها ٢٥ ريالاً مجيدياً (تساوي ١٢٠ قرشاً مصرياً) إذا كان الأدنى يباع بخمسة وعشرين جنيهاً مصرياً - ويعطي ثمن الكبش الجيد بل الأجود ريالين مجيدين إذا كان الأدنى منها يساوي عشرة ريالات.

(٢) يأخذ مكساً على كل جمل ثلاثة ريالات مجيدية (٣٠ أو ٣٥ قرشاً مصرياً) وعلى كل ثور أو بقرة خمسين قرشاً مصرياً لأنه لا يأخذ منها لنفسه

كما يأخذ من الإبل والغنم . هذا إذا كانت الإبل والبقر للعمل وأما إذا كانت للذبح فيأخذ عن كل رأس عشرة ريالات . ومن المعلوم أن الإبل لا تذبح في الحجاز إلا إذا هزلت وتعذر الحمل عليها والسفر بها وإن كان الحمل الهزيل الضعيف قلما يباع بأكثر من عشر ريالات وقد يباع بخمسة . ولكن الملك يأخذ عليه عشرة ريالات مهما يكن ثمنه الذي يبيع به فيضطر الجزار بذلك إلى بيع لحمه غالياً وهو لا يأكله إلا الفقراء فيكون الغبن عليهم .

(٣) كل من يأتي مكة أو غيرها من بلاد الحجاز بشيء للبيع من خارجها ولو كان من البدو أو أهل القرى الحجازيين يجبر على أخذ ثمنه ريالات مجيدية وقروش عثمانية (مما يسمى في سورية متليك وفي الحجاز هلل) لأن الذهب خاص بالملك، وهذه السكة لا تروج عند الأعراب الذين يأتون بالماشية وغيرها إلى مكة فيرغبون أن يشتروا بثمنها أقواتاً أو أقشمة لعيالهم ولكن الشراء من مكة محرم في شرع الملك إلا برخصة من الديوان الهاشمي - ويعبر عنها بالفسح - وقد يتأخر صدور «الفسح» ولا سيما إذا كثر طلابه حتى ينفق الغريب ما باع به ويرجع إلى عياله بغير شيء ولا سيما إذا كان ما باعه قليلاً كالوقود والفاكهة .

(٤) يأخذ على كل صفيحة سمن خمسين قرشاً مصرياً، وكان السمن الجيد يأتي من نجد وعسير فانقطع مجيئه من نجد وقلّ من عسير بسبب إجبار تجاره على أخذ ثمنه من النقد العثماني الذي لا يروج عندهم، فصارت أقة السمن البحري الرديء المغشوش تباع بثلاثة مجديات وكانت الأقة من الجيد تباع بربع مجدي إلى نصف ريال إذا اشتد الغلاء وأقة اللحم بريالين وكانت بقرشين - فأصبح أهل مكة في ضيق لم يعرفوا له نظيراً إلا في تلك الأيام التي اتفق فيها سيدهم مع الإنكليز على منع الأقوات عن الحجاز ليواتوه على الثورة .

(٥) يأخذ عن كل بضاعة تأتي من البحر إلى الحجاز ثلاثين في المائة من

ثمها إلا الكماليات كالحرير فيأخذ منها خمسين في المائة وذلك بحسب أسعارها في سوق جدة لا بحسب السعر الذي اشترت به، ونترك الكلام في اقتراض الملك من تجار جدة ألوف الجنيهاً على أن توفي من المكوس التي تستحق عليهم ومطل إدارة المكس وتسويقها لهم، بعذر الحاجة إلى المال ولا مشتكى إلا إلى الله.

(٦) أبطل جميع الأفران التي للأهالي وفتح أفراناً لنفسه يعطيها الدقيق المختلط من عنده ويكره الناس على الشراء منها دون غيرها وهو يربح منها كل يوم أكثر من تسعين جنيهاً من مكة وجاء في رواية أخرى كتبها بعض الحجاج المصريين أنه يربح من أفرانه ثلاثمائة جنيه في كل يوم وقد قال النبي ﷺ «احتكار الطعام في الحرم إحداد فيه» رواه البخاري في تاريخه وأبو داود وأشهر رواة التفسير المأثور من حديث يعلى بن أمية. وفي لفظ من حديث ابن عمر مرفوعاً «احتكار الطعام بمكة إحداد» رواه البيهقي في شعب الإيمان. وروى سعيد بن منصور والبخاري في التاريخ أيضاً وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه قال: «احتكار الطعام بمكة إحداد بظلم» وروي عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية «تجارة الأمير بمكة إحداد» فما بال المكوس؟

(٧) جعل قيمة الجنيه سبعة ريالات مجيدة يغرم من يخالف ذلك بمبلغ من المال له، لكنه يبيع الذهب للصيارف بالوف الجنيهاً كل جنيه باثني عشر ريالاً، ثم يجبرهم على إعطائه الجنيه بالسعر الرسمي وهو سبعة ريالات، والتجار يرفعون الأثمان لتقرب من سعر الذهب. ومن فوائد الملك من ذلك أن من كان راتبه من رجال حكومته عشرة جنيهاً يعطيه ٧٢ ريالاً قيمتها الحقيقية ستة جنيهاً.

(٨) ما يأخذه من الغرامات وينزله من العقاب على من يخالف السعر أو يعترض على اختلاف ما يأخذه هو ويعطيه لا مستند له إلا رأيه، وقد

جازى التجار على ذلك مراراً حتى بلغت الغرامة من جماعتهم من مائة جنيه إلى ثلاثمائة جنيه بل عاقب بعد الموسم خمسة من تجار مكة المحترمين بالجلد الشديد وكنس الشوارع لأن جواسيسه بلغوه عنهم أنهم قالوا ان سعر النقود العثمانية سينزل حتى مات أحدهم من شدة الضرب كما جاء في كتاب خاص من مكة لأحد التجار هنا .

(٩) استأثر لنفسه بالغلل المصرية سنتين فلم يعط المستحقين شيئاً حتى مات بعض المستحقين لها من فقراء المدينة المنورة جوعاً ثم صار يعطي الأحياء نصف ما يستحقونه ويستأثر بحصص الأموات كلها فلا يعطي ورثتهم منها شيئاً، ولعل هذا أحد أسباب امتناع الحكومة المصرية عن إعطائه مخصصات الأهالي لأجل أن يتولى توزيعها عليهم مستخدموها في التكتيتين المصريتين بمكة المكرمة والمدينة المنورة .

(١٠) استبد بوقف الشريف أبي نغمي فلا يوزعه على المستحقين من ذريته حسب شرطه حتى قيل إن بعض الشريفات يخرجن في الليل متسولات يتكفن أيدي الناس في الشوارع!!

(١١) قد استعار من أغنياء مكة أثاثاً ورياشاً وماعوناً كثيراً للدار التي أنزل فيها السلطان وحيد الدين المخلوع وحاشيته ثم لما ذهب السلطان من مكة استأثر بهذه العواري النفيسة ولم يردها إلى أصحابها .

(١٢) جمع ثلاثين ألف جنيه من أهل الحجاز بالإكراه والإجبار ومن الحجاج بالاختيار لإعانة المسجد الأقصى، وأرسل منها اثني عشر ألف وخمسمائة جنيه، وقد نشر في جريدة القبلة ما أخذ من كبار التجار والموظفين في الحكومة ومن الحجاج وأما ما أخذ من العوام وصغار التجار فلم ينشر فيها^(١) .

(١) النار: لعل سبب عدم نشره قلة المبالغ مع كثرة الأسماء لا قصد أكله .

(١٣) ذهب إلى مكة الشرفاء زامل وجعفر وعلي أولاد السيد ناصر أخي الملك فوضعهم الملك تحت المراقبة الشديدة والقهر وكان مرادهم الإقامة في مكة شهراً واحداً فأكرههم على الإقامة زهاء سنة ولما عادوا إلى مصر أرسل إلى وكيل أطيانه اسكندر بك طراد كشفاً فيه أنه أنفق عليهم في مكة ألف، وثمانية وعشرين جنيهاً وكسوراً وأمره أن يطالب أخاه الشريف ناصر بهذا المبلغ وينذره بإمساكها من إيراد الوقف المشترك إذا لم يؤدها إليه نقداً.

العقاب والأحكام

إنه يذيع في جريدته القبلة أن أحكامه كلها شرعية مستمدة من الكتاب والسنة - والواقع الذي يعرفه أهل الحجاز ومن أقام فيه زمناً يزيد على مدة الحج من غيرهم ولا سيما الذين استخدموا فيه أن أحكامه شخصية محضة لا يتقيد فيها بقييد من شرع ولا مشاورة ولا قانون، وهو وإن كَفَرَ التَّرك والمصريين بوضعهم للقانون الأساسي وغيره فقد وضع بعض القوانين وأمر بتنفيذها ومنها (قانون هيئة المعاملات العمومية) الذي أمر فيه بتشكيل لجنة بهذا الاسم تفصل في قضايا الإجارة والديون «والكشفيات ونحوها» مما هو من خصائص المحاكم بدون محاكمة شرعية وفيها أحكام وضعها برأيه لم يرجع فيها إلى دليل شرعي وسماها دستوراً للعمل كما سماها قانون. وقد أعطى بهذا القانون حق الاجتهاد لأعضاء اللجنة في كل فروع الإجراءات غير الداخلة في المادة ٤٣ منه ولا حاجة بنا إلى تفصيل ذلك بل المراد به التنبيه على أنه يحرم على أهل البلاد التركية والمصرية ما أباحه لنفسه من وضع القوانين وإن كان هو وجميع أعضاء حكومته دون أهل هاتين المملكتين علماً بالشرع وبأصول القوانين وفروعها.

قانون الطاغوت أبي نمي

وأدهى من هذا وأعظم في رد الشرع ونبذه وراء الظهر، وتفضيل حكم الطاغوت على حكم القرآن المنزل من عند الله عز وجل، - حكمه

بقانون جده الأمير أبي نفي في جميع مسائل الدماء بين البدو. ومن أصول مواد هذا القانون أن دم شرفاء الحجاز مربع فإذا قتل أحدهم يقتل به أربعة من خواص رجال القبيلة المتهمة بقتله ولا شك في أن استحلال هذا كفر وردة عن الإسلام. وأن إمام المسلمين وخليفتهم يجب عليه شرعاً أن يقاتل من يتحاكمون ومن يحكمون بمثل هذا وغيره من أصول الجاهلية المقررة فيه، ومرجعها كلها إلى ما يسمونه «السوالف» وهي الأحكام السابقة التي قبلها سلف المتحاكمين أي شيوخ قبيلتهم من قبلهم في مثل واقعة الدعوى، فالأحكام التي قبلها طواغيتهم هي التي يرضونها ويحكم لهم بها من يدعي أنه أحق الناس بخلافة النبوة وإقامة شرع الإسلام. ومن شاء أن يعرف منزلة هذا القانون من الكفر والنفاق فليراجع تفسيرنا لقوله تعالى من سورة النساء «ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به» الآيات. وقد حدثنا الضابط نوري بك الكويري (من بني غازي) الذي كان في الجيش العربي المنظم الذي يساعد الحجازيين في حصار المدينة المنورة أن أحد البدو قتل ضابطاً أو جندياً حضرياً من الجيش المنظم واعترف بأنه قتله عمداً. فطلب الضباط وغيرهم قتله قصاصاً بمحاكمة عسكرية أو شرعية فامتنع قائدهم العام الشريف عبدالله ورفع الأمر إلى الملك فأمر بإرسال الضباط الذين طلبوا القصاص إلى مصر بحيلة وإعلامهم بعد ذلك بطردهم من الجيش الهاشمي وكذلك كان. ويعلم جماهير الناس في شرق الأردن وفلسطين أن عبيد الأمير عبدالله فوق الشرع والقانون في إمارته البريطانية الحقيرة فلا يحكمون ولا يعاقبون على فاحشة ولا منكر.

وأما ما نقلته جريدة القبلة من أحكامه التي سمتها إقامة حدود الشرع وعملاً بالقرآن فقد جاءنا الخبر من الثقات في الحجاز بأنه ليس فيها شيء موافق لحكم الشرع ولا كان شيء منها بمقتضى محاكمة شرعية فقد أمر

بقطع يد رجل ورجله لأنه فر من سجنه الذي هو شر من سجن الحجاج وفعل مثل ذلك بمن اعترض على الخطيب في المدينة المنورة لإطرائه إياه في الخطبة وادعوا أن هذا عمل بقوله تعالى «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا» الآية، وهي في البغاة الذين يؤلفون العصابات المسلحة يقطعون بها الطرق ويفسدون النظام لا فيمن يفر من الظلم أو ينتقد بدعة من البدع كمدح الحكام وإطرائهم في الخطب الدينية ولا سيما إذا كانوا من الظلمة.

وكتب إلينا أن اللص الذي قطع يده في عرفة قد اتهمه بعض الناس بأنه سرق له بعض متاعه فبمجرد دعواه استحضر المتهم وجيء بفأس قطعت به يده. وكتب إلينا أيضاً أن العقاب في الحكومة الهاشمية لا يكاد يقع إلا على الضعفاء الذين لا ناصر لهم وأن جواسيس الملك إذا طعنوا له في شخص يتهمه بعضهم بأنه شرب الخمر فيؤق به ويجلد بغير بينة ولا يسمع لإنكاره.

واطلعنا في مذكرة لحاج مصري أنه يأمر المحاكم الشرعية بالذي يريده وأنها فشت فيها شهادة الزور بالإكراه، وأنه لا ينفذ من أحكامها إلا ما يريده ويرد الإعلام الشرعي الذي تصدره بالحكم النهائي ويأمر بتجديد الدعوة لأجل الحكم فيها بما يأمر به، ويقول إنه إمام المسلمين والوارث لجده الشارع في التشريع وهو غير مقيد فيه بشيء. بل فيها أن له مخالفة نصوص الكتاب والسنة وكنا سمعنا هذا من بعض من خدمه في مكة عدد سنين ولكن الله تعالى لم يعط للرسول ﷺ أن يغير أو يبدل شيئاً من القرآن وهو معصوم من فعل ذلك من تلقاء نفسه بدليل النص والاجتماع. قال تعالى «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله. قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي، أن أتبع إلا ما يوحى إلي. إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم - ١٠ : ١٥» وقد منع الإمام الشافعي نسخ القرآن بالسنة مطلقاً وجوزة الجمهور بالسنة

المتواترة لأن ثبوتها قطعي كثبوتها، ولكنهم أجمعوا على أن ذلك لا يكون برأي النبي ﷺ واجتهاده بل بوحى من الله تعالى، واستدلوا على الجواز بمفهوم قوله تعالى «قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي».

وفي هذه المذكرة أنه يقطع يد السارق إذا كان من قبيلة ضعيفة فإذا كان من قبيلة قوية فلا يقطع ولا يسجن. وقد سرت امرأة قرشية من بني مخزوم في عهد النبي ﷺ فأهم أمرها قريشاً فقالوا من يكلم فيها رسول الله ﷺ ومن يجترأ عليه إلا حبه أسامة بن زيد؟ فكلمه أسامة فقال ﷺ «يا أسامة أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فخطب فقال «إنما أهلك الذين كانوا من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرت لقطعت يدها» متفق عليه بل رواه الجماعة كلهم.

(تنبيه) كتب هذا الخطاب منذ بضعة أشهر ليكون مقدمة لطلب الإصلاح في الحجاز وأخر نشره رجاء أن يغير الملك سيرته بزيارته لأطراف سورية.

خطاب عام للمسلمين

- ٣ -

[المنار ج ٢٥ (١٩٢٤) ص ٣٠٥ - ٣١٤]

وجاء في الرسالة المطولة التي أشرنا إليها من قبل ما يأتي:

(الحدود) سمع مولانا المنقذ بأن إمام اليمن يحكم بالشرع المنيف ويقيم الحدود فعمل شر المنكر ليذكر فكل من ساء حظه أمسكه المنقذ بتهمة سرقة يأمر بقطع يده أو يده ورجله اعتباطاً وبدون محاكمة ولا مراعاة لشروط الحد من حرز أو عدالة للشهود والأمر بدرء الحدود بالشبهات وإليك إشارة إلى التنفيذ الفظيع.

(التنفيذ) تأخذ الزبانية هذا التعس فيضعون العضو المأمور ببتره على خشبة ويمسكون المسكين كما يمسك العصفور للذبح ويقوم على رأسه أحدهم شاهراً سيفه ممسكاً له بكلتا يديه فيهوي به إلى ذلك العضو فإن أصاب مفصلاً أبانه وذلك من رحمة الله بالمسكين ولكن الغالب أنه يصيب محلاً آخر فوق المفصل أو دونه فتتهشم العظام ولا ينقطع العضو إلا بعد ضربات عديدة يذوق ذلك المنكود الحظ منها الموت الزؤام مراراً عديدة، ولذلك لا يسلم من الموت ممن قطعهم ذلك القاطع إلا نحو العشر، ولا بد أن يقلقوا بصياحهم أهل الحارة التي يكونون فيها. أفهذا حكم الشرع المنيف؟ حاشى لله ألف ألف مرة. إن الشرائع كلها السماوية والوضعية تتبرأ من هذه الوحشية السبعية الإبلسية فإننا لله وإنا إليه راجعون. أي جناية على الدين، وأي ازدراء به شر من هذا؟ إن أكبر أعدائنا لا يقدر أن يذمنا وينفر عن ديننا بمثل ما يصنعه «سيدنا وسيد الجميع»؟؟

السجن الهاشمي

أخبرنا الثقات من المكين أن هذا السجن شر من سجن الحجاج ففيه ضروب من التعذيب لم يبق لأقلها وجود في منشوريا ولا غيرها - بل هنالك سجنان (أحدهما) سجن المجرمين العاديين وهو بناء كان مخازن للغلال ذات رواق فبني الرواق وجعل له باب أو بابان وهو مع المخازن لا يسع مئة رجل ولكن له رحبة أو حوشا تسع مئة أو أكثر، وهو ليس لها سقف يقي هاجرة الحر المحرقة في الصيف وبرد الليل في الشتاء والمسجونون فيه خمسمائة أو يزيدون.

(وثانيهما) القبو وما أدراك ما القبو وهو سجن الذين ينزل عليهم الغضب الهاشمي كالأستاذ العلامة الشهير الشيخ أبو بكر خوير علامة الحنابلة ومفتيهم الذي كان يتهمه بأنه وهابي - وهو قبو مظلم تحت دار الإمارة له منفذ ودرج بل درك للنزول إلى أسفله وأرضه رطبة عفنة كثيرة

الحشرات والغازات السامة قلما يعيش أحد فيه عدة أيام وليس له نوافذ غير مدخله فلا يدخله نور الشمس المطهر ولا الهواء المنقي للهواء من الأبخرة السامة وليس فيه مرحاض ولا مكان للطهارة.

ومن ضروب الفظاعة المشتملة على عدة محرمات أن زبانيته يسلكون الأحاد والعشرات من المسجونين في سلسلة واحدة من الحديد آناء الليل والنهار فكلما ذهب واحد لقضاء حاجته جرهم كلهم معه. ويؤيد هذا ما كتبه ذلك العالم الفاضل من جزائر الهند الشرقية في مذكرته المذكورة آنفاً وهو:

«وما اختصت به مكة صانها الله تعالى دون سائر الأرض أن العقوبات تجري فيها بمنتهى الوحشية استبداداً ولو رأى أحد المنصفين السجن بمكة لبكى الدم حناناً على من أوقعه نحس الطالع فيه فإن أكثره لا سقف له بقي من تلك الشمس المحرقة نهاراً والبرد القارص في إيامه ليلاً وهو محل قدر للغاية وضيق لا يتسع لأكثر من ٧٠ شخصاً وقد حشروا فيه نحو ألف إنسان والحكومة لا تعطيهم طعاماً وكثير منهم يموتون جوعاً وقل أسبوع لا تحدث فيه حوادث من هذا القبيل ومن أرسل له أهله قوتاً تخافقه عليه الجوع هذا إن سلم من حراس السجن فإن لهم حتماً أطايبه ومن مات يبقى بين من هم هناك نحو يومين حتى تفوح رائحته لشدة الحرارة وكثرة التحلل من الجيفة بسببها وذلك حتى يحصل الإذن من الذات المقدسة بالدفن وليس لمن في السجن محل للغسل ولا لهم بيت للراحة إلا محلاً واحداً يؤمه ألف شخص.

ومن رحمة سيدنا المنقذ أنه يطوق بعض رعاياه المحكوم عليهم بالسجن بأطواق من الحديد ويعلق فيها من القلل ما تنوء بحمله العصبية أولو القوة وينظم الخمسة إلى العشرة في سلسلة واحدة إلى ما أخاف أن لا يصدقني القارئ أن ذكرته من الفلكة الهاشمية والقبو وما ضاهى ذلك مما لم يتفطن

له الحجاج ولا نيرون ولا غمروود ولا وسوس لهم به إبليس فليبحث عن هذا من يحب معرفة الحقيقة» اهـ وفيه خطأ بتقدير ما يسع السجن وعدد المسجونين والصواب ما قلناه ومسألة القلل لم تبلغنا عن غيره.

ظلمه للأشراف

اختارت الدولة العثمانية بطنيين من بطون شرفاء مكة لإمارتها تولى واحداً من هؤلاء مرة، وواحداً من الآخرين مرة - فأوقعت به التعادي والتنافس بينهما، وأغرتهما باحتكار الجاه والرفاهة دون سائر الشرفاء الذين أصبحوا في دركة من الجهل والفقر، تحول دون كل مطمع في نباهة الذكر. وكان الملك حسين من أشد من ولي الإمارة بغضاً في البطن الآخر، ولا سيما آل الشريف عبد المطلب الشهير، فهو يتصرف في أملاكهم وأوقافهم كما يشاء. وقد أشرنا إلى ذلك في الشاهد العاشر من شواهد المظالم المالية في الحجاز.

وقد كان نفر من كبار هؤلاء الشرفاء يقيمون في الأستانة مكرمين منعمين بما تجريه الدولة العثمانية عليهم من الرواتب الكافية وقد منعهم دولة الجمهورية من ذلك فأمسوا في أسوأ حال وتعذر عليهم السكنى في الأستانة وفي غيرها ولم يعد يسعهم إلا وطنهم (مكة) ولهم فيه أملاك وأوقاف، ولكن رئيس أسرهم وملك العرب ومنقذهم، لا يأذن لهم بالعودة إلى بلدهم، ولا يرسل إليهم شيئاً من حقوقهم، على أن الذين يعيشون هنالك في أسوأ حال كما أشرنا إلى ذلك في الشاهد (١٠) شواهد الجناية الثالثة وهم أحق من سائر العرب بما يدعيه من إنقاذهم وإسعادهم، ومن لا يصل رحمه ولا يغار على شرف أهله فكيف يصدق بدعوى الغيرة على غيرهم؟

وقد ختم ذلك العالم الجنوبي مذكرته بوصف حالهم وهذا نص ما كتبه:

«ولو أردت أن أكتب ما عرفته من فضائح جمر ك جدّة لأضجرت
القارئ ولكني أختم مقالتي بالإشارة إلى حالة أشرف الحجاز الذي ينتمي
إليهم مولانا المنقذ فإنهم في أحط الحالات ديناً ومعاشاً وكل ذلك سببه
الآن أعمال هذا المنقذ فإن سلفه قد تعمد وحتم بقاء سائر الأشراف إلا
قربته الأذنين على شر حالات البداوة جهالة وقذارة وغبابة وبعداً عن
العلم والمعارف لئلا يشاركوه في أمور الأمارة، وليتسنى له الاختصاص
بالظلم ليشبع نفسه الأمارة، وقد زاد «منقذنا» على هذا بأن عمد إلى
مكاسبهم فوضع عليهم اتاوات ثقيلة ثم فرض مناصفة ما تنتجه زروعهم
من قصب وحشيش يحملونه ويسلمونه مجاناً للاصطبل الهاشمي وما بقي
لهم يدفعون عليه أتاوة دخولية تستغرق جل الثمن وقد كانوا يكسبون من
كراء جاهلهم أما الآن فقد مر بك ما يختص بالجيب أو الجراب العلي الشأن
وذلك مما يؤخذ من كرى الجمال أكثره فلا يبقى لصاحب البعير إلا ما يكفي
أكل الجمل بشرط أنه هو وعياله يجوعون أو يقتل الجمل جوعاً ليسد رمقه
ورمق عياله ولذلك صار الجمالة يستجدون الحجاج في محلات الأمن
وينهبونهم في خارجها إذ لم يبق لهم إلا تلقيهم بعر الجمال برؤوسهم إذ
يسوقونها والكرى الصافي «لسيدهم وسيد الجميع».

ويكفي إن أقول أن الأشراف عدد عديد وجلهم أُمي ومن يكتب ويقرأ
منهم فكتابتهم ضعيفة كأنها العبرانية، ولا أرى الباحث يجد منهم من
يخرجه عن حكم الأمية أن أنصف فضلاً عن أن يجد منهم عالماً أو عارفاً
بأحوال الوقت، وقد عرفت بعض الأشراف وخضت معه فحاول إرسال
أولاده إلى مصر ليتعلموا فمنعهم من ذلك (مولانا المنقذ) وقال إن أعلى
مدارس الدنيا تلك الكتاتيب القدرة التي يقيمها بمكة لذر الرماد. هكذا،
وهكذا، وإلا فلا، لا.

الجنائية الرابعة

معاملته للحجاج وسلب أموالهم

نحمد الله تعالى أن وفقنا لقول الصدق، والتزام الحق، ومنه أن صرحنا مراراً بما ثبت عندنا من عناية الملك حسين بأمر الحجاج ما استطاع مع مراعاة غاية الدقة واللطف فيما يناله منهم من المنفعة. وسبب هذا ظاهر وهو أن جاهه وكرامته وثروته رهينة بتسهيل الحج وإرضاء الحجاج، ولكن تسمية نفسه بملك العرب وسعيه الدائم لصدق التسمية اقتضيا منعه أهل نجد من إرسال ركب للحج - كما أن سخط مسلمي الهند عليه وطعنهم في سياسته البريطانية حملاه على إيذاء حجاجهم كما روته مجلة الجامعة الهندية المشهورة وغيرها - وحاجته إلى الدراهم الكثيرة لجعل الحجاز دولة عسكرية مستعدة لإخضاع الإمارات المجاورة له في نجد واليمن وتهامة وجعلها تابعة له (كما علم من كلامه في الوحدة العربية الذي نقلناه في الوثيقة الخامسة) حملته على زيادة ما يأخذه على نقل الحجاج من مكان إلى آخر، وعلى فرض ضرائب جديدة عليهم لا تحل له شرعاً وهي أنواع:

الضرائب على الحجاج

(١) قد فرض على كل حاج ضريبة لا يؤذن له بدخول الحجاز إلا إذا أداها لعماله وعند النزول في ثغر جدة أو غيره إلا أن يكون قد دفعها لوكيله في القطر المصري ووقع له على جواز السفر باستيفائها منه وهذه الضريبة جنية إنكليزي على من يجيء من الجنوب كأهل الهند وجاوه وغيرهم ونصف جنية على من يجيء من الشمال كمصر وغيرها أو تزيد فهو يجبي منها مئات الألوف من الجنيهات في كل سنة.

(٢) قد فرض على كل حاج ضريبة أخرى برسم الحجر الصحي ولها شروط مخصوصة مدونة بأوراق رسمية.

(٣) قد فرض عليهم ضريبة ثلاثة يؤديها كل خارج من جدة قبل خروجه باسم الشهادة الطبية وقدرها ريالان مجيديان أو ٣٠ قرشاً مصرياً صحيحاً، ويعطى بها ورقة رسمية.

هذه الضرائب تعد في حكم الشرع من أكل أموال الناس بالباطل المنهي عنه بنص القرآن، وأخذها من الحجاج يعد من الإلحاد في الحرم بالظلم وهي أولى بذلك مما ورد في الأحاديث المرفوعة والموقوفة في تفسير «ومن يرد فيه بالحد بظلم نذقه من عذاب أليم» كالاحتكار وتجارة الأمير وقد تقدم - وتعد أيضاً من الصد عن المسجد الحرام فإن من الفقهاء من لا يستطيع دفعها على أن بعض الفقهاء قالوا بسقوط الحج عن تصادر أمواله بسببه.

ولأجل انتفاع الملك من هذه الضرائب أسس محجراً صحياً يكره الحجاج على الدخول فيه ولا يعتد بدخولهم قبله في المحجر المصري في الطور من جهة الشمال والمحجر البريطاني في قمران من جهة الجنوب مع العلم بأنه عاجز عن اتقان محجره كاتقائهما. هذا إذا فرضنا أنه فوض أمر محجره إلى أطباء ثقات ولم يكن له رأي ولا أمر في أعمالهم الفنية المحضة، أما إذا كان المحجر يدار برأيه فهناك البلاء المبين، إذ يخشى أن يمنع بعض الأدوية المتفق عليها بين الأطباء ويستبدل بها بعض مجرباته أو ماء زمزم الذي صرح في جريدته القبلية بأنه شفاء من كل داء وإن كان مشوباً بقدر المصابين بالهيفة البوائية وأمثالها من الأمراض التي أجمع أطباء هذا العصر من مسلمي جميع الشعوب ومن غيرهم على أنها معدية، وأن أسباب العدوى فيها ثابتة بالتجربة وبالمشاهدة بالمنظر المكبرة.

ثم إنه لأجل هذه المنافع المالية بينه وبين الدولة البريطانية قد وضعها مواد في مشروع المعاهدة البريطانية الحجازية أو العربية ليتقاسمها المنفعة على ما في هذا العمل من التضييق على الحجاج وتنفيرهم من الحج، وقد بينا في

تعلیقنا على هذه المواد ما فيها من الضرر على الحجاج والدلالة على كون الحجاز تحت سيادة الإنكليز.

أجور نقل الحجاج

(١) جعل أجرة الجمل بين الحرمين الشريفين أربعة عشر جنيهاً إنكليزياً وريالين مجيديين يأخذ هو نصفها أو أكثرها والباقي لصاحب الجمل ولسائقه ولمن يتبعهما في خدمة الحجاج كالمطوف. وهو يساوم أصحاب الجمال فمن كان منهم بليداً جباناً يأخذ منه أكثر مما يأخذه من الجريء المجادل.

وهو يأخذ على كل جمل ينقل الحجاج من جدة إلى مكة والعكس ومن مكة إلى عرفة والعكس نصف جنيه مصري أو أكثر. فهو بهذا يأخذ من كل حاج جنيهين من هذا الباب وحده وذلك أنه جعل أجرة الجمل جنيهاً يأخذ صاحبه ربعه في الغالب والباقي للملك، وإن من الحجاج من يحتاج كل واحد منهم إلى جمل خاص لأجل حمل زاده ومتاعه فإن حجاج جاوه يحملون كل ما يحتاجون إليه من الزاد من بلادهم. ولحجاج جاوه معاملة خاصة وذلك أن لهم بمكة مطوفين يسمون مشايخ الجاوه وهم يتولون خدمتهم في مسكنهم وتنقلهم وكان الشريف أو الملك قد جعل لهم على كل حاج ثلاثة جنيهات ونصف إنكليزية يأخذ منها لنفسه جنيهاً واحداً وقد سمح لهم منذ سنتين بأخذ أربعة جنيهات ونصف من كل حاج على أن يكون له اثنين منها. وقد بلغ حجاجهم في الموسم الماضي ٣٥ ألفاً.

ولولا مقاسمته لأصحاب الجمال لأمكنه جعل أجور نقل الحجاج رخيصة جداً، ولكن هذه شنشنة قديمة له ولسلفه وما هي بالجديدة.

الأمن في الحجاز

هو والحق يقال يعنى بحفظ الأمن في المنطقة التي ينفذ حكمه فيها من

جدة إلى مكة إلى عرفات ولكن لا نفوذ له ولا سلطان على الأعراب بين الحرمين الشريفين، وإنما الوسيلة لتأمين الطرق هنالك واحدة وهي بذل مبالغ معينة من المال لهم بدلاً مما كانوا يأخذونه من الدولة العثمانية والحكومة المصرية.

وقد كان الشريف وعدهم عند دعوتهم إلى الثورة والخروج معه على الدولة بأنه يعطيهم تلك المخصصات مضاعفة. وكانت الأموال الإنكليزية في مدة الحرب تغدق عليه إغداقاً فكان يفيض عليهم منها ويرضيهم، ثم أعطى قليلاً وأكدى - أي منع الباقي - وهم يعلمون أنه أخذ باسم ثورتهم عشرات الملايين من تلك الجنيهاً، وأنه ما زال يأخذ الأموال من الحكومة المصرية، وأنه يأخذ أكثر أجور نقل الحجاج بغير حق، فلم يجدوا بدءاً من مطالبة الحجاج ببعض نصيبهم من ذلك وبيان سببه لهم. وقد بلغنا أنهم كانوا في الموسم الأخير (سنة ١٣٤١) يعطون الحجاج سندات بما أخذوا منهم ويحولونهم به على الملك حسين ليدفعه لهم من الأموال المستحقة لهم عنده بحسب الاتفاق معه المبني على التعامل السابق، وهم يرون أن أخذ المال منهم كأخذه منه، إذ كان من الواجب عليه المحافظة على أموال الحجاج وأنفسهم وضمان ما يؤخذ منهم - وهو قد أعلن في جريدته أنه يعطي ذلك ولكنه أوعز إلى المطوفين بأن ينصحوا لمن أخذ منهم المال بأن يتعففوا عن تكليف الملك دفعه فكان نصحبهم مقبولاً.

كان الزوار في الموسم الماضي يدفعون لكل قبيلة ما تطلبه منهم وأقله ريالان مجيديان وهو ما كان يأخذه بنو عوف الذين لم يكن لهم مرتبات على الدولة، وأما أصحاب المرتبات الرسمية كقبائل الأحامدة فقد كانوا يأخذون من كل حاج من ٢٠ - ٢٥ ريالاً مجيدياً ومن حجاج إيران خاصة ستين ريالاً مجيدياً وقد كان من جملة الزائرات الأميرة الأفغانية زوجة الأمير عبد الرحمن خان جد أمير الأفغان لهذا العهد، وقد أوقفها الأحامدة في الطريق أياماً حتى افتداها جلاله الملك المنقذ حامي الحرمين الشريفين

بألفي جنيه وخمسمائة جنيه أرسلها اليهم من مكة. ولا بد أن تكون الأميرة قد أعادتها إليه مع الهدايا اللائقة.

وهذا ما كنا كتبناه منذ بضعة أشهر مما جاءنا عن موسم سنة ١٣٤١ وترثنا في نشره، وقد حدث في أثناء العام انتحاله لمنصب الخلافة فصار خطره أشد، والسعي لتلافيه أوجب، ونبين ذلك بالإجمال فنقول:

خطاب عام للمسلمين

في شأن الحجاز

(٤)

[المنار ج ٢٥ (١٩٢٤) ص ٤٢١ - ٤٣٢]

مفاسد الطاغوت بعد ادعائه للخلافة

ذكرنا في الفصول السابقة بعض الحقائق عن سلب الملك حسين أموال أهل الحجاز والحجاج والظلم في الحرم وفقد الأمن بين الحرمين التي جاءتنا من أخبار موسم الحج (سنة ١٣٤١) وقلنا إنه قد صرح في أثناء السنة الماضية قبل موسمها بانتحاله لمنصب الخلافة فصار خطره أشد، والسعي لتلافيه أوجب، وذلك أن الرجل كلما كبرت مطامعه وتنفع وانتفع في مظاهره يزداد احتياجه إلى النقود ولا مستغل له إلا الحجاج وأهل الحرمين، لأن الإنكليز منعه ما كانوا يعطون، ولا بد من مورد غزير يقوم بنفقات الجمع بين عظمة الملك وفخفته، وإخضاع أمراء العرب المنكرين لامبراطوريته وخلافته، ونشر دعاية الخلافة ومقاومة خصومها في الشرق والغرب إلى أن تستقر وتكون مستغلاً جديداً وما هي بالمستقرة أو يهلك العرب والمسلمون، فخصومه في الملك والسلطان أمراء جزيرة العرب المستقلون، وكل واحد منهم يفوقه قوة وإدارة وعدلاً، وخصومه في الخلافة

الشعوب الإسلامية ما عدا بعض أهل فلسطين وسورية والعراق من المنتفعين بماله، والراجين لنواله، أو المخدوعين بدعايته ودعاية رجاله، أو المتلذذين بنكاية فرنسة، والخائفين من شناعة جيرانهم من النصارى الذين عادوا ولده فيصل في تلك الأيام، التي كان المسلمون فيها سكارى بخمرة الأوهام، أو عائشين في غمرة من أضغاث الأحلام، على أن هؤلاء الأنصار يقلون عاماً بعد عام، لأن جنائياته ظهرت للخواص والعوام، وطفقت تتبرأ منه الجماعات والأحزاب كالأفراد.

كان هذا الرجل المفتون بالألقاب الضخمة والمظاهر الفخمة أميراً للحجاز وكان بدو البلاد كحضرها يخضعون له، ويخشون بأسه، ويقبلون حكمه لعلمهم بأن وراءه دولة يرجى برها، ويخشى ضررها، وقد صلي نار الحرب العامة باسم العرب وهو لم يعمل ولا يعمل ولن يعمل إلا لنفسه وولده، ولم يكن إلا متجراً بالعرب وبلاد العرب، وبدين الإسلام أيضاً كما ظهر، واتضح لغير العميان المنكوسين من البشر، استبد بالأمر وحده على جهله وعجزه، فأضاع الفرصة التي سنحت لاستقلال العرب واتساع ملكه، ولم ينل شيئاً من مطامعه الواسعة لنفسه، بل لم يبق له من إمارة الحجاز إلا هذه المدن والقرى المكدودة على الأصابع، وأما القبائل القوية فليس له عليها من سلطان.

ولكن افتتانه بعظمة الملك وفخامة الألقاب وغروره بالوعود الشيطانية، والأمانى فيما يسميه «الحسيات النجبية للعظمة البريطانية» جراه على تسمية نفسه ملك العرب وصاحب البلاد العربية، وصار يتمتع نفسه بما تصبو إليه من عظمة الملك السورية، فأحدث أوسمة ورتباً متعددة تصدر جريدته «القبلة» آونة بعد آونة وفي صدرها إما عنوان (توجيهات) الذي كان يعهد في الجرائد العثمانية الحميدية، وتحتة: وجه وسام النهضة أو وسام الاستقلال العلي الشأن إلى فلان ووجه... إلى... وإما نبأ من أنباء القصر العالي ومن تشرف بتقيل أعتابه حتى أن أولاده يقبلون فيما يكتبون

إليه الاعتبار، ويعبر أحدهم عن نفسه بخادم تراب الأقدام (؟؟) ولم يدع سيئة من سيئات عبد الحميد إلا وتقلدها حتى إذكاء الجواسيس على رجال حكومته وأولاده، دع غيرهم من الناس الذين قد يعذر بعدهم أعداء له لأنه لهم عدو مبين. وقد حمله إدعاؤه هذا الملك وافتتانه به إلى ما تقدم بيانه من مصارحة جميع أمراء جزيرة العرب بالعداوة وإنذارهم اسقاط إماراتهم وضمها إلى ملك البلاد العربية كلها.

كان هذا بعض شأنه، على ضعفه وعجزه، وخيبة آماله في «العظمة البريطانية وحسياتها النجبية» - إلا أن يقال - ولا يعوز الدليل من قال: إنه لا يقنط من رحمتها، ولا ييأس من روحها، فإنه تبرأ من رحمة الله إن كان يقبل بقرار الدول كلها أضعاف ما تعطيه هي أن لم يكن بواسطتها، فماذا ينتظر من غروره وطمعه وعنجهيته وكبريائه وقد ادعى الخلافة العربية، وطفق ينشر في جريدته الكاذبة الخاطئة دعاوى مبايعة جميع الشعوب الإسلامية، «لصاحب الجلالة الهاشمية، أمير المؤمنين، وخليفة رسول العالمين، المنقذ الأعظم» كقولها (مبايعة أهل مصر - مبايعة بلاد جاوه. مبايعة بلاد السودان) الخ؟

ألا أنه لا ينتظر منه بعد هذا إلا الإسراف في الظلم والإلحاد في الحرمين الشريفين، وتثقيل الغرامات على الحجاج، وبث الفساد السياسي في سائر بلاد العرب، وتمكين النفوذ الأجنبي فيها، ومقاومة الإصلاح ونشر الخرافات في العالم الإسلامي كله.

وقد أحرنا إتمام هذا الخطاب في العالم الماضي لنقف على ما يكون له من التأثير في عمله بعد لقاء أنصاره وأصحاب الآمال فيه بزيارته لشرق الأردن ثم بعد تنحله لمنصب الخلافة، حتى تكون النتيجة من خطابنا هذا بعد استيفاء المقدمات، فجاءتنا اخبار موسم الحج الأخير (سنة ١٣٤٢) بشر مما نشرنا خلاصته في أوائل هذا الخطاب من الإصرار على ما تقدم أو الزيادة عليه، وشرها قطعه لماء عين زبيدة في يوم عرفة لأجل أن يبيع أعوانه الماء

المدخر بأعلى الأثمان واتفق أن كان حر الصيف شديداً حتى في البلاد المعتدلة، فكان موقف عرفة كموقف الحساب يوم القيامة، شغلت شدة الحر وشدة الظمأ أكثر الناس عن أداء العبادة براحة وحضور قلب، ومات ألوف من الناس في عرفات وفي الطريق بينها وبين مزدلفة فمكة، أخبرنا الكثيرون من الحجاج بذلك، ونشره بعضهم في الجرائد وقالوا ان قرية الماء قد صارت تباع بعشرين قرشاً وثلاثين قرشاً في الغالب واشترها بعض الأغنياء بأكثر من ذلك.

ومن الشواهد على الإفساد السياسي ما نقلته الجرائد من إرسال دعائه إلى عدن وبلاد الشافعية من تهامة اليمن ليأخذوا له البيعة ويخدعوا الناس بأن خليفة المسلمين وملك العرب سيجعل أمرهم بأيديهم وحكامهم من أهل مذهبهم، وإدارتهم كما يرغبون ويقترحون، وهذا موافق لتفسيره الرسمي للوحدة العربية الذي بيناه في الوثيقة الخامسة المتعلقة بالجناية الثانية من هذا الخطاب.

وقد ثبتنا في نشر هذه المفسدة فكتبنا إلى اليمن بالسؤال عن ذلك فجاءنا نبأ رسمي لا شك فيه بتأييد الخبر.

ومن الشواهد على مقاومة الإصلاح ونشر الخرافات وتحكم الجهل في العلم والدين ما قرأناه في أنباء الحجاز من جريدة المقتبس الدمشقية من تصدي الخليفة (خليفة الشيطان) لاستخدام مجلس شورى الخلافة الذي استحدثه لمنع انتشار الكتب والرسائل التي اشتهرت في بلاد جاوه من قبل الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا، كما منع من قبل ذلك كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرها من الكتب القديمة التي لا توافق هواه، ولا نقول رأيه أو فهمه، إذ هو عامي لا رأي له ولا فهم في علم ولا دين.

ثم أخبرنا أحد علماء الأزهر الذين حجوا في الموسم الأخير أنه علم من

الثقات في الحجاز أن حسيناً كلف بعض علماء حكومته ومجلس شورى خلافته كتابة فتوى يطعنون فيها بالشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا صاحب المنار تبعاً لتهم دونها لهم في الأسئلة الذي كلفهم الجواب عنها، فكتبوا له ما لا يرضيه تمام الرضا لأن ما يرضيه يغضب الله تعالى - واتقوا شره بأن كتبوا إنهم لم يطلعوا على شيء من كتب الشيخين المذكورين مشتملة على ما ذكر في الاستفتاء - هذا ملخص الخبر بالمعنى .

علاوة

(من روايات الحجاج في ظلم حسين، في الحرمين الشريفين)

عهدنا إلى أحد علماء الأزهر الذين ذهبوا إلى الحجاز في الموسم الأخير أن يستقصي لنا أعمال هذا الطاغوت وذكرنا له بعض الثقات الذين يعرفون هذه الحقائق ولا يخلون بها على من يثقون بأمانته، ويأمنون شر سعايته، فجاءنا بمسائل كثيرة. ثم جاءنا بيان آخر من بعض سكان المدينة المنورة الذين حضروا موسم الحج الأخير أيضاً - فنلخص البيانين لإطلاع العالم الإسلامي عليهما، ودعوته إلى القيام بما يجب عليه من العمل لمهد الإسلام، وحرمة الله تعالى وحرمة رسوله عليه الصلاة والسلام، وخدمة للتاريخ الخاص والعام.

ملخص ما جاء به العالم الأزهرى من مكة

(١) صدرت أوامر الملك حسين بمنع مشترى الأعشاب قبل أخذ ما يلزم لحيواناته فتجاسر أحد التكارنة واشترى فقبض عليه وسجنه عاماً واحداً وقال انه سجنه بمقتضى الوجه الشرعي من الكتاب والسنة فاستفتى أبو المسجون المفتين الأربعة بمكة فأفتوه أنه لا يستحق الحبس شرعاً فاطلع الملك عليها فغضب وقال انه يخالف الشرع ولا يطلقه من الحبس وصار يكرر قوله: إشهد أني أخالف الشرع في أحكامي .

(٢) في شعبان سنة ١٣٤٢ اشكت فتاة امرأة من موالى الشناقطة أحد موالى العربان بأنه اغتصبها بعد أن تهددها بالقتل في طريق الرصفة وهو حمى الملك الذي لا يدخله سوى جماله وأي حيوان يدخله يصادر - وقد وصفت الفتاة المتهم فقضب الملك على غيره من المغضوب عليهم فقطع يده ورجله من خلاف من غير أن تراه الفتاة وتشهد أنه هو الجاني وهذا حكم الشرع .

(٣) جعل رسماً على كل جمل وحمار وبغل يجيء من جدة إلى مكة نصف جنيه إنكليزي وريالين مجيدين ومن مكة إلى عرفات نصف جنيه إنكليزي ومن مكة إلى المدينة ثلاثة جنيهات، جنيهاً برسم الحكومة والخزينة الخاصة .

(٤) لأجل جمع الإعانات من الحجاج وضع في مجاري عين زبيدة أكياساً من الرمل فوق عرفة بقليل وذلك قبل يوم عرفة فلم يأت وقت الظهر حتى نضب الماء من حياض عرفة ونشأ عن ذلك عطش شديد جداً مات بسببه خلق كثير من الفقراء ولما ظهر سره امتنع عن جمع الإعانة وعلى ذلك أدلة (منها) أن الماء كان فوق عرفة طافياً في الآبار على وجه الأرض حتى كان من أخبر بذلك من العرب يملأ بيديه من غير دلو ولا رشاء (ومنها) اننا عند نزولنا إلى منى وجدنا الماء فيها كثيراً أو ما كان غلاء ماء منى إلا من توهم الناس ان الماء مقطوع مما جرى لهم بعرفة . ولكن الذي كان يشاهد الآبار بنفسه وهي تجيش بالماء الغزير يعلم الحقيقة (ومنها) أنه قبل خروج الناس إلى عرفة بأيام طلب من مطوفي الجاوه والهنود جمع حجاجهم له في الحرم ليكلمهم في أمر مهم . ثم قال للمطوفين تدرون هذا الأمر؟ فقالوا لا . فقال لأجل جمع إعانة لتصلح عين زبيدة .

(٥) طريقته في جمع الإعانة للعين أن ما زاد على عشرين جنيهاً يوضع في صندوقه الخاص وما نقص عنها ففي صندوق العين وإذا احتاجت العين للتعمير لا يعطيها شيئاً وإذا طُلب من صندوقه للحاجة يغضب، وحصل

ذلك مرة فغضب وحاسب أمين الصندوق وعطل أعمال لجنة العين أحد عشر شهراً. وبعض الحجاج لجهل أو غفلة أو حب رياء وظهور يدفعون له مباشرة ما يتبرعون به فيكون خالصاً له والمعروف منه لا يقل عن ٥٠٠ جنيه.

(٦) عند مبايعته بالخلافة في عمان وصلت منه برقية لقاضي القضاة بمكة بأنه إذا امتنع أحد عن البيعة يقتل رمياً بالرصاص.

(٧) لما وصلت الكسوة من مصر أغرى بعضهم أن يحضروا له بعض المصريين ليقولوا له أنه بلغهم أنه يريد رد الكسوة وأن سيكسو الكعبة من عنده كما كساها في العام الماضي وأن يسترحموا جلالته ويرجوه عدم ردها ويلحوا عليه في ذلك فيقبل رجاءهم. وأظهر للناس أنه في غنى عن كسوة مصر ولولا إلحاح المصريين لم يقبلها. والكسوة التي جاء بها في العام الماضي ثمنها ٣٠٠ جنيه وهي من الصوف القيلان وكانت عندما دخلنا مكة باهتة وشكلها في غاية الكآبة.

(٨) كان حول المسجد الحرام ميضأة من أوقاف سلاطين مصر والأتراك فهدمها وجعل محلها دكاكين ملكاً له وصار الناس يبولون في الشوارع ويتوضئون على أبواب المسجد الحرام ورأيت بعيني ناساً كثيراً يفعلون ذلك.

(٩) أمر أن لا يتجاوز الحمل ٢٠ أقة والجمل يستطيع حمل ٧٠ فأكثر فصار أكثر الحجاج يضطر لترك كثير من حاجاته في جدة، وهو يدعي أنه فعل ذلك شفقة على الجمال، والحق أنه أراد كثرتها لأجل المال. ومن جراء ذلك تعطل في العام الماضي عدد غير قليل عن الحج وفاتهم يوم عرفة وهم بجدة ينتظرون عودة الجمال التي رحلت بهذه الأحمال الخفيفة.

(١٠) إنه يأخذ من أصحاب الخيام المعدة للأجرة ما يحتاج إليه لإكرام ضيوف منصبي الملك والخلافة بغير أجرة (وذكر الكاتب حكاية طويلة

سمعها من رجل كردي فقير كلفه الملك الخليفة الإتيان بخمس خيام فاعتذر بفقره وغربته فوضعه في سجنه الذي سماه هذا المسكين جهنم ووصف ما فيه من السلاسل والأغلال . . . ثم افتداه بعض الموسرين باستئجار الخيام المطلوبة له ولكن لما آن وقت إرجاعها بعد عرفة أرجعوا ثلاثا واغتصبوا اثنتين .

(١١) إذا حكمت المحكمة الشرعية حكماً وصدق عليه قاضي القضاة والتدقيقات الشرعية ووسط المحكوم عليه واسطة أو رشوة أو نفاقاً أو تجسساً أو إطراءً انعكست القضية وأصبح المحكوم عليه محكوماً له . وهذا الباب مفتوح للجميع وبعد قليل يصل الآخر إلى ما وصل إليه المحكوم عليه فتعكس القضية مرة ثانية وبعد مدة تنقلب أخرى وهلم جرا .

(١٢) القاضي لا يحكم إلا بأمر الملك ، وحجته أنه هو الذي ولاه فكيف يحكم بغير أمره واستحسانه . وإذا شهد فتركته أن يكون مخلصاً لسيدهم وبذلك يكون أعدل الناس ويقوم مقام اثنين وأكثر .

(١٣) كان على سوارى المسجد الحرام كتابات من قبل سلاطين مصر وتركيا وغيرهما بإبطال المكوس بمكة والمدينة فطمس الكتابة بالجير ولكنها لا تزال ظاهرة الأثر .

(١٤) إذا أراد اغتصاب قطعة أرض من صاحبها تذرع بالطرق العامة وأنه يريد أن يفتح طريقاً أو يوسعه فيكره صاحب العقار على تركها له في مقابل شيء لا يذكر ثم يأخذ الملك منها قطعة صغيرة للطريق والباقي يبينه لنفسه بيوتاً ودكاكين ، وبهذه الطريقة صار له عقار كثير جداً وإنما يأخذ ذلك باسمه بناءً على فتوى من القضاة بأن التملك للحكومة لا يصح لأنها هيئة وإنما يصح لشخص بعينه .

(١٥) إذ اضطر أحد الأعيان من شدة تضيقه عليهم إلى عرض بعض الحلي والجواهر للبيع فللشريف دلال مخصوص لا يمكن أن يباع شيء من

ذلك حتى يعرض عليه وهو يأخذها بأبخس الأثمان لحساب سيده بعد أن يحذر الدالين من المساومة فيها والمزايدة.

(١٦) إذا ورد رقيق يأخذ لنفسه الوصائف والغلمان الحسان بأبخس ثمن فإذا تظلم النخاس يقال له هذه عشور الحكومة التي تحافظ عليك من قناصل الدول ومراراً طلب قنصل الإنكليز تسليم النخاسين من رعاياهم ورعايا الحكومة الإيطالية فلم تسلمهم الحكومة.

(١٧) كان له دار في المسعى جعلها مدرسة بعد أن جمع لها إعانات كثيرة وسلب الأوقاف من أهلها وحبسها على المدرسة وشرط لها شروطاً تجعل المدرسة في أي وقت عرضة للإغلاق وطرد المدرسين والطلبة، ويرجع بناءها للملكه الخاص يؤجره وزاد أن ضم هذه الأوقاف الكثيرة إلى ملكه - أو أوقافه - أيضاً.

(١٨) أسس شركة تجارية سماها (الشركة الوطنية) رئيسها أحد صنائعه يدعى عبد الوهاب قزاز ولا مال لهذه الشركة وإنما رأس مالها ما تأخذه من التجار من البضائع بالطريقة الآتية: إذا وصلت البضائع إلى الجمرك فللملك عمال هناك يعرفون البضائع الراجعة فيحجزونها على اسم الشركة وترسل إلى مكة في أول قافلة وتمنع البضائع الأخرى من الخروج حتى تباع هذه كلها وبعد ذلك يسمح للبضائع الأخرى بالخروج إلى مكة، والبضائع التي أخذتها الشركة هي من أموال التجار ولكن لا يدفع ثمنها اليهم إلا بعد بيعها بأشهر ونادر جداً أن يدفع الثمن كله، وهذه الشركة تخلط الزيت مع السمن والماء مع الغاز وتطفف الكيل والميزان وقد صار الآن رأس مالها عظيماً وهي ملك خالص للشريف لا شريك له فيها.

(١٩) يقول دائماً (جوع كلبك يتبعك) فلذلك تراه دائماً ضد التجار ويسعى في معاكستهم وفي كل شهرين أو ثلاثة يزيد رسم الجمرك والغرامات عظيمة والبضائع متراكمة بدون بيع لأنه لا يسمح لهم إلا

بالكاسد بعد أن يبيع هو ما انتقاه من بضائعهم ، وان دام هذا الحال على
التجار فعاقبتهم الإفلاس حتماً .

وكذلك يضيق على العربان أولاً في بيع ما يجلبونه إلى مكة من غنم
وغيرها ، فلا يأذن لهم أن يبيعوها إلا بالسعر الذي يسمح لهم به ، ولا
يسمح لهم بشراء الطعام إلا بمقادير قليلة جداً ، فمن طلب أرزاً أو دقيقاً
لا يعطى إلا الربع ومن طلب ثوب قماش لا يسمح له إلا بالربع حتى
أصبح العربان في ضيق شديد وضنك من العيش حتى قال بعضهم : إنه
يمنعنا طعامنا الذي نأخذه بدراهمنا حتى صرنا نهرب من الضيوف لأننا لا
نجد ما نطعمهم بعد أن كنا في كل ليلة نذبح الخرفان ونطبخها بالأرز ،
وثانياً في أجور جماهم للحجاج والقوافل لأجل سمسرتهم كما تقدم . وقصده
من كل ذلك جعل جميع الناس فقراء حتى يتبعوه ويحشد منهم من يشاء
بمرتب عشرة ريالات مجيدية ليقاتل بهم ابن السعود والإمام يحيى
والإدريسي .

(٢٠) سبب منع العربان للحجاج من زيارة المدينة المنورة إلا بجعل
يأخذونه منهم أنه كان لقبائل حرب منذ القدم مرتبات من الدول
الإسلامية وآخرها الدولة العثمانية (٤٠) ألف جنيه سنوياً في مقابل أمن
الطرق وحفر الآبار وإحضار الحطب والماء للحجاج في الطريق ومحطاتها ،
ولما ثار الشريف على الدولة العثمانية كان يعطيهم إياها للاستعانة بهم على
فتح المدينة بعد حصارها فلما فتحت المدينة بالهدنة قطع تلك المرتبات
وصار العربان من حرب وغيرهم يتعرضون للحجاج في طريق المدينة
ويأخذون من كل شخص جنيهين فأكثر وفي كل سنة يكون عدد الزائرين
(٣٠) ألف جمل أو يزيدون ثم ما اكتفى بقطع المرتبات بل صار يجعل
أجرة الجمل من مكة أو جدة إلى المدينة (١٦) جنيهاً يأخذ منها (٦) لنفسه
وللحكومة واحد وللمقدم والمطوف والرهيئة (واحد) ولقائم مقام القصر
الشريف محسن (واحد) وللوسائط (واحد) فيبقى للجمال خمسة فتضرر

العربان من هذه الحالة وطلبوا منه الإنصاف فامتنع وامتنعوا هم أيضاً من حمل الحجاج وذهبوا بجماهم إلى ديارهم فأرسل لهم الوسائط تسترضيهم فرجعوا وشرطوا شروطاً منها منع السخرة على جماهم وعدم تكليفهم بالذهاب بها إلى مواقع الحرب جهة أبها عسير والطائف وعدم شراء جماهم من المزداد وإعطائهم المعاشات من رجب سنة ١٣٤٢ إلى آخر سنة ١٣٤٢ مبلغ (١٨) جنيه مقدماً وجعل كراء الجمل الصافي بيدهم (٨) ولغيرهم (٨) وإذا وقع على القافلة تعد فهم يقاتلون المتعدي إلى آخر قطرة من دمائهم خلافاً لما كان سابقاً من عدم القتال، فحلف لهم بالوفاء ولكنه لم يف وأعطاهم من الثمانية عشر ألف جنيه الفي جنيه فامتنعوا عن قبولها وخرجوا من مكة غضاباً ولما وصلت القافلة إلى رابغ أرجعوها إلى مكة بدون زيارة وقد مكثت القوافل في رابغ عشرة أيام لأن بعض الجمالة هربوا بجماهم إلى منازلهم التي حول المدينة وأما من كانت منازلهم حول جدة ومكة فقد عادوا بالحجاج وقد أرسلت الحكومة بواخرها إلى ينبع ونقلت الحجاج على حسابها بزعمها مع أنها كانت أخذت رسم الجمل (٨) جنيهات وزادت رسم الجمال إلى مكة مجيداً، ولما رجعت القوافل بهم خرج وقابلهم من الزاهر والشهدا راكباً حصانه وقد سبقه بساعتين محسن راكباً السيارة فلما سمع الجمالة صوت السيارة أيقنوا أنه يريد أذاهم فقطعوا أربطة الأحمال وقلبوا الشقادات بمن فيها فمنهم من جرح ومنهم من كسرت يده أو رجله والقليل منهم سلموا ودخلوا مكة على حالة مبكية.

هذا قليل من كثير من المظالم الواقعة على الحجاج والأهالي.

خطاب عام للمسلمين

في شأن الحجاز

٥

علاوة

(في ظلم الملك حسين وولي عهده الأمير علي في المدينة المنورة)

[المنار ج ٢٥ (١٩٢٤) ص ٦٣٠ - ٦٤٠]

كتب إلينا ناقد خبير من سكان المدينة المنورة مقالاً طويلاً ذا فصول في ذلك فرأينا من إتمام الموضوع أن نلخصه ونختصره بما يأتي:

(١) نهبها للأوقاف الأهلية الخيرية

لما استولى الشريف حسين على المدينة المنورة بعد هدنة الحرب كان أول شيء فعله أن وضع يده على أوقافها حتى الموقوفة على سكان البلاد كوقف المغاربة وهو يحتوي على نخيل وأراضي وبيوت. وكذا وقف الهنود والبخاريين وغيرهم فبيع هذه الأوقاف يوضع الآن في الخزينة النبوية ومنها يرسل إلى خزينة الشريف في مكة إلى يومنا هذا. وسنذكر بعض الوقائع في مخاصمة بعض مستحقي هذه الأوقاف للأمير علي والشكوى لوالده.

ولم يكفه هذا كله بل تسلط على الأوقاف الخيرية المحبوسة على الفقراء في المدينة وأمر بتحويلها إلى الخزينة النبوية لتصرف في شؤون الحرم مدعياً أن المستحقين ليسوا موجودين والله يعلم أن عدد الفقراء في المدينة المنورة أكثر من سائر سكانها ولكن ليس المقصد ذلك بل هو استيلاء الخزينة على غلة هذه الأوقاف وإطلاعها على تفرعاتها وبيعها وأن تجمعها وترسلها في صناديق مقفلة إلى الملك بمكة، وهذه العادة مستمرة إلى يومنا هذا [١٩٢٤].

(٢) نهبها للحجرة النبوية

ثم مد يده إلى الحجرة النبوية المعطرة فجردها من جميع ما بقي فيها بعد

أن أخذ الترك ما أخذوا من جواهرها وذخائرها. وأخذ جميع الأمتعة التي تركها فخري باشا على ضريح السيدة فاطمة البتول رضي الله عنها، ولولا أن فخري باشا تدارك الأمر وأرسل مجوهرات الحجرة الشريفة إلى الآستانة لتصرف فيها الشريف حسين ووضعها في خزائنه مثل بقية الأمتعة.

فمن جملة تصرفه في أموال الحجرة الشريفة أنه أخذ ما ينوف عن عشرة كيلو (غرام) من الذهب كان فخري باشا ذوبها وجعلها سبائك وهو قطع بعض الأمتعة المكسورة و٢٥٠ كيلو من الفضة المسبوكة وكان قد أراد فخري باشا إرسالها إلى الآستانة مع بقية الأمتعة فحال دونه قطع المواصلات. والنقود التي طبعها الشريف حسين في المدة الأخيرة من هذه السبائك.

ومن جملة الأحوال التي يتأثر بها الإنسان - أن الحجرة الشريفة بعد أن كانت توقد قناديلها كلها من الزيت الرفيع أصبح يوقد عدد قليل منها بالزيت المكروهة رائحته إلا أنه أمر بإيقاد شمعتين في الحجرة فقط.

وقد نقل إلى مكة كل ما كان في الخزينة النبوية من جواهر وحلي وأمتعة موقوفة من أهل البر والإحسان لكل عائلة تريد التحلي بها والتزين في الأعراس مع ما تركه فخري باشا من النقود التي تزيد عن مليون ونصف مليون جنيه من القراطيس المالية «بانقنوط» وخمسين ألف جنيه عثماني أصلها من أموال الخزينة وأوقافها، غير مبال بحق الله أو بحق رسوله أو بحق العباد وحرمان الفقراء المستحقين من القوت.

(٣) نهبه للحرم النبوي الشريف

أمر الملك حسين ولده الأمير علياً والي المدينة المنورة بأن يرسل إليه جميع ما في الحرم النبوي الشريف زائداً على فرشته من السجاد والبسط فنقلها إلى مكة شيئاً فشيئاً ففرش الملك بها قصره وداره ودوائر أولاده حتى بيوت

عبيده وغلماؤه، وكل ما يهدى إلى الحرم الشريف من زيت وشمع وعطر وغيرها يأمر بإرسالها إليه قبل أن تفتح وأن يراها أحد، وهو يخبر بكل شيء من هذه الهدايا عند وصولها وأكثرها تحيىء من الهند.

ولا أعلم أنه أرسل يوماً من الأيام شيئاً إلى الحرم النبوي بل كلما بلغه أن هناك هدية قدمت للحرم فقبل أن يخبره بها هو يرسل في طلبها حالاً حتى أصبحت الخزينة النبوية لا تستطيع شراء أقل شيء يحتاجه الحرم ولو «مكنسة» وإذا اطلعت على قيود الخزينة النبوية ترى أن لها مخصصات تبلغ خمسمائة جنيه في كل شهر ربما تتقاضى هذا المبلغ في مدة سنتين بيد أن مداخل الخزينة تقدر بالألوف من الليرات. فإيرادات الحرم النبوي في الحالة الحاضرة ليست بقليلة بل هي تقوم بجميع ما يحتاج إليه مع رواتب مأموريه ولكن الشريف لا يرضيه ذلك ولا يهيمه إلا تكديس الذهب الأحمر في خزائنه وهو لا يصرف لخدمة الحرم من أئمة وخطباء ومؤذنين وأغوات وغيرهم إلا نصف المرتب ولكن في كل ثلاثة أشهر مرة ثم أنه يعطيهم بدل الجنيه الأفرنجي ستة ريالات مجيدية وإنما سعره في الخارج يساوي ١٤ مجيدياً، وهو لا يدفع لهم مرتباتهم إلا قطع فضة وكذلك بقية عمال حكومته لأنه يحتكر الذهب لنفسه.

وقد بلغ الحرم في الحالة الحاضرة إلى حالة سيئة لإهمال ترميمه في كل سنة حسب العادة، ويقال ان ترميمه في الحالة الراهنة يحتاج إلى مصرف قدره خمسة آلاف جنيه وزيادة ليعود كما كان.

ولولا مساعدة أرباب الغيرة من المسلمين وبذلهم ما في إمكانهم لشراء «البوية الخضراء» وجلبها من مصر لأجل طلاء القبة الشريفة لأصبحت القبة غبراء، وكذلك بقية ملزمة (?) الحرم التي ترسل تارة من إخواننا المصريين والهنود وغيرهم.

(٤) إن بعض أغنياء الهنود يبذلون كثيراً من الهدايا والصدقات لأهل

المدينة في أثناء زيارتهم وذلك يسوء الملك جداً فيتوسل جواسيسه وأعوانه بما يعلم أهل المدينة من مساءته إلى مشاركتهم في هذه الصدقات والهدايا وإلا أخبروه بها. وفي رمضان الماضي زار المدينة المنورة ملك (جترال) واسمه شجاع الملك وأقام فيها خمسين يوماً فبذل كثيراً من الخيرات والصدقات على جميع الأهالي من طعام ولباس وفلوس حتى رجال الحكومة عموماً فكان كل يوم يدعو جماعة من الدوائر للإفطار في رمضان ووسع على بعض علماء المدينة الذين عرفهم وكانت نفقاته اليومية تقدر على الأقل بخمسين جنيهاً ما عدا العطايا التي كان يبذلها لخدمة الحجرة المعطرة والحرم الشريف ومؤذنيه وخطبائه وأئمته والسقاة والبوابين، الخ. فلما بلغ الأمر إلى الشريف الحسين وكان أمر بمراعاته وخدمته أخذ يضيق عليه بطرق أزعجته وأضرت بكثير من الناس فقد أمر بمنع الأهالي من زيارته حتى العلماء والفقراء إلا بإذن من الحكومة فكانوا يمنعونهم جهراً ويهينونهم^(١) فأدرك الملك المشار إليه ذلك - فحزن ووعد بأن يساعدهم من بلاده ويتحرى أن لا يصيبهم من مساعدته ضرر. وقد أرسل الشريف حسين إليه من يبلغه شكره ويقول له: ان المطعم الهاشمي يكفي فقراء المدينة حاجتهم(!!)

(٥) وأما خبر المطعم الهاشمي فهو أنه لما امتنعت التكية المصرية في المدينة المنورة من إعانة الفقراء من جراء الخلاف بين الحكومتين الهاشمية والمصرية أمر الشريف حسين بإنشاء مطعم يغنيهم عن إعانة التكية وأمر تجار المدينة بأن تقوم بجميع نفقاته فقاموا بذلك طائنين أن الحكومة تعطيهم ما ينفقونه فلما طال الزمان ولم يروا منها شيئاً علموا أن هذا من جملة الغرامات التي تلقيها على رقابهم فقصروا واختل نظام المطعم وأصبح

(١) سبب هذا أنه لا يريد أن يعلم أهل الحجاز أنه يوجد في المسلمين ملوك وأمراء يعطون لوجه الله بل هو لحسده وأثرته كان يمنع جريدة الفلاح بمكة من الشاء على محمد عبد الكريم أمير الريف في المغرب أو ذكر أعماله لثلا يفضله الناس عليه.

يطعم يوماً ويمنع أياماً، ويعطي أقل ما ينفقه للفقراء وأكثره لرجال الحكومة الهاشمية وجواسيسها وعبيدها ليشهدوا لهم عند من لا يقبل شهادة غيرهم.

أي الرجلين أظلم حسين بن علي أم علي بن حسين

(٦) لأهالي المدينة المنورة أوقاف كثيرة بعضها موقوف على بعض العائلات بموجب فرمانات وحجج شرعية فلما نهق الشريف حسين نهيقه المشهورة بإبادة العالم الإسلامي(?) ودخل المدينة المنورة بعد الحرب وضع يده على المباني الأميرية وعلى الأوقاف العائدة لأهاليها الحاضرين بالمدينة المنورة فحوّل ريعها إلى خزينته كما تقدم غير مبال بالمستحقين فيها من أيتام وأرامل وغيرهم وهو يعلم أنه ليس لهم من دونها أقل دخل يعتمدون عليه في تدبير معيشتهم وقد ظن بعض الناس أن هذا خطأ فقام بعضهم بواجب الدفاع عن حقوق بعض العائلات التي أدخلت أراضيهم ودكاكينهم في الأوقاف الأميرية وعرضوا فرمانات والحجج الشرعية التي تثبت أن الوقف أهلي له مستحقون - فتلقى الأمير علي أمير المدينة المنورة هذه الحجج والمستندات بغاية الغضب والاشمئزاز وأخذ يتدبر في حل المشكلة فأوعز إلى قاضي المدينة بتشكيل هيئة تدقق الحجج وتنتهي المسألة على حسب مرغوبه في الباطن فقامت الهيئة بالعمل فاتضح الحق كالشمس في رابعة النهار ولكن «المخلصين» من رجال الهيئة لم يمكنهم المجاهرة بالحق ففوضوا الرأي «لمولانا» القاضي لأن يحكم بما أنزل الله . فحكم بما أنزله الأمير علي بقوله : للحكومة حق فيها من حيث إن أصل الأراضي أميرية وقد تبرعت بها الحكومة التركية على بعض الأهالي وبما أن القوانين التركية لا يعمل بها في الحكومة الهاشمية فلا عبرة بحججها ولا بغيرها. . . . وأق بنص أخرجه من كتب الزنادقة (كذا) أيد به رأيه فعارضه بعض الأعضاء ببطلان نصه وإثبات صحة الوقف شرعاً ونفاذه . ولكن الأمير علياً أخذ بقول القاضي - وكتمت المسألة حتى جاء والده المدينة زائراً قبل سفره إلى شرق

الأردن فرفعوا الأمر إليه فأمر بتأليف لجنة للنظر في القضية فقال له الأمير علي ان اللجنة تشكلت وحكمت والتفت إلى الشاكين وهددهم بقوله: سأناقشكم الحساب... فقال الملك: أي حساب يا ولدي؟ شكل اللجنة ثانية - واعتذر هو للشاكين بأنه زائر ما جاء ليحكم وإن في ولده الغنى عن حكمه وإنه لولا حبه إياهم لما ترك عندهم أعز أولاده في وقت هو محتاج إليه فيه (قال) فأرجو مساعدته وحفظه وما هو إلا أمانة مودعة عندكم فراعوا حقها وواجبها، فإني أوصيكم به خيراً.

(٧) كان صدر أمر الأمير علي بأخذ العشور عن كل ما يباع في أسواق المدينة من صنف الخضر والفواكه التي تزرع في نفس البلاد فكان هذا الأمر ساء زراع أهل المدينة مع مخالفته لحديث المصطفى ﷺ بقوله ما تأويله: لا يؤخذ عن سوقنا هذه شيء (؟) ولما هو مكتوب على باب السلام من ثلاثمائة سنة: سوق المدينة المنورة معفي من أداء العشور... فعرضت على الملك حسين وهو في المدينة فسأل ولده الأمير علياً عن صحة ذلك - فأجابه في حضرة المدعين: بأنه لم يأخذ باسم العشور وإنما أخذ باسم الزكاة وفقاً لأصول مكة، فسأل الملك الحاضرين ما قولكم؟ فأجابوه: إننا تؤخذ منا الزكاة وتؤخذ منا العشور وما نحن بكاذبين أمام صاحب الجلالة. فسكت قليلاً وقال: أنا أمرت ألا تؤخذ عشور من المدينة فما سافر الملك حسين حتى ازدادت قيمة العشور فوق ما كانت، أهد^(١).

(خاتمة الخطاب والغرض منه)

إن مجموع ما أثبتناه في هذا الخطاب يوجب وجوباً كفائياً على من علم به من المسلمين أن يسعوا لإنقاذ الحرمين الشريفين وأهلها من ظلم هذا

(١) المنار: نكتفي بهذا الملخص من رسالة المدينة المنورة لأنه لم يبق إلى التطويل حاجة ويليها رسالة في اختلال الأمن هنالك وعجز الحكومة الهاشمية عن منع الأعراب من القتل والنهب ربما ننشرها في المنار وحده.

الطاغوت وظلم أولاده، وتأمين أهلها ومن يقصدهما للنسك أو غيره على نفسه وشرفه وماله، ومنع الغرامات والضرائب والظمأ القاتل والغلاء الفاحش منها، بتغيير شكل حكومتها، ومنع نفوذ حسين وأولاده أن يعود إليها. ثم السعي لإعلاء شأنهما بالعلم والعمران.

فأما القادرون على إزالة هذه المنكرات بأيديهم كأمرء جزيرة العرب وأئمتها فهم المسؤولون قبل كل أحد عن القيام بهذه الفريضة بالتعاون أو الانفراد، فأبهم قام بها يسقط بعمله الإثم عن الباقيين وسائر المسلمين.

وقد كنا أفتينا بهذا من قبل، وطالبنا هؤلاء الأمراء بهذا الواجب في السر والجهر، وبيننا لهم أن ما كانوا يخشونه من تدخل الأجانب غير المسلمين في أمر الحجاز بدعوة حسين ولا سيما من ناط بهم أمر حمايته، مخالف لتقاليدهم السياسية، إلا أن يكون بالدسائس السرية، وهي لا خطر فيها ولا تسقط الفريضة بها.

وأما الأفراد الذين لا يملكون من القوة ما ينقذون به الحرمين وإصلاح شأنهما فيمكنهم نصيحة القادرين، والتعاون على العمل بوضع نظام للعاملين، وقد تألفت لذلك جمعية خاصة باسم (جمعية السلم العام، في بلد الله الحرام).

ونحمد الله تعالى إننا قبل ختم هذا الخطاب الذي أبطأنا في نشره علمنا أنه تعالى قد وفق السلطان عبد العزيز آل سعود إمام نجد وملحقاتها للقيام بما كان يجب على أولي الاستطاعة كافة - وجوب كفاية - من إنقاذ الحجاز من هذا الظالم وأولاده، وقد نصره الله نصرأ عزيزاً فاستولى على مكة المكرمة، وخر حسين بن علي عن عرش ملك العرب والخلافة العظمى اللذين تنحلها بالباطل؛ وفر منهزماً من الحجاز مشيعاً من قومه بمقتهم له وسخطهم ودعائهم عليه بأن لا يريه الله خيراً، ولأنفسهم بأن لا يريهم له وجهاً، فظننا أن قد حصل الغرض من الخطاب قبل تمام نشره

ولكن إبطاء جند السلطان ابن السعود المؤلف من عرب الحجاز وعرب نجد في إنقاذ مكة وقطع طريق جدة والاستيلاء عليها مكنه من نقل ألوف ألوف من الدنانير الذهبية الإنكليزية والجنيهات المصرية الورقية (الأنواط) وسبائك الذهب والفضة التي نهبها من المدينة المنورة وما لا يحصى من الذخائر والجواهر.

سيرة حسين بعد فراره من الحجاز

إنه قد شحن سفينتين من البواخر التي كان ابتاعها للتجارة مما ذكر من الأموال والأثاث والرياش الذي كان في داره وفي دار الإمارة لأنه وإن قيل كذباً وخداعاً إنه استقال يعد كل ما للحكومة من مال وعقار وأثاث ملكاً له، وكان يتصرف في كل شيء إلى يوم إبحاره من جدة. وسافر بذلك من جدة إلى خليج العقبة فألقى مراسيه فيه وهنالك بسط يديه الكرتين بالمال لولده علي الذي خلفه في الحجاز وبإذنه سمى الحزب الوطني المؤلف من بعض أهالي مكة وجدة ملكاً له وحده فهو فيه تحت سلطان والده ملك ملوك البلاد العربية وأمرائها كلهم وخليفة المسلمين كافة - ولولده عبدالله الأمير البريطاني من قبل الدولة الإنكليزية على شرقي الأردن بإذنه ورضاه أيضاً وهما اللذان جعلاً لها حق السيادة الانتدابية على هذه البقعة من قلب جزيرة العرب وهي مركز الخطر الأكبر عليها - إذ هي بين الحجاز ونجد وفلسطين وسورية والعراق.

وإنما بسط يديه الكرتين لولديه المذكورين لأجل جمع المقاتلة بالأجرة وجلب الأسلحة والذخائر الحربية لقتال الوهابيين وإخراجهم من الحجاز ثم القضاء على قوتهم وثل عرش ملكهم في عقر ديارهم إن أمكن وأملهم في القتال ضعيف وإنما يظنون أن الاستعداد له يكون وسيلة لإقناع سلطان نجد بالصلح ليعود حسين إلى مكة أشد ظلماً وإحداً في الحرم مما كان - ولاستماله أعراب الحجاز الساخطين عليه الماقتين لحكمه حتى قيل إن ما خصصه لهؤلاء خمسمائة ألف جنيه من الذهب الإنكليزي - وما قيل من

استقالته أو خلعه فهو من خداعهم وإفكهم لأنهم يعلمون أن جميع بدو الحجاز وحضره يمقتونه ويفضلون سلطان نجد على حكمه وأما علي ابنه فضعيف الإرادة فلا يظلم إلا ضعفاء الحضر، ولكنه مبايع لوالده بملك العرب وبالخلافة وإنما يعمل لإعادته ولولا ذلك لما أمده بالمال، فإن عاد كان الخطر على جزيرة العرب أشد مما كان.

أما وله ببذل المال غرض آخر هو بث الدعاية العامة في العالم لتحسين سمعته وتشويه سمعة ابن سعود وأهل بلاده بوصفهم بالتعصب الديني والتوحش والضراوة بسفك الدماء وهو يعلم ما لا يعلم أهل نجد من تأثير هذه الدعاية وقلما يسخو إلا في سبيلها من حيث لا يقيم لها سلطان نجد وزناً، وقد بذل في هذه السبيل كثيراً مما جمع من السحت ولكن كان كل ما ربحوه أن بعض الجرائد نشرت لهم ما شاؤا وقل من يصدقها لتعارضها وظهور كذب ما تنشره في الغالب ولأن سياستها أجنبية غير إسلامية، ومبا برح الرأي الإسلامي خصماً لهم ومؤيداً عليهم فلم أر لمسلم معروف بمصر كلمة خير فيهم وقد أخبرنا الثقات أن أنصارهم في سورية وفلسطين يقولون ولا يزدون.

ويليها الدعاية في بلاد العرب لتأليب القبائل على حكومة نجد والوهابيين وحملهم على قتالهم واسترداد إمارة آل الرشيد لهم (في ظل ملك البلاد العربية كلها وخليفة المسلمين) ولإغراء العداوة والبغضاء الدينية بينهم وبين قبائل الشيعة في العراق وهذه المهمة منوطة بالملك فيصل ولولا أن الشيعة مقتوه مع مبالغته في التملق لهم لما علموا من إخلاصه للأجانب دون الأمة والملة لنجح في هذا الأمر نجاحاً عظيماً، ولعلماء الشيعة وزعمائهم ورؤساء قبائلهم في العراق الفضل الأكبر في مقاومة الإنكليز واضطرارهم إلى تأليف حكومة عربية مستقلة في دائرة الأمبراطورية البريطانية والسعي للاستقلال المطلق - ولولا الشيعة لكان العراق ولاية هندية محضة، فإن أكثر المنتمين إلى السنة هناك أضعف عزيمة وأوهن

عصبية من الشيعة، فالمصلحة العربية تقضي باتفاق الشيعة كأهل السنة مع أهل نجد ومن تبعهم وذلك ممكن إذا كف الله كيد هؤلاء الحجازيين عن البلاد العربية.

وقد أبطأ النجديون في احتلال ثغور الحجاز حتى تمكن حسين وأولاده من تحصين جدة بعد أن استغاثوا وليتهم وسيدتهم الدولة البريطانية وطلبوا منها أن تحمي الحجاز وتكف سلطان نجد عنه فامتنعت من ذلك لما رأت من مشايعة العالم الإسلامي له ومقته لهم ولا سيما الهند ومصر، وكان دعائهم قد اذعوا أنها تحمي لهم جدة بأسطوها ثم استنجدوا إيطالية وأذاعوا أنها أنجدتهم ثم كذبوا ذلك كعادتهم، ولكنهم لا يزالون يسعون لذلك سرّاً.

وكان أفضل ما عمله سلطان نجد التقي العادل أن أعلن أنه لا يريد بإنقاذ الحجاز توسيع ملكه به ولا الاستبداد بالأمر فيه بل أمنه وإعلاء شأنه وطلب من جميع الأقطار الإسلامية إرسال مندوبين إلى مكة لعقد مؤتمر من أهل العلم والرأي يضعون نظاماً لحكومة الحجاز يرضيهم وهذا هو الباعث على تأليف (جمعية السلم العام في بلد الله الحرام) منذ ثلاث سنين ونيف فنشكر لهذا السلطان هذا العمل العظيم الذي لم يسبقه إلى مثله أحد من سلاطين المسلمين الذين تولوا أمر الحجاز، وقد قاوم ذلك حسين وأولاده بدسيسة شيطانية وهي أن هذا تحكيم للأعاجم في بلاد العرب، وهذا من أقبح الكذب الذي يضر العرب ويفرق بينهم وبين من ينفعهم من إخوانهم المسلمين ولا ينتفع منهم. فندعو جميع أصحاب الشأن من مسلمي الأرض لإجابة هذه الدعوة ومن قصر فهو الذي أسقط حقه، وندعو أصحاب الصحف الإسلامية لترويج الدعوة إلى ذلك. والعاقبة للمتقين، وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين.

العبر التاريخية في أطوار المسألة المصرية

- ٣ - *

[المنار ج ٢٥ (١٩٢٤) ص ١٤٨ - ١٥٩]

قد بينا في مجلدات المنار ٢١ - ٢٣ أطوار المسألة المصرية منذ تألف الوفد المصري برياسة سعد للمطالبة باستقلال البلاد وكيف اجتمعت كلمة الأمة مع رجال الحكومة على تأييده سلباً وإيجاباً^(١) حتى أثبتوا للحكومة البريطانية وهي خارجة من الحرب العظمى على رأس الدول الفائزة أنه يتعذر عليها إدارة الأمور في مصر بأيدي المصريين الساخطين عليها كما يتعذر عليها إدارتها بيدها هي بالأولى -.

وكيف بعد أن أرسلت لورد ملنر على رأس لجنة ليوقف على آرائهم وقاطعوه تلك المقاطعة الإجماعية التي تجلت بها الوحدة في أكمل مظاهرها لجأت إلى السعي لتفريق كلمتهم إذ لا سبيل إلى الفوز ودوام السيطرة عليهم بدون ذلك^(٢).

وكيف وقع الشقاق في الوفد نفسه فكان بعض أعضائه مع عدلي باشا في طرف والباقيون مع سعد باشا في طرف آخر.

وكيف دبر في (لندن) نصب وزارة عدلي باشا وتأييد الوفد المصري لها ليسمح لرئيسه وسائر أعضائه بالعودة إلى مصر فكان نصبها وإظهار الوفد

(*) تابع لما في ص ٦٢ و ٢٢٧ م ٢٣ (هي عبارة عن وثائق رسمية).

(١) ص ٢٧٤ م ٢١.

(٢) ص ٥٤٠ م ٢١.

الثقة بها على دخل خادع به كل من الفريقين الآخر حتى إذا ما عاد سعد باشا للاتصال بالأمة وتمكن عدلي باشا من تأليف وزارة رضيت عنها الأمة - عاد الشقاق إلى أشد مظاهره^(١).

ولكنه تولى مفاوضة الحكومة البريطانية باسم الحكومة المصرية للاتفاق معها على حل القضية ففشل - لعلم الحكومة البريطانية بأن الأمة لا تؤيده وأنها لا تستطيع عملاً بعد أن صارت إلى شر مما كانت عليه قبل الاتحاد إذ لم يكن زعماءها متعادين ولا متحدين على عمل من الأعمال فأفضى ذلك إلى استقالة عدلي باشا وتعذر تأليف وزارة أخرى من حزب العدليين لسخطهم الشديد من الحل الفظيع الذي عرضه اللورد كرزون على عدلي باشا^(٢) فصاروا كالسعديين في الإحجام عن تأليف وزارة تتولى العمل في ظل الحماية البريطانية.

ثم كيف اضطرت الحكومة البريطانية بهذا إلى نفي سعد باشا مع بعض أعضاء الوفد إلى جزيرة سيشل الصغيرة المنقطعة عن العالم في البحر المحيط الهندي وإلغائها للحماية، واعترافها بكون مصر دولة ذات سيادة، مع الاحتفاظ بالمسائل الأربع المعلومة، وكان ذلك إثر مذاكرة بين دار المندوب البريطاني السامي وعبدالحالق ثروت باشا رضي بها هذا أن يتقلد الوزارة ويتولى وضع دستور للبلاد يتألف بموجبه برلمان يفوض إليه تقرير أمر الاتفاق مع الدولة البريطانية في الأمور المحتفظ بها ولكن جمهور الأمة قابل ذلك بفتور ونفور، ولم يحفل بهذا الاستقلال المقيد بالأربعة القيود، الذي مهد له السبيل بنفي زعيم الشعب مع بعض رجاله، وهو حامل لوائه ورمز استقلاله، واشتد ضغط الاحتلال بعد نواله^(٣).

ظن الإنكليز أنهم يرضون السواد الأعظم من المصريين وينالون مرادهم

(١) ٣٩٧ وثائق رسمية والمقالة التاريخية الجامعة في ص ٤٩٦ - ٥٢٢ م ٢٢.

(٢) راجع ص ٦٢ - ٧٧ م ٢٣.

(٣) راجع ص ٢٢٦ - ٢٣٥ م ٢٣.

من مصر والسودان بالاتفاق مع حكومة مصرية نيابية زمامها بأيدي
أصدقائهم الذين يصفونهم بالمعتدلين، من حيث يقضون على الحياة القومية
المصرية بإبعاد الزعيم الأكبر وبعض رجاله والتنكيل بمن يتصدى للمعارضة
من الباقين منهم بمساعدة الحكومة الوطنية - ولكن بدا لهم ما لم يكونوا
يحتسبون .

اشتد استياء الشعب وتهيج، وتألقت للوفد لجنة أخرى صرحت
بالمعارضة ودعت البلاد إلى مقاطعة الإنكليز في كل معاملة تجارية أو
شخصية، فحكموا عليها أحكاماً شديدة، حكموا بعد الاعتقال
بالإعدام، ثم استبدلوا به حكم السجن وتغريم الأموال، وهو أن يدفع
كل فرد من أفرادها خمسة آلاف جنيه للسلطة العسكرية .

ثم تألفت لجنة ثالثة فحكموا على بعض أفرادها بالنفي إلى بعض
الواحات المصرية وساموهم فيها سوء العذاب فتألقت لجنة رابعة .

وظهر في أثناء ذلك الاعتداء على أشخاص الإنكليز من الموظفين والجند
وغيرهم فكان يغتال الواحد منهم بعد الآخر في الشوارع العامة في وقت
الظهيرة أو طرفي النهار أو ناشئة الليل . وقد أرهق أهل القاهرة بتفتيش
الحكومة المصرية لبيوتهم للبحث عن آثار يستدل بها على الجناية فكان
رجال الشرطة يدمرون على أهل البيوت في الليل أو النهار، وإن لم يكن
فيها أحد من الرجال، فيفتحون الخزائن والصناديق، ويقلبون الأثاث
والرياش، ويأخذون كل ما يجدون من القراطيس المكتوبة، وقد يقلعون
بلاط الحجرات رجاء أن يجدوا تحته سلاحاً، وكانوا مع بعض الجند
الإنكليزي يستوقفون الناس في الطرقات، رجالاً أو ركبناً في أنواع
المركبات، ويفتشون ثيابهم وجيوبهم، ولم يكن هذا ولا ذاك قاصراً على من
كان موضع الظنة، ومثار الشبهة، بل كان كل أحد عرضة لهذه الإهانة .
وليس من موضوعنا ذكر ما كان يلبس ذلك من الفساد، ولم يكن هذا
الإرهاق كله ولا اعتقال من اعتقل بالتهمة بمنع من تكرار الاغتيال، وإنما

كانت تقع فترات عند العناية ببث العيون والرقباء وكثرة الحرس السيار- وقد حوكم كثير من المتهمين بالشبهات في المحكمة العسكرية فلم يثبت شيء من تلك الجنايات على أحد، ولا كون شيء منها بإغراء الوفد المصري أو جمعية سياسية أخرى كما زعم بعض الرعاع الذين تصدوا لشهادة الزور رجاء نيل المكافآت التي كانت تعد بها الحكومة وتنشر وعودها في الجرائد وعلى الجدران وهي ألوف من الجنيهاات .

سارت وزارة عبد الخالق ثروت باشا لطيتها في هذه المآزق القائمة بجرأة نادرة كان فيها مهدداً بالاغتيال وقد اعتدي عليه بالفعل فنجأ، فتألفت لجنة من ثلاثين رجلاً من أنصارها فوضعوا مشروع دستور للمملكة المصرية وطفقت تمهد السبيل لانتخاب غير السعديين بكل حزم وعزم .

وفي تلك الأثناء ألف حزب الأحرار المعتدلين وانتخب عدلي باشا رئيساً له فاكتب كثير من أغنياء البلاد للاشتراك بالحزب وجريدته (السياسة) فاجتمع له بنفوذ الحكومة عشرات الألوف من الجنيهاات، وصدرت الجريدة بشكل راق كل عدد منها (٨ص) خص بعضها بالآداب وبعضها بالأمور النسائية وبعضها بالزراعة أو بالتجارة . . . ولكن جمهور الشعب عادها حتى كان يعد شراؤها وقراءتها من الذنوب المنافية للوطنية . وكان الغرض من تأليف هذا الحزب السعي لجعل أكثر أعضاء النواب والشيوخ من رجاله وقد اغتيل رجلان من خيرة رجاله .

وكان الشعب لا يزال نافراً من القصر السلطاني فالملكي منذ أعلنت الحماية وسمي أمير البلاد سلطاناً ثم سمي بالتصريح البريطاني الذي ألغيت فيه الحماية ملكاً، وأشيع أن سعد باشا غير مخلص للملك وما زال العدليون يرجفون بهذا إلى عهد قريب، ولكن هذه الغمة تقشعت بسعي محمد نسيم باشا ومن واثاه من رجال الوفد المصري - وتلا ذلك نفور الملك من وزارة عبد الخالق ثروت باشا فوقعت عدة أزمات وزارية انتهت باستقالة هذه الوزارة، وخلفتها وزارة محمد نسيم باشا فأثار ذلك سخط

السياسة الإنكليزية فكادت لها دار المندوب السامي حتى اضطرتها إلى الاستقالة باقتراح حذف اسم السودان من الدستور المصري وكان قد نص فيه أن ملك مصر هو ملك السودان وأن حكومة مصر هي التي تتولى إدارته وأيدت الاقتراح بتهديد عظيم ملجئ قوي به اعتقاد الجمهور أن الاستقلال الذي اعترف به الإنكليز اسم على غير مسمى صحيح، وإن الاستقلال الصحيح لا يمكن تحقيقه إلا على يد رئيس الأمة العبقري الأحوذى الشمري^(١) سعد زغلول باشا، فكيف يعقل جعل إبعاده عن البلاد تمهيداً له؟

وخلفت وزارة محمد نسيم باشا وزارة يحيى باشا إبراهيم فكان استسلامها للإنكليز وصدعها بالأوامر السرية التي تصدر عن دار المندوب السامي شراً من كل استسلام سبق من الحكومات المصرية للسيطرة الإنكليزية في عهد الحماية وأشد ما كان قبلها من وطأة الاحتلال، حتى كادت تقضي على المالية المصرية وتجعل النهوض بأعباء الاستقلال متى تم متعذراً، وكان شر أعمالها قانون التضمنات الذي أجاز للسلطة الإنكليزية كل ما فعلته في زمن الحرب من تقتيل وتغريم وتغريب وتخريب وتصرف فيما تملك الحكومة والأمة والأجانب في بلاد مصر بحيث لا تجوز مطالبتها ولا مقاضاتها في شيء منها، وكان هذا موقوفاً على المفاوضات المؤجلة، وكذا قانون المكافآت التي تعطي لمن يترك خدمة الحكومة المصرية من الإنكليز فكانت تعطي الألوف الكثيرة من الجنيهات لمن يستقيلون من وظائفهم حتى التي تنوطها الوزارة بآخرين منهم أو تنوط بهم غيرها فمال الحكومة يذهب سدى ثم قيدت الوزارة هذه العطايا بقانون ليكون حقاً ثابتاً لا ينقض. وقد وفّت الجرائد الوطنية ذلك حقه من النقد.

(١) العبقّر النادر المثال من إنسان وغيره وقد قيل في عمر (رض) لم أر عبقرية مثله. والأحوذى الذي يسوق الأمور أحسن مساق لعلمه بها والشمري بتشديد المعجمة المكسورة والميم المشمر للأمور المجرب ذو المضاء فيها.

نتيجة الأطوار السابقة

علمت الحكومة البريطانية في عهد وزارة عبد الخالق ثروت باشا أن ما عدته منتهى الجود على مصر من إلغاء الحماية، والاعتراف لها بالاستقلال والسيادة، وما رأته من منتهى الشدة والحزم في إدارة أمر البلاد من قبل وزارة موالية لها، ومن شدة قسوة السلطة العسكرية البريطانية في التنقيب عن المعتدين على رجالها، لم يرض الرأي العام المصري بل لم يزد إلا تمادياً في عداوتها، وجرأة على اغتيال رجالها، وأن نفوذ الوفد المصري الممثل في شخص رئيسه الزعيم الأوحده لا يعلوه نفوذ، فعادت إلى وضع سياسة الحكمة في موضع تحكم السلطة العسكرية والغشمة الاستعمارية - فطفقت تفرج عن المعتقلين من أعضاء الوفد وأمرت بنقل الزعيم من معقل جبل طارق إلى حيث شاء من أوربة وكانت قد جاءت به من جزيرة (سيشل) إليه مراعاة لصحته إذ خشيت أن يموت فيعتقد المصريون أنها قتلتها أو عرضته للموت عمدًا - وكان قد سعى له بذلك بعض رجال الإنكليز وفي مقدمتهم صديقه رئيس حزب العمال البريطاني الذي هو رئيس الوزارة الإنكليزية اليوم - نقل من جبل طارق إلى فرنسة فزاره فيها هذا الرئيس مرتين. ثم لما دنا موعد انتخاب أعضاء مجلس النواب المصري سمح له بالعودة إلى مصر، حتى لا يقال إن الانتخاب لم يكن حراً وأن المجلس النيابي الذي يقرر الاتفاق مع الدولة البريطانية لا يمثل الأمة المصرية.

عاد الزعيم إلى وطنه والكثير من الناس يظنون أن حزب الأحرار المعتدلين قد انتظم أمره، واشتد أزره، وأن الحزب الوطني قد نشط من الحمول الذي كان قد عرض له، وشرع بعد إلغاء الأحكام العرفية يجدد نفوذه، وأن الوفد المصري قد صار حزباً مثلها، ولم يبق رئيسه زعيماً للأمة بأسرها، وأن زعامته الحقيقية لا تعدو طلاب المدارس وجمهور المحامين، وأما كبار الأغنياء والمتحلين بالرتب الفخمة والألقاب الضخمة،

وأكثر رجال الحكومة، فهم عليه لا له ولا معه، وأن أكثر الفلاحين معلقة إرادتهم بإرادة العمد الذين هم آلة في أيدي مأموري المراكز الذين يسيرهم المديرون كما تشاء وزارة الداخلية، وأن لعدلي باشا وقد صار مديراً للبنك العقاري نفوذاً كنفوذ الحكومة في نفس فريق كبير من الأغنياء، وهم الذين رهنوا أطيافهم لهذا البنك، فهم يرجون رضاه، ويهابون شذاه.

وكان جمهور رجال الإنكليز في مصر يرون هذا الرأي ويعتقدون هذا الاعتقاد - فما سمح الإنكليز لسعد بالعودة إلى مصر إلا وهم يحسبون أن عودته تزيد التفرق والشقاق احتداماً، ولا يكون هو الجواد السابق الذي يربح السبقة.

وكان جمهور المصريين المستقلين في الرأي غير المتحيزين إلى فئة ولا شخص يخشون من عاقبة الشقاق في هذا العهد، فوق ما كان من سوء عاقبته من قبل، ويرون أن الخطة المثلثي أن يبدأ الزعيم الأكبر بدعوة خصومه إلى الاتفاق والاتحاد ليكون (البرلمان) المصري قوة متحدة أمام الدولة البريطانية القوية في كل شيء، وهو لا يملك غير قوة الوحدة، فلما لم يفعل نعموا منه، وانطلقت السنة بعضهم بعذله وتخطئته، وتشاءوا من سوء المصير، ولكن الشؤم والسعد ضدان لا يجتمعان.

وأما رأي سعد باشا ورجال الوفد فهو أن جمهور الأمة الأعظم معهم فإذا هم أعلنوا له أنهم متفقون مع زعماء هذه الأحزاب بعد أن كانوا هم الذين أحدثوا الشقاق في الوفد وصدعوا بناء وحدة الأمة، وأن انتخابهم أعضاء لمجلس النواب كانتخاب رجال الوفد ومن يرشحه سواء - فإنهم ينالون بنفوذ الوفد ورئيس الأمة كثيراً من الأعضاء، ويحسبون أو يدعون بعد ذلك أنهم إنما نالوا ذلك بنفوذهم والثقة بأحزابهم، ويوقعون الشقاق في مجلس الأمة كما أوقعوه في وفدها من قبل، وتكون هي القضية على الأمة، لأن هذا المجلس هو الممثل الرسمي لها الذي لا يمكن أن يكابر فيه

الإنكليز كما كابروا في تمثيل الوفد، إذا ادعوا أنه حزب لا قوة له إلا تلاميذ المدارس الأغرار. وقد أجمع الناس على أن الشقاق الذي حصل في الوفد وفرق الكلمة كان أضر ما منيت به الأمة، ولكن وجد شيء من الخلاف فيمن تلقى عليهم التبعة، فينبغي أن يجمعوا أيضاً على أن تلافي ذلك الشقاق وما ترتب عليه من إرهاب البلاد بالتنكيل والتغريب والتعذيب وسفك الدماء ومصادرة الأموال لا علاج له إلا تأليف مجلس النواب من المتفقيين في المشرب السياسي وعلى الزعيم السياسي، وهو لا يرجى ممن وصل بينهم الخلاف والشقاق إلى الحد المعروف بين الوفديين وبين العدليين ومن شايعهم من جماعة الحزب الوطني.

وإذا كان الأمر كذلك، فالمعقول أن يجتهد كل فريق أن ينال في الانتخاب الأكثرية العظمى التي تمكنه من حل القضية المصرية بما يرى أنه هو الذي تطلبه الأمة التي تمنحه ثققتها.

وقد جرى الانتخاب على هذه القاعدة فتبارى كل فريق في السعي لانتخاب رجاله الذين رشحهم وفي الطعن في خصمه بالنشر في الجرائد، وبإلقاء الخطب في المحافل، وكانت حرية كل منهم تامة لم تعارضها الحكومة ولا الأمة، ولكن جميع أهل الفضل ولا سيما المستقلين في الرأي كانوا متألمين من القذع بهجر القول والتماهي في المطاعن الشخصية. وقد قال سعد باشا كلمة في خطبة له أراد أن تكون فصل الخطاب، وهي: «لهم السباب، ولنا مقاعد النواب».

تم الانتخاب في القطر كله وأعلنت الحكومة نتيجته فكانت الأكثرية الساحقة في جانب الوفد المصري، وظهر أن مجلس النواب سعدي وأي سعدي، فإن بعض الأعضاء الذين لم يرشحهم الوفد - وقليل ما هم - كانوا يذهبون إلى سعد باشا مهنيين له بفوزه، معترفين برياسته وزعامته، ثم اتفق جمهورهم على إقامة حفلة له جمعوا نفقتها بالاكتتاب من أنفسهم، فحضرها ٢٠٠ وتخلف عنها ١٠ اعتذر بعضهم، وقد ألقى عليهم خطبة

تاريخية أودعها بمحمل برنامجها السياسي لمجلسهم فصفقوا لها وأجمعوا عليها، وعدوها كبرنامج سياسي شبه رسمي لمجلس الأمة، وقد صرح فيها بأنه لم يبق لوزارة يحيى باشا إبراهيم مندوحة عن الاستقالة فلم تلبث هي أن استقالت وتلاها طلب الملك لسعد باشا ومذاكرته مشافهة في تأليف الوزارة بعد بحث طويل سبق للوفد في المسألة وتقريره قبول الرئيس للوزارة فقبل وهذا نص الوثائق الرسمية للوزارة السعدية.

وزارة سعد باشا زغلول

أمر ملكي رقم ١٤ لسنة ١٩٢٤

عزيزي سعد زغلول باشا

لما كانت آمالنا ورغائبنا متجهة دائماً نحو سعادة شعبنا العزيز ورفاهته، وبما أن بلادنا تستقبل الآن عهداً جديداً من أسمى أمانينا أن تبلغ فيه ما نرجوه لها من رفعة الشأن وسمو المكانة، ولما أنتم عليه من الصدق والولاء، وما تحققناه فيكم من عظيم الخبرة والحكمة وسداد الرأي في تصريف الأمور، وبما لنا فيكم من الثقة التامة - قد اقتضت ارادتنا توجيه مسند رئاسة مجلس وزرائنا مع رتبة الرياسة الجليلة لعهدتكم.

وأصدرنا أمراً هذا لدولتكم للأخذ في تأليف الوزارة وعرض مشروع هذا التأليف علينا لصدور مرسومنا العالي به.

ونسأل الله جلّت قدرته أن يجعل التوفيق رائدنا فيما يعود على بلادنا بالخير والسعادة إنه سميع مجيب.

(فؤاد)

صدر بسراي عابدين في ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٤٢ - في ٢٨ يناير سنة ١٩٢٤.

(بيان الوزارة وأسماء الوزراء)

هذا هو البيان الذي قدمه سعد باشا زغلول لجلالة الملك
مولاي صاحب الجلالة:

إن الرعاية السامية التي قابلت بها جلالتم ثقة الأمة ونوابها بشخصي
الضعيف توجب عليّ والبلاد داخله في نظام نيابي يقضي باحترام إرادتها
وارتكاز حكومتها على ثقة وكلائها ألا أتحنى عن مسؤولية الحكم التي طالما
تهيئتها في ظروف أخرى، وأن أشكل الوزارة التي شئت جلالتم تكليفي
بتشكيلها من غير أن يعتبر قبولي لتحمل أعبائها اعترافاً بأية حالة أو حق
استنكره الوفد المصري الذي لا أزال متشرفاً برياسته.

أن الإنتخابات لأعضاء مجلس النواب أظهرت بكل جلاء إجماع الأمة
على تمسكها بمبادئ الوفد التي ترمي إلى ضرورة تمتع البلاد بحقها الطبيعي
في الاستقلال الحقيقي لمصر والسودان مع احترام المصالح الأجنبية التي لا
تتعارض مع هذا الاستقلال كما أظهرت شدة ميلها للعفو عن المحكوم
عليهم سياسياً ونفورها من كثير من التعهدات والقوانين التي صدرت بعد
إيقاف الجمعية التشريعية ونقصت من حقوق البلاد وحدّت من حرية
أفرادها وشكواها من سوء التصرفات المالية والإدارية، ومن عدم الاهتمام
بتعميم التعليم، وحفظ الأمن، وتحسين الأحوال الصحية والاقتصادية،
وغير ذلك من وسائل التقدم وال عمران. فكان حقاً على الوزارة التي هي
وليدة تلك الانتخابات وعهداً مسؤولاً منها أن توجه عنايتها إلى هذه
المسائل الأهم فالمهم منها، وتحصر أكبر همها في البحث عن أحكم الطرق
وأقربها إلى تحقيق رغبات الأمة فيها، وإزالة أسباب الشكوى منها، وتلافي
ما هناك من الأضرار مع تحديد المسؤوليات عنها، وتعيين المسؤولين فيها.
وكل ذلك لا يتم على الوجه المرغوب إلا بمساعدة البرلمان. ولهذا يكون من
أول واجبات هذه الوزارة الاهتمام بإعداد ما يلزم لانعقاده في القريب

العاجل وتحضير ما يحتاج الأمر إليه من المواد والمعلومات لتمكينه من القيام بمهمته خطيرة الشأن .

ولقد لبثت الأمة زماناً طويلاً وهي تنظر إلى الحكومة نظر الطير للصيد، لا الجيش للقائد، وترى فيها خصماً قديراً يدبر الكيد لها، لا وكيلاً أميناً يسعى لخيرها. وتولد عن هذا الشعور سوء تفاهم أثر تأثيراً سيئاً في إدارة البلاد وأعاق كثيراً من تقدمها، فكان على الوزارة الجديدة أن تعمل على استبدال سوء هذا الظن بحسن الثقة في الحكومة^(١) وبإقناع الكافة بأنها ليست إلا قسماً من الأمة تخصص لقيادتها، والدفاع عنها، وتدير شؤونها بحسب ما يقتضيه صالحها العام. ولذلك يلزمها أن تعمل ما في وسعها لتقليل أسباب النزاع بين الأفراد وبين العائلات وإحلال الوثام محل الخصام بين جميع السكان على اختلاف أجناسهم وأديانهم، كما يلزمها أن تثبت الروح الدستورية في جميع المصالح، وتعود الكل على احترام الدستور والخضوع لأحكامه وذلك إنما يكون بالقدوة الحسنة وعدم السماح لأي كان بالاستخفاف بها والإخلال بما تقتضيه.

هذا هو بروجرام وزارتي وضعته طبقاً لما أراه وتريده الأمة شاعراً كل الشعور بأن القيام بتنفيذه ليس من الهنات الهيئات خصوصاً مع ضعف قوتي واعتلال صحتي ودخول البلاد تحت نظام حرمت منه زمناً طويلاً. ولكنني أعتمد في نجاحه على عناية الله وعطف جلالته وتأييد البرلمان ومعاونة الموظفين وجميع أهل البلاد ونزلائها.

فأرجو إذا صادف استحسان جلالته أن يصدر المرسوم السامي بتشكيل الوزارة على الوجه الآتي:

(١) المراد أن يكون حسن الثقة بالحكومة بدلاً من سوء الظن فجري التعبير على العرف الغالب في هذا العصر في مادة الاستبدال والتبدل وهو عكس الثابت في اللغة.

للمرئاسة ووزارة الداخلية	سعد زغلول باشا
لوزارة المعارف	محمد سعيد باشا
لوزارة المالية	محمد توفيق نسيم باشا
لوزارة الأوقاف	أحمد مظلوم باشا
لوزارة الحربية والبحرية	حسن حسيب باشا
لوزارة الزراعة	فتح الله بركات باشا
لوزارة الأشغال	مرقص بك حنا
لوزارة المواصلات	مصطفى النحاس بك
لوزارة الخارجية	واصف بطرس غالي افندي
لوزارة الحفانية	محمد نجيب الغرابي افندي

وأدعو الله أن يطيل في أيامكم ويمد في ظلالكم حتى تنال البلاد في عهدكم كل ما نتمناه من التقدم والارتقاء .

وإني على الدوام شاكر نعمتكم وخادم سدتكم

سعد زغلول

وقد صدر أمر المرسوم الملكي باعتماد هذا البيان والتشكيل الذي فيه للوزارة بتاريخه .

وأصبح سعد باشا زغلول رئيس هذه الأمة ورئيس حكومتها، وكان فضل الله عليه بهذا عظيمًا، وما يجب عليه من الشكر عظيمًا، وإنما الشكر على هذا الفضل بتحري إقامة ميزان الحق والعدل، ومراعاة المصلحة العامة بدون محاباة أحد من جماعة أو فرد، وإن كان من أفراد الوفد، إلا أن يكون المرجح له على مساويه زيادة الثقة بإخلاصه ومبادئه، وأرى أنه قد آن لسعد باشا أن يري العالم بأعماله أنه الأب الحكيم الرحيم لهذا الشعب، وأن من عقّه من أبنائه لم يقطعه من شجرة نسبه، بل يكون أحرص على عودته إلى البر من حمله على التهادي في العقوق، وأن يترفع

عن الانتقام لنفسه ويتأسى ما استطاع برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين ظفر بزعماء قومه ودخل عليهم عاصمتهم أم القرى فاتحاً، بعد أن كانوا يسيرون إليه الجيوش لقتاله في دار هجرته، بإغراء أبي سفيان عدوه وعدو عشيرته، وقد قال يومئذ «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» (رواه مسلم).

ويجب على كل مخلص لبلاده من خصوم سعد والوفد أن يؤيد ما استطاع هذه الحكومة ورئيسها، ولا يدع سبيلاً لإساءة ظنها فيه، ولا يشترط في ذلك عصمتها من الخطأ، ولا قدرتها على كل عمل، ولا يجعل ما يقترح عليها من إصلاح، وسيلة للمعاجزة والإرهاق، وجمله ما أريده من الساخطين والمعارضين الذين يعتقدون أنهم مخلصون في معارضتهم أن يجتهدوا في محاسبة أنفسهم وتمحيص نيتهم في كل معارضة وكل انتقاد فإن السخط يري النفس الأشياء بغير لونها، ويجليها لها في غير صورتها. وأما سيء النية ومتبع الهوى، فالنصح له بهذا سدى.

وإنني أرى - وأنا مستقل الرأي، بعيد عن الهوى والتحيز إلى أي حزب - أن الفرصة التي سنحت لمصر بهذه الوزارة ومكانتها من الأمة الممثلة في (برلمانها) ومن ملكها، وبصيرورة الوزارة البريطانية إلى حزب العمال وما بين رئيس وزارتنا ورئيس وزارتها من التعارف والثقة - أرى أن هذه الفرصة أمثل الفرص وأقرب الوسائل الممكنة لحل عقدة التنازع بين مصر وبريطانية أو اليأس من وصول هذه البلاد إلى حقها بالأساليب السياسية، ولا بد حينئذ من إفضاء الفشل إلى ثورة عامة طامة لا يعلم مبدؤها ومنتهاها وعاقبتها إلا الله تعالى.

فيا أيها الظافرون اتقوا الغرور بظفركم، وأيها المعارضون والساخطون صححوا نياتكم وحاسبوا أنفسكم، وأفسحوا لهذه الحكومة في مجال العمل يفسح الله لكم وتأثّلوا قوله تعالى «بل الإنسان على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره» [سورة القيامة رقم ٧٥ الآية ١٤].

[المنار ج ٢٥ (١٩٢٤) ص ١ - ٨]

الحمد لله الواحد القهار، العزيز الجبار، الرحيم الغفار، مقدّر الأجال والأعمار، (وكل شيء عنده بمقدار)، المحيط علمه بالجهات والأقطار، النافذة مشيئته في البراري والبحار، البارزة حكمته في القرى والأمصار، المطردة سنته في الأبرار والفجار، الفائضة نعمته على المؤمنين والكفار «وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ» [سورة إبراهيم رقم ١٤ الآية ٣٤].

والصلاة والسلام على المصلح الأعظم، والرسول الأعز الأكرم، سيد العرب والعجم، محمد النبي الأمي معلم الكتاب والحكم، المبعوث رحمة لجميع الأمم، وعلى آله الأطهار، وأصحابه المصطفين الأخيار، وعلى من اتبع هديهم من المقربين والأبرار، وإنما الخزي والخسار، واللعنة وعذاب النار، على زمر الأشرار، الذين آثروا الشهوات الحيوانية، والعصبيات الجنسية والوطنية، على هذه الهداية الإلهية، المكملة للفطرة الانسانية، والموحدة لسلائل الأسرة الآدمية، غروراً باللذات المادية، وجهلاً بالحياة الروحية «وما خلقنا السَّاءَ والأَرْضَ وما بينهما باطلاً ذلك ظنُّ الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النَّارِ * أَمْ نجعلُ الذين آمنوا وعملوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نجعلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ» [سورة ص رقم ٣٨ الآية ٢٧ - ٢٨].

أما بعد فإن المنار قد أوفى بفضل الله ونعمته على الخامسة والعشرين، فإن كان ما توفاهما في عدد المجلدات فقد زاد عليها في عدد السنين، وكان حق هذه السنة أن تكون السابعة والعشرين، لولا ما كان من إدغام بعض السنين في بعض، بما كان من لأواء الحرب، وما تلا سنيها الأربع، فكان

الذع وأوجع، ناهيك بما أعقبته من فساد الأخلاق، وضيق الأرزاق، والأعراض عن العلم والأدب، ورواج اللهو واللعب، وكساد المجالات والكتب، على ما سبق ذلك من جور السلطان، وكلب الزمان، وعدم الأعوان، وضعف الوفاء، والتهاون في الاقتضاء، على قلة المال، وكثرة العيال.

هذا وإن الخامسة والعشرين هي السن التي تكمل بها بنية الإنسان، وتتم قوى الأبدان، ولكن لم يكد يبلغ المنار سن الشباب، إلا وكان منشئه قد شاخ وشاب، ونحمد الله أن كان وقع الشوائب الذي شيب الرأس، لم يشيب العزم والبأس، ولم يشب الهمة بشائبة من اليأس، على أن أسبابه من جهة الناس أكثر، وبما يوسوس به الخناس أكبر، وإغما الإيمان واليأس ضدان لا يجتمعان، والتجارب والوهن خصمان لا يتفقان، فقد ثبت المنار على دعوته، التي وضعناها له في أول نشأته، فكلما وسوس إليّ شيطان اليأس: ألم تر إلى سوء حال المسلمين، وتسلبهم أفراداً وجماعات من هداية الدين، وجود علمائهم، وخمود زعمائهم، وفساد أمرائهم، وشح اغنيائهم، وضعف صلحائهم، وغباوة دهمائهم، وموت همهم، وتفرق جماعاتهم، وتعدد جنسياتهم، وعدم الرجاء في صلاح أمرهم، وشد أزهرهم؟ - صاحت به آيات القرآن، وما يشهد لها من عبر الزمان، وتكاثر الأخوان، فنكص على عقبيه، وخنس يضرب صدره،

ما اعتنّ لي يأس يناجي همّي إلا تحذّاه رجاء فاكتمي
وقد تذكرت الآن أن أجعل ذكرى الإصلاح في هذه الفاتحة شيئاً من شعري في أوائل عهد الرشد، وشعوري عند الاستواء وبلوغ الأشد، وأحمد الله تعالى أني شبيت على حب الإصلاح والتفكير فيه، وشبت على الدعوة إلى مناهجه ومناحيه، وذلك قولي في (المقصورة الرشيدية) التي عارضت بها (المقصورة الدرديدية):

كم ليلةً أبيتها مفكراً يفني لي السهدُ ويُخلف الكرى

أطوي جناحيَّ على جمر اللظى
خلتُهما ركيّتين^(١) كلما
وكلَّ جفنٍ ماتحاً فكلما
تلك ليالٍ خنت عهد الصبر في
إذ خانني العزم الذي بلوته
لو انما أبكي لمحبوب جفا
وأغورَّ الصبرُ فقليل جازع
لراعني القول بصدقهِ وقد
لكنما أبكي لمجد أمة
ووطن ذل فأمسى حوضه
وملة حكيمة رحيمة
وقال فيها الأخسرون إنها
فكيف كانت علة السعادة الـ
(بها) أصبنا الملك والحكمة والـ
ألم توحد أمماً تفرقت
فكيف عدتُم وأنتم أخوة

أرضكُ عينيَّ على الماء الرُّوى^(٢)
نزحتُ هذا الماء فاض وطغى
أهوى بشبه الغمض يماً^(٣) الدلا
حندسها وكنت أوفى من وفي
في مبهم الخطب فما قط نبا
أو مالٍ اغتيل وذو قربى قضى
أشبه ربات الحجال في البكا
يُقصد من يصدق إن قيل رمى^(٤)
ثلثُ عروشه^(٥) وحُلَّت العُرى
(مدعثر الأعضاء مهذوم الحبي)^(٦)
قد تركت للجهل كالشيء اللقى^(٧)
علة هذا الانحطاط والشقا
تي مضت لنا وذاك الارتقا
علم (بها) فما عدا مما بدا^(٨)
واختلفت في الاعتقاد واللغى
لما تركتم هديها من العدى

- (١) يقال أرضك فلان عنيه إذا أغمضهما وفتحها المرة بعد المرة.
(٢) مثني ركية بوزن قية وهي البثر.
(٣) الماتح المستسقي يخرج الدلو من البثر والدلاء جمع دلو قصر لضرورة الوزن.
(٤) يقصد بضم الباء: يصيب الرمي.
(٥) أي عروش المجد.
(٦) المدعثر المهذوم اسم مفعول والأعضاء ما حول شفير البثر من البناء كالصفائح وغيرها ومثله مهذوم الحبي وهي جمع حبة ما يحيط بالبثر من البناء كالثوب الذي يحتجب به الإنسان والشطر لابن دريد.
(٧) اللقى بالفتح ما يلقي وي طرح لهوانه وعدم الحاجة إليه.
(٨) بها الثانية تأكيد للأولى التي تفيد الحصر بتقديمها على الفعل. وجملة «وفما عدا مما بدا» من كلام علي «عم» ومعناها هنا: فما الذي صرف هذه الملة عن مثل ما كان لها من التأثير مما بدا وظهر بعد ذلك؟ وهو رد على زعم متفرنجة العصر المرتدين أن الاسلام عائق عن العمران والعزة والقوة والثروة.

أما بدت في أمة أمية
 في كل علم للعقول يقتنى
 فكيف صرتم بترك هديها
 ألم يكن أسلافكم بعد لها
 وعمروها فغدت بفضلهم
 زراعة صناعة تجارة
 فلم أضعتم جُل ما تأثلوا
 شريعة القرآن دان وردها الـ
 فان أباهها الحاكمون عن عمى
 فرمى أيدها على هدى
 وان يكن قد عقها أبناءها
 فارجع إلى تاريخ خير أمة
 يُريك عصر الراشدين المثل
 والمجد والزينة والقوة في الد
 وجنة الزهراء^(٩) في أندلس
 والجمع ما بين علوم النقل والـ
 أحيا ببغداد فنونا درست
 والجامع الأعظم في قرطبة
 أفاض نور شمسها في أفق
 كان يعادي الدين فيه العلم بل
 فكم عليم صلي النار وكم

فجعلتهمو أئمة الورى
 وعمل في الكائنات يقتنى
 أجهل من دب عليها ومشى
 قد فتحوا الأمصار قبل والقرى
 تفضل في الوجود كل ما عدا^(١٠)
 علماً وحكمة وعدلاً وعلى
 وأصبح الباقي لكم على شفا
 عذب وتهلكون من فرط الصدى
 وصد عنها الجامدون عن هوى
 كل صحيح الفكر من أولي النهى
 وعاد من كان صديقاً في العدى
 قد أخرجت للناس وابعث الأسى
 الأعلى لكنه العدل زانه الهدى
 ين حوى قصر الرشيد ووعى
 حيث الامام الحكم العدل ثوى
 عقل إلى المأمون عهده انتهى
 إذ كان عمران ذوبها قد عفا
 جامعة العلوم في ذاك الرجا^(١١)
 طال عليه ليل جهل قد غسا^(١٢)
 يسوم أهله العذاب والأذى
 متهم بالعلم تفريه المدى^(١٣)

(٩) أي ما عداها.

(١٠) معطوف على قصر الرشيد.

(١١) الجانب وهو الأندلس.

(١٢) أظلم.

(١٣) البيتان إشارة لما كانت أنشأته الحكومة البابوية في اسبانية من المحكمة المعروفة بمحكمة التفتيش للعقاب على الاشتغال بالعلوم العقلية والكونية بالقتل والاحراق بالنار.

واذكر على ذكر العلوم تونسنا
وكل قطر ساسه خلائف ال
هم الذين عمروا الأرض وبال
فعالم الشمال منهم قبس الذ
وسار كل فاتح مستعمر
ولو أقاموه^(١٤) ولم يبتدعوا
ولسرعان ما أمية أبت
وجعلوها دولة موروثه
فعاث فيها العُجم مذ تفرقت
وانقطع النظام جامعاً بهم
فبعث الله على بلادهم
الترك والتتار في الشرق وفي
وصدق الرسول في انذارهم

ومصر والشام «وسر من رأى»^(١٤)
عُرب بما أوحاه شرع المصطفى
عدل مع الرحمة قد ساسوا الورى
ور وعنه العلوم قد روى
وراءهم فلم يقف دون المدى
لدام ملكهم وأصلح الدني
إمامة الرشيد فأنزت من نزا^(١٥)
وعرضة لغصب أرباب القوى
فيها قريش فغدت أيدي سبا^(١٦)
فانتثر العقد وشقت العصا
من استذل واستباح ولحا^(١٧)
اندلس أبيد من ثم ثوى^(١٨)
وان تمارى فيه قوم وامترى

(١٤) هي «سامراء» مدينة المعتصم العباسي.

(١٥) الضمير لشرع المصطفى.

(١٦) أي ولكن ما كان أسرع بني أمية إلى إزالة خلافة الراشدين الشيوعية فوثبوا على اغتصابها وأنزوا عليها غلمانهم الفساق والنزوان الوثبان الى فوق وفيه إشارة إلى رؤيا أحد أئمة أهل البيت انه رآهم ينزون على منبر جده عليه وعليهم السلام.

(١٧) أي تفرقوا تفرقا لا اجتماع بعده كأهل سبا من قدماء اليمن وايديهم قواتهم.

(١٨) أي من استذل خلفاءهم وكبراءهم، واستباح أموالهم وأعراضهم، وخرب عمرانهم يقال لحا الشجرة لحواً ولحياً والتحاهها إذا أزال قشرتها ويستعار لأشد الإرهاق والتخريب، وفيه إشارة إلى حديث «يا معشر قريش انتم أهل هذا الأمر ما لم تحدثوا فإذا غيرتم بعث الله عليكم من يلحكم كما يلحق القضيبي». رواه أحمد وأبو يعلى بسندنه رجاله ثقات وفي آخر «فإذا فعلتم ذلك سلط الله عليكم شرار خلقه فالتحوكم كما يلتحي القضيبي، وحديث «ان أول من يسلب أمتي ملكهم وما خولهم الله بنو قنطوراء» وأورده الحافظ في الفتح بلفظ «ان بني قنطوراء أول من يسلب أمتي ملكهم» قال وهو حديث أخرجه الطبراني من حديث معاوية والمراد ببني قنطوراء الترك. ثم قال وكأنه يريد بقوله أمتي أمة النسب لا أمة الدعوة، يعني العرب اه. وفي معناه ما رواه عنه أبو يعلى مرفوعاً «ان الترك تحلي العرب حتى تلحقها بمنابت الشيخ» وقد فعلت فلم يبق الترك استقلالاً للعرب حتى زاحموا في عقر جزيرتها حيث ينبت الشيخ.

(١٩) الترك بدل أو عطف بيان لمن استذل الخ.

واعترَّ بالاسلام بعدُ من عشا
وامتدَّ ملك آل عثمان به
ألا ترى أوطانهم تنقص من
ما السأؤ إلا برجاله فإن
فكيف حال وطن أبناؤه
قد عضد العاضد منهم دوحه
وغادر الأرض به موظوبة
وُلِّي أمره امام جائر
اذ استخف قومُه فأصبحوا
يليه في الظلم ولالة أبصروا
وسمعوا رعوده تنذر من
فآثروا ما عنده حتى على الأ
وجعلوا مال العباد دولة
من نال منهم حاجة لكرشه
يريك عزة الأمين فإذا
والوطن الذي امتروا أخلافه
وكيف لا يُسحته الله وهم

فورث الأرض به إذ اعتزى
ثم تزوى آرزاً حيث أقي^(٢٠)
أطرافها ألا ترى ألا ترى
عزوا والا ساء حالاً وكصا^(٢١)
ما فتؤا أعق من ضب الكدى^(٢٢)
وخضد الشوكة والعود التحى^(٢٣)
وغمره الفرات ضحضاحاً جوى^(٢٤)
قد استبد بالأمر واعتدى^(٢٥)
أطوع من ظل الحذاء يحتذى
بروقه ترجى لريّ وحيا
خالف أمره صواعق الردى
وطان والرحمن جلا وعلا
فدالت الدولة منهم للعدى
وفرشه قال على الدنيا العفا
لاح له المال استكان وضغا^(٢٦)
أوشك أن يقضى وربما قضى^(٢٧)
للُسحت أكالون فيه والرُشا^(٢٨)

(٢٠) تزوى تقلص وتقبض - آرزاً: منكشاً راجعاً إلى وطنه.

(٢١) السأؤ الوطن - وكصا: خس بعد رفعة.

(٢٢) الكدى جمع كدية «كغرف جمع غرفة» وهي الأرض أو الصخرة الغليظة الصلبة.

(٢٣) العاضد لك من أعانك وعضد الشجرة قطعها والدوح الشجر العظيم جمع دوحه بالفتح.

وخضد الشوكة قطعها والتحي العود قشره.

(٢٤) موظوبة: واطبت الراعية رعيها حتى لم يبق بها نبات. والغمر الماء الكثير والفرات العذب وما

بعدهما ضدّهما. وجويه (كهوى) مصدر جوي (كرضى) الواو: انتن.

(٢٥) هو السلطان عبد الحميد آخر سلاطين بني عثمان وقد كان من خلفه من الجماعات شراً منه

وأضر.

(٢٦) ضفا: تذلل للخيانة.

(٢٧) امتروا أخلافه حلبوا ضرّعه.

(٢٨) أسحتهم الله أهلّكهم واستأصلهم والنحت الحرام الخسيس.

قد بَشِمَتْ بطونهم فأصبحوا
ومشبعوها يشتكون سَغْبًا
فأصبحوا في شظف وضعة
وعالمٌ مبتدع منافق
لا يأمر الحكام بالعرف ولا
وليس يوصي الناس بالحق ولا الصبر
ومرشدٌ غير رشيد دأبه
والرجم بالغيوب مسنداً الى
أولئكم سادتنا الذين قد
يشكون سوء الهضم منها والطَّسِي^(٢٩)
قد أكلوا العلهز من طول الطَّوَى^(٣٠)
ألانت القنا واضوت البنى^(٣١)
لقد أضل قومه وما هدى
ينهى عن المنكر فيهم فشا
بر سوى على المكوس والأذى
عزو الخرافات لارباب الولا
أضغاث أحلام ومكذوب رُؤى
أضلوا السبيل كل من قفا

فنسأله تعالى أن ينقذ هذه الأمة من أغواء هؤلاء الرؤساء الضالين،
ويعيد إليها سلطانها بعز الدنيا وهداية الدين، ويجعلنا فيها من الهداة
المهتدين، آمين.

محمد رشيد رضا الحسيني الحسيني

زيارة ملك الحجاز لشرقي الأردن



مقدماتها وأسبابها ونتيجتها

[المنار ج ٢٥ (١٩٢٤) ص ٢٣٠ - ٢٤٠]

كان الشريف حسين ولا يزال يمني نفسه بملك عظيم تؤسسه له الدولة
البريطانية جزاءً له على ثورته العربية وموالاته لها في قتال الترك بأن تجعله
خليفة للمسلمين وملكاً على البلاد العربية المؤلفة من جزيرة العرب كلها

(٢٩) الطيبي بالفتح مصدر طسى «كرضى» التخمّة من كثرة أكل الدسم. وجاء بالواو وبالهضم.

(٣٠) السغب بالتحريك الجوع كالطوى والعلهز بكسر العين والهاء احقر ما يؤكل كالقراد.

(٣١) أي فأصبحوا في ضيق عيش ومهانة نفس اخضعتهم وأهزلت أجسامهم.

والعراق وسورية وفلسطين وتمده بالمال والسلاح لتوطيد سلطانه في هذه البلاد تحت حمايتها وبمساعدة رجالها. وكان يعتقد أن حلفها أقوى من الحلف الألماني ولذلك لم يقبل ما عرضته عليه الدولة العثمانية من الاستقلال بضمان ألمانية. وكان يهنتها بكل فتح في البلاد العربية: القدس وبغداد ودمشق!! ولذلك سمى نفسه ملك العرب وبعد احتلال سورية اعتقد أن أحلامه جاء تأويلها، وكان يشتهي أن يزور البلاد السورية بعد توطيد سلطانه فيها، وتكرر وعده لأناس من أهلها بذلك وفي جريدته «القبلة» حتى إنه صرح بأنه سيزور كل بلد وقرية فيها، أي ليراه جميع أفراد رعيته، ويتمتعوا ببهاء جلاله وعزته.

أفلت ملك سورية من قبضة وهمه (أولاً) بقرار المؤتمر السوري العام الذي أعلن فيه استقلال جميع البلاد السورية دون الحجاز وغيره (وثانياً) بتنفيذ انكلترا وفرنسة لما كانتا قد اتفقتا عليه من اقتسام بلاد الحضارة العربية سورية والعراق بينهما، ورأى أن ملكه لم يتجاوز إمارة الحجاز التي كانت له من قبل الدولة العثمانية على أنها منقوضة الأطراف غير تامة الحدود على ما يدّعي - فكان المعقول أن يتناسى ذلك الوعد أو الوعود ويتحول عنها.

ولكن الرجل يحيا حياته السياسية بشيئين (أحدهما) نفسي وهو الأمانى الأوهام (وثانيهما) عملي وهو الدعاية (البوربغندة) التي لم يحذق من شؤون سياسة هذا العصر غيرها، وهو قد أوتي غريزة الثبات والإصرار التي هي أعظم الغرائز مساعدة لصاحبها على النجاح إذا هو طلب الأمور بأسبابها، وأتاها من أبوابها.

أصر على تسمية نفسه بملك العرب وأمكنه بالدعاية أن يحمل بعض أصحاب الجرائد في سورية وغيرهم أن يتبعوا جريدته «القبلة» في تحليلته بهذا اللقب وبلقب المنقذ وإن كان الحق الواقع المشاهد أنه لم ينل بلقب ملك العرب تصرفاً ولا سيادة على شبر من أرض العرب لم يكن تحت

سيادته قبله، وأنه لم ينقذ بلداً من بلاد العرب ولا قرية من سيادة أجنبية ولا مهلكة، فإن كان أحد يسمي انتقال البلاد السورية والعراقية بمساعدته من سيادة الدولة العثمانية المؤلفة من الترك والعرب وغيرهم الى سيادة انكلترا وفرنسة إنقاذاً فلا أنقذه الله من الذل في الدنيا ولا من العذاب في الآخرة، على أن هذا الابسال^(١) الذي سمّاه إنقاذاً لم يقع إلا بترجيح دولة الولايات المتحدة لإحدى كفتي الحرب على الأخرى لا بترجيحه، ولكن هذه الحقائق لا تمنع الملك حسيناً من التلذذ باللقيين كلما رآهما في جريدته «القبلة» وفي بعض الجرائد المأجورة أو المغرورة.

وهناك دعوى أخرى ظاهرة البطلان كظهور كذب اللقبين الضخمين الفخمين ولكنه فاز بتكرار الدعاية واصطناع بعض الجرائد من غش كثير من الناس فيها حتى صاروا يصدقونها كما يصدق الغافلون الاعلانات التجارية التي تنشر في الجرائد زمناً طويلاً ولا يبحثون عن مصدرها ليعلموا أنها شهادة من صاحب الدعوة لنفسه.

تلك دعوى قيامه بأمر الوحدة العربية بجمع كلمة العرب وتوحيد قواهم وترقية شؤونهم، والأمر بالضد، فهو هو المفرق لكلمة العرب والمحدث للشقاق بينه وبينهم، فإنه بتوهم كونه ملكاً للعرب وثبوت هذا الخيال في مخه تحيّل أيضاً أن الوحدة العربية إنما تكون أو ستكون بقبول أمراء جزيرة العرب وأئمتها لسيادته السياسية والعسكرية عليهم طوعاً أو كرهاً وتحكيمه في شكل إدارة البلاد ونزع ما شاء منها من أيدي من شاء ليولي عليه من شاء حتى حمله الخيال على مخاطبتهم بذلك كتابة، فضحكوا ساخرين. وطالما بيننا هذا في المنار وفي غيره من الصحف ولكن بياننا لم يحل دون تأثير دعايته المتصلة الدائمة حتى إنه صرح في جريدته «القبلة»

(١) أبسله أسلمه للهلاك ومنه قوله تعالى: (وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله من ولي ولا شفيع) الآية وفيها ما فيها من العبرة.

تصريحاً رسمياً بما صدق أقوالنا الماضية لما سأله رئيس مؤتمر الجزيرة الذي هو من أبواق دعايته عن مراده بالوحدة، ونشرنا تصريحه في المنار والأهرام فقرأه الكثيرون في البلاد السورية كما قرأه آخرون في الجزء الذي صدر من جريدة القبلة في ٦ ربيع الآخر من هذه السنة، ولم يكن هذا ولا ذاك بصارف للمخدوعين بالدعاية السابقة من طلاب الوحدة العربية أن يظنوا أنه يسعى لها، وأن يوجهوا وجوههم إليه فيها.

فهذه الوقائع زادت الملك حسيناً إيماناً وتسليماً بأن الدعاية «البوريغندية» تقلب الحقائق فتجعل الحق باطلاً والباطل حقاً عند الجماهير من الناس، بل هي كالسحر تخيل إلى المسحور أنه يرى بعينه ما لا حقيقة له في الخارج.

على أنه خاب مرة في دعايته ولم يلبث أن تدارك الخيبة وجعلها نسياً منسياً عند كثير من السوريين وخاصة الفلسطينيين منهم.

ذلك بأن الدولة البريطانية اختارت أن تعقد معه معاهدة تثبت بها اعترافه بانتدابها على فلسطين وما تريد أن يكون لها من الحقوق في الحجاز والتصرف في شؤون الحجاج وتقطع بها لسانه وألسنة الفلسطينيين دون الاحتجاج عليها بما سبق لها معه من اتفاق ووعود. وقد طالت المراجعة بينها وبينه في ذلك، حتى إذا ما أرسل الدكتور ناجي الأصيل الموصلي إلى لندن للبحث معها في صيغة هذه المعاهدة في العام الماضي قامت قيامة الدعاية حوله وأمطرت شركة روتر الانكليزية على البلاد العربية وغيرها برقيات خادعة فيما ينتظر من الوحدة العربية واستقلال العرب بسعي الأصيل . . . وكانت الجرائد العربية في مصر وسورية والعراق تنشر هذه البرقيات وتعلق بعضها عليها من الشروح ما يكبر شبك الوهم، وكان بعضها ينشر مقالات مستقلة في ذلك، ولما عاد الأصيل إلى مكة يحمل نص المعاهدة كان له من الحفاوة فيها ما كان، وتلى نص المعاهدة المترجم بالعربية في حفلة رسمية فخمة وأطلقت المدافع وصدرت الإرادة الهاشمية

بجعل ذلك اليوم عيداً رسمياً للأمة العربية بأسرها. ثم ماذا كان؟ ظهرت الفضيحة للعيان ورفض أهل فلسطين ما يتعلق بهم منها، واضطر الملك إلى عدم الإمضاء النهائي عليها.

بعد هذه الفضيحة استأنف الملك دعاية جديدة في المسألة الفلسطينية قدم بين يديها مساعدة لأهل فلسطين بما جمعه من الإعانة القهرية لعمارة الحرم الأقصى من أهل الحجاز والاختيارية من الحجاج، وسمح لوفد منهم بالطعن في وعد بلفور في الحجاز، فوضعت خطة جديدة لبث الدعاية له في سورية وفلسطين يقوم بها نفر ممكن كان بمكة من حجاج البلاد مع صنائعه فيها تكون تمهيداً لزيارته لأطراف سورية لأجل أن يتقرر في هذه الزيارة مع زعماء البلاد أمر الوحدة العربية (!!) وما يتعلق بها من المسألة الفلسطينية. . . بل وجد له دعاة من حجاج المصريين يمدونه ويدافعون عنه أيضاً.

ولا ندري هل كوشف أحد من الدعاة الذين كانوا في مكة بمسألة المبايعات بالخلافة أم لا؟ ويجزم بعض أذكى المصريين أن الانكليز كانوا قد اتفقوا مع عصمت باشا على إلغاء الخلافة التركية في زمن لا يتأخر عن أول سنة الترك الجديدة (مارس) وأحبوا أن تكون زيارة ملك الحجاز لأطراف سورية قبل ذلك الوقت، وأن يظل هنالك إلى أن تلغى الخلافة التركية فيجعل ذلك سبباً لتأسيس الخلافة العربية - كما أنهم قرروا أن تجتمع جمعية العراق التأسيسية للنظر في المعاهدة العراقية البريطانية التي أمضاها الملك فيصل والسير برسي كوكس المندوب البريطاني السامي في العراق في الوقت الذي يجتمع فيه المؤتمر البريطاني التركي لحل مشكلة الموصل إذا هم رفضوا المعاهدة التي تضيّع جميع العراق لا ولاية الموصل وحدها.

مهما يكن من الأمر في هذا وذاك، فالدعاية لتشريف الملك قد بثت قبل مجيئه، وفي أثناء وجوده، حتى وصلت هيمنتها في الحالين إليّ، وعُرضت شبهاتها وأمانيتها عليّ، واقترح عليّ أن أكون من الزائرين له، وسألت عما

اشترطه في ذلك، وقنع أحذق من كلمني في ذلك بأن أسكت عنه، ولو ريثما تظهر نتيجة ما يرجى منه، وزعموا أنه قد اتعظ واعتبر بأغلاطه السابقة. وقال بعضهم: إن الانكليز قد غيروا سياستهم معه، وأنهم سيمنحون البلاد ما يرضيها على يده، إذا رأوا أن الأمة تؤيده، (قالوا) فلا تكن من أسباب حرمانها من ذلك. فقلت إني سأصبر في هذه المرة كما صبرت فيما قبلها حين بثت الدعاية لسعي ناجي الأصيل، وأنا لا أرجو لهذه الأمة خيراً على يده، ولا آمن عليها من شر عمله، فتجربة المجرب تحصيل حاصل، بل عبث يتنزه عنه العاقل و«المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين» وإنما أسكت لأقيم الحجة بعد الحجة عليكم، وأعدكم بأن أبذل جهدي في تأييده إذا كذب ظني وصدق ظنكم، وإن ظل يؤذيني هو وأولاده وحليفهم، فأنا أعمل لأمتي لا لهم.

هكذا كانت الدعاية تنشر، وكان من حسن حظ دعائها أن وقع تنازع بين فرنسة والترك حمل من في سورية من الفرنسيين على الإغماض عن هؤلاء الدعاة لإضعاف ما كان قوي من نفوذهم، فنجحوا وأوهموا أكثر أهل البلاد الغافلين بأن السعادة للعرب ستتم بتشريف ملكهم إلى ضواحي سورية.

تحرك الركاب الهاشمي - كما يقولون - متنقلاً في البلاد الحجازية إلى أن وصل إلى شرق الأردن، وهو يقابل في كل مكان بالحفاوة والتكريم والدعوات والخطب والقصائد، وجرائد مسلمي سورية تحلق في فضاء الخيال، وتصور في ما تصور من الأماني لا الآمال، وأرسلت المكاتبين إلى شرقي الأردن ليحصوا لها ما يكون هنالك من عظمة «ملك العرب ومنقذهم» وما يقرره المؤتمر العربي الذي زعموا أنه سيعقد من وفود الأحزاب وزعماء البلاد، تنجيلاً للوعود التي بشرهم بها الدعاة.

وقد أعد الوجهاء ولجان الأحزاب المختلفة عدتهم للقاء الملك وعرض مطالبهم القومية على مسامعه، بناء على ما صدر به الوعد من أنه يريد أن

يعمل في هذه المرة بالشورى (خلافاً لعادته) وكان أحسن ما قرروه - لو صادف محله - أن يتفقوا على برنامج عام لمصلحة العرب العامة يكتبونه ويوقعه مندوبون من كل حزب ويرفعونه إليه - وأن يكون ما يعرضه بعضهم من الاقتراحات الموضوعية الخاصة، غير معارض لهذه المطالب العامة - وقد فعلوا - وما اتفقوا على أن يكشفوه متفقين بما يشكون من سوء سيرة نجله الأمير عبد الله في أقواله وأفعاله المنافية للمصالح الوطنية العربية، والمؤيدة للسلطة الأجنبية - وقد فعلوا كما أخبرنا الرواة عنهم - ثم كان ماذا؟.

كان أن شغلت جرائد سورية وفلسطين عدة أشهر بأخبار الوفود ووصف الاحتفالات والسمط (أو السماطات) ونشر القصائد والوعود وحكايات الأقوال والمفاخر الهاشمية، حتى إذا ازدوجت المخيلات بالواهيات، ولقحت بالأمانى المستعذبات، جاءها المخاض بسقوط الخلافة التركية، فأجهضت فوضعت الخلافة العربية، فالتقطها «ملك العرب الخيالي» سقطاً لم يستهل، ومضغة لم تكتمل، معتقداً أن الدعاية (البوربغندية) تُتم خلقها، وتنفخ الروح فيها، كما فعلت بمنصب «ملك البلاد العربية» قبلها (؟؟) ويكفي في هذه الحياة عنده أن ييئ لها دعاية جديدة بين حجاج الآفاق، ويستعين بها في الجزيرة على بث الشقاق، وأن تقول جريدة القبلة بمكة، وجريدة الشرق العربي الرسمية في عمان، وجرائد الطبل والزمر ولسان العرب بفلسطين، وجريدة الحقيقة ببيروت، وأمثالهن من جرائد سورية والعراق: أن صاحب الجلالة الهاشمية، هو خليفة المسلمين، وأمير المؤمنين، وملك العرب أجمعين؟ بل يقدر الملك حسين ودعائه أن يستأجروا في مصر وغيرها أمثال هذه الجرائد لذلك.

حمل الرجل اللقب وانقلب إلى بلده مسروراً، وظل الأمير عبد الله حيث كان، بالرغم من أنوف السكان والجيران، وصارت إمارته شراً مما كانت وأبعد عن الاستقلال، واشتد ضغط الفرنسيين على المسلمين الذين

بأيعوه، فاعتقل افراد من الوجهاء وأخرج آخرون، وفر دعائه أصحاب
جريدة الحقيقة هاربين من بيروت، وازدادت المسألة العربية بُعداً عن
التوحد بفشل مؤتمر الكويت الذي كان سببه اقتراحاته «منقذ العرب
ومؤسس وحدتهم» واقتراحات ولده الأمير عبد الله التي أملاها الغرور
بالانكال على الانكليز في تمليكهم لنجد وغيرها من الجزيرة، وما كان لهذا
الشقاق من سبب، إلا الغرور بلقب ملك العرب، فكيف وقد ضم لقب
الخليفة الأعظم وأمير المؤمنين، الى لقب ملك العرب أجمعين؟ دع الغرور
بلقب الشريف، الذي يدعي هو ودعائه أنه هو المؤهل للملك والخلافة
ولكن له ولأولاده دون سائر شرفاء الأمة!!

إننا لنقول والحزن يملأ قلوبنا: ان الترك قد فضحوا العالم الاسلامي بما
فعلوا بخلافتهم شراً مما فضح به الملك حسين بمبايعته الأولى والثانية؟ إذ
ظهر للإفرنج أن مبايعة الملايين لرجل بالخلافة ليس إلا كلاماً لغواً لا
يترتب عليه عمل يذكر، وقد أدرك الانكليز ذلك قبل غيرهم فلم يبالوا
بمبايعة الجاهير من مسلمي مصر والهند لخليفة تركي، ولا مبايعة أهل
فلسطين لخليفة عربي، وقد عد العقلاء منهم ومن غيرهم اهتمام فرنسا
بمبايعة مسلمي سورية رعونة وخفة من رجالها هنالك، ولو كانت انكلترا
تعتقد أن هذه البيعات حقيقية، يترتب عليها ما في كتب الشرع من
الأحكام الشرعية، لبذلت كل نفوذها في إبطالها، ولما تجرأ الملك حسين
حينئذ على التصدي لها، فإن أول ما يترتب عليها قتاله إياها في فلسطين
لإخراجها منها، وهي الآن ترجوا أن تنتفع من الخلافة الحجازية حتى
بتوطيد نفوذها فيها، على أن يكون للخليفة وأولاده شركة في ذلك.

ولما طفت السلطة الفرنسية في سورية تعارض مسلميها في المبايعة
لحسين والدعاء له في خطبة الجمعة احتجوا عليها بأنها تمنعهم من حريتهم
الدينية المحضة وذلك أنهم عالمون بأنهم لم يكونوا بهذه المبايعة تابعين له في
السياسة ولا الإدارة ولا الحرب ولا القضاء. ونحن نزيد على ذلك أنهم

غير تابعين له في صلاتهم ولا صيامهم ولا زكاتهم، حتى ما هو من شأن الخليفة من ذلك كتعيين الأئمة والخطباء للصلاة وأخذ مال الزكاة. وأما الدعاء للخلفاء في خطبة الجمعة فليس من أركانها ولا من شروط صحتها، فلم يبق لفرنسة عذراً في معارضة القوم في مبايعتهم، ولا في الدعاء له في خطبهم، وما تكرهه من قوة نفوذه الروحي بذلك فالمعارضة لهم أشد تأثيراً في زيادته.

ومما يؤيد قولنا في رأي مسلمي سورية في الخلافة أنها أمر ديني لا علاقة له بالسياسة ما يقوله ويكتبه بعض المصريين في ذلك بعد أن كان من مبايعتهم لعبد المجيد أفندي ما كان، ثم من اقتراح بعضهم دعوته للإقامة بمصر، فأنصاره يعدون معارضة الحكومة المصرية لهم في الدعوة له اضطهاداً للحرية الدينية، ولو كانوا يفهمون معناها الشرعي ويريدونه لعلموا أن عملهم يقتضي إسقاط الحكومة المصرية وجعلها تابعة لعبد المجيد أفندي!!! وهل هذا إلا أساس السياسة الذي تبني عليه جميع أركانها؟

إنني مضطر إلى إظهار الحق عرباناً في هذه المسألة كما فعلت في مسائل كثيرة ولم أخف في الله لومة لائم، حتى أن شيخنا الأستاذ الإمام كان أول من وصفني بهذا وانتقده علي في بعض المسائل وما أبرزته عرباناً في مسألة إلا بعد أن عرضته مزيناً بالحلي والحلل، فلم يعرفه ممن عرضته عليهم أحد، فأقول:

إنه لا خوف على سلطة فرنسة في سورية من مبايعة هذا الرجل إلا إذا استعمله الانكليز في مقاومتها، ما دام الفرنسيين متكافلين مع الانكليز فيما اعتدوا به علينا باسم الانتداب فلا خوف منه، فإن تحرش هو وأولاده بهم، فإنما يفعلون ذلك لجر مغنم يريدونه منهم، ولا يجهل الفرنسيين أنهم يبيعون العرب والاسلام بلقب ملك أو سلطان، وقد جربوا فيصلاً من قبل عبد الله في ذلك ورأوا تجربة الانكليز من قبلهم. على أننا نحمد الله

تعالى أن بغض هذه الأسرة التي رزئت بها الأمة العربية الى الفرنسيين فلم يقبلوا إبقاء فيصل في سورية لاختضاعها لهم وفاء باتفاقه مع كليمنصو بعد اسقاطهم لحكومتها الاستقلالية، وتوطين نفسه على أن يبقى ملكاً في ظل الانتداب الذي قبله أولاً وآخرأ، ثم لم يقبلوا استخدام أخيه عبد الله بمثل ذلك وقد بذل شرفه وكرامته في السعي له، نحمد الله على ذلك لأن أكثر مسلمي سورية لا يزالون يخدعون بلقب شريف، ولم يطل خداع الشيعة في العراق به كما طال خداعهم. ولو كان سائر المسلمين كذلك لوجب على عقلاء طلاب الإصلاح وإعادة مجد الاسلام أن يقرروا حرمان كل من يحمل هذا اللقب من كل رئاسة في هذه الأمة، ولا سيما إذا كان مفتوناً به كشرفاء مكة، أقول هذا وأنا شريف مقابل.

أما والله لو كنت أعلم أنه يرجى منهم إخراج فرنسة من سورية على أن تكون مستقلة دون نفوذ أجنبي آخر ولو تابعة للحجاز لبذلت كل ما أستطيع في تأييدهم ومساعدتهم على ذلك بدلاً من مجاهدتهم على تمكين نفوذ الأجانب فيها وفي غيرها، فإنني أعلم أن ملك الحجاز لا يستطيع أن يستبد في سورية، ولا أن يحول دون حريتها.

والله لو كنت أعلم أنهم يستطيعون جعل جزيرة العرب وغيرها مملكة واحدة خاضعة لهم وحدهم بدون نفوذ أجنبي لتمنيت نجاحهم على ما أعلم من ظلمهم واستبدادهم، لاعتقادي أنهم لا يستطيعون الاستبداد بهذه الأمة بعد جمع كلمتها وتوحيد حكومتها، وأن المصلحة في ذلك أرجح من المفسدة في كثرة الحكومات المتعادية.

ثم والله لو كنت أعلم أنه يرجى من حسين جمع كلمة المسلمين كلهم أو أكثرهم أو عدة شعوب منهم باسم الخلافة على الحق والاصلاح لوددت تقمصه إياها، ولو نهض بها كما يجب لبذلت وسعي في تأييده، وإن كنت أعلم أنه فاقد لسائر شروطها. وحسبي هذا منها لو حصل ولكنني أعتقد أنه يخشى ضره، ولا يرجى نفعه. وقد بينت هذا بالبراهين الكثيرة ولم أره

أجاب عن شيء منها في جريدته جواباً معقولاً ولا غير معقول، ولا أجاب عنها أحد من أنصاره، وإنما سبّوني تبعاً له وشتموني، وادعوا أنني ناقضت نفسي بأن مدحته ثم ذمته، وأيدته ثم خذلته، وأن لي هوى في ذلك، وليس هذا من الرد على براهيني بشيء. فإن صح قولهم الأول فما هو من التناقض المنطقي الذي يبطل به الدليل، لأن من شروطه اتحاد الزمان والموضوع وغير ذلك من «الوحدات الثمان». وإن صح الثاني فحسابي فيه على الله تعالى ويبقى عليهم أن يبتطلوا براهيني في الطعن في سياسته وبيان ضررها. وأكثر ما قلت لمن كلمني من أنصارهم ولا أزال أقول أقنعوني ببطلان ما أثبتته ولكم عليّ أن أرجع عنه وأخطيء نفسي، فلم يقدرُوا، كما عاهدتهم بأن أنصرهم إذا هم رجعوا إلى الصواب الذي قام عليه البرهان عندي وعند جميع من أعرفه من العقلاء حتى ممن يرجون الخير منهم أو يدعونه لهم، ولا أريد على ذلك جزاءً ولا شكوراً.

إننا قرأنا ما فيه العبرة من أحداث التاريخ ولا سيما تاريخ الاستعمار للبلاد الشرقية عامة والاسلامية خاصة ورأينا كيف ضرب المستعمرون بعض أمرائها وملوكها ببعض، وهكذا يفعلون اليوم في جزيرة العرب، وأخشى أن تكون هذه الخلافة الباطلة من شر آلائهم في ذلك فيجب عليّ أن أنكر هذا المنكر العظيم ويحرم عليّ أن أسكت عنه، لكي لا أكون شريكاً لهم في إثمه.

إن الدولة البريطانية لم تستهن بأمر «الملك حسين» في السنين الأخيرة إلا لأنها رأت أنه لم يبق له شيء من النفوذ يمكن أن تستفيد منه، وهي الدولة العريقة في التجارة بالسياسة، وكان أول غرض له من زيارة أطراف سورية وما بذله في سبيلها أن يريها نفوذه فيها، وستستأنف العمل معه وارضاءه بعد هذه المبايعه، فإن الخلافة بضاعة ثمينة قد طفقت تجرب نفوذ اسمها في الشافعية من أهل تهامة اليمن وحضرموت بعد أن فشلت فيما كانت تسعى إليه منذ هدنة الحرب العظمى من عقد اتفاق مع الإمام يحيى حميد

الدين يجعل لها من الحقوق والامتيازات في بلاده المستقلة ما يكون باباً للتدخل في شؤونها، والعبث باستقلالها، فخاب سعيها، وعاد مندوبها (الكولونيل جاكوب) من روضة صنعاء بخفي حنين، وسنعود إلى هذه المسألة بعد تمحيص ما جاءنا من أخبارها.

وغرضنا الآن أن نثبت أن اخواننا في فلسطين وسورية قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة، ولم يصغوا إلى نصيحة الناصح الأمين انخداعاً بالدعاية الحجازية، فبايعوا حسيناً بالخلافة بدون أن يقيدوه بقيد ما يصلح به ما أفسده من قبل كما ذكرناهم في المقال الذي نشرناه في الأهرام.

بل أعطوه سلاحاً يزيد قوة في عداوة جيرانه أئمة الجزيرة العربية المستقلين المسلحين، وهي الدعوة الى الشقاق والفتن باسم امير المؤمنين. فالحكم الشرعي أن من صحت إمامته وجبت طاعته في قتال من شذ عن جماعته المفروض أنهم أهل الحل والعقد في الأمة وأولو الأمر منها، فإذا أمكنه بالدعاية والدنانير الانكليزية أن يجعل هذا الهزل جدّاً، وهذا الباطل حقاً، وعجز معشر العلماء الذين لا تأخذهم في الحق لومة لائم أن يظهروا الحق للناس - فلا يخشى أن يقضي بخلافته الباطلة، على ما للعرب من هذه القوة الباقية، فيتغلغل الأجانب فيما بقي من الجزيرة المقدسة التي أحاطوا بها بمساعدته ومساعدة ولديه عبد الله وفيصل من الشمال والشرق، كما يحيط بها البحر من الجنوب والغرب؟ فما لاخواننا هؤلاء لا يتفكرون، ويرون العبر بأبصارهم ولا يعتبرون.

أما كان يجب عليهم أن يتروا في درس هذه المسألة، وأن يقترحوا على الرجل اقتراحات يجعلون تنفيذها شرطاً مقدماً على عقد البيعة، إن قنعوا بعد التروي بترجيح مبايعته؟ بلى وأهم ما كان يجب عليهم أخذ الميثاق عليه فيه وانتظار تنفيذه - الأمور الآتية :

(١) نبذ الحماية البريطانية التي تقيد بها فيما يسميه مقررات النهضة،

وعدم تقييد البلاد بمعاهدة أخرى تجعل للأجانب نفوذاً في البلاد.

(٢) الاعتراف بالحالة الحاضرة في إمارات بلاد العرب وإلغاء ما صرح به لرئيس مؤتمر الجزيرة من عقده العزم على جعل إمارات الجزيرة من نجد واليمن وتهامة تابعة لحكومة ملك العرب في السياسة الخارجية والعسكرية والإدارة العامة. إلخ.

(٣) السعي لعقد محالفة بين هذه الإمارات كلها يتقرر فيها اتفاق الجميع على الدفاع عن جزيرة العرب والتعاون فيما بينهم على عمرانها، وعقد مجلس تحكيم للفصل في كل نزاع يقع بينهم، وتفصيل ذلك باتفاق يوقعه الجميع وقد سبق لنا تفصيله.

(٤) السعي لجعل بلاد الحجاز قطر سلام وحياد لا يعادي ولا يعادى ولا يُقاتل ولا يُقاتل، وأن تعترف بذلك الدول الاسلامية وغيرها.

(٥) وضع النظام للخلافة يعلم كل مطلع عليه أن الخليفة لا يمكنه أن يستبد في عمل من الأعمال وأنه يرجى أن ينفذ لعقلاء الأمة وحكامها ما يطلبون لها من الإصلاح، وغير ذلك مما ذكرنا بعضه في كتاب الخلافة ولا محل للخوض فيه هنا.

وانهم سيقراءون في باب الفتوى من (ج ٤) أن مبايعة هذا الرجل بالإمامة العظمى باطلة شرعاً من بضعة وجوه، وأنها على بطلانها شرعاً، ضارة قطعاً، وإن أكبر عار وخزي على أمتنا أن توجد فيها كل هذه المهلكات ولا يتصدى أحد لإنكارها والتحذير منها.

ولا يحسن أحد أننا علمنا الأجانب بما كتبنا ما لم يكونوا يعلمون، ويا ليت الذين يظنون ذلك يعلمون ما يعلمه الأجانب من أحكام الخلافة وأحوال المسلمين فيها. إننا نعلم أن الانكليز قد استكتبوا في سنة ١٩١٤ كثيراً من علماء الأقطار الاسلامية هذه الأحكام وألفوا لجنة أو لجاناً لدرسها

وقد أطلعت مرة على نصوص فيها كتبها لهم بعض كبار علماء الأزهر ولا أدري من طلب لهم ذلك .

هذا وإننا نطالب من يزعم أن ما كتبناه خطأ من الجهة الشرعية أو الجهة السياسية الدائرة على مصلحة العرب والمسلمين أن يبين لنا ذلك بإبطال أدلتنا وإقامة أدلة أخرى على صحة خلافة الرجل وعلى فائدتها وكونها غير معارضة بمفسدة تقدم عليها فإن فيمن بايعوه أفراداً من أصدقائنا وغيرهم نجّلهم ونحترمهم، إما لعلمهم وأخلاقهم، وإما لوطنيّتهم، ولكننا نقول إنهم قد أخطأوا في مبايعة حسين كما أخطأ أمثالهم من علماء مصر في مبايعة عبد المجيد، أو في القول بصحة خلافته ووجوب طاعته على أهل مصر وغيرهم، ونحن مستعدون لمناظرة الفريقين، في موضوع الفتوى التي بيّنا فيها بطلان البيعتين، «والله يقول الحق وهو يهدي السبيل» [سورة الأحزاب رقم ٣٣ الآية ٤] .



الانقلاب الديني السياسي في الجمهورية التركية



[المنار ج ٢٥ (١٩٢٤) ص ٢٧٣ - ٢٩٢]

(الدسائس الأوروبية، في الدولة العثمانية، تأثير التعليم الأوروبي والمدارس في حل المسألة الشرقية. طلاب الإصلاح للدولة مقلدون. مدحت باشا وعصبته، جمعية الاتحاد والترقي، الكماليون. إلغاء الخلافة العثمانية وطرد الخليفة الوهمي وعشيرته من البلاد التركية واستصفاء امواهم. إلغاء نظارة الأمور الشرعية، إلغاء وزارة الأوقاف، إلغاء المدارس

الدينية. جعل التعليم بجميع أنواعه لنظارة المعارف التركية. عمه المسلمين واضطرابهم).

تمهيد ومقدمات

ما زالت الدسائس الأوروبية تتغلغل في مدارس الدولة العثمانية فتفسد الأفكار الدينية التي خولت هذه الدولة انتحال مقام الخلافة الإسلامية، وتفسد المقومات الاجتماعية وتقطع الروابط السياسية التي كانت بها هذه الدولة سلطنة (امبراطورية) إسلامية عظيمة يخضع لها كثير من الشعوب المختلفة في الأنساب واللغات والأديان والأقاليم - ما زالت كذلك حتى صارت مصداقاً لقول بعض عقلاء الأوروبيين: ان المدارس الثانوية قد عملت في حل المسألة الشرقية ما عجز عن مثله جميع سفراء الدول في الأستانة.

بدأ ساسة أوروبية وأساتذتها ينفثون سم العصبيتين الدينية والجنسية في الشعوب الأوروبية المسيحية العثمانية كالليونان والصرب والرومان والبلغار حتى نهضوا بها إلى طلب استقلال بلادهم وساعدتهم الدول الأوروبية على ذلك حتى نالوه، ثم طفقوا ينفثون هذا السم في أرواح سائر الشعوب العثمانية عامة، وعصبة الجنس واللغة في شعب الترك خاصة، حتى صار المتعلمون من هؤلاء أشد كراهة للسلطنة العثمانية من الروم والأرمن فيها، فطفق بعض هؤلاء الترك الذين لقبوا أنفسهم بالأحرار يسعون لإسقاط هذه الدولة العظيمة لينبوا من أنقاضها دولة تركية محضة يُكرهون جميع أهلها على قبول الجنسية التركية ما تعذر تتركه منها يجعلون بلادها مستعمرة للترك، ولم يكتفوا ببقاء السلطة كلها والرضا بما لهم من الامتياز فيها بكون لغتهم هي الرسمية لها وشعبهم هو الشعب الممتاز فيها بلغته وبحصر الملك والخلافة في بيت من بيوته وبجعل العاصمة في بلاده.

فتن المتفرنجون من الترك بتقليد الأوروبيين في نظم حكوماتهم وقوانينها

وفي أزيائهم وعاداتهم في مجامعهم وأكلهم وشربهم ولهوهم ولعبهم فجزوا على ذلك جيلاً بعد جيل وهم يزدادون ضعفاً وفقراً كلما أوغلوا فيه لأن التقليد الأعمى لا يأتي بخير وإنما ترتقي الأمم بالعلم الاستقلالي مع البصيرة والروية في وضع كل شيء في موضعه بقدر الحاجة إليه مع مراعاة استعداد الأمة ومقوماتها، واتقاء ضرر التحول والانقلاب فيها. ومن غريب هذا التقليد أن أنفع ما أخذته الدولة عن أوروبة به وهو النظام العسكري ظلت عالمة على الأوروبيين فيه إلى هذا اليوم فلم تكن مستقلة دونهم بعلم ولا عمل ولا صناعة مما يتعلق به.

وكانوا كلما فشلوا وخابوا في تجربة من تجارب التفرنج يحسبون أن سبب ذلك من رسوخ الاستبداد في سلاطينهم، المؤيد بتقديس منصب الخلافة لهم بمقتضى تعاليم دينهم، لا من جهلهم هم في أخذ النافع وترك الضار، وضلالهم في ظنهم أن الإسلام يؤيد الاستبداد، فجزموا بأن التفرنج المطلوب لهم لا يتم إلا بترك التقيد بالإسلام في حكومتهم، وأن الأسرة السلطانية العثمانية قد رسخت في الإسلام وما فيه من رياسة الخلافة حتى صار يتعذر سلها منه والاستعانة بأفرادها على سائر الشعب التركي منه - فقرروا اسقاط الدولة، والقضاء على هذه الأسرة.

يقول الله تعالى: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» [سورة الرعد رقم ١٣ الآية ١١] وهذه قاعدة اجتماعية لا يختلف فيها عاقلان، ومن فروعها ما أفاده قوله تعالى: «وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم» [سورة الشورى رقم ٤٢ الآية ٣٠] وهي قاعدة أخرى ولكنها أخص من الأولى التي تشمل النعم والنقم، والرغائب والمصائب، وهما يضطردان في الأمم دون الأفراد، فقد تمس الفرد نعمة أو مصيبة مصيبة بغير سعي منه ولا كسب لسبب هذه أو تلك، بأن يرث مالاً من قريب، أو يقع عليه ظلم من معتدٍ أثيم. وأما الأمم فلا تتغير أحوالها من خير أو شر إلا بعمل منها ناشئ عن تغير ما في نفس السواد الأعظم من أفرادها من العقائد

والأفكار والملكات والوجدانات التي هي مصادر أفعالها سواء كان هذا التغير بالاستقلال أو باتباع الدهماء للزعماء والكبراء من رؤساء الدنيا والدين .

وقد كان الذين شعروا بحاجة الدولة العثمانية إلى الإصلاح في القرن «الثالث عشر الهجري» الماضي يجهلون أولاً هذه القاعدة الاجتماعية فلم يبحثوا عن علل الضعف وأسباب الفساد كالجهل والخلل والرشوة، وعن علاجها اللائق بها في أنفس الأمة أولاً وبالذات وفي نظام الدولة ثانياً وبالتبع لحال الأمة، بل حصروا وجهة نظرهم في مظاهر قوة الافرنج الحادثة بعد ضعف، وفي اعراض ضعف دولتهم الطارئ بعد قوة، فاستنبطوا من هذا النظر في المظاهر والاعراض أن الدولة تقوى وتعزز بتقليد الافرنج في قوانين حكوماتهم ونظمها ومظاهر حياتها، ولكن لم يراعوا ما في ذلك من الموافقة لمقوماتها ومشخصاتها من عقائد وتقاليد وآداب وأخلاق وعادات موروثة ومكتسبة بالتربية والتعليم، ولم يفتنوا لما بينهم وبين الافرنج من الاختلاف والفروق في ذلك، ولا تأملوا في الأطوار التي تنقل فيها الافرنج من حال إلى حال، ولا قدروا ما يحيط بدولتهم من الأمور السياسية وغيرها، وكذلك شأن المقلد، وناهيك بمقلد يسترشد برأي أعدائه من حيث لا يدري .

وكان من معلولات هذا الجهل أن كل مانع يعرض لهؤلاء المتصدين للإصلاح يظنون أنه من أسباب الفساد ويحاولون إزالته وإن كان من مقومات الأمة التي لم تكن هي إياها إلا به - فكان مثلهم كمثلي من رأى حلة على امرأة مهفهفة القوام فاشتري مثلها لامرأته الضخمة فلما تعذر عليها لبسها رأى أن لا سعادة له ولها إلا بترقيق بدننها بإذابة لحمها وشحمها ليتمكنها لبسها، فإن لم يكن وجب إلقاء الحلة عليها وإن لم تلبسها لبساً .

هذا مثل من كان مخلصاً في محاولة إصلاح هذه الدولة من رجالها لما له

فيها من عرق راسخ أو دين ثابت، وكأي من متصد لذلك وهو يبغى الفساد، لأنه دخیل فيها وهو من أعدائها الذين تربوا في مدارسها التقليدية. وكم تخرج في هذه المدارس من عدو للدولة دسه فيها قومه الاعداء ثم تعاهدوه وسعوا إلى ترقيته في المناصب الملكية والعسكرية بالرشوة والشفاعات حتى صار من كبار رجالها الذين سعوا في خرابها بما في أيديهم من أزمة أمورها.

مدحت باشا والانكليز

كان مدحت باشا من هؤلاء المخلصين المقلدين المخدوعين. قال حكيم الشرق السيد جمال الدين الأفغاني فيه وفي رجاله من مقال له عنوانه «الشرق والشرقيون» ضرب فيه الأمثال بجهل حكومات الهند وإيران والأفغان وبخارى والقوقاس والعثمانيين والمصريين الذي كان سبباً لضرب الإفرنج المستعمرين بعضهم ببعض للاستيلاء على ممالكهم - ما نصه :

«وإن مدحت باشا وأعوانه لو نظروا بعين بصيرتهم إلى أركان سلطنتهم المتداعية إلى السقوط، وشعروا بهداية عقولهم ان دعائم حكومتهم كادت تنهدّ بما ألمّ بها من المصائب، وعلموا بتدبرهم أن البلايا تترصدهم من جوانبهم - لما تقحموا غروراً وضلالة في خلع السلطان عبد العزيز وقتله وقتما تترقب الأعداء سقطاتهم، وتغتنم هفواتهم، ولكنهم اعتدأوا على واهي آرائهم، واغتراراً بدسائس الحكومة الانكليزية قد جلبوا الهلاك على أمتهم ويظنون أنهم هم المصلحون».

وقد كان من رأي مدحت باشا يومئذ الفصل بين الدولة والخلافة وكلم الشريف عبد المطلب في جعله خليفة في مكة تابعاً للدولة في السياسة الخارجية ومحماً بقوتها فأبى واحتج بأن مصلحة الدولة والعرب تأبى ذلك، ولما طفق يشرح رأيه قال له مدحت باشا: شريف أفندي! نحن جئنا بك لنعرض عليك أمراً لا لنطلب رأيك فيه، وإذ أبيت، ففضل بالرجوع من حيث أتيت.

وكان الشريف عبد المطلب أعقل شرفاء مكة، ولم ينل أحد منهم مثل منزلته عند رجال الدولة، وهو لم يكشف السلطان بهذه المسألة، ولكن السلطان عبد الحميد كان منذ نزل بعمة عبد العزيز ثم بأخيه مراد ما نزل يذكي العيون ويصطنع الجواسيس لإخباره بما يدبر رجال الدولة، وصار أقدر الناس وأحذقهم في ذلك بعد توليه أمر السلطنة، فعلم أن «الجون ترك» يكيدون له ولأسرته كلها فلجّ في مطاردتهم، فكان له من مكابدتهم في الداخل، ومكايدة الدول من الخارج، ما صرفه عن إصلاح الدولة، واضطره إلى الإسراف واتباع الوسواس التي يثيرها في خياله مرتزقة الجواسيس وصنائع الأعداء منهم، حتى صار كل مخلص للدولة من أهلها يتمنى زواله، ويعتقد أن جميع أنصاره في بلاد الدولة منافقون أو مأجورون، وجميع أنصاره في الأقطار الأخرى جاهلون، أو مغلوبون على أمرهم بين آلام من استذلال الأجنبي لهم، وآمال في الدولة الإسلامية المستقلة يكرهون أن ينغصها البحث في عيوبها عليهم.

مقاصد الانكليز من الترك والعرب والإسلام

وكان عطف الدولة البريطانية على «الجون ترك» ومساعدتها لهم من دلائل استخدامها إياهم في سياستها من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون، ولكن سياستها العثمانية كانت موضع الخلاف ومثار الشبهات، فكان بعض رجال الدولة يرون هذه الدولة صديقة لدولتهم بما كانت تعارض روسية في محاولة فتح القسطنطينية والاستيلاء على زقافي البوسفور والدردنيل، وبما كانت تقاوم محمد علي باشا الكبير وأحفاده في تأسيس مملكة عربية جديدة في مصر، ثم تبين أن هذه السياسة كانت مبنية على القواعد الآتية:

(١) يجب أن تكون الدولة العثمانية في الأرض كأهل جهنم: لا تموت فيها ولا تحيا - لا تموت لئلا تحل الروسية محلها من الأستانة، فهو على حد

المثل «لا حياء في علي ولكن بغضاً في معاوية» ولا تحيا لثلاً يعتز بها المسلمون فيحول ذلك دون مطاعمها في استعباد من بقي منهم، وتتعلق آمال مسلمي الهند بالتححرر من رقهم. وقد هدمت هذه القاعدة بالاتفاق البريطاني الروسي على التوازن في الشرق والبدء باقتسام إيران بجعلها منطقتي نفوذ لهما، ثم بالاتفاق معها ومع فرنسا سنة ١٩١٢ على تقسيم الدولة بينهما.

(٢) التوسل بإظهارها المساعدة لهذه الدولة إلى اصطناع كثير من رجالها والاستعانة بالملاحدة منهم على إفساد أمر الخلافة عليها، وبالتدينين على جعل الخليفة عضداً لها، قبل قضاء الملاحدة عليها. وقد ثبت عندنا أن ساسة الانكليز قالوا: إن قوة الإسلام في الشرق لا يمكن القضاء عليها إلا بتولي ملاحدة الترك لأمر دولتهم، وإنها لهذا كانت تعطف عليهم في كل زمان ومكان، حتى إنها لم تقطع آمالها منهم بتحيز من تحيز من زعمائهم إلى الألمان، ولكنها بعد الحرب طفقت تصطنع بعض الرجال المتدينين لأن زعماء المتفرنجين صاروا مع أعدائها عليها.

(٣) التوسل بسيادة هذه الدولة على مصر والحجاز وسائر البلاد العربية إلى إحباط كل سعي لتأسيس دولة عربية جديدة في مصر أو غيرها.

(٤) انتهاز الفرص من وراء كل ما ذكر إلى الاستيلاء على مصر فالعراق فجزيرة العرب، وقد تم لها جل ما كانت تنويه وتقصد قصده حتى القضاء على خلافة الترك فقد تعددت الروايات بأنهم هم الذين أقنعوا الكماليين بالإقدام على إلغائها.

نقف عند هذا الحد من التمهيد للانقلاب ونعود إلى بيان جهل الذين تصدوا لإصلاح الدولة وما فعلوه فنقول:

الطور الاستقلالي للانقلاب التركي

ما زالت الحال في متفرنجة الترك على ما ذكرنا من التقليد الصوري حتى نبتت فيهم نابتة تلقوا عن أساتذتهم من الإفرنج ما جهله من قبلهم،

وهو أن تغيير حال الدولة، لا يتم ولا يثبت إلا بتغيير حال الأمة، وأن الواجب عليهم أن يجعلوا هذه الدولة تركية محضة لا بلغتها فقط، فإن كون لغة الدولة العثمانية هي التركية لم يجعلها تركية محضة، بل هي بعد بضعة قرون من تكوينها مشتركة بين الترك والعرب والكرد والألبان والروم والأرمن والجركس وغيرهم، وقد جعل لهم الدستور من الحقوق فيها ما لم يكن لهم. وإنما تكون الدولة تركية محضة إذا كانت أمتها تركية محضة، وإنما تكون كذلك إذا كانت سائر مقوماتها تركية، وهي التشريع والتهديب والتقاليد التاريخية، وهذه المقومات في الدولة العثمانية عربية محضة لأنها مستمدة من الدين الإسلامي - فتوجهت وجوه هذه النابتة إلى تكوين أمة تركية جديدة لا تستمد تشريعها ولا تهذيبها ولا تقاليدها من الإسلام، ولكن لا بأس عندها باستمداده من الإفرنج، وطفقت تبث الدعاية لذلك في مدارس الدولة وأكثر طلابها من الترك، وفي الجيش أيضاً. وألفوا في ذلك الكتب ونظموا القصائد والأناشيد وكانوا في عهد السلطان عبد الحميد يتحامون الدعوة الصريحة إلى ترك الإسلام والطعن فيه، إلا فيما ينشرونه في أوروبا أو غيرها من البلاد، حتى إذا زالت دولته، وورثت جمعية الاتحاد والترقي نفوذه، ظهرت الدعاية الصريحة ودخل الانقلاب في طور عملي عاجل.

جمعية الاتحاد والترقي

لما ظفر السلطان عبد الحميد بمدحت باشا وكبار حزبه وداس دستوره واستبد بجميع أمور الدولة وتفرق طلاب الانقلاب في بلاد أوروبا وغيرها انحصر همهم في إسقاطه وإعادة القانون الأساسي، ولما أدبيل لهم منه بإعادة الدستور وانتخب النواب لمجلس المبعوثين ورأوا كثرة نواب العرب وغيرهم فيه ورأوا من معارضتهم فيه ما أثبت لهم أن الدولة ليست تركية محضة، وإن جعل المجلس آلة في أيديهم للتصرف فيها كما يشاؤون ليس بالخطب السهل - لما رأوا ذلك عزموا على تنفيذ مقاصدهم بقوة الجيش التي قضوا

بها على سلطة عبد الحميد الراسخة، وكان من أمرهم ما هو معروف وقد شرحنا ما يتعلق منه بالإسلام في مجلدات المنار السابقة.

ألفوا الجمعيات واللجان فنشرت الكتب الطاعنة في الإسلام الداعية إلى استبدال الرابطة التورانية بالإسلامية، ولكنهم كانوا يخافون عاقبة تنفيذ مقاصدهم حتى إذا تهوَّكوا في الحرب الأوروبية الكبرى مع الحلف الجرمانى ولاحت لهم مخايل النصر في أوائل العهد بالحرب شرعوا في التنفيذ، أعني أنهم شرعوا في إذابة بدن هذه العجوز العفصاج الشرقية، ليلبسوها ثوب تلك المهفهفة الغربية.

كانت عاقبة إصلاح مدحت باشا ورجاله فقد الدولة لبعض من ممالكها، وتأليف دول منها في أوروبا يهددون بمساعدة بعض الدول الكبرى حياتها.

وكانت عاقبة إصلاح جمعية الاتحاد والترقي فقد الدولة لسائر ممالكها في أوروبا وأفريقية وآسية، بل إلى سقوط هذه السلطنة (الامبراطورية) العظيمة وزوالها، وكاد الشعب التركي أن يفقد كل سلطة في عقر داره من الأناضول والأستانة وما جاورها من بقية الروملي وهو القطعة المعروفة بترقية الشرقية، ولكن الله سلم.

قضت الأقدار الربانية بوقوع الشقاق والتنازع بين دول الحلفاء الذين مزقوا هذه الدولة (بمعاهدة سيفر) شر ممزق حتى صار بعضهم يساعد الترك على اليونان الذين توغلوا في بلاد الأناضول وجاسوا خلالها مخربين مدمرين محرقين هاتكين للأعراض، تجاه مساعدة الآخرين لليونان، - وبما سخر الله دولة الروس البلشفية لمساعدة الترك أيضاً - وبما ارتفع من الصياح في وجه الدولة البريطانية المتصدية للإجهاز على الدولة من صياح مسلمي الهند وهندوسها وتهديدها بالخروج عليها - هذه الأقدار وغيرها مكنت الحترك المستبسلين، من النصر على اليونان المتهوكين، ثم من عقد صلح شريف مع دول الأحلاف.

تقرر في معاهدة الصلح بلوزان استقلال ما بقي للترك مما أشرنا إليه، وإلغاء الامتيازات الأجنبية منه، وكان على رأس هؤلاء الغزاة من الترك قائد باسل حازم اسمه مصطفى كمال باشا ألف عصبة من الضباط الموافقين له في الرأي ومن غيرهم من كبراء المجلس الوطني الذي تولى إدارة البلاد في أثناء الحرب الدفاعية فأطلق على هؤلاء اسم «الكمايين».

الكمايون

الكمايون هم الاتحاديون لا فرق بينهما في المقصد ولا في الوسائل وإنما كانوا ينسبون إلى معنى فصازوا ينسبون إلى جثة أو شخص، وهذه النسبة تنافي ما يتبححون به من القضاء على نفوذ الأشخاص وسلطتهم وإحلال سلطة الأمة محلها، فما تغير شيء إلا التسمية التي صارت ممقوتة عند الأمة بما جنته الجمعية عليها - وإلا رؤساء الزعماء، وأما العاملون بنفوذ الرؤساء في الانقلاب الديني والاجتماعي فهم هم، وكون كل عمل يعملونه في الحكومة والأمة بالاعتماد على قوة الجيش فهو هو. وحل اسم حزب الشعب محل اسم جمعية الاتحاد والترقي، واسم مصطفى كمال باشا وعصمت باشا وغيرهما محل اسم طلعت باشا وجمال باشا والدكتور ناظم وغيرهم.

بل أقول قد كنا نظن أن الكمايين ربما يكونون أقل من الاتحاديين جرأة على التغيير والتبديل المراد بهذا الشعب الذي أتى من طاعته العمياء لرؤسائه، لما كان للاتحاديين من سوء الخاتمة، فإذا هم أشد منهم جرأة، وسبب الجرأة في الفريقين واحدة وهي القبض على أعنة السلطة بالقوة العسكرية، وقد تم هذا للاتحاديين في عهد الحرب وهو آخر العهد بهم، ولكن الكمايين نالوه في أول العهد بسلطتهم ولا نعلم متى يكون آخرها.

سهل عليهم إسقاط نفوذ السلطان محمد وحيد الدين عقب تحرير البلاد بالانتصار على اليونان، لأنه كان مقاوماً لهم باجتهد منه أخطأ فيه وأحبطه

عليه ظفرهم وخذلانه، كما أشرنا إليه في تعليقنا على الوثائق الرسمية لهذه المقاومة وتمثلنا بقول الشاعر:

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأثم المخطيء الهبل

وكانوا كلما ازدادوا تمكناً من السلطة ينفذون من برنامجهم شيئاً - أعني برنامج غلاة المتفرجين الذي أشرنا إليه في صدر هذا المقال - بعد تمهيد قليل، وإلباس الباطل ثوباً يشبه الحق بضرب من التأويل، فكانوا يرون أن الشعب التركي يرضى ويستكين في الداخل، والعالم الإسلامي يهمل ويكبر من الخارج، فجروا في الميدان إلى آخر الشوط أو إلى مقربة منه. فإن وراء إبطال تعليم الدين بلغته ترجمة القرآن المجيد وإلزام الترك بالتعبد بالقرآن التركي الذي ينشئه بعض رجالهم، وترك القرآن العربي المنزل من عند الله تعالى على خاتم رسله محمد النبي العربي بلسان عربي مبين. وما يتبع ذلك من الكفر والضلال.

كانت الخطوة الأولى لإلغاء الخلافة أن وضعوا قانون الدولة الأساسي في أول سنة ١٩٢١ الميلادية وصرحوا في المادة الأولى منه بأن «السيادة للشعب، بلا قيد ولا شرط». وفي المادة الثانية باجتماع القوة التنفيذية والقوة التشريعية في الجمعية الوطنية الكبرى» فلم يبحث معهم أحد: ألا يجب أن تكون السيادة والسلطة التشريعية مقيدتين بالشرعية الإسلامية التي يدين بها الشعب صاحب السلطة ربه، ويعتقد أنها مناط سعادة الدنيا والآخرة؟

أولاً يجب أن يكون بعض أعضاء الجمعية - على الأقل - عارفين بأصول هذه الشريعة وفروعها بتلقيها عن أهلها فيشترط ذلك في قانونها؟

ربما يكون الناس قد استغنوا عن هذا السؤال بما في المادة السابعة من أن تنفيذ الأحكام الشرعية خاص بالجمعية الوطنية كسائر القوانين وتعديلها، ومن أن الأحكام الفقهية والحقوقية الموافقة لمعاملات الناس

وحاجيات الزمان والمكان والآداب تتخذ أساساً لوضع القوانين والنظم - وإن كان هذا يحتاج إلى البحث فيه كالذي سبقه . ولكن هذه السلطة المطلقة للجمعية تقتضي إلغاء الخلافة وإن لم تذكر في ذلك القانون البتة فلم لم يسأل عنها أحد؟

وكانت الخطوة الثانية أنهم قبل مضيّ سنتين على وضع هذا القانون وضعوا قراراً في الجمعية الوطنية ونشروه في أول نوفمبر سنة ١٩٢٣ من التاريخ الميلادي صرحوا فيه بتأييد ذلك القانون وبأنه قد ترتب عليه أن الشعب التركي يعتبر أن الحكومة التي في الأستانة المستندة على السيادة الشخصية قد زالت وانتقلت إلى التاريخ انتقالاً أبدياً من يوم ١٦ مارس سنة ١٩٢٠ - وإن الخلافة في آل عثمان فتتخب الجمعية الوطنية لها من آل هذا البيت أرشدهم وأصلحهم علماً وأخلاقاً . والدولة التركية سناد مقام الخلافة .

وقد تلقى جماهير المسلمين في البلاد التركية وغيرها هذا العمل بالقبول ولم ينتقده إلا أفراد منهم كما بيناه في المنار (ج ١٠ م ٢٣) بل زعم بعضهم أنه إحياء لخلافة الراشدين ، وتجديد لمجد الدين (!!!) حتى فسره أعلم الناس بمعناه من أساطين الكمالين ، إذ كان هو المقترح الأول له مع جماعة من أصحابه في الجمعية الوطنية وهو الدكتور رضا نور بك فإنه بعد أيام من وضع القرار مر بالأستانة في طريقه إلى لوزان إذ كان عضواً مع عصمت باشا في مؤتمر الصلح ، فسأله أحد محرري الصحف أسئلة في الموضوع أجاب عنها بصراحة ، ومما قاله :

«من الحقائق الثابتة أن الأمة التركية لا تعيش في داخل دائرة امتزج فيها الدين بالدنيا» .

ثم صرحت الحكومة بفصل الدولة من الدين ، وجعل الحكومة بمعزل من الخلافة ، وسموا عبد المجيد أفندي بن السلطان عبد العزيز خليفة ثم

أقاموا له حفلة سموها حفلة المبايعة بأن مرّ أمامه الكبراء والوجهاء والعلماء مسلمين، وذهب إلى صلاة الجمعة باحتفال جميل، ولكن لم يقل له أحد: بايعتك على السمع والطاعة، ولا على السنة والجماعة، إذ لا أمر له فيطاع، بل قرروا التصريح بجعل حكومتهم جمهورية وبفصل الخلافة منها، فهنا الخليفة رئيسها مصطفى كمال باشا بها، مقرأً له عليها، داعياً لهم بالتوفيق فيها، ولم يسم خليفة إلا بعد إقراره ورضاه بأبطال مسمى الخلافة وتحليته بلفظها، وماذا فعل غيره من المسلمين؟

ضجت أكثر البلاد الإسلامية لهذه المبايعة بالتهليل والتكبير، والفرح والسرور، وتجاوبت أسلاك البرق من أقطار العالم الإسلامي بتهنئة (الغازي مصطفى كمال باشا بطل الإسلام) بإحيائه لسنة الخلفاء الراشدين في إقامة كل من الدولة والخلافة على أساس الشورى، وبالمبايعة لعبد المجيد أفندي بالخلافة الكبرى والإمامة العظمى، وتلقيه بأمر المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين، وبالسultan الأعظم، وبحامي الحرمين الشريفين. وكان أسرع الناس إلى هذه التهاني وأشدّها مبالغة فيها مسلمو الهند وفي مقدمتهم أعضاء جمعية الخلافة، وجمعية العلماء، ومسلمو مصر وجمهور الجماعات الراقية فيها كالعلماء وأساتيد المدارس والمحامين الشرعيين والقانونيين وفي مقدمتهم علماء الدين في الأزهر والمعاهد الملحقة به في الاسكندرية وطنطا وأسيوط وغيرها، اللهم ما عدا الرؤساء الرسميين كشيخ الجامع الأزهر رئيس هذه المعاهد كلها ومفتي الديار المصرية ومن تبعهم. وربما كان في الساكتين من كان سبب سكوتهم العلم ببطان هذه المبايعة وكونها من العبث والاستهزاء بالإسلام وأهله، ولكن لم نسمع لأحد منهم صوتاً بذلك، وقد كلمت شيخ الأزهر في الأمر وسألته السعي لمنع العلماء من هذه المبايعة الباطلة فلم يجب، وأردت مخاطبة الملك بذلك وبسوء عاقبته فلم يسمح لي رئيس الأمناء بذلك.

نعم كتب في بعض الجرائد شيء من الإنكار على ذلك، بعضه بقلمنا

أو بإيعاز منا، وهو غير ما كتبنا في المنار ثم في جريدة الأهرام بإمضائنا، وبعضه بإمضاء مستعار وأقله بإمضاء صريح .

كان الكتاب الذين خاضوا في المسألة أزواجاً أربعة :

(١) الذين يقولون إن هذه البيعة صحيحة شرعاً، وإن اشتراط الحكومة التركية على الخليفة أن لا يكون له في الدولة أمر ولا نهي فاسد، ويجب على تلك الحكومة طاعته، سمعت هذا القول من بعض الأزهرين وقيل لي : ان الذين بايعوه يرون ذلك ولأجله بايعوا .

(٢) الذين يقولون أن البيعة صحيحة وأن الخليفة لا يجب أن يكون صاحب نفوذ ولا أمر ولا نهي بدليل ما فعله سلف هؤلاء الترك الذين غلبوا الدولة العباسية على أمرها، بقوة الجند الذي اعتز به بعض خلفائها، فسلبوا منها السلطة والنفوذ، وكانوا يكرهون الخليفة على ما يطلبونه، وإذا غضبوا عليه يقتلونه، وقد بلغ من أمر الخليفة في مصر في بعض الأوقات أن صار يعيش من النذور والهبات، وأكثر هؤلاء من الجاهلين بأحكام الشرع، ولكن أيدهم الشيخ محمد الخضري بك المفتش في وزارة المعارف فزعم أنه يكفي في صحة الخلافة أن يكون الخليفة إماماً في صلاة الجماعة، ولم يدر عبد المجيد أفندي لم يعط هذه الإمامة أيضاً .

(٣) الذين يقولون : إن ما فعلته الحكومة التركية من الفصل بين الدين والدولة هو الصواب الموافق لما جرى عليه أحرار الأوروبيين من الفصل بين الكنيسة والحكومة، ومن هؤلاء من صرحوا بوجوب تصريح تلك الحكومة بأنه لا دين لها البتة .

(٤) الذين يقولون أن هذا العمل باطل، وأن هذه البيعة باطلة، وأن الخلافة بهذا المعنى كخلافة مشايخ الطرق وهي مبتدعة ليست من الإسلام في شيء .

فالفريق الأول أيد حكومة أنقره وهو لا يدري من أمرها ولا من أمر

العالم شيئاً، وأكثر أفرادهم لم يكونوا يعرفون أحكام الخلافة الشرعية معرفة تامة وإن كانوا معممين، ومن عرفها منهم فهو لا يعرف وجه انطباقها على النوازل.

والفريق الثاني أيدها بغير علم أيضاً وإنما قصارى احتجاجه لها أن سلفها من الترك جنوا على الخلافة العباسية مثل جنائيتها على الخلافة العثمانية، وهي أولى منهم بذلك، وهذا رأي مصطفى كمال وحزبه كما يعلم من خطبته التي جعلها مقدمة لهذا العمل، وعلى هذه القاعدة تباح كل جنابة وفاحشة ومنكر في العالم لأنه وجد في المتقدمين من فعله، ولا سيما القتل. فإن أحد أولاد آدم قتل أخاه بغياً وعدواناً فسن القتل لكل قادر عليه، ولكن الباعث هؤلاء على هذه الأقوال هو هوى السياسة الذي يفسد كل شيء دخل فيه.

والفريق الثالث - أيدها وهو يعلم كنه ما عملت ويوافقها عليه لأنه غير متدين ويكره أن تكون الحكومة مقيدة بدين أو منسوبة إليه، لا يخاف في ذلك عدلاً ولا إنكاراً.

والفريق الرابع - هو الذي خطأها على علم بما فعلت، وعلى علم بأحكام الشرع ومصلحة المسلمين العامة، ولعله لم يصل إلى حكومة أنقره إلا أسماء معدودة من أفراد هذا الفريق لقلّة من كتب في الجرائد منهم ولم يكتب أحد فيه ما كتبنا فقد بلغت مقالاتنا في المنار وحده أن صارت مصنفاً حافلاً، فلم ندع للذين على رأينا مجالاً واسعاً للكتابة فيه، وإلا فهم ولله الحمد كثيرون.

إلغاء الخلافة والمصالح الإسلامية الكبرى من الدولة

لهذا كله اعتقد هؤلاء الكماليون أن العالم الإسلامي يؤيدهم في كل ما يعملون إما عن جهل وإما عن هوى وخضوع لسلطة القوي، وأن الفرصة سانحة لإتمام تنفيذ برنامجهم باستسلام شعبهم الفقير المنهوك لهم، وتأييد

العالم الإسلامي إياهم، إلا من شذ من الأفراد الذين لا تحبط العمل معارضتهم، بل أقول انهم أصبحوا لا يبالون بالعالم الإسلامي رضي أم سخط إذا كان رضاه أو سخطه لا يؤثر في الشعب التركي تأثيراً يحمله على معارضة الحكومة. وقد صرحوا بعدم مبالاتهم به مطلقاً.

يقول بعض علماء الاجتماع والباحثين في أخلاق الأمم والشعوب أن الترك إذا ظفروا بطروا، وإذا غلبوا وخذلوا استكانوا واستخذوا، فإذا ربحوا في الحرب يخسرون في الصلح.

فعلى هذا لا يكثر على الكمالين وقد ربحوا في هذه المرة في الحرب والصلح معاً أن ينتفخوا عجباً وغروراً، وأن يطمع زعيمهم أن يفعل في الخلافة الإسلامية فوق ما فعله نابليون الأول في البابوية، وأن يحدث في الشعب التركي أكبر مما أحدثه بطرس الأكبر أو لينين وتروتسكي في الأمة الروسية، منتهزاً الفرصة السانحة باضطراب الشرق والغرب من دوار الحرب، مغترّاً بظهور أفراد تمكنوا بقوة العزيمة أن يتصرفوا بإرادتهم في أرقى أمم الغرب، آمناً من كل مقاومة من الداخل، محتقراً كل معارضة من الخارج - بعد أن اغتيل أحد أعضاء الجمعية الوطنية اغتيالاً خفياً، لإظهاره الإنكار على ما تقرر من فصل الخلافة من الدولة - وبعد أن قضي على الحركة التي ظهرت في الآستانة تجاه الخلافة الإسمية، بنصب محاكم الاستقلال الممنوحة حق الحكم بالقتل على كل معارض للجمهورية، فسبق إليها أكبر أصحاب الصحف ومحريها وغيرهم من قادة الأفكار كلطفي بك نقيب المحامين - وبعد أن اتهم أحد أركان الدولة الجديدة ورئيس وزارتها السابق رؤوف بك بالخيانة، لزيارته الخليفة عند إمامه بالآستانة، فنوقش الحساب لدى إخوانه من أعضاء الشعب في الجمعية الوطنية، حتى آل أمره إلى مغادرة البلاد إلى أوروبا بصفة اختيارية.

بعد هذا كله جمع حزب الشعب أعوانه وأنصاره للخطوة الثالثة، فأجمعوا أمرهم وهم يمكرون، ووضعوا قرارهم وهم يأتمرون، وأعلنوا إلغاء

الخلافة وطرد الخليفة وعشيرته من المملكة، وإلغاء المصالح والأركان الكبرى للدين وهي التعليم الديني والمحاكم الشرعية والأوقاف الإسلامية.

قد مهد مصطفى كمال باشا للفصل بين الحكومة الجمهورية والخلافة الإسلامية بخطبة كتبها له الأستاذ سيد بك الأزميري الذي هو وكيل (وزير) العدلية (الحقانية) في حكومته اليوم، كما مهدوا لإلغاء الخلافة بكتاب (خلافت وحاكميت مليه) الذي لفق له سيد بك هذا ونشروه في بلاد الترك وغيرها من الأقطار الإسلامية على نفقة الحكومة التي طبعته ولم تكتب عليه اسم المؤلف وتولت توزيعه (إدارة الاستخبارات التركية في أنقره).

وسيد بك هذا رجل عليم اللسان جريء الجنان ذكي الذهن اشتغل أولاً بالعلوم الدينية ثم تعلم علم الحقوق وصار محامياً في المحاكم العدلية ونزع العمامة ثم انتخب مبعوثاً، واتفق أن التقيت به في الباخرة (اسماعيلية) من بواخر الشركة الخديوية عندما جرت بنا من ميناء أزمير في رحلتي إلى الآستانة سنة ١٩١٠ وكنت كلما رأيته في الآستانة يسألني عما تم في مشروع الدعوة والإرشاد مظهراً الاهتمام به والرغبة في تنفيذه. ثم بلغني أن الاتحاديين استعملوه في وضع ما يريدون من الصيغ والتوجيهات والتأويلات لما يريدون التصرف فيه من أمور الشرع الإسلامي وأنه هو الذي وضع لهم (قانون العائلة) كما أنه هو الذي نقحه للكماليين.

وقد رددت على خطبة مصطفى كمال باشا عند نشرها في أواخر المجلد الثالث والعشرين (ج ١٠ ص ٧٧٢ - ٧٨٥) ثم رددت على كتاب (خلافت وحاكميت مليه) في المجلد الرابع والعشرين (ص ٦٩٢) وسأعود إلى رد شبهات أخرى لهم في الخلافة وفي مسائل التعليم الديني والمحاكم الشرعية والأوقاف.

ليس سيد بك وحده هو الذي يعمل للكماليين ما كان يعمل للاتحاديين

بل أوى إليهم سائر دعاة الانقلاب الديني ودعاة تحويل الترك عن القواعد الإسلامية إلى القواعد التورانية والافرنجية كضياء كوك ألب صاحب ديوان الشعر الذي سموه «قرآن الترك» وأحمد أغايف ويوسف أقشورا وآغا أوغلي أحمد وحمد الله صبحي وكذا جلال نوري، فهم الآن يتولون إدارة رضى الانقلاب الديني والاجتماعي في أنقره، ولهم من المكانة والحرية في الطعن في الإسلام والصد عن سبيل الله وابتغائها عوجاً فوق ما كان لهم في عهد الاتحاديين.

وقلما يعرف لأحد من هؤلاء المفسدين نسب صحيح وعرق راسخ في الترك ولكن نعلم أن منهم من قذفته البلاد الروسية إلى عاصمة الترك لأجل هذه الأعمال، وكل من قال للترك إنني منكم يعدونه منهم إذا كان يتكلم بلغتهم، وإنما عنى زعماء الاتحاديين فالكهالين بما أشرنا إليه من عمل هؤلاء لأجل سلّ الشعب التركي من الإسلام ليكون الانقلاب بتغيير الأمة ما في أنفسها فيدوم فإنهم علموا أن ما وجد بقوة خارجية يزول بقوة مثلها معارضة لها وفاقاً لما بيناه في المقدمة التمهيدية، وأما مراعاة شعور العالم الإسلامي فلا قيمة لها عند هؤلاء بل يظهر لنا أنهم وازنوا بين ما لهم من الفائدة السياسية والمادية من عطف العالم الإسلامي عليهم مع تقيدهم بالإسلام والخلافة التي تمثل حكومته أو هدايته وبين فوائد الانطلاق من هذا القيد فترجح عندهم هذا الانطلاق، وقد خطأهم في هذا الترجيح العالم الإسلامي والعالم الأوروبي كما علم مما نقلته البرقيات وصحف الأخبار من آراء العالمين في إلغاء الخلافة، وإننا ننشر نموذجاً منها للاستدلال والاعتبار.

(تأثير الانقلاب التركي في العالمين)

لقد رجفت في الترك الراجفة، وتبعته الرادفة، فإذا قلوب أهل الشرق واجفة، وأبصارهم خاشعة، يقولون إنا لمردودون في الحافرة؟ ذهبت

خلافة النبوة، فانقطع سلك الجامعة الإسلامية، وستبدها الحكومات الضعيفة أو المحمية بدداً، ويفرقون بها المسلمين طرائن قدداً، .

وإذا عيون أهل العرب شاخصة، وأذهانهم حائرة، يتساءلون عن النبأ العظيم، متعجبين من تهوك الترك المغرورين، مراقبين لما يكون من أمرهم وأمر المسلمين.

لم تبق جريد من جرائد الشرق والغرب للمسلمين أو الكتابيين أو الوثنيين إلا وقد استكبرت هذا الخطب جداً، وعدّته أمراً إداً، وان سر أقواماً وساء آخرين، ولكن كان أغرب أنبائه أنه أحدث هزة في جميع العالم إلا في البلاد التركية التي فيها حدث وعنها صدر، وهذا دليل على إحداثه بقوة الجندية، وعلى فقد الحرية من البلاد التركية، كما بيناه آنفاً، فنسبته إلى الشعب التركي باطلة، إذ لا يعقل أن يتجرد شعب من الشعوب في أيام أو أعوام معدودات مما رسخ في نفسه مدة بضع قرون من عقائد ونظم وأحكام وحكام، توارثت أجلالها الأجيال بعد الأجيال.

إن زعماء هذا الانقلاب يعترفون بأن أدنى شعوب أوربة أرقى من الشعب التركي في علوم الحقوق وملكات الحكم الديمقراطي وفي الحرية بأنواعها ولذلك يريدون بكل ما عملوا ويعملون للحاق بالأوروبيين في ذلك وفي ثمراته - ولا يزال أكثر هذه الشعوب عدداً، وأرقاها أحكاماً ونظماً، وأرسخها في الديمقراطية قدماً، راضية بأن يكون رئيس حكومتها عاهلاً وملكاً، وأن يكون حامي الإيمان ورئيس الكنيسة فيها، كالشعب الانكليزي وكذا الشعب الألماني الذي فاقه في العلوم والفنون، وإنما جمهوريته الحادثة عرض من أعراض الخذلان في الحرب، تحافظ عليه الدول الظافرة المسيطرة على هذا الشعب، ولم تكن هذه الدولة ولا تلك كدولة آل عثمان فيما كان لها من النفوذ الديني والدينيوي، لو كانت ذات أمة تحسن الانتفاع بهذا النفوذ، وتقيده بما شرعه الإسلام من الشورى وسيطرة أهل الحل والعقد.

ليس من موضوعنا الإطالة في هذه المسألة ولا ننكر أن الحكم الإسلامي أقرب إلى الجمهورية منه إلى الملكية المطلقة، وإنما موضوعنا تأثير الانقلاب التركي في العالم، وإننا نذكر هنا بعض الشواهد على تأثيره في مصر، ونرجىء الشواهد على تأثيره وآراء غير المصريين فيه إلى جزء آخر.

رأي المصريين في الانقلاب التركي

أرسل أفراد كثيرون وجماعات كثيرة برقيات إلى مصطفى كمال باشا يصفونه فيها بضد ما كانوا وصفوه عند الصدمة الأولى التي لم يفقهوا المراد منها، فقد وصفوه الآن بالكفر والإلحاد، وعداوة الإسلام، والظلم والطغيان، وقد نصح له بعضهم بوجوب الرجوع عن غيه وضلاله، وهدده آخرون بما هو جدير بأن يضحك منه، وكتب كثيرون مقالات في جميع الصحف نختار منها هنا بعض ما كتبه أشد كتاب المصريين المشهورين تأييداً للترك ومبالغة في الدعوة إليهم والدفاع عنهم: الأستاذ الشيخ عبد العزيز شاويش - وقد صار أوسعهم بهم علماً - والأستاذ أمين بك الرافعي، والأستاذ محمد شاكر.

رأي الشيخ شاويش في كمال والكماليين والاتحاديين

مما كتبه في جريدة الأخبار ثلاث مقالات عنوانها «القبلة الكمالية» افتتح المقالة الأولى وقد نشرت في عدد الأخبار الذي صدر في ٣ رجب الموافق ٦ مارس بوصف ما ناله مصطفى كمال باشا من الشهرة والعظمة الإسلامية والعسكرية والسياسية بحيث لو مات أو اعتزل شؤون الدولة بعد ختام مؤتمر الصلح لكان له مقام لا يبلغه زعيم في التاريخ - وهذا رأي قد شارك الشيخ فيه كثير من المفكرين ثم قال ما نصه:

«لقد كان يمكن أن يكتفي مصطفى كمال في مسألة الخلافة بالنحو الوسط الذي كان قائماً لعهد جلالة الخليفة عبد المجيد ذلك الحل الذي

منع الخليفة من التدخل والاتصال بأمر الدولة التركية السياسي والذي لم يحدث من الخليفة ولا من أسرة البيت العثماني ما يدعو إلى تغييره بله محوه .

خرج الخاقان السابق وحيد الدين على النحو المعروف فكتب الغازي إلى ولي العهد عبد المجيد خان يقترح بيعته بالخلافة على شريطة ألا يمس شؤون الدولة السياسية فلم يلبث عبد المجيد أن قبل البيعة على هذا الشرط وظل صادقاً لوعده موفياً لعهدده . حتى لقد أكد الخليفة لي ذات يوم أنه قطع على نفسه ألا يفكر في شيء من أمور تركيا وأن كل همه أن ينقطع لخدمة الإسلام . ولقد أعرب لي عن ضرورة إيجاد مجلس للخلافة تمثل فيه الشعوب الإسلامية ليتمكن بذلك من إصلاح شؤون المسلمين وترقيتهم ومحاربة البدع والخرافات والضلالات التي وجدت سبيلها بينهم ، وأذهبت ريجهم .

كان يذكر جلالة الخليفة ذلك وهو مطمئن القلب لا يحلم بما كمن له وراء آكام أنقرة ، فالخليفة كما أعلم يقيناً لم يدر بخلده أن يكيد للجمهورية ولا أن يشخص ببصره إلى التدخل في شيء من أمورها ولكن أبي الله حكمة يعلمها إلا أن يتقدم الغازي بما قرره اليوم فيصيب كبد الإسلام بتلك القنبلة القتالة ويزلزل صرح الوحدة الإسلامية ذلك الزلزال الشديد .

لقد طمح الغازي ذات يوم أن يكون الخليفة كما علمت عند هبوطي انقرة فلم يمنعه من ذلك سوى خشيته أن يحدث اضطراب داخلي يهدد المملكة قبل تمام الصلح لما يعلمه من فرط تعلق الأمة التركية بالبيت العثماني وبالاخلافة الإسلامية فهل تبدلت اليوم ميول الأمة التركية وعواطفها إزاء خليفاتها والبيت الذي أورثها هذا الملك العظيم؟ إن الغازي يعلم فيما أعتقد أن خطوته التي خطاها محفوفة بالأخطار في الداخل ، وهذا يفسر لنا ما نشرته التلغرافات العمومية الخصوصية ، من أنه قرر تكثير محاكم الاستقلال ومنحها حتى الحكم بالقتل وامتدادها حتى فوق ضفتي البسفور . ولكن هل يغني حذر من قدر؟ إن الأمة التركية فيما نعلم أمة مسلمة

ومحاربة. وإذا اعتمد الغازي على بعض اللادينيين ممن حوله فإن في الضباط من لا يزالون يعتصمون بالإسلام وينقشون على (قلايقهم) كلمة «يا غازي يا شهيد»^(١).

إن الذين يزينون لمصطفى ما فعل إنما هم فئة التتار التي دستها روسيا القيصرية بين الترك لا لغرض سوى القضاء عليهم، وإفساد أمرهم، وقطع ما يصلهم بالمسلمين.

ذلك النفر من التتار لم يتربّ تربية إسلامية قط ولا أثر للروح الإسلامية في أفئدتهم ولكنهم مسلمون منبتاً وروسيون روحاً.

جاء هؤلاء المفسدون إلى الآستانة قبل الدستور العثماني فزينوا للاتحاديين مسألة العنصرية والتباعد عن الإسلام.

وسوسوا للاتحاديين أن سبب تألب أوروبة على تركية إنما هو الإسلام وقيام الخلافة فيها. ثم أخذوا يزينون لهم أن تعتبر غير البلاد التركية من الامبراطورية العثمانية مستعمرات محكومة، وأن يكون للعنصر التركي وحده حق الحكم غير مشارك. ساقوهم إلى الطورانية، وزينوا لهم أن ذلك يمكنهم من ضم عشرات الملايين من الأتراك القاطنين في آذربيجان والتركستان إليهم.

كما استدرجهم إلى محاربة اللغة العربية بعد إذ صارت نحو ٧٠٪ من اللغة العثمانية وإلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، مع أن اللغة التركية لم تكتب فيما نعلم بغير الحروف العربية منذ دخل الترك في الإسلام.

(١) المنار؛ يا في التركية كما العربية، والغازي المجاهد الذي يظفر في القتال في سبيل الله. والمعنى أطلب إما شرف لقب الغازي وإما شرف الشهيد وثوابه، وهذا مأخوذ من أمر الله تعالى لنبيه «ص» أن يخاطب الكفار بقوله: «قل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين» أي الخصلتين والعاقبتين اللتين تفضلان كل ما سواهما وهما النصر والشهادة - والقلب كمة توضع على الرأس.

لم يقف وسواس تلك الطائفة وإفسادها للأمة العثمانية عند هذا الحد بل خاضوا في الشريعة ومسألة المرأة وجروا الترك على الفساد وإعلان الإلحاد ولما لها من سعة الاطلاع والدرس استطاعت أن تسوق ذوي الرأي من الترك وجلهم قليل التحصيل محدود الدراسة لم تثقفه التربية ولم تنضجه التجارب ولم تفقهه بأمر الدين أو التاريخ مدرسة ولا كتاب .

ولقد كادت تنجح تلك الفئة الضالة في زمن الاتحاديين لولا وجود المرحومين البرنس سعيد حليم وأنور باشا فإن امتلاء قلوب هذين الرجلين بالإسلام ووفرة محصولهما التاريخي وبقينهما أن سلامة تركية لا تتحقق إلا بارتباطها بالعالم الإسلامي وأن عظمتها لا تقوم إلا على دعائم الخلافة كل ذلك حمل هذين الرجلين العظميين على القيام في وجه أولئك الهادمين، ومن حذا حذوهم من الترك الغافلين، ولكن - ذهب الناس وبقي النسّاس - فقد حرمت المملكة العثمانية المصلحين المفكرين وخلا الجو لذلك النفر من التتار المارقين، فما لبثوا أن بطشوا بيد مصطفى بطشتهم بالإسلام وبتركية جميعاً (ثم قال بعد كلام في تعظيم وقع الخطب وخطره على المسلمين).

«أما تركية فقد مادت بها انقصة مبدأ هدم أركان عظمتها وهبط بها في الدول السياسية الى ما دون منزلة بلغاريا . فلقد كانت معدودة من الامبراطوريات لا بواقعة سقاريا ولا بخرائب أنقره ولكن بقيام مقام الخلافة في ربوعها - ذلك المقام الذي ملك الترك القلوب والأبصار من ثلثائة مليون من المسلمين - ذلك المقام الذي جعل مسلمي الأرض يدخلون في الامبراطورية التركية ويدعون سليماً وغير سليم لاستلحاق ممالكهم راغبين، فلم يكن يجد هؤلاء في آسيا وأفريقيا الشمالية ما يضطرونهم إلى امتشاق الحسام وسوق الفيلق بل كانوا يدعون إلى دخولها كما يدعى الأخ إلى منزل أخيه، ولولا ما كان لبعض أمراء تلك البلاد من المقاومات التي لم تؤيدها شعوبهم، ما وجد الترك في صدر دولتهم ببركة

الخلافة عقبة ما في نشر رواق سلطاتهم على تلك الممالك.

فقدت تركية اليوم ذلك المقام (مقام الخلافة) ففقدت بفقده تلك الرابطة القدسية التي كانت سياجاً لها في أحوالها فهل تستطيع جمهورية مصطفى كمال اليوم وهي ذات خمسة ملايين من النفوس أن تحمي نفسها أمام مطامع الطامعين بعد أن حرمت عطف العالم الإسلامي» هـ.

ثم ختم المقال بتهديد الكماليين بانفصال الكرد عنهم وتآلب العنصر التركي عليهم - وتهديد تركية بالتردي في الحفرة التي حفرها لها سادتها وكبراؤها.

القنبلة

رواية الشيخ شاويش عن مصطفى كمال

ومما قاله في المقالة الثانية التي نشرت في الأخبار بتاريخ ٣ شعبان الموافق ٩ مارس.

«هبطت أرض أنقرة في السابع عشر من شهر ديسمبر سنة ١٩٢٢ وبعد بضعة أيام ذهبت مع صديق لي من الوزراء إلى دار المجلس الوطني الكبير لزيارة مصطفى كمال باشا وقد كنت عاهدت نفسي ألا أتكلم معه في أمر الخلافة لما اتصل بي من نيته تجاه البيت الشاهاني قبل ذلك بأيام أي يوم هبطت مدينة أزمير ولكن لم نكد نأخذ مجلسنا في حضرته حتى استقبلني بهذا السؤال. ما رأيك يا فلان في أمر الخلافة وفصلها عن سياسة الدولة؟ فاستقلتته الجواب معتذراً بأن في المجلس الوطني الكبير من العلماء وذوي الرأي ما يغنونه عن رأيي ولكنه أصر عليّ إلا أن أبسط له ما لدي من الرأي ولقد علمت من بعد أنه ما كان يريد من استفتائي الوقوف على ما حُف به ذلك الأمر الخطير من المحاذير والأخطار أو العلم بما جاء في الشريعة من أحكام الخلافة والخلفاء، ولكن كان كل همهم أن يسبر غوري

ويعرف مجرى فكري ولذلك ألح في سؤالي وأبى إلا أن أصارحه برأيي .
فلما لم أجد بداً من القول أجبت أنه «ليس في الإسلام خلافة بلا قوة كما أنه
ليس في الإسلام خلافة مستبدة» أجبت بهذه العجالة الوجيزة وكنت أرجو
أن يجد فيها من المعاني والمغازي ما يصدفه عن الاسترسال في المسألة
ولكنه عاد فسألني : إذن بم تفسر ما فعله عبد الحميد وغيره من الخلفاء
العثمانيين؟ وإلّا تمّ تعزو ما أصابوا به الدولة من النكبات والأرزاء؟ أليس
أولئك الخلفاء هم الذين كانوا مصدر شقائنا وبلائنا؟ أوليسوا هم الذين
ساقونا إلى تلك الحرب الطاحنة وضاعفوا مصابنا بما أصدرنا من فتوى
الجهاد وأمثالها؟ فلما فرغ من أسئلته هذه قلت إن الخلفاء الذين قاموا في
السنوات الدستورية لم تطلق أيديهم في تدبير البلاد ولا كانوا مستبدين
بأمرهم بل كانت تجري الأمور في المملكة لا يحيطون بها علماً . وكلنا يعلم
كيف تقرر إعلان الجهاد وكيف كانت حادثة البحر الأسود التي انتهت
بإعلان الحرب وكيف جرّد المرحوم السلطان محمد الخامس من القوة حتى
رأينا الدكتور ناظم بك أحد أركان الاتحاديين يذهب إلى سراي الخليفة
عام ١٩١٦ لينقص أعطية من فيها من الرجال ويفرض لهم من الرزق مثل
ما كانوا يفرضون للعامة والأفاقين، على أنه إذا كان هؤلاء الخلفاء في زمن
الدستور شيء من الامتيازات القانونية، فما ذلك إلا لكون الدستور جعلهم
خلفاء على الأصول الرومانية، لا خلفاء وفق الشريعة الإسلامية .

«فلما بلغت هذه العبارة تخلصت عينا الباشا وأخذ ما يأخذ المستفسر
العجل من الحركات المضطربة وسألني متخازراً وكيف ذلك؟

«قلت ذلك ان الإسلام أنكر الفروق الطائفية وامتياز الطبقات والأفراد
بعضها عن بعض في الأحكام والتكاليف الشرعية بل أقام سائر العوالم
البشرية في مستوى من تكاليفه تتحاذى فيه الأقدام والرؤوس فلا يمتاز في
أحكام دين الإسلام رجل عن امرأة ولا أمير عن سوقة ولا فقيه عن غيره
بل كلهم خاضعون للقانون السماوي «ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل

الكتاب من يعمل سوءاً يجز به . ولا يجد له^(١) من دون الله ولياً ولا نصيراً»
بذلك سوى الإسلام بين الرعاة والرعايا في سائر الأحكام والتكاليف
فقضى بمجازاة من يعتدون حدود الله بلا تفرقة ولا تفاوت، فإذا أصاب
أمير أو سلطان أو خليفة أي فرد بأذى كان عليه من الجزاء مثل ما على
غيره من عامة الناس، سواء كان ذلك الأذى عدواناً على نفس أو جارحة
أو عرض أو مال. فليس في دين الإسلام فوق الشرائع والأحكام أمير ولا
خليفة ولا سلطان، ولكن تركية التي قلدت أوروبة اقتبست من القوانين
الرومانية قاعدة أن الخلفاء فوق القانون والشرائع فأصبح الخلفاء بهذا
خلفاء رومانيين لا خلفاء إسلاميين، ولو عقل رجال النهضة الدستورية إذ
ذاك لأدركوا ذلك الفرق البعيد بين دين يقول «لا يُسأل عما يفعل وهم
يُسألون» ويقول «إن الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين» ويقول
«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» وبين شرائع قامت في أقوام كانت
تعبد الملوك والأباطرة وتعدهم مصدر الاشتراع والحكم فرفعتهم إلى
مستوى الإله الحق الذي هو وحده يحكم لا معقب لحكمه .

أوجب دين الإسلام طاعة أولي الأمر ولكن على شريطة ألا يأمرؤا بما
يخالف أوامر الخالق، ثم أبان لنا أنه إذا وقع تنازع بين الراعي والرعية
وجب ان يتحاكموا إلى كتاب الله وسنة رسوله فلم يبح لأحد مهما بلغ
سلطانه وصولته ان يحكم الناس بما تهواه نفسه وتستطيعه شهوته حتى لقد
أجاز للناس الخروج على غير العدول الذين لا يقفون عند حدود الله من
السلاطين والأمراء مبيحاً لأولي الأمر مقاتلتهم بل وقتلهم . ولقد قتلت
طائفة من المسلمين اجتهداً منهم الخليفة عثمان بن عفان ومنزلته من الدين
وبلاؤه في نصرة الرسول ما نعلم . وكذلك ألزم الناس علي بن أبي طالب
ان يقبل التحكيم عندما رفعت المصاحف على أسنة الرماح وطلب خصومه

(١) وفي جريدة الأخبار «ولن تجد له» وهو غلط .

التحكيم إلى كتاب الله فلم يسعه وهو يعلم ان ذلك خدعة منهم دبروها لبلوغ حاجاتهم ، لم يسعه إلا أن ينزل على ما طلبوا من الرجوع إلى كتاب الله ليفصل فيما شجر بينهم ولم يغنه أن كان خليفة الرسول وزوج ابنته وصاحب الحق في ذلك المقام .

«وبينما نحن كذلك دخل علينا أحد النواب فقال يا حضرة الباشا إن أعضاء المجلس قد اختلفوا أمن قيام يقرأ تلغراف الخليفة الذي أرسله بقبول بيعته أم من جلوس؟ فسأله الباشا وكم القائلون بالقيام؟ قال النائب فوق الثمانين، فما لبث مصطفى أن أقبل عليّ وقد قطب غضباً يسألني: أحكومة شعب هذه التي تريد قراءة تلغراف الخليفة من قيام؟ فأجبتة «انه ليس في الشريعة يا حضرة الغازي ما يوجب القيام ولا يمنعه وإنما يرجع في أمثال هذه الحالة إلى ما يجري به العرف والعادة في الناس . وهنا أحس مصطفى باشا عين ما أحسست أننا لا نتفق أصلاً فهم بالوقوف إيذاناً بالانصراف فخرجت من عنده وأنا أذكر ما قصه عليّ صديق لي في برلين خلال الحرب الكبرى أيام كان مصطفى باشا ياوراً لولي العهد إذاك وحيد الدين أفندي إذ قال له ان الاتحاديين دعوني ذات يوم للدفاع عن جبهة العراق فأجبتهم إلى ذلك وكنت أضمر ان أستقل بالعراق إذا ما أمكنوني من السلاح والأموال الكافية قال ولكنهم فيما أظن شعروا بذلك يوم عرضت عليهم مطالبتي فإنهم بعد إذ تدبروا أعرضوا عن تعييني في ذلك الميدان واستبدلوا بي غيري . فهم الغازي مما دار بيننا كنه رأيي وفكري ولكنه لم يكتف بذلك فلقد أوعز إلى فرقته في المجلس أن تدعوني ذات يوم للاستفتاء رسمياً فجاءني كتاب من أحد أعضاء هذه الفرقة جلال نوري بك لأكون بمركزها في يوم ٢ يناير سنة ١٩٢٣ وهنالك جرى ما سأقصه على العالم الإسلامي فيما يلي مما يتبين منه جلياً ان سبب شقاء الترك وتأخرهم لم يكن دين الإسلام ولا قيام الخلافة في ديارهم كما يزين لهم التتار الواغلون ويتوهمه الرهط المارقون ، ولكنها الأمراض الاجتماعية

والجهالة، الفاشية الفاعلة فيهم ما تعجز عنه الأوبئة القتالة مما سنأتي بعد على شيء من تفصيله .

عبد العزيز جاویش

(المنار) إنما بدأنا بإيراد بعض ما كتبه هذا الأستاذ لثلاث : (١) إنه كتب عن علم وخبرة لأنه عاشر كبار الاتحاديين وخدمهم بضع سنين في عاصمة الدولة خدمة سياسية ثم خدم الكماليين وأحاط خبراً بنشأتهم وكنه حالهم . (٢) إنه غير متهم في انتقاد هؤلاء ولا أولئك لأن كلاً منهما أكرم مثواه وقلده أعمالاً عظيمة كان يأخذ عليها راتباً كبيراً ، (٣) العبرة بما كان من الخلاف بيننا وبينه في الاتحاديين في المسألتين الإسلامية والجنسية فإننا قد سبقناه إلى معرفة كنه حالهم وما يكيدون للإسلام وما يسيئون به إلى الأمة العربية المشاركة لهم في الجنسية العثمانية السياسية وكتبنا في ذلك منتقدين وناصحين فأنكر ذلك علينا الأستاذ الشيخ عبد العزيز شاویش وأساء فينا الظن بقدر ما كان يحسنه في الاتحاديين ورد علينا وطعن فينا بل كان خصماً لكل العرب المستائين من معاملة الاتحاديين وعوناً لهؤلاء عليهم ثم ظهر له أنهم شر مما كنا نقول فيهم وأكبر وجوه العبرة في هذه المسألة ما نبهت عليه من قبل وهو أننا معشر العرب أو المسلمين أو الشرقيين لا نزال بُعداء عن العمل المنظم المشترك إذ لا يكاد أحد منا يهتم بأن يبني عمله في خدمة أمته على اختبار من سبقه من قومه في تمحيص بعض الأمور بل يعمل كل متصد للعمل عملاً مستأنفاً فاذا دمننا على هذا فلا يمكن أن نتقن عملاً ولا أن نرتقي فيه إذ لا يمكن لكل فرد منا أن يحيط علماً واختباراً بكل شيء بنفسه ، ولو استفاد المصريون والهنود من اختبارنا السابق واختبار الشيخ شاویش اللاحق لما رأيتهم اليوم يطمعون في تحويل مصطفى كمال عن رأيه في الخلافة والدين والدولة .

ما هذه العاصفة الهوجاء

(أول مقالة للأستاذ الشيخ محمد شاكر

في الانقلاب نشرها في المقطم)

خليفة يخلع ، وخلافة تلغى ، وأموال تصادر ، وأوقاف تضم إلى أملاك الدولة ، وتعليم ديني يمحي ، ومحاكم شرعية تغلق ، وأسرة عثمانية تطرد من آفاق البلاد ، وتحرم حتى من جنسيتها التركية ، فما هذه العاصفة الهوجاء؟ عاصفة الجنون التي تهب على العالم في مشارق الأرض ومغاربها من عاصمة الجمهورية التركية بقرارات الجمعية الوطنية في أنقرة كما تقول جريدة الجورنال الباريسية؟

رحم الله زماناً كنا نعطف فيه على هذه الفئة إبان تمردها على السلطة العثمانية وهي تجالذ مجالدة الأبطال لطرد الأعداء من الأناضول، وزحزحة الحلفاء عن دار الخلافة . والله يشهد أن الذي حدا بنا إلى العطف على هؤلاء المتمردين إنما هو الإشفاق على الخلافة العظمى أن تمتد إليها يد المهانة والاستذلال . وهي البقية الباقية من مجد الإسلام وعهد النبوة الأولى . وهي العزاء الوحيد الذي كنا نتعزى به في نكبات الأيام وصروف الليالي «فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم» [سورة محمد رقم ٤٧ الآية ٢٢] «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» [سورة الحج رقم ٢٢ الآية ٤٦] .

عاصفة جنون هذه التصرفات التي بها دمر المجلس الوطني في عاصمة الجمهورية التركية مجد السلطنة العثمانية حتى جردها من تاج الخلافة العظمى وقد احتملته رؤوس العظماء من آل عثمان أكثر من أربعة قرون .

عاصفة جنون هذه التصرفات التي ألغى بها المجلس الوطني نظاماً كان ولا يزال من مقومات العالم الإسلامي في تكوينه الحيوي . وأنىّ لهؤلاء المتمردين على النظام الديني أن يقطعوا من مقومات الحياة الإسلامية نظام الخلافة فيقرروا إلغاءه .

حقاً، ان التمرد إذا انتهى بالبطولة استحال إلى العبث بكل نظام يعترضه في طريقه. فالأبطال من المتمردين ينقلبون مدمرين إذا لم تقلم أظفارهم هيمنة الأمم والشعوب بقوتها القاهرة. وسوف يرى هؤلاء المدمرون من المتمردين كيف تقلم الأمم الإسلامية أظفارهم، وكيف يرتدون على أعقابهم خاسرين أمام العالم الإسلامي حتى من الشعب التركي نفسه «أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون» [سورة النحل رقم ١٦ الآية ٤٥]. «أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون» [سورة الأعراف رقم ٧ الآية ٩٩].

عجيب أمر هؤلاء الذين تسللوا في جنح الظلام إلى كهوف الأناضول وظلوا يهتفون باسم الإسلام حتى حازوا فخار النصر كيف ارتدوا على أدبارهم يحاربون الإسلام بأسوأ أداة ملكتها أيديهم في أعز عزيز على العالم الإسلامي وهو نظام الخلافة. ما كانت الخلافة يوماً ما نظاماً قومياً تتقاذفه أيدي المتلسطين في الجمعيات الوطنية حتى يتسنى لزعماء الجمهورية التركية أن يقرروا إلغائه.

إنما الخلافة نظام ديني عام لا يحل لرجل يؤمن بالله ورسوله أن يتخلى عن الاندماج في دائرته المرنّة. كذلك كان نظام الخلافة منذ توليها أمير المؤمنين أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وهو أول خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن تقلدها بالبيعة العامة أمير المؤمنين عبد المجيد بن عبد العزيز «فمن نكث فأنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً» [سورة الفتح رقم ٤٨ الآية ١٠].

ماذا تركته حكومة الجمهورية التركية من التقاليد الإسلامية لم تنقضه رأساً على عقب بعد خلع الخليفة وإلغاء الخلافة وهي تضم أوقاف المسلمين إلى أملاك الدولة. وتقرر إلغاء المحاكم الشرعية وإغلاق معاهد التعليم الديني. وتضع للنظام العائلي قانوناً يهدم أصول الشريعة الإسلامية في كثير من أحكامه. ويذهب بتلك الفضائل والآداب التي أفاضها

الإسلام على المستمسكين بعروته الوثقى والمستعصمين في حرز صيانتهم
الحصين «من يهد الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً»
[سورة الكهف رقم ١٨ الآية ١٧].

عاصفة جنون هذه التي هبت على العالم الإسلامي من عاصمة
الجمهورية التركية في نظامه الدولي، ونظامه الحكومي، ونظامه العائلي.
ولكنها ستنتفشع بتوفيق الله وحكمة عظماء الإسلام وقادته المحنكين في
مشارك الأرض ومغاربها «فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على
المؤمنين أعزة على الكافرين. يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم،
ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم» [سورة المائدة رقم ٥ الآية ٥٤].
محمد شاكر، وكيل الجامع الأزهر سابقاً

كلمة الأستاذ أمين بك الرافي

(من مقالة له في جريدة الأخبار بتاريخ ٢٩ رجب الماضي)

يعمل الكماليون بسرعة على تنفيذ قرارهم الطائش بإلغاء الخلافة وعزل
الخليفة وقد استعملوا في أقوالهم عبارات تدل على غرورهم وجهلهم بعاقبة
ما ارتكبوه ضد الإسلام والمسلمين فعصمت باشا يزعم في خطبته التي
نقلت إلينا التلغرافات خلاصتها ونشرناها في باب التلغرافات: ان العالم
الإسلامي لم يصادق تركية الا لأنها قوية!! لا لأنها دولة الخلافة!! فهل
بعد ذلك جهل وغرور؟!

وقد ذهبوا إلى جلاله الخليفة في ساعة متأخرة من الليل وأمره بالجلوس
فوق العرش وبعد أن تلوا عليه قرار العزل أنزلوه وساروا به في سيارة إلى
الحدود، ومنها إلى سويسرا، فعلوا به ذلك في جنح الظلام لأنهم يعلمون
أنهم يرتكبون جريمة شنيعة ومن أجل ذلك تراهم أيضاً يعقدون محاكم
التفتيش في جميع أنحاء البلاد ويحولونها سلطة الحكم بالإعدام ليملاؤوا
النفوس إرهاباً حتى لا تثور على قرارهم.

ولكن، هل مثل هذه التدابير الإرهابية تحول دون إظهار الاستياء العام من فعلتهم القبيحة؟

وبهذه المناسبة لا نرى بدءاً من توجيه نظر علمائنا الأفاضل إلى ضرورة قيامهم بواجبهم الديني في هذه الحادثة الخطيرة فقد سبق لهم ان أعلنوا بيعتهم لجلالة الخليفة. ولما كانت البيعة قائمة بالرغم من قرار أولئك الملحدون الخارجين على الإسلام فيجب على العلماء ان يعلنوا ذلك في اجتماع كبير يعقدونه ويبرقون بقراراته إلى حكومة أنقرة لتعلم ان العالم الإسلامي ساخط على أعمالها المنكرة.

كما نرجو من علمائنا أن يدعوا لجلالة الخليفة للحضور إلى مصر لعيش وأسرته في قطر إسلامي ويكون متصلاً بالمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لأن فكرة إبعاده إلى سويسرا لا يقصد منها سوى الحيلولة بينه وبين المسلمين.

وبالجملة، فإن على علماء المسلمين في الظرف العصيب الذي يجتازه الإسلام الآن فروضاً مقدسة يجب عليهم أن يقوموا بها بلا توانٍ ولا تردد لدرء الخطر الذي يتهدد الإسلام والمسلمين.

أمين الرافعي .



العائلة الهاشمية

حسين بن علي

ملك الحجاز

تتازل ١٩٢٤

الملك علي
ملك الحجاز
١٩٢٤ - ١٩٢٥

الملك فيصل الأول
ملك سورية
١٩١٩ - ١٩٢٠
ملك العراق
١٩٢١ - ١٩٣٣

الملك عبدالله
أمير شرقي الأردن
١٩٢١ - ١٩٤٧ ثم
ملك المملكة الأردنية الهاشمية
١٩٤٧ - ١٩٥١

الملك غازي
١٩٣٣ - ١٩٣٩

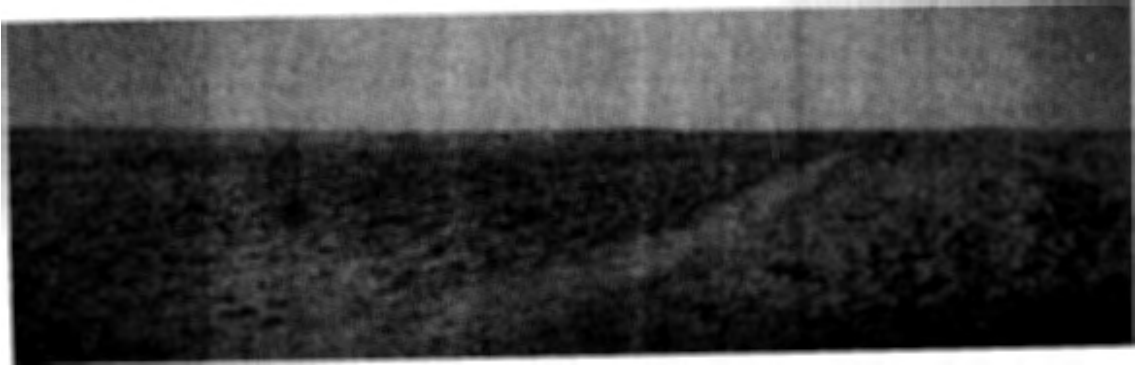
الملك طلال
١٩٥١ - ١٩٥٢

الملك فيصل الثاني
١٩٣٩ - ١٩٥٨

الأمير
محمد
الأمير حسن
ولي العهد
١٩٥٢
الملك حسين الثاني



إعلان الشريف حسين أميراً على مكة المكرمة
١٩٠٨



درب الحج الشامي



العمال يمدون خط الحجاز (١٩٠٧)

تقديرات أبي القاسم الزباني سنة ١٢٠٨ هـ ١٧٩٣ م				محطات خط الحجاز الحديدي سنة ١٣٢٨ هـ ١٩١٠ م			
إسم المنزل	عدد الساعات	المسافة التقريبية	ملاحظات	اسم المحطة	المسافة كم	كيلومتر	ملاحظات
دمشق	٦	٢٥	لم يذكر الزباني المدة بين درون وصنمين والرقم المذكور تقريباً	دمشق	٢١	بعد الكسوة تختلف مسيرة الخط الحديدي عن مسيرة دريب الحاج	
دنون	١٠	٤٥		الكسوة	٤٢		
صنمين	١٠	٤٥		غباغب	٦٠		
المزيريب	١٢	٥٠		درعا	٣٩		
المعرق	١٦٥	١٦٥		المعرق	١٦٢		تأنت الغرور من اهتمام المسيرة ..
الزرقاء	١٢	٣٦	البلقاء ناحية - أخطأ الزباني في تقدير الزمن بين خان الزبيب والبلقاء وقطرانة .	الزرقاء	٤١	يتجه الخط الحديدي بعد الزرقاء إلى عمان ثم يعود إلى خان الزبيب - لهذا ظهرت ضرورت في المسافة .. بعد ذلك تكاد تنفوت مسيرة الخط الحديدي مع مسيرة دريب مع ضرورت طفيفة ..	
خان الزبيب	١٥	٦٥		عمان	١٩		
البلقاء	٧	٢٨		خان الزبيب	٧٣		
قطرانة	٥	١٥			٣١		
عنيزة	٢٠	٨٠	أخطأ الزباني في تقدير الزمن بين قطرانة وعنيزة والتقدير هو في ٢٠ ساعة بدلاً من ٥ ساعات	قطرانة	٥٢	٢٦١	
معان	٧	٣٥		الحا	١٩		
عقبة طبعية	١٨	٥٤		جزء الدريش	٢٦		
المدورة	١٢	٥٠		عنيزة	١٧		
			نقل برشة القافلات بسبب العقبات الطبيعية ..	وادي الجردون	١٩	٣٦	الفرق بين طول الخط الحديدي والدريب ضئيل - وربما يعود إلى كثرة الوردان مما يجعل الخط الحديدي يتفادى هذه العقبات بأكثر صلاحة ..
				معان	١٦		
				غدير الحاج	١٢		
				بئر الشديدة	٢٧		
				عقبة	٦	١١٣	
				بطن الغول	١٠		
				وادي الرتم	١٦		
				تل الشحم	٩		
				الرملة	١٧		
				المدورة			

محطات خط الحجاز الحديدي سنة ١٣٢٨ هـ ١٩١٠ م				تقديرات أبي القاسم الزياتي سنة ١٢٠٨ هـ ١٧٩٣ م			
اسم المنزل	عدد الساكنات	المسافة التقريبية	ملاحظات	اسم المحطة	المسافة كم	كيلومترا	ملاحظات
ذات الحاج	١٢	٣٦	أخطأ الزياتي في تقدير الزمن بين ذات الحاج وبتوك .	حالة عمار	٢٢	١٢٠	تكرار مسيرة الدرب تتفاوت مع مسيرة الخط الحديدي .
	٢٠	٨٠		ذات الحاج	١٢		
تبوك	٥	١١٦	وهو عقبات طبيعية	برابن هراين	٢٤	٥٤	منطقة مخرمة نقلت بها سرعة القطار .
	١٠	٤٠ ٥٠		الهضيم	٢٢		
البغاز الوعر الدار "دار الحج"	٢٥	١٢٥	أخطأ الزياتي في تقدير الزمن ..	المحطب	٢٢	١٣٦	تتفاوت المسيرة مع أجزاء من وادي سبأ ..
	٢٢	٧٥		تبوك	١٥		
لحجر	٢١	٧٩	يزيد منسوب الأرض في قلعة الحظير ٩٧١ متراً، وفي الدار الحمراء ١٠٩٣ متراً .. وفي المطلاع ١١٤١ متراً .. ثم يربط إلى ٩٥٧ في أبي طاهر لهذا نقل السرعة ..	مستبقة	١١	٧٥	هذه المنطقة المخرمة نقل سرعة إقطار ويدرأظ أن المطلاع والمزعم من العقبات الطبيعية ..
	٣٢	٩٩		الأخضر	٥		
سهل المطران لبئر الجديد هدية	٢٧	٨٥		الخميس	٢٢	٣٤٧	
	١٦	٦٤		الأوسد	٢٢		
بارنصيف لمدينة المنورة	٣٢٦	١٢٢١		المعظم	١٧	١٣٠٢	
				خشم صنع	٣١		
				الدار الحمراء	٢٧		
				المطلع	٢٤		
				أبو طاقتة	١٤		
				المرحوم	١٢		
				الحجر	٢٥		
				العدا	٢٥		
				سهل المطران	٥٤		
				البئر الجديد	٣٨		
				هدية	٦١		
				إصطبر عنتر	٥٦		
				أبارنصيف	٣٩		
				المدينة المنورة	٧٤		
				طول المسافة	=		



القطار على خط الحجاز ١٩٠٩



الحجاج العائدون في عربات مكشوفة ١٩٠٩



جنود الثورة العربية الكبرى
١٩١٧



جنود الثورة العربية الكبرى
في العقبة ١٩١٧



مبايعة الشريف حسين خليفة للمسلمين
في شونة نمرين (شرق الأردن)
١٩٢٤



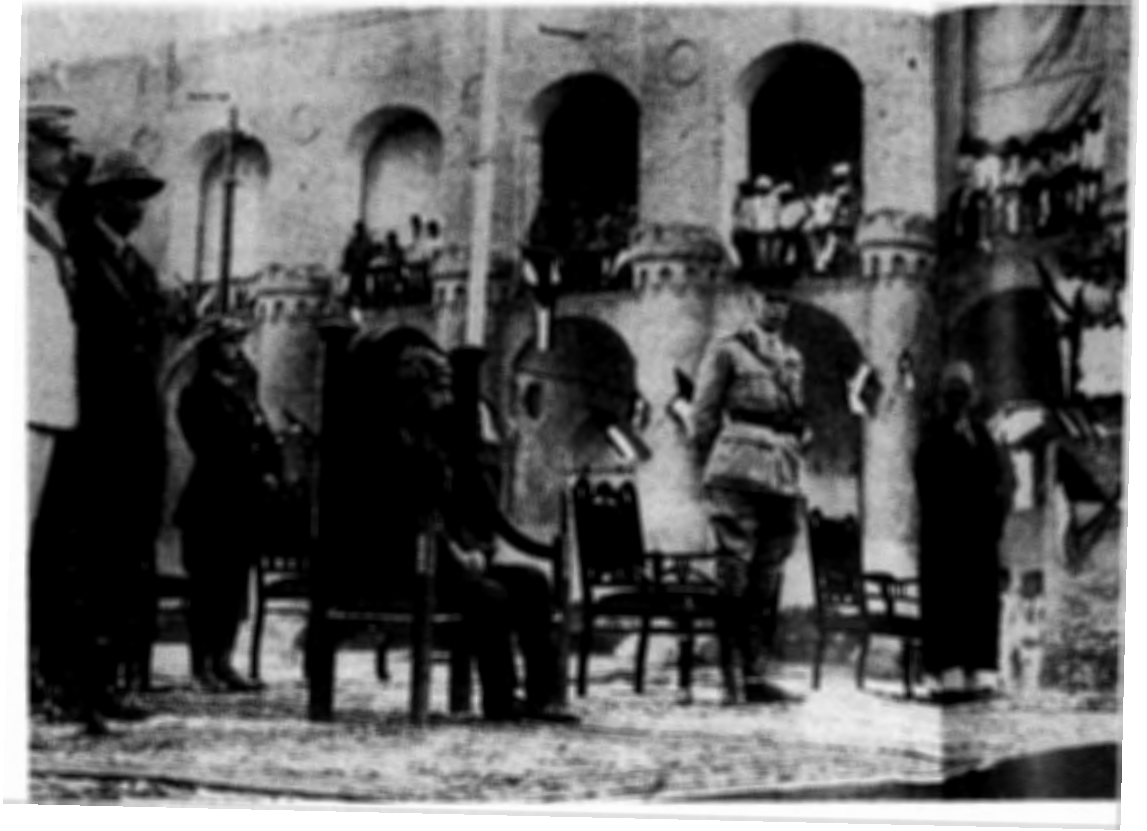
الأمير عبدالله بن حسين مع ونستن تشرشل وزير المستعمرات البريطانية وزوجته
في القدس ١٩٢١



الأمير عبدالله بن حسين
أمير شرق الأردن ١٩٢١ - ١٩٤٧
ملك المملكة الأردنية الهاشمية ١٩٤٧ - ١٩٥١



الملك فيصل الأول - ملك سورية (١٩١٩ - ١٩٢٠)
مع الحاج أمين الحسيني



تنصيب الأمير فيصل بن حسين ملكاً على العراق ٢٣ آب ١٩٢١ . من الشمال
إلى اليمين: السير برسي كوكس المندوب السامي البريطاني، تحسين قادري
مرافق الملك فيصل، الملك فيصل جالساً أثناء الاحتفال، السير آمار هالدين
قائد القوات البريطانية في العراق، السيد حسين افنان .



الملك غازي (١٩٣٣ - ١٩٣٩)